

www.ibtesama.com/vb
مجلة الابتسامة
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة
أَلِكْسِياد
للمؤرخة اليونانية الأميرة أنَّا كومنينا
** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
ترجمة: حسن حبشي
640
www.ibtesama.com/vb



المشروع القومى للترجمة

ألكسياد

للمؤرخة اليونانية الأميرة: أنّا كومنينا

ترجمـــــة : حسن حبشى

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٤٠
- كتاب ألكسياد
- الأميرة أنَّا كومنينا
- حسن حبشى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

The Alexiad

Of

Anna Comnena

(ترجمة عن الإنجليزية مع مراجعتها على النص اليونانى)

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084.

المحتويات

مُقدِّمة المترجم

كان اليوم هو السبت أول ديسمبر من عام ١١٠٨م (جمادى الأولى ٥٠٢هـ) وهو من أيام الشتاء قارسة البرودة فى مدينة بيزنطة عاصمة أكبر إمبراطورية مسيحية فى العالم يوم ذاك، وكانت السماء مُضبَّبة الأفق من كثافة السحب الدكناء التى يزاحم بعضُها بعضًا، كما تراكم بعضُها فوق بعضٍ فَحَجَبتْ كلَّ شىء عن الأنظار وأنذرت بوابل هتان من المطر الغزير، وكانت الرياح تعول وتزمجر، وتهب بين آونة وأخرى هوجاء فتحمل موجةً عاتية من البرد اللاذع ، وترتفع الأمواج فى البسفور - على ضِيق مجراه نسبيًا - فكانت كل هذه الظواهر الطبيعية مجتمعةً تبعث فى النفس رهبة موحشة.

وكان القصر الإمبراطورى الكبير ينهض شامخًا يبعث فى النفوس رهبة وإكبارًا، وقد وقف الحراس على أبواب حجراته الكثيرة لا تطرف لهم عين ولا يتحركون كأنَّهم خُشب مسندة، وإن كانوا جميعًا واعينَ لكلّ نأمة وكانوا كلهم آذانًا مصغية.

كان رب القصر وصاحبه " ألكسيوس كومنين " غائبًا عنه وعن بيزنطة ذاتها فى حملة شنها على إقليم " كاستوريا " يحارب النورمنديين ومن معهم ممن لفّ لفُّهم وأزمعوا أن يكونوا شوكة تقضّ مضجع هذه الإمبراطورية وهذا الإمبراطور بالذات، مما حَمَلَه على الخروج لدَفْع شرور هؤلاء الأعداء والقضاء عليهم وإراحة بال الروم منهم.

كان القصر فى هذه اللحظة بالذات يموج بالغادين والرائحين من أهله رجالاً ونساءً، وكان عُماله وخدمه قد ران عليهم الصمت الذى يشوبه ما لا يخفى على أحد، وهو صمتٌ حَذِرٍ ألجْمَ ألسنةَ الجميع وشدّ نواظرهم إلى حجرة معينة فى هذا البناء الضخم الذى كان كل شىء فيه يتنفس بالسكون الممل، وينطق بالقلق المريب الذى ارتسمت دلائله على الوجوه، فما من طلعةٍ إلاّ وقد عَلَتْها الحيرة وارتسمت فيها

التساؤلات التى لا تجد جوابًا ولكنها ترتقب إجابةً عمّا يجول فى شتى الأذهان، ولابد أن يجيء هذا الجواب من تلك الحجرة التى رَقَدتْ فيها الإمبراطورة إيرين التى توشك أنْ تضع أوّلَ مَولودٍ لَها ولزوجها " ألكسيوس ".

وكان هناك فى هذا الركن أو ذاك وصيفات القصر وَعَذْراَواته الجميلات يرفلن فى أثوابهن الجميلة الغالية الموشّاة بالذهب والجواهر الثمينة، وفى عيونهن نظرات حائرة وقد تقاربت رءوس بعضهن من بعض، ورحن يتهامسن فيما بينهن وقد شخصت منهن الأبصار نحو حجرة الولادة التى يسمونها بالـ Porphgen -atus والتى أُسْدِلَت على أبوابها ونوافذها السجف القرمزية والستائر الأرجوانية، ولم يكن يُؤذَن بدخول هذه الغرفة إلاّ لبنات معينات من أقارب ربّ الدار وعظيم الإمبراطورية ألكسيوس وزوجته الإمبراطورة الشابة الجميلة " إيرين " التى كانت فى هذه اللحظات بالذات راقدة فى فراشها تعانى آلام المخاض التى تعاودها بين لحظة وأخرى فتصرخ صرخات عالية، وقد يتجاوز هذا الصريخ جوانب الحجرة فتسمعه الوصيفات فلا يَمْلِكْن حياله إلاّ أن يكتمن أنفاسهن، وإلاّ أنْ يرفعن أكف الضراعة إلى السماء سائلات الله والقديسين أن يخفف عن مولاتهن " إيرين " آلام الوضع، وأن تنتهى تجربتها التى تخوضها كما خاضتها كل أنثى قبلها وسوف تخوضها كل أنثى غَيرها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

كان الجميع يرجون أن تنتهى هذه التجربة المريرة التى تعقبها فرحة كبرى بخروج نسمةٍ إلى الحياة، سواء أكانت هذه النسمة ذكرًا أم أنثى.

لبثت الوصيفات على هذه الحال وقتًا لا يدرين مداه ولا ماذا ينتهى إليه لُبْثُهُنّ الذى طال. وكانت تساورهن خواطر جمة، وما كان لواحدة منهن أن تفصح باللسان عما تشعر به من قلق يزداد لحظة بعد أخرى، وكنّ يقاسين هن الأخريات جزعًا يرمضهن، ولو حاولت إحداهن أن تفصح عما تحسه أو ماذا يجول بخاطرها وما ترجوه لأعجزها اللسان ولم تدرِ ماذا تقول، ولكنهنّ جميعًا كن متلهفات لما يئول إليه وَضْعُ الإمبراطورة الشابة " إيرين " التى كانت يومذاك فى السادسة عشرة من عمرها أو ربما جاوزتها ولكن بقليل من الشهور.

وبينما هن على هذه الصورة وتلك الحال من الاضطراب والقلق والترقُّب والخوف المشوب بالحذر، وبينما هن يتضرعن إلى الله أن يخفف عن الراقدة فى فراشها إذًا بامرأة فارعة الطول قوية البنية عبلة الذراعين عليها سمةُ القابلات تطلع عليهن من هذه الحجرة لتعلن لهن، فيُعْلِنَّ هن بدورهن أنَّ مولاتهن الإمبراطورة " إيرين " قد أنجبت أول مولودة أنعم بها الرب عليها لتزف الخبر إلى زوجها البطل ألكسيوس الذى أحيا الإمبراطورية بعد الهزيمة النكراء التى لحقت بها فيما يعرف بوقعة " منزيكرت ".

وحينذاك ضجت جوانب القصر المنيف بصيحات الفرح وعَلاَ التهليل ورددت أرجاؤه الفسيحة صدى هتافات السرور تنبعث من حناجرِهِنَّ مبشرة بالمولودة، فخرجن عن سكونهن المصطنع ووقارهن الذى كُنَّ عليه حتى هذه اللحظة، كما ترددت فى القاعة الأرجوانية صرخات الوليدة التى أطلّت على الدنيا فى هذه الساعة المبكرة من صباح ذلك السبت المضب المكفهر الذى هو أول ديسمبر من سنة ١١٠٨م، فدبّت الحركة فى كل ناحية بَعْدَ السكون، كما تمزق حجاب الصمت. وكان مولد هذه الأميرة التى خرجت إلى الوجود منذ ساعة وبعض ساعة قد أضفى على هذا الصباح بهجةً وَفرحة، ولو كانت للحيطان ألسنة لزغردت تحية وسرورا بالوليدة ابنة الإمبراطورين العظيمين.

لقد أطلّت على الوجود هذه الطفلة " أنَّا " والتى سنعرفها ويعرفها التاريخ باسم " أنَّا كومنينا " والتى سميت باسم جدتها لأبيها، وإذ كانت إيرين - فى الغالب - هى التى اختارت لها هذا الاسم فقد دَلَّ هذا العمل من جانبها - واختيارُ هذا الاسم بالذات - على براعتها وفِطْنتها وحنكتها رغم صغر سنها، ففى هذا الاسم استرضاء لزوجها ألكسيوس الذى تعرف فيه إيرين والجميع عظيم حبه لأمه " أنَّا دالاسينا " سليلة بيت دوكاس الإقطاعى الكبير وما له من نفوذ طاغ ومكانة يعرفها جميع أهل بيزنطة على اختلاف مكاناتِهم.

لقد كان فى هذه التسمية استجلاب لمودَّة هذه الأم الكبيرة التى قيل إنها كانت فى البداية غير راضية عن هذا الزواج الذى كان من البيت المنافس لبَيْتها، وقيل إنها ارتضت هذا الزواج على مضض لم يكن خافيًا على " إيرين " التى لم تكن تألُو جهدًا

فى جلب عطف حماتها " أنَّا دالاسينا " وإزالة كل ما قد يكون فى نفسها من محاولة للبعد عنها.

ولما كانت " أنَّا كومنينا " قد ولدت فى قاعة الولادة الملكية الأرجوانية فقد لُقِّبَت منذ هذه اللحظة بأنَّا " بورفيروجناتس "، نسبةً إلى هذه الغرفة.

لقد أطلّت " أنَّا كومنينا " على العالم فى ساعة مبكرة من صباح أول ديسمبر، وكم كانت أمها " إيرين " تود - رغم ما تعانيه من آلام المخاض والوضع - لو تأخّر مولدها حتى يعود ألكسيوس كومنين من حملته فى " كاستوريا " مكللاً بأكاليل النصر وعلى رأسه الغار فتكون الفرحة فرحتين: واحدة بعودته سالما مظفرا، والأخرى باستقبال أول مولودة له؛ أعنى بذلك " أنَّا كومنينا " التى سوف تكون أول سبعة: ثلاثة منهم ذكور وأربع إناث.

سرعان ما عاد الإمبراطور ألكسيوس كومنين وقد قهر المعتدين وأدَّب الخارجين على سلطان بيزنطة، فلما علم بالمولودة اغتبط أيما اغتباط حتى لقد وضع التاج الإمبراطورى فى لحظة نشوة وانفعال عاطفى على مفرق الصغيرة الذى لابد وأنه ناء به فى هذه اللحظة.

لقد وضعه على رأسها ليعرفها الناس وينعتوها بالإمبراطورة وإمبراطورة الرومان. وكان ذلك العمل من جانبه إشارةً صريحة إلى أنها هى التى سوف تخلفه على العرش، وقد يدفعه حبه الشديد لها إلى أن يجعلها شَريكةً له فى الحكم فى حياته، ولم يدر هو ولا أمها ولا الرضيعة ما سوف تتمخض عنه السنون بعد قليل، فعِلْمُ ذلك عند الله، فقد جرت الأحداث بما لم يكن متوقعا.

هكذا كان مولد طفلتنا الصغيرة " أنَّا كومنينا " التى تتقدم بها السنون وتنال حظا كبيراً من العلم والثقافة والتجربة فتصبح مؤرخة وأديبة وشاعرة وأُما تنجب أربعة أبناء من زوجها الأرستقراطى النبعة والمحارب الكبير والأديب المؤرخ " نقفور برينياس " حفيد جده وسميّه الذى يحمل نفس الاسم والذى سعى سعيًا حثيثا إلى أن يكون له التاج خالصًا فكانت حرب بينه وبين من أنكروه عليه.

كان نقفور برينياس الصغير زوجا لأنَّا كومنينا التى كانت إذا ذكرته فى تاريخها اكتفت في كثير من الأحيان بأن تَنْعته بقيصر أو بقيصرى، ولم يكن لقب " قيصر " يخلع عادةً فى هذه الفترة بالذات إلا على من تصاهره السدّة الحاكمة أو يكون قد أدّى من الخدمات للدولة البيزنطية ما يستأهل معه الإشادة بذكره وتكريمه.

على أن تلقيب هذا الزوج بقيصر لمْ يكن صادرًا عن فراغ، ولم يكن سوى تكريم من الإمبراطور لأقَى أهله، وتعظيمٍ لصاحبنا الشاب رغم أنه حفيد الرجل الذى فرضت الظروف أن يكون خصما له، حتى لقد امتشق الحسام فى وجهه.

لقد ظن الكثيرون أو اعتقدوا – وكانوا مُحقين فى هذا الظن وهذا الاعتقاد – أن الإمبراطور ألكسيوس كان يدخر " برينياس " الصغير لأمر جليل ومكانةٍ ترقى إلى مشاركته العرش، وربما كان الأمر فى هذا راجعًا إلى الأم الإمبراطورة " إيرين " ولكن الليالى من الزمان – كما يقولون – حبالى يلدن كل عجيبة غير متوقعة، وقد برهنت الأحداث سريعا على صحة هذا الفرض.

أما من ناحية مؤرختنا " أنَّا كومنينا " فقد كان القيصر برينياس هو الواحة التى تفىء إلى ظلِّها الوارف الظليل تَتَـقى به نفسيًا أعاصير الأيام والمضايقات ونَكَدَ الخطوب، أو حين يلمّ بها أمر جلل أو تلحقها داهية تعكر صفو حياتها، ويضيق بها صدرها، وكم لقيت من مضايقات وأهوال حتى وسم الحزن كتابتها، وترك جروحًا لم يندمل بعضها على مر الأيام فظلت تمج دما، ويلمحه القارئ فى كثير من صفحات كتابها، فقد أبت الحياةُ إلا أن تذيقها تعاسة الروح حين سلبت منها العرش الذى كانت موقنةً بأنها سوف تعتليه وذلك يوم وُلِدَ أخوها جون (أو يوحنا الذى عرف بالثانى) فكان ذلك ضربة قاضية على آمالها التى تَبَدَّدَت هباءً إذ كانت مؤمنة بأنها الوريثة للتاج الرومانى، غير أن ما جرى من نقل التاج إلى أخيها جون أصابها فى مقتل فصبغت الأيام والآلام حياتها – يافعةً وشابة وأُما – بكل أسود قاتم. على أنّ هذه الأهوال لم تَنَلْ من نشاطها أو تذل من كبريائها حيث انكبت على الدراسة والتأليف ونظم الشعر فأخرجت للفكر بدائعَ أظهرت منزلتها فانتفع بها الناس حتى اليوم، وإن كانت حياتها الذاتية

قاتمة مظلمة، وهل أدل على قتامة حياتها من أن يصفعها الدهر وهى مازالت صبية ؛ إذ حرمها من خطيبها قسطنطين بن ميخائيل السابع وابن مارية الألآنية، فقد كانت مخطوبة له.

ثُم كانت الطعنة الدامية لكبريائها - كما أشرنا - يوم نقل أبوها التاج إلى أخيها يوحنا الثانى الذى صفّق له الناس كما صفقوا لها يوم توجت، فقد شـايعه الأكثرون لا سيما بعد موت أبيهما، فحزنت وأحست بغربة الروح التى هى أقسى من غربة البدن، وحينذاك انفض عنها - كما تقول - أصدقاؤها القدماء مما زاد فى عمق جراحها النفسية، وإنا لنسمعها - وقد بلغت الخمسين من عمرها - تقسم أنها ظلت ثلاثين سنة لم تطالع وجه أحد منْ معارف أبيها إمّا لموت بعضهم أو لابتعاد الكثيرين عنها مسايرةً منهم لأخيها ولروح السياسة السائدة وخوفًا من ذوى السلطان.

نشأت أنّا كومنينا منذ نعومة أظفارها فى جو يتنفس بالعظمة والأبّهة، فقد ولدت فى حجرة لا يؤذن بأن يولد فيها إلا أولاد الأباطرة والملوك والأقْرَبين منهم، وأحست منذ اللحظة الأولى بالرعاية الكاملة؛ فهى أنّى التفتت وجدت حولها وصيفات القصر وبنات الطبقة العليا فى المجتمع البيزنطى اللائى جرت العادة أن يَعِشْن فترة من الوقت فى القصر ليكُنَّ فى المستقبل وصيفات قد عرفن كل أصول الحياة فى القصر الملكى ومعاملة سيداته وأسلوب التعامل معهن بما هو لائق بهن من الاحترام والتعظيم.

ثم إننا نرى " أنّا كومنينا " فى هذا القصر لا تشير إلى شىء إلاّ بادر الجميع لتلبية إشارتها معتبرين إشارتها أمرًا واجب الطاعة والتنفيذ.

وشَبّت طفلتنا فى قصر أبيها متمتعة بكل مظاهر الترف اللائقة بها، بل المبالغ فيها أحيانًا، فهناك استجابات من الحاشية لمثل من كانت فى وضعها فى قمة ذلك الهرم الاجتماعى الطبقى الكبير، وارتبط هذا كله بأنها ابنة كل من الإمبراطورة " إيرين " والإمبراطور" ألكسيوس " وهما عظيما الدولة اللذان تَخرُّ لهما الجباه لا فى هذا القصر وحده بل فى كافة أرجاء بيزنطة والإمبراطورية المنعوتة بالرومانية فى قسميها الشرقى والغربى وما تملكه فى الشمال الأفريقى، ثم إنها كانت تسمع فى سنواتها الأولى - وهى لا تزال طفلة - هتاف الناس لها وريثة للعرش. ومن هذا كله كانت رقيقة الإحساس، مرهفة المشاعر مما دفعها للوقوع فى مآزق خطيرة فيما بعد، انعكست على

نفسيتها يوم كشفت لها الحياة عن حقيقة الحياة فكانت مأساة طبعتها بطابع ربما أمكن أن يقال في صفته إنه طابع "سوداوى".

كانت " أنًّا كومنينا " شديدة الاعتزاز ببيزنطة وبكل ما هو بيزنطيّ، وزاد ذلك من كبريائها فلم يعد هناك شيء أعلى من بيزنطة فى نظرها، ومن هنا كانت نظرتها لكل الشعوب التى عاصرتها من سلاجقة وفرنجة ونرمان وألمان وأرمن وعرب ومصريين وفرس ومسلمين وكذلك مَن عاصرها من كبار الشخصيات كبابوات رومة فالجميع عندها " متبربرون ".

وقد لاحظ هذه الظاهرة أحد كبار مؤرخى القرن التاسع عشر وأعنى به " شالاندون " المؤرخ الفرنسي الذى اهتم بدراسة تاريخ اليونان، وكذلك العالم الإنجليزى " بيورى " الذى نستدل مما كتبه على أن لفظ " متبربر " تطور فى التاريخ مرتين: أما الأولى فكانت حين أصبح المقصود به مَن لم يكن " إغريقيا "، وأما الأخرى فحين أصبح المنعوت بهذا اللفظ " الهمج " حتى ولو كانوا من المتحضرين. وتنعكس هذه الفكرة واضحة فى كتابات المؤرخ البيزنطى المتأخر خونياتس حينَ يتكلم عن استيلاء الصليبيين على القسطنطينية عام ١٢٠٤م فقال إنه: " لا مناص له من أن يلقى القلم من يده ويكف عن تدوين التاريخ الذى هو أعظم ما ابتدعه العقل الهيلينى لأنه لا ينبغى أن يستعمل القلم فى تدوين تاريخ أعمال " البرابرة "، وإن كان يعنى بذلك اللاتين.

وقد انصبّت هذه النزعة من التفاخر والكبرياء الإغريقى والتباهى ببيزنطة عند مؤرختنا " أنًّا كومنينا " فكان إعجابها العظيم بوالدها الذى كان محور كتابها " ألكسياد " الذى نترجمه إلى العربية كاملاً لأول مرة، فوالدها كما تقول هى عنه: "هو عظيم الدولة وكبيرها الذى لا ينازعه فى ذلك منازع ". فإن فكر أحد فى منازعته كان خارجًا عن الطريق السوى، وكان فرض عين على الإمبراطورية وقواها وآلياتها من مدنيّة وعسكرية ودينية أن تقف ضد هذا الخارج، لأن أباها " البيزنطى " هو – فى نظرها – " المختار من الرب " وهو " نائب الرب على الأرض " وهو "المتفرد" بلقب الإمبراطور وهو "المولى الأعظم" الذى هو فى الإمبراطورية الرومانية " القائد الأعلى والمشرع الأكبر".

كانت نظرة الكبرياء القومى والتعصب البيزنطى هى التى دفعت " أنَّا كومنينا " ألاَّ ترى أى شذوذ أو خروج على الحق أن يقسم " هيج " أخو الملك الفرنسى يمين الولاء والتبعية لألكسيوس وهى " اليمين التى اعتاد اللاتين قطعها على أنفسهم "، ولذلك فهى تنظر إلى أبيها على أنه ممثل لكل ما تعنيه بيزنطة وما فيه مجدها، وأنه الرجل الذى يَدَّخره الخالق لأمر جليل حتى تسترد القوةُ الرومانية مجدها وقوتها على يديه؛ فهو يفتح من البلاد ما يفتح تعظيما لمجد هذه الإمبراطورية ومكانتها، كما أنها لا ترى فى أى عمل يعمله إلا ما يستحق الثناء والإشادة؛ لأن هذا العمل منه دليل على " رحمته وعطفه وشجاعته وحسن تدبيره وجرأته ". هكذا كانت بيزنطة على هذه الصورة فى بؤرة شعور المؤلفة " أنَّا " وهى لا تدرى.

ونحن حين نجلس إلى "أنَّا كومنينا" إنما نجلس إلى مؤرخة بالغة الذكاء، لماحة البصيرة، تدرك ما يرمى إليه المتحدث سواء أكان حديثه إليها أم إلى غيرها، وربما ورثت هذه الصفة منْ جَدَّتها لأبيها " أنَّا دالاسينا ".

كذلك كانت مؤرختنا - إلى جانب هذا - ذات شفافية طُبعتْ عليها، كما أُشْرِب قلبها الرحمة على الجميع حتى على من تعده خصما لَدُودا لأبيها، وربما كان هذا الخصم يريد بوالدها شرا ثم أنجاه الله منه، وسيتجلى هذا الجانب حين رأت أحد المتآمرين على أبيها - واسمه " ميخائيل " - يساق إلى هلاكه على أقبح صورة فجرت عبراتها على وجنتيها وراحت تلتمس العفو عنه بوسيلة أو بأخرى. ويخيل إلينا أن عطفها على هذا الشخص إنما يرجع إلى نظرتها الخاصة فى إجلالها لكل من هو كريم الأصل، وربما ورثت عنْ أبيها ألكسيوس هذه النزعة؛ فقد عفا أكثر من مرة عن بعض من ناصبوه العداء وتآمروا عليه مثل " أورسيليوس ". ثم إننا لا نرى أنها تُحَمِّل أباها تهمة سَمْل عينى نقفور بريناس " الكبير " لشرفِ أصلْه، بل تلقى التهمة على رسل خصمه " بوتنياتس ".

كذلك طُبعت نفس " أنَّا كومنينا " على الحب الذى كانت تحسه نحو أبيها وجدتها وأخواتها وأخيها أندرونيكوس على وجه الخصوص، تشعر به كذلك لمن كان مقررا أن يرتبط بها برباط الزوجية، وهو قسطنطين دوكاس بن ميخائيل السابع ومارية "الألآنية

"، وكذلك لمن ارتبطت به فعلاً وأعنى به زوجها و " قيصرها " حتى وافته منيته بعد حملة شارك فيها أباها فى آسيا الصغرى.

ثقافتهـا

لقد أصابت " أنَّا كومنينا " حظا وفيرا من الثقافة الرفيعة، فنرى كثيراً من الأمارات التى تدل صراحة على أنها قرأت قراءة المتأمل المستوعب أشعار هوميروس، ونظرت فيما كتبه بلوتارك وأرسطو، وعرفت أفلاطون فى مؤلفاته وأعماله الفكرية المتعددة، هذا إلى جانب مداومتها قراءة الإنجيل، وهى قراءة ساعدتها عليها ونَمَّتها فيها أمُّها " إيرْين "، ويتجلى لنا هذا الجانب عندها فى اقتباساتها العدة من الكتب المقدسة. على أنها لشدة إيمانها كانت تحاول تفسير بعض الأحداث بأنها معجزات، ومن الأمثلة على ذلك مَا نطالعه حين تصف ما أحاط بحَرق " بازيل " الهرطيق البوجومولى. ويجب أن نتذكر على الدوام أن الكثيرين من أهل العصر – عامتهم وخاصتهم – كانوا على جانب كبير من السذاجة الفكرية حملتهم على أن يعزوا العديد من الظواهر والأحداث الطبيعية التى قد تكون فوق مستوى تفكيرهم إلى قوى خَفيَّة، حتى لقد اعتقدوا أن لبعض الأحجار أثرها فى هذا المجال وفيما قد يصيب الإنسان من خير أو شر، ونطالع تفسير ذلك بوضوح فى كتب البعض، حيث ينسب إلى تلك الأحجار ما يدْخل فى باب الغيبيات، ولم تكنْ أنَّا كومنينا " بالتى تشذ عن روح العصر. ومن ثم فلا عجب أن تكون "أنَّا كومنينا " تؤمن بالغيبيات رغم أن مولدها بالقصر كان قد أتاح لها فرصةً طيبة لنيل قسط من الثقافة والمعرفة فى ميادين عدة كالجغرافيا والهندسة بل والطب وإن كان هذا القسط على استحياء.

على أن أكبر ما تولعت به هو علم التاريخ؛ فاختصته باهتمامها وعنايتها اختصاصًا تمثل فى هذا الكتاب الذى يطالع القارئ ترجمته العربية الآن، والذى نستفيد منه أنها كانت ملمة إلمامًا طيبًا بالتاريخ الرومانى القديم، ويترجم عن ذلك كثرة إشاراتها إلى طائفة من رجاله وأبطاله ومن كانت لهم أدوار سلبية وإيجابية، فنراها تبرر ما فعله أبوها منْ مصادرته بعض متعلقات الكنائس للاستعانة بثمنها فى تغطية

بعض النفقات الحربية ضد النرمان، وهو تبرير يكاد يكون نفس التبرير الذى قدمه بعضهم حين أشار إلى الظروف التى يجتازها الأثينيون فى فترة معينة اضطروا فيها إلى الاستيلاء قسراً على الذهب والفضة والأدوات المقدسة الموجودة فى المعابد والهياكل ثم ردوها بعد انتهاء الحرب. وقد حدث مثل هذا فى العصر المملوكى زمن برقوق فى محاربة مصر لبعض الدول المناوئة لها.

على أنه يبدو أن مداومة نظر مؤرختنا فى سِيَر القدماء قد جعلتها تخلط بين البعض والبعض الآخر مما يُفْصِح أنها كانت تعتمد على الذاكرة فى بعض الأحيان فتخونها تلك الذاكرة.

لكن إذا عرضنا لها كمؤرخة قلنا إنه ليس من شك فى أنّ حياة البلاط بما فيها من ترف وثراء وأبهة وبلهنية، وما تزخر به من سفارات وافدة وأخرى صادرة، وما تحفل به من وجود شخصيات كبيرة فى القصر الإمبراطورى والمترددين عليه من رجال الحرب والسياسة وكبار موظفى الدولة وأعضاء السينيت ورجال الدين إلى أمثالهم ممن يعرفون خبايا الأمور والأحداث ويركبون مركب السياسة وساروا بها فى لجها العاصف والواقفين على أسرارها التى تغيب عن الكثير – قد أتاح ذلك لأنا كومنينا فرصة الوقوف على العديد من أحداث الوقت لا سيما فيما يتعلق ببيزنطة وألكسيوس ورجال البلاط ونسائه وتحركات الجيش وما يلقاه من نصر وهزيمة، ووجودِ حركاتٍ تحررية ـ إنْ جاز هذا اللفظ فى مثل هذا الوقت – ولعل الأصح نعتها بأنها حركات تمرد وكلها فى ميادين السياسة والدين، وما كان هناك من رجال كانوا دعاةَ هرطقةٍ وزندقة وما حَفل به المجتمع من أهل النفاق ككل مجتمع فى القديم والحديث، وقد انعكس ذلك فى كتاب " الألكسياد " وإن جاء فى مواضع متفرقة منه. وقد يجيء هذا الخبر أو ذلك فى فقرات قصيرة كأنها رءوس أقلام بيد أنها تحمل فى كلماتها القلائل وسطورها القصيرة تاريخا كبيرا وتكشف النقاب عنْ أمور لم تكن تخطر ببال، ولذلك حُقَّ أن يقال فيها إنها "شاهد عيان".

لكن إذا جمعنا شتات هذه الأحداث صغيرها وكبيرها، تافهها وجليلها، وضممنا بعضها إلى بعض استطعنا أن نكوّن منها صورةً صادقة إلى حد ما، وذات قيمة

تميط اللثام عما كان يجرى فى الداخل والخارج على السواء، وحينذاك يمكننا الوقوف على آليات العصر والحياة فى شتى نواحيها. ونجىء إلى مصادر الألكسياد فنقول إننا نستطيع أن نقسم مصادره إلى مكتوبة ومسموعة، وما كان منها رواية شفاهية ومشهودة سواء كانت هى نفسها التى شاهدتها أو شاهدها غيرها وقَصُّوها عليها، ولعل على رأس هؤلاء الآخرين أبوها وأمها إيرين وجدتها لأمها " أنا دا لاسينا " فهى حين تعرض لخبر مولدها تشير إلى أنها سمعت الكثير عنه من أمها ومن أبيها ومن زوج خالتها " جورج بالايولوجس " ومن رجال لا زالوا على قيد الحياة فى يومها وحدّثوها عن ذلك.

ثم هناك زوجها نقفور برينيس أو قيصر الذى لازم أباها فى مواقف غابتْ هى عنها فنقل لها قيصرها ما سمعه وما شاهده ورآه رأى العين، وهى وإن كانت قد غابت عن بعض الأحداث إلا إن من شاهدوها أو شاركوا فيها وعوها فقصُّوها على من لم يشاهدها ومنهم " أنَّا " ذاتها وكان لمثل هؤلاء الصدارة فى الرواية، فأدرجت " أنَّا كومنينا " فى كتابها " الألكسياد "الحقائق مجردة لم تستر منها شيئا، وكانت كما قالتْ: لا تخفى شيئا ولا تضيف شيئا من عندها مما يصل إلى سمعها وعلمها ويقصّه الآخرون عليها.

كذلك أخذت أنَّا كومنينا بعض رواياتها عن نساء كالإمبراطورة مارية الألأنية التى نعرف أن مؤرختنا عاشت ردحا من الوقت معها والتى كان من المفروض أن تصير كَنَّتها يوم كانت أنَّا صغيرة مخطوبة لولدها قسطنطين " الأشقر"، كما أنها أخذت ممن لازال أولادهم وأحفادهم على قيد الحياة.

كذلك أخذت من أبيها ذاته وهى تذكر أن دائرة هؤلاء الأشخاص اتسعت حتى إنها استمدت بعض الأخبار التى تضمنها عملها الأدبى التاريخى هذا من سفير لاتينى كان أسقف " بارى " قد أرسله إلى روبرت جيسكارد النرمندى وذكر له الأسقف خبر ما شاهده بعينى رأسه مما يتعلق بالحملة النرمندية على " دورازو ".

وتصرح أنَّا كومنينا أن هذا الشخص صرح لها عن هذه الحملة بالشىء الكثير، فأودعت هى فى " الألكسياد " ما حدثها به مما يعد مصدرا أصليا لهذه التجريدة

الحربية، وكان ما أودعته بصددها جديداً كل الجدة كبير الخطورة، ويزيد فى خطورته أن ما فيه – أو الكثير منه – قد أغفلته المصادر المتوفرة بين أيدينا.

بل إنها استمدت بعض أخبارها ممن تثق بهم وتعرف على وَجْه التأكيد أنهم كانوا شهود عيان لحدث معين فكان ممن تَلَقَّفَتْ أخبارها منهم " بعض التجار بل وربابنة السفن الذين طرق سمعهم ما كان يرويه القادمون من ساحات المعارك التى شاركوا فيها ". وهى تصف كل ذلك كله وتقول: " لقد جمعت مادتى من كتابات فارغة منْ المحسنات اللفظية الأدبية ومن أفواه العسكريين الذين كانوا يعملون فى الجيش وقت أنْ كان أبى على العرش وبيده الحكم، كما أنى اعتمدت على الأخبار التى أوردها رواتها القدماء فاستخلصت ما تضَمَّنه تاريخى من بيانات صادقة، أو قارنْتُ رواياتهم بما كُتب وبما سمعته بنفسى لا سيما من أبى وأقارب أمى وأخوالى".

إن هذا كله يفسر لنا قولها إنه مازال هناك رجال على قيد الحياة عرفوا أباها وحدثوها عن أعماله كما ساهموا هم بقسط غير ضئيل فى التاريخ، فمنهم من راح يروى ويتذكّر أدَق ما وعته الذاكرة عن هذه الحقبة. ومنهم من أخبرها بشىء غير الذى قاله هؤلاء جميعا، ولم يكن فى رواياتهم تفاوت أو تناقض، ومعنى هذا كله أن كتابها هذا جمع الكثير والكثير من روايات شهود العيان وَصنُّاع الأحداث ذاتها الذين ساهموا بقدر ما فى سير هذه الأمور التى يروى كل منهم طرفا من أخبارها، ثم تشير هى إليها فى الألكسياد.

وإذا نظرنا إلى جانب من أحداث الجيوش الصليبية فى الحملة الأولى منذ وصولها إلى القسطنطينية نجد أن أخبارها كانت تصل إلى الجالس على العرش بالذات من " تاتيكيوس "قائد القوات التى أرسلتها بيزنطة " لمراقبة " الصليبيين تحت ستار " المعاونة " العسكرية البشرية ولذلك نرى أنه لما غاب هذا القائد عن ساحة الأحداث التالية غابت الدقة عند " أنًّا كومنينا " خاصّةً فى سرد أخبار الحملة فى بعض نواحى الشام لا سيما الأخبار المتأخرة.

إن المطالع لكتاب ألكسياد يرى أنّ صاحبته استعرضت هذه الحملة فى بعض مراحلها: موجزةً أحيانا ومفصلة أحيانا أخرى بقدر ما كان لها من صلة ببيزنطة،

فقوردت مثلاً قدرا مهماً عن تجريدة بوهيموند بن روبرت جيسكارد مثلاً حتى بلوغها إنطاكية، وليس من شك فى أنّ " أنّا كومنينا " كانت تعتمد على ما يذكره "تاتيكيوس" مرة بعد أخرى وما يرويه لأبيها، فلما انقطع حديث هذا القائد أحسَسْنا ضآلة المعلومات التى تنطوى عليها المادة التى تقدمها لنا المؤلفة عن هذا الموضوع وعن هذه الحرب التى كان والدها منغمساً فيها انغماساً كبيراً من حيث تدبير الخطوات الهامة التى تتعلق بقدوم الصليبيين ووصولهم إلى الأراضى البيزنطية ، كما سيجد القارئ مراجع عديدة لهذه الفترة ودراسات جمة ظهرت فى أوقات مختلفة تشتمل على نظرات خاصة ودقيقة حتى انتخاب " جود فروى دى بويون " ملكًا على بيت المقدس أو حاميا للقبر المقدس.

وتزودنا صفحات الألكسياد بصور شتى وأخبار جمة عن كثير من القوى ومراكز الثقل الدينيّة والعقائدية والمذاهب والطوائف والملل والشعوب التى احتكت بها الإمبراطورية البيزنطية إنْ سلما وإن حربا، ولا شك أن فريقا كبيرا ممن تطالعنا أسماؤهم هم من جماعات الأكليروس ورجال الدين المسيحي والرهبان ورجال السياسة، ولعل أشد ما يجذب الأنظار من رجال الفريق الأول هم البابوات فى رومة، لكن يلاحظ أن " أنّا كومنينا " لم "تُسَمِ " أحدا من البابوات باسمه وإن كنا نستطيع أن نعرف من تقصدهُ منهم، ونفسر هذا بكراهيتها للكنيسة الغربية ورجالها وهى كراهية نشأت منذ القرن الرابع للميلاد حين لم يعد سرا ما هو واقع بين الكنيستين الشرقية والغربية من إِحَنٍ ومنازعات زادت حدتها بانشقاق ١٠٥٤م الذى سبق مولد مؤلفتنا بما يقرب من خمسين سنةً، وتتجلى هذه الروح من البغضاء حين تصف الجالس على كرسى بطرس (وهو جريجورى السابع) بما يقدح فى مصداقيته حتى لتعده " أنا كومنينا " متبربراً " وترميه بالطبع الذى لا ينبغى أن يكون فيمن يكون فى مثل مكانته ووضعه الدينى والذى يجعله فى مرتبة " الحاكم الدنيوى " فهى لا تتورع عن اتهامه بسطحية التفكير والسذاجة إذْ يصدّق زعم النرمنديين بأن ألكسيوس يصطنع " الوثنيين " فى محاربة المسيحيين.

والملاحظ أنها لم تُسَمِّ قط فى كتابها أيّاً من البابوات الذين عاصروا أباها وكان لهم ضلع فى بعض الأحداث منذ تولى ألكسيوس العرش حتى وافته منيته سنة ١١١٨،

بل إنها حين تناولت الحرب الصليبية الأولى لم تشر أبدًا إلى إيربان الثانى (١٠٨٨ – ١٠٩٩) رغم الدور الكبير الذى لعبه فى هذه الفترة وما نجم عنه من آثار امتدت أكثر من قرنين منْ الزمان، فكيف نعلل سكوتها هذا وعدم ذكر أى بابا من بابوات هذه الفترة ... ؟ تُرى أكان إغفالها إياهم جهلاً منها بهم ؟ ... إن الرد على ذلك بالنفى، فهى عالمة بأسمائهم وبأسماء الكثيرين ممن ظهروا على مسرح السياسة العالميّة حتى ولو لم يكونوا ذوى أثر فعال فى الأحداث المرتبطة ببيزنطة وبالمسيحية الشرقية فى سنوات بابويتهم.

لكن الرد على هذا التساؤل الناجم عن سكوتها المريب هو أنها كانت كارهة لكل ما هو غربى، لا سيما فى الناحية المذهبية المعارضة تمام المعارضة للمذهب الشّرقى وأعنى به المذهب الأرثوذكسى، لكن ما كان ينبغى لمثل هذه الكراهية أن تطوى أعمالهم فى كتاب مثل تاريخها هذا.

لقد كان عجيبًا منها أن تهمل الإشارة إلى رجل مثل إيربان الثانى أو إلى البابا بسكال الثانى الذى تابَع بعد سلفه المفاوضات مع الإمبراطور ألكسيوس رجاء الوحدة الدينية أو المذهبية بين كنيستى رومة وبيزنطة.

ثم كيف نفسر إهمالها اتصال ألكسيوس كومنين الأول نفسه – عن طريق مبعوثيه – بإيربان الثانى سنة ١٠٩٥م وهو فى مؤتمر " بياتشنزا " Piacinza ليسنده فى محاربته السلاجقة وفى رد عاديتهم.

إذا خلينا البابوية جانبًا نجد أنّ رجال الدين الأرثوذكسى فى بيزنطة كانوا – كما تُصورهم " أنّا " فى كتابها ألكسياد – مجرد دُمى تحركها الحكومة وأصبحوا فى خدمة الدولة ولكنها – وهم فى مواضعهم هذه – تشير إلى أن الإمبراطور كان يوظف الأكليروس والرهبان لتأييد دعواه فى الدعاء للدولة، بل إن مؤلفتنا تصرح أن مهمة هؤلاء الرجال – إذا خلينا جانبًا عملهم الدينى – هى تأييد الإمبراطور الذى لا يضن حتى بالكثير يزودهم به وما يُغْدِقه عليهم إلى جانب ما يزودهم به – من ناحية أخرى – بالمنشدين والمنشدات، كما أن الإمبراطور كان يضفى على كبارهم من مظاهر التقدير ما يبعدهم عن وظائفهم الأصلية، فنرى المؤلفة تذكر لنا أنه اتخذ ثلاثة من أقطاب

الرهبان شهودا على الاتفاقية التى عقدت بينه وبين بوهيموند. وإزاء هذه الخدمات التى يؤديها رجال الإنكليز للإمبراطور فإنه كان يأذن لهم بإقامة أديرة جديدة، كما إن الأديرة كانت تتخذ من جانب السلطة العليا شبه مساكن ودور معيشة لبعض كبار الشخصيات، فنجد أن مارية أم إيرين تقيم فى واحد منها، وينزل بوهيموند فى واحد من هذه الأديرة كضيف على الإمبراطور، ولم تعلق " أنَّا كومنينا " فى الوقت ذاته على هذا الأمر أو تعقّب على هذا السلوك إزاء رجال الدين والمؤسسات الدينية مما يدل على قبولها هذا الوضع الذى ربما كان فى نظر البعض غريبا أو شبه غريب. وتمدّنا " أنا كومنينا " فى الوقت ذاته بأسماء بعض الأديرة التى ترجع شهرة بعضها إلى رجال ونساء دفنوا بها أو كانت لهم أضرحة ومزارات بداخلها. وقد كانت لهذه الأديرة نظمها الخاصة التى تبلغ مبلغا من الغرابة فى بعض الأحيان فمنها من إذا تمكن مَنْ أجرموا مِنْ دخولها ولاذوا بها صاروا آمنين فلا تمتد إليهم يد القانون أو العقاب أو يصيبهم أحد بسوء، ولا يحق لأحد مهما كانت مكانته أن ينزل بهم أى أذى، وكانت أبواب هذه الأديرة ذات الخصوصية مفتوحة حتى للنسوة حتى ولو كن من البيوت الرفيعة وثرن على الإمبراطور.

على هذه الصورة ترسم لنا " أنا كومنينا " الإطار العام للهياكل الروحية.

وما دمنا فى معرض التعرض لرجال الدين ومن فى عدادهم فإننا نشير إلى أننا نصادف – فى بعض صفحات الكتاب الذى نقدمه فى حلته العربية – ورود كلمات الترك والشرقيين والإسماعيليين والعرب ويُقْصد بها كلها الجماعات الإسلامية، وتدل فى كثير من الأحيان على جهل إذ تخلط بين بعض هذه الجماعات والبعض الآخر، ويبدو أنها كانت عارفة بهذا النقص من جانبها فلم تتعرض للإسلام كدين ولكنها تعرضت لبعض رجال " مسلمين " من أمم شتى ارتكبوا موبقات ليست قاصرة على رجال معينين أو على أهل عصر معين بذاته، ذلك لأنهم موجودون على مدى التاريخ لا يختص بهم عصر بذاته. ولقد أدرك هذا الاتجاه مؤرخ عهد كومنين فى القرن التاسع عشر وهو " شالاندون " فقرر صراحة: " أن الإغريق الذين يتكلمون بمثل هذه اللهجة عن الإسلام لا يعرفون جوهره"، وهكذا كفانا هذا المؤرخ الفرنسى مهمة تفنيد

ودَحْض ما فى بعض الكتابات البيزنطية من سوء فهم أو عدم فهم صحيح للعقيدة الإسلامية أو تعمّد للنيل من الإسلام.

على أن ذلك لم يمنع المؤلفة من أن تستعمل ألفاظا عربية أو تركية الأصول، وإنّ ورود هذه الكلمات الدخيلة وإن كانت عربية مثل Kale ..." أى القلعة " فيما كتبته مؤرختنا يدل على زحف للأثر العربى والشرق الإسلامى على الحياة الغربية النرمندية واللاتينية واليونانية كما نشاهده فى بلاط نرمنديا، وهذا أمر طبيعى أن تتسرب كلمات من كل جانب إلى الجانب الآخر بلفظها أو تتسرب محرفة، كما أن الأثر السلجوقى المدنى ظهر فى كثير من البلاد المسيحية وهذا ما يقرره أحد المؤلفين الجغرافيين الكبار حين وضع أطلسه الجغرافى.

وننتقل إلى ناحية أخرى هى موقف أنا كومنينا من الطوائف والمذاهب المسيحية وغير المسيحية التى ظهرت فى بيزنطة فنراها أخذتها أخذا عنيفا، كما فى كلامها عن المانوية الهراطقة الذينَ لم تكن الدولة بآلياتها المختلفة تتأخر عن التنكيل بهم ولو بإحراقهم بالنار حتى الموت كما حدث إزاء "بوجوميل" الذى كانت تعاليمه " تفسد الجسم والروح معًا " كما تقول " المؤلفة " وكانت تعد الأفكار البوجوميلية مساوية لعقائد الأرمن واليعاقبة ".

لقد ترجمت ما بين يدى القارئ عن ترجمتين إنجليزيتين للألكسياد أما إحداهما فهى نسخة إليزابيث داوس Daws وأما الترجمة الأخرى فللأستاذ سوتر Sewter .

وقد قارنت بين الترجمتين الإنجليزيتين وأثبتّ فى الحواشى ما بينهما من اختلاف أو تفسير ولم أعلق كثيرا على ما فى هذه الاختلافات من أمور قد تبدو غريبة وإنما كان همّى أن يخرج هذا الكتاب إلى العربية صحيحاً بقدر الإمكان، ونرجو من الله التوفيق.

مقدمة مؤلفة الكتاب

الأميرة اليونانية أنَّا كومنينا

ابنة الإمبراطور ألكسيوس كومنين

(١)

إنّ تيار الزمن الذى من دأبه الحركة المستمرة ليتدفق جارفا فى طريقه جميع ما يعترضه ويقذف به فى غياهب الظلام المطبق، يستوى عنده فى ذلك تافه الأعمال وما يستحق منها الخلود أو كما يقول الشاعر " إنه يبرز إلى الضوء ما كان خفيا، ويُخفى ما كان واضحا ".

ومع ذلك فإنّ علم التاريخ يعتبر سداً منيعا فى وجه تيار الزمن ويصد إلى حدٍّ ما من اندفاعه العنيف ويشدّد قبضَتَهُ على ما يمكن الوصول إليه مما يمكن أن يكون طافيًا على السطح، ولا يسمح بالتردّى فى هاوية النسيان والسقوط فى أعماقها.

ولقد أدركتُ صدق هذه الأمور فقد ولدتُ أنا " أنَّا كومنينا " - التى هى بفضل الرب ابنة كل من الإمبراطور [ألكسيوس كومنين] والأميرة [إيرين] - فى مهاد النعمة وتفتحت عيناى على الترف فى الحجرة الأرجوانية التى هى مهد الأبهة المُلوكية، وألْمَمْتُ بقدر طيب من الآداب، ولا مراء فى أننى أقبلتُ فى شغف صادق على دراسة اللغة اليونانية على وجه الخصوص - وعلوم البلاغة، ونظرت نظرةً مدققة فى كتابات أرسطو ومحاورات أفلاطون، وتزودت بمجموعة العلوم التى يسمونها بالأساسية التى لابد من معرفتها.

وليس من قبيل التباهى ولا الإعلان عن النفس أن أشير إلى ما حَبَتْنى به الطبيعة، ولا ما أسعفنى به شغفى بالمعْرفة، ولا ما قُسم لى وقُدِّر فيما غَبَر، ولا ما واتَتْنى به الظروف. وأعود فأتابع الكلام فيما كنتُ بصدده فأقول: إنه لما كنتُ مدركةً تأثيرات الزمن فقد طمعت أنْ أقدّم - عن طريق كتاباتى - عرضا لِمَا قام به أبى من أعمال لا يجوز أن تبقى مطويةً فى زوايا النسيان، ولا يصح للزمن أن يطويها فى لجته أو يقذف بها إلى المجهول، بل إنى راغبة فى استرجاع كل إنجازاته التى قام بها بعد اعتلائه العرش وما نهض به من الأعمال يوم أن كان لا يزال فى خدمة الأباطرة الآخرين قبل تتويجه.

(٢)

لم يكن التَّباهى بمقدرتى الأدبية هو دافعى للإقدام على القيام بسَرْد أعماله، بل إنه ينبغى - لصالح الأجيال القادمة - أن تظل هذه السيرة العطرة حية تتناولها أيدى الناس فى المستقبل، ذلك لأن الفعال النابهة تُطوَى أو تتلاشى فى ركن يغمره الظلام العميق الذى لا حس فيه ولا حركة ما لم يعطف عليها القدَر فيحفظها التاريخ ويصونها.

إن أعمال أبى لبرهان صادق على كفاءته كحاكم، كما أنها تكشف الستار إلى جانب ذلك عن أنه كان مهيأ لما تتطلبه السلطة وكل ذلك فى حدود العقل.

أمَا وقد أزمعْتُ على تدوين سيرته فإنى أخاف تهامس الألسنة من افتراءات تزعم أنى أسعى إلى التفاخر والزهو بنفسى حين أحاول وضع تاريخ لأبى، وقد يذهب البعض فيرى الأمر كله رياءً، وأنّ الكتاب لا يعدو أن يكون تقريظا لوالدى وثناءً عليه، لا سيما إنْ أبدَيْتُ أنا إعجابى بما قام به من الأعمال.

ومنْ ناحيةٍ أخرى فإنه لو قُدِّر له أن يحملنى على نقد عمل معين لم يكن تلقائيا بل أرغمته الظروف على القيام به فنفَّذْته فإنى أخاف إذن من أولئك المماطلين الذين تنهش الغيرة قلوبهم فلا يقبلون ما هو حق وعَدْل بسبب الحقد الذى طُبعوا عليه، وبسبب الحسد الذى تفيض به نفوسهم فيلقون فى وجهى بقصة " حام بن نوح " فأكون إذ ذاك - كما قال هومير - " ألُوم غيرَ ذى جريرة ".

وإنه ينبغى على المرء - حين يقوم بدور المؤرخ - أنْ يُنحّى جانبا كلا من الصداقة والخصومة، وأن يتناساهما تماما، وعليه أن يضفى على الخصوم الثناء العطر إن كانت أعمالهم جديرة بهذا الثناء، أما إذا ارتكب هذا الغير خطأ يستحقون عليه التثريب فلا يجوز الإحجام عن تقريعهم أنْكى التقريع حتى ولو كانوا ذوى قربى له وتربطه بهم وشيجة الدم. وعلى ذلك فالواجب على المؤرخ ألاّ ينكص على عقبيه منْ لوم أصدقائه، كما أنَّ عليه ألا يتغافل عن مدح خصومه. أما من ناحيتى فإنى آمل أن أكون قد

أنصفتُ الجانبين سواء من قسوت عليهم أو من يرضيهم ما قلته عنهم اعتماداً على ما وقع منهم بالفعل، وما شاهده الناس من أعمالهم فرووها عنهم. فلقدْ تسنّى لبعض الآباء والأجداد ممن لا زالوا يعيشون بيننا حتى اليوم أنهم كانوا شهودَ عيان لهذه الأحداث.

(٣)

أما السبب الرئيسي الذى حملنى على الإقدام على تدوين خبر أعمال والدى فهو أنى كنت زوجة " قيصر " نقفور الشرعية، وكان هو من نسل برينياس Bryneluss . هذا إلى أنه فاق سواه فى وسامته وحدّة ذكائه وصواب حكمه، وخلاصةُ القول أنه كان يفوق كل معاصريه بمراحل كبيرة، وكان النظر إليه أو الاستماع إليه متعةً ليست بعدها متعة..

والآن هيا بنا نركز كل اهتمامنا على ما جرى بعدئذ حتى لا نشرد أو نحيد عن موضوعنا.

لقد صحب زوجى – وهو أبرز رجال وقته – أخى الإمبراطور يوحنا [الثانى] فى عديد من المعارك التى خاضها هذا الشقيق على رأس الجيش الذى خرج لقتال المتبربرين، وكذلك فى حملته التى شنّها على أهل الشام الذين كانوا قد استولوا على أنطاكية، لكن زوجى " القيصر " (نقفور برينياس) لم يستطع – حتى وهو فى غمرة هذه الصعاب والحروب – أن ينْصرف عن الكتابة الممتعة. وكان من الموضوعات الرائعة التى اختار مُعَالجتها على وجه الخصوص تاريخ أبى الإمبراطور ألكسيوس إمبراطور الرّومان وهو تاريخ يقع فى عدة أسفار، ثم شاءت الظروف أن تتوقف الحرب لفترة قصيرة فكان هذا التوقف فرصةً لينصرف [قيصر] إلى تدوين مؤلفه التاريخى، وكان هذا العمل منه أيضًا استجابةً لرغبات سيدتنا " إيرين ". وقد استهله بعهد الإمبراطور.

كان أبى حين ولى رومانوس ديوجين الحكم فتى فى ميعة الصبا، ومنْ ثم لم يكن قد قام بعمل يستلفت الأنظار، لذلك لم يكن أمام القيصر (نقفور برينياس) إلا أن يتخذ من أحداث طفولة والدى موضعًا للإشادة به.

على هذه الصورة التى وصفتُها كانت خطةُ قيصر فى تأليفه، وهى خطة تتسم بها كتاباته أعنى بها الوضوح التام، غير أنه لم يستطع إنجاز كلّ ما كان يؤمله؛ لأنه ما كاد يفرغ من ذكر الأحداث التى جرت منذ بدء تاريخه إلى أيام الإمبراطور نقفور [الثالث] بوتنياتس حتى حالت الظروف بينه وبين المضى قدما فيه، إذ توقف عن متابعة الكتابة وكان ذلك من سوء حظ التاريخ وقرائه، وكان هذا أيضًا هو السبب الذى حملنى على أن آخذ على عاتقى تدوين أعمال أبى كاملة غير منقوصة كى لا تُحرم الأجيالُ القادمةُ من الوقوف عليها.

ويلاحظ كل من نظر فى مؤلَّف قيصر زوجى ما تميز به هذا الكتاب من رقّة الأسلوب وحسن التنسيق، غير أنه ما كاد يبلغ النقطة التى أشرت إليها حتى عاد إلينا من تلك البلاد الغريبة وفى يمينه كتاب لم يتسَنَّ له أن يتمه، فقدْ دَاهمه للأسف مرض أودى بحياته لكثرة ما خاض من المَعارك وما ناله من لغَبٍ جاوز الحد، وما كانت تنطوى عليه نفسه من اهتمام مفرط بالعمل الذى كان دءوبًا عليه فلا يعرف للراحة سبيلاً، وكان لتقلبات الجو البغيضة دَخْلٌ فى التعجيل بموته. لذلك فإنّهم لمّا كانوا قد خرجوا به - وهو فى أشد حالات المرض - إلى قتال الشاميين والكليكيين أخذَت صحته فى التدهور الذى ظلّ يتفاقم وهو فى سورية فغادرها إلى كيليكيا ثم إلى " بامفيليا " ثم إلى "ليديا "، ثم بعثوا به إلى " بيثينيا " قبل أن يعود إلينا مريضا فى " ملكة المدائن " (القسطنطينية). وقد لازمه المرض طوال فترة وجوده فى هذه البلاد فكان يشكو من ارتشاح الأنسجة الناجم عن الإرهاق المضنى، لكنه أراد - حتى وهو على ما هو عليه من الضعف - أن يقدم صورةً واضحةَ المعالم عن حروبه، بيد أن صحته ازدادت تدهورا أعجزه عمّا أراد القيام به، هذا إلى جانب أننا لم نكن لنسمح له بمثل هذا العمل مخافة أن يؤدى به الإجهاد فى الكلام إلى انفجار جراحاته.

(٤)

حينْ أصلُ إلى هذه النقطة يشرد منى العقل كما تغرورق عيناى بالدموع الهتون؛ إذْ أتذكر فداحة الخسارة التى مُنيَت بها رومة بموته، فقد تعدَّدَتْ ميادين حكمته العميقة وتجربته العملية، كما أنّ مساهمته فى مجال الآداب عملت على ذيوع صيته بفضل ما تلقّاه من علم واسع فى وطننا وفى الخارج، فكانت الخسارة فيه فادحةً إذْ كان كل ما فيه يتفجر بالجمال، كما كان هو ذاته يتمتع بقسط وافر من سمو الجاه يقْصُر عن إدراك مثله أىّ إنسانٍ آخر، وكان كما قال البعض جَدِيراً بهذا السمو، حرياً بتلك العظمة.

وأعود للحديث عن نفسى فأقول لقد كنت منكودة الطالع من عدة وجوه منذ أن خرجت إلى الوجود فى حجرة الولادة " الأرجوانية " ولم تكن الأيام أبدا رحيمة بى إلاّ إننى أقول إنها جعلتنى ابنة إمبراطورَين، وهيّأت لى أن أطلّ على الدنيا فى القصر الملكى، أما فيما عدا ذلك فقد كانت حياتى سلسلة موصولةً من العواصف والاضطرابات. وإذا كان " أورفيوس " Orphius استطاع بألحانه أن يحرك الصخر والطبيعة الجامدة، واذا كان تيموتيوس نافخ المزمار قد حمل هو الآخر الإسكندرَ المقدونى على امتشاق السيف والخروج فى لحظته إلى القتال، فإن قصّة همومى لن تدفع أحداً ما للتسلح أو القتال، وإن حملَت سامعها على ذرف الدموع وعطفَتْ علىّ الطبيعة ممثلةً فى أحيائها وجمادها على السواء.

إن فجيعتى القاسية في قيصرى وموتَهُ المبكر الذى لم أكُن أتوقعه تركا فى نفسى جرحًا عميقا لا يندمل مسٌ شغاف قلبى وزلزل كيانى وهزٌ وجودى، وإنى لأعتبر كل مآسى الماضى – إن هى قيست بهذا الخطب – أشبه بقطرة ماء فى المحيط الأطلسى أو فى أمواج بحر الأدرياتيك المتلاطمة. ولم تكنْ هذه المآسى سوى تمهيد لأحزان أخّرها الزمن وادّخرها إلى ما بعد، أو كأنّها دخان ينذر بلهيب مستعر، وما كانت الحرارة الشديدة إلا إيذانا بحريق مُدَمِّر وتكون نارا تضىء مشاعلُها الأماكن الخفية فتحرق ولن تخمد أنفاسها مهما طال اشتعالها، بل ستظل على الدوام تكوى فؤادى ويتسرب لهيبها القاسى حتى يمس العظم منى ويبلغ سويداء القلب.

إننى أرى الذكريات قد باعدَتْ بينى وبين موضوعى، لأن قيصر كان كلُّ شىء لى فى الحياة، وإن هذه الذكرى لمأساة قد أثارت فى نفسى حزنا عميقا، لكننى أكفكف دموعى وأنفض غبار الحزن عن نفسى وأتابع سرد قصتى فأكون كما قال الكاتب المسرحى " قد ضاعفْتُ الحزن مرتين ".

إن البلايا يتداعى بعضها فى إثر بعض.

وحين أضع أمام الناس تاريخ حَياة إمبراطورٍ عظيمٍ كهذا الإمبراطور ألكسيوس فإن هذا يذكرنى بما كان عليه من الفضل الكبير والصفاتِ الرائعة، وأرى مدامعى الحارة تنهمر ثانية وأنا أبكى مع الدنيا، ولست أعتبر سردى إياها وتعريفى بأحداث عهده سوى ضربٍ من الانتحاب، كما أنّ ذلك سوف يعيد إلى أذهان الآخرين مدى خسارتهم الفادحة إذ رحل عنهم.

وعلى ذلك فقد وَجَبَ عَلَىّ الآن أنْ أعود فأبدأ تاريخ أبى من نقطة يحسن أن تكون هى نقطة الانطلاق حيث تبدو الرواية أكثر دقة.

أنا كومنينا.

الكتاب الأول

ألكسيوس منذ طفولته إلى أخريات حكم بوتنياتس

فقرات الكتاب الأول

١- رومانوس ديوجين يرفض السماح لألكسيوس - ابن الأربعة عشر عاما - بالانضمام إلى حملته ضد الترك السلاجقة لكن تواتيه الفرصة لنيل المجد فى زمن ميخائيل السابع حين قام روسيل الكلتى بمهاجمة الإمبراطورية. وتولى ألكسيوس القيادة تحت راية أخيه إسحاق.

٢- تتش يمسك روسيل باليول ويسلمه إلى ألكسيوس بعد تناوله رشوة مالية كانا قد اتفقا عليها. خطاب ألكسيوس فى أهل أماسيا يسألهم إمداده بالمال حين أيقن عدم وصول شيء منه من ناحية الإمبراطور.

٣ - ألكسيوس يخشى أن يرفض الأماسيون إمداده بالمال مما يحمله على التظاهر بسمل عيني روسيل.

٤ - دوكيانوس ابن عم ألكسيوس يتهمه بالوحشية لكن غضبه منه يتحول إلى إعجاب بالحيلة البيزنطية حين يكتشف أن روسيل لا يزال صحيح البصر. ألكسيوس يوفد رئيس الحرس الإمبراطورى ليخمد فتن نقفور برينياس حاكم دورازو وذلك زمن بوتنياتس الذى كان قد خلع إسحاق وتزوج من الإمبراطورة مارية. صفة برينياس.

٥ - ألكسيوس يعتزم أن يكسب معركته بخطة سرية. المقارنة بين ألكسيوس وغيره من ناحية الاستراتيجية والخطط الحربية. اعتماد ألكسيوس على المكائد والكمائن. بطولته.استيلاؤه على جواد برينياس وإذاعته خبر الانتهاء من خصمه.

٦ - الحلفاء الترك السلاجقة ينصبون كمينا لبرينياس ويقبضون عليه. القتل يوشك أن يكون مصير ألكسيوس ولكن الرب يحفظه لأمر أجل وأخطر.

٧ – ألكسيوس يسلم برينياس إلى " بورلوس " فيسمل عينيه. صدور الأمر إلى ألكسيوس بالخروج لقتال دعِيٍّ آخر للعرش. وصف بازيلاكيوس الذى تخدعه حيلة ألكسيوس البارعة فَيَهِمّ بمهاجمة المعسكر تحت جنح الظلام.

٨ – بازيلاكيوس يبحث بلا جدوى عن الألثغ. صد الهجوم وهزيمة بازيلاكيوس.

٩ – فرار بازيلاكيوس صباح اليوم التالى إلى تسالونيكا ثم القبض عليه وتسليمه إلى رُسُل الإمبراطور وسمل عينيه. الإنعام على ألكسيوس بلقب " سيباستوس " مكافأة له على نشاطه.

١٠ – روبرت جيسكارد وحياته. زواجه ثم نزاعه مع ميكابيليس والد زوجته وغدره به وسمله عينيه.

١١ – روبرت دوق لمباردیا يتطلع إلى أخذ مقاليد السلطة فى يده بزواجه من هيلين. ميخائيل المحتال وروايتان عنه.

١٢ – روبرت دوق لمبارديا يطمع فى الزواج من هيلين. غيطة تحاول منع الحرب.

١٣ – البابا جريجورى يطلب من روبرت مساعدته ضد هنرى ملك ألمانيا. أسباب الخصومة.المؤلفة تندّد بسلوك البابا. هزيمة البابا. عدم مساعدة روبرت له.

١٤ – المجندون الذين جمعهم روبرت رغم أنوفهم فى لمبارديا.

١٥ – وصول روبرت إلى أترانتو مع غيطة.

١٦ – روبرت النرمندى يعبر البحر عند برنّديزى والمصاعب التى واجهت مونوماخاتس ودهاؤه.

(١)

كان أبى الإمبراطور ألكسيوس كومنين كبير النفع عظيم الجدوى للإمبراطورية الرومانية حتى قبل اعتلائه العرش، والواقع أن حياته الحربية بدأت زمن الإمبراطور رومانوس (الخامس، ديوجين: ١٠٦٨ - ١٠٧١) فقد استرعت شجاعته الفائقة انتباه أصدقاء هذا الإمبراطور وجذبت أنظارهم إليه، وودّ فى تلك الأيام - وهو ما يزال فى الرابعة عشرة من عمره- لو أتيحت له فرصة الأنضمام إلى الجيش والانخراط فى سلك حملة من أعظم الحملات أهمية كانت على وشك الخروج بقيادة " ديوجين " لقتال الفرس، كما أن طموحات هذا الشاب ألكسيوس كانت تنذر المتبربرين بما سوف يلقونه من الشر المستطير على يديه لو قُدِّر له الالتحام بهم فى ساحة القتال [لأنه لن يغمد سيفه حتى يرتوى هذا السيف من دمائهم] .

[على هذه الصورة كان شأنه الحربى] [١].

بيد أن حماسته الحربية لم تشفع له عند الإمبراطور رومانوس ديوجين فيأذن له بمصاحبته فى خروجه للقتال؛ لأن والدة[٢] ألكسيوس كانت قد نُكبت منذ قريب بكارثة تركتها تبكى مصرع ولدها الأكبر " مانويل " الذى كتب لنفسه سطرا خالدا فى سجلّ البطولة بأعماله، فحاز من الشهرة والصيت ما طبق آفاق الإمبراطورية، ومن ثم اضطر الشاب ألكسيوس أن يرجع إلى أمه حتى لا تظل كسيرة الخاطر ملتاعةَ القلب، فحسْبُها ألماً ألاَّ تعرف لولدها مانويل تربةً دُفن بها فتسقيها. وخشيت إن مضى هذا الابنُ الآخرُ إلى الحرب أن تمتد إليه هو أيضًا يد الهلاك فيلقى حتفه فى إحدى البقاع المجهولة النائية فيكون قد عمل بنفسه على قتل نفسه قبل أن يحين حينه[٣]، ولذلك خلفه أصدقاؤه وراءهم وهو عاجز عن دفع ما حكموا به عليه ، لكن الأيام القادمة كانت تدّخر له فرصة طيبة لإنجاز كثير من المآثر الباهرة ، ذلك أن حادث "روسيل باليول"[٤] أماط

الشام عن مدى بسالة ألكسيوس كومنين وكان ذلك زمن ميخائيل دوكاس [٥] إثر سقوط الإمبراطور رومانوس ديوجين.

كان هذا الرجل " روسيل " كِلْتيًّا [٦] انضم منذ حين بعيد إلى الجيش الرومانى وبلغ فيه مرتبةً عالية من النجاح، وإذْ كان بطبعه رجلاً كبير الاعتداد بنفسه فقد جيَّش تحت إمرته جيشا كان معظم رجاله من أبناء جلدته، أما الباقون فكانوا من جنسيات مختلفة وأمم أخرى.

كان روسيل هذا ثائرا مخيفا زامَن هجومُه على الإمبراطورية الرومانية اللحظة التى مُنِيَتْ فيها قيادتُها بكثير من الضربات التى انهالت عليها والنكسات التى أرهقتها وأثبت الترك فيها تفوّقهم مما أدى إلى انهيار الجبهة الداخلية الرومَانية انهيارا زلزل الأرض تحت أقدامها. ولما كان " روسيل " رجلا مطبوعا على الجشع الذى ما بعده جشع فإن ما آلت إليه الإمبراطورية فى هذه اللحظة بالذات من الضعف الشديد أدّى إلى زيادة تشجيعه على المجاهرة بالتمرد عليها فراح يعيث فسادا ونهبا فى كل ولاياتها الشرقية؛ مما حملها على وَضْع أزِمّة الأمور والعمليات الحربية ضده فى أيدى قوادٍ كبار اشتهروا بالشجاعة واكتسبوا خبرةً عظيمة بفضل عملهم فى الجيش، لكن اتضح بجلاء أن " روسيل " كان شيخَ هؤلاء المضَرسين بالحرب إذ كان يقوم أحيانًا بالهجوم على خصمه بنفسه فيلْحِق به الهزيمة وينزل عليه نزول الصاعقة لا تُبقى على شىء فى طريقها ولا تذر. وقد يحدث أحيانًا أخرى أن تجيئه النجدة ويصله المدد من الترك وحينذاك يصبح صدُّه والوقوف فى وجْهه أمرا مستحيلاً ويكون وَقْفُ غاراته مُحالا، ويتمخض الوضع عن وقوعٍ نفرٍ من أعظم خصومه القواد فى أسْره وسحقه لجيوشهم.

كان أبى حينذاك تحت قيادة أخيه [إسحاق] الذى تولى يومئذ أمر جميع الجيوش العاملة فى الشرق والغرب على السواء، فكان ألكسيوس فى الواقع الرجلَ الثانى فى القيادة. وحدث فى هذه اللحظة الحرجة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية، والتى كان فيها هذا المتبربر " روسيل " يتحرك فى كل اتجاه، ويهاجم فى عنفٍ الإمبراطور

ميخائيل، أقول حدث في هذه اللحظة بالذات أنْ تم رفع والدِي ألكسيوس العظيم إلى مرتبة القائد العام، وكان هذا اختيارا موفقا صادف أهله، فقد كان أبى أكفأ قِرْنٍ لمواجهة "روسيل" إذ سرعان ما برهن على جسارته ودَلَّ على خبرته بفن القتال، وأظهر كفاءته التى اكتسبها فى زمنٍ قصير. وعلى الرغم من صِغر سِنِّه يومذاك - إذ كان فتى لم تنبت لحيته بعد كما يقولون - إلا إنّ الناس - حتى الخبراء الرومان - اعتبروه خيرَ مَنْ تُوكَل إليه القيادة؛ لِما اتّسم به من شدّة تفانيه فى عمله ومثابرته عليه، وعَدّه الناس " إميلوس " الرومانى الشهير وكأنّه قد ظهر من جديد، أو كأنّه " سكيبو " أو " هانيبال " القرطاجى عادا إلى الوجود. وكان " روسيل " ينزل على شعبنا نزول الطوفان الجارف يكتسح كل ما فى طريقه أو كأنّه الدمار، لكنه وقع فى الأسر مما نجم عنه بعد أيام قلائل استقرارُ أوضاع الشرق، وسرعان ما رتب ألكسيوس أموره على أكمل وجــه، كما أسرع بتنفيذها.

أما فيما يتعلق بالطريقة التى ألقى القبض بها على " روسيل " فقد وصفها قيصر فى كتابه الثانى وصفا مفصلا، ولكننى سأُورِد روايتى فى نطاق ما يتعلق بمؤلفى التاريخى هذا.

(٢)

كان " تتش " المتبربر قد جاء قبل قليل على رأس جيش قوى من أقصى ربوع الأناضول ليعيث فسادا فى الإقليم الرومانى، وكان القائد الرومانى قد زاد فى ضغطه على " روسيل " زيادةً أدَّتْ إلى سقوط القلاع فى يده واحدةً بعد أخرى، وعلى الرغم مما كان لدى " روسيل " من قوةٍ كثيفة العدد مجهزة أتمّ التجهيز بالأسلحة الرائعة الفتاكة، إلا إنّ أبى تفوّق عليه تفوقا تاما مما حمل " روسيل " على اصطناع سياسةٍ جديدة سعى من ورائها إلى إنقاذ نفسه حين رأى موارده قد أشرفت على النضوب، فالتقى بتتش وصافاه وناشده التحالف معه، غير أنّ ألكسيوس أفسد عليه خطته هذه؛

فقد استطاع أن يكسب إلى جانبنا "تتش" بفضل هداياه السخية إليه، وكانت هداياه مبهجة، كما كانت هى عونا له فى كسبه إلى جانبه.

ولما كان والدى نسيج وحده فى الذكاء فلم يكن يعجزه أن تتيسر أمامه المسالك والسبل لتحقيق هدفه حتى فى أحرج الظروف وأدقها ويمكن أن نلخص فيما يلى أبرز ما عمد إليه لاستمالة تتش إلى جانبه حين قال له: "إن كلاً من سلطانك ملكشاه وإمبراطورى [ميخائيل السابع] صديق للآخر، ولكن هذا الهمجى " روسيل " كان يُعد العدة لمهاجمة كل منهما، ولا شك أنه عَدُو شرس لكليهما، فغاراته موصولة ضد الإمبراطور وهى تنتزع من أملاكه الرومانية جزءا بعد جزء، كما أنه يَحْرِم فى الوقت ذاته " فارس " من كل ما يمكن أن تكسبه، لأنه ما من حملة يقوم بها "روسيل" إلاّ ويكون قد درسها دراسةً محكمةً مفصلة، فإذا كانت مساعدتك له تمكنه الآن من مطاردتى فلابد أنه منصرف بعد حين عنى حين يرى اللحظة مناسبة لهذا الانصراف، وحين يرى نفسه بعيدا عن الخطر يُغَيِّر تكتيكه وينقلب فيحاربك. ونصيحتى لك هى أن تُلقِيَ القبضَ عليه حين يعود إليك وتبعثه إلينا مكبلاً بالأغلال فنجزل لك من العطاء ما يعود عليك بالنفع العظيم من ثلاثة وجوه، أولها هو حصولك على ثروة لم يتسن لك من قبل الحصول على مثلها، وثانيها فوزك بصادقِ ودِّ الإمبراطور وفى ذلك من النعمة الوفيرة ما يجعلك ترفل فى بحبوحة الهناء، وأما ثالثها ففرحة (مولاك) السلطان ملك شاه إذ يرى عدوا عتيدا كهذا العدو قد انْزاح من طريقه. هذا إلى جانب أنه خصم قد أعدَّ رجالَه لُمحاربتنا جميعا من تُرْك وروم ".

هكذا كانت الرسالة التى بعث بها أبى – بصفته القائد العام للجيش الرومانى – إلى "تتش".

كذلك أرسل إليه فى الوقت ذاته رهائنَ من عنده وكانوا نفرا من سراة القوم، كما راح يغرى أصدقاء تتش بالقبض على " روسيل " وتسليمه إليه فى يومٍ حدَّده لهم، ووعدهم إزاء ذلك بمال جزيل يدفعه لهم، فلم يكن منهم إلاَّ أن ألْقوا القبض على " روسيل " فى الحال وبعثوا به إلى " أماسيا " حيث يقيم القائد العام الرومانى .

على أن الأمر لم يسلم بعدئذ من بعض العناء فقد مضت الأيام بعضـها فى إثر بعض دون أن يصل إليه المال المتفق عليه، كما أن ألكسيوس نفسه لم يكن قادرا على الوفاء بالقدر الذى تعهد به كاملاً، هذا بالإضافة إلى أنّ الإمبراطور(ميخائيل السابع) لم ينظر بعين الرضا إلى هذه الخطة ولم يتحمس لها بالصورة التى كانت فى الحسبان، وبدلاً من أن يصل إليه المال فى " دفعاتٍ منتظمة " كما يقول الكاتب المسرحى إذا به لا يرى له أثرا أبدا على الإطلاق، هذا فى الوقت الذى راح فيه رجال " تتش " يصرون على أن يتسلموا المال الذى اتفقوا عليه كاملاً غير منقوص، فإن لم يفعل ألكسيوس هذا فلا مناص من أن يردَّ عليهم أسيرهم الذى باعوه له.

عجز ألكسيوس عن الوفاء لهم بالمبلغ الذى تم الاتفاق عليه، ثم مرت عليه ليلة قضاها قلقا لم يغمض له جفن، فلم يكن منه إلا أن قرّر فرض جَمْع هذا المال منْ أهالى " أماسيا " فيساهمون جميعهم فى دفعه، وإنْ كان يدرك ما تنطوى عليه الخطة من مشقة تلحق بهم وما تنزله من ضيق يكابدونه، لذلك لم يكد يطلع النهار حتى استدعى إليه أصحاب الأمر والجاه لا سيما أهل الثراء منهم وهم الذين قَصَدَهم على وجه الخصوص وقال لهم: " إنكم تعرفون كيف كان مَسْلك هذا المتبربر فى جميع مدن " أرمينيا "، وكم من البلدان قد نَهب، وكم من المواطنين قد عنف عليهم فأذاقهم من الاضطهاد ما لا يطاق، وجرعهم كأس الهوان، وكم من الأموال ابتز منكم، وها هى الفرصة قد حانت لكم الآن لتتحرروا من فعاله الشريرة. فإن شئتم اغتنمتموها، وإنّ الضرورة تلزمنا ألاَّ ندعه يذهب، وها أنتم هؤلاء ترونه أسيرا فى أيدينا والفضل كل الفضل فى ذلك راجع إلى مشيئة الله وإلى حميّتنا بعد أن تسلمه " تتش " الذى يطلب منا أن نكافئه على ما فعَل، ولكننا مفلسون وعاجزون تماما عن الوفاء بالمال الذى لا مفر لنا من دَفعه له بسبب وجودنا فى بلاد غريبة، هذا بالإضافة إلى ما تكبَّدْنَاه من أموال صرفناها فى حروب طويلة الأمد ضد المتبربرين. وليس من شك فى أنه لولا بُعْدُ المسافة بيننا وبين الإمبراطور لجئناكم بالمال. ولو تريث هذا التركى [السلجوقى] علينا قليلاً وأمهلنا بعض الوقت لجاءنا المال من القسطنطينية، ولكن هذا أمر مستحيل كما تعرفون، ومن ثم صار لزاما عليكم أنْ تجمعوا المال فيما بينكم، وأَعِدُكم بأن الإمبراطور(ميخائيل) سوف يدفعه كاملاً على يدى" .

ما كاد ألكسيوس يفرغ من خطابه الذى قلناه حتى انْفجر الأماسيون فى زمجرة مدوية، واستهجنوا ما قاله لهم وتعالى صفيرهم إعرابا عن استيائهم، ثم ازدادت الحال سوءا بسبب دعاة الفتنة ومُعْتادِى الشغب وأهلِ الفوضى.

لقد علا الصخب وطالب البعض باستبقاء " روسيل " فى أيديهم، وحثُّوا الرعاع على استعادته، وقام غيرهم فأحدثوا هرجا عظيما - كما هو الحال - من حثالة الناس فى المظاهرات وأرادوا أخذ " روسيل " وكَسْرَ أغلاله، فلما رأى ألكسيوس أن القوم صاروا أشبه بالكلاب المسعورة أدرك فداحة الخطر المحدق به، لكنه تمالك نفسه وأشار إليهم بيده أن يلتزموا الصمت ويركنوا للسكون فكان له ما أراد وإن استغرق ذلك وقتا غير قصير وكبَّده مشقةً عظمى، فلما هدأت الغاغة خاطبهم بقوله: " يا رجال أماسيا... إنْ أعجَبْ فعجبى لكم أنكم لم تدركوا أبدا مكائد من يخدعونكم ويشترون سلامة أنفسهم بسفك دمائكم، ويرتكبون على الدوام ما فيه دماركم وضياعُ أرواحِكم ... فهل تراكم تجنون من فتنة " روسيل " سوى ما يعود عليكم بالذبح وسمل العيون وجدع الأنوف وبتر الأطراف ؟ ...

ألاَ إنَّ الرجال الذين يتقلّدون أموركم ويصرّفون شئونكم إنما يصرِّفونها بصورة لا تُضَارُ بها مصالحهم، فهم يعملون على كسب المتبربرين إلى جانبهم فى الوقت الذى تعمّهم نِعَمُ الإمبراطور فتتخمهم، ثم يخادعونه ويخدعونه إذ يعاهدونه عهودا غليظة يؤكدون له فيها أنهم غير مسلميكم أنتم ولا البلد إلى العدو، وبهذا ترون أنهم لا يعْنيهم شيء قط من أموركم. وإن السبب الكامن وراء مساعدتهم لروسيل فى تمرده ووعده بالآمال العريضة إنما هو حرصهم على استمرار منافعهم وسلامة مصالحهم فلا تُمَس بسوء، والحصول على نِعَم الإمبراطور وتكريمه لهم، فإنْ هم شاركوا فى عمل ورأوا أنه مُفْضٍ إلى إلحاق الضرر بهم انسحبوا منه وراحوا يثيرون ثائرة الإمبراطور ضدكم ... ألاَ فاستمعوا إلى ما أقوله واستجيبوا لنصحى، وقولوا لدعاة الفتنة والفوضى أن يذهبوا إلى الجحيم.

والآن فليمض كل واحد منكم إلى داره هادئا وتدبَّروا ما قلته لكم، وستعلمون بعد حين مَنْ الناصحُ الأمين لكم والشفيق عليكم !.." .

(٣)

فلما سمعوا ما قاله لهم غيّروا رأيَهم وانطلقوا سراعا إلى دورهم وانفضوا كأنهم آنية من الفخار سقطت من شاهق فتناثرت شظاياها هنا وهناك.

كان ألكسيوس يدرك أن هؤلاء الناس لا يمكن أن يغيّروا رأيهم بمثل هذه البساطة المتناهية، لا سيما إذا كان أراذل الناس يحركونهم من الخلف، وخشى أن يغتنم محرضوهم فرصةَ الليل فيحركونهم مثيرين فيهم ثائرتهم فيهاجمونه ويمضون إلى " روسيل " في حبسه فيخرجونه منه ويحطمون أغلاله فتصبح السيطرة على هذه الجموع الصاخبة ضربا من المستحيل، لذلك دبّر خطة لا تصدر إلا من حكيم عاقل، فسار بروسيل متظاهرا بأنه ماض لسَمْل عينيه ثم طرحه أرضا ونادى الجلاد الذى أدنى منه ميسمَ الكى المحمى في النار وقرّبه من وجهه فصرخ " روسيل " صراخا عاليا وزمجر زمجرة الأسد فما ظنَّ أحد ممن كان حاضرا هذا المشهد إلا أنْ قد فقئت عيناه، ولم يكن الحال كما ظن هذا البعض فقد كانت الأوامر صدرت على هذه الضحية الماثلة أمامهم بأن يصرخ ويعوى. كما كلف الجلاد الذى تظاهر بسمل عينيه بأن يحملق فيه وهو مطروح أمامه أرضا فى نظرات ملؤها الفزع والرعب كأنما قد أصابه هو الآخر مسٌ من الجنون إذْ راح يهذى متصنعا هيئة من ينجز العقوبة فى ضحيته، وهكذا بدا " روسيل "وكأنما قد سملت عيناه، لكن لم يكن شىء من ذلك قد حدث، ثم راح الناس يضربون كفا بكف ويتحدثون علانية فى أرجاء المدينة كافة أنْ قد كُفَّ بصر " روسيل " وعمى.

لقد حمل هذا المشهد التمثيلى كلٌّ العامة والأهالى - بل والأغراب أيضًا - على دفع المال المطلوب وأصبحوا أشبه بالنحل يروحون ويجيئون فى حركة دائبة.

أما خطة أبى فكان جوهرها أنْ يستولى اليأس على نفوس من رفضوا المساهمة ماليا ودبروا اختطاف " روسيل " وإذ ذاك ينصرفون عما كانوا قد دبروه ويرجعون عما رسموه، ويبادرون إلى متابعة ألكسيوس ومخَالفته لا مخالفته وإزالة سخطه عليهم، ولذلك ظل مبقيًا لديه " روسيل " ومحافظًا عليه كأنه الليث فى القفص، حيث لم يزل يضع الضمادات على عينيه، إشارةً إلى فقدهما نور البصر ولم يكن الأمر سوى حيلة وخديعة.

لكن أبى كان أبعد ما يكون عن الرضا رغم النصر الذى أحرزه إذْ لم يزل أمامه من الأعمال ما تحتم عليه إنجازه، فأخضع كثيراً من المدن واستولى على العديد من القلاع وضم إلى الإمبراطورية الجهات التى كانت أمورها قد تعثرت وهى فى يد " روسيل " يوم كان روسيل يقوم بتدبير أمورها وإدارة شئونها وكان له الحكم فيها، فلما نزع ألكسيوس منه ذلك كله ركب جواده قاصدا المدينةَ الملوكية، حتى إذا مر بمدينة كُستانوم – مسقط رأس جده – أقام بها فترة قصيرة من الوقت هو وجميع عسكره؛ التماسا للراحة بعد التعب الذى صادفوه والنَّصَب الذى لاقوه. كما أنه قام فى هذا الموضع ذاته فيما بعد بعملٍ رائع من أعمال البطولة. والحق أنه عمل جدير بأن ينسب إلى " هرقل " العظيم حين حاول " أدميتوس " Admitus إبعاد زوجته " ألكستس ".

ولقد تسنى لدُوكيانوس ابن أخى الإمبراطورالسابق إسحق كومنين ابن عم أبى، وكان رجلاً ذا شرف صاعد و كان مرموقا ليس لنسبه فقط بل لعظيم قَدْره، أقول تسنى له أن يرى " روسيل " والضمادات تغطى وجهه والناس يأخذون بيده كلما سار فتفطَّر قلبه أسى عليه وذرف من أجله الدمع، واتهم والدى بالفظاظة والوحشية، بل لقد أوغل فى تهجمه عليه واشتد فى لومه وقبّح ما اقترفه من جرم إذ حَرَم رَجلا عظيما كهذا الرجل وبطلاً لا ينكره أحد من نور عينيه، وأعلن بملء فيه وجوب تخليص " روسيل " من العقاب كلية، فلم يكن من ألكسيوس فى هذا الموقف إلا أن رد عليه بكلمات قال له فيها: " على رسلك أيها العزيز وسوف تعلم فى القريب العاجل بأسباب حرمانه من بصره ". ثم ما لبث أن سار به إلى حجرة صغيرة ورفع الضمادات عن وجه " روسيل " وكشف عن عينيه فرأى بصره من حديد، فحدّق " دوكيانوس " فيه برهة وقد استبد به الذهول وتملكه العجب مما يرى، واعتبر ما يشاهده معجزة ملأته دهشة، فلم يتمالك نفسه من وضع كفيه على عينيه مرة بعد مرة ليقنع نفسه أن الأمر حقيقة وليس خيالاً أو حلما، وأنّ ما يراه ليس بسحر ساحر أو بشىء من هذا القبيل، فلما اطمأنت نفسه إلى أن ابن عمه ألكسيوس عاملَ روسيل معاملة سداها الرحمة، وأيقن أن ما جرى ليس سوى خدعة صفَّقت جوانحه فرحًا وامتلأت غبطةً واحتضن ابن عمه وراح يمطره بقبلاته، وانقلب تذمّره منه إلى سرور بالغ.

كذلك تأثر الإمبراطور ميخائيل ورجال البلاط وسواهم بما جرى.

(٤)

لما آلت الأمور إلى يد الإمبراطور نقفور بوتنياتس وصار له الحكم والسلطان بعث بألكسيوس إلى الغرب ليحارب " نقفور برينياس " الذى بث الاضطراب فى الغرب كله إذ اغتصب التاج ووضعه على مفرقِه قسرا ونصب نفسه إمبراطورًا على الرومان رغم أن "بوتنياتس" كان قد وطّد الأمر لنفسه باعتلائه العرش عقب خلع "ميخائيل دوكاس " ، ثم تزوج بوتنياتس من الإمبراطورة مارية كما سأقص خبر ذلك بعد قليل ، فآل حكم البلاد إليه .

كان نقفور برينياس قد عُين فى عهد ميخائيل دوقا لدورازو، ولكن أطماعه امتدت إلى العرش وراح يدبر إشعال الثورة ضد " ميخائيل دوكاس " ولست أرى ثم ضرورة تدعونى لشرح الكيفية والسبب اللذين أدّيا إلى هذا الأمر فقد كفانى مَئونة هذا كله ما تضمنه تاريخ " قيصر " إذ ذكر الأسباب الدافعة إلى هذا التمرد، لكن ينبغى أن أقدّم فذلكةً موجزة عن هذا الموضوع البالغ الأهمية، وأن أبَيِّن كيف اجتاح " برينياس " كل الأقاليم الغربية وأخضعها لنفوذه منذ تولّيه " دورازو " ومنذ اتخاذه إياها قاعدةً لعملياته، ثم أبين كيف تم القبض عليه. أما من شاء المزيد عن تفاصيل هذا التمرد فليرجع إلى تاريخ " قيصر " .

كان برينياس [الكبير] محاربًا مقدامًا وسليل بيت رفيع، وكان يجتذب الناس إليه بِطُول قامته، وحسن طلعته، كما أنه كان إلى جانب ذلك محترمًا مبجلاً، ثاقب الفهم، صائب التفكير، قوى البنية مما يرشحه عن جدارة واستحقاق من بين جميع رجال ذلك الجيل للعرش الإمبراطورى، كما كان قوى الإقناع واضح الحجة، هذا إلى جانب أنه كان ذا مقدرة فائقة على التأثير فى الرجال من أول وهلة يتعرفون فيها عليه، حتى لقد أجمع العسكريون والمدنيون على السواء على أنّه المقدم فيهم، واتفقت كلمتهم على أنه الرجُل الكفء لحكم الإمبراطورية من أدناها إلى أقصاها، ومن شَرْقها إلى غَرْبها. ولمْ يكن يقترب من مدينة من المدن حتى تتلقاه هذه المدينة أو تلك بالترحاب وتشيعه إلى الأخرى التى تليها بالهتاف، مما أقضَّ مضجع " بوتنياتس " وبلبل خاطره وأشاع

الارتباك في صفوف الجيش وبث الذعر في كافة أرجاء الإمبراطورية، وحينذاك استقر الرأى على أن أكفأ الرجال قاطبة وأقدرهم على الوقوف فى وجه " برينياس " إنما هو أبى ألكسيوس كومنين الذى كانوا قد رفعوه إلى مرتبة رئيس الحرس الإمبراطورى منذ قليل ثم بعثوه على رأس جميع القوات الحربية المتاحة إذ ذاك لدرء خطر برينياس. والواقع أن عدد رجال الإمبراطورية فى هذه الناحية كان قد تضاءل حتى لم يعد شيئًا مذكورًا، فقد أدّى الاجتياح التركى إلى تشتيت شمل الجيوش الشرقية فى كل النواحى، كما سيطر السلاجقة سيطرة تكاد تكون تامة على جميع المناطق الواقعة فيما بين البحر الأسود والبسفور من ناحية، وبين مياه بحر إيجه والشام من ناحية أخرى، وأصبح لهم النفوذ على جميع المعابر المائية التى تجرى على طول حدود " بامفيليا " "وكيليكية " إلى أن تصب فى النهاية فى المياه المصرية.هذا ما كان متعلقًا بالكتائب الشرقية.

أما الكتائب المرابطة فى الغرب فقد انضم أكثرها إلى " برينياس " وانخرطت تحت رايته، ولم يعد لدى الإمبراطورية الرومانية إلاّ قوّات ضئيلة لا يُعْتَدّ بها، كما عَهد بأمر الدفاع عن هذه الإمبراطورية إلى طائفة من العسكر المسمين بالخالدين الذين لم يحملوا السيف ولم يضربوا بالرمح إلا منذ وقت قريب، كما وُجد إلى جانبهم نفر ضئيل من عسكر أهل " خوما " وفيلق كِلْتى كان من أضعف الفيالق على الإطلاق؛ لقلة عدده.

كان هؤلاء جميعًا هم الرجال الذين أمدّوا بهم والدى، كما أن مستشارى الإمبراطور طلبوا فى الوقت ذاته النجدة من الترك السلاجقة، ومن ثم صدرت الأوامر لأبى بالخروج لمحاربة " برينياس " وكانت ثقةُ هؤلاء المستشارين بالجيش أقل من ثقتهم بكفاءة القائد ومهارته الاستراتيجية وخططه القتالية. ولم يطق ألكسيوس صبرًا حين سمع بأن العدو يغذ الخطى فى التقدم، فبادر فى لحظته إلى تسليح نفسه ومن معه من العسكر وغادر بهم العاصمة، ثم نصب خيامه فى " تراقيا " قرب نهر " هالميرس " Halmyres دون أن يتخذ لنفسه خندقا أو يقيم شيئًا من المتاريس. ومن هنا اكتشف أن برينياس قد عسكر هو الآخر فى سهول " كوديكتوس " Codectus ؛

فجعل المسافة الفاصلة بين جيشه وبين جيش الخصم كبيرة إدراكًا منه باستحالة مواجهة " برينياس " بصورة مباشرة حتى لا تتكشف للعيان قلة من معه من العسكر الذين لا خبرة لهم بالحرب والذين خرج بهم لمقاتلة عسكر كثيرين محنكين، عركتهم الحروب وتمرسوا بها، لذلك فإنه نبذ ظهريًا فكرة القيام بمغامرة جريئة مكشوفة وراح يدبر فى السرّ خطة يجنى من ورائها النصر، وهى خطة تتلخص فى أن يأخذ العدو على غرة.

(٥)

أما وقد صرت إلى المرحلة التى صار فيها هذان الرجلان الشجاعان: برينياس وأبى ألكسيوس كومنين يقفان وجهًا لوجه تأهبا للقتال فالأجدى أن ندعهما وهما على ما هما عليه من الاستعداد ومراقبة ما تنتهى إليه هذه المعركة، وأقول إنه لم يكن أحد القائدين دون الآخر شجاعة أو أقلّ من خصمه درايةً بفن القتال، فالحقّ أن كلا منهما كان وسيما وبطلاً شجاعا، وكانا متكافئين: مهارةً وإقدامًا كأنهما وُزنا بميزان واحد، لذلك فإن مهمتنا نحن أن نعرف كيف رجحت كفة أحدهما وشالت كفة الآخر. ذلك أن " برينياس " كان شديد الثقة بجنده، مطمئنًا إلى كفاءتهم، معتمدا على ما هم عليه من حسن التنظيم، أما ألكسيوس فكان ضعيف الأمل – إن لم يكن معدومه – فى عسكره، ولكنه استعاض عن ذلك بثقته بألمعيته هو نفسه وقدرته الذاتية كقائد، ومن ثم فإنه لما اقترب الجيشان بعضهما من بعض وأدركا أن لحظة الاشتباك وشيكة الوقوع شرع " برينياس " فى إعداد رجاله للزحف لا سيما حين علم أن ألكسيوس معسكر قرب " كالورا "Calaura استعداداً للحرب فقسّم جنده إلى ميمنة وميسرة ، وجعل أخاه " جون " قائدا على الميمنة التى كانت تتألف من خمسة آلاف رجل فيهم الإيطاليون وأفراد فيلق " مانياكس " الذائع الصيت ، إلى جانب فريق من خيالة " تساليا " وكتيبة لا يعتد بها من حرس الإمبراطور الخاص .

أما الميسرة فكانت بقيادة " كاتاكالون " وتتألف من ثلاثة آلاف رجل من المقدونيين والتراقيين قد جُهزوا بأتمّ سلاح، وكان برينياس [الكبير] واقفاً فى القلب فى مواجهة

المقدونييّن والتراقيين ومعهم النخبة الممتازة من جميع الأشراف، وكان كافة التساليين فرسانا على ظهور جيادهم القتالية، وفى دروعهم الحديدية، وعلى رءوسهم مغافرهم تلمع كأنها البرق الخاطف، أما خيولهم فقد وقفت مرهفة آذانها واستعدت للكر. وكان احتكاك الدروع بعضها ببعض، وبريق السيوف والسلاح ووميض الخوذات يبث الرعب فى قلوب الأعداء، كل ذلك و" برينياس " يمشى بينهم كأنه " مارس " إله الحرب أو كأنه المارد العملاق ترتفع هامته وكتفاه فوق جميع هامات الكل وأكتافهم، إذ كان يفوق أطولهم ذراعا، والحق أنه كان يثير فى نفوس ناظريه الإعجاب والفزع منه فى آن واحد.

ووقف بعض حلفائهم من البشناق فى أسلحتهم البدائية على بعد نصف ميل.

وصدرت الأوامر بالانقضاض على مؤخرة العدو لحظة ظهوره.

ودقت الطبول إيذانا بالهجوم فراحوا يرمونه بسهامهم من غير توقف، ويعملون جهدهم على مضايقته فعهد إلى مَن كان قريبا [٧] من الأعداء بالإغارة على الصفوف القوية.

هكذا كان تنظيم " برينياس ".

أما خصمه وهو أبى ألكسيوس فقد عاين خريطة للأرض ثم أقام فريقا[٨] من جنده فى بعض الشعاب، ووضع البعض الآخر فى مواجهة " برينياس " حتى إذا فرغ من ترتيب رجاله على أكمل وجه (سواء منهم من أخفاهم أو من أظهرهم) وقف خطيبا فى عسكره يشجعهم ويحرضهم على إظهار ما طبعوا عليه من البسالة، وأمر مَنْ أخفاهم فى الكمائن بأن يباغتوا العدو بالهجوم عليه حين يجدون أنفسهم وراءه ثم يكرّون على ميمنته بأشد ما أوتوا من القوة والبأس، أما هو ذاته فقد قاد بنفسه الرجال المسمين بالخالدين وبعض القوات الكلتية.

كذلك عهد ألكسيوس إلى " كاتاكالون " بقيادة الخوميين والترك بمقاتلة البشناق وصدّهم. على هذه الصورة كان ترتيب ألكسيوس لجيشه.

أما الآن فهيا بنا إلى ساحة المعركة.

(٦)

ما كاد أبى يرى رجال " برينياس " يصلون إلى الوديان حتى أشار إلى رجاله بمهاجمتهم قبل أن يهاجموهم هم وتكون لهم المبادرة، فوثبَ أهل الكمائن عليهم وهم يصرخون صرخات الحرب فيقتلون ويصرعون كلَّ من ساقه أجله للوقوف فى طريقهم، فبث هجومهم الفجائى الفزع فى قلوب العدو الذى لم يجد بدًا من أن يلوذ بالفرار. إلا أن " برينياس " وهو القائد المعلم والصنديد المدرك لقواته العاصفة ثنى عنان فرسه وضرب واحدا من الخالدين كان قد تقدم نحوه ضربةً تركته صريعا وجَنْدَلَتْه، فجفل الخصم ثم عاد الصف فالتأم واستتب النظام، وتم طرد أصحاب الكمين، وترتب على ذلك أن سادت الفوضى صفوف الخالدين ففروا على وجوههم تاركين [٩]من معهم تتلقفهم أيدى متعقبيهم الذين لم يرقَّ لهم قلب ولم تأخذهم بهم رحمة، وإذ ذاك رمى أبى بنفسه وسط الأعداء واستبسل فى القتال استبسالاً رائعا، منزلاً الضرر بمن صادفه، وراح يضرب ذات اليمين وذات الشمال ويصرع كل من يعترض سبيله، وانعقد أمله فى أن يأتى وراءه بعض عسكره ويُظلّونه بحمايتهم، واستمر يقاتل وهو فى سورة غضبه، فلما رأى الدائرة توشك أن تدور بالبوار على جميع من معه وأنهم تشتتوا فى مختلف النواحى عاد ثانية فَلَمَّ شتات أشجعهم فلم يزيدوا عن ستة نفر فطلب إليهم أن يجردوا سيوفهم وينطلقوا حتى إذا صاروا على مقربة من " برينياس " قاتلوه قتالاً لا يبالون فيه إن هم قُتلوا ولاقوا حتفهم وأن يلاقى هو الآخر حتفه معهم.

غير أن هذه اللحظة تغيرت تمامًا بسبب أن واحدا من عامة الجند اسمه " تيوداتس " Theodatus كان فى خدمة أبى منذ أن كان صبيا سفّه تلك الخطة ونعتها بالخطة الحمقاء، فاستجاب له ألكسيوس واتبع أخرى غيرها خلاصتها أن يَبْعُد بعض الشىء عن طريق خصمه " برينياس " وأن يضم إليه من يلقاه مِنْ عسكره المتشتت الذين تفرقوا على وجوههم ويعيد تنظيمهم ثم يقتحم بهم ساحة المعركة.

لكن حدث قبل أن يتمكن أبى من الابتعاد عن العدو أن شرع " الأسكيثيون " [البشناق] فى مهاجمة " كاتاكالون " ورجال الخوميين هجوما مصحوبا بالصراخ

العالى المفزع، فارتد عدوهم على أعقابه خوفا منهم ثم انصرفوا هم بعدئذ إلى النهب جريا على عادتهم فى أنهم كانوا يفسدون انتصارهم بسلب الغنائم قبل أن يتأكدوا تماما من قضائهم التام على خصمهم وقبل أن يكونوا على بينة واضحة من انتصارهم.

حينذاك (١٠) خاف رجال المعسكر أن يلقوا نفس المصير المفجع على أيدى هؤلاء البشناق فلحقوا بمؤخرة جيش " برينياس " ودخلوا فى صفوف عسكره وخالطوهم، وفعل فعلهم غيرهم بعد أن قُدِّرت لهم النجاة من الزمرة البشناقية، مما أدى إلى حدوث فوضى لا مزيد عليها عمت العسكر فاضطربت معها الصفوف.

فى هذه الأثناء كان أبى - كما قلت من قبل - قد انفصل عن رجاله وبعدت المسافة الفاصلة بينه وبينهم، وبينما كان يرمى صفوف العدو هنا وهناك بسهامه إذا به يرى أحد الركابدارية يقود من الإسطبلات الملوكية حصانا لبرينياس قد حلى سرجه بالأرجوان، وعليه أزرار مغشاة بالذهب، كما كان الرجال الذين يجرون إلى جواره يحملون هم أيضًا فى أيديهم السيوف الطويلة المصقولة التى جرت العادة ألا تكون إلا فى صحبة الإمبراطور، فلما رأى ألكسيوس هذه الأشياء تقنّع بالقناع المثبت إلى طرف خوذته واندفع فى عنف مع النفر الستة الذين أشرت إليهم وهاجم بهم رهط "برينياس "، ثم أخذ هو جواد الإمبراطور وساق به بعيدا وبالسيوف الطويلة، ثم انسل بين صفوف العدو لم يشعر به أحد، حتى إذا بلغ موضعا رآه آمنا أطلق لجواده عنانه وعليه الأزرار الذهبية والسيف الذى يعلق إلى يمين الإمبراطور أو يساره، كما بعث مناديا ينادى بصوت عالٍ بين صفوف الجند " أن قد سقط برينياس " فأسفر النداء عن عودة رجاله الذين كانوا قد فروا عنه فجاءوه من شتى النواحى والتفوا حول قائدهم من جديد. أما الذين ثبتوا منذ البداية ولم يتزحزحوا فقد شجّعهم هذا النداء على استعادة رباطة جأشهم فبقوا بلا حراك مشدودى الأبصار إلى المؤخرة وقد تملكتهم الدهشة العظمى مما يرون.

والحق أنه كان مشهدا بالغ الغرابة فقد كانت رقاب الجياد التى يمتطونها ممتدة إلى الأمام - أما راكبوها فوجوههم إلى الوراء دون أن يتقدّموا خطوة ووقفوا مبهوتين قد أُلجمت منهم الألسنة، لا يدرون شيئ مما يحدث ولا يدركون ماذا جرى. أما البشناق فلم يعد يشغلهم سوى التفكير فى الرجوع إلى ديارهم فنفذوا ما فكروا فيه ولم تعد لهم مصلحة فى متابعة القتال، حتى إذا بعدت الشقة بينهم وبين كلا الجيشين (١١) انطلقوا علي وجوههم حيث تقودهم أقدامهم ومعهم أسلابهم التى نهبوها.

وأدّى إعلان القبض على " برينياس " وخبر سقوطه إلى بث الشجاعة فى قلوب الذين كان الفزع قد استبد بهم منذ قليل والذين كان الخوف قد سيطر عليهم حتى فرّوا هاربين، وزيادة على ذلك فإنّ منظر الحصان الإمبراطورى وعليه رنك الإمبراطور ومنظر السيوف الطويلة... كل ذلك أقنعهم بصدق الخبر الذى سمعوه من أن " برينياس " الذى كانت معه هذه السيوف قد وقع فى قبضة خصمه.

ثم لعب الحظ دورا ملحوظا فى سير الأمور ونجاح ألكسيوس إذ صادفته فى بعض الطريق جريدة من الحلفاء السلاجقة فعلموا منها بما انتهت إليه المعركة فسألوه أين ذهب العدو فصعد بهم أكمة وأشار إلى الناحية التى مضى الخصم إليها فنظروا حيث أشار فأبصروا عسكر " برينياس " فتأملوهم وهم فى وضعهم هذا وكأنهم فى برج مراقبة، ولاح المنظر تحتهم على النحو التالى وهو أن رجاله لم يكونوا قد استعادوا تنظيم صفوفهم بعد، بل لازالت الفوضى ضاربة أجرانها بينهم وعليهم، وكأن أمرهم قد انتهى، وأن النصر التام كان لألكسيوس، فأخذهم الغرور بأنفسهم وظنوا أن قد زال الخطر. وكان الذى حملهم على هذا الظن الكاذب أن فرسان كتيبة الفرنجة قد ترجلوا عن جيادهم لهم وبسطوا لهم يمناهم جريا على عادة الكلت حين يقطعون العهد على أنفسهم، وحينذاك تجمّع حشد من شتى النواحى ينتظرون ما يجرى، وسرت شائعة فى الجيش تقول إن الفرنجة تخلُّوا عن قائدهم الأعلى ألكسيوس وانضموا إلى برينياس، ونظر أبى فرأى ما هم فيه من الفوضى، كما أنه أخذ بعين الاعتبار الأتراك الذين انضموا إليه منذ قريب، فأجمع العزم على تقسيم قواته المشتركة إلى ثلاث مجموعات جعل اثنتين منها كمينا قُرب التل وأمَر الثالثةَ بالزحف على العدو، وكان أبى صاحب الفضل فى هذه الفكرة، وحينذاك قام الترك بالهجوم لا ككتلة واحدة حسب التكوين

العادى بل جعلوا من أنفسهم وحدات منفصلة بعضها عن بعض، وجعل بين كل واحدة منها والأخرى مسافة معينة وأشار على كل طائفة بالهجوم وهى ممتطية جيادها حيث أخذت ترمى العدو بوابل هتان من النشاب. أما هو نفسه - وهو مخطط هذه الخطة - فقد سار فى الحال فى أثر الترك على رأس أكبر عدد أمكنه جمعه من عسكره المبعثرين هنا وهناك.

وحدث فى هذه الأثناء أنْ هبّ واحد من " الخالدين " العاملين تحت إمرته وكان فيه هوج ورعونة وركب جواده أمام الجميع وهمزه وأرخى له اللجام وانطلق مهاجماً " برينياس " وقذفه برمحه قذفة شديدة مستهدفا بها صدره، إلا إن برينياس نجح فى تحاشيها ولكنه استل سيفه قبل أن يبلغه الرمح الذى انكسر ذبابه ثم عاجل مهاجمه بضربة أصابت ترقوته، ثم مال عليه بكل قوته فضربه ضربة أخرى أصاب فيها ذراعه فقطعها من عند صدر درعه.

كان الترك فى هذه الأثناء قد كرّوا واحدا إثر الآخر على عدُوهم وهم يمطرونه بوابل من سهامهم التى تناوشته من كل جانب، وأحيط برجال " برينياس " من جراء هذه الهجمة التى جاءتهم على غير توقع منهم، إلا أنهم سرعان ما استردوا رباطة جأشهم وأعادوا ترتيب صفوفهم ونادى بعضهم بعضًا أن يتحملوا ضراوة الهجوم عليهم تحمل الشجعان الأقوياء، وإذ ذاك تظاهر والدى ومن معه بالانسحاب بعد أن اطمأنوا إلى الأرض تحت أقدامهم، فكانت هذه الحركة منهم حيلة أغرت العدو بتتبعهم ومكروا به حتى أبلغوه الكمين الذى كانوا قد نصبوه له، فلم يكد أولّهم يطلع عليهم المتخفّون به وذلك عند أول إشارة صدرت إليهم حتى انبعثوا من جهات شتى، وانطلقوا مع رجال ألكسيوس كأنهم أسراب الزنابير يهاجمون العدو ويصرخون فى وجهه صرخات مفزعة تصمّ الآذان، وراحوا يقذفونه من كل جانب بسيل عرم من السهام عميت منه الأبصار.

وإذْ أضحى عسكر " برينياس " فى حال لا يستطيع معها المقاومة لكثرة الجراح التى أثخنتهم هم وجيادهم فقد نكصوا على أعقابهم ونكّسوا راياتهم فأتاحوا الفرصة لخصومهم أن يضربوا مؤخرتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد أظهر "برينياس" ما دلَّ على

شدة مراسه وشجاعة قلبه، وثبات جنانه، إذْ تابع زحفه بجيشه الرئيسى رغم الأهوال التى تكتنفه، والبلايا المحيطة به، فكنت تراه آونة يغير على خصمه، وآونةً يشرف على الارتداد فيدل ارتداده على ما هو عليه من الشجاعة والحنكة. وكان على أحد جانبى الجيش أخوه، وعلى الجانب الآخر ابنه نقفور وهما يساعدانه فى القتال ويقاومان مقاومة بطولية أثارت إعجاب خصومهما حتى عَدُّوها ضربا من المعجزات. فلما رأى " برينياس " جواده قد كلّ من تحته ولم يعد قادرا على الانطلاق به أو حتى المشى من جراء ما ناله من النصب والجهد بسبب استمرار الهجوم عادَ فشدَّ لجامه ووقف وقفة البطل النبيل مستعدا للقتال، متحديا كبيرَين من كبار الترك أنْ ينازلاه، فرماه واحد منهما برمحه رمية لم تكن بالسرعة الكافية لكى تصرعه، فرد عليه " برينياس " برمية أقوى قذفتها يمينه فقطعت يد التركى فتَدَحْرجت هى وسيفه معا إلى الأرض، وحينذاك ترجّل التركى الآخر من فوق جواده ووثب وثبة الفهد القوية نحو دابة " برينياس " وتعلق بكفلها باذلا جهده فى محاولة يائسة لارتقاء متنها فدار " برينياس " حوله كأنه الوحش الضارى مستهدفا الحيلولة بينه وبين ما يريد فلم يفلح لأن هذا التركى الذى كان واقفا خلفه ظل يُداوِره ويراوغه متجنبا ضرباته، وانتهى الأمر أخيرا بأن كَلَّت يمين برينياس من الضرب فى الهواء، كما أنهكه الصراع فاستسلم لعسكر خصمه الذين أمسكوه وساروا به [١٢] إلى ألكسيوس وهم يشعرون بالمجد العظيم الذى أحرزوه. وكان أبى يقف حينذاك على مقربة من الموضع الذى أسروا فيه برينياس حيث كان والدى فى هذه اللحظة يعبئ مَن معه من رجاله ويرتِّب صفوفهم ويحثهم على القتال، وكان الرسل قد جاءوه قبل قليل بنبأ القبض على " برينياس " الذى أصبح واقفا بشخصه فى حضرة القائد. والحق أن برينياس كان مهيب المنظر سواء أكان محاربا أم أسيرا.

هكذا كانت صورة سقوط برينيس.

حينذاك بعث به ألكسيوس كأسير حرب إلى الإمبراطور بوتنياتس، ولم يحاول ألكسيوس سمل عينيه رغم ما طبع عليه ألكسيوس من الإصرار بالسمل بمن وقعوا فى أسره وهم يقاتلونه أما إذا استسلموا من غير قتال فإنه يعتبر القبض عليهم عقابا

كافيا لهم، ويعاملهم معاملة تنطوى على الإنسانية والرحمة والأريحية، ولقد أظهر أبى نفس الرفق حيال برينياس - بعد القبض عليه - فسار بعض الطريق حتى إذا بلغ الموضع الذى يسمونه [١٣] ... أراد مواساة الرجل فى محنته وبث العزاء الجميل فى نفسه فى المستقبل فقال له " هيا بنا ننزل عن ظهرى جوادينا لحظة ونستجم قليلاً"، فتوجس برينياس خيفة على حياته ووقف كأنه لم يع ما سمع. والحق أنه لم يكن ثم ما يدعو إلى المسامرة وكيف يتسنى له ذلك وهو اليائس من حياته. بيد أنه لم يتلكأ فى الاستجابة لاقتراح القائد إذْ ما الذى يقدر عليه رجل فَقَدَ كلَّ أمَلٍ له فى الحياة ؟ وهل يكون منه إلا الاستجابة ؟ ثم ما بالك بالرجل إن كان هذا الرجل أسير حرب !!

وترجل القائدان ونزلا عن ظهرى جواديهما وسرعان ما استلقى ألكسيوس على الحشائش الخضراء، استلقاءة على وسادة لينة استراحت لها رأسه واستغرق فى سبات لذيذ كما يقول الشاعر " كأن لم يذق جفناه النوم منذ شهرين [١٤] ".

أما ما كان من برينياس فقد رفع عينيه فأبصر السيف متدليا من بين الغصون فراح يقلب ناظريه ونفض عن نفسه غبار جزعه وغمرهُ الهدوء وربما حدَّثته نفسه بالوثوب على أبى واغتياله.

لقد كادت المكيدة أن تتمّ لولا أنْ حالت العناية الإلهية بين " برينياس " وبين إنجازها إذ زايله غضبه الوحشى على ألكسيوس ونظر إلى القائد نظرة طيبة.

وكثيرا ما سمعت ألكسيوس يروى هذه القصة التى يتعلم المرء منها - إنْ شاء - كيف أن الرب كان يدّخره لأمر عظيم سوف تتمخض عنه الأيام ويكون فيه استرداد القوة الرومانية لبأسها. أما المصير القاتم الذى لقيه " برينياس " بعدئذ فقد أصابه على يد غير أبى من رجال البلاط ولا دخل لأبى فيما جرى له بعدئذ إذْ لم يكن شريكا فى المصائب التى نزلت بـ " برينياس" حتى يُلام عليها.

(٧)

على هذه الصورة كانت خاتمة ثورة برينياس.

لكن على الرغم من انتهائها إلاّ أنّ القائد العظيم (ألكسيوس) لم يذق طعما للهدوء. إذ كان لا يفرغ من صراع حتى يواجه صراعا جديدا، ذلك بوريلوس[١٥] Borliuz المتبربر وأحد كبار أصحاب " بوتنياتس " قدم من المدينة وقابل ألكسيوس وتسلم منه برينياس ثم فعل به ما شاء أن يفعل، كما أنه أحضر معه مرسوما إمبراطوريا موجها إلى ألكسيوس يقضى بمتابعة الزحف لقتال " بازيلاكيوس " Bazilacius الذى كان قد تَوّج نفسه إمبراطورا، ونجح فى إثارة الاضطرابات فى الغرب مثلما فعل " برينياس "، وكان بازيلاكيوس هذا موضع الإعجاب الكبير لشجاعته وجرأته وقوته الجسمانية العظيمة، كما كان إلى جانب ذلك رجلاً محبا للسيادة، وقد اغتصب لنفسه وظائف الدّولة الكبرى وانتهب بعض الألقاب، فلما خلا الجو من برينياس أصبح هو خليفته فى قيادة حركة التمرد التى بَدَأها من" أبيدامنوس "Apidamnos عاصمة الليريا، ثم مضى حتى طرق أبواب مدينة "تساليا" العظمى مكتسحا كل مقاومة تعترضه فبادر الناس إلى اختياره للعرش والمناداة به إمبراطورا، ثم راح ينقل مشاة برينياس إلى ما شاء من الأماكن.

وربما كان من الأشياء الرائعة التى تكمل بها صورته [١٦] ما كان عليه من هيئة جسمانية آسرة وقوة عظيمة وهيبة ملكية، وقد تعاونت كل هذه الصفات لتخلب ألباب المواطنين والعسكريين الذين لم تكن نظرتهم تتجاوز ما وراء هذه المظاهر ولم تكن تصل إلى أعماق الرجل ومكنون صدره، فما كان يعنيهم أن يكون على قدر من الفضيلة، وما كانوا يكترثون إلا بروعة شكله وجرأته وفحولته وسرعة عدوه، ويرون أن هذه كلها صفات إنْ اجتمعت فى شخص ما أهلّته لارتداء الثوب الأرجوانى ووَضْعِ التاج على رأسه، وقد كان هذا الرجل (بازيلاكيوس) جامعا فى نفسه كل هذه الصفات، إلى جانب ما طُبع عليه من الشجاعة التى لا تقهر والإقدام الذى لا يُجارى.

ومجمل القول فيه أنه كان الرجل الذى يملك الهيبةَ الملكية، فكان قادرا بصوته المجلجل كالرعد أن يبثَّ الفزع فى جيش بأكمله، وكانت صيحتُه كفيلةً بزلزلةِ أثبت الناس جنانا، ولم يكن أحد بقادر على دحضه إن جادل، كما أنه كان خبيرا فى إثارة حمية الرجال للقتال وفى تغطيتهم فى الانسحاب والتراجع إنْ دعى داعٍ للانسحاب والتراجع، فكانت هذه هى مزاياه الطبيعية التى مكنته من السيطرة على الساحة ومن احتلال مدينة التساليين – كما قلنا – بجيشه الجرار.

وراح أبى يعدّ كلَّ ما ينبغى إعدادُه لصده وكان فى هذا العمل أشبه بمن يتأهَّبُ لقتال " تيفون " (١٧)عملاق أو مارد له مائة ذراع، فاستجمع كل فنون القائد البارع وتذرع بالشجاعة واستعد كما لو كان يستعد لمصارعة خصم عنيد، ولم يكن قد نفض عن كاهله بعد غبار المعارك السالفة، ولا مسح الدماء عن يديه أو عنْ سيفه حين خرج كالأسد الهصور مزودا بالآمال العراض يقاتل هذا الخنزير البرى طويل الناب المسمى " بلازيلاكيوس ".

ووصل أبى فى زحفه إلى نهر " الوردار " الذى يسميه أهل تلك الناحية بلسانهم " بارداريوس " والذى ينبع من الجبال القريبة من " ميسيا " Mysia ويخترق فى سيره أماكن عديدة، ثم يشق " بيرويا " Berroea شقين أحدهما شرقيه والآخر غربيه حتى يصب أخيرا فى بحرنا الجنوبى. وكان شأن هذا النهر شأن سواه من الأنهار الكبرى إذا اعترضتها أكمة غرينية عالية تدفقت مياهه واندفعت إلى الأرض المنخفضة هاجرةً موطنها الأصلى وتاركة المجرى القديم فارغا من المياه، وحينذاك تنحدر مياهُ القنوات الكثيرة فتملأ المجرى الجديد.

كان الشق القديم والمجْرى الجديد يقومان بين أُخْدُودَىْ نهر " الوردار " فرأى ألكسيوس – وهو الرجل البارع فى التخطيط الحربى – أنّ هذه الناحية هى الموضع المناسب لإقامة معسكره، فضربه هناك وكان ما حببه إليه أنه رآه يقى أحد جانبيه، على حين أن المجرى القديم الذى لا يبعد أكثر من مرحلتين أو ثلاث مراحل قد صار الآن هوة سحيقة القرار بسبب المياه، فرأى أن يتخذه خندقا هيَّأته له الطبيعة، لذلك أصدر أوامره فى الحال إلى الجيش أن يتوقف نهارا ليأخذ رجاله حظهم من النوم؛

تجديدا لقواهم ولتنال جيادُهم مزيدا من العلف، فإذا جاء المساء وأسدل الظلام ستاره على الكون نفضوا عن أنفسهم غبار النوم وهبوا من رقادهم استعدادا لهجوم قريبٍ قد يباغتهم به العدو، ويخيل إلى أنّ أبى قد اتخذ هذه الإجراءات متوقعا أن قد يأتيه الشر على غرة منه فى هذه الليلة، وتصور أن الأعداء مهاجموه هجوما عنيفا تحملهم عليه خبرتهم الطويلة أو أى سبب أخر.

ما كادت هذه الخواطر تخطر بباله حتى بادر إلى اتخاذ الإجراءات الضرورية، فغادر المعسكر على رأس جميع جنده وخرج بهم وهم فى كامل سلاحهم، وصحب معه كلَّ الخيول والميرة التى تحتاجها المعركة، وخلف المعسكر خاليا إلاّ من الأنوار التى تركها موقدة تضىء كل نواحيه ولم يترك بالمعسكر إلا رجلاً واحدا كان فيما سبق راهبا ثم التحق بخدمة ألكسيوس الذى تركه لحراسة خيمته وترك له معدات طعامه، وكان هذا الراهب يدعى " يوحنا الصغير " .

فلما بَعُد ألكسيوس عن هذه الناحية كثيرا جلس على الأرض مع جنده وهم فى سلاحهم فى انتظار ما يجدّ من الأمر.

كان ألكسيوس يعتقد أن " بازيلاكيوس " إذا ما رأى الأنوار تنير كافة أرجاء المعسكر وشاهد خيمة والدى تنيرها المشاعل تبادر إلى ذهنه أن أبى موجود فى المعسكر فيباغتهُ، فيكون فريسة هينة له.

(٨)

وصح ما توقعه ألكسيوس لأن بازيلاكيوس بادر فأغار على المعسكر على رأس عشرة آلاف رجل من المشاة والخيالة إذ رأى المعسكر مضاءً كله، كما أنه ما كاد يرى النور فى فسطاط القائد حتى اقتحمه بنفسه فى جنون وَحْشِى، صائحا صيحات مفزعة، لكنه جفل إذ لم يعثر فى أى مكان على الرجل الذى يسعى للقبض عليه، وإنما وجد نفرا من عامة الخدم فزاد صياحه واشتد هياجه وخار خوار العجل وقال " بحق الجحيم أين ولّى ذلك الألثغ ؟ "، وكان هذا هو أسلوبه فى السُّخرية بالقائد

ألكسيوس، وذلك أنه على الرغم من أن أبى كان من كل النواحى فصيح اللسان وخطيبا بالطبيعة ويبز منافسيه جميعا فى إدلائه بالحجج والبراهين القاطعة إلا أن حرف الراء عنده إذا نطقه كان فيه لثغة وإنْ تكن بسيطة لا يكاد يلحظها السامع ولكنه ينطق جميع الحروف نطقا سليما.

لم يترك بازيلاكيوس نقيصةً إلا أطلقها ينال بها من أبى، وقلب رأسا على عقب كل ما صادفه من الصناديق والأسِرَّة والأثاث حتى الوسادة التى كانت تحت رأس والدى كأنما كان يخشى أن يكون مختبئا فى شىء من هذا كله.

وكان بازيلاكيوس يحدِّق بين آونة وأخرى فى الراهب المسمى " يوحنا الصغير"، وكانت والدة ألكسيوس تصرّ على ابنها أن يصحبه فى كل حملاته فكان الرفيق الذى يُلازمه فى خيمته إذْ كان ألكسيوس الابنَ المطيع لأمه، المستجيب لما تشير به، ولم يكن ذلك منه فى أيام طفولته فحسب بل تعداه إلى الوقت الذى أصبح فيه زوجا وله امرأة.

لقد فتش بازيلاكيوس المعسكر تفتيشا دقيقا بحثا عن أبى فلم يقف على أثر له، ولم يكف عن التفتيش حتى فى الأركان المظلمة كما يقول أرستيفان.

كذلك أخذ فى الوقت ذاته يستفسر من " يوحنا الصغير " عن مولاه فلم يَزِدْ ردُّه عليه عن قوله إن ألكسيوس غادر المعسكر بكل جنده منذ حين.

حينذاك أدرك بازيلاكيوس أن قد غُرر به تغريرا كبيرا وأنَّه أهين إهانة بالغة لطَّخته بالعار وهوت به من عليائه، وإذ ذاك بدل لهجته وصاح " يا رفاق السلاح: لقد خدعنا العدو وفر منا ".

لكنه ما كاد يفرغ من كلامه هذا ويهمّ - بمن معه - بمغادرة المعسكر حتى فاجأهم أبى بالهجوم عليهم إذْ كان قد امتطى صهوة جواده وأسرع فسبق أصحابه غير مستصحب معه سوى نفر قليل منهم، ولمح واحدا من رجالات الخصم يعيد ترتيب الصفوف وينظمها لانصراف أغلب رجال بازيلاكيوس لنهب وسرقة كل ما كان أبى قد أعدّه، وبينما كان العسكر لا يزالون غير متأهبين للقتال إذا بوالدى يكر عليهم كرة حملت إليهم فى طياتها الشر المستطير، وكان ظن أبى أن الرجل الذى يعيد تنظيم

الصفوف إنما هو " بازيلاكيوس " نفسه، ومرجع هذا الظن ما كان عليه هذا الرجل من ضخامة الجثة، وما في يده من سلاح يبرق بريقا يعكس ضوء النجوم، فعاجله ألكسيوس بضربة بترت يده فسقطت في الحال على الأرض، وكان ذلك الحدث أمرا بَلْبَل خاطر العدو كل البلبلة، لكن ظهر أن هذا الشخص الذي أصيب لم يكن " بازيلاكيوس " وإنما كان واحدا من أتباعه المشهورين بالشجاعة العظيمة، بل كانت الشجاعة أدنى مراتبه.

واستمر ألكسيوس يتابع صولة هجومه السريع على الأعداء فما يصيب أحدا منهم بسهمه أو يشكه برمحه إلاّ أهلكه وأرْداه، كل ذلك وهو يصرخ صرخة الحرب، دافعا إياهم إلى الظلام، ومستغلا كل شيء لصالحه: زمانا كان أو مكانا أو سلاحا، وهو في كل ذلك يحسن استعمال هذه الأشياء بروح ملؤها الشجاعة، وعزم لا تلين قناته. ولم يخطئ قط التمييز بين العدو والصديق وهو يرصد الرجال وهم يجرون هنا وهناك.

وكان ثم رجل من أهل جولز كان خادما وفيا لأبي ومحاربا صنديدا صلب العود نظر فرأى " بازيلاكيوس " فلما أيقن أنه هو وأنّ نظره لم يَخُنْه فيه سدد ضربة إلى خوذته، غير أن سوء الطالع أبَى إلاّ أنْ يتحطم السيف الذي في يده إلى ثلاث قطع أو أربع ولم يبق منه في يده سوى مقبضه (وكان شأنه في ذلك الموقف شأن مينالاوس في قتاله باريس) فلما رآه القائد على هذه الصورة سخر منه وعيَّره أنه لم يكن قادرا على تشديد قبضته على حسامه ثم نعته بالجبان ثم ما لبث أن هدأ حينما أراه "مقبض" السيف في يده.

كذلك كان هناك رجل مقدوني آخر اسمه بطرس التورنيكي " انقض " على قلب العدو وفتك بعدد كبير من رجاله.

والواقع أن الجيش كله كان يَتْبع ألكسيوس تبعيةً خالصة دون أن يدري بما هو جار، وكان السبب في ذلك أن المعركة جرت تحت جنح الظلام ولم يكن في استطاعة أحد أن يرى مدى التقدم في القتال، وقام ألكسيوس فاتّجه إلى هذا الصف من العسكر الذي كان سالما وهاجمه وترك خصومه صرعى وعاد إلى جنده حاثا إياهم على تحطيم

تماسك ما بقى من قوات " بازيلاكيوس " ثم بعث بالرسل إلى مَن فى المؤخرة يأمرهم بالمبادرة إلى اللحاق به والانضمام إليه على جناح السرعة.

بينما كانت هذه الأحداث تجرى هنا وهناك إذا بجندى كِلْتىٍّ شجاع من جنود ألكسيوس يخرج من بين صفوف العدو وسيفه المسلول يقطر دما فظنه واحدا من رجال العدو فبادر إلى الهجوم عليه وسدد حربته إلى صدره وأوشك أن يسقطه من على ظهر جواده لولا أن ألكسيوس كان قد ثبت نفسه فى سرجه على أحسن صورة، ثم ناداه أبى باسمه، وهدده بقطع رقبته بسيفه، ولولا ما فعله ألكسيوس فى هذه اللحظة لأصابته رمية الجندى الكلتى ولأسقطه من فوق حصانه ولهلك أبى، ثم أسرع الكلتى فاعتذر عما هَمّ به بسبب عدم قدرته على معرفة مولاه فى هذا الظلام ووسط هذا الأتون المستعر من القتال، ولولا هذا لكان أبى فى عداد الموتى.

(٩)

هكذا كانت بطولات الدومستيك العظيم فى تلك الليلة وهو على رأس طائفة قليلة من جنده، على أنه ما كادت طلائع الفجر الوليد تطل على الكون وتتأهب الشمس للخروج من خدرها لتضىء الأفق حتى بذل رجال " بازيلاكيوس " همتهم لجمع الرجال الذين كانوا قد غادروا ساحة المعركة وانصرفوا لحشد كل من يمكن الوصول إليه، على حين أخذ ألكسيوس فى تنظيم جيشه ومعاودة الهجوم، فلما رأى رهط من رجالاته بعضَ رجال العدو على مقربة منهم كروا عليهم كرة ضارية وأحْدَقُوا بهم وفتكوا ببعضهم ثم عادوا ببعض الأسرى، وتقدم مانويل أخو " بازيلاكيوس " فارتقى رابية صغيرة وراح يشجع جيشه صائحا فيهم فى صوت مجلجل " اليوم يوم بازيلاكيوس ... اليوم يوم النصر ".

وحينذاك برز واحد من أصحاب " برينياس " اسمه " باسيليوس " ويلقب بـ" كورتيكيوس " وكان موضع ثقته، وقد أشرْتُ إليه فى تاريخى هذا إذ كان مقاتلا فذًّا

لا يغلبه أحد وخرج من بين صفوف أبى وتقدم فصعد الأكمة، وإذ ذاك استل " مانويل" حسامه وهو يتفجر غضبا واندفع اندفاعا وحشيا نحو " كورتيكيوس " الذى لم يستعمل سيفه لكنه اختطف الهراوة المدلاّة من سرج جواده وضرب مُهاجِمَه على يافوخه ضربة طرحته أرضا ثم سحبه إلى أبى أسيرا كغنيمة حرب، وبينما كان هذا الأمر يجرى إذا بالبقية من جيش بازيلاكيوس ترى ألكسيوس قد طلع عليهم بفيالقه الخاصة فلم تستطع الصمود فى وجهه، بل سرعان ما لاذت بالفرار وفرّ معهم " بازيلاكيوس " فطارده " ألكسيوس " حتى انتهى فى مطاردته إلى " تسالونيك " فخرج أهالى البلد مرحبين ببازيلاكيوس وأغلقوا أبواب مدينتهم فى وجه خصمه فلم يؤثر ذلك فى والدى ولم يحمله على السكون أو خَلْعِ درعه أو نزع مِغْفَره أو فك درقته أو إلقاء سيفه جانبا، بل نصب معسكره وهدّد أهل البلد أنه مهاجم أسوارهم ومُنْزِلُ الخراب والدمار بالمدينة، ومع ذلك فإنه كان حريصا على أن يحفظ على " بازيلاكيوس " مهجته. ومن أجل ذلك عرض الصلح على يد رفيقه " يوحنا الصغير" الذى كان معروفا باستقامته، وكان فحوى ما عرضه هو ألاّ يسيء معاملةَ " بازيلاكيوس " إن هو استسلم له واستسلم معه البلد، وزاد ألكسيوس على ذلك بأن قطع العهد على نفسه بالوفاء بما عاهد، ولكن الطرف الآخر لجَّ فى عناده، فخاف أهل " تسالونيك " أن تسقط المدينة ويصيبها من نكد الطالع ما يجر عليها الأذى، وإذ ذاك لم يجدوا بدًا من السماح لكومنين بدخولها، فلما رأى بازيلاكيوس ما فعله أهل البلد مضى فاختفى بالأكروبوليس لكنه كان بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، وقد فعل ذلك كله على الرّغم من أنّ الدومستيك تعهد له بشرفه أن لن تمسه مضرة أو يصيبه سوء، ولكن " بازيلاكيوس " أصرَّ على متابعة القتال رغم الأخطار الجمة المحيقة به، فدل على أنه محارب عنيد لا يعرف النكوص ولا التراجع.

ولما كان بازيلاكيوس رجلاً شجاعا مصرا على ما يراه فلم يكن ثَم أحد بمستطيع أن يزحزحه قيد أنملةٍ عن موقفه حتى طرده سكان القلعة والحراس بالقوة وأسلموه إلى ألكسيوس الذى سرعان ما علم بخبر القبض عليه.

ولقد ظل أبى مقيما فى تسالونيك برهة من الزمن راح يصرف فيها أمورها على أحسن الوجوه قبل أن يعود إلى العاصمة متوجا بالنصر.

وبينمـا كـان فى بعض الطريق بين مـدينتى " فـيليـبى " و " أمـفـيـبـوليس " Amphipolys إذا به يقـابل رسـلا من الإمـبـراطور يحـملون إليـه تعليـمـاته المكتـوبة ويسلمـونهـا إليـه يدا بيـد، وكـانت تتـعلق ببـازيلاكـيـوس الذى تسلمـوه بمقـتضـى هذه التعليمات وأخذوه فى حراسـتهم وسـاروا به إلى مكان يسمـونه " خلمبينا " Chilmpina وسملوا عينيه عند النبع الموجود هناك والذى لازال حتى اليوم يعرف بنبع بازيلاكيوس. وهكذا كـان هذا العـمل هـو الإنجـاز الثـالث الذى نهض به ألكسـيـوس قـبل أن يصـبح إمـبـراطورا فـاسـتحق بذلك أن يكون هرقلاً ثـانيا، لأنك إنْ وازنت بازيـلاكيوس بـخنزير الأمنتى البرى ووازنت بين أبى وبين أى هرقل حديثٍ فلن تعدو مـحجة الصـواب. وإن مـجال القـول لفـسيح عن انتصـاراته وإنجـازاته، لذلك لم يجـد الإمـبـراطور- وقـد أراد مكافـأته على كل مـا فـعل - إلا أن يخلع عليه لقب سيبـاسـتوس تشـريفـا لقـدره، ووافق مجلس السينيت على هذا النعت بإجماع الآراء.

(١٠)

وإنه ليـخـيل إلىَّ أن أمـراض البـدَن تزداد خطورة فـى بعض الأحـيـان بسـبب علل خـارجـيـة، ولكن ممـا لا شك فـيه أن هـنـاك مـواقف تكون بهـا أعضـاء الجسم ذاتهـا هـى مـصـدر العلل، وكـثـيـرا مـا نُنْحى باللائمـة فـيـهـا على تقلبات الجـو وننسـبـهـا فى بعض الأحيان إلى الطعام لا سـيـمـا حين نقـع فريسـة للحمى، وأقول بنفس الطريقة إنْ تَرَدّى الأوضاع الداخلية فى الدولة الرومانية حينذاك قد أدى إلى كوارث فادحة، وأعنى بذلك الرجـال المشار إليهم من قبل أمـثال " روسيل " و " بازيلاكيوس " وجميع الطامعين فى العـرش والمتطلعين لاعـتـلائه. وإن كـان القدَر فـى بعض الأحـيـان يأتـى بأدعـيـاء غـربـاء يكونون شرا يصـعب التغلب عليه ويصبحـون علة لا يرجى الشفاء منها ومن أمثال هؤلاء الفاجر " روبرت جيسكارد "، ذو السيرة القبيحة بسبب ما طُبع عليه من الطغيان.

كان روبرت هذا نورمنديا ولكنه من بيئة وضـيـعة، تربـى فى أحضـان الشـر ورضـع لبانه، وقد انطوت نفسيتـه على كراهـيـة شـديدة للإمـبـراطورية الرومـانيـة، ووجدت هذه

الكراهية متنفسا لها فى إعلان عدائها ضد قواتنا فى شَنِّها الحرب عليها بسبب الزواج من أجنبى متبربر وهو زواج غير صحيح من وجهة نظرنا، ولعل الأدق من هذا أن نعود باللائمة على تهور الإمبراطور الذى كان موجودا حينذاك حيث ربط أسرة روبرت هذا بأسرة دوكاس. ولا يغضبنّ أحد منى إن أنا أمَطتُ اللثام عن خطيئة اقترفها من تربطهم بى رابطة الدم ووشيجة القربى لأننى أنتسب من جهة الأم إلى بيت دوكاس، ولكنى أوثر أن أقول الحَقَّ ولا شىء غير الحق إذ أعود باللوم الشديد على الرجل الذى أُندِّد به على رءوس الأشهاد وهو الإمبراطور ميخائيل دوكاس، يوم وعد أن يزوج ابنه قسطنطين من ابنة هذا المتبربر روبرت جيسكارد مما أسفر عن عداوات بينهما وسوف أتكلم فى ثنايا كتابى هذا وفى الموضع المناسب عن قسطنطين (ابن ميخائيل) وعن شروط عقد زواجه وعن الحلف الأجنبى، كما أتكلم أيضًا عن مظهره الجذاب وصفاته الجسمانية والخلقية حينما أروى قصة مأساة حظوظى التعسة، ولكنى سوف أُقدّم قبل ذلك خبر هذه الخطبة المقترحة وهزيمة كل القوة البربرية وتحطيم هؤلاء الأدعياء القادمين من "نرمنديا "، وهم أدعياء رفعهم ميخائيل برعونته ليكونوا قوة ضد الإمبراطورية الرومانية. ولكن يجب علىَّ قبل كل شىء أن أرجع بقصتى إلى الوراء قليلاً وأصف هذا الرجل روبرت وأُلِمَّ بأصله وسيرته، كما يجب علىَّ أن أوضح كيفَ رفعته الظروف إلى معارج القوة وذروة البأس، وأن أتكلم باحترام أكبر كيف مكنته العناية الإلهية من التقدم، متغاضية عن أطماعه القذرة ومكائده الدنيئة.

(١١)

كان روبرت هذا نرمندى المولد مجهول النبعة وكان على جانب كبير من الجبروت فى الخلق، وكان خسيسا أشد الخسة وإن كان مقاتلاً شجاعا، وعنده حيل ومكر فى نهب أموال الناس وسلب سلطانهم، كما كان دائب السعى والعناد فى مسعاه لتحقيق أهدافه، كما كان إلى جانب ذلك كله حاضر البديهة فى دفع كل ما يوجَّه إليه من نقد[١٨] .

أما من الناحية الجسمانية فقد كان ضخما ضخامة دونها أضخم الناس هيكلاً وهيئة، وكان متورد الخدّين، أشقر الشعر، عريض المنكبين، يخيَّل للناظر إلى عينيه أنهما تشعان نارا، وأن المرء ليتوقع فى أى امرئ مهما حَسُن بنيانه أن يكون عريضا هنا ونحيفا هناك، أما روبرت فكان كل شىء فيه متناسقا، وهو حسن السمات من رأسه إلى أخمص قدميه، ولقد تكرر سماعى هذا الوصف ينعته به الكثيرون ممن شاهدوه. وإذا كان " هومير " قد لاحظ فى " أخيل " أنه كان إذا صاح خُيِّل إلى سامعيه أنّ هناك الكثيرين يزأرون معا فإنّ صوت روبرت - كما قالوا - يحمل عشرات الآلاف على الفرار حين يصل صوته إلى آذانهم. ولك أن تتوقع فيمن كان على هذه الصورة وتلك الصفات أن يكون ذا تكوين وطبيعة وروح تجعله كلها لا يسمح لأحد أن يظهر عليه، كما أنه هو لا يدين قط بالطاعة لأى امرئ فى العالم، وهذا ما يقوله الناس عن الرجال الذين من هذا القبيل حتى وإن كانوا يرجعون إلى أصل تافه.

على هذه الصورة التى كان من المستحيل معها أن يطيع روبرت أحدا خرج روبرت من نرمنديا فى نفر من الرجال لا يزيدون عن خمسة فرسان ومعهم ثلاثون من المشاة، وما كاد يغادر مهبط رأسه حتى انطلق يتحرم على جبال لمبارديا وفى كهوفها، واستطاع أن يضم إليه عصبة من الصعاليك والشطار راح يقطع بهم الطرق على سالكيها، ويهاجمهم فيغنم جيادهم حينا، ويسلبهم أمتعتهم حينا آخر، وهكذا اتسمت أوليات حياته بسفك الدماء وقتل الخلق.

لكن لم تغفل عنه أثناء تحرّمه عينُ وليم ماسكابيليس الذى شاءت الظروف أن يكون حاكما حينذاك على معظم الإقليم المتاخم للمبارديا مما هيأ له الحصول سنويا على دخل كبير من هذا الإقليم، إلى جانب ما جمعه من قوات كبيرة من نفس المنطقة حتى أصبح هو فيها الحاكم بأمره والأمير المرهوب الجانب.

لقد عرف " ماسكابيليس " أى نوع من الرجال كان روبرت جيسكارد لا سيما من الناحية الأخلاقية والجسمانية، فتنكب طريق السداد حين ضمه إليه وزوّجه إحدى بناته، واحتفل بقرانهما، وكان الذى شده إليه وأعجبه فيه هو شدّة بطشه وكفاءته فى القتال، غير أن الأمور لم تجر كما كان يشتهى ولا سارت وفق ما كان يتمنى فقد أقطعه

" ماسكابيليس " إحدى المدن مهرا يقدمه لزواجه من ابنته، ولم يدّخر وسعا فى أنْ يحبوه بصادق حبه، إلا أن ذلك لم يمنع روبرت من التآمر والتمرد وتدبير المكائد له، فتظاهر في بادئ الأمر بحسن النية وكان ذلك منه رياء، وإنْ عمل فى الوقت ذاته على دَعْم قوته فزاد فرسانه حتى بلغوا ثلاثة أضعاف ما هم عليه، كما استكثر من مشاته، فلما تم له ذلك كله لم يعد هو ذلك الرجل الرقيق الحاشية فتلاشى أدبه وأسفر بالتدريج عن حقيقة ذاته وكشف عن سوء طويته، فلم يكن يمضى يوم دون أن يفتعل المنازعات ويفتتم من الأحداث ما يؤدى إلى المنازعة والمشاكسة، ولم يكفّ أبدا عن الشجار.

ولما رأى روبرت جسكارد أنّ " جاليلموس ماسكابيليس " يبزه فى الثروة والبأس فقد تحاشى المجاهرة بالعداء له ولكنه لجأ إلى تدبير مؤامرة دنيئة ذلك أنه فى الوقت الذى كان يتظاهر فيه بالود له ويخرج عليه بوجه صاف كالنمير كان يحيك له فى السر مكيدةً مفزعة وقد نجح تماما فى كتمانها، وقد استهدف من ورائها الاستيلاء على كل مدن " ماسكابيليس " والسيطرة على جميع أملاكه، وكانت أول خطوة له فى هذا السبيل هو أنه راح يلتمس منه إجراء لقاءات بينهما تؤكد روابط السلام، وزاد فبعث إليه سفارة تسأله القدوم شخصيا عليه بغيةَ التباحث معا، فرحب " الآخر " بفرصة السلام هذه نظرا لشدة تعلقه بابنته التى هى زوجة روبرت، وتمّ الاتفاق على أن يكون اللقاء فى الغد، واقترح روبرت عليه موضعا رآه مناسبا يلتقيان فيه ويتباحثان فيما يُجْدِيهما نفعا ويخدم مصالحهما المشتركة.

لقد كان هناك جبلان شاهقان متساويان فى الارتفاع ينهضان فى السهل المنبسط، وكل منهما فى مواجهة الآخر، فأمّا الموضع الفاصل بين الجبلين فأرض كثيرة الأشجار والحشائش، وكان روبرت الماكر قد نصب فى هذا الموضع كمينا قوامه أربعة من رجاله الأشداء المدججين بالسلاح، وأمرهم أن يرصدوا كل ناحية رصدا دقيقا وأن يبادروا بالإسراع إليه حينما يرونه قادما لمفاوضة حميه.

حين فرغ الوغد من هذه الترتيبات الأولية غادر التل الذى كان قد ذكره لجاليموس ووصفه له " بأنه أنسب مكان للقاء المنشود " ثم مضى هو إلى التل الآخر حيث جمع

خمسة عشر فارسا وما يقرب من ستة وخمسين من المشاة، وتسلق بهم جميعا التل وأبقاهم هناك دون أن يفصح عن الموضوع إلاّ لأقربهم منه وأكثرهم وثوقا به، وكلف أحدهم أن يحمل عنه سلاحه ودرعه وخوذته وسيفه القصير ليتمكن من تسليح نفسه بسهولة، ثم وضع أربعة في كمين من الكمائن بعد أن نبّه عليهم أن يهبّوا سراعا لمساعدته حين يرونه يشتبك مع " ماسكابيليس " في الصراع.

وجاء " جاليلموس " في الموعد المحدد المتفق عليه وفي عزمه الاتفاق مع روبرت، وصعد إلى قمة التل حيث الموضع الذي حدده له روبرت الذي لم يكن بعيدا عنه، فلما رآه خفّ إليه راكبا جواده وحياه وصافحه بهز يده في ود بالغ وحب واضح، ثم سارا معا إلى المنحدر الموجود أسفل القمة، فلما بلغاه توقفا وأخذا يتحدثان عما اعتزماه، وعمد روبرت إلى المكر فأطال الحديث والثرثرة، وراح ينتقل من موضوع إلى آخر ثم قال له في النهاية " لماذا نجهد نفسينا بالبقاء على ظهري جوادينا ؟ هلا ترجّلنا وافترشنا أديم الأرض فنستطيع أن نتدبر في راحة ما نعتزمه "؟ فوافقه الآخر الغر المسكين غير مدرك مدى الخيانة التي بيّتها له روبرت والخطر المحدق به، لذلك فإنه ما كاد يرى روبرت ينزل عن صهوة جواده حتى عاود الحديث متكئا على الأرض بمرفقيه، وكشف له روبرت عن أنه سيكون في مستقبل الأيام الخادم المطيع، وأكّد ذلك بأن ناداه بالمولى المنعم والسيد السند.

وأبصر أتباع ماسكابيليس الرجلين يترجلان ويأخذان في الحديث من جديد، وكان الضجر قد تسرب إلى نفوس هؤلاء الرجال بسبب حرارة الجو وحاجاتهم إلى الطعام والشراب، فقد كان الوقت إذ ذاك صيفا والساعة حينذاك هي الساعة التي تلقي فيها الشمس بأشعتها فوق رءوسهم، فلم يعد الجو يطاق فترجل بعضهم عن خيولهم وربطوها إلى جذوع الشجر وانطرحوا أرضا مستظلين بظل الخيل وفَيْء الأشجار، على حين أن البعض الآخر انقلبوا إلى مساكنهم وكان هذا غاية ما يرجوه روبرت الثعلب الماكر الذي ما إن رأى كل شيء يتم وفق هواه حتى أسرع فجذب" ماسكابيليس " بجماع قبضته على حين غرة منه، واستحالت رقته إلى فظاظة شرسة وهجم عليه يبغي هلاكه فاجتهد الآخر في مقاومته ودافَعه، فتدافعا فتدحرجا على المنحدر وحينذاك نهض الأربعة الذين كانوا مختفين وقد رأوا ما رأوا وكرّوا على "جاليلموس " وأمسكوه

وشدوا وثاقه وانقلبوا على أعقابهم كأنهم يريدون اللحاق بفرسان روبرت الذين كانوا واقفين على الربوة الأخرى والذين كانوا قد أسرعوا نحوهم، ووراءهم رجال "جاليلموس".

أما روبرت فقد امتطى صهوة جواده وهزّ رمحه وسرعان ما تأبطه وحمى نفسه بدرعه ثم دار حول واحد من عسكر " جاليلموس " وطعنه برمحه طعنة صرعته فجندلته أرضا فتمخض هذا العمل من جانبه عن أمرين أحدهما هو أنه صد اندفاع فرسان حميه، وثانيهما أنه أحبط محاولتهم إنقاذه مما ترتب عليه أن ولت بقيتهم وأدبروا فرارا حين أبصروا فرسان روبرت كارّين عليهم من فوقهم مستفيدين من وجودهم في موضع مرتفع من الأرض، وبهذه الطريقة أوقف روبرت هجوم البقية الباقية من رجال " ماسكابيليس " الذي سرعان ما كبله خصومه بالسلاسل كما لو كان أسير حرب وانطلقوا به إلى نفس القلعة التي كان قد وهبها لختنه روبرت كهدية مهر حين زفَّ إليه ابنته، وهكذا قُدِّر لهذه المدينة أن تفتح بابها لصاحبها فيدخلها أسيرا مكبلا في الأصفاد وكان من الطبيعي أن تسمى بعدئذ " بيت الأسير ". لقد كانت تفاصيل وحشية روبرت بالغة غاية الرعب إذ ما كاد يطمئن إلى وجود " ماسكابيليس " في يده حتى عمد إلى خلع أسنانه واحدة بعد أخرى، ومطالبا إزاء كل واحدة بمبلغ كبير من المال راح هو يقدره بنفسه، ثم سأله أين يخفي ثروته ولم يَكُفَّ عن تعذيبه حتى خلع كل أسنانه واستفرغَ كل ما عنده من مال ثم التفت إلى عينيه ففقأهما فحرمه نعمة البصر.

(١٢)

هكذا أصبح روبرت سيد الموقف والجميع. وأخذت قوته منذ ذلك اليوم تزداد بأسًا، وكلما ضخمت مطامعه ضم لنفسه مدينةً جديدة، وزاد تدفق المال بين يديه حتى صار أكواما بعضها فوق بعض. ومختصر القول إنه تسنم ذروة القوة ولُقِّب بدوق لمبارديا كلها مما أثار غيرة الجميع منه ولكنه استطاع بفضل ما عليه من الدهاء أن يخفف من نقمة الناس عليه وتحركاتهم ضده. فراح يداهن البعض ويبسط كفه بالرشوة إلى البعض الآخر، وهكذا استطاع بمكره أن يُذْهِب نقمة النبلاء عليه وغيرتهم منه، وإن

لم يمنعه ذلك من اللجوء بين آونة وأخرى إلى السلاح، واستطاع بهذه الوسائل المختلفة أن يبسط سيطرته على جميع " لمبارديا " وما حولها، ولكنه كان يفكر على الدوام فى تحقيق مشروعه الذى يطمع فيه، فاتخذ من مصاهرته الإمبراطور ميخائيل ذريعة لتحقيق مآربه والتطلع إلى ارتقاء العرش، مما أدّى إلى إشعال الحرب ضد الرومان من جديد، وكنتُ قد ذكرت من قبل كيف أنّ ميخائيل وافقَ- بسبب بالغ الغرابة - أن يزوج ولده قسطنطين من ابنة روبرت واسمها " هيلانة ".

إن الحسرة لتأكل نفسى وتضطرب أفكارى غاية الاضطراب كلما تذكرت هذا الصبى الذى سأرجئ الحديث عنه إلى موضع آخر يكون ملائمــا للكلام عنه، وإن كنت لا أستطيع كبح جماح قلمى من أن أقول - وإن لم يكن الموضع مناسبا - إنه كان تحفة الطبيعة وآية من إبداع الخالق، وكان يخيل للناظر إليه أنه أمام واحد من نسل رجال ميثولوجية العصر الإغريقى الذهبى، إذ ما كان لحسنه حد ولا نهاية، وإنى لتغلبنى الدموع فلا أستطيع حبسها حين أتذكر هذا الشاب بعد تلك السنين الطويلة، لكننى أكتم شجنى وأدّخره إلى مواضع الشرف " حتى لا أفسد التاريخ " إنْ أنَا قرنت حزنى الذاتى بالسرد التاريخى.

لقد ولد هذا الشاب الذى أذكره الآن وفى مواضع أخرى من هذا الكتاب قبل أن أرى نور الدنيا وقبل أن أخرج إلى الوجود وتمت خطبته لهيلانة، وكان فى صباه غلاما عفيفا، نقى السريرة، وكتبوا كتابا اتفقوا فيه على زواجه منها وإن ظل مجرد اتفاق لم يوضع موضع التنفيذ؛ لأن قسطنطين كان لا يزال إذ ذاك صبيا غريرا لا يعرف شيئا من أمور الحياة، وما كاد " نقفور بوتنياتس " يصبح إمبراطورا حتى فسخ هذا العقد.

لقد بعدْتُ عن موضوعى الأصلى وعلىّ الآن أن أكفّ عن الخوض فى هذه القضية لأعود إلى الموضوع الذى كنت أتكلم فيه.

كان روبرت جيسكارد قد بلغ الذروة العليا بعد أن كان فى الحضيض الأسفل، وحشد حوله قوات شديدة السطوة لا تنقاد إلا لأمره ولا تستجيب إلاّ إلى إشارته، فمد ناظريه لأن يكون " إمبراطورا رومانيا "، متذرعا فى ذلك بما يبرر مسلكه المعادى للرومان وبما يغريه بمحاربتهم.

وتوجد روايتان حول هذا الموضوع وإن خالفَتْ كل منهما الأخرى تمام المخالفة، أما إحداهما - وكانت واسعة الانتشار وهى أول ما طرق سمعى - فتقول إنه كان هناك راهب اسمه " ريكتور" انتحل شخصية الإمبراطور ميخائيل دوكاس وفر إلى روبرت والد الفتاة المفترض زواجها من قسطنطين، وألقى هذا الراهب على مسامع روبرت جسكارد قصة محزنة عن حظه الأسود.

وكان الإمبراطور ميخائيل هذا - كما نعلم - قد وضع التاج الرومانى على رأسه بعد "رومانوس ديوجين" ، واعتلى العرش لفترة وجيزة، ثم نازعه العرشَ الثائرُ " بوتنياتس " فسلبه منه، فما كان من ميخائيل [دوكاس السابع] إلا أن ترهّب واعتكف فى الدير ولبس مسوح الرهبان وهى عباءة القس الكبير وقاووقه، وكان الذى أشار عليه بالانخراط فى سلك الرهبنة هو عمه القيصر يوحنا لعلمه بما كان عليه الإمبراطورالحاكم بوتنياتس من تقلب الأهواء تقلبا لا يؤمن معه أن يَلقَى ميخائيل على يده أسوأ المصير.

حينذاك ادعى الراهب المذكور " ريكتور " أنه هو ميخائيل [الإمبراطور المخلوع] وجاء إلى روبرت جسكارد، وكيف لا يفعل ذلك وبينهما ما يزعمه من وشيجة المصاهرة! ثم اختلق عنده قصة الظلم الذى حاق به وكيف تمثّل هذا الظلم فى حرمانه من التاج الإمبراطورى حتى بلغ من الذل ما هو عليه الآن ممِّا لا يخفى على أحد، ثم التمس من روبرت - لكل هذه الأسباب - أن يمدُّ له يد العون وأن يساعده، وكان مما قاله له إن الشابة الجميلة " هيلانة " بنت روبرت زوجة ابنه قسطنطين قد أصبحت بلا نصير وانقطع ما كان يربطها بخطيبها.

ثم صرح علانية بأن الإمبراطورة " مارية " وابنه قسطنطين انضما مرغمين إلى حزب " بوتنياتس " فأثار هذا الزعم الذى قاله " ريكتور " غضب ذلك المتبربر روبرت ودفعه لحمل السلاح لمحاربة الرومان.

على هذه الصورة كانت القصة التى بلغت سَمْعى، ولستُ أرى شيئا غريبا أن يقوم نفر معين من أحط الرعاع فينتحلون لأنفسهم صفات غيرهم من أصحاب الأصول الشريفة والسمعة النقية.

أما الرواية الأخرى التى سمعتها فى شأن هذه القصة فلربما كانت أكثر إقناعا إذ تقول إن الشخص الذى ادعى أنه الإمبراطور ميخائيل لم يكن راهبا، كما أن روبرت لم يكن فى حاجة لمن يحركه إلى قتال الرومان فالقضية بأكملها من اختلاقه هو ذاته ومن نسج خياله، ثم جرت الأحداث على الوجه التالى إذ قال الناس إن روبرت - بسبب خبث طويته وفساد سريرته - يسعى لتلمس سبب يبرر به محاربته الرومان، لكن كان يمنعه من ذلك رهط من أصدقائه الذين عُرفوا بالسمعة الطيبة وبُعْد النظر ومنهم زوجته غيطة Gaita بحجة أنه إن حارب الرومان فحربُه إذ ذاك ظالمة، إلى جانب أنها تكون موجهة ضد المسيحيين، ولقد ترتب على ذلك أن اضطر مرارا عدة إلى إرجاء القتال الذى تمنى أن يشنه عليهم، لكنه لما كان مجمعا العزم على تلمس مبرر وجيه يؤيده فيما يشتهيه فقد قام بإرسال بعض الرجال إلى "كوترون" Cotrone مزودين بتعليماته بعد أن أفضى إليهم أولاً بخطته السرية التى تتلخص فى أنهم إن صادفوا أى راهب يهم بركوب البحر من هناك إلى إيطاليا ليزور مقام الرسولين العظيمين راعِيَىْ رومة وتدل هيأته على نبالة أصله فعليهم معانقته وإظهار الفرحة به وكسب مودته وصداقته ثم عودتهم به إلى روبرت. والتقوا فى بعض الطريق بـ " ركتور " المشار إليه الذى كان رجلا ماكرا وداهية فطنا ومجرما مولغا فى الإجرام، وحينذاك بعثوا برسالة إلى روبرت الذى كان إذ ذاك فى سالرنو ضمنوها قولهم: " نسيبك ميخائيل المخلوع من عرشه وصل وهو يطلب منك أن تعينه وتؤيده "، وكانت هذه علامة السر بينـــهم وبين روبرت، وإذ ذاك خرج روبرت فى الحال إلى زوجته " غيطة " حاملا هذه الرسالة وتلاها عليها فى صوت مرتفع وهما على انفراد، ثم قام هو فجمع كل الكونتات وأطْلعهم عليها، واعتقد أنه وجد لهم وعندهم المبرر الشرعى له الذى يمنعهم من التفكير فى معارضته فى خططه، فلما ضمن تأييدهم له عن بكرة أبيهم فيما اعتزمه وأنهم لن يترددوا فى مساعدته بعث إلى " ريكتور " فجاءوه به وتعرّف عليه ثم قام فأخرج التمثيلية خير إخراج إذْ أبرز لرجاله الراهب، وقال لهم عنه إنه هو الإمبراطور ميخائيل المخلوع عن عرشه، وأن المدعى " بوتنياتس " قد احتجن لنفسه كل ما كان يملكه ميخائيل وأنه تجاوز مبادئ الحق والعدالة، وتعدى حدود المعاملات الشريفة فسلب من الإمبراطور

التاج والعصابة الإمبراطورية وألبسه رغم أنفه مسوح الرهبان ، ثم قال روبرت للكونتات: " والآن ها هو ذا ميخائيل قد سعى إلينا يلتمس منا معاونته وتأييده ".

ثم مضى يعلن هذه الأخبار للجميع وقال: " إنَّ أحقَّ الأمور بالصدارة والأولوية المفروضة عليّ هى أن أعيد هذا الميخائيل إلى عرشه ومملكته بسبب وشيجة القربى التى تربط بينى وبينه ".

لم يكن روبرت يدع يوما يمر إلاَّ ويسبغ على الراهب آيات الشرف والتعظيم كما لو كان هذا الراهب هو الإمبراطور ميخائيل ذاته حقا، فإذا جلس روبرت إلى الطعام جعل للراهب مكان الصدارة وأجلسه على كرسى ضخم كأنه العرش ثم يمضى فيسبغ عليه من مظاهر الاحترام والتوقير ما لا يسبغه على أحد سواه، ولم يكن يفوته استغلال هذا الحدث لصالحه فكان يصطنع فى بعض الأحيان أسلوبا يستدرُّ به العطف عليه ذاته فيظهر الحسرة على ابنته " هيلانة " ويشير أحيانا أخرى إلى أنه يمسك عن الإشارة إلى المحن التى ألَمَّت بنسيبه إشفاقا عليه من أن يثير كامن شجونه، ولم يكن يفوته أن يستفز المتبربرين ويحملهم للمحاربة إلى جانبه بما يمنِّيهم به من أكوام الذهب التى راح يجزم لهم أنهم سوف يحصلون عليها من خزانته الإمبراطورية الرومانية، وهكذا استطاع أن يسيطر عليهم جميعا ويأخذ فى قبضته زمامهم، فلما خرج للحرب خرجت وراءه جموع كبيرة من الأغنياء والفقراء على السواء، وربما كان الأدق أن نقول أنه " جَرَّ " وراءه جميع أهالى لمبارديا حين احتل سالرنو التى هى قصبة " أمالفى ".

وهنا رتب أمور ابنتيه الثانيتين على أحسن وجه ثم استعد للحملة فاستصحب معه فى خروجه اثنتين من بناته، أما الثالثة فكانت محجوزة فى القسطنطينية منذ خطْبَتِها لقسطنطين بن ميخائيل، وكان خَطيبها الصغير لا يزال صبيا قد حيل بينه وبين الاتصال بها منذ البداية وأخافوه من ذلك إخافة الناس أولادهم من الوحش مورمو.

كان روبرت قد رتب أن تكون إحدى ابنتيه لريموند كونت بارسينون، وأمّا الأخرى فقد وجد لها زوجا هو الكونت "يوبولوس" وكان رجلا سامى المكانة رفيع القدر، وعادت هاتان الزيجتان بالنفع العميم على روبرت؛ فقد استطاع بفضلهما أن يوطد مركزه ويشد أزر نفسه ويدعم مكانة أسرته ويقوى حكمه ويؤكد حقوقه الوراثية، وكان ذلك كله من الأمور التى يعجز غيره من الرجال عن إدراكها.

(١٣)

ولقد جد في هذه الأثناء خبر يستحق التدوين لما عاد به من الخير والبركة على روبرت، وإني أعتبر عجز جميع الحكام الغربيين عن مهاجمته أدى إلى أن تسير الأمور سيرا هادئا فحالفه حسن الطالع في كل خطوة خطاها حتى تسنم مقعد القوة وتيسر له كل ما يمكن أن يؤدي إلى ما فيه نفعه، من ذلك على سبيل المثال ما حدث من نزاع بين بابا رومة الذي كان يشغل مكانة سامية يحميها العسكر من كثير من الأمم وبين هنري (الرابع) ملك ألمانيا فسعى البابا (جريجوري) لحمل روبرت على محالفته إذ كان روبرت قد نَبَه ذكره، واستفاضت شهرته، واستفحل بأسه، وترجع أسباب هذا النزاع الناشب بين البابا وبين هنري إلى أن الأول اتَّهم هنري ببيع الوظائف الكنسية بدلاً من ترك المتنافسين من رجال الدين أحرارا، كما لامَه إذ عهد بوظائف رؤساء الأساقفة في أحداث معينة إلى رجال ليسوا أكفاء لها، ورماه إلى جانب ذلك بتهم أخرى من هذا القبيل، فما كان من الملك الألماني إلا أن اتهم البابا بالغرور قائلاً إنه اغتصب الكرسي الرسولي دون موافقته الشخصية، وزاد هنري على ذلك فلم يتورع عن توجيه الإهانات وأحط الكلمات إليه مهددا إياه بشلحه شلحا قبيحا إن لم يتخل عن الأراضي التي اغتصبها، فلما بلغت هذه الكلمات سمع البابا ثار ثائره وسخط أشد السخط وصب جام غضبه على رسل هنري وحنق حنقا استهله بالإفحاش أمام السفراء فسَبَّ مولاهم، ثم جز شعر رءوسهم بالمقص وحلق أذْقَانَهم بالموسى، وختم فعلته هذه بأن أنْزَل أمرا إدًا يرفضه الذوق وتنكره اللياقة حين سلك معهم مسلكا لا يتوقعه أحد قط حتى من المتبربرين أنفسهم إذْ طردهم من حضرته شر طردة وأخرجهم شر خروج.

لقد كان عليَّ أن أنعت هذا الفحش بالنعت الذي هو جدير به لولا أنه تمنعني من هذا الأمر أنوثتي ويمسكني عنه وقاري كأميرة، ذلك لأن ما أوقعه (البـابا) بالرسل لم يكن يليق أن يصدر أبدا من كاهن عظيم ولا من أي رجل آخر يَدَّعي أنه مسيحي، إذ إن ما ارتكبه من فعل همجي ملأ نفسي اشمئزازا فتقززْتُ منه، ولو وصفته بما هو أهل له لدنست القلم والورق. على أن عدم قدرتي على احتمال الإفصاح - حتى عن قليل مما حدث أو إماطة الستار عنه - ليدل دلالة واضحة على مدى ما انطوى عليه هذا

السلوك من همجية، وعن طبيعة رجالٍ لا يتورعون عن اقتراف الجريمة - أيا كانت هذه الجريمة - أو ارتكاب أيّ إثم مهما بلغ من القحة والتدني، وما كان ذلك العمل منه سوى دليل كاف على أن الزمن في مسيرته يلد رجالاً من هذا القبيل، ولقد صدر هذا العمل باسم العدالة بإشارة من كاهن عظيم القدر، وزاد من سوء وقعه خروجه من أعظم رجل دين له الحكم على جميع المسكونة حسب ادّعاءات اللاتين واعتقاداتهم مما يعتبر مثالا آخر يدل على صلفهم، والحق أنه حين انتقلت القوة من رومة إلى ديارنا وإلى مدينتنا مليكة المدائن (دون الإشارة إلى السينيت وإلى الإدارة العامة) فإن الأسقفية الكبرى قد انتقلت هي الآخرى إلى هنا، وكان الأباطرة يعترفون منذ البداية بصدارة أسقف القسطنطينية الذى بوأه مؤتمر خلقيدونية على وجه الخصوص مرتبة التعظيم وجعل جميع الأسقفيات في كافة أرجاء الدنيا تابعة له، وإني لأعتبر هذه الفظاظة التي عومل بها سفراء (هنرى الرابع) كانت موجهة إلى شخص الملك الذى أرسلهم كما لم تكن هذه الخساسة قاصرة على ما عوقبوا به بل لأن طبيعة هذا العقاب الذى كان مستحدثا لأول مرة على يد البابا الذى تشير تصرفاته - فى رأيى - إلى تدهور مكانة الملك هنرى إلى الدرك الأسفل من المهانة، وأن قوته صارت - بما أنزله البابا من غضب قاس على السفراء - فى حال يرثى لها، وأن (جريجورى) كان أشبه بنصف إله يتعامل مع شبه حمار، وكانت معاملة البابا للمبعوثين على الصورة التى وصفتها وردّه السفراء إلى ملكهم (هنرى الرابع) ردا قبيحا إيذانا بحرب ضروس، وقد عمد البابا فى محاولة منه لمنع هنرى من الوصول إلى وَضْعٍ تكون وطأته عليه ثقيلة لا يمكن احتمالها بسبب تحالفه مع روبرت فقدّم إلى روبرت جيسكارد شروط وفاق معه رغم عدم وجود علاقات بينهما من قبل، لذلك ما كاد يعلم باحتلال الدوق روبرت لسالرنو حتى ذهب بنفسه من رومة إلى " بنفنتو " وجرت الاتصالات بين الجانبين عن طريق السفراء، واتفقوا على أن يتم لقاء الاثنين وجها لوجه على الصورة التالية: هى أنْ يخرج البابا من بنفنتو فى حرسه الخاص ويجيء روبرت بعسكر من سالرنو، حتى إذا صار الطرفان فى مواجهة الواحد منهما الآخر ترك كل منهما الجند وراءه.

هكذا التقى الاثنان وتبادلا العهود والأيمان، ثم عاد كل منهما من حيث جاء. لقد تعهد البابا لروبرت بأن يخلع عليه لقب الملك وأن يساعده حربيا ضد الرومان إن دعت الضرورة إلى مثل هذه المساعدة، كما تعهد الدوق روبرت من جانبه بأن يَهُبَّ لنجدة البابا إنِ استدعاه لنجدته. ولكن الواقع هو أنه لم يكن هناك من أحد يعتد بهذه العهود المتبادلة؛ وذلك لأنه في الوقت الذي كان فيه البابا جريجورى فى أشَدِّ صور الغضب من الملك الألمانى واللهفة على إضرام الحرب ضده كان روبرت جيسكارد يتطلع إلى الاستيلاء على الإمبراطورية الرومانية، وكان أشبه بدب وحشى قد كشر عن أنيابه واستعد لصب غضبه على الرومان، لذلك لم تزد هذه العهود بين الجانبين المتبربرين عن أن تكون مجرد كلمات جوفاء لا تلبث أن تصبح غير ذات موضوع.

بعد أن انتهت الزيارة بادر روبرت جيسكارد فلوى عنان فرسه وأسرع عائدا إلى سالرنو. أما البابا الطاغية البغيض الذى لا أجد لفظا أستطيع أن أنعت به عمله إلا أن أصفه بأنه لا أخلاقى، فقد خرج متسربلا بمسوحه الدينية التى تشير إلى الرحمة، ومكللا بهدوئه الإنجيلى ليشن حربا على بنى دينه بكل ما أوتيه من قوة وبأس وهو رجل السلام وتلميذ رجل السلام.

ثم كاتَب فى الحال لاندولف زعيم السكسون وفلف دوق بافاريا ووعدهما بتتويجهما ملكين فى الغرب بأجمعه، وبذلك استطاع أن يضمهما إلى جانبه، والواضح أنه تجاهل قول بولس " لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك فى خطايا الآخرين واحفظ نفسك طاهرا " ذلك لأن يد (البابا) اليمنى سبقت أيدى الآخرين فى التدخل فيما لا يعنيه، فعصب بالعصابة الملكية رأس دوق لمبارديا، كما وضع التاج على مفرق هؤلاء السكسون، وترتب على ذلك أن قام كل من ملك ألمانيا من جهة و(البابا) ومن معه من جهة أخرى بحشد قواتهما وإعدادها للقتال، ونفخ فى النفير إيذانا بالحرب والتحم الجانبان بعضهما ببعض فى قتال ضار، واستمرت الحرب فى عنف وشراسة، وأظهر كل جانب منتهى الشجاعة رغم الجراح التى أصابته بها الرماح والسهام، فلم ينقض غير وقت قصير إلاّ وكانت الأرض تحت أقدامهم بحرا من الدماء وأصبح الأحياء يتحاربون وكأنهم فى مراكب تسبح فى لجّة من الدماء المهراقة، فإذا صح ما قيل من أن

أكثر من ثلاثين ألفا لقوا مصرعهم فى هذا القتال فما أغزر الدماء التى سالت كأنها الأنهار، وما أوسع رقعة الأرض التى غطتها هذه الدماء. وقد ظل كل من الجانبين مساويا للآخر فى صموده طالما بقى الزعيم السكسونى " لاندولف " يقود المعركة بنفسه، لكن ما إن أصابه جرح مميت أودى به فى لحظته حتى اضطرب عسكر البابا وتبدد شملهم وفروا على وجوههم مثخنين بجراحهم كما كثر قتلاهم. وأمعن هنرى فى مطاردتهم مطاردة اتسمت بالعنف والوحشية، وزاد بطشه إذ علم بمصرع " لاندولف " إذ كان مصرعه فوزا عظيما لخصومه، ومع ذلك فقد أمر هنرى رجاله بالكف عن المطاردة طلبا للاستجمام ونيل قسط من الراحة يستعد هو ومن معه بعده للحرب، ثم أسرع بهم إلى رومة لمحاصرتها، وإذ ذاك استنجد البابا بروبرت حسب الاتفاق المبرم معه وحسب ما قطعه من العهود له على نفسه، وأرسل إليه سفارة تسأله النجدة. كما عمد هنرى هو الآخر من جانبه فى هذه اللحظة - وقد شرع فى المضى إلى مدينة رومة القديمة - ينشد التحالف مع روبرت جسكارد عن طريق المبعوثين الذين أوفدهم إليه. وتبين لروبرت حينذاك ما فيه كل من البابا وهنرى من ضيق إذ راحا يلتمسان منه هذا الرجاء، ومن ثم رد على الملك ردا شفهيا ولكنه أجاب البابا بكتاب يقول له فيه: " من روبرت الدوق برحمة الرب إلى الكاهن الأعظم وسيده فى الله.. لقد علمتُ ما قيل من أن أعداءك شنوا عليك هجوما لكنى لم ألق بالاً إلى ذلك الخبر لعلمى أن ليس هناك من أحد يجرؤ على رفع يده فى وجهك أو يجسر على مهاجمة أب كبير مثلك إلا أن يكون مجنونا. وأحب أن تعلم أنى أسلح نفسى لشن أضرى حرب على أشر أمة موجودة إذ إن حربى إنما هى حرب ضد الرومان الذين ملأوا البر والبحر بانتصاراتهم . أما فيما يتعلق بك أنت فإنى أدين لك بالطاعة الصادقة الصادرة من أعماق القلب، وسأبرهن لك على ذلك حين تدعو الحاجة ". هكذا راوغ روبرت كلا الجانبين حينما قصداه وكل منهما ينشد مساعدته له، فزود حزب البابا بهذا الكتاب، وأبدى لرسل الملك بعض الاعتذارات الواهية، ثم صرفهم جميعا.

(١٤)

لكن ينبغى علينا ألا ننسى ما فعله روبرت فى لمبارديا قبل مجيئه بعسكره إلى " أفلونا"، فهو وإن كان بكل المعايير طاغية غليظ القلب إلا أنه بزّ فى هذه اللحظة " هيرود " فى سفهه إذ لم يكتف بمن كانوا يعملون تحت لوائه منذ البداية وهم رجال قد عركتهم الحروب ، بل زاد فَحشَد جيشا جديدا مؤلفا من أقوام من شتى ربوع لمبارديا وأبوليا ، غير مبال إنْ كانوا صغارا أم كبارا ، فكان فيهم الشيخ الطاعن فى السن ، وفيهم الأمرد الحدث الذى لم تنبت لحيته ، وكان منظرهم جميعا يستحق الرثاء؛ إذْ لم يسبق لهم قط حمل السلاح ولم يطف ذلك الأمر لهم ببال . لكنه ألبسهم جميعا زرود الحرب والدروع فراحوا يسحبون الأقواس من غير دراية بكيفية استعمالها، فلا عجب إن هم تساقطوا على الأرض حين نادى المنادى فيهم بالمسير، ولا جدال فى أن هذه الأمور تعتبر دليلا حيا وتنهض حجة دامغة على وجود الاضطرابات المستمرة فى لمبارديا .

وتعالى فى كل النواحى بكاء الرجال وعويل النساء اللائى شاركن نويهن سوء حظهم، فكنت ترى هنا امرأة تبكى بعلها الذى لا يصلح للخدمة الحربية، وأخرى هناك تولول على ابن لها لا يدرى شيئا من أمور الحرب، وثالثة تندب شقيقا لها لم يعرف فى حياته سوى الفِلاحة وما شابهها من الحرف.

كانت فكرة روبرت تنطوى - كما قلنا - على خبل هيرود بل وما هو أسوأ منه، لأن غضبة " هيرود " اقتصرت على الولدان الذكور وحدهم أما خبل روبرت فقد شمل الغلمان والكبار والصغار على السواء. فلما عرف عدم تمرسهم بالجندية أخذ يدربهم يوميا عساه يجعل من المجندين قوة منظمة. وكان هذا هو شغله الشاغل وهو فى سالرنو قبل أن يصل إلى " أترانتو ". وكان قد قدّم أمامه جيشا بلغ ذروة الكفاءة وكلفه بانتظاره هناك حتى يجيء هو إلى " أترانتو " بعد أن يكون قد فرغ من ترتيب جميع أمور لمبارديا ومن تزويد السفراء بالردود المناسبة. ثم زاد فبعث بكلمات أخرى إلى البابا يقول له فيها إنه قد كلف ابنه " روجر " الذى قد عينه حاكما على لمبارديا مع أخيه بوريتيلاس Borltylas بالمضى لنجدة البابا حين يدعوه. أما هو نفسه - أعنى

روبرت - فإنه ماض بجيشه وهو جيش قوى لمهاجمة هنرى الملك، كما بعث ابنه الأصغر بوهيموند على رأس عسكر قوى المراس إلى أملاكنا (فى إيطاليا) ، وكانت خطته هى أن يغير على النواحى المحيطة بأفلونا .

ولقد شابه بوهيموند أباه فى إقدامه وعزمه الذى لا يكل وروحه التى لا تقهر. ومختصر القول إنه كان صورة طبق الأصل من أبيه ونسخة حية منه فحاصر فى الحال " كانينا " Canina و "هريكو" Hericho وأفلونا، ونزل عليها كلها نزول الصاعقة، حاملا لجميعها الشر المستطير والغضب المدمر؛ مما أدى إلى وقوعها كلها فى قبضته واستيلائه على النواحى المحيطة بها واحدة بعد أخرى وجعلها طعمة للنار، وكان بوهيموند فى الواقع أشبه بالدخان الذى يلذع الخياشيم ثم يتلوه الحريق وذلك بالمناوشات التى تسبق العاصفة الهجومية، وكان الأب وابنُه أشبه بالدود والجراد فما فات روبرت افترسه ابنه، ولكن علينا الآن ألا نصاحبه إلى أفلونا بل نتدبر ما فعله فى النواحى الأخرى.

(١٥)

خرج روبرت من " سالرنو " فلما بلغ أترانتو أقام بها بضعة أيام فى انتظار زوجته " غيطة " التى كانت قد صحبته فى حملته هذه وقد ألبسوها لباس الحرب فبدت فى هيئة تفزع منها العيون، فلما وافته تلقاها بالأحضان ثم تابع الزحف مع كافة العسكر إلى " برنديزى " وهى الثغر البحرى الذى يعدّ أجمل ميناء فى كل " جابيجيا " فانقض على المدينة واستولى عليها، وتوقف بها ينتظر حشد كل قواته وعربات نقله وكذلك سفنه والشوانى الحربية التى كانت فى برنديزى وكان هو فى انتظارها ليبحر إلى تلك الشواطئ.

وحدث فى أثناء وجوده فى " سالرنو " أن اختار من رجاله ممن فى معيته واحدا من الأشراف اسمه " راءول " Raoul وبعث به رسولاً إلى الإمبراطور بوتنياتس الذى كان قد اغتصب مقاليد الحكم من ميخائيل دوكاس، وظل روبرت ينتظر فى لهفة وصول

الرد عليه، إذ كان قد حَمّل راؤول بعض الشكايات وكلفه أن يذكر له بعض مبرراته فى إقدامه على الحرب، ومن ذلك ما عمد إليه " بوتنياتس " من الفصل بين (هيلانة) ابنة روبرت وبين من كان مفروضا أن يكون زوجها المقبل وهو قسطنطين كما أوضحت فى تاريخى هذا. كذلك اغتصابه التاج الإمبراطورى من هذا الغلام.

ولقد كانت هذه الأمور كلها تحمله على محاربته للثأر منه.

وراح " روبرت " يتلمس مودة الدومستيك الكبير وقائد جيوش الغرب حينذاك وهو أبى ألكسيوس ويستميله إليه بالهدايا، وأقام هادئا فى برنديزى ينتظر رد " بوتنياتس " عليه، بيد أن راؤول عاد إليه قبل أنْ ينجز هو جمع كل الكتائب وقبل وصول معظم السفن إليه، فلما عاد راؤول إليه صفر اليدين من غير جوابٍ يشفى غليله على تساؤلاته زاد غضب المتبربر عن ذى قبل، وكان مما زاد فى إضرام حدة غضبه تسفيه راؤول أعماله ليصرفه عن قتال الرومان، وكانت حجته فى هذا التسفيه هى أنّ الراهب الذى فى جيشه ما هو إلا دجال دَعِيّ ينتحل شخصية الإمبراطور ميخائيل، وأن جماع أمره أنه فرية مختلقة، ودلل على صحة كلامه أنه هو نفسه رأى ميخائيل الحقيقى بعد خلعه عن العرش فى القسطنطينية وعليه ثياب بالية، ويقيم فى أحد الأديرة، وزاد راؤول فقال إنه كان حريصا على أن يرى بعينى رأسه الإمبراطور المخلوع، ثم ذكر الحادث الذى سمعه أثناء رجوعه.

لم يكد أبى يتسلم مقاليد الأمور - كما سأسهب فى بيان ذلك بعد قليل - حتى بادر فخلع بوتنياتس من العرش وبعث فى طلب قسطنطين بن ميخائيل الذى كان الناس يعرفونه أكثر مما يعرفون غيره، وأعطاه للمرة الثانية فرصة المشاركة فى تصريف أمور الحكومة. وكان راءول قد سمع فى رحلته هذه بذلك الخبر، فلما عاد أفضى به إلى روبرت سعيا منه لصرفه عن الخروج إلى الحرب وقال له: " بأى حق سوف تبرر محاربتك لألكسيوس إذا كان بوتنياتس هو الذى ارتكب هذه الأخطاء وحرم ابنتك هيلانة من العرش ؟ لذلك فإنه لا يجوز لنا أن نقاتل قوما لم يسيئوا إلينا، فإنما الذى نزل بنا كان بسبب أننا نقاتلهم لغير جريرة ارتكبوها. وإذا لم يكن هناك مبرر

شرعي للقتال فسوف نفقد كل ما لدينا من السفن وما في أيدينا من السلاح والرجال، وإذ ذاك تفشل استعداداتنا الحربية ".

لكن هذه الكلمات أورت زناد غضب روبرت وسعّرت ثورة هياجه فانطلق يهذى كمحموم به جُنة، ثم دفعه الغضب إلى القبض على رسوله ورجله (راءول) قبضا شنيعا. أما " دوكاس " المزعوم المسمى كذبا بالإمبراطور ميخائيل والذى عرفْناه بـ "ريكتور" فقد تأفّف مما جرى واشتد سخطه ولم يستطع أن يتمالك نفسه ويكتم غضبه حين وضح للعيان أنه ليس بالإمبراطور وأنه لا يعدو أن يكون أكذوبة مزيفة.

وفاضت جوانح روبرت بالغضب مرة أخرى على " راءول " الذى فر أخوه واسمه " روجر " أيضًا إلى الرومان وأفضى إليهم بالتفاصيل الدقيقة عن استعدادات روبرت الحربية لارتكاب جريمة شنعاء .

أرعد روبرت وأبرق وهدد بقتل " راءول " الذى بادر ففر على جناح السرعة إلى بوهيموند مستجيرا به وملتمسا فى كنفه الملجأ الأمين .

وبلغت المأساة ذروتها حين قام " ريكتور " هو الآخر يصب أفظع التهديدات الدموية ضدّ روجر أخي " راءول " والتمس من روبرت جيسكارد فى صوت عالٍ وهو يضرب فخذه بيمينه ويقول له: " لن أطلب منك سوى شيء واحد فقط هو أن تسلمنى هذا الروجر، وأقسم أنى لا أكاد آخذ التاج وأسترد العرش حتى أقتله شر قتلة وسط المدينة وأصلبه فى ساحتها، وليفعل الله بى بعد ذلك ما يريد وينزل بى شتّى صنوف العذاب " .

ولست أتمالك نفسى وأنا أقص هذه القصة من أن أضحك من سلوك هؤلاء الرجال المتسم بالغباء والسخرية، ومن تباهيهم بالثناء الذى يتقارضونه فيما بينهم، إذ لم يكن هذا المخادع سوى شرك وواجهة للإمبراطور عند روبرت فهو يعرضه فى كل مدينة يزورها محركا مشاعر جميع من يستطيع الوصول إليهم مستدرا عطفهم عليه، وكان قد أجمع العزم على أنه إذا انتهت الحرب بفوزه وجرت الرياح بما تشتهى سفنه

أحكم الحبل على عنق (الدعى) ونبذه ساخرا منه وألقى به إلى الكلاب وبذلك يصبح تظاهره بتأييده إياه - بعد سقوط الفريسة - مجرد استهزاء وازدراء به.

أما الراهب فكان يعيش على الآمال الخادعة والأوهام البراقة الكاذبة التى ربما تتحقق بصورة أو بأخرى، وقد تؤدى إلى مشاركته فى الحكم بعض المشاركة، وكثيرا ما تحدث مثل هذه الأمور ثم يقع عكس ما هو متوقع، فإنْ تم له الأمر على هذه الصورة قبض على السلطة بيد من حديد ثقة منه بأنّ الشعب الرومانى والجيش لن يستدعيا أبدا ذلك المتبربر لاعتلاء العرش، لكنه سوف يعمد هو ذاته فى الوقت نفسه إلى استغلال روبرت فيجعله أداة لجنى ثمار مؤامرته الخبيثة.

وإننى لا أستطيع أن أمنع الابتسامة أن ترف على شفتى ثم تكون قهقهة عالية وأنا أحرك قلمى ببطء فى ضوء المصباح.

(١٦)

جمع روبرت جسكارد فى برنديزى كل ما توفر له من السفن والرجال، فأما السفن فقد بلغ عددها مائة وخمسين واحدة، وأما العسكر فكانوا ثلاثين ألف محارب على اختلاف مراتبهم، وكانت كل مركب تحمل على ظهرها مائتى رجل، إلى جانب ما عليها من السلاح والخيل، وكان الداعى إلى تجهيز الحملة على هذه الصورة هو ما توقعه من أن يلتقى - حين تطأ أقدامهم اليابسة - بالعدو وهو فى كامل عدته وسلاحه وكراعه ، وكان روبرت قد عزم على الرسو فى مدينة " إبيدامنوس " كما رتّب أن يزحف من " أترانتو " إلى " نيكوبوليس " فيستولى على ناوباكتوس Nawpactus وعلى جميع القلاع الموجودة فى هذا الإقليم وفيما حوله ، لكن لما كانت المسافة الفاصلة بين هذين البلدين أوسع شقة مما هى عليه من برنديزى إلى " دورازو " فقد وقع اختياره على الأخيرة، ولم يكن إيثاره هذا الطريق لقصره؛ بل لما يوفره لرجاله من الراحة ، فقد كان الوقت إذ ذاك شتاء، والريح عاصفة، والشمس فى طريقها إلى نصف الكرة الجنوبى مقتربة من مدار الجدى، وكانت ساعات النهار آخذة فى القصر، كما أنه آثر العبور من

برنديزى ناشرا كل قلاعه، وفضَّل ذلك الطريق بدلاً من أن يترك " أترانتو " عند طلوع النهار والإبحار ليلاً رغم الجو قارس البرودة، بالإضافة إلى أن الأدرياتيك لم يكن متسعا فى هذه الناحية ومن ثم يكون البعد البحرى أقصر نسبيا .

وجرى فى أثناء الرحلة إلى " دورازو " حادث عارض ساعده على أن يبسط سيادته على بلدة " كورفو " المنيعة وعلى بعض قلاعها الأخرى التابعة لنا، ولما تسلّم الرهائن من لمبارديا و "أبوليا" وتم له جمع الأموال وجباية الضرائب من كافة أرجاء الإقليم تطلع للرسو فى "دورازو".

وشاءت الظروف أن يكون دوق "الليريكيوم" فى هذا الوقت هو جورج مونوماخاتس Monamakhatis الذى كان الإمبراطور "بوتنياتس" قد عيَّنه حاكما على هذه الولاية والذى رفض فى بادئ الأمر هذا التعيين، ولم يكن من اليسير بحالٍ من الأحوال إقناعه بقبول هذه المهمة، لكن جَدَّ من الأمور ما أرغمه على قبول هذا العرض فقد كان هناك متبربران إسكاتيان فى خدمة الأمبراطور هما "بوريلوس" و"جرمانوس" قد فسد ما بينهما وبين "مونوماخاتس" فكانا لا يكفان عن رميه بأبشع التهم المفتراة وينقلانها إلى الإمبراطور "بوتنياتس"، وكانا يختلقان ما يشاءان من الأخبار الكاذبة مما يُؤجج غضبه على "مونوماخاتس" حتى جاء يوم التفت فيه الإمبراطور إلى الملكة مارية وقال لها: "ما أحسب مونوماخاتس هذا إلا عدوا للإمبراطورية الرومانية!!". فسمع هذه العبارة أحد الآلانيين، واسمه "جون" وكان صديقا لمونوماخاتس، كما كان يعرف دأب البشناقيين الحاقدين على إلصاق التهم المفتراة بصاحبه، فما كان منه إلا أن نقل إليه كل ما قيل عنه ونصحه أن يأخذ حذِره ويتدبر ما فيه صالحه.

غير أن "مونوماخاتس" لم يندفع ولم يتهور بل عمد إلى الالتقاء بالإمبراطور "بوتنياتس" وراح يداهنه بمعسول الكلام ويصانعه، ثم بادر فقبل العرض الذى عرضه عليه من استخدامه على "دورازو" وأعلن استعداده للرحيل إلى "إبيدامنوس"، ثم تسلم تعليمات كتابية تتعلق بوظيفة الدوقية هذه، ثم غادر القسطنطينية فى غده إلى "إبيدامنوس" والليريكيوم. وكان البشناقيان "جرمانوس" و"بوريلوس" أسعد الناس قاطبة برحيله المبكر.

والتقى "مونوماخاتس" بأبى ألكسيوس على مقربة من موضع يسمونه بيجى، فلما التقيا وجها لوجه سبق "مونوماخاتس" أبى ألكسيوس فى الكلام مخبرا إياه فى انفعال شديد وفى فرح زائد أنه إنما نُفِى من أجل صداقته له، وأنه فخور بذلك. ثم قصّ عليه كيف أقبل هذان البشناقيان: "بوريلوس" و"جرمانوس" (اللذان تملأ الغيرة قلبيهما من الناس أجمعين) على تدبير ما دبرا ضده، وادعيا عليه ادعاء باطلاً ليُنْفَى من المدينة ويُقصى عن أصحابه، فلما فرغ من كلامه وروايته المؤلمة وبيانه المفصل عن الوشايات التى كان هذان الرجلان يصبانها فى أذن الإمبراطور وما أفضى إليه ذلك من مِحَن ابتلى بها على أيدى هذين الخادمين رأى أمير قيادة الغرب (ألكسيوس) أن الواجب يقتضيه أن يبذل غاية جهده لتهدئة خاطر " مونوماخاتس" ونجح فى ذلك الأمر فقد رفع معنوياته النفسية وكان أبى قادرا على ذلك وعلى إقالة المرء من عثراته، ثم انفصل كلّ منهما عن الآخر، فمضى أحدهما إلى دورازو ورجع الآخر إلى المدينة الإمبراطورية.

حين بلغ " مونوماخاتس " مدينة " دورازو " وصل إلى سمعه خَبَرَان، أما أحدهما فكان فراغ الطاغية المتبربر " روبرت " من تجهيزاته واستعداداته الحربية، وأما ثانيهما فثورة ألكسيوس. ومن ثم راح يتدبر ماذا يكون موقفه إزاء ما يجرى، وراح يرتب أموره على ضوء مصالحه الخاصة، ولما كان معروفا بعدائه لكلٍ من روبرت جسكارد وألكسيوس فقد مضى يخطط فى السر لأمرٍ أشد خطرا من الحرب السافرة.

كان الدومستيك الكبير قد كتب إليه مع رسول من جهته يخبره بكل ما جرى أخيرا، وذكر له أنه كان مهددا بسمل عينيه مما حمله على مقاومة الطغاة، هذا إلى جانب كراهيته لما يمارسه خصمه من الأعمال الوحشية وإن الواجب يحتم على " مونوماخاتس "- باعتباره صديقا له - القيام بالثورة، وأنْ يسعفه بأن يرسل إليه الأموال التى يتسنى له جمْعها من أى مصدر من المصَادر.

لقد كان مما كتبه إليه قوله: " إننا فى حاجة إلى المال الذى لن يَتَأتَّى - بدونه - تنفيذ أى أمر من الأمور الواجب تنفيذها ".

على أن مونوماخاتس لم يمدّه بالمال المطلوب ولكنه زَوَّد مَبعوثيه - بدلاً من ذلك - بكتاب إلى صاحبهم، كما ترفق فى الحديث معهم.

كان فحوى خطابه هذا أنه لا يزال يعتز بالصداقة القديمة التى تربطه بألكسيوس وهى الصداقة التى ذكر أنه سوف يظل حريصا عليها فى المستقبل، وأنه راغب أشد الرغبة فى إمداده بكل ما يحتاجه من المال، ثم أضاف إلى ذلك قوله: " بَيْد أنى لا أستطيع سبيلاً إلى ما تنشده لأن المسألة مسألة مبدأ، كما أنّ العدالة تمنعنى من بعث المال لأننى مُعَيَّن هنا بأمْر " بوتنياتس " الذى أقسمتُ له يمين الطاعة والولاء، وما أظنُّك بناظرٍ إلىَّ نظرتك إلى رجل شريف وفىٍّ لسادته وأولى الأمر منهم إنْ أنّا عجلت فاستجبت لما تَطَلَّبه أنت منى. ومع ذلك فإنْ قضت عدالة السماء بأنْ يسوق العرش إليك فسأكون يوم ذاك أشد خدمك إخلاصا لك، ويكون شأنى معك هو شأنى معك من قبل إذْ كنتُ لك الصديق الوفى ".

لقد بعث مونوماخاتس بهذه الرسالة التى يعتذر فيها إلى والدى مستهدفا من ورائها استرضاءه واسترضاء بوتنياتس معا فى الوقت ذاته. كما أنه قدَّم من ناحية أخرى عروضا جلية إلى روبرت، ثم أعلنها صريحة.

والرأى عندى أنه ملوم أشد اللوم، ومُدَانٌ على ما فعل.

والواقع أنّ رجالاً من هذا الطراز إنما هم إمَّعات متقلبون، يبدّلون جلدهم مرارا وتكرارا بتبدل الحكومات، وهم لا يقدمون شيئا للصالح العام وإنما يسعون وراء ما فيه نفعهم الذاتي، ولذلك تراهم حذرين فلا يسلكون إلا الطريق الذى يعود بالنفع عليهم، وقد لا يَجْنُون فى بعض الأحيان ثمرةً من وراء مسلكهم هذا بل يصاحبهم الفشل.

لقد شغلتُ نفسى بهذه الخواطر التى شَطَّتْ بى بعيدا وباعدتُ بينى وبين النهج الأصلى لكتابى، وجاوز جوادى المدى، فلأكبحنَّه ولأرجعنَّه إلى سيرته الأولى ليعاود المضى فيما كنت فيه فأقول: إن روبرت جسكارد كان يتلهف فى جنون لاجتياز البحر ومهاجمة وطنى، كما كانت " دورازو " أملاً يراوده فى يقظته وأحلامه، وها هى الفرصة قد سنحت له أخيرا ليقوم بحملةٍ تحقق غايته وتنيله هواه، ومن ثم راح يستحث عسكره ويستعجلهم ويمنيهم الأمانى العراض.

أما مونوماخاتوس فقد دبر خطة يلتمس من ورائها توفير مكان يلجأ إليه، فاستطاع بفضل كتبه اكتساب مودة " بودينس " و " ميخالالاس " Michalais النائبين في دلماتيا . كما نجح بهداياه في توجيه آرائهما وفْق هواه، وبذلك استطاع بمخادعاته وأساليبه الملتوية أن يفتح الأبواب الموصدة فيدخل منها، ورتب أُموره على أنه إنْ فشل مع روبرت وألكسيوس ورفض الاثنان عروضه فسوف يفر في الحال إلى " دلماتيا " .

وكان يرى أنه إذا جاهره الأولان بالعداء فإنه واجدٌ عند الاثنين الأخيرين ما ينشده. ومن ثم وضع أمله فيهما، إذ رأى أن نجاته مؤكدة عندهما . ثم جاءته الأخبار بما لا يهوى من ناحية كل من ألكسيوس وروبرت جسكارد.

(١٧)

والآن قد حانت اللحظة المناسبة لي لكي أتحول إلى الحديث عن عهد أبي وأشرح كيف جاء إلى الحكم، وأعرض للوسائل التي استخدمها للوصول إليه. ولست أعتزم الكلام عن أحداث حياته قبل ذلك التاريخ، ولكن سوف أوجه عنايتي لإعطاء تقرير شامل عما صادفه من النجاح والفشل كإمبراطور.

ولقد عاهدتُ نفسي ألاَّ أغُضَّ الطرف عن أي عمل مغمور من جانبه وأكون مدفوعة في ذلك بأنه " أبي " .

كذلك لن أمرَّ مَرَّ الكرام على انتصاراته تجنبا لشك يحتك في صدر البعض، فيقولون " ابنة تتحيز لأبيها حين تكتب عنه " . وما أحسبني - إنْ أنا فعلت ذلك - إلا ظالمة، وأن سبيلي - كما أشرت في مراتٍ سابقة - هو أن أقول الحق في تاريخي الذي أكتبه عن أبي الإمبراطور.

فلنترك الآن جانبا روبرت حيث أوْصَلَه التاريخ إلى النقطة التي أوصلتُه إليها .

ولنتكلم عن أعمال ألكسيوس.

أما معاركه وحروبه ضد روبرت فإني أرجئها إلى كتابٍ آخر.

الحواشى

(١) ما بين العاصرتين وارد فى سوتير ولكنه ساقط من نسخة إليزابث .

(٢) هى أنا دالاسينا Anna Dalassina ومن المعروف عنها أنها كانت شديدة الميل لتحقيق مطالب ابنها ألكسيوس كومنين فى اعتلاء عرش الإمبراطورية ، والواقع أنها كانت امرأةً جريئة حازمة قويةَ الإرادة . هذا إلى جانب ما كانت عليه من الخبرة والقدرة البالغتين اللتين على حسن تصريفها للأمور الإدارية ، ويلاحظ أن صفحات هذا الكتاب الذى نقدم اليوم ترجمته العربية تحمل إشارات عدة إلى ما يفصح بجلاء عن هذا الجانب ، كما أنّ ولدها ألكسيوس كان كبير الإجلال والتقدير لها حتى إنه أنابها عنه إنابةً تامةً فى تصريف شئون الدولة أثناء فترة غيابه عن الإمبراطورية .

راجع معجم التراجم البيزنطية ترجمة حسن حبشى طبعة ٢٠٠٤ ، مجموعة الألف كتاب الثانية .

وانظـر أيضًـا : D.M. Nicol, Biographical Dictionary of the Byzantine Empire, art., A Dalassina

ولقد لعبت أنّا دالاسينا دورا كبيرا فى تحقيق مطالب ابنها . انظر الدراسة القيمة عنها فى :

Diehl, (Charlees) Figures Byzantines, pp. 317-342

(٣) جاء بعد هذا مباشرة فى إليزابث العبارة التالية: " لهذه الأسباب اضطر رومانوس ديوجين الصبى للرضوخ لأمه " .

(٤) دأبت نسخة سوتير على رسمه بالصورة التالية " أورسيل" Ursel وكلاهما صحيح .

(٥) هو "ميخائيل السابع دوكاس" الإمبراطور البيزنطى (١٠٧١ - ١٠٧٨) ويعرف بباراپينكس ، وكان طفلا صغيرا حين مات أبوه قسطنطين العاشر سنة ١٠٦٧ ، فقامت أمه " يودوكيا" بالوصاية عليه ، وقد تزوج الأميرة القوقازية " ماريا" فأنجبت له ولدا واحدا هو قنسطنطين دوكاس الذى سترد الإشارة إليه كثيرا فى ثنايا هذه الترجمة العربية بقلم أنا كومنينا ذاتها . راجع أيضا Ostrogorsky

(٦) فى إليزابيث " فرنجيا" وهو صحيح أيضا كما يصح أن يقال فيه " النرمندى " أو الكلتى.

(٧) ما بعد هذا ساقط من نسخة سوتير.

(٨) فى إليزابث " نصف جنده بدلا من "أقام فريقا من جنده" .

(٩) العبارة من " تاركين" حتى " لهم قلب" ساقطة من إليزابث .

(١٠) العبارة من هنا واردة على الصورة التالية فى إليزابث: " إن جميع العبيد وأتباع العسكر الذين كانت مؤخرة جيش برينيس تتألف منهم فرّوا خوفا من أن يقتلهم البشناق" .

(١١) المقصود بذلك: جيشَيْ برينيس و ألكسيوس .

(١٢) الضمير فى " به " عائد على نقفور برينيس الكبير .

(١٣) بعد هذا فراغ فى نسختى سوتير وإليزابث وإن جاءت إضافةً فى النسخة الأولى فى الحاشية تقول: " إنه يبدو أن أناً كومنينا أرادت أن تسمى المكان ولكن فاتها فتركت موضعه فراغا ، وذلك إما نســيانا منها أو أنه لم تتح لها الفرصة للمراجعة ".

(١٤) تشير نسخة سوتير إلى أن أنا كومنينا قد اقتبست هذه العبارة من الإلياذة .

(١٥) كان " بوريلوس" Bourilos من جملة الخصيان والعبيد العاملين فى خدمة "بوتنياتس" لكنّه خانه جريا على سنة أمثاله من العبيد ولم يَرْعَ يد مولاه عليه ومن ثم كانت خيانته له حين أدار الحظ ظهره له . انظر ما سيرد فى الكتاب الثانى من هذه الترجمة ، فقرة ١٢ .

(١٦) الضمير فى "صورته " عائد على بازيليوس .

(١٧) جاء فى الأساطير اليونانية القديمة أن " تيفون" وحش حارب مع " زيوس" وزعموا أن لهذا الوحش عددا كبيرا من الرءوس والأيدى والأرجل وأنه كلما قطع له رأس أو قدم أو يد حلَّ بدله غيره .

(١٨) وردت هذه الفقرة مكملة للفقرة السابقة فى نسخة سوتير .

الكتاب الثانى

ثورة آل كومنين

فقرات الكتاب الثانى

١- أنّا كومنينا تحيل القارئ إلى التاريخ الذى ألفه زوجها للاطلاع على التفاصيل الخاصة عن مولد والدها ألكسيوس كومنين ونشأته الأولى. شدة تعلق بوتنياتس بآل كومنين. تعيين ألكسيوس قائدا عاما فى الغرب. مكائد بوريلوس وجرمانوس وغيرتهما من ألكسيوس. اكتساب كل من إسحاق وألكسيوس أصدقاء لهما فى البلاد. الإمبراطورة. مارية تتبنى ألكسيوس.

٢ - بوتنياتس يرتب الأمور ليخلفه " سينادينوس " مع أن الواجب كان يقتضى اختيار قسطنطين ابن مارية وميخائيل. قلق مارية. بيت آل كومنين يلومونها.

٣ - استيلاء الترك على تزيكاس. حفل عشاء الإمبراطور. آل كومنين يضعون آمالهم فى مارية.

٤ - بوريلوس وجرمانوس يتآمران ويدبران سمل عيون الأخوين إسحاق وألكسيوس. صدور الأمر إلى ألكسيوس بقتال الترك مما يحمله على استدعاء العسكر إلى القسطنطينية ولكن بوريليوس يرميه بتهمة الخيانة. فشل هذه التهمة واعتزام ألكسيوس وإسحاق القيام بالثورة . انضمام " باكوريانوس " وهامبرتوبوليس " إليهما .

٥ - أنّا ذالاسينه وأهل بيتها يلوذون بأحد الأحرام المقدسة . أنا ذالاسينه تدافع عن أعمال أولادها فيجبرها بوتنياتس على الإقامة فى دير " بتريون " المخصص للنساء .

٦ - انضمام بالايولوجس للثوار . " زورولوس " تشهد تجمع الجيش الذى حشده ألكسيوس . رسالة إلى القيصر جون ومدّه يدَ المساعدة للثوار . الرواية البيزنطية وانضمام المدن إلى ألكسيوس فيما عدا " أوريتياس " بسبب " برينيس ".

٧ - الجيش ينقسم فى ولائه ما بين راغب فى ألكسيوس وآخر فى إسحاق . إسحاق يذكر أخاه بنبوءة سمعاها قرب كربيانوس . عائلة دوكاس تتزعم القائمين بتأييد ألكسيوس .

٨ - ظهور مدع اسمه " نقفور ميليسينوس " وتَطَلُّعه لمشاركة ألكسيوس حكم الإمبراطورية حيث يعرض عليه أن يكون القيصر . " منجانيس و" المرسوم العالى " .

٩ - بوتنياتس يواجه تهديداً مزدوجا . ألكسيوس يتفقد أسوار القسطنطينية وفى صحبته جون دوكاس الراهب . النصيحة إليه بعدم مهاجمة الفارانجيين فيعمد إلى رشوة جلبراكتو قائد النمتزيين ليسلمه المدينة .

١٠ - منجانس يستبقى ميليزيناس فى حال من القلق . ألكسيوس يدخل العاصمة يوم خميس العهد (أول أبريل ١٠٨١) ولكن جيشه يسير سيرة طائشة .

١١ - بالايولوجس يُحبِط محاولات بوتنياتس فى إعادة "ميليزيناس" إلى القصر . بوتنياتس يرفض عرضا تقدم به بالايولوجس الكبير لطرد الغزاة .

١٢ - ألكسيوس كومنين وأخوه إسحاق يرفضان شروط بوتنياتس الذى يحاول البطرك كوسماس أن يحمله على التخلى عن العرش (٤ أبريل ١٠٨١) .

(١)

إن أراد القارئ أن يعرف أين كان مولد الإمبراطور ألكسيوس ويقف على أخبار نشأته الأولى فإني أُحيله إلى ما كتبه زوجي القيصر ، كما أنه يستطيع أن يستمد من نفس المصدر الخبرَ أيضًا عن الإمبراطور نقفور بوتنياتس .

كان لإسحاق وألكسيوس أخ يكبرهما في العمر اسمه " مانويل " هو أول طفل انحدر من يوحنا كومنين جدّي لأبي . وقد عينه الحاكم السابق رومانوس ديوجين قائدًا عامًا على جميع نواحي آسيا الصغرى ، وصار إسحاق بالصدفة دوقا لإنطاكية. ولقد خاض هذان كثيرًا من الحروب والمعارك وتعددت الغنائم التي غنماها منْ أعدائهما وأكثرا من إقامة النُّصب التذكارية تخليدًا لانتصاراتهما ، ثم تلاهما أبي ألكسيوس حيث رفعه الحاكم إذ ذاك – وهو " ميخائيل دوكاس " – إلى مرتبة القائد العام وبعثه لقتال " روسيل " .

لقد رأى الإمبراطور نقفور في أبي رجلاً منْ أقدر الرجال في تسيير دفة أمور الحرب ، فعاملَه بتقدير ملحوظ لا يقل عما عامل به أخاه " إسحاق " ، حين جاءته الأخبار عن إنجازاته في الشرق مع أخيه إسحاق الذي برهن في كثير من المعارك التي خاضها على أنه مقاتل صنديد وبطل مغوار ، كما علم الإمبراطور بكيفية قضائه على " روسيل " وكان لكل من ألكسيوس وإسحاق مكانة خاصة سامية في نفس " ميخائيل دوكاس " ، فكان يحس بالسعادة إذ يراهما ، وكثيرا ما كان يدعوهما لمشاركته الجلوس على مائدته وتناول الطعام معه ، لكنّ ذلك العمل من جانبه أجّج الغيرة منهما في نفوس البعض لا سيما في نفس السلافونيّيْن المتبربرين اللذين ذكرناهما حالا وهما "بوريلوس "و "جيرمانوس " مما أثار غيظهما ثم زادهما كراهية فيه ما شاهداه من شدة ميل الإمبراطور إلى هذين الشابّين الصغيرين اللذين ظلا بمنجاة من الأذى رغم سهام الحسد التي كانا عرضة لها على الدوام ، وقد زاد من مرارة البشناقيّيْن

ما قام به نقفور بوتنياتس - الذى كان يتمتع بالسمعة الطيبة بينهم جميعا - منْ تعيين ألكسيوس فى مركز حربى متقدم فى الغرب والإنعام عليه بمرتبة القيادة رغم أنه كان لا يزال فى ميعة الشباب .

ولقد سجلتُ منذ قليل عددا من انتصاراته فى الغرب ، وتكلمت عن المتبربرين الذين فَلَّ هو شوكتهم وجاء بهم أحياء يرسفون فى أغلالهم إلى الإمبراطور، وقُلْتُ ما فيه الكفاية عن هذا الموضوع.

لا شك فى أنّ هذه الأحداث كانت أبعد ما تكون عن أن يغتبط لها صدر العَبْدين المتبربرين، بل لقد زادت من حدة سُعار غيرتهما المتأججة ، فأمعَنا فى بث الشائعات يلقيانها جزافا ، وراحا يدبران المؤامرات الشريرة للإيقاع بألكسيوس وإسحاق معا ، وأسرّا إلى الإمبراطور- على انفرادٍ - بكثير منْ الأشياء التى كانا يذيعانها ، وأوصلا إليه بواسطة رجال من رجالهما أمورا معينة ، ولم يكونا يتورعان عن سلوك أى سبيل يحقق هواهما ولا تدبير أية مكيدة من شأنها الإيقاع بالأخوين ، وكان العبدان مدفوعين إلى ذلك برغبتهما العنيفة فى التخلص من ألكسيوس إسحاق وزحزحتهما منْ طريقهما . وإذ ذاك رأى الأخوان العمل على استمالة القوّامين على جناح الحريم إلى جانبهما ، وتوصلا عن طريق هؤلاء إلى كسب رضاء الإمبراطورة رضاء زاد عما كانا يحظيان به من قبل .

كان للأخوين (إسحاق وألكسيوس) من الظرف وبهاء الطلعة وحسن الفطنة ما يرقق أقسى القلوب وأغلظها ويستميلها إليهما .

وحالف النجاح إسحاق عند الإمبراطورة "مارية" حينَ اختارته منْ قبل زوجا لبنت أختها ، فقد كان إسحاق فى حديثه وفعاله مثالاً للأرستقراطى الحقيقى ، وصورةً حية من أبى ألكسيوس ، فلما انتظمت الأمور لعمى إسحاق وأقبلت الدنيا عليه لم يعد يشغله سوى أخيه ألكسيوس الذى كان قد عاونه فى موضوع زواجه ، ولذلك حرص إسحاق أشد الحرص على أن يكون لأخيه عند الإمبراطورة مكانة لا تقل عن مكانته هو عندها من التقدير الكبير والقرب ، وإذا كانَتْ الأسطورة تقول إن الصديقين أورستوس Orestos وبيلادس Pelades كانا خلّين حميمين ينشد كلّ منهما لصاحبه ما ينشده

لنفسه حتى إن كلا منهما كان ينصرف في لهيب القتال المستعر عن مهاجمة العدو له ليمد يدَ النجدة لصديقه ويدفع عنه النبال المتساقطة، فإنَّ هذا الخبر يصدق أن يقال عن ألكسيوس وإسحاق في حب كل منهما للآخر ، فما من واحد منهما كان يحجم عن مواجهة الخطر للدفاع عن شقيقه ، وهكذا تقاسما ثمار البطولة والشرف ، وزاد حسن الطالع ارتباط الواحد منهما بالآخر ، والحمد للرب على أن ترتب على ذلك أن استقرت مصالح إسحاق ، إذ لم يمض سوى قليل من الوقت بعدئذ حتى وافق ضباط مساكن الحريم بالقصر على العرض الذى تقدم به إسحاق إليهم فحاولوا استمالة الإمبراطورة لتتبنى ألكسيوس فاستجابت لهما ، وضربتْ للأخوين يوما في القصر فتبنَّت أبى فى حفل تمت مراسيمه وفق الأصول المرعية من قديم فى مثل هذا الحدث ، وبهذا أصبح " دومستيك الجيوش الغربية " آمنا على نفسه ومستقبله ، وزايله بعض القلق . وأخذ الأخوان منذ ذلك الوقت يكثران من التردد على القصر بينْ آن وآخر[1] ، فيمضيان أولاً إلى الإمبراطور(يرفعان إليه آيات الاحترام ، ويظلان فى حضرته فترة قصيرة من الوقت يتطلعان بعدها للذهاب إلى الملكة) وبعد أن يتم استقبال الاثنين وفق الأصول المرعية والتريث فترة قصيرة يسيران بعدها إلى الإمبراطورة ، وهذا ما أثار الغيرة الشديدة منهما بصورة أشد مما كانت عليه من قبل ، فتخوفًا من الوقوع فى شراك ينصبها لهما خصومهما فلا يجدان مَنْ يحميهما ويسبغ عليهما ظل رحمته ، ولذلك شرعا يتلمسان بعون الرب الوسائل التى تكفل سلامتهما وتحفظ عليهما حياتهما ، فاستعرضا مع أمهما كثيرا من الآراء حتى وجد الثلاثة فى النهاية بابا واحدا يؤدى بالأخوين إلى النجاة ألاَ وهو الاقتراب من الإمبراطورة حين تتاح لهما فرصة وجودهما فى حضرتها ، وإذ ذاك يدليان إليها بسرهما وما يشغل بالهما . وقد حرص الأخوان كل الحرص على بقاء خطتهما طيَّ الخفاء ولم يصرحا لأحدٍ بذلك على الإطلاق ، وكانا كصيادى السمك حريصين ألاَّ يفزعا الصيد فيهرب قبل أن يُنجزا غرضهما .

لقد دبرا فى الواقع خطة للفرار لكنهما خافا أن يخبرا الإمبراطورة بعزمهما هذا، إذ قد ينكشف القناع للإمبراطور عن اهتمامها بأمرهما؛ لذلك تخليا عن هذه الخطة وحلت محلها خطة أخرى جديدة وباتا يرقبان الفرصة التى تسنح لهما .

(٢)

كان الإمبراطور " بوتنياتس " قد بلغ من العمر أرذله ولم يَعُدْ له أى أمل فى إنجاب ولد من صلبه ، ولم يكن يمر بذهنه أمر اللحظة التى لا مفر لآدمى منها - ونعنى بها الموت - إلاَّ ويستبد به الفزع ويتملكه الخوف؛ لذلك راح يفكر فى موضوع مَن يخلفه .

كان هناك فى البلاط شخص اسمه " سينادينوس Synadenus " وهو من أصل شرقى، وكان شريف النبعة جميل الهيئة، وكان فى الوقت ذاته شابا ذكيا جادا، قوى البنية على عتبة الرجولة، وكان شجاعا فى الحرب، هذا إلى جانب اعتبارات أخرى كثيرة أبرزها أنه كان يمتّ بصلة القربى إلى بيت نقفور (بوتنياتس)، وتجمعت هذه الأسباب كلها لتحمل الإمبراطور على أن يفكر فى أن يستخلفه فى الإمبراطورية منْ بعده ويورثه العرش.

كانَ هذا القرار من جانب الإمبراطور قرارا خاطئا ، فلو أنه أراد التخلى عن التاج لوجب أن يتخلى عنه لقسطنطين ابن الإمبراطور(ميخائيل دوكاس) فهو أحقّ به من غيره وهو صاحبه بعد أبيه وجده ، ولو فعل بوتنياتس ذلك لضمن سلامة روحه إلى النهاية ولكان هذا العمل منه فى الوقت ذاته حلاً عادلاً يضع الأمور فى موضعها الصحيح ، بالإضافة إلى أن ذلك العمل من جانبه يحمل الإمبراطورة (مارية) على زيادة ثقتها به ومضاعفة إخلاصها له ، لكن الرجل العجوز لم يدرك مدى الخطر الفادح الذى تنطوى عليه خطته التى اتّبعها وما فيها من الظلم والبعد عن محجّة الصواب ، ولم يفطن إلى ما يجلبه على نفسه من خطر بهذا العمل الذى عمله وما ينتظره من شر مستطير .

ولقد حزنت الإمبراطورة أشدّ الحزن حين ترامت هذه الأخبار إلى سمعها ورأت فداحة الخطر الذى يهدد ابنها . وعلى الرغم مما صارت فيه من الإحباط وانكسار القلب اللذين عاشت فيهما إلاّ أنها لمْ تصرح بشىء من هذا الحزن بل كتمته فى صدرها وإنْ لم

يَخْفَ هذا الألمُ على الأخوين ابنى كومنين . وكانت هذه هى اللحظة التى كانا يرقبانها ، فأجمعا عزمهما على التحدث إليها ، واصطحب إسحاق فى هذا اللقاء أخاه ألكسيوس ، فلما أصبحا فى حضْرتها تقدم إسحاق من الإمبراطورة وقال لها: " لسنا نرى صحتك على ما يرام فى الأيام الأخيرة ، ويخيل إلينا أنك تعانين همًّا ممضا تنوئين تحت ثقله ، ولما لم يكن أحد هناك تأمنيـنه علـى سرك فقـد وهنت صحتك " .

لم تكن الإمبراطورة حتى هذه اللحظة راغبة فى كشف مطوى صدرها ولكن ندَّتْ عنها زفرة عميقة وردَّتْ عليه قائلة : " ليس هناك من داعٍ يدعو أن يسأل غريب الدار مثل هذا السؤال ، فمجرد وجودى فى بلد أجنبى يعتبر سببا كافيا للحزن، والله يعلم كثرة ما أُقاسى من المتاعب التى يأخذ بعضها بحُجَز البعض الآخر ، وأَحْسَبُ أنّى سوف ألاقى فى القريب العاجل أكثر منها " .

قالت هذا الكلام فلم ينبس أحد الشقيقين ببنت شفة، بلْ ظلا واقفين حيث هُمَا برهة من الوقت وقد استغرقهمَا التفكير العميق ، وأعْيُنهما مثبتة إلى الأرض ثم ودّعاها بما يليق بها من الإجلال وانصرفا إلى دارهما وهما فى غاية الحزن .

فلما كان اليوم التالى جاءا للحديث معها فلما أبصراها فى حال أحسن مما كانت عليه فى أمسها ، ولاحظا انشراح صدرها تقدّما منها قائلَين : " أنت مولاتنا وسيدتنا الإمبراطورة وما نحن إلاّ أوفى عبيدك ونحن مستعدون لتحمل كل مشـــقة تواجهيـــنها يا صاحبة الجلالة أيا كانت هذه المشقة حتى ولو كان فيها هلاكنا ، وإننا لنتوسل إليك ألاّ تدَعى الضـيق يجـد سبـيله إلى إقـلاق بالك أو يكون فيـه بلبلة خـاطرك " . فبـثت كلماتهما فى نفسها الثقة والطمأنينة فتبددت هواجسها .

كان الأخوان قد خمنا مكنون صدرها منْ بعض العبارات العابرة؛ وذلك بفضل ما طُبعا عليه من الذكاء اللمّاح والألمعية الوقادة ومهارتهما فى استقراء ما فى أعماق نفوس الناس من الهواجس والأفكار الخفية . فأبديا استعدادهما لمساعدتها ، وقدّما البرهان الأكيد فى كثير من الأمور على وفائهما وإخلاصهما لها ، ووعداها فى شجاعة

أنْ يستجيبا لكل دعوة منها تنشد فيها مساعدتهما لها ، وقبِلا في حماسة كبيرة أن يشاطراها فرحها إن فرحت ، وحزنها إن هي حزنت مصداقا لما قاله بولس الرسول[٢].

ثم سألاها أن تعتبرهما مواطنين وصديقين لها وقريبين تربطهما بها وشيجة القربى ، والتمسا منها شيئا واحدا فقط هو ألاّ تتوانى عن إخبارهما بأىّ أمر يدبره ضدهما الناقمون عليهما والحاسدون لهما مما قد يصل خبره إلى سمعها أو سمع الإمبراطور، حتى لا يقعا على غرة في الأحابيل والشراك التى تنصب لهما . ثم سألاها أن تسدى إليهما الجميل بأن تكون ثابتة الجنان فلا تسمع لشجاعتها بأن تفارقها ، وقالا إنهما بعون الرب سيبذلان لها - صادقَيْن - كل مساعدة ممكنة ، ولا أقلّ من أن تكون تلك المساعدة لولدها قسطنطين حتى لا يفلت عرشه من بين يديه ، وزادا على ذلك بأنْ راحا يؤكدَان صدْقَ ما يقولان بالأيمان الغليظة ، ثم قالا إنهما ليس عندهما وقت للالتفات إلى من يريدون الايقاع بهما حس منهم لهما ، وكان ذلك فى الواقع إنقاذا عظيما لهما فقد استردا معنوياتهما وأصبحا يتكلمان مع الإمبراطورة بحرية وبنفس راضية أكثر من ذى قبل ، والحقُّ أنهما كانا قادرين - لا سيما ألكسيوس - على إخفاء ما يجول بخاطرهما من الأفكار وكتمان مشاريعهما الخاصة .

لكن الغيرة القاتلة التى كانت تنهش قلبى هذين العبدين القويين استحالت فى الواقع إلى نار لا تبقى على شىء ولا تذر ، فسدّت أمامهما سبل الإيقاع بالأخوين عند الإمبراطور بعد أن تم ما تمّ من إسْباغه مزيدا من العطف على وَلَدَىْ كومنين اللذين أدركا أن خصومهما يدبران المكائد للخلاص منهما فلم يعودا يتلازمان فى الذهاب إلى القصر كما كان شأنهما من قبل ، بلْ أصبحَ لكل منهما يومه الخاص به الذى يمضى فيه إلى القصر ، وكان هذا الحذر منهما ممَّا أملاه عليهما العقل؛ إذ لو قضت المقادير بالقبض على أحدهما بسبب دسائس ووشايات البشناقيَّيْن الخفية ظل الآخر حرا طليقا، وإنْ هلك أحدهما بَقى الآخر على قيد الحياة . لكن لم تجر الأمور على الصورة التى كانا يقدّرانها؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهما كانا أقوى من الظروف كما يتضح ذلك من القصة التالية .

(٣)

كان الترك قد استولوا على مدينة زيسيكس Zesicus فلما سمع الإمبراطور بوتنياتس بالخبر بادر فاستدعى ألكسيوس كومنين . وحدث فى هذا اليوم بالذات أن كان إسحاق فى زيارته للقصر فرأى أخاه يهمّ بالدخول ولم يكن هذا من الأيام المحددة له التى اتفقا عليها ، فتوجه إليه وسأله عن علّة وجوده هنا فى هذا اليوم فأنبأه فى الحال بالسبب قائلاً " لقد استدعانى الإمبراطور" . وإذ ذاك انطلقا إلى الإمبراطور مقدِّمَين إليه فروض الطاعة المعتادة . ولما كان الوقت وقت تناول الطعام فقد استبقاهما الإمبراطور برهة وسألهما أن يشاركاه مائدته ، فاتخذ كل منهما مكانه بعيدا عن الآخر إذ جلس أحدهما على الجانب الأيمن من المائدة والآخر على الجانب الأيسر – وإن كان كل منهما فى مواجهة أخيه – ثم راحا بعد فترة قصيرة يتأملان الخدم فأبصراهم يتسارّون فيما بينهم بوجوه عابسة مقطبة فتوقعا أن يهاجمَا بغتة ، وأنْ يكون العبدان بوريليوس وجرمانوس قد أعدّا أمرًا خطيراً يعود بالويل والبوار على الأخوين ، فتبادلا النظرات فيما بينهما خِفْية ، ونمّت نظراتهما عن اليأس إذ لم يكونا يعرفان ماذا يفعلان .

كان إسحاق وألكسيوس قد توصلا منذ زمن بعيد إلى كسب صداقة خدم الإمبراطور وحاشيته بالكلام العذب والتلطف معهم ، فأدّى لين جانب الأخوين وتواضعهما معهم إلى أن يؤثرهما أحد الخدم بودّه ، فاقترب من إسحاق وهمس فى أذنه قائلاً : " هلاّ أبلغت مولاى أنْ قد سقطت " زيسيكس " ، وأن كتابا بهذا الخبر جاء الآن من هناك ؟ " ، فبعث إسحاق بهذه الرسالة إلى ألكسيوس بواسطة حركات خفيفة من شفتيه ، فأدرك ألكسيوس ما يقوله إذ قرأ فى سرعة البرق ما قالته حركات شفتى شقيقه ، فانزاح القلق الذى كان يسيطر عليهما ، فلما هدأ روعهما واستردا كامل هدوئهما راحا يتدبران ماذا يكون جوابهما إنْ سألهما سائل عن هذا الموضوع ، كما فكرا فى النصيحة الملائمة التى ينبغى عليهما أن يقولاها للإمبراطور إنْ طلب منهما النصيحة . وبينما هما فى غمرة هذه التقديرات

والتوقعات إذا بالإمبراطور يتجه إليهما بنظره وهو واثق بأنهما لا يعرفان الخبر وأنبأهما بسقوط " زيسيكس " ، فأصبحا على استعداد لتهدئة خاطره وقد أزعجه تدمير المدن ، ومنْ ثم عملا على رفع معنوياته النفسية بالآمال الجميلة والتأكيد بإمكانية تخليص " البلد " في يُسر وسهولة وقالا له إن كل ما ينبغي الاهتمام به الآن هو أن تكون جلالتكم على خير حال ، وسيرى الذين أوقعوا بالمدينة سبعة أضعاف ما اقترفتْه أيديهم. فاغتبط الإمبراطور بجوابهما ثم أذن لهما بمغادرة المائدة وبقي هو طول يومه خالي البال مما يؤرقه .

أصبحت مهمة الأخوين قاصرة على الحضور بانتظام إلى القصر والعمل على زيادة تآليف قلوب رجال الحاشية وسد كل طريق أمام خصميهما قد يسلكانه للتآمر ضدهما ، كما صار منْ واجبهما عدم التسامح مع من يسعى في إيذائهما ومَنْ تنطوي نفسه على كراهيتهما ، وشرعا من ناحية أخرى في كسب محبة الجميع وعطفهم سعيا لمزيد من التأييد الصريح لهما ، كما أجمعا عزمهما – من ناحيةٍ أخرى – على كسب ود الإمبراطورة مارية وإقناعها بإخلاصهما التام لها : فِكْرا وروحا . وقد كان باستطاعة إسحاق التحدث إليها بصراحة وحرية بفضل صلة النسب التي تربطه بها إذْ كانَ متزوجا منْ ابْنة أختها ، كما أن والدي لم يكن دونه حرية بسبب رابطته الوثيقة بها إذْ إنّ تَبَنِّيها إياه كان سببا متينا لتردده عليها واستحالة رميه عندها بما يضيره مما أدّى إلى قهر الأشرار وحَسَدِهم له . لكنه كان منْ ناحية أخرى يدرك مدى بُغض العبدين له بغضا أعمى وضعفَ شخصية نقفور بوتنياتس، فكان من الطبيعي للأخوين أنْ يكونا أشد حرصا على أنْ تظل مارية تسبغ عليهما عطفها ورضاءها وإلاّ سقطا ضحيةَ تآمُر الحاقدين؛ وذلك لأن السذج – ومِنْ بينهم الإمبراطور– إنما هم قوم قُلَّبٌ على الدوام ولا يثبتون على حال لأنهم يركبون كل موجة ، فبينما تراهم يسيرون في هذا الطريق إذا بهم يحيدون عنه إلى غيره ، شأنهم في ذلك شأن " يوريبوس "[٣] Euripus .

(٤)

لما رأى الخسيسان الأسكيثيان كل هذه الأشياء وأدركا أنّ مشروعهما الذى دبّراه قد آل إلى الإخفاق الذريع والفشل التام وأنّه ليس من السهولة بمكان تدمير رجلين مثل هذين الرجلين : إسحاق وألكسيوس؛ لما يريانه من ازدياد رعاية الإمبراطور لهما يوما بعد يوم فقد اتفقا على تغيير هذه الخطة بأخرى توصّلا إليها بعد طول نقاش وإبداء الرأى والرأى المعارض ، وبتمثل هذه الخطة فى العمل على استدعاء الشابين ذات ليلة – وعلى غير علم من الإمبراطور– للتخلص منهما وسَمْل عيونهما بتهمة ملفّقة ، لكن استطاع الأخوان – بطريقة أو بأخرى – أن يقفا على خبر المؤامرة ، وعرفا مدى الخطر البالغ الذى يهددهما فأجمعا أمرهما على القيام بعمل معين على كُره منهما لهذا العمل ألا وهو الثورة التى لم يجدا غيرها سبيلاً لنجاتهما وسلامة روحيهما، إذْ ما الذى يحملهما على انتظار قيام جلاديهما بفقء عيونهما وسلب نورها ! وكَتَم الأخوان خطتهما سرا لا يدرى به أحد سواهما .

لكن لم ينصرم غير قليل من الوقت حتى صدرت التعليمات إلى ألكسيوس – وكان يشغل إذ ذاك منصب دوميستيك (قائد) قوات القسم الغربى – أن يجلبَ إلى المدينة فيلقا من العسكر لقتال الترك الذين خربوا ربوع " زيسيكس "[٤].

ورأى الدويستيك فى هذه التعليمات الإمبراطورية الفرصة الملائمة لإصدار أمر كتابى باستدعاء جميع ضباط الجيش التابعين له ومعهم رجالهم ولم يدع هذه الفرصة تفلت من يده، فاستجابوا له واستعدوا للتحرك ، ثم أسرعوا إلى العاصمة . وحدث فى هذه الأثناء بالذات أن قام واحد من الناس – بإيعاز منْ " بوريلوس " – بالذهاب إلى الإمبراطور وسؤاله عما إذا كانَ ما فعله " الدوميستيك " الكبير فى حشده العسكر بالعاصمة قد تَمّ برغبته ؟ أو بعلمه ؟ فبعث نقفور بوتنياتس إلى ألكسيوس يأمره بالمجىء إليه فى ساعته هذه. واستفسر منه عن مدى الصدق فيما سمع ، فلم يتردد ألكسيوس فى القول له بأنه لا ينكر أنه هو الذى أمر بجمع هذا العسكر، ولكنه فنَّد تفنيدا مقنعا الزعم بأنه جنَّد العسكر من كافة أرجاء الإمبراطورية وقال إنّ الجيش فى الواقع موجود فى كل النواحى ، ولم يأت إلى هنا سوى طائفة قدموا من بعض الولايات

بناء على أوامر الإمبراطور وأنه من الطبيعي أن يخيّلَ للناظر إليهم أنّ كل الجيش قد جاء ... ولكن الأمر كان على غير ما ظنوا وتخيّلوا .

وعلى الرغم من شدة دحض بوريلوس لهذا القول إلاّ أنّ تفسيرات ألكسيوس كانت أقوى من ادعاءات خصومه بصورة حملت الإمبراطور على إعلان موافقته على كل ما فعله ألكسيوس .

أما " جرمانوس " الذي كان أقل من صاحبه ذكاء فلم يغال في معارضته لألكسيوس . لكن لما رأى المتآمران فشل هذه الاتهامات في حمل نقفور على اتخاذ أيّ إجراء ضد الدوميستيك اغتنما فرصة ظلام الليل لنصب كمين لإسحق وأخيه . ويلاحظ أنه منْ الحقائق الثابتة أن العبيد يعادون ساداتهم : طبيعةً ركبت فيهم ، وأنهم إذا عجزوا عن الإضرار بهم عملوا على الإيقاع بينهم .

كان هذا هو الذي أوحتْ به إلى ألكسيوس خبراته بشخصية هذين الرجلين وطبيعتهما ، وأنهما يحقدان الحقد الأسود عليه وعلى أخيه بسبب عطف الإمبراطور، وكان " بوريلوس " - كما يقول البعض - يشتهي العرش لنفسه فتواطأ جرمانوس معه في تدبير هذه المكيدة وساعده مساعدة جدية في نصب الكمين، وتحدّثا فيما بينهما عن خطتهما ، وراحا يستعرضان السبل المؤدية إلى توفير النجاح لها ، وحينذاك جاهرا بما كان يدور بينهما همسا من قبل ، وتسنى للرجل " الآنيّ " المولد أن يسمع ما يقولانه وكان قد بلغ مرتبة قيادية كبيرة إلى جانب عمله في خدمة الإمبراطور منذ أمد بعيد ويعتبر من أصدقائه الخلص الذين اصطفاهم ، فلما انتصف الليل وحلّت فترة حراسته الليلية تسلل من موضعه وأفضى بصراحة إلى " الدوميستيك " الكبير - وهو في داره - بكل ما يدبّر في الخفاء ضده وضد أخيه .

ويقول البعض إن الإمبراطورة مارية لم تكن جاهلةً بزيارة هذا " الآنيّ " إلى الأخوين حيث أخذه ألكسيوس إلى أمه " دالاسينا " وإلى أخيه إسحاق ، فلما استمعوا إلى هذا النبأ السيئ أجمع الأخوان رأيهما على أن الوقت قد حان لتنفيذ خطتهما السرية وأن الواجب يقتضيهما العمل على ما فيه سلامتهما بعون الرب .

وحدث بعد يومين أن سمع الدوميستيك بأن الجيش قد احتل قرية " زوروولوس " الصغيرة القائمة قرب الحدود التراقية - فلما قاربت الساعة الأولى ليلاً خرج أبى لزيارة "باكوريانوس"(٥) وكان رجلاً ضئيل الجسم ولكنه محارب عنيف كما يقول الشاعر هوميروس ، وهو من أسرة أرمينية عريقة الأصل فقص عليه قصة العبدَيْن كاملة لم ينقص منها شيئا ، وحدثه عن كراهيتهما له ، وعن الغيرة المتقدة فى قلبيهما منه ، والإحَن القديمة فى نفسيهما ضده وضد أخيه معا ، ثم مؤامرتهما الأخيرة لفقء عيونهما ، وكان مما قاله له: " إنه ليس من الصواب أن نتحمل العذاب كالأسرى وأنه من الخير لنا أن نقاتل بشجاعة حتى لو ذهبت أرواحنا فى هذا القتال ، فذلك هو الأمر الخليق بالرجل الكريم المحتد " . وأصغى " باكوريانوس " لكل كلمة انفرجت عنها شفتا ألكسيوس إصغاءَ من يعرف أنه لا يجوز فى مثل هذه الأمور إضاعة لحظة واحدة من الوقت، بل يتحتم النهوض فى الحال بكل شجاعة واتخاذ خطوة حاسمة . ومن ثم قال له: " ارحل صباح الغد عن المدينة وسوف أمضى فى أثرك ، وسأتطوّع للحرب إلى جانبك . أما إن أجّلت خطتك إلى ما بعد ذلك فإنى منذرك أنى سأمضى إلى الإمبراطور فورا وأشى بك وبرجالك عنده " .

فقال له ألكسيوس: " أما وقد رأيتُ حرصك على سلامتى - وهذا فى الواقع من فضل الرب - فإننى لن أرفض نصيحتك. ولكن بقى شىء واحد ينبغى علينا عمله هو تأكيد اتفاقنا بتبادل القسم على مراعاته " .

وحينذاك تبادلا الأيمان والعهود .

كان مما أقسمه ألكسيوس أنْ لو مكّنه الرب من اعتلاء العرش الإمبراطورى فإن أول شىء هو فاعله أنْ يَرفع " باكوريانوس " إلى مرتبة الدوميستيك التى يشغلها هو ذاته الآن . فلما فرغ من ذلك استأذن من " باكوريانوس " ومضى إلى قائدٍ عظيم آخر يدعونه " هوبرتوبوليس Hubertopoloulus " وأفْضَى إليه بما يعتزم القيام به وذكر له السبب الذى دعاه إلى الهروب وسأله أنْ ينضم إليه ، فاستجاب له فى الحال قائلاً له: " سوف تلقى منّى كل معاونة صادقة ، وسترانى مستعدا أنا الآخر لبَذْل حياتى من أجلك " .

كانت هناك عوامل أخرى تدفع هذين الرجلين لتـأييد ألكسيوس وشدّ أزره ، منها تفوقه على سواه بفضل ما طبع عليه من الشجاعة والذكاء ، كما أنهما أكبرا فيه – إلى جانب ذلك – سخاء كفه وكثرة عطائه للناس عامة ، رغم أنه لم يكن موفور الثراء، كما لم يكن قطاً بالشحيح المنصرف إلى اكتناز المال .

إنه ليس من المألوف أن يحكم على الشخص – أيا كان هذا الشخص – بكمية المال الذى يبذله ولكن بالدوافع الكامنة وراء هذا البذل ، ويمكن للمرء أن يصف أى شخص – محدود الدخل – بالكرم ولكن بناءً على ما يجود به فى حدود إمكانياته ، كما أن الشخص شديد الثراء الذى يدفن أمواله تحت الأرض أو الذى يسعف المعوز بأقل مما هو قادر عليه لا يخطئ الوصف إن شبهوه بكرويسوس Croesus أو بميداس Midas المجنون بالذهب ويطوى فى بردتيه رجلاً شحيحًا وضيعًا ، ومخلوقًا ممسكًا خسيسًا .

لقد كان " باكوريانوس " و هويرتوبوليس " يعرفان منذ أمدٍ بعيد فى ألكسيوس رجلاً حباه الله بكل الفضائل ، لذلك تمنى كل منهما له أن يتبوأ العرش بفـضل من الرّب .

وبعد أن تبادل ألكسيوس الأيمان مع " هويرتوبوليس " أيضًا انفلت إلى داره على جناح السرعة وأفضى إلى أصدقائه بكل ما جرى .

لقد أنجز والدى كل هذه الأمور فى ليلة أحد أسبوع عيد الجبن ، فلما كان اليوم التالى وقد أوشكت الشمس على البزوغ غادر المدينة وخرج مصطحبا رفاقه ووقع نشاط ألكسيوس وذكاؤه من نفوس الأهالى موقعه الطيب ، لذلك نظموا أغنية قصيرة فى تمجيده صاغوها باللهجة الدارجة ولكنها أصبحت تجرى على كل لسان ، وقد أكدوا فيها إدراكه السابق بالمؤامرة التى دُبِّرت ضده وما اتخذه من الإجراءات للقضاء عليها وتقول كلماتها :

" فى يوم السبت المسمى بسبت أسبوع عيد الجبن

هنيئا لك يا ألكسيوس على براعتك النفاذة .

لقد جئت فى هذا اليوم بالعجب العجاب

لكن فى يوم الاثنين حلقت عاليا فى أجواز الفضاء

كأنك النسر يفتش بعيدًا عن مكائد المتبربرين " .

(٥)

كانت "أنا دالاسينا " – أمّ الأخوين إسحاق وألكسيوس كومنين قد رتبت عقد قران حفيد بوتنياتس على ابنة مانويل أكبر أبنائها ، وكان أشدّ ما يزعج بالها ويقلق خاطرها أن يصل خبر هذا الاستعداد إلى سَمْع القائم بتربية الشاب فيخبر الإمبراطور.

وحملّتها الرغبةُ فى تجنب حدوث مثل هذا الأمر على تدبير حيلة بارعة تنطوى على المكر الشديد، إذْ أمرت جميع أهل بيتها بالتجمع مساءً لزيارة الكنائس الطاهرة لأداء الصلاة حسب مألوف عادتها من التردد بانتظام على جميع الأحرام المقدسة .

واستجاب الجميع لأمرها وصَدَعوا له فحضروا وجىء بالخيل من إصطبلاتها وجرى التظاهر بعرض أقمشة السروج الملائمة للنساء .

كانَ حفيد " بوتنياتس " فى هذه الأثناء يغط فى نومه هو ومعلمه فى دار مخصصة لهما قائمة فى تلك الناحية ، ولما اقتربت لحظة الحراسة الليلية الأولى قام الأخوان بحمل السلاح والخروج من العاصمة الملكية ، ثم أغلقا جميع الأبواب وسلما مفاتيحها إلى أمهما ، كذلك أغلقا فى هدوء ومن غير جلبة أبوابَ الدار التى كان " بوتنياتس " الصغير نائما بها ، وسلما المفاتيح لأنّا دالاسينا .

والواقع أنهم لم يوصدوا الأبواب إيصادا محكما ولم يحكموا إغلاق ضلفتى كل باب من هذه الأبواب حتى لا يُحدث إغلاقها بشدة صريراً يوقظ الصغير من سباته .

وانقضى معظم الليل وهذه الأحداث تجرى على قدم وساق . على أنه قبل أن يصيح الديك مؤذنا بطلوع الفجر فُتحت الأبواب وخرج الجميع مستصحبين أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم وأطفالهم ، ومشوا إلى مدرج قسطنطين فلما بلغوه استأذن إسحاق وألكسيوس من النسوة ، وأسرعا إلى قصر " بلاشيرْناى " ، على حين هرولت النّسَاء فى عجلة إلى كنيسة سانت صوفيا .

وترامى ضجيج الجلبة إلى معلّم الصغير بوتنياتس فاستيقظ من نومه وحزّر ما يجرى فانطلق حاملاً فى يده شعلة يبدد ضوؤها بعض غبش الظلام ، وسرعان ما أدركهم المعلّم وقد كادوا أن يبلغوا أبواب كنيسة " الشهداء الأربعون " ، فلما أبصرته " أنا دالاسينا " صاحت به : " إننى واثقة أن بعض الناس قد وَشوا بنا عند الإمبراطور، وسأمضى لزيارة الأحرام الطاهرة ملتمسة منها معونتى حتى إذا طلع النهار عدتُ إلى القصر " .

ثم تابعت كلامها موجهةً إياه إلى المعلم قائلة له : " أمّا أنت فامضِ عنا واذهب إلى الحراس ومُرْهُم بفتح الأبواب وأنبئهم بخبر قدومنا " ، فانطلق المربى على عجل فى لحظته هذه مستجيبا لما قالته " أنا دالاسينا " التى تأهّبت هى ومن معها للسير إلى ضريح الأسقف نيكولا الذى لا يزال حتى اليوم يسمى بالملجأ والذى يقع قرب الكنيسة الكبرى ، المُشَيَّدة منذ زمن بعيد ليكون ملجأ وملاذا آمنا لكل من يطرقه ويكون قد اقترف جريمة ألقى القبض عليه من أجلها .

وهذا المزار هو فى الواقع ملحق بكنيسة أياصوفيا . ويخيل إلى أنّ أسلافنا قد شيدوه فى الأصل لكل الخطائين الذين لا يكادون يجتازون عتبة بابه حتى يصبحوا بمنجاة من كل عقوبة ينزلها القانون بهم . ومن هذا نعلم أن أباطرة العهود السالفة وقياصرتها كانوا حريصين كل الحرص على كل ما فيه راحة رعاياهم .

على أن حارس هذه الكنيسة الذى كان موجودا حينذاك لم يغلق الأبواب فى وجوه هؤلاء النسوة ، بل راح يسألهن : من يَكُنّ ؟ ، ومن أين جئن ؟ ، فردت عليه إحداهن قائلة: " إنّهنّ نسوة من المشرق أنفقْن كل ما معهن من مالٍ فى شراء ما هُنَّ فى حاجة مُلِحّة إليه ، ويرون الإسراع بأداء الصلاة قبل أَوْبتهن إلى بيوتهن " .

وحينذاك بادر الحارس ففتح الأبوابَ من غير توان من جانبه وأذن لهن بالدخول.

فلما كان صباح اليوم التالى عقد الإمبراطور اجتماعا لأعضاء السينيت حيث بلغه ما كان من خبر ألكسيوس وإسحاق . وطبيعى أن يكون قد اشتدّ وإياهم فى النيل من الدوميستيك، كما أرسل فى الوقت ذاته ستُرابوموناس "وُيوفيميانوس" إلى النسوة يستدعيهنّ إلى القصر فردت عليه "دالاسينا" قائلة: "إن وَلَدَيَّ إسحاق وألكسيوس

عبدان مخلصان لسدتكم المبجلة، وهما مطيعان لكم فى كل شىء طاعة عَمياء، وإنكم لتعرفون أنهما لم يزهقا روحا ولم يعذّبا أحدا، بل كانا على الدّوام يعرضان نفسيهما للخطر دفاعا كريما عن إمبراطوريتك، ولكن الحسد الذى لا يطيق أن يرى جميل صنعك معهما وعطفك عليهما قد عرّضهما لخطر فادح لا يملكان له دفعا. ولما اكتشف ولدّاى ما دبره لهما خصومهما من سُمل أعينهما، وشاهدا الخطر مكشرا لهما عن أنيابه ومحدقا بهما من كل جانب لم يجدا أمامهما من سبيل لتجنب ذلك الخطر إلا فى الرحيل عن المدينة لا كثائرين متمردّيْن عليك بل كخادمين مخلصين لك جاعلَيْن نصب أعينهما ثلاثة أمور: أولها هو تحاشى الخطر المحدق بهما الموشك على الإلمام بهما، وثانيها إطلاع عظمتكم على المؤامرة التى تحاك شباكها ضدهما، وأما الثالثة فالتماسهما حمايتكم لهما ".

ولكن الرسل ألحّوا عليها أن تعود معهم، ومارسوا عليها ضغطا شديدا من أجل هذا الغرض ، فانفجر مرجل غضبها وقالت:" اسمحوا لى أن أدخل كنيسة الرب فأصلى له، وإنّه لمن العار أن أصَدّ عن دخول بيت الرب بعد أنْ أصبحْتُ أمام أبوابه، وأنْ يُحال بينى وبين التوسل لسيدتنا أم المسيح الطاهرة كى تتشفع لى عند الرب وتدعو للإمبراطور ذاته".

واستجاب الرسل إلى التماسها الذى لم يروا فيه شرا، وأذِنوا لها بالدخول. فراحت تمشى الهوينى كما لو كانت امرأة قوست الشيخوخة ظهرها وهدّها الحزن. والواقع أنها كانتْ تتظاهر بالإنهاك إذ ما كادت تبلغ عتبة المزار حتى صلت ركعتين فلما كانت فى الثالثة أكبّت على الأرض وتعلقت بالأبواب المقدسة ممسكة إياها بقبضة من حديد وصاحت بصوت مجلجل:" لن أبرح هذا الموضع الطاهر حتى ولو بُتِرَتْ يداى، وما أرانى بمغادرةٍ إياه إلاّ بشرط واحد هو أن أتسلم صليب الإمبراطور الكبير لضمان سلامتى".

حينذاك نزع "سترابومونامس" صليبه المُتَدَلِّى على صدره وقَدّمه إليها فقالت له: "لست أطلب عهد الأمان منك بل إنى أنشده من الإمبراطور ذاته، ولن أقنع بأىّ صليب صغير يُقدم إلىّ بل يجب أن يكون ذا حجم محترم".

كانت حجتها فى هذا أنه إذا أُخذ القَسَم على هذا الصليب الكبير أمكن للجميع رؤيته ، أمّا إنْ تمَّ القسم على صليب صغير فإنّ تأكيد اليمين قد لا يكون ظاهرا جليا لمعظم المشاهدين، ثم قالت: "إننى أنشد العدل والرحمة من الإمبراطور فامض إليه وأبلغه رسالتى هذه".

ثم تقدمت زوجة ابنها إسحاق – وكانت قد نجحت فى التسلل إلى الكنيسة حين فتحت الكنيسة أبوابها لأداء تَرَانِيم الصبح – فنَحَّت النقاب عن وجهها وقالت للجميع وهى سافرة :

"دعوها تذهب أنَّى شاءت فذلك موكول إليها، أمّا نحن فلن نبرح هذه الكنيسة – حتى لو ذقنا الموت – ولن نغادرها إنْ لم نُزَوَّد بعهد أمان".

وحين ذاك انصرف الرجل وقد رأى كيف أنّ عنادهن أخذ يزداد حدة، وخاف حدوث الشغب، ثم مضى إلى الإمبراطور "بوتنياتس" وقصّ عليه القصة كاملة غير منقوصة.

ولما كان "بوتنياتس" رجلا صالحا فقد تأثر بكلمات المرأة فبعث برسوله إليها حاملا الصليب المنشود وأرسل إليها فى الوقت ذاته تأكيدا جديدا بالأمان، فلما بارحت الكنيسة بارحتها مع إحدى قريباتها ومعها بناتها وزوْجتا ولديها إلى دير "بتريون" petrion المتاخم لباب "سيديرا" Sidera ، كما أرسل زوجة يوحنا الملقبة بالسيدة الكبيرة – لأنها كانت تحمل رتبة سيدة صيوان الملابس – فى المزار الموجود فى "بلاشيرناى" المشيد تمجيدا لسيِّدَتِنا أم المسيح، كما أودعت هى الأخرى – بأمر الإمبراطور– دير راهبات "بتريون" كما صدَرت الأوامر أن تظل مخازن الدير وشؤنه سليمة لا يمسها أحد.

كانت هاتان المرأتان تذهبان كل صباح إلى الحراس وتسألانهم إنْ كان لديهم خبر عن أولادهن فتسمعان كل ما يكون عندهم من الأخبار، وكان سلوك الحراس معهما يتسم بالاستقامة التامة والاحترام، وكانت سيدة الصيوان مبسوطة الكف طيبة القلب، ساعية لاسترضاء الحراس حتى لقد أذنت لهم أن يأخذوا لأنفسهم من مواد

التموين كل ما هم فى حاجة إليه؛ ذلك لأنه كان مسموحا للنساء بجلب كل احتياجاتهن دون معارضة [٦]. ومن ثم أصبح الحراس أكثر ميلا لتزويدهن بالأخبار مما ترتب عليه أن أصبحت السجينات على علم بجميع ما هو جار وذلك بفضل ما يأتيهن من هؤلاء الحراس من الأخبار.

هذا آخر ما أقوله عنهن.

(٦)

لم يكد الثائران إسحاق وألكسيوس يبلغان البوابة الواقعة عند أسوار "بلاشيرناى" حتى حطما الأقفال وتمكنا من اقتحام الإسطبلات[٧] الإمبراطورية فأخذا من الجياد ما اعتبراه نافعا لهما. أما غيرها من الخيول فقد عرقبوها بالسيوف من أعلى أفخاذها إلى أسفل أرجلها، ثم ركبا من هناك مسرعين إلى الدير المسمى دير "كوسميديون" Cosmidion الواقع عند مشارف المدينة.

والآن وقد وصلت إلى هذه النقطة فإنى أتابع روايتى لزيادة إيضاح القصة، فأقول إن إسحاق وألكسيوس وجدا هنا سيدة الصيوان قبل أن يطلب إليها الإمبراطورالرجوع فاستأذناها فى الرحيل وَهَمَّا بالانطلاق بجواديهما، كما حاولا أنْ يضمّا جورج بالايولوجس إليهما ونجحا فى هذه المحاولة فرافقهما جورج ولكن على كره منه، ولم يكونا حتى هذه اللحظة قد انشغلا عن مشروعهما فقد كان الشك يساورهما فيه، وحقٌ لهما أن يتشككا فيه فقد كان جورج من أخلص الناس للإمبراطور بوتنياتس وأشدهم ولاءً له ، فلو أنهما أطلعاه على عزمهما على الخروج لما سلم الأمر من المخاطرة.

والواقع أن بالايولوجس لم يذعن للأخوين فى بادئ الأمر فقد أبدى كثيراً من الاعتراضات واتهمهما بعدم الوفاء بالعهد ورماهما بالغدر وأخبرهما أنهما إنْ عاودا التفكير فى هذا الأمر ثانية فسيكون له رأى غير الذى يريانه منه الآن.

أما "مديرة الصيوان" - وهى أم زوجة بالايولوجس- فقد مارستْ ضغطا شديدا على جورج كى يصحبهما، ثم زادت فهدّدته بالويل والثبور مما حمله فى النهاية على الموافقة ولم يعد يشغله سوى سلامة هؤلاء النسوة لا سيما زوجته[8] "أنّا" وحماته "مارية" التى كانت تنحدر من أسرة بلغارية عريقة الأصل وقد حباها الله جمالا مفرطا لا مثيل له وطلعة رائعةَ التقاطيع، وهيئة ما أظن أنْ وهبها الله لأية امرأة أخرى من نساء جيلها . فكان من الطبيعى - والحال على هذه الصورة - أنْ ينشغل بها كل من جورج وألكسيوس اللذين شعرا بوجوب إقْصَاء النساء عن هذا المكان وأخْذِهن إلى موضع أمين اختلفوا فى تَحديدِه فرأى ألكسيوس ومن معه إبعادَهُنَّ إلى إحدى القلاع. وأما بالايولوجس فكان يرى نقلهن إلى هيكل سيدتنا الكائن فى "بلاشرناى". وانتصر رأىُ بالايولوجس فساروا بهن فى الحال ووضعوهن فى رعاية أم العالم الطاهرة ثم عادوا بعد أن أبلَغُوهن مأمَنَهُن - أعنى الموضع الذى جئن منه - وشرعوا يتدبرون ما يفعلون، فقال بالايولوجس "إنّ الواجب يقتضى الرحيل من هنا وسوف ألحَقُ بكما سريعا بعد أن أُحضِر أموالى وكُلّ متعلقاتى"، ذلك لأنّ ثروته المنقولة كانت كلها مخزونة هناك.

وبادر الأخَوان إسحاق وألكسيوس دون تمهل سالكَيْن السبيلَ المتفق عليها، كما مضى بالايولوجوس فى أثرهما بعد أن وضع متاعه وما يملك من مال على ظهور دواب الرهبان الخاصة بنقل الأمتعة وتبعهما حتى وصل سالما إلى "تزوروليوس" Tzooroulus إحْدى قرى تراقيا. وشاء حُسْنُ الطالع أن ينضموا جميعا إلى الجيش الذى كان موجودا هناك طاعة لأوامر الدوميستيك.

وإذْ رأوا وجوبَ إخبار الإمبراطور السابق "يوحنا دوكاس" بمخاطرتهم هذه فقد بعثوا إليه رسولا يعلمه بخبر الثورة، وكان يوحنا هذا يعيش فى مزرعته الخاصة فى "موروبوندوس" التى بلغها الرسول فى ساعة مبكرة بعد الظهر وظل واقفا أمام الأبواب يلتمس من غير جدوى لقاء القيصر فرآه حفيد الإمبراطور واسمه يوحنا هو الآخر وكان طفلا لم يجاوز الحلم ويعيش معه على الدوام لصغر سنه، فانطلق على عجل إلى الداخل

ليوقظ جدّه من سباته وليخبره عن الثورة ، فانزعج يوحنا مما قاله الصبى وضربه على أذنه ونهره وأمره أن يمسك عن هذا اللّغو ثم دفعه إلى خارج حجرته. غير أنّ الصغير رجع بعد قليل يعيد على مسمعه ما قاله من خبر الثورة ويقدّم إليه الرسالة التى بعث بها ولدا كومنين إليه والتى كانت تتضمن إشارة خفية إلى الثورة إذْ تقول: "لقد أعدَدْنا من جهتنا طَبَقا شهيا لا يخلو من مقبلات فاتحة للشهية، فإنْ شئت أن تشاطرنا المأدبة فبادر على وجه السرعة إلى مشاطرتنا الوليمة". وحينذاك اعتدل يوحنا قيصر فى جلسته واتكأ على مرفقه الأيمن وأمَر بإدخال الرسول الذى انطلق يفصّل الأمر كله له، فكان أوّل ردِ فعل من قيصر هو أن غطى عينيه بكفيه وصاح متعجبا "واحسرتاه!" ثم قبض على لحيته لحظة واستغرقه تفكير عميق انتهى بعده إلى قرار بات لا رجعةَ فيه هو أنْ ينضم إلى الثورة . كما استدعى إليه فى الحال أمراء آخوره واعتلى صهوة جواده وانطلق قاصدا الأخوين كومنين.

وحدَث أنْ صادف فى الطريق رجلاً اسمه "بيزنتيوس" كان عائدا إلى العاصمة يحمل صرة بها قدْر كبير من الذهب فسأله يوحنا بطريقة هوميرية عمن يكون؟ ومن أين قدم؟ فعلم منه أنه يحمل ما جباه من الضرائب (وكان قدْرا كبيرا جدا من المال)، وذكر له أنه ماض به ليُودِعه بيت المال. فألحَّ عليه أن يظل ليلته معه ووعده أنه سوف يأذن له عند طلوع النهار بالخيل، فاحتجّ الرجل غاضبا من هذا التصرف، فلم يزدد يوحنا إلاّ إصرارا ثم رضخ الرجل فى النهاية واستجاب إلى ما طلبه منه يوحنا الذى كان بطبعه رجلا ذلق اللسان، حاضر البديهة قويُّ الحجة حتى لكأنه "أخيوس" Aeschlus آخر بعث من جديد أو "ديمستين" آخر، ومن ثم اصطحب الرجل إلى أحد الخانات الصغيرة فقضيا به ليلتهما ، وراح يوحنا يتودد إليه بشتى الطُّرق ودعاه لأن يشاطره مائدته، ثم أذن له باستراحة طويلة فلمّا طلع الفجر وأوشكت الشمس أن تطل من خدرها على الأفق الشرقى أعَد "بيزنتيوس" جياده وقد فرغ مَعِينُ صبره واستعد للرحيل فى لحظته إلى العاصمة، فما رآه يوحنا على هذه الصورة حتى قال له : "انتظر حتى نمضى معا".

لم يكن الرجل الجـابى يدرى إلى أين يزمع يوحنا الرحـيل، كمـا أنه كـان خـالى الذهن تماما عما وراء هذه المعاملة الرقيقة التى يعامله بها يوحنا، فعاوده الغضب وسـاوره الشك فيـه وفى تصـرفـاته الودية. فـأردفه يوحنا وراءه ثم ما لبث أن تغيَّرت لهجته فى الحديث معه، واتّسمت بالخشونة التى أخذت فى التزايد ولم تَخْلُ من التهديد إنْ لم يُطِع أمْره، فلما رأى يوحنا إصراره عمد فنقل كل متاع الرجل إلى ظهور دوابه الخـاصة به، وأمر رجـاله بالرحيل وقـال له إنه يستطيع أن يمـضى أنَّى شـاء دون أى تدخل من أى أحد فتخلى الجابى عن التفكير فى العودة إلى القصر مخـافة أن يزج به عمـالُ بيت المال فى السـجن إنْ هم رأوه عائدا إليـهم صـفر اليدَين ليس معه شىء من المال الذى جباه. كما أنه كان عازفا من ناحية أخرى عن الرجوع إلى حيث كان بسبب الاضطرابات التى عمت القصر بأجمعه من جراء ثورة آل كومنين التى أصبحت معروفة للقاصى والدانى، ولذلك فقد اضطُر رغم أنفه لمتابعة قيصر الذى حالفه الحظ فى هذه المرحلة أكثر من ذى قبل حين صادف فى خروجه جماعة من الترك كانوا قد اجتازوا منذ قليل نهر "إيروس" Eurus فجاءهم يوحنا على ظهر جواده مستفسرا منهم من أين بدءوا رِحْلتـهم؟ ومـا هى وجـهـتـهم؟ ثم وعدهم أن يصلهم بالمال الوفـيـر إن هم قـبلوا الانضـمـام إليه فى السير إلى كومنين، فوافقه الترك على عَرضـه، وأراد هو تأكيد ما اتفقوا عليه معه فأقسموا اليمين فى الحال حسب عادتهم وعاهدوه أن يصدقوه القتال إلى جانب ألكسيوس، وحينذاك تابع قيصر سيره وفى صُحْبته هؤلاء الأتراك فـأبصروا ولدَىْ كومنين فى رهطهما من مسافة بعيدة ففرحوا وعدُّوا انضمـامهم إليهم كسبا عظيما ضاعف من سرورهم، وكان والدى أكثر الجميع غبطة فلم يستطع كتمان سروره هو الآخر، فتـقدم وعانق "يوحنا" طويلا وقبّله كثيرا ثمّ زحفوا كلهم على العاصمة استجابة لتوجيه قيصر الذى كان فى عجلة من الأمر فهبَّ جميع سكان البلاد والقرى من تلقاء أنفسهم للقاء ألكسيوس ونادوا به إمبراطورا، ولمْ يشذ عنهم سوى أنصار أوريستياس" الذين كانت قلوبهم تفيض بالحقد على ألكسيوس لإلقائه القبض على "برينِّيَس" ومن ثم انضموا إلى حزب "بوتنياتس" فلما وصل إسحاق وألكسيوس ومن معهما إلى "أثيراس Atheras أقاموا بعض الوقت مستجمين بها وكانت إقامتهم يوما واحدا عادوا بعده للزحف وأوصلهم الزحف إلى قرية من قرى تراقيا اسمها "شيزا " Schiza فضربوا معسكرهم بها.

(٧)

كانت الدنيا كلها فى هذه الأثناء مشدودة بالأحداث الجارية، وكان الناس كلهم فى لهفة عارمة لمعرفة ماذا تكون النهاية وما تسفر عنه الأحداث من خاتمة وما يترتب على المناداة بألكسيوس إمبراطورا. ولا شك أن غالبيتهم كانت تدعو الله أن يسوق العرش إليه، وإن لم يتسرب اليأس إلى نفس أصحاب إسحاق أخيه الذين يرجون أن يكون صاحبهم هو المتوج. لذلك بذلوا غاية جهدهم لكسب التأييد لرجلهم، وكانت جميع الظروف والظواهر تشير إلى أنه لا يمكن التِئام الشرخ ، فهناك فريق يرغب أن يئول حكم الإمبراطورية إلى إسحاق ، وآخرون يريدونه لألكسيوس ، وكان من بين الحاضرين آنذاك نفر من أدْنى الناس[٩] رحما بوالدِي وفى مقدمتهم "قيصر حنا دوكاس" الذى كان رجلا إن استشير أشار بالرأى السديد الذى لا يعلو عليه رأىٌ، هذا إلى جانب براعته وسَبْقِه غيره فى التنفيذ على أحسن صورة. ولقد رأيتُ ذلك بنفسى من قبل.

ثم كان هناك – من أدنى الأقارب – حفيدهُ ميخائيل وحنا وكذلك زوج أختهما "جورج بالايولوجس"، الذين كانوا جميعا حاضرين فى هذه اللحظة ، وكانوا يبذلون أقصى جهدهم لتَصَيُّد كافة الأصوات لتأييد مَن اختاروه، وكانوا يمسكون – كما يقولون – بجميع الخيوط فى أيديهم، ولا يتركون حيلةً إلا استغلوها بمهارةٍ عساها تؤدى إلى المناداة بألكسيوس إمبراطورا، كما راحوا يسعون ليضموا إليهم كلَّ شخص يرون أنّ هواه معهم.

ولقد ترتب على ذلك أنْ أَخَذ أنصار "إسحاق" فى التضاؤل شيئا فشيئا، فقد برهن قيصر حنا على أنه رجل لا يمكن التغلب عليه، وليس هناك من أحد يستطيع مجاراته فى ذكائه الحاد، وما منْ أحد يعارضه فيما يقول، ومن ثم فإنه كان ذا رأىٍ صائب يكسبه الاحترام، كما لم يكن أحد يماثله فى ضخامة هَيْكله وطَلْعَتِه الملكية.

لقد فَعَلَت أسرةُ دوكاس كل شىء مستطاع ووعدوا الضباط وعامة الجند بكلّ نفع إن اعتلى ألكسيوس العرش، وقالوا لهم: "إن ألكسيوس سوف يكافؤكم أحسنَ المكافأة

ويخلع عليكم جميعا من آيات الشرف ما يتّفق واستحقاق كل واحد منكم، وهو لن يفعل ذلك اعتباطا مثل القادة الجهال الذين لا خبرة لهم، فلقد ظلّ ألكسيوس زمنا طويلا قائد جيشكم، وكان دوميستيك الغرب العظيم، وشاركَكم حلو الحياة ومرُّها، وحارب إلى جانبكم حرب الأبطال سواء فى الخنادق أو فى العراء، وعرَّض بدنه بل وحياته ذاتها للخطر من أجل سلامتكم، فإن تسلقتم الجبال تسلقها معكم، وإن اقتحمتم الأخطار كان إلى جانبكم، كما أنه ذاق أهوال الحرب وعرفكم معرفة دقيقة: أفرادا وعسكرا، وبذلك كان الجندىُّ الحقيقى الذى يميل قلبه كل الميل إلى المحارب المقدام".

فى الوقت الذى كانت فيه أسرة دوكاس مشغولة بما هى فيه كان ألكسيوس يعامل أخاه إسحاق بكل احترام وتبجيل، جاعلا له الصدارة على الدوام، وسواء كان ذلك نابعا عن حب أخوى أو كان صادرا - وهو أمر لا ينبغى تجاهله - عن معرفة ألكسيوس بانحياز الجيش كله إلى جانبه هو ذاته، فإنّ رغبة العسكر الشديدة فى فوزه وتجاهلهم الدعوة إلى إسحاق جعلت القوة والسلطان بيد ألكسيوس الذى رأى أن الأمور تجرى لصالحه من غير جهد يَبْذُلُه، لكنه على الرغم من ذلك كله شجّع أخاه على طلب العرش لنفسه رغم ما فى هذا العمل من خطر غير مأمون، ولكنه وجد نفسه قادرا على مُدَاهَنَة إسحاق والتظاهر بتسليمه السلطة طالما أنّ الجيش مجمع العزم على أن يسوق أعظم منصب فى الدولة لشخص معين وقع عليه اختياره، وكاد الوقتُ أن يضيع إذ ذاك فى هذه المجاملات لولا أنْ جاء يوم احتشد فيه الجيش بكافة كتائبه حول مقر القيادة وقد توترت الأعصاب غاية التوتر ، وكان كل فريق يرجو أن تتحقق آماله الخاصة.

وبينما كان الموقف على هذه الصورة إذا بإسحاق ينتصب واقفا ويأخذ الحذاء الملكى الأرجوانى ويضعه فى قدمى أخيه ألكسيوس الذى أنكر هذا العمل، ولما تكرر استنكاره قال له إسحاق: "هيا ... هيا ... فإنّ الرب يريد أن تكون عوْدة أسرتنا إلى السلطة على يدك".

ثم أعاد على سمعه خبر النبوءة التى قالها له ذات مرة رجل ظهر لهما قُرْب "كربيا نون" حين كانا فى طريقهما من القصر إلى بيتهما إذ برز لهما فجأة رجل - لعله كان

كائنا من جنس يفوق الجنس الآدمى أو ربما كان ذا قدرة خارقة على كشف حجب الغيب – ثم اقترب منهما هذا الكائن وهو عارى الرأس ، قد وخط المشيب شعره فبدا كأنّه قسيس لكنه أشعث اللحية، ثم مد يده فأمسك بألكسيوس من ساقه وجذبه وأنزله من على ظهر جواده حتى حاذاه لأنه هو ذاته كان راجلا وهمس فى أذنه بما جاء فى مزامير داود: "كن صادقا وناجحا ومفيدا واحكم وعينك على الحق والرحمة والعدل".

ثم أضاف الرجل الغريب قوله: "... أنت يا ألكسيوس هو الإمبراطور".

لقد قال الرجل هذه الكلمات وكأنها هاتف من الغيب ثم اختفى وتلاشى كأنْ لم يكن موجودا. وعجز ألكسيوس عن إمساكه ولم يعثر له على أثر رغم أنه راح يقلب ناظريه فى كل ناحية عساه يراه أو يرى له ظلا، بل لقد انطلق بجواده سريعا فى أعقابه علّه يلحقه فيمسكه ويكشف عمن يكون ويعرف من أين جاء؟ ولكنه عاد خائبا كأنْ الذى رآه كان طيفا وتلاشى. ولما رجع ألكسيوس من هذه المطاردة لاحقه إسحاق بالسؤال تلو السؤال عن أمر هذا الشبح مستحلفا إياه أن يكشف له سره وأمطره بالأسئلة على الرغم من أن ألكسيوس لازَم الصّمت فى البداية عن قول أى شىء، إلا إنّه عاد فأفشى لأخيه النبوءة الغيبية، وإنْ فسّر ما جرى بأنه كان مجرد هلوسة .

لكن حين أخذ إسحاق يسترجع هذه الرؤيا الربانية فيما بينه وبين نفسه ربط هذا الشبح العجوز باللاهوتى "ابن الرعد"[١٠] ورأى النبوءة قد آنَ تحقيقها وأنْ تترجم إلى واقع محسوس، وحينذاك عزم على أن يسلك طريقا أكثر جرأة فوضع النعل الأرجوانى فى قدمىْ ألكسيوس لا سيما وقد رأى مدى حماسة الجيش كله لأخيه وتأييده له.

فلما شاهدت أسرة دوكاس ما جرى تزعمت الهتافات له، وكان تأييدها إياه راجعا إلى عدة أسباب أخصّها أن قريبتهم "إيرين" التى هى أمى صارت زوجة والدى الشرعية وحينذاك اقتدى أقاربها بهم . والحقّ أنه كان منظرا يعجز المرء عن وصفه فها هم الرجال الذين كانوا موزعى الأهواء والولاء قد أصبحوا قلبا واحدا وعلى استعداد لمواجهة الموت حتى لا تحبط آمالهم ، واتّحدوا فى غمضة عين فى هدفهم ولم يعد ثم أثر لاختلاف الرأى بينهم .

(٨)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى سرت شائعة تقول إن " ميليسينوس "[١١] Melissenus قد خرج على رأس جيش كثيف وتقدم حتّى أصبح قريبا من " داماليس " Damalis ونادى بِنَفْسه إمبراطورا ولبس الأرجوان[١٢] ، فلم يصدق الأخوان هذه الشائعة فى البداية ، إلا أن ميليسينوس أرْسَل رسلاً من ناحيته إلى الأخوين وقد زوّدهم بالكتب التى يقول فيها لهما : " لقد أحاطنى الرب أنا وجيشى بأمانه فلم نُصَبْ قط بسوء حتى بلغنا " داماليس " ، ولقد سمعت بخبر الأخطار التى تعرضتُما لها ولكن العناية الإلهية أنقذَتْكما من شرور هذيْن العبدين وحفظتكما من مؤامراتهما الدنيئة التى أرادا بها القبض عليكما ، فدبرتما ما كانت فيه نجاتكما ، وإنّى لراغب فى التحالف معكما تنفيذا لمشيئة الرب التى قضت بأن نكون ذوى قربى ، وهكذا تلعب العاطفة دورها . كما أنّى فى صداقتى الدائمة لكما لن أستسلم لأحد من ذوى قرباكما ، ويعلم بهذا الرب الحاكم بين الجميع ، وهو الشاهد على صدق ما أقول ، فإنْ قُدِّر لنا الاستيلاء على مقاليد الحكم وتركزت السلطة فى أيدينا فمن الضرورى أن نتفق معا على سياسة مشتركة بيننا ، وإلاّ فسوف نكون كرة يتبادلها اللاعبون ونكون تحت رحمة أى ريح قد تهب علينا . لكن هيا نتعاون لنتمكن من وضع أساس متين لحكومة تجنى الإمبراطورية منها الخير ، وهى حكومة لا مشاحة فى إمكان قيامها لو أنكما استوليتما بمشيئة الرب على المدينة فتنفردان بإدارة دفة شئون الغرب إذا نودى بأحدكما إمبراطورا ، على أن يصير لى حكم آسيا فتكون من نصيبى وأشارك أَحَدَكُما العصابة الملكية وارتداء الملابس الأرجوانية ويهتف الجميع لى بالهتاف المتبع عادةً مع أصحاب السلطة ، وهكذا فإنّه على الرغم من أننا سوف نحكم أقاليم يختلفُ بعضها عن بعض إلاّ أنّ لكل منها إدارتها المنفصلة عن الأخرى ، ولكن سوفَ ننهج سياسةً واحدة ، ومن ثم تنعم الإمبراطورية التى ندير أمورها معا بالسلام التام " .

لكنْ لم يتلق السفراء ردا إيجابيا على هذه الرسالة بل استدعاهم الأخوان ألكسيوس وإسحاق فى اليوم التالى وتباحثا معهم مباحثات مفصلة ، ثم بيَّنا لهم

استحالة تحقيق ما يعرضه ميليسينوس وإنْ كان ذلك لن يمنعهما منْ أنْ يَعِدَاهم بتزويدهِم بقرارهما النهائى فى اليوم التالى على يد " جورج منجانس " وهو المكلف برعاية الرسل .

لكن لم تتوقف عمليات الحصار فى هذه الأثناء بل استمرت مناوشات الهجوم على أسوار المدينة موصولة بقدر المستطاع ، غير أنه لما جاء الغد الموعود أفضى الأخوان إلى الرسل بقرارهما وهو أن يخلع على " ميليسينوس " لقب " قيصر " وتكون له العصابة ويهتف الناس باسمه ويتمتع بشتى الامتيازات التىّ تتفق وهذه المرتبة ، ويُمنَح " تسالونيكا " التى هى أكبر المدن هناك .

غير أن الرسل لم ينظروا إلى هذه العروض بعين الرضا ولم تنزل من أنفسهم منزلة القبول وأغضبهم تجاهل الشروط التى تقدّموا بها ، لكن تسنى لهم أن يشاهدوا ما أعده هذا الثائر من الاستعدادات الكبيرة للاستيلاء على المدينة وأن يروا كثرة الجند الذين تحْتَ إمْرَته ، وأحسّوا بالضغوط المتزايدة عليهم هم أنفسهم فلم يجدوا بدا من أن يطلبوا منحهم عهدا يتضمن سلامتهم ويكون مكتوبا بالحبر الأحمر ، وتَخوفوا - إن استتب الأمر للأخوين واطمأنا إلى وضعهما - أن يرجعا عن الوفاء بعهودهما .

على أن ألكسيوس الذى كان قد توج إمبراطورا منذ قليل وافق على أن يُوَقّع كتاب الأمان وعهد فى الحال إلى كاتبه " جورج منجانوس " بكتابة المرسوم ولكن منجانوس ظل يرواغهم ثلاثة أيام وتهرّب من كتابته العهد ، مُخْتَلِقا من المعاذير ما يبرر تأخّره المرة تلو الأخرى ، فهو يزعم تارة أنه مُثْقَل بالعمل طول يومه بصورة تحول بينه وبين كتابته ليْلاً ، ويزعم تارة أخرى أن شرارة نار سقطت على ما كتب ليْلاً فأحْرقته فصار رمادا ، وهكذا راح ينتحل شتى المعاذير ويؤجل إنجاز المرسوم من يوم إلى آخر فدلّ بذلك على صحة نعته بالمخادع .

ثم غادر كومنين (" سكيزا ") [١٣] Skiza وسرعان ما بلغ "أريتاى" Aretae القريبة من القسطنطينية والمطلة على السهل ، ولو أنك نظرت من تحتها لخلتها تلاً يطل

أحد جانبيه على البحر ، ويطل الآخر على مدينة بيزنطة . أما من الشمال والغرب فتسفيه الرياح التى تهب عليه.

ومياه هذه الناحية عذبة سائغة للشاربين على الدوام ، وإنْ كان المكان يكاد يكون خاليا مِنْ نَبْتٍ حتى لتقول إنْ أنت رأيته أن الحطّابين قد اجتثوا كل ما بالتل من أخضر ، وتركوه أرضا جرداء .

ونظرا لما تمتاز به هذه الناحية من حُسْن الموقع وطيب المناخ فإن الإمبراطور " رومانوس ديوجين " كان قد شَيَّد به بعض الدور الجميلة الجديرة بأن تكون منتجعا للإمبراطور ، وجرت عادة الكبار على أن يقضوا فيه أيام عطلاتهم القصيرة .

وجاء الأخوان : وَلَدا كومنين؛ إلى هذه الناحية حيث اتخذاها ومن معهما مركزا لعملياتهما الحربية التى شنَّوها على أسوار المدينة وهى العاصمة ، وكانت تتمثل فى هجماتٍ لم تُستعمل فيها آلات الرمى الحربية والأبراج الخشبية المتحركة أو أدوات الحصار والمنجنيق لأنّ الوقت لم يسعفهم بإحضارها بل راحوا يقذفون بالعرّادات والنبال والرماح والسهام .

(٩)

ولما أدرك " بوتنياتس " شدة مراس عسكر كومنين الثائر وكثرة الجماعات التى يتألف منها جيشه واختلافها بعضها عن بعض اختلافا بَيِّنا ، ولما لاحظ أيضًا تقدمه السريع نحو أبواب المدينة وعلم باقتراب " نقفور ميليزينس " من " دالاميس " على رأس جندٍ قوىٍّ لا يقل عن الجند الذى تحت يده هو ذاته ، وأنّ هناك طامعا فى العرش - أقول لما عرف ذلك كله وأدْرك شِدة حرج موقفه يئس من أنْ يحارب فى جبهتين فى وقتٍ واحد ، ناهيك عن أنه كان رجلاً طاعنا فى السن قد فترت همته وأخذ الخوف يتزايد فى قلبه ساعةً بعد ساعة، وأصبح لا يشعر بالأمان إلاّ وهو خلف الأسوار رغم كل ما كان عليه فى شبابه من البطولة والصلابة ، ومالَ إلى التخلى عن العرش

ممَّا أزعج جميع معاونيه فعمّتهم الفوضى ، وصار كل ما حوله يشير إلى قرب وقوع انهيار كلى .

رأى ابْنا كومنين أنه من العسير عليهما احتلال العاصمة؛ لأن القوات التى كانت تحت أيديهما كانت تتألف من أجناس شتى: منها ما هو محلى ، ومنها ما هو أجنبى . وما كان لمثل هذا الخليط المتناقض إلاَّ أنْ يؤدِّى إلى ارتفاع أصوات الشقاق بين رجاله . وساور الشك قلب كومنين فى وفاءِ مثلِ هؤلاء الرجال ، وأدرك ما تنطوى عليه مهمته من الصعوبة ، لذلك تبنَّى خطة جديدةً هى أن يعمَد إلى المداهنة يغرى بها بعض المدافعين عن المدينة حتى إذا زعزع انتماءَهم أمكنه الاستيلاء على البلد.

وسيطر عليه هذا الخاطر ليلةً بطولها ظل فيها يقلب هذه الخطة على شتى وجوهها ، حتى إذا كان الصباح اقتحم على " قيصر حنا " خيمته وأفضى إليه بما عزم عليه ، وسأله أن يصاحبه فى جولته حول الأسوار ليَتَفقَّد تحصيناتها وحراسها الذين كانوا هم أيضا من قوميات مختلفة ، وبهذا يقرر كيف يكون الاستيلاءُ على العاصمة . فتبلبل خاطر " قيصر يوحنا " دوكاس من هذا الطلب لأنه كان قد تسربل منذ قليل بمسوح الرهبان ، ومن ثم كره أن يمضى إلى الأسوار إذ لابد أن يثير مرآه سخرية الموجودين فى هذه التحصينات ومَن على الأسوار وفى الخنادق إنْ هو طلع عليهم فى مسوح الرهبان .

وصحَّ ما توقَّعه إذْ ما كاد يمضى فى أثر ألكسيوس وهو مُرْغَم ، وما كاد الجند يرونه من فوق الأسوار حتى سخروا من هذا الراهب الدَّيْرى وصاحوا " هذا هو أبونا " ، ثم نعتوه بنعوتٍ مهينة . إلاَّ إنَّه شق طريقه بين صفوفهم وتظاهر بعدم الاكتراث بما يقولون رغم ما كان يحسه فى أعماقه من قسوة السخريات به ، وراح يبذل قصارى جهده لأداء هذه المهمة الملقاة على عاتقه على خَيْر ما يكون الأداء .

كان شأن " حنا قيصر " شأن الرجال ذوى الخلق القويم الملتزمين بما يقررون ، الذين لا يعبئون بما يصادفهم من الصعاب ، ولذلك فإنه مضى يسأل القائمين بالحراسة فى الأبراج المختلفة عمن يكونون ، فعرف منهم أن المدافعين إنما كانوا من الرهط الذين يُنعَتون بالخالدين ، وهم طبقة منتقاة فى الجيش الرومانى وحده .

ورأى فى ناحيةٍ أخرى جماعات " الفارانجيين " من أهل " تول " [١٤] وأعنى بهم المتبربرين حملة الفئوس .

كما طالع فى ناحيةٍ غيرها " النميتزيين " Namitzien وهم أيضًا من المتبربرين الذين انخرطوا منذ زمن بعيد فى خدمة القوات الإمبراطورية المسلحة ، فلما وقف يوحنا على ذلك كله تقدم بالنصح إلى ألكسيوس بألاّ يعهد بالهجوم إلى الفارانجيين ولا إلى " الخالدين " ، لأن الآخرين وهم من المحليين لابد أن يكونوا بالضرورة أشد القوم إخلاصًا للإمبراطور ، وأنه أهون عليهم أن يقدّموا أرواحهم لا أن يقوموا بعمل يُلحق الضرر بالإمبراطور.

كما أن " الفارانجيين " الذين يحملون على أكتافهم الفئوس الحديدية الثقيلة يعدّون إخلاصهم للأباطرة وحمايتهم لهم تقليدا موروثا ، وهو نوع من الولاء المقدس توارثوه خلفا عن سلف وجيلاً عن جيل ، فولاؤهم غير مثلوم ، ولن يسمحوا بأدْنى خدش فيه وإلا كان ذلك فى نظرهم خيانةً لا تُغتَفر .

لكن إذا عَهِدَ ألكسيوس - كما قال يوحنا - بالهجوم إلى النميتزيين فلن يكون قد ضل السبيل إذ يستطيع بواسطتهم - وهم يحرسون الأسوار - أنّ يجد السبيل ميسرة أمامه ليدخل المدينة .

وأصغى ألكسيوس إلى نصائح " قيصر حنا " وتلقاها كأمر لا فكاك له من الالتزام به واعتبرها كأنها رسالة من الرب لابد من أنْ يعمل بها ولا يحيد عنها قيد أنملة، لذلك أرسل رجلاً إلى أسفل السور ليفضى بتعليماته إلى القائد النميتزى وإلى أبناء جنسه ، فأطل القائد النميتزى من إحدى الطاقات وتبادل مع الرسول الحديثَ الذى انتهى بموافقة القائد النميتزى على تسليم المدينة فى القريب ، وحينذاك عاد الجندى إلى ألكسيوس حاملاً إليه هذا النبأ الذى لم يكن متوقعًا ، فانشرح له صدره وصدور رجاله ، وتحمس فأمر بإعدادِ الخيل للركوب .

(١٠)

كان رسل " ميليسينوس " فى هذه اللحظة يلحّون أشدّ الإلحاح لاستجابة مطلبهم الذى طلبوه ووُعِدوا باستجابته ونعنى به الحصول على مرسوم ذهبى ، فأرسل ألكسيوس إلى " ميجانُس " يأمره بأن يفرغ فى الحال من إعداد المرسوم فأجابه " ميجانس " بأنه قد انتهى من كتابته ولكنه يعتذر لضياع الأدوات اللازمة بما فيها القلم لإمضاء المرسوم الملكى ، وكان " ميجانس " رجلاً مرائيا يرقب ما يأتى به الغد ويتخذ من الماضى عبرة ، كما كان بارعا كل البراعة فى تقديره للوضع الراهن ، هذا إلى جانب ما هو عليه من دهاء يمكّنه من تبديل موقفه بما يتلاءم وصالحه الشخصى .

وقد حملته رغبته فى إبقاء أمل " ميليزانس " معلّقا لإرجاء كتابة المرسوم إذ ساوره الخوف إنْ وصل المرسوم مبكرا إلى " ميليزانس " بتلقيبه بقيصر أن يرفض هذا التشريف ويبذل كل ما فى قدراته لأن يلقب بالإمبراطور وتكون له الإمبراطورية حسبما ذكر لألكسيوس ، وحينذاك يُقْدِم على تسديد ضربة خطيرة جداً. هذا هو السبب الكامن وراء توقف " منجانس " عن كتابة المرسوم الذهبى .

بينما كانت هذه الأحداث تجرى صار الدخول إلى المدينة ضرورةً لازمة ، وساور الشك نفوس السفراء ، وارتابوا فى هذه الحركة التمثيلية ، ومن ثم ضاعفوا إلحاحهم فى المطالبة بإجابة سؤالهم ، فرد عليهم وَلَدَا كومنين قائلَيْن : " أمَا وقد صارت المدينة فى قبضتنا فإنّا ماضون بعون الرب للاستيلاء عليها استيلاءً تاما ، فاذهبوا الآن إلى مولاكم وحدّثوه بما جرى ثم قولوا له إنه لو سار كل شىء وفق آمالنا فعليه الحضور إلينا ، وحينذاك نرتب الأمور بيننا وبينه على الصورة التى ترضينا وترضيه " .

هذا هو الحديث الذى سمعه السفراء من وَلَدَىْ كومنين .

ثم أرسلوا " جورج بالايولوجس " إلى " جلبراكوس " Gilbracus قائد النمتزيين ليعرفوا حقيقة موقفه وعما إذا كان مستعدا للوفاء بوعده لهم فيمكّنهم من دخول المدينة بإعطائهم الإشارة المتفق عليها بينه وبينهم حيث يسرع جلبراكوس باعتلاء البرج ويفتح لهم الأبواب .

وقـبل " جـورج بـالايولوجس " عن طيب خـاطر أن يحـمل هـذه الرسـالة إلى "جلبراكوس " فقد كان رجلاً يحب ركوب المخاطر وخوض غمار المعارك وتخريب المدن . وإذا كان " هـومـيـر " قـد نعت " أرس " ares بأنه مـدمـر الأسوار فـمـا أحـرى أن ينعت جورج بالايولوجس بهذا النعت إذ كان ينطبق عليه تمام الانطباق .

فى هذه الأثناء كان رجال كومنين قد أتموا حمل سلاحهم وترتيب صفوفهم فى مـهارة فائقة وراحوا يتقدمون على مهل نحو المدينة ، حتى إذا حَلَّ المساء كان جورج بالايولوجس قد قـارب السور وتلقى من " جلبـراكوس "الإشـارة المتفق عليـها فـتـسلَّق البرج هو ورفاقه . وكان عسكر ألكسيوس قد أصبحوا فى هذه الأثناء أدنى ما يكونون إلى الأسوار فنصبوا الخوازيق وأقاموا مـعسكرهم الذى أصبح واضـحا للعـيان، ثم أخذوا قسطا من الراحة فى العراء فى تلك الليلة ، ثم تخيَّروا لهم فى النهاية موضعًا وسط الساحة ومعهم النخبة الممتازة من الفرسان وجماعة من أمهر المشاة .

أما القوات المسلحة تسليحاً خفيفا فقد وقفت على حدة حتى إذا طلع النهار تقدم رجالها إلى موضع فسيح أمام الأسوار ، مستهدفين بث الفزع فى نفوس القائمين[١٥] بالدفـاع عنهـا ، وحَمَلَ كلٌ سـلاحـه وتأهَّبـوا كـافـة للقـتـال ، فلمـا أعطى بالايـولوجس الإشارة من البرج وفتحت الأبواب اندفع الثوار واختلط الحابل بالنابل واستولوا على كل ما صادفوه من السلاح ولم يبالوا بالنظام . وكان اليوم، هو الخميس المقدس وهو اليوم الذى ضحينا فيه بكبش فدائنا ومن ثم فإن العسكر من أجانب ومحليين ممَّن تَمَّ جمعهم من القسطنطينية وما جاورها أسرعوا بالتدفق على المدينة عَبْر الباب الخارجى . وكانوا يعرفون ما فى العاصمة من شتى صنوف الأطعمة الواردة عليها برا وبحرا ، لذلك ما كادوا يرون أنفسهم بداخلها حتى انبثوا فى جوانبها وانطلقوا فى شوارعها الكبرى ودروبها وأزقتها ينهبون ويسلبون كل ما يمرون به، وأطلقوا لهمجيتهم العنان فلمْ تسلمْ البيوت ولا الكنائس، بل ولا أبعد الملاجئ من هجومهم عليها ، وصارت الغنائم التى نهبوها تلالاً ، ولم يعفُوا عن الفتك الذريع بالناس وارتكاب غير ذلك من الجرائم التى لم تأخذهم فى ارتكابها رحمة ولا شفقة ، وجاوز الحزام الطبيين حين ركب صغار السن من العسكر المحليين موجة المغالاة ، ونسى الجميع أنفسهم وخرجوا عن مألوف عاداتهم ، وسلكوا سلوك الهمج المتبربرين .

(١١)

حين[١٦] رأى الإمبراطور نقفور بوتنياتس هذه الأحداث اشتد ميله إلى التنازل لميليسينوس تجاه الخطر الحقيقى الذى كشّر عنْ أنيابه الآن بسبب محاصرة المدينة من الغرب فى الوقت الذى كان فيه " ميليسينوس "موجودا فى معسكره بجوار " داماليس " . لذلك لم يكن أمام الإمبراطور(بوتنياتس) مجال للاختيار . فلما أصبحت المدينة تحت سيطرة رجال آل كومنين رأى ألكسيوس وجوب استدعاء" ميليسينوس" بحرا إلى القصر وعهد بهذه المهمة إلى واحد من أخلص أتباعه وأكثرهم وثوقا به وأرسل بصحبته رجلاً من أغلظ الحراس وأشْرسهم طبعا ، وكان هذا الرجل جنديا محاربا مقداما .

لكن كان قد تم الاستيلاء على المدينة قبل إنجاز هذا الأمر إذْ كان بالايولوجس قد توجّه ناحية البحر مع أحَد رجاله فعثر على سفينة سرعان ما ركبها وأمَر رُبّانَها بالاتجاه بها شطر الموضع الذى كان الأسطول قد اعتاد الرسو عنده ، وبينما هو على وشك الفراغ من هذا العبور إذا به يرى المبعوث الذى كان " بوتنياتس " قد أرسله لإحضار " ميليسينوس " وكان المكلف بالحراسة واقفا على إحدى سفن القتال فعرفه بالايولوجس وهو على مقربةٍ منه إذ كانت له به معرفة سابقة ، فلما مر به حيّاه ، وتحدّث إليه سائلاً إياه الأسئلة المعتادة : من أين جاء ؟ وما هى وجهته ؟ ثم التمس منه أن يأخذه معه على ظهر سفينته ، فلما رآه الحارس حاملاً سيفه ودرعه تَخَوّف وقال له " كم كان يسرنى أن أصحبك معى على ظهر سفينتى لولا أنى أراك على هذه الهيئة من التسلح " ، فبادر بالايولوجس إلى خلع درقته ونحّى سيفه القصير جانبا كى يسمح الرجل له بالركوب معه ، فلما شاهده الرجل يفعل ذلك أذن له بركوب سفينته وجمع أسلحته حوْله وعانقه مُبْدِيا غاية السرور به .

ولما كان بالايولوجس رجل عمل فإنه لم يضيع لحظة واحدة فى سبيل إنجاز واجبه بل بادر فقفز إلى مقدّمة السفينة واستفسر من مجدّفيها عما يفعلون وما هى وجهتهم ، ثم قال لهم : " إنكم تجلبون الضرر الجسيم على أنفسكم فها أنتم ذى ترون المدينة توشك أنْ تسقط ، والناس الذين بها يهتفون للرجل الذى كان من قبل الدوميستيك الكبير إمبراطوراً . كما أنكم ترون جنده وتسمعون الهتافات تدوّى باسمه وليس فى القصر الآن من مكان لأحد سواه ، ولا جدال فى طيبة قلب بوتنياتس ، ولكن حزب كومنين أشد منه قوة وأعظم بطشا . وإذا كان عسكر " بوتنياتس " كثيراً فعسكرنا أشدّ كثافة ومن ثم فلا تتنكّبوا طريق الصواب فتُدَمِّروا حياتكم وتخونوا نساءكم وأطفالكم ... ودونكم المدينة فانظروها ... وسترون جيشه كله قد صار بداخلها ، وراياته تخفق فى ربوعها ، وها هو ذا ألكسيوس فى طريقه إلى القصر وزمام الأمور فى يده ... ألاَ فاعلموا أنه قد انتصر ، فهيا أديروا مجاديفكم وأسرعوا بالانضمام إليه فيتأكد له النصر المُحَجَّل " .

واقتنعوا بما قاله بالايولوجس واستجابوا فى الحال له ولم يستجيبوا للقوّام على السفينة بل انفضّوا من حوله فاشتد حنقه وزمجر مهددا بالايولوجس بتقييده وإلقائه بسجن السفينة الموجود فى قاعها أو القذف به فى البحر ، ثم تردّد فى الأفق صياح بالايولوجس بحياة ألكسيوس فهتف وراءه من بالسفينة إلا صاحبها فقد ظل فى سورة غضبة ، وإذ ذاك لم يعد بُدٌّ من وضع القيود فى يديه والزج به فى قاع المركب ، وما لبث بالايولوجس أن استردَّ سيفه ودرقته وأرسى بالسفينة حيث يوجد الأسطول ، وعلا هتافه وسط البحارة بألكسيوس فهتفوا هم أيضًا مثله .

ثم آن له أن يفرغ لرُسُل بوتنياتس الذين أرسلهم صاحبهم للاستيلاء على الأسطول ولنقل " ميليسنوس " إلى القصر فلم يتراخ فى القبض عليهم وأصدر أوامره إلى الملاّحين بفك حبال المؤخرة ، ثم أبحر بالأسطول حتى بلغ الأكروبوليس، والأصوات تتعالى بالهتاف للإمبراطور الجديد ، ثم طلب من المجدّفين التوقف واعتراض سبيل كل من تحدثه نفسه بمحاولة العبور من الناحية الشرقية .

كذلك ما لبث بالايولوجس أن رأى بعد قليل إحدى السفن مبحرةً شطر القصر الكبير لمهاجمته ولمح على ظهرها أباه فوقف فى الحال وأحْنَى هامته احتراما له جريا على عادة الأبناء نحو آبائهم ، لكنه لم يتلق ردا يشرح صدره إذ لم يفعل فِعل " أوديسيوس " الأتاكى حين رآه " تلماخوس " Telmachos فلم ينعت بالايولوجس " بنوره الحبيب " .

فقد كان هوميروس يصف آنذاك مأدبةً وخطباء وألعابا وقسيا وسهاما وجائزة يحصل عليها الفائز ، ولم يكنْ " تلماخوس " عدوا ولكنه كان ابْنا جاء لنصرة أبيه ولمساعدته .

أما الموقف الآن فكان على النقيض فهنا معارك وقتال ، وهنا والد وولدُه متنافران ، ولكل منهما وجهة نظره التى تخالف وجهة نظر الآخر تمام المخالفة ، فقد نظر الأب إلى ولده جورج نظرةً استنكار ونَعَتَه بالغباء ثم سأله: " أى ريح رمت بك إلى هنا ؟ وماذا تفعل "؟ فأجابه : " أما وأنت الذى تسألنى فإنى أقول لك : لا شىء" ! فقال له أبوه: " إذن فلتتريث قليلاً فَإن استمع الإمبراطورإلى نصحى فسوف تعرف كل شىء " .

ثم دخل نقفور بالايولوجس القصر فرأى الجند فى كل ناحية منه وقد انصرفوا للنهب والسلب انصرافا يجعل التغلب عليهم يسيرا ، فالتمس من " بوتنياتس " أن يعهد إليه بالمتبربرين من أهل جزيرة " تول " حتى يطرد بهم أتباع ألكسيوس من المدينة ، لكن بوتنياتس الذى كان اليَأس قد غلبه على أمره وانقطع رجاؤه وادّعى أنه لا يريد إشعال ضرام حرب أهلية قال : " استمع إلى نصيحتى يا نقفور ، أمّا وقد صار الأمر إلى ما صار إليه فى العاصمة وأصبح فى يد أولاد كومنين فإنى باعث إليهم للاتفاق معهم على شروط الصلح " .

ثم انصرف غاضبا أشد الغضب .

(١٢)

حين دخل الأخوان كومنين البلد وقفا فى ميدان الشهيد الكبير جورج "سيكيوتس" Syceotes وقد اطمأن خاطرهما كل الاطمئنان واتفقا على أن أول واجب ينبغى عليهما القيام به يتمثل فى زيارتهما لأمهما وتقديم ما جرت به العادة من فروض الاحترام ، ثم ينحدران بعد ذلك إلى القصر . فلما سمع " قيصر يوحنا " بهذا الخبر أرسل إليهما واحدا من حرسه يلومهما لوما عنيفا على التلكؤ فانطلقا من ساعتهما إلى بيت إيبيرتزس Iberitezs وتلقاهما نقفور بالايولوجس وقال لهما: " لقد أرسل الإمبراطور(١٧) بوتنياتس لكما هذه الرسالة التى يقول فيها لكما " أنا شيخ هرم قد رق عظمى ووهن بدنى وإننى وحيد فى هذه الدنيا وليس لى ولد ولا أخ ولا قريب " . ثم وجه نقفور كلامه إلى الإمبراطور الجديد قائلاً له: " وإنه ليقول لك أنه مُتَبَنِيك إنْ قبِلْتَ ذلك ولن ينتزع شيئا من الامتيازات التى منحْتَها لجميع رفاقك فى السلاح ، ولن ينازعك بأىِّ حال منَ الأحوال سلطانك كإمبراطور ، ولكنه سوف يكتفى بأن تستبقى له اللقب الإمبراطورى والهتاف باسمه والسماح له بلبس الأرجوان والحذاء طويل العنق والعيش فى القصر ، أما حكومة الإمبراطورية فستَّظل كلها بيدك تدبر أمورها بنفسك " .

كان ردّ الأخوين ألكسيوس وإسحاق على هذه الرسالة لا يتجاوز بضع كلمات قلائل تتضمن الموافقة ، فلما وقف " قيصر " (١٨) عليها بادر فى لحظته بالذهاب إلى القصر غضبان حنقا ومشى مترجلاً حتى إذا كان بالجانب الأيمن من الساحة قابله الأخَوان وهما يهمان بالخروج سيرا على الأقدام ، فاشتد فى تعنيفهما.

ووقعت عيناهُ لحظة دخوله على بالايولوجس الكبير يدخل القصر هو الآخر ولكن من الجانب الأيسر فسأله عما يفعله هنا ؟ وماذا يبتغى ؟ وقال " ماذا تريد يا ابن أخى وابنَ عمى ؟ " فأجابه : " يبدو لى أنى غير فاعل شيئا سوى تسليم الرسالة التى حَمَّلَنيها الإمبراطور لأوصلها إلى آل كومنين والتى يقول فيها إنه عازم عزما أكيدا على الوفاء بعهده ، وسوف يتبنَّى ألكسيوس وسيعهد إليه بالسلطة العليا وإدارة دفة شئون الإمبراطورية ليسيِّرها وفق مشيئته ، ويكتفى هو بمشاركته اللقب الإمبراطورى

ويلبس الحذاء الأحمر ويرتدى العباءة الأرجوانية ، وأن يظل مقيما فى القصر فى هدوء لأنه أصبح اليوم رجلاً طاعنا فى السن وهو الآن أحوج ما يكون إلى الراحة والهدوء .

فنظر إليه قيصر يوحنا نظرةً غاضبة وأجابه بوجه متجهم: " هيا انصرف وأخبر مولاك الإمبراطور أن هذه العروض كانت ملائمة كل الملاءمة قَبْل فتْحِ المدينة ، أما الآن فلا محل للمفاوضة ، وعليك أن تذهب إليه وتقول له : أما وقد صرت شيخا هرما فَحرِىٌ بك أن تتخلى عن العرش وتلتمس ما فيه سلامتك " .

هكذا كان جواب قيصر حنا .

أما بوريلوس فإنه لما سمع فى هذه الأثناء بما كان من دخول رجال كومنين المدينة وانسياح العسكر فى كافة أرجائها تفتيشا عن الغنائم وَطَلَبا للأسلاب فقد أجمع عزمه على مهاجمتهم ، وكان الظن عنده أنه من أيسر الأمور التغلب عليهم وهم مشتتون فى كل ناحية لأن الجُنْد خلّوا الأخوين وحدهما مع أقاربهما الأدْنين وأهلِ بيتهم وثلةٍ من العسكر الأغراب ، لذلك ركز همته على كل الحرس الفارانجيين (١٩) والجدد القادمين من " خوما " الذين راعى بوريلوس منتهى الدقة فى صَفِّهم صفا امتد من مدرج قسطنطين حتى ما يعرف بقوس النصر العظيم ، ووقفوا صامتين كأنّ على رءوسهم الطير انتظارا منهم للحظة الالتحام .

كان الجالس على كرسىّ البطركية حينذاك رجلاً شديد الورع ، مؤثرا للفاقة ، منصرفا إلى ممارسة كل أنواع الزهد شأنه فى ذلك شأن الآباء الأوائل ممن كانوا يسكنون الجبال ويقيمون فى الصحارى ، فكان من نِعَم الرب عليه أنْ كشفَ الربُّ عن بصيرته الغَطاء فكان يعرف الغيب ، حتى لقد تواترت نبوءاته وكثرت ولم تكذب واحدة منها قط . ومُجْمل القول فيه إنه كان مثالاً حيا للفضيلة ونموذجا دينيا للأجيال التالية فى الاقتداء به .

وواضح أن هذا البطرك كان عارفا بكل ما حدث وما سوف يحدث لبوتنياتس من أمور كشف الرب له عنها الحجاب لذلك لم يقصّر فى إسداء النصيحة إليه بالتخلى عن

العرش ، وربما فعل ذلك بإلهام من الرب أو توجيه من " قيصر يوحنا" الذى تربطه به صداقة قديمة والذى حَبّبه إلى نفسه ما جُبِل عليه من الفضيلة السامية ، ولذلك قال البطرك للإمبراطور بوتنياتس : " لا تكن البادئ بإذكاء نار حرب يكون الأهالى وقودَها ، ولا تتحدى مشيئة الرب ، ولا تكابر فتكون سببا فى تلطيخ المدينة بدماء المسيحيين ، ولكن عليك أنْ تستجيب لإرادة الله ، وأنْ تنبذ الدنيا ووراءك ظهريا ، وإنه لخير لك أن ترحل من بيننا ".

وأخذ الإمبراطور هذه الكلمات مأخذ الجدّ وبعين الاعتبار وحَمَله خوفُه منْ مسلك العدو المذل على أن يحزم ملابسه حول وسطه ويذهب إلى الكاتدرائية العظمى مطأطئ الرأس. ولم يلاحظ – وهو فى غَمْرة الاضطراب – أنه لا يزال مرتديا ثيابه الإمبراطورية إلاّ حين مضى إليه " بوريلوس " وأمسك بالمئزر المطرز بالذهب والمحلى بالجوهر الذى لفه حول ذراعه فانتزعه قسرا وهو يقول له ساخرا به: " إنّ شيئا تافها كهذا الشىء هو شىء لا يليق بك بل يليق برجلٍ مثلى".

ثم دخل بوتنياتس كنيسة الرب سانت صوفيا وبقى بها بعض الوقت .

الحواشي

(١) العبارة من هنا حتى قول المؤلفة(الإمبراطورة) غير واردة فى إليزابيث .

(٢) هذه إشارة من المؤلفة إلى ما ورد فى رسالة بولس إلى أهل رومية " ١٢/١٥ فى قوله " فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين" .

(٣) أرادت المؤلفة تصوير الخطر الكبير الذى تسببه هذه الجماعات فلم تجد إلاّ أن تشبههم بأمواج وتيارات مياه خليج " يوريبوس" العنيفة .

(٤) اعتادت المؤلفة أن تطلق كلمة الترك على السلاجقة أما فى النسخة الأصلية اليونانية التى اعتمد سوتير عليها فى ترجمته فهى تارة agerenes وتارة أخرى Hagerenes أى أبناء "هاجر" والمقصود بهم المسلمون .

(٥) هو جريجورى باكوريانوس " Pakurianus القائد البيزنطى الذى ساندَ ألكسيوس كومنين وعاونه فى الوصول إلى العرش بأن جعله قائدا كبيرا ، وكان باكوريانوس أرمنى الأصل ومات وهو يحارب البشناق سنة ١٠٨٦ . انظره معجم التراجم البيزنطية ترجمة حسن حبشى . (مجموعة الألف كتاب الثانية ٢٠٠٣) .

(٦) العبارة من هنا حتى نهايتها واردة فى إيزابث على الصورة التالية: " أصبح الحراس من الآن فصاعدا أكثر استعدادا لإمدادهن بالأخبار ولم يعد هناك خبر عما يفعله ولدا كومنين خافيا عن هؤلاء النسوة ".

(٧) فى إليزابيث " الاسطبلات الملكية ".

(٨) تُدْعى " أنا ابنة أندرونيكوس" ، وأما أمها فهى مارية " البلغارية ، كما سيرد ذلك فى المتن بعد قليل.

(٩) جاءت هذه العبارة فى إليزابث على الصورة التالية " الإمبراطور السابق الذى أشرنا إليه من قبل ".

(١٠) فسّرتها نسخة سوتير بالآتى : st. John the Divine

(١١) هو نقفور مليزانيوس الذى يستدل من تاريخه على أنه كان ذا أطماع كبيرة حتى إنه قام فى سبتمبر ١٠٨٠ بمحاولة الاستيلاء على الحكم فى نيقية وكان قد تزوج من "يودوكيا" أخت ألكسيوس .

(١٢) جاءت بعد هذه الكلمة مباشرة فى إليزابث العبارة التالية: " وظل الأخوان كومنين بعض الوقت لا يصدّقان ما بلغهما لكن حين علم " مليزانيوس" بما فعلاه أرسل فى الحال إليهما رسلا يحملون كتبا ورسائل منه يقول فيها ..." ثم يلى ذلك ما جاء فى المتن.

(١٣) أُضيف ما بين القوسين حتى يسهل على القارئ فهم العبارة .

(١٤) جاء فى حاشية سوتير تفسير لما هو وارد فى المتن بأن المقصود بهم " سكان الجزر البريطانية " ، كما جاء أيضاً أن بلادهم جزء من اسكنديناوة لاسيما إقليم تايلاند فى "جتلاند" .

(١٥) فى إليزابيث: " فى نفوس الأهالى " .

(١٦) وردت فى إليزابيث العبارة التالية: " حين جاء الخبر إلى نقفور بوتنياتس بهذه الأحداث أيقن أن موقفه أصبح شديد الصعوبة إذْ كان الحصار مضروبا على المدينة من الغرب، كما كان نقفور معسكرا عند مدخل "داماليس" من الشرق فَلَمْ يَدْرِ ما يفعل ولم يكن أمامه إلاَّ أن يتخلى عن العرش لنقفور ميليتينيوس .

(١٧) استعمال كلمة " الإمبراطور" هنا استعمال خاطئ والصحيح أن يقتصر على القول "يوحنا" فقط .

(١٨) المقصود بذلك "حنا" .

(١٩) جاءت بدلاً من "الفرانجيين" العبارة التالية: " الذين يحملون فئوسا على أكتافهم" .

الكتاب الثالث

تولى ألكسيوس، والصراع بين عائلتي دوكاس وكومنين

فقرات الكتاب الثالث

١- بوتنياتس ينخرط فى سلك الرهبان . مارية تخاف على ولدهـا قسـطنطين فلا تبرح القصر الإمبراطورى . وصف ابنها قسطنطين . ألكسيوس ينتقل إلى القصر بمفرده غير مستصحب معه زوجته إيرين .

٢ – سريان الشائعات بعزم ألكسيوس على الاقتران بمارية . أنًا كومنينا تنفى هذه الشائعات عن أبيها. البطرك كوسماس يقترحُ على مارية بأن تصر على الحصول على عهد أمان خطّى لها ولولدها من ألكسيوس. وصف ما عليه مارية الإمبراطورة السابقة من الجمال . النفوذ الكبير الذى كان للقيصر "حنا دوكاس". تتويج ألكسيوس بمفرده أولا ثم تتويج إيرين بعده بسبعة أيام على يد كوسماس مما جعل ميزان الثقل يميل إلى بيت دوكاس.

٣ – صفات ألكسيوس وإيرين الجسمانية.

٤ – رَفْعُ إسحاق إلى مرتبة نائب الإمبراطور وخلْعُ الألقاب المختلفة عليه. ألكسيوس يبتدع ألقابا ورُتَبا جديدة. تخلى كوسماس عن كرسى البطركية وتولّى "أوستراتيوس جاريداس" مكانه. منح قسطنطين بعض الامتيازات.انسحاب مارية من القصر.

٥ – ألكسيوس يقتص من الجيش جزاء ما ارتكب من الجرائم.

٦ – نفوذ "أنّا دالاسينا" وصدور المرسوم الإمبراطورى بتعيينها وصية على العرش أثناء غياب ولدها الإمبراطور. "أنّا كومنينا" تورد وثيقة أصلية فى هذا الصدد.

٧ – المؤلفة تصف جدتها "أنا دالاسينا".

٨ – إصلاحات "أنّا دالاسينا". المعايير الأخلاقية بالقصر وذكر فضائلها. أنّا كومنينا تعاود الحديث عن حملة إسحاق كومنين سنة ١٠٩٥ ضد البشناق وخبر نجاته العجيبة من الموت. اعتماد أنّا كومنينا على ما دوّنه باسيليوس فى هذا الموضوع.

٩ – اضطراب أحوال الإمبراطورية. نشاطُ ألكسيوس وقوة عزيمته. إرسال بالايولوجس إلى "دورازو" ليحل محل مونوماخاتس.

١٠ – ألكسيوس يؤلب النفوس ضد روبرت جيسكارد. رسالته إلى هنرى الإمبراطورالألمانى، وهى وثيقة رسمية أخرى. ألكسيوس يتعهد بدفع الأموال الكثيرة إليه.

١١ – الترك السلاجقة يكتسحون إقليم "بيثينيا" ثم يرتدّون بالتدرج من البسفور. السلطان يقترح أنْ تكون "راكون" هى الحد الفاصل بين الترك والروم.

١٢– مونوماخاتس ينقض عهده مع ليوبناس. روبرت يعبر الأدرياتيك ولكن تهب عاصفة فتحطم أسطوله. وصف ما وقع له.

(١)

ما كاد ولدا كومنين يحتلان القصر حتى بادرا بإرسال " ميخائيل " زوج ابنة أختهما إلى " بوتنياتس " . وقد أصبح ميخائيل هذا - فيما بعد - القيِّم على بيت المال ، وصَحِبَه فى ذهابه " رادينوس " Rhadinus الذى كان إذ ذاك محافظ المدينة، فلما وصل ميخائيل إلى " بوتنياتس " أركبه قاربا صغيرا ومضى به إلى دير بريبلبتوس Priblepitos المَشهور وهنا شرع ميخائيل ورادينوس فى حثه على الانخراط فى سلك الرهبنة ، بيْد أنه أراد إرجاء قراره حول هذا الموضوع إلى اليوم التالى ، لكنهما أرغماه على حَلْق شَعره حتى لا يغتنم العبدان ومَنْ لفَّ لفهما من رجال " خوما " فرصة الاضطراب السائد والفوضى الضاربة بأجرانها فيشعلون نيران ثورة جديدة . وقد رضخ " بوتنياتس " - على كُرهٍ منه - لِمَا طلباه منه نظرًا للضغط المتزايد عليه من جانبهما فتشرف بارتداء المسوح الرهبانية الطاهرة ، وهذا هو شأن الأقدار إنْ هى ابتسمت لأحدٍ رفعَتْه إلى أعلى عليين وأنعلته الخفين الأرجوانيين ، أما إنْ هى تجهَّمت له حرمته من التاج والأرجوان وأطلَعَتْه فى مسوح سوداء خَلِقَة ممزقة . وهذا هو ما جرى للإمبراطور بوتنياتس الذى سأله أحد أصدقائه ذات مرة عما إذا كان قد تقبَّل فى صبر وهدوء هذا التغيير الذى ألَمَّ به فأجابه : " الحق أقول لك إنه لا يضيرنى غير شىء واحد هو حرمانى من أكل اللحم، أما ما سوى ذلك فلا يعنينى فى شىء " .

كانت الإمبراطورة " مارية " فى هذا الوقت بالذات مقيمة بالقصر مع ابنها "قسطنطين " الذى أنجبته من الإمبراطورالسابق " ميخائيل دوكاس " وكانت كما يقول الشاعر شديدة التعلق بحبيبها " الأشقر " وكانت رابطةُ الأمومة هى التى زكَّت عندها فكرة البقاء بالقصر على الرغم من أنّ بعض مَن كانت عقارب الغيرة تنهشهم قالوا إنها لم تفعل ما فعلته إلا استجابةً لما كان بينها وبين أحد الأخوين وهو إسحاق من المصاهرة ، ثم تَبَنِّيها للأخ الآخر ألكسيوس . والواقع أنه لم يكن فيما قرَّرَتْه من البقاء

فى القصر شىء ينكره المجتمع وليس فيه ما يقدح فى هذا الأخ أو ذاك أو فى صداقتهما ، وإن كان السبب الحقيقى يرجع إلى أنها كانت تعيش فى بلد أجنبى ليس لها فيه قريب وليس لها به أصدقاء أو رجال من بنى جلدتها ، فلا غرابة والحال على هذه الصورة إنْ هى لم تبادر إلى مغادرة القصر جزعًا من أنْ يُلمَّ بابنها الطفل شىء من السوء إنْ هى رحلت قبل أن تتمكن من الحصول على عهدٍ أمانٍ يفرخ روعها ويؤمن سربها . وكانت مثل هذه الأمور كثيرة الحدوث وقت تغيير الأسر الحاكمة .

لقد كان قسطنطين صبيا محبوبا أفرغ فى قالب من الجمال ، ولم يكن يتجاوز السابعة من عمره ، وما من أحد يستطيع أن يلومنى إن أنا امتدَحْتُ مَنْ كان القدر يريد أن يجعله من نصيبى ويكونَ حبيبى ، كما لا يستطيع أحد أنْ يلومنى إنْ أنا أثنيت عليه حين لا مندوحة عن الثناء عليه ، فقد كان من الأشياء المحببة إلى النفس أن يسمعه الناس وهو يتكلم ، لكنه لم يقتصر فى سنِّه هذه على هذه الجوانب وحدها ، بلْ لقد حاز قصب السبق وَفاقَ كل منافسيه فى الألعاب ، وبما اتصف به من رشاقةٍ بالغة ورقة كبيرة إن اعتقدْنا صحةَ ما قاله عنه - فيما بعد - رفاقه الذين لازموه فى تلك الأيام .

كان قسطنطين ابن مارية أشقر الشعر ، أبيض البشرة حتى لكأنها اللَّبَن الخالص، وكان متورد الخدين حتى لكأنهما زهرتان غَضّتان ، وإذا لم تكن عيناه خفيفتى اللون إلا أنهما كانتا حادتى النظر ، كأنهما عينا صقر تتقدان تحت حاجبين كثَّين كأنهما حجران من الأحجار الكريمة فى خاتم ذهبى ، ثم هو يبدو للعين وكأنما قد أُفيض عليه جمال علوى ليس له مثيل فى عالمنا هذا ، فإذا طالعته العين سحرتها مفاتنه الجمّة ، وقصارى القول فيه إنه ما من أحد يشاهده إلاّ مال إليه وقال عنه " ما أشبهه بكيوبيد [1] قد أبدعته يد نحات ماهر " .

كان هذا هو السبب الحقيقى الكامن وراء تمسك الإمبراطورة [2] بالبقاء فى القصر .

أما من ناحيتى أنا فإنى على أية حال أرفض تزييف التاريخ واختلاقَ المزاعم رغم علمى بشيوع ذلك لا سيما من جانب الحاسدين والحاقدين ، كما أننى لست سريعة التأثر بافتراءات العامة وتُرّهاتِهِم ، وقد توافَرَت عندى أسبابٌ تحملنى على الاعتقاد بأنى وقفت على حقيقة أمرِ مارية منذ نعومة أظافرى ، فقد نشأتُ فى طفولتى أيام كنت طفلةً غريرة فى الثامنة من عمرى وما بعدها مع هذه الإمبراطورة [٣] التى كانت تؤثرنى بعظيم حبها وتولينى عطفها ورعايتها ، وتأتمننى على أسرارها .

ولقد سمعتُ أُناسا كثيرين يتحدثون عن أحداث هذه الفترة ويقصّون من الأخبار ما يناقض بعضها بعضاً ، ويذهبُ كل فريق فى تفسير هذه الأحداث حسب ما يمليه عليه هواه الذى يتحكم فيه الميل ، ورأيتهم جميعًا لا يتفقون على رأى واحد .

وزيادة على ذلك فطالما سمعتها هى ذاتها فى كثير من الأحيان تسهب فى ذكر كل ما جرى لها وكيف كان جزعها شديدا - لا سيما على ولدها - حين خُلع الإمبراطور نقفور عن الحكم . والرأى كل الرأى عندى وعند الكثيرين ممن ينشدون الحقيقة ويعدون من أكفأ الناس فى الحكم على الأمور وتقديرها حق قدرها أنّ حبها لطفلها هو الذى حملها على البقاء فى القصر بقاءً لم يَطُل مداه .

بهذا [٤] أصل إلى ختام ملاحظاتى عن الإمبراطورة مارية .

أما فيما يتعلق بأبى الإمبراطور ألكسيوس الذى كانت السلطةُ قد آلتْ إليه وأخَذَ مقاليد الحكم فى يده فقد جاء ليعيش فى القصر تاركا بالقصر الأدنى زوجتَه التى كانت فى الخامسة عشرة من عمرها وخلَّفها هناك مع أخواتها وأمِّها والقيصر جدِّها من ناحية أبيها .

وكان هذا القصر يسمى القصر الأدنى؛ نظرا لموقعه .

أما ألكسيوس نفسه وأمه وإخوته وجميع أقاربه الذكور فقد مضوا إلى القصر الأعلى الذى يسمى بوكاليون.

(٢)

لقد ساور الشك الكثيرين كما قلت حين ظلّت الإمبراطورة مارية مقيمةً فى القصر لا تبرحه، وتهامس البعض سرا فيما بينهم أنّ الإمبراطور الجديد عازم على الاقتران بها، وهو أمر لم يكن أحد من أسرة دوكاس يصدقه وإنْ كانوا يعرفون أن أمّ أولاد كومنين كانت لا تخفى بعض هذه الكراهية ولذلك فإنه لما وصل "جورج بالايولوجس" بالأسطول وسارع بالهتاف أطلّ عليه وعلى من معه من فوق الأسوار رجال من بيت كومنين وحاولوا إسكاته وأمروه ألاّ يَقْرِن اسم إيرين فى الهتاف باسم ألكسيوس . فغضب جورج بالايولوجس من ذلك غضبة شديدة وصاح بهم: "إنى لم أكسب هذا النصر الكبير من أجلكم أنتُم ولكن من أجل "إيرين" هذه التى تتكلمون عنها". ثم أصدر أمره فى الحال إلى بحّارته بالهتاف للاثنين معا، أعنى لألكسيوس وإيرين.

أزعجت هذه الأمورُ خاطرَ البعض وإنْ أتاحت فى الوقت ذاته الفرصة لمن كانوا يتصيدون الفرصة للنيل من الإمبراطورة وتَجْرِيحها والواقع أن الإمبراطور ألكسيوس كان خالى الذهن تماما من هذا الموضوع، وكيف يتأتّى له ذلك وهو الذى ما كادت قيادة الرومان تئول إليه وتصبح السلطة العليا فى يده حتى انصرف كليا لمعالجة شئون الدولة نظرا لما كان قد طبع عليه من حب للعمل.

ولما دخل القصر - وكان ذلك مع شروق الشمس - وقبْل أنْ يَنْفض عن قدميه تراب المعركة ويعطى جسدَه المنهوك بعضَ الراحة عمد إلى تدبير الوضع الحربى فجعل أخاه إسحاق شريكا له فى كل شىء احتراما منه له احترامَ الابن لأبيه، وكان لا يقضى أمرا أو يُقْدِم على خطة من الخطط إلاّ ويدعوه أن يشاركه فيها.

على هذا النمط كانت أمه وأخوه إسحاق يعاونانه فى إدارة الإمبراطورية على الرغم من أنه هو نفسه كان على جانب كبير من الذكاء والنشاط ربما زاد عما تحتاجه إدارة حكومة واحدة إذْ كان قادرا على أن يُدير فى وقت واحد دفة بضع إمبراطوريات متباينة الأنماط ولكنه صرف كل حَمِيَّته ليلا ونهارا لموضوع واحد أوْلاهُ كل همته وجعل له الصدارة وأعنى به تدبير ما يؤدى للقضاء على ما انتشر بين العسكر من الفوضى والفساد وعدم النظام، باذلا جهده فى الوقت ذاته على ألاّ يدفعهم ذلك العملُ من جانبه

إلى التمرد عليه. يضاف إلى هذا ما كان يطمح إليه من إنقاذ سكان العاصمة من القلق الذى استولى عليهم بشأن ما يأتى به الغد، فقد كان الجند موزعين بأعداد كثيرة فى شتى نواحى بيزنطة ، وكانوا يسلكون سلوك الأوشاب الذين لا يردعهم رادع ولا يزجرهم زاجر، وكان يخشى دائما ما طُبع عليه هؤلاء الجند من سوقية لا سيما ما تمليه عليهم أصولهم المختلفة من إشباع شهواتهم الحيوانية، ثمّ إنه كان يتوجس خيفة من أن يقوموا فى يوم من الأيام بتدبير انقلابٍ ضده هو ذاته.

كذلك كان لقيصر جون دوكاس أفكاره الخاصة به ، المتمثلة فى رغبته فى التعجيل برحيل الإمبراطورة مارية وإخْراجها من القصر حتى يقضى على شكوك الناس الباطلة، ومن ثم شرع فى التوسل بشتّى الطرق لكسب البطرك "كوسماس" إلى جانبه وحثّه على أن يزكّى دعواه وأن يرفض رفضا تاما الاستماع إلى الدعاوى التى يسمعها. ثم خطا خطوةً ذكية حين اقترح عليها أن تطالب الإمبراطور بتزويدها بمرسوم أمان لها ولطفلها قسطنطين الصغير تبرح فى ظله القصر، وكان ذلك منه أشبه بخطة "بتروكلوس" Patroculus وذلك لأنه كان قد تمكن من السيطرة على الإمبراطورة سيطرةً كاملة حين تَخَلّى الإمبراطور ميخائيل دوكاس السابع عن العرش فقام بإسداء النصح إلى خَلَفِ نقفور بوتنياتس - خليفة ميخائيل - بالزواج من هذه السيدة لأنها كانت غريبة جاءت من بلد أجنبى ثم استقرت فى أرض ليس لها فيها أقارب، وختم كلامه معه بالإشارة إلى كرم محتدها وما هى عليه من فتنة طاغية وجمال ساحر أخّاذٍ، ولم يَكُفّ عن امتداحها وإطرائها والثناء عليها. والحق أنها كانت طويلة القامة، ممشوقة القوام كشجرة السرو، ذات جسد شاهق البياض كأنه الثلج، ووجهٍ بيضاوىّ، وبشرة تشبه زهور الربيع المتفتحة. أمّا نظراتُها فَأىٌّ مخلوق هذا الذى كان فى استطاعته مقاومة سحرها؟ وكان لها حاجبان فى لون اللهيب كقوسين فوق عينين زرقاوين فكأنّ يد رسام بارع قد مزجت ألوان جميع الزهور ووضعتها فيها.

كان جمال الإمبراطورة والرقة التى طُبعت عليها والجاذبية التى وهبها الله لها مما يقصر الوصف عن الإحاطة به، كما تعجز عن تصويرها براعة الفنان الحاذق، ولم يتسنّ للفنان "ابلس" ولا للنحات "فيدياس" ولا لأمثالهما إبداعٌ كإبداع هذه الآية المعجزة. وإذا كان رأس "جورجون" -كما يقولون- يسحر الرجال الذين يرونه فيحيلهم

إلى أصنام فإنَّ مَن يرى الإمبراطورة "مارية" وهى تمشى، أو يلقاها فجأةً لابد أن يستولى عليه الذهول وتسحره فلا يستطيع الحركة من مكانه، ويخرس لسانه عن الكلام ويبدو حينذاك كأنما قد صعق وجُرِّد من كل شعور وزايله عقله.

هكذا كان تناسق أعضاء جسمها وكمالُ إبداعها وتناسبُ بعضها إلى بعض تناسبا دقيقا لم ير الناس له مثيلا بينهم فكانت بذلك آيةً من آيات الفن وأمنيةً يشتهيها عشاق الجمال. والواقع أنها كانت تجسيدا آدميا للحب زار هذا العالم الدنيوى وراح يخطر فوق أديمه.

واستطاع قيصر بهذه الأوصاف أن يستميل قلب الإمبراطور إليها ويكتسبه، على الرغم من أن الكثيرين كانوا يشيرون عليه بالزواج من الإمبراطورة "يودوكيا" التى كان الناس يتهامسون فيما بينهم أنَّ رغبَتَها فى أن تصبح إمبراطورة - مرة أخرى - دفعتها لأن تحاول التودد إلى "بوتنياتس" برسائلها التى راحت تلاحقه بها حتى أصبح على مقربة من "داماليس" سعيا للجلوس على العرش وامتلاك السلطة. وقال آخرون إنها فعلت ذلك لا من أجل نفسها هى ذاتها بل من أجل ابنتها "زيو" البروفجرينا وكاد مسعاها يكلل بالنجاح لولا أنَّ أحد الخدم وهو الخصى "ليو كيدونياتس" Keydonlates سَدَّ الطريق أمامها حين أكثر من إسداء النصح لها فى الوقت المناسب. ولست قادرة على أن أفصِّل ما قاله هذا الخصى "ليو" لأنى طبعت على التقزز من الوشاية والنميمة والتجسس، ولكنى أترك ذلك لمن يحبون تدوين مثل هذه الأمور.

على أية حال نجح القيصر "جون" فى تحقيق غرضه متوسلا بكل الوسائل للإقناع، وتمثَّل نجاحه حين تزوج "بوتنياتس" من الإمبراطورة مارية كما فصَّلْتُ ذلك من قبل وبذلك أصبح "قيصر جون" أكثر حرية فى الكلام معها. ولقد استغرق تحقيقُ هذا الأمر بضعة أيام لأنَّ الأخوين إسحاق وألكسيوس رفضا رفضًا باتا إخراجها من القصر، وكان يدفعهما إلى ذلك عاملان أحدهما هو ما كانت تسبغه عليهما من إحسانها الوفير طول مدة حكمها كإمبراطورة، وأما الآخر - وهو لا يقل أهميةً عن سابقه - فهو ما كانَ يربطهما بها من الروابط المتينة والعلاقات الثنائية التى تأكدت بينها وبينهما.

ولقد ترتَّب على ذلك أنْ انطلقت في هذا الأمر حولهما الشائعات الجمة من مصادر متعددة متباينة ولكنها انصبَّت جميعُها في مجرى واحد، وكانت هذه الشائعات تعكس بصراحة ووضوح السياسات المختلفة والاتجاهات المتضارية، وكانت كل واحدة منها نابعةً من وجهة نظر أصحابها الذين كان بعضهم متعاطفا مع مارية، والبعض الآخر كان شديد الحقد عليها عظيم الكراهية لها، ولم يكن أيّ الجانبين ملتزما في حُكْمهِ بالحق والإنصاف، بل ربما كانَ حكم هذا أو ذاك مما يرفضه العقل.

في هذه الأثناء قام البطرك كوسماس فتوّج ألكسيوس وحده إذْ كان هناك من يقولون إن الإمبراطورة "إيرين" ليست أهلا للتاج الإمبراطوري، فزاد هذا القول من إزعاج آل دوكاس ولذلك أصَرّوا على وجوب تتويجها، وكانت إيرين شديدة الميل إلى الرهبان. وحدث في هذا الوقت أنْ كان هناك راهب يدعى "يوستراديوس" Eustradius ويلقب بـ جاريداس Garidas وقد اشتهر بالتقوى وكان يقيم في بيت شيده على مقربة من "كنيسة الرب الكبرى" وكانت شهرته هذه مبالغا فيها، وكان هذا الرجل كثير التردد على أمّ الأخوين ألكسيوس و إسحاق ويقص عليها تنبؤاته عن السلطة التي ستصير إلى ولدها. ووقع كلامه من نفس الأم موقع الارتياح، وظلّ هذا الرجل يهدهدها بمثل هذه الأقوال ، لذلك لم تكن الأم "دلاسينا" تكتم من جانبها إيمانها به إيمانا أخذ يتزايد يوما بعد يوم، وتمثل هذا في سَعْيِها أخيرا لتنصيبه بطركا وإجْلاسه على العرش البطركي بحجة أن البطرك الموجود حينذاك ما هو إلاّ رجل ساذج بطبعه، عار من الناحية العملية، ثم راحت تلاحق أشخاصا معيّنين لحمله على التقاعد، وتظاهرَ هؤلاء الأشخاص عنده بأنهم صادرون فيما يقولون عن رغبتهم الصادقة في السعي لما فيه خيره. إلاّ أنّ هذا الرجل الورع لم تخْدَعه هذه النصيحة فقال: "وحق كوسماس ما أنا بمتخل عن كرسي البطرك حتى أتوج إيرين بيديَّ ". فأخبروها بما قاله كوسماس وكان الجميع ينادونها بالإمبراطورة ، لأنّ الإمبراطور كان شديد الحب لأمه فأراد أن يناديها به الناسُ جميعا فكان له ما أراد، وتم تتويج إيرين على يد البطرك كوسماس بعد سبعة أيام فقط من اعتلاء ألكسيوس العرش.

(٣)

إن المظهر الجسمانى لألكسيوس وإيرين لا يمكن مقارنته بشىء ما أبدا، وما كان فى قدرة أىّ نحات أن يبدع مثل هذا التناسق، بل إنّ قواعد "بوليكليتس" الشهيرة تبدو ناقصة إذا ما نظر الإنسان إلى هذين الهيكلين الحبيبين أعنى الحاكمين المتوجين منذ قريب وقارَنَ بينهما و بين ما قرره بوليكليتس Polycletus .

لم يكن ألكسيوس بالرجل المفرط الطول لكنه كان عريض المنكبين، سبط القوام، متناسق الأعضاء تناسقا كبيرا فلا يشذ عضو فيه عن الآخر، وكان إذا وقف قد لا يستلفت الأنظار لكن إذا طالع الإنسانُ بريقَ عينيه الأخّاذ وهو جالس على كرسى عرشه خُيِّل إليه أن إعصارا جامحا وشعاعا طاغيا تتفجر عنهما ملامحه وهيئته. وكان له حاجبان أسودان معقوفان، تبرق تحتهما مقلتاه اللتان تطل منهما نظراته التى هى مزيج من الرحمة والرهبة. وإنّ النظرة الخاطفة منه، وصباحةَ طلعته وجمال خديه المشربين بالحمرة لتوحى لناظره بالخوف والاطمئنان معا فى وقت واحد، وما يحسب الناظر إلى كتفيه العريضتين، وذراعيه العبلتين، وصدره البارز إلا أنْ تكون هذه كلها على بطل من الأبطال. وكانت كل هذه الأشياء تثير دهشة الناس وتستحوذ على الألباب إعجابا به.

وخلاصة القول أن صورته تفيض جمالا ورقة وتوحى بالهيبة والعظمة حتى ليحجم المرء عن الاقتراب منه. فإنْ كان هو فى جَمْعٍ من الجموع وشرَع فى الكلام أحَسستَ فى الحال بذلاقة لسانه وفصاحته، وتدفّق حججه الجمة، فيجذب إليه الأسماع، ويسيطر على كل قلب ، ثم إنه رجل لا تكلّ يمناه، ولا يقهر لسانه، فَيدُه بارعة فى قذف الرمحَ، وأما لسانه فيتدفق بالبلاغة الساحرة.

كانت أمى الإمبراطورة يومذاك صبية غضّةَ الإهاب لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، وهى أصغر بنات "أندرونيكوس" الذى هو أكبر أولاد قيصر (جون) ومن ثم كانت شريفة النبعة وتنتمى إلى بيتين من أكرم البيوتات هما بيتا أندرونيكوس وقسطنطين دوكاس. وكانت إذا وقفَت وقفَتْ منتصبةَ القامة وتبدو كأنها الشجرة المورقة المخضرة على الدوام وقد تناسقت أعضاء جسمها بعضها مع بعض، ولم يكن الناظر

إلى طلعتها البهيّة يملّ من النظر إليها، ولا يملك المنصت إلى صوتها العذب نفسه من الانجذاب إليها. ومن ذا الذى يستطيع أن يقاوم النظر إلى وجهها الذى يبدو كأنّ عليه نورا كأنه نور البدر.

على أنّ هذا الوجه لم يكن كامل الاستدراة كوجه المرأة الأشورية، ولا هو بالمستطيل كوجه المرأة البشناقية، ولكنه بيضاوى بعض الشيء .

أما خداها فيبدُوَانِ لناظرهما على بُعْد كأنهما زهرتان متفتحتان فى كمهما، كما تُطِلُّ البهجة من مقلتيها الزرقاوين فلا يسع الناظر إليهما إلا الطاعة والامتثال. وهل يستطيع من يرى هذه الفتنةَ الطاغية والسحر الجذاب إلا الطاعة والخضوع والاستسلام لها؟

على أن الرهبة التى تبثها عيناها كانت ذات وقع كبيرعلى من ينظر إليهما فيرتد منه البصر خاسئا حسيرا ، فلا هو قادر على معاودة التطلع إليهما ، ولا هو مستطيع الهروب منهما، ولست أدرى عما إذا كان قد وجد فى القديم مثلُ هذا السحر فى أثينا التى خلدها الشعراء والكتاب أم لم يكن له نظير. وكثيرا ما سمعت الناس يروون أنْ لوْ قال أحدهم عن هذه الإمبراطورة إنها هى "أثينا" ذاتها عادت من جديد أو أنها هبطت فجأة من السماء فى أبهة علوية وفتنة طاغية لا يمكن الاقتراب منها لَمَا كان قائل هذا الكلام ببعيدٍ عن جادّة الصدق.

على أن الذى يميزها عن بقية الأنام قاطبة ويثير الدهشة فى النفوس هو طريقتها فى سلوكها معهم مما يصيب الناس بالخبال، حتى إذا ما غُلِبوا على أمرهم واشتد بهم الخوف ردت هى عليهم شجاعتهم بنظرة واحدة، وكانت شفتاها مغلقتين معظم الوقت فكانت تبدو فى صمتها هذا كأنها تمثال للجمال الحيّ والإيقاع الحقيقى.

كذلك جرت عادتُها على أنْ تقرن كلماتها بإشارات لطيفة فتكشف عن يدها إلى الرسغين، فإنْ تسنى لك أن ترى هذه الذراع قلت إنها إبداعُ فَنِيٌّ صَنَّاعٍ حاذِقٍ أحال العاج يدا وأصابع. كما كانت حدقتاها فى زرقة البحر العميق الساجى، يحوطهما بياض كأنصع ما يكون البياض مما يُضفى عليها بريقا كبريق الثريا، ويزيدُها سحرا يعجز اللسان عن وصفه.

هذه هى صورة إيرين وألكسيوس الجسمانية.

أما إسحاق عمى فكان يقارب فى الطول أخاه ويشبهه فى بقية صفاته شبها كبيرا ولا يختلف عنه كثيرا، إلا إنه كان أميل للشحوب. وأما لحيته فغير كثة، بل هى أدَقّ من لحية ألكسيوس لا سيما حول الفكّ.

وقد ولع الأخوان بالصيد ولعا شديدا فكان يستغرق الجانب الأكبر من وقتهما إنْ كانا فارغين عمًّا يشلغهما، ومع ذلك فقد كانا أكثر ميلا للحرب منهما للقنص، ولم يكن هناك من أحد يفوق إسحاق فى ساحة القتال حين يقود الكتائب بنفسه، إذ ما يكاد يبصر عسكر العدو حتى يصبح غير عابئ بشىء سواه فتراه يرمى بنفسه وسط صفوفهم وينزل عليهم نزول الصاعقة، فلا تلبث الفوضى أن تعم صفوف خصومه. ولم تكن تفارقه هذه الصفة وإنْ أدت إلى وقوعه أكثر من مرة فى يد الترك فى آسيا، ولم يكن من أمْر يعيبه سوى اندفَاعه الذى كان الخطأ الوحيد الذى يؤخذ عليه فى الحرب.

(٤)

كان ألكسيوس قد وعد نسيبه "نقفور ميليسينوس" بأن يخلع عليه لقب قيصر وأن يُنعِم على أكبر إخوته إسحاق برتبة أرفع من رتبته الحالية، على أنه لم تكن هناك بين مرتبتى قيصر والإمبراطور مرتبة أخرى، لذلك ابتدع ألكسيوس واحدة هى مزيج بين الاثنتين سماها "سباستكريتور" Sebastacrator يكون حاملها دون الإمبراطور وأعلى من القيصر ويهتف باسمه، وزاد ألكسيوس على ذلك بأن قرر أن يظهر "السباستكريتور" وقيصر فى الاحتفالات العامة وعلى رأس كل منهما تاج ولكنه دون تاج الإمبراطور بمراحل كثيرة.

وكانت العصابة الإمبراطورية مرصعة كلها بالجواهر والأحجار الكريمة التى كان بعضها خفيا والبعض بارزا للعيان، وتكون على شكل نصف دائرة تُمسك بالرأس

تماما، كما تتدلى على الصدغين عقود من اللآلئ والجواهر الكريمة تكاد تمس الخد ولكن مسا خفيفا، وكانت هناك حلية تزين ملابس الإمبراطور.

أما تاج كل من السباستكريتور وقيصر فيحليه قليل من اللآلئ.

وأنعم الإمبراطور في الوقت ذاته على "تارونيتس" زوج أخته مارية بلقب "بروتوسيباستوس" Protosebastos ثم ما لبث أن رفعه إلى مرتبة سماها panhpersebastos وخوله الجلوس مع قيصر.

كذلك أنعم على أخيه "أدريان" بلقب "بروتوسيباستوس" وعلى نقفور أصغر إخوته بلقب القائد الأعلى للأسطول مع رفعه في الوقت ذاته إلى مرتبة "السيباستوس" ليجمع بينهما في وقت واحد.

كان أبي مبتدع كل ألقاب التشريف التي كان بعضها أسماء مركبة (كالأسماء التي ذكرتها حالا) والبعض الآخر ألقابا كانت موجودة من قبل ولكن تغير مدلولها.

كانت "البانيبرسباستوس" و "السباستكريتور" أسماء مركبة، غير أن مرتبة "السيباستوس" أخذت معنى جديدا، وإذا كان لقب "السيباستوس" خاصا في الأزمنة السالفة بالأباطرة لا يشاركهم فيه أحد، إلا أن ألكسيوس كان أول من عمد إلى التوسع في استعمال هذا النعت وخلعه على من هم دون الإمبراطور منزلة. وإذا كنا قد اعتبرنا فن الحكم علما فهو ضرب من أعلى ضروب الفلسفة ويمكن أن يقال إنه رأس الفنون كلها وقمة العلوم، ومن ثم كان على المرء أن يعجب بألكسيوس كعالم من ناحية وكمفكر من ناحية أخرى لابتداعه هذه الألقاب والوظائف الإمبراطورية، وطبيعي أن يكون هناك فارق بين المناطقة الكبار وبين أبي، فقد ابتدع الأولون الأسماء بغية التوضيح، في حين أن ألكسيوس - وهو أستاذ علم إدارة الحكومة - وجه كل ابتداعاته نحو صالح الإمبراطورية ذاتها سواء كانت هذه الابتداعات تتمثل في المهام أو في الإنعام بالألقاب.

ومهما يكن الأمر فهيا بنا نعود إلى البطرك الطوباني "كوسماس" الذي كنا نتحدث عنه، فقد رأس الاحتفال المقدس الذي أقيم على شرف المبجل "يوحنا اللاهوتي" في

الكنيسة المسماة باسمه فى "الهبدومون" hebdomon ثم ما لبث أنْ تنحّى عن وظيفته الرفيعة التى شغلها بجدارة لخمس سنوات وتسعة أشهر ثم اعتكف فى دير "كالياس" وخلفه على الكرسى البطركى "يوستراسيوس جاريداس".

أما قسطنطين بورفيروجنتوس porphyrogenitus ابن الإمبراطورة مارية فقد قام من تلقاء نفسه بخلع الحذاء الأرجوانى الطويل واستبدل به حذاء أسود عاديا وكان ذلك بعد إقصاء أبيه ميخائيل دوكاس عن العرش، غير أن الإمبراطورالجديد نقفور بوتنياتس أمره أن يخلع الجوارب السوداء ويلبس مكانها أخرى حريرية متعددة الألوان، وقد حمله على ذلك إحساسه بشىء من الأسى نحو هذا الشاب الذى حبَّبته إليه وسامته ونَبْعَتُه الأرستقراطية، ولم يكتف بإلباسه الحذاء المُحلَّى بالأرجوان بل زاد فخصَّه بشرائط حمراء فى أحذيته المنسوجة من القماش. وقد حدث فيما بعد - لما نودى بألكسيوس إمبراطورا- أن استجابت مارية أم قسطنطين إلى اقتراح "قيصر" أن يُزَودها ألكسيوس بعهد خطى مكتوب بالمداد الأحمر وممهور بالخاتم الذهبى، ولا يقتصر هذا العهد على السماح لها بالعيش مع ابنها فى طمأنينة بل وأن يكون ابنها قسطنطين شريكا فى الحكم لألكسيوس مع الاحتفاظ بحقه فى لبس الأحذية الأرجوانية ووضْع التاج على رأسه وأن يشاركه الهتاف به إمبراطورا. وقد أجيب سؤلها فى مرسوم ذهبى يؤكد منحها جميع ما سألت. وحينذاك خلع قسطنطين بن مارية الجوارب الحريرية واستعاض عنها بأحذية حمراء طويلة. كما صدر المرسوم القاضى بأن تحمل المنح والمراسيم توقيعه وتكون تاليةً لتوقيع ألكسيوس مباشرة كما توضع على رأسه العصابة الملكية. وقال البعض إن الإمبراطورة مارية كانت قد عقدت اتفاقا مع ابنى كومنين - حتى قَبْلَ الثورة - ينص على منح ولدها كل هذه الامتيازات.

وسواء أكان ذلك القول حقا أم زعما فإنّ واقع الأمر يدل على أنه بعد أن سارت الأمور على هذا المنوال غادرت مارية القصر فى حراسةٍ تليق بمكانتها وانتقلت إلى الدار التى بناها الإمبراطورالسابق قسطنطين مونوماخوس وكانت مجاورة لدير الشهيد العظيم جورج الذى لا يزال يعرف حتى اليوم باسم "دير كالياس"، وقد صحبها فى رحيلها هذا إسحاق نائب الإمبراطور.

(٥)

هذه هى صورة الترتيبات التى اتخذها الأخوان ولدا كومنين فيما يتعلق بالإمبراطورة مارية.

أما فيما يتعلق بألكسيوس الذى كان قد تلقى حظا وافيا من التعليم منذ سنواته الأولى ونشأ على طاعة أمِّه وتلبية أوامرها، وترسبت فى أعماقه الطاعة لها فقد نشأ على خدمة الرب فقد أحزنه وأزعجه - حين وصل إلى العاصمة - ما تعرضت له العاصمة من النهب الذى لم يسلم منه أحد من سكانها. على أنَّ النصر المتواصل قد يؤدى فى بعض الأحيان بصاحبه الذى لم يفشل قط إلى ارتكاب ما قد ينطوى على الغباء، فإنْ كان هذا المرء مطبوعا على الحذر والحساسية ندم أشد الندم على ما ارتكبه من السوء إذ يشعر فى قرارة نفسه بالخوف من الرب لا سيما إذا كان مشغولا بمشاريع بالغة الأهمية وكان هو ذاته يشغلُ مكانةً سامية ، وإذ ذاك يسرى الفزع الخفى فى جوانحه مخافة أن يكون قد ارتكب - بسبب حماقته أو جهْله أو كبريائه - ما يجلب عليه غضب الرب فينزله الرب من علياء سلطانه ويسلبه كل ما فى يده. وكان هذا هو ما أصاب الملك "شاول" منذ زمن بعيد فقد ضرب الرب مملكته ودمرها بسبب كبريائه المقوتة.

ولما أخذ ألكسيوس يتأمل هذه الأمور استبدَّ به الذهول وتبلبل خاطره وخشى أن يحل به مثل الذى حل بـ "شاول" وينزل به الانتقام الإلهى واعتبر نفسه المسئول عن الدمار الذى حل بالمدينة رغم أنَّ هذا الدمار كان قد تم على يد العسكر لا على يده. وخيل إليه أن المضرة التى عمت كالطوفان - فلم يسلم من شرها أى قسم من القسطنطينية - إنما هى من صنعه هو ذاته، لذلك امتلأ قلبه غمًّا وشعر بالعار يجلله كما لو كان هو نفسه الذى اقترف هذه الآثام المروعة، واعتبر - وكان على حق - أن كل ما ينعم به من السطوة وما يرفل فيه من الثياب الأرجوانية الملكية وما يتحلى به من العصابة المرصعة ، وما عليه من ثياب موشاة بالأحجار الكريمة والذهب والجواهر... أقول اعتبر كل هذه الأشياء لا تساوى شيئا إن هى قيست بالخَطْب الفادح الذى نزل

بالعاصمة. وليس يوجد ثم كاتب - مهما صدقت نيّته - بقادر على أن يصف بالدقة الأهوال التى شهدتها العاصمة إبان تلك الأيام، حتى لقد امتدت يد النهب إلى جميع الكنائس والأديرة، ولم تسلم منها الأملاك الخاصة والعامة على السواء، وتعالى الصريخ من كل حدب، وارتفع العويل من كل صوب حتى صُمُّت الآذان وخيل للناظر أن قد زلزلت الأرض زلزالها فلم تبق ولم تذر. وراح ألكسيوس يتأمل ما جرى فأصابه من الكرب ما عجز عن احتماله وضاق به صدره لما طُبع عليه من شدة التأثر والانزعاج من أى عمل من أعمال الشر. وعلى الرغم من يقينه الجازم بأن لم تكن له يد فى الجرائم التى اقترفت فى حق المدينة لكنها من فعل غيره إلا أن ضميره كان يوسوس إليه أنه هو ذاته الذى قدم الذريعة لحدوث هذه النكبة، وأنه هو الذى أعطاها قوة الدفع الأولى. هذا على الرغم من أن المسئولية الحقيقية للثورة كانت تقع على كاهل العبدين اللذين أشَرْتُ إليهما من قبل، لكنه على الرغم من ذلك كله أبَى إلا أن يحمل هو الوزر جميعه، وسعى سعيا حثيثا لا هوادة فيه للعمل على ما يؤدّى إلى دَمْل الجراح، ورأى أنه سوف يكون قادرا على النهوض بأعباء حكومة الإمبراطورية وإدارة دفتها إدارةً صالحة إن هو نجح فى كشف هذه الغمة، وأدرك أنه إن بلغ هذه الغاية فإنه يكون قد وضع خاتمةً كريمة لخططه سواء ما يتعلق منها بالجيش أو الحرب، لذلك سعى إلى أمه ولم يكتمها ما يساوره من القلق، وسألها أن ترشده كيف تكون النجاة، وطلب إليها أن تشير عليه بما فيه خلاصه من هموم باتت تؤرقه وتقض مضجعه، فضمته أمه إلى صدرها وأقبلت عليه تسمع منه كل ما يقوله بنفس راضية، ثم اتفق رأيهما على أن يقوم من لحظته باستدعاء البطرك "كوسماس" الذى لم يكن قد اعتزل حتى ذلك الحين، كما استدعى نفرا من رجال المجمع المقدس ومن الرهبان فلما صاروا بحضرته وقف أمامهم خاشعا - وهو الإمبراطور- وقفة المذنب الذى لا حول له ولا قوة وكأنه إنسان "دون مرتبة السلطان" أو مرتب تحته" كما يقول الإنجيل، أو كأنه شخصٌ مدان يترقب بأعصاب متوترة ما يحكم به المجتمعون، وصارحهم بكل كبيرة وصغيرة بما جرى ولم يخف عنهم شيئا سواء كان ذلك الشيء غواية تعرض لها ، أو كان خطيئة اقترفها، بل زاد فصرح لهم بذلك فى خوف وإيمان مستعطفا إياهم أن يصفوا له الدواء الناجع ليبرأ من هذه الأفعال المستنكرة ، وأعلن أنه يرضخ لأى حكم يقضون به عليه، فأدانوه هو ومن تربطه

بهم رابطة الدم وجميع من شاركوه ثورته وقضوا عليهم بالنوم على الأرض الجرداء وأداء الفرائض الملائمة حتى ينفثئ غضب الرب، فما كان منه هو ومن معه جميعا إلا أن تقبلوا هذا القضاء بنفوس راضية. والواقع أن نساءهم لم يحتملن أن يكُن بمعزل عنهم إذ كيف يعرفن الراحة وهن يرون أزواجهن الأحبّاء يقفون هذا الموقف ؟ فتقدمن بمحض اختيارهن لمشاركتهم ما يُوقع عليهم من عقاب ، وأصبح القصر مسرحا للعويل والدموع، ولم يكن بكاؤهن بكاء الجازعات الخائفات بل كان أشبه باللهفة التى تسبق الفرحة الدائمة . وكان من ورع ألكسيوس ما قرره من توقيع عقوبة أخرى قضى بها على نفسه إذ ظل أربعين يوما بلياليها وليس عليه من لباس سوى الثوب الخشن الأسود الذى لا يفصله شيء عن جلده ، وفوقه الثوب الأرجوانى الملكى، فإذا أقبل الليل انطرح على الأرض العارية وأسند رأسه إلى حَجَر جعله وسادة له، لقد فعل ذلك كله وهو يبكى من خطاياه. فلما انتهت فترة العقوبة انصرف إلى إدارة شئون الإمبراطورية طاهر اليدين نقيهما.

(٦)

كان ألكسيوس يرغب لو أن حُكْم البلد كان فى يد أمه بدلا من أن يكون فى يده هو، لكنه كتم ما يعتلج فى صدره ولم يصرح به لأحد ما مخافة أن يصل الخبر إلى أمه فترحل عن القصر، لا سيما وأنه كان يعلم أنها تؤثر الانسحابَ إلى أحد الأديرة ، ولم تَجْرِ عادتهُ على البتّ فى أمرٍ من الأمور – مهما كان تافها – دون استشارتها حتى أصبحت هى المستودع الأمين لسره وشريكته فى الحكومة. كما أنه أخذ يزج بها بالتدريج – ومن غير أن تشعر هى – إلى إدارة دفة أمور الدولة، وكثيرا ما صرح على رءوس الأشهاد أنه ما كان للإمبراطورية أن تظل فى الوجود لولا ما طُبعت عليه أمُّه من الفطنة وسداد الرأى، فتمكن بهذه الأساليب من أن يضاعف ارتباطها به وأن يمنعها من أن تحقق ما كانت تسعى إليه، فقد كانت مشغولة فى المرحلة الأخيرة من حياتها بهذا الهدف انشغالاً جعلها توثق صلاتها بالأديرة التى قد يمكنها أن تقضى بها ما بقى من عمرها وتعيش وراء جدرانها منصرفةً إلى التأمل والعبادة . وكان هذا هو أقصى ما تسعى إليه من صلواتها.

لكن على الرغم من هذا الشوق الملحّ، وعلى الرغم من انشغالها التام بالتفكير فى حياةٍ أسمى من هذه الحياة التى تعيشها فإن حبها الشديد لابنها حملها على أن تظل إلى جانبه تواجه معه العواصف التى تهب على الإمبراطورية، هذا إنْ جاز لى أن أستعمل الوصف البحرى فأُطلِقهُ على الأهوال المتعددة التى صادفَتها الإمبراطورية وعلى الاضطرابات التى تعرضت لها، فكانت "أنا دالاسينا" تسعى لأن تسيِّر دفة الدولة فى أكثر المسالك أمانا، سواء أكان البحر ساجيا هادئا أم مضطربا ثائرا تلطم أمواجه السفينة من كل جانب، لا سيما وقد أخذ الشاب الفتى مكانه منذ قريب فى السفينة وأمسك بدفتها دون أن تكون له سابق خبرة فى مواجهة العواصف والزوابع والأمواج العاتية بهذه الصورة شديدة الحلكة.

ولقد حملها حنان الأم على أن تحكم معه حكما كان يرقى فى بعض الأحيان إلى القبض بشدة على دفّة الأمور وأن تقود وحدها مركب الحكم دون ضرر أو زلل. والحق أنّ ذكاء "أنا دالاسينا" الخارق الذى لم يفارقها أبــدا فى أى حــال من الأحـــوال ، وما كانت تتمتع به من كفاءة حقيقية كانتا كافيتين لإدارة دفة الحكومة إدارةً ناجحة. لذلك فإنه لما جاء شهر أكتوبر من نفس السنة وعبر "روبرت جيسكارد" البحر إلى "إبيدوس" اضطر ألكسيوس لمغادرة العاصمة وكشف عن خطته التى كانت أملا يراودهُ منذ زمن بعيد، ثم ها هو ذا يضعها موضــع التنفـيذ حيث عهــد إلى أمـــه وحـدها بكل السلطة التنفيذية وأعلن ذلك فى مرسوم قرئ على رءوس الأشهاد.

ولما كانت مهمة المؤرخ لا تقتصر على تلخيص أعمال عظماء الرجال وذكر مراسيمهم بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى التنويه ببعض تفاصيل هذه المراسيم ونَقْلِها كاملة فإنى سوف أعرض ما تضمنته هذه الوثيقة من الشروط غير حاذفة منها سوى المحسنات اللفظية فأقول إنها كانت على الصورة التالية:

"حين تنذر الأمور بالخطر أو يتوقع أحد حدوث أمر بالغ السوء فليس هناك من مكان أكثر أمانا من الأم التى تفهم ابنها وتحبه لأنها إنْ بذلت له النصيحة فنصيحتها مأمونة ، وإن هى صلَّت من أجله أمدته صَلاتها بالقوة وأسبغت عليه الرعاية. ولقد

دلتنى تجربتى على صدق هذا القول إزاء أمّى المبجلة التى علمتنى وأرشدتنى وأخذت بيدى فى الحياة منذ نعومة أظفارى وكانت لها مكانتها فى المجتمع الأرستقراطى الرفيع، لكن اهتمامها الأول كان منصبا على ولدها الذى ظل إيمانهُ بها ثابتا لا يتزعزع، فكانا روحا واحدة فى جسدين ، واستمر هذا الوضع السعيد على حاله حتى اليوم بفضل المسيح ويقول ألكسيوس إنه لم يحدث قط أن جرى بينهما مثل هذه الكلمات الجوفاء " هذا ملكى " و" هذا ملكك " بل إنّ الأمر الذى هو أعظم من ذلك هو أن صلواتها التى كانت تؤديها طوال هذا الوقت قد بلغت مسامع السيد ، كما أنّ دعواتها هى التى رفعتنى إلى العرش الإمبراطورى ، فلما أخذْتُ فى يدى الصولجان الإمبراطورى رأت هى أنه لابد من أنّ تشاركنى متاعبى لصالح إمبراطوركم ولصالح الشعب كله .

ولما كنت أتأهب الآن بعون الرب لقتال الأعداء : أعداء رومة، فقد رأيْت بعد التفكير العميق وبَعْد إعمال الروية أنْ أجمع جيشا يكون مجهزا أتمّ تجهيز ومُعَداً أحسن إعداد ، ولم يَفُتْنى قط إيجاد هيئة قادرة تتعامل فى الأمور المالية والمدنية بكفاءة تامة ، وكان من سعد الطالع أنْ وجدتُ الحصنَ الحصين لحكومة صالحة إنما يتمثل فى تعيين أمى الموقرة التى هى أعلى جميع الناس قدرا ، وأجعلها مشرفة على كل شئون الإدارة ، ولذلك فإنى – أنا إمبراطوركم – أُقرّر بوضوح لا لَبْس فيه ولا إبهام فى هذا المرسوم الذهبى الحالى ما يلى : إنه نظراً لخبرتها الدقيقة بالأمور العلمانية – وإن كانت هى لا ترى لها قيمة – فإن ما تقرره كتابةً فيما يتعلق بكل ما يُرفَع إليها سواء من ناحية أمين بيت المال أو موظفيه أو من غيرهم فى شكل مذكرةٍ أو استفسارٍ أو أحكامٍ تقضى بتخفيض الديون العامة ... أقول إن كل ما تقرره كتابةً فى هذا الموضوع يكون له صفة السريان الدائم كما لو كنتُ أنا – إمبراطوركم صاحب الجلالة – الذى أصدَرْتُه أو أمْلَيْتُه ، ومن ثم تمت كتابته ، وأن تعتبر جميع القرارت أو الأوامر التى تصدر عنها (سواء أكانت كتابة أم شفاها، وسواء أكانت عقلانية أم غير عقلانية) كأنّها صادرة منى أنا شخصيا مادامت تحمل خاتمها الذى يتميز بصورة التجلّى والصعود ، ومادامت هذه القرارات تحمل عبارة:" فى شهر.." و " أمين بيت المال " الحالى .

وزيادة على ذلك فإنّه بالنسبة إلى الترقيات وتولى مناصب الحكومة والخزانة وما يتعلق بمواضيع الإنْعامات التشريفية والوظائف ، وما تهبه من العقارات الثابتة فإنه يكون لأمى الطاهرة السلطة التامة لاتخاذ القرارات التى تراها ملائمة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا رقى شخص إلى سلك القضاء أو الخزانة وأنعم عليه بمرتبة عالية أو متوسطة أو صغيرة ، فإنه يظل محتفظا بهذه الوظيفة على الدوام . كذلك فإنه فى حالة زيادة الرواتب والمِنَح الإضافية وتخفيض الضرائب والاقتصاد فى النفقات ، وتقليل المصروفات فلوالدتى أن تقرر ما تراه مناسبا ، لا يسألها سائل ماذا فَعَلَت ، ولا يُشجَب لها شىء أبدا مما قررته . كما تكتسب الأمور التى قررتها (فى السنين القادمة) قوةَ القانون الدائم .

ولن تكون أمى تحت أى ظرف من الظروف – فى حاضرها ولا فى أيامها القادمة– موضعَ مؤاخذة أو مساءَلَةٍ من قِبل أحدٍ أيا كان هذا الأحد ، ويسرى هذا القرار على وزرائها وكبيرهم سواء أكانت هذه القرارات تبدو معقولة أم غير معقولة ، وسوف يكون من المستحيل فى المستقبل المطالبةُ بتقديم تقرير عنْ أى قرار اتخذه هؤلاء الأشخاص ، وذلك وفقا لشروط هذا المرسوم الحالى " .

هذه هى صورة كلماتِ المرسوم الذّهبى .

(٧)

وقد تتملك الدهشةُ القارئَ للتعظيم الذى أضفَاه الإمبراطور على أمه فى هذا الصدد إذ يجعل الصدارةَ لها فى كل شىء، والكلمة النافذة التى لا ترد ، ويضع فى يدها زمام جميع أمور الحكومة مما يجعلها هى التى تقود المركبة الإمبراطورية فى أمان ، وهو إلى جوارها .

أمّا من ناحية اللقب الإمبراطورى فقد جعلها تشاطره إياه فى مزاياه على الرغم من الحقيقة الثابتة من أن الإمبراطور كان قد جاوز سن الصبا وصار فى عمر يحق فيه لصاحبه ممارسة السلطة وتكون مقاليدُ كل شىء فى يده هو. فلما أصبح مستعدا لقتال

المتبربرين دفعا للمحن والخطوب التى يسببونها فقد تَرَك إدارة الأمور الداخلية لها تصرفها كيفما شاءت ، كما ترك لها حقَّ اختيار الموظفين المدنيين والتصرف فى موارد الإمبراطورية ونفقاتها .

ربما كان من المحتمل كل الاحتمال أن يقوم بعضُ الذين يقفون على هذا المرسوم بلوم الإمبراطور على نَقْلِه حكومة الإمبراطورية إلى يد امرأة تتصرف فيها وفق ما تمليه عليها إرادتها ، لكنهم لو عرفوا أيَّة امرأة كانت هذه المرأة فى ذكائها الوافر وفى كفاءتها الكبيرة وألْمَعِيَّتها الحادَّة ونشاطها الجم فإنَّه سرعان ما يتحول كل نقدهم إلى إعجابٍ بها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما كانت عليه جدتى من قدرة فائقة فى السيطرة على الأمور العامة، وما كان لها من عبقرية فى إدارة وتسيير دفة أمور الحكم وحُسْنِ تطبيقها .

والحق أن قدرتها لم تقتصر على إدراة الإمبراطورية الرومانية فحسب، بل وكل إمبراطورية أخرى تحت الشمس نظرا لخبراتها الواسعة واتساع أفق تفكيرها وفهمها للدوافع وتقديرها لخواتيم المسائل وما يمكن أن تتمخض عنه جميع الأشياء من نتائج طيبة أو سيئة . هذا بالإضافة إلى ما كانت عليه جَدتى من قدرةٍ على التوصل بسُرعة فائقة إلى الحلّ الصحيح فى مهارة وثقة .

كذلك كانت ملكاتها الذهنية مكافئةً لقدراتها على الكلام فامتازت بأنها أكثر المتحدثين إقناعا لمن هم أمامها ، ولم يكن فى حديثها أبدا ما يبعث على الملل أو يؤدى إلى السأم ، فهى لا تعجز عن أن تسوق الحجة الناصعة على ما تقول لأنها كانت إذا بدأت فى سرد خبر من الأخبار توصّلت فى النهاية إلى وضع خاتمة تتسم بالسداد .

وكانت إلى جانب ذلك قد بلغت النضوج حين استُدْعِيَت لإدارة السلطة الإمبراطورية ، وقد تم ذلك الاستدعاء فى لحظة تبلغ فيها ملكات المرء العقلية ذروة نضجها وتوهّجها ، وفى ساعةٍ يستقيم فيها حكم المرء على ما بين يديه وتتسع دائرة معرفته بالأشياء : وكلها صفات تُضفِى القوةَ على صاحبها ليصح له تصريفُ الأمور وإدارةُ الإدارة والحكومةِ على الوجه السوى . ومن الطبيعى لشخص فى مثل هذه السن

ألاّ يقف كلامه عند هذا الحد الذى يقتصر فيه على أن يكون أكثرَ حكمةً من كلام الشباب كما يقول الكاتب التراجيدى، بل يكون مسلكه أكثر عقلانية . وقد استطاعت "أنا دالاسينا " فى أيامها الغابرة – وكانت إذ ذاك أصغر سنا بكثير مما هى عليه الآن – أقول إنها استطاعت أن تستلفت أنظارَ الناس أجمعين فكانوا إذا تكلموا عنها قالوا " إن لها عقلاً كبيرا محمولاً على كتفيْن صغيرتين " ، وكان وجهها وحده هو الذى يكشف للناظر إليها ما ورثته من فضيلة وهيبة . غير أنه لما كان أبى – كما قلت – شديد البأس فقد احتفظ لنفسه بالأمور التى تتسمُ بالصراع وما يتعلق بالحرب من المشاق ، وجعل مِنْ " أنا دالاسينا " مليكته ، كما وضع نفسه طوع يمينها فهو يفعل كل ما تأمره به ، وقد أفْرط فى تعلقه بها وكان يعتمد عليها إذ يسألها أن تُسْدِى إليه النصح .

على هذه الصورة كان تعلقه بها .

ولقد كرس يمناه لخدمتها واستجاب لكل ما تأمره به وجعل من نفسه على الدّوام تابعا لها ومنفّذا لرغباتها ، ويمكن أنْ أُلخص الموقف بأجمعه فيما يلى :

كان ألكسيوس هو الإمبراطور من الناحية النظرية ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يدها ، فهى المشرّعة والمنظمة الوحيدة وهى الحاكم المفرد الذى لا يشاركه أحد فى السلطان ، وما كان ألكسيوس إلاّ منفذا لما تقضى به سواء أكان قضاؤها مكتوبا أم شفاها ، فما عليه هو سوى التوّقيع على قراراتها المكتوبة والموافقة على ما تقضى به.

وقد يمكن للمرء أنْ يقول إنه كان فى الواقع آلةً فى يد أمه وصنيعةَ قوتها وليس إمبراطورا؛ لأنّه كان ينفذ عن طيب خاطر كل قراراتها وأوامرها ، لا كابن مُطيع فحسب بل وأيضًا كمُطّلع لما تشير به عليه فى فن إدارة الحكم . وكانت عنده القناعة التامة بأنها الكاملة فى كل شىء وأنها تفوق جميع الرجال فى ذلك الجيل فى فطنتها وفى فهمها لمجريات الأمور .

(٨)

هذه هى صورة الأحداث التى صحبت مستهل حكمه حتى لقد كان من الصعب فى هذه المرحلة تلقيب ألكسيوس بالإمبراطور إذْ وكل إلى أمه مقاليد السلطة العليا ، ولو كان هناك شخص آخر مكانه لهزَّته آيات المديح والثناء على مهبط رأس هذه المرأة التى تسترعى الانتباه . ولن أتعقَّب انحدارها من صلب أُسـرتَىْ " أدريان دالاسـينا " و " شارون " لكنى أكتب التاريخ . ومهمتى التى تليق بى فى هذا المجال هى ألاَّ أصفها من خلال أسرتها وأقاربها بل يجب علىَّ أنْ أرجع إلى شخصيتها ومناقبها وإلى الأحداث التى تعتبر الصلبَ الصحيح للتاريخ .

وأعود مرة أخرى إلى جـدتى فـأرانى ملزمةً بأنْ أضـيف إلى ذلك قـولى إنها لم تقتصر على أن تكون مفخرة عُظمَى لبنات جنسها فحسب، بـل للرجـال أيضا ، كما أضفَتْ مجدا للجنس البشرى بأجمعه .

كانت أجنحة الحريم فى القصر (ببيزنطة) مشهورةً بالانحلالات الخلقية وبما كان يحاك فيها من مكائد الغرام الدنيئة منذ أن اعتلى العرش قسطنطين مونوماخوس الرذيل وظلت هذه الأجنحة على تلك الصورة البذيئة حتى اللحظة التى صار والدى فيها إمبراطورا ، ثُم جاءت جدتى " أنا دالاسينا " فـغيرت الأوضاع إلى ما هو أحسن، فاستعاد الذوقُ الجميل مكانته ، وعمَّت الأخلاقيات الرفيعة وأصبح القصر يتمتع بتنظيمٍ جدير بالثناء عليه ، فخصصت سَاعات معينة للتراتيل الدينية ، وغيرها للإفطار ، وخصصت وقتا لمتابعة الموظفين ، كما جعلت من نفسها مثلاً يحتَذيه كلُّ شخص حتى صار القصر أشبه ما يكون بالدير . ولقدْ حدث هذا كله بفضل هذه المرأة العظـيمة حقا وبفضل ما اتسَمَتْ به من خلق طـاهر فتمسـكت بضبط النفـس حتى فـاقت فى ذلك الجانب جميع نساء الزمن القديم الشهيرات اللائى سار ذِكْرهن فى الآفـاق وعُرفْن فى التاريخ بأنهن بطلات كثير من الأساطير فكانت هى كالشـمس يكسـف نورها نور كل مَن سواها .

أما عطفها على الفقراء وسخاؤها على المعوزين فأمر يعجز اللسان عن إيفائه حقه ، فكان بيتُها ملجأ للمعدمين ، ثم زادت ففتحته أمام الغرباء فكانوا لا يُصَدّون عنه أبدا ولا توصد أبوابه فى وجوههم ، وفتحت مصاريعه للجميع لا سيما القسس والرهبان الذين كانت تُجِلُّهم وتعظم قدرهم فتأبَى إلاّ أن يشاركوها طعامها ، فما رؤيت قط جالسةً وحدها إلى المائدة بل كان بعض رجال الدين ضيوفا عليها ، وكانت سكينتها التى تجللها ووقارُها الذى يزينها يحملان النفوس الطاهرةَ على احترامها وإنْ كانا يبثان الفزع فى قلوب سواهم من المردة الشياطين والمُجّان ضحايا شهواتهم ، فكانت نظرة العتاب الواحدة منها إليهم كفيلة ببث الخوف فى قلوبهم فلا تعود لهم قدرة على احتمال النظرة الثانية منها إليهم .

أما أهل العفة فكانت سعادتُهم تتمثل فى رؤيتهم إيُّاها تهشّ فى وجوههم ، فهم أهل الخلق السامى والمهابة وكان فى ذلك إكرامهم، ولم تُوحِ جِدّيتها ولا صرامتها أبدا بالإحساس بالفظاظة أو القسوة . كما أنّ رقتها لم تكن تدفع أحدا للطمع فى التسيّب ولا الخلاعة . وفى رأيى أنّ هذا هو التعريف الحقيقى للوقار إذْ يناسب إنسانيتها الصادقة وديدنها الأخلاقى الذى لا يمكن غمزه .

كانت " أنا دالاسينا " بطبيعتها امرأةً مفكرة ، دائمة الاستنباط لأفكار جديدة لا تؤدى – كما يزعم البعض – إلى ضياع الدولة، بل كانت هذه الأفكار تتضمن من المشاريع المفيدة ما رَدّ على الإمبراطورية شبابها بعد أنْ كان الفساد قد استشرى بها ونخرها ومن ثم عادت الإمبراطورية إلى سابق عهدها من الحيوية المتدفقة ، وأصلحت ما وَهَى من أمورها المالية ، وقومت ما اعوجَّ منها بقدر ما وسعها الجهد ، فانتعشت أحوال الناس بعد مواتٍ بقدر الإمكان ، كما أن انشغالَ هذه المرأة بأمور الدولة لم يصرفها أبدا عن القيام بواجباتها الروحية ، فكانت تقضى الجانب الأكبر من ليلها فى ترتيل الأناشيد الدينية ، وتعكف على الصلاة والتهجد حتى إذا طلع الفجر وصاح الديك تهيأت من جديد لتصريف شئون العمل والنظر بدقة فيما يعرضه عليها كبار موظفى الدولة ، وأجابت التماسات المتضررين والضارعين إليها ، معتمدة فى ذلك على ما تلقاه من مساعدة سكرتيرها "جريجورى جينيسيوس" Genesius .

والآن لو أن أحد المادحين عزم على أن يجعل من هذه الصفات موضوع ثناء عليها لوجد مجال الثناء العاطر أمامه فسيحا واسعا ، ولرفعها كما يفعل المادحون إلى الذروة بسبب فعالها النابهة وسُمُوِّها على غيرها . ولو أنها قورنت بالقدامى الذين اشتهروا بفضائلهم : رجالاً كانوا أم نساءً، لكسف نورُها نورَهم ولتواروا فى الظّل أمامها . على أن ذلك ليس برخصة فى يد المؤرخ فإن الذين عرفوا مناقبها وأدركوا خلقها السمح وفطنتها التى لم تخنها قط ووقفوا على سموّ روحها وعلوّها لا يجوز لهم أنْ يعيبوا تاريخى هذا الذى بين أيديهم إنْ أنا أنصفتُها بذكر صفاتها الجميلة والإشادة بها .

على أنه ينبغى علىَّ الآن أن أعود من حيث وقفت لأتحدّث فى إيجازٍ عنها فأقول إن حسن إدارتها لشئون الإمبراطورية وتصريف أمورها لم يصرفها قط عن حضور الصلوات المقررة فى الكنيسة المهداة إلى الشهيد " تَكْلا " ، وهى الكنيسة التى سأرْوى الآن قصة تأسيسها على يد سلفها الإمبراطور إسحاق كومنين (١٠٥٧ - ١٠٥٩) ذلك أنه لما رفض " الداكيّون " التزامهم باتفاقياتهم القديمة مع الرومان وشجبوها تحرك البشناقيون الذين كانوا يسمون بالميسانيين فى الأزمنة القديمة وتمردوا ولم يقنعوا بالبقاء داخل حدود إقليمهم الذى يفصله نهر إستر Ister عن الإمبراطورية، حتى إذا نشبت الثورة عبروا النهر إلى بلادنا وكان دافعهم إلى هذه الهجرة هو العداوة القاتلة التى كان جيرانهم " الداكيون " يضمرونها لهم ، وهى العَداوة التى حملتهم على أن يعيثوا فسادا ونهبا فى بلاد " السرمانيين " وظلوا فى انتظار اللحظة المناسبة التى لاحت لهم حين تجمَّدت مياه " إستر " فعبرته هذه القبيلة كلها دون أن تبتل قدم أحدٍ من رجالها ثم اندفعوا فى أرضنا يبثون الفزع وينشرون الدمار فى مدن تلك الناحية وأقاليمها ، فلما وصل خبرهم إلى سمع الإمبراطور إسحاق آلى على نفسه أنْ يحتل " ترياديتزا " Triaditza وسار لتأديبهم ولكبح جماح هؤلاء المتبربرين الشرقيين فلم يلق فى مهمته صعوبة كبيرة . ولما كان قد أجمع عزمه على طردهم من الأراضى الرومية فقد حشد الجيش عن بكرة أبيه وزحف به ميمما وجهه شطر الشمال ، فلما شاهد الأعداء الكتائب الرومانية قد نهضت للحرب وعلى رأسها " إسحاق " دب اليأس فى نفوسهم وتنازعوا أمرهم فيما بينهم، لكن إسحاق الذى كان عنده من الأسباب الوجيهة ما لا يسمح له بالثقة بهم كرّ على أقوى جبهاتهم وأشجعها كرةً عنيفة

فامتلات قلوب "السرمانيين" بالخوف إذ رأوه هو ورجاله يقتربون منهم شيئا فشيئا ووجفت قلوبهم فزعًا حين رأوا قائد " العاصفة " وصفوفه المتراصة وارْفضت أفئدتهم فزعا . فلما كان اليوم الثالث وقد أدركوا فشلهم فى القتال ارتدوا قليلاً إلى الوراء ثم ما لبثوا أن لاذوا بأذيال الفرار مخلّفين وراءهم خيامهم بكلّ ما فيها من المتاع فزحف، إسحاق حتى إذا انتهى إلى معسكرهم نهب كل ما وجده به وأخذه غنيمة ثم قفل راجعا تخفق فوق رأسه أعلام النصر إلاّ أن عاصفة ثلجية هوجاء مروعة - جاوزت كل ما يمكن تصوره - اعترضته هو ورجاله واكتسحتهم جميعا عند سفح جبال " لوبيتزس " Lobitzus وكان ذلك يوم ٢٤سبتمبر وهو اليوم الذى نحتفل فيه بذكرى الشهيد العظيم "تكلا".

وارتفع منسوب المياه فى ذلك اليوم ارتفاعا كبيرا وفاض حتى غمر الشواطئ . كما أن السهل الذى عسكر فيه الإمبراطور إسحاق وجيشه استحال إلى بحرٍ أغرق كل ما معهم من المئونة التى جرفتها المياه ، وتجمدت أطراف الرجال وحيوانات النقل فلم يعد أحد يستطيع حراكا . وكانت السماء ترعد رعدا متواصلا مصحوبا بومضات يبرق بعضها فى إثر بعض فى سرعة كبيرة منذرة باندلاع النار فى الإقليم كله، فأُسقط فى يد الإمبراطور ولم يدْر ما يفعل، إلا أنه اغتنم لحظة قصيرة هدأت فيها العاصفةُ ليتمكن من النجاة مع طائفة مختارة من عسكره إذْ لجأ بهم إلى شجرة بلوط لكن بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله الذين جرفتهم مياه النهر السريعة فابتلعتهم أمواجه، فلما صار إسحاق تحت هذه الشجرة سمع زئيرا مرعبا عاليا خيل إليه أنه خارج من جوف هذه الشجرة. وإذ كانت الرياح قد اشتدت شدة أعنف من ذى قبل فى هذه اللحظة فقد خاف أن تسقط الشجرة عليه فابتعد عنها بُعدا يضمن له ألا تصرعه فتهلكه هو ومن معه إن هى هوت على الأرض وهُم وقوف تحتها، ثم ران عليه ومَن معه الصمت وحينذاك اقتلعت الرياحُ العاصفةُ شجرةَ البلوط من جذورها كأنما صدرت لها إشارة خفيّة فهَوَت على الأرض على مرأى من الجميع، ووقف إسحاق أمامها ممجدا الرب إذ حفظه وكتب له السلامة.

ثم جاءت الأخبار باندلاع الثورة فى الشرق فعاد إسحاق إلى القصر وشيد كنيسة رائعة تمجيدا للقديس "تكلا" ولم يدخر وسعا فى الصرف عليها وفى المبالغة فى

زينتها وحلاها ببدائع الفنون، وهكذا أقام هذه الكنيسة شكرا لله ولتليق به هو ذاته كمسيحى يؤدّى فيها للرب العبادة ما بقى له من أيام فى هذه الحياة .

هكذا كان تأسيس هذه الكنيسة التى اتخذتها أم ألكسيوس - كما قلت - لتؤدى هى الأخرى فيها صلواتها بصورة منتظمة.

ولقد تَسنّى لى أن أعرف جدتى "أنا دالاسينا" التى لم تطل أيامى معها ولكنى تعلقت بها تعلقا كبيرا، ولابد لأى شخص يؤثر الصدق ولا يميل مع الهوى أن يؤكد أن كل ما ذكرته عنها لم يكن مجرد تفاخر أجوف أو تباه مصطنع. والحق أنى لو أردت أن أضع كتابا فى مدح صفاتها -وليس تاريخا - لكتبت أكثر من هذا الذى ذكرته، ولأضَفْتُ العديد من الأخبار عنها ولكن يجب أن أعود الآن إلى موضوعى الذى كنت فيه.

(٩)

كان ألكسيوس يدرك أن الإمبراطورية على وشك أن تلفظ نفسها الأخير بعد أن عاث فيها الترك تخريبا وتدميرا، كما أن الوضع فى الغرب كان قد بلغ من السوء غايته نظرا لما كان يبذله "روبرت جيسكارد" من مجهودٍ ضخم ليسوق العرش إلى الدعى "ميخائيل" الذى التجأ إليه. وفى رأيى أن هذا العمل فى جوهره كان مجرد ذريعة تُخفى باعثه الحقيقى ألا وهو تطلعه الشديد هو ذاته للاستيلاء على زمام الحكم لنفسه وقد حَرَمَهُ هذا التطلعُ الراحةَ فلم يذق لها طعما أبدا. كما وجد فى "ميخائيل" دميةً تجعل منه ما يشبه "باتروكلس"، فأذْكت مطامعه التى كانت مخفيةً كجمرةٍ تحت الرماد ثم اتقدت فصارت نارا تتلظى، فنهج نهجا مخيفا إذ سلح نفسه ليقاتل الإمبراطورية الرومانية ، وأعدَّ أنواعا شتى من آلات الحرب والنُّقل ما بين "درمونات" وسفن ثلاثية المجاديف ومجموعة من شوانى القتال وأعدَّ المراكب والسيرمونية وجعلها على أتم أهبة للإبحار وأرساها فى المناطق الساحلية، كما قام بتجنيد كتائب قوية لمساعدته فى حربه التى أزمع القيام بها. وكان تجنيده إياها من بلاد اليونان، وقد أدى هذا الأمر من

جانبه إلى تأزم أمور الإمبراطور الشاب الشجاع ألكسيوس تأزما عميت عليه أمامه السبل فلا يدرى أيها يسلك، كما أصبح لا يدرى أى الأعــداء يقاتلــهم قبــل غيرهم، فلا عجب إذا ما تبلبل خاطره وتملكته الحيرة لا سيما وأنه لم يكن لدى الرومان حينذاك قوات تُجْدِي نفعا فى صدِّ الأعداء، بل الواقع أنّه لـم يكن بالعاصـمة أكـثر من ثلاثمائة جندى من "كوما" Coma لكنهم لا يصلحون للحرب والنزال، وليست لهم خبرة بالمعارك.

كذلك كان يوجد إلى جانب هؤلاء نفر قليل من المرتزقة المتبربرين(٥) الذين تتدلى فئوسهم من فوق أكتافهم على مألوف عادتهم.

وبالإضـافـة إلى ذلك لم يكـن بالخـزانة احـتـيـاطى من المـال يسـتطـيع به ألكسيوس جلب إمدادات من مرتزقةٍ جُدد من الأقطار الأجنبية، وكان الأباطرة قبله (الذين كانت معرفتهم بالحرب وفنـون القتال ضئيلة) قـد نزلـوا بالهيـبة الرومانية إلى الحضيض.

والواقع أنى سمعت رجالا من الجند أنفسهم - كما سمعت آخرين من ذوى السن العـاليـة - يقـولون إنهم لا يذكـرون قط دولةً هوت إلى الدرك الأسـفل وسـقطت إلى الحضيض سقوط هذه الدولة، ومَعْنَى ذلك أنّ ظروفَ الإمبراطور ألكسيوس كانت تبعث على الأسى واليأس، فلا عجب أن تناهبته شتى الهموم، لكنه لما كان رجلا شجاعا هُماما ، وخبيرا بالحرب فقد سعى لأن يقود إمبراطوريته إلى مرسى الأمان بعد أن تقاذَفَتْها الأمواج العاتية، كما سعى لأن يتمكن بمعونة الرب من القضاء على الأعداء الذين وقفوا ضده، جامعا هو العزم على تبديد شملهم وفل شوكتهم حتى يصيروا كالزبد يذهب جفاء، وأدرك أن الواجب يقتضيه أن يبادر أولا - وعلى وجه السرعة - إلى استدعاء جميع الولاة : سواء منهم حكامُ المدن أو حراس القلاع ممن قاوموا التركَ مقاومة برهنت على بطولتهم، ولذلك أنفذ فى الحال توجيهات صارمةً صريحةً إلى والى "داباتينوس" Dabatenus وهو الحـاكم المؤقت لهـرقليـة فى "بونتس" وإلى حـاكم "بافلاجونيا"، وإلى "بيرتزيس" Burtzes وإلى كبادوكيا وخوما، وإلى غيرهم من القواد شارحا لهم كل ما جرى له، وكيف أنه ارتفع إلى مرتبة الإمبراطور السامية بفضل

رعاية الرب الذى أنجاه من الخطر الداهم نجاةً لم تكن تخطر على بالِ أحد، ثم أمرهم أن يعملوا على ضمان سلامة ولاياتهم وذلك بأن يزودوها بالعدد الكافى من الجند اللازم لهذا الغرض ، ثم يأتون إلى القسطنطينية بالبقية الباقية من هذا العسكر، مصطحبين معهم أكبر عدد يستطاع جمعُه من الجند الأشداء.

إلى جانب هذا كله قرر ألكسيوس وجوبَ أخذه المبادرة لحماية نفسه ضد "روبرت جيسكارد" مستهدفا صرف قادة هذا النرمندى وكونتاته وفضّهم عنه.

وكان ألكسيوس قد أرسل من لدنه - وقبل أن تخضع له العاصمة ويصبح سيدها- رسولاً إلى "مونوماخاتوس" يناشده أن يمدّ إليه يد المساعدة ويسأله أن يعينه بالمال، لكن الرسول لم يعد إليه كما قلت فى موضع سابق من هذا الكتاب إلا برسالة تتضمن اعتذاره ، ويقول له فيها "إنه لا مكان للمعونة طالما مقاليدُ الإمبراطورية فى يد بوتنياتس". فلما قرأ ألكسيوس الرسالةَ خاف أنْ ينضم مونوماخاتوس إلى روبرت جيسكارد حينما يعلم بسقوط بوتنياتس، فامتلأ قلبه غما وكان قد بعث من قبل بجورج بالايولوجس (زوج أخت امرأته)[٦] إلى "دورازو"[٧] مُصدرا إليه تعليماته بإخراج "مونوماخاتوس" من البلد دون إراقة الدماء لعدم توفر القوة الكافية. كما أمره أن يبذل قصارى جهده لمنع روبرت جيسكارد من الزحف.

كذلك أمره ألكسيوس أن تُشَيَّد القلاع على نمط جديد هو أن يترك معظم الألواح الخشبية غير مثبتة بالمسامير حتى إذا تسلق اللاتين السلالم ووضعوا أقدامهم على الألواح هوت بهم هذه الألواح فتحطمت ودقت عظامهم.

ولم يكتف ألكسيوس بذلك بل زاد فبعث إلى عماله فى المدن الساحلية وإلى أهل الجزر أنفسهم برسائل يثبت فيها قلوبهم وينزع منها كل خوف يلم بها وينصحهم ألا يتراخوا بأى حال من الأحوال فيما بيدهم من العمل ، بل عليهم اليقظة التامة لكل ما يجرى فلا تفوتهم منه شاردة ولا واردة، وألاَّ يدعوا ضربا من ضروب الحماية إلا اتخذوه لحماية أنفسهم، وألا تغمض لهم عين عن مراقبة "جيسكارد" فقد يقوم بغارة فجائية تؤدى إلى تمكنه من احتلال جميع المدن الساحلية والجزر مما يعود بالضرر على الإمبراطورية الرومانية.

هكذا كانت الاحتياطات التى اتخذها الإمبراطور بالنسبة إلى "الليريكيوم".

(١٠)

أصبح واضحا للعيان أن الجهات الواقعة مباشرة فى طريق العدو وما قَرب منها إليه قد أصبحت شديدة التحْصين، ولم يَفُتْهُ الالتـفات إلى المواضـع التى هى خلـفه فلم يتوان عن عمل كل مـا من شـأنه إثارة الاضطرابات والقلاقل فيـهـا، فـأرسل أولاً رسالة إلى "هيرمان" دوق لمبارديا، ثم ثنّى بغيرها إلى بابا روما، ثم أتبعهـما بثـالثة إلى "إيربوس" Erlbus رئيس أساقفة "كابوا" وإلى غيرهم من الأمراء.

كذلك بعث برسائل أخرى إلى مختلف قادة البلاد الكلتية[٨] الحربيين يتودد فيها إليـهم، وراح يستميل بعضـهم إليه بالهدايا اللطيفة ويعد غيرهم بالعطايا السخية والإنعامات الكبيرة فى المستقبل ويغريهم بقتال "روبرت". فتمكن بذلك من إيغار صدورهم على روبرت ووقوفهم إلى جانبه ضد روبرت مما ترتب عليه قيام بعضهم فى الحال بشجب محالفاتهم مع هذا النرمندى، كما وعد ألكسيوس غيرهم بمثل ذلك إذ رفدهم بمال أكثر مما وصلهم به حتى الآن. ولما كان ألكسيوس يدرى أن أقوى الجميع قاطبة هو ملك ألمانيا[٩] وأنه ما من سياسة ينتهجها إلا وسوف يكون النجاح حليفها حتى ولو عارضها روبرت فقد كثرت رسائله إلى هنرى وتعددت مناسباتُ إرسالها وكلها تفيض بعبارات المودة والمحبة وتتضمن شتى أنواع العهود. فلما أيقن باقتناع ملك ألمانيا واستعداده لاستجابة رغباته بعث إليه مرة أخرى رسوله المدعو خورو فاكتس ومعه كتاب منه يقول له فيه: "إلى الأخ المسيحى الصادق الإيمان وأنبل الجميع: إننى أسأل الرب أن تزدهر مملكتك القوية وتتمتع بأعظم الرخاء وأن تزداد ازدهارا، ولم لا وأنا ذاتى رجل يخشى الله وأرى فيك ما أراه فى نفسى من الاحترام، ومن ثم فمن الواجب أن أدعو لك الله أن يجعل أيامك القادمة أزهى من أيامك السالفة. وإنّ قرارك بالوقوف إلى جانبى وإسهامَك فى حمل أعباء الحرب ضد ذلك الرجل الشرير سيئ الطوية، وعزمك على معاقبة القاتل الآثم عدو الرب والمسيحيين عقابا يتكافأ وفجوره... أقول إن كل هذه الأشياء هى البرهان الواضح على طيب نفسك، كما أن هذا العمل الأخوى دليل ناصع على صدق طويتك، وعلى الرغم من أن أمورى من ناحية أخرى تسير على ما يرام إلاّ أنها تتسم ببعض الاضطراب بسبب أعمال روبرت جيسكارد،

ولكن ما دامت هناك ثقة بالله وبأحكامه العادلة فلن يتأخر كثيرا سقوط هذا الرجل الذى هو أكبر الخطائين وأوغلهم فى الإثم لأنه من المستحيل على الرب أن يأذن "باستمرار وقوع سوط عذاب الشر على ميراثه". أما فيما يتعلق بالهدايا التى اتفقنا على وجوب إرسالها إليك فلقد بعثنا بها مع المبجل قسطنطين النائب الكَتَبانى وهى مائة وأربع وأربعون ألف قطعة ذهبية، ومائة ثوب من الحرير الأرجوانى وذلك حسب ما تم الاتفاق عليه مع رسولك الأفخم المعظم "كونت بيرخارد". أما المبلغ المشار إليه المرسل إليك الآن فنقودٌ فضية قديمة تحمل صورة رومانوس (ديوجين).

وحين تقطع جلالتكم اليمين فإنَّ المبلغ المتبقى وقدره مائتان وستة عشر ألف قطعة ذهبية سوف يصل إليك وكذلك رواتب العشرين وظيفة وسيسلمها إليك أصدق الناس وهو"أبيلارد" حين وصول جلالتكم إلى لمبارديا.

أما صفة اليمين التى سبق أن فَصَّلْتُها لك فسيقوم "ألبرتو برودس" والكتبانى قسطنطين بزيادة إيضاحها لكم، وقد صدرت تعليماتُنا بشأن كل نقطة من النقاط الرئيسية التى نحتاجها منك والتى سوف تؤكَّد باليمين التى تقوم أنت بقطعها، وحين يتم وضع الاتفاق بينى وبين رسلك الذين أرسلتهم فقد أشير إلى بعض مواد أعظم أهمية. غير أنى أرجأتُ اليمين لأن رجالك قالوا إنهم لم يُفوَّضوا فى شىء بصددها.

وأرجو منك أن تقطع اليمين حسب ما وعدنى "أبيلارد" (١٠) الأمين وعلى الصورة التى سألتك إيَّاها بشأن المُلحق الإضافى الذى هو أكثر أهمية.

ولقد كان خطئى أن أخرت مندوبك الصادق الشريف "كونت بيرخارد" ولم يكن ذلك إلاَّ بسبب رغبتى فى أن يلتقى بابن أخى الحبيب المعظم (أسعده الرب) حتى إذا عاد إليك الكونت حدَّثك بمدى ما عليه هذا الغلام من الذكاء الحاد رغم صغر سنه، إذْ إن مظهره الخارجى وخصائصه الجسمانية دون واقعه، وسوف يخبرك رسولك بعد عودته من إقامته القصيرة فى العاصمة بما رآه من هذا الصبى وعن حواره هو نفسه مع هذا الغلام غض الإهاب. ولما لم يكن الرب قد أنعم علىَّ بولد من صلبى فإنِّى أعتبر ابن أخى الحبيب هذا هو الوريث الشرعى الحقيقى لى، ولو شاء الله أن يحصل تحالف بيننا عن طريق المصاهرة وأن أكون أنا وأنتَ كمسيحيين صديقين عن طريق روابط

القرابة يستمد كل منا القوة من صاحبه فسنكون مبعث فزع لأعدائنا وحليفين لا يُقهَران بعون الرب.

وإنّي لمرسل إليك الآن -كدليل على حسن نيتي- صليبا ذهبيا يوضع على الصدر ومحلى بالصور ومرصعا باللآلئ ووعاء مقدسا من الذهب يحتوى على آثار بعض القديسين، ويوجد على كل من هذه الآثار ورقة صغيرة تشير إلى اسم صاحبها كما أنّي مرسل إليك كأسا من العقيق وكوبا من البلور الصافى وحليةً معلقة بسلسة ذهبية وبعض البخور من خشب البلسم [11]. وأدعو الرب أن يطيل عمرك ويزيد فى اتساع حدود مملكتك، ويجعل جميعَ أعدائك فى موطئ قدميك . كما أدعو الله أن يجلّلهم بالعار، وأن يمنحَ دولتَك السلام ويُنعمَ عليها بالهدوء وأن تشرق الشمسُ بنورها الإلهى على جميع شعبك، وأدعو الرب أن يهلك كل مَنْ عاداك وأن يمدّك الرب بالقوة الخارقة المرسلة من السماء والتى تحفظك سليما من كل عاديةٍ لأنك تحب مَن اسمه الحق حبا خالصا وتسلح نفسك ضد خصومه".

(١١)

بعد أن فرغ ألكسيوس من كل هذه الترتيبات[12] فى الغرب أخذ يعد العدة لمواجهة الخطر المباشر المتزايد الذى يهدده هو شخصيا من الشرق، ثم لازم الإقامة فى العاصمة فى هذه الأثناء يتدبر كل وسيلة ممكنة لصد الأعداء الذين يراهم أمام ناظريه ولا تخطئهم عيناه. فلقد قلت فى فصل سابق أنّ هؤلاء الترك الذين لا ربّ لهم كانوا على مرأى منه يعيشون فى منطقة "بروبونتيس" كما عسكر "سليمان" - الذى كانت له السيادة فى الشرق بأجمعه - فى ناحية "نيقية" وكانت مملكته تقع فى تلك المدينة التى يمكن أن نسميها "قصره" وكان كل إقليم "بيثينيا" عرضةً على الدوام للذعر بسبب رجال "سليمان" الذين يقومون بالنهب وهم على ظهور جيادهم حينا، ومشاةً حينا آخر حتى بلغوا القرية التى نسميها الآن "داماليس" الواقعة على البسفور وقد امتلأت أيديهم بالغنائم الكثيرة ثم راحوا يحاولون الوثوب على هذا البحر نفسه ورآهم البيزنطيون يعيثون فسادا فى القرى الساحلية وفى الأماكن المقدسة لا يخافون شيئا

أو شرا يحيق بهم فبَثَّ منظرهُم الفزعَ والجزعَ فى قلوب البيزنطيين الذين لم يعودوا يدرون ما يفعلون. وساوَرَ هذا الفزعُ ذاتهُ الإمبراطور فلم يعرف أى الطرق يسلك . وبعد أن استعرض كثيرا من الخطط التى لها متغيراتها وظروفها اصطفى منها أحسنها الذى يستطيع أن يضعه موضع التنفيذ، واختار رجالا ممن جمعهم على جناح السرعة من الرومان وبعض المجندين الذين قدموا أصلا من "كوما" وأركبهم السفن الصغيرة وجهزهم بالأسلحة الخفيفة والأقواس والدروع فقط. أما بقيتهم المدربون بعض الشىء على ما سوى ذلك من السلاح فقد أمَدَّهم بالخوذ والدروع والرماح وأمرهم أن يشقوا طريقهم سرا وتحت جنح الظلام الحالك إلى النواحى البعيدة عن الشاطئ حتى إذا ما أيقنوا تماما أن أعداءهم الترك لا يزيدون عنهم كثيرا قفزوا من سفنهم وهاجموهم ثمَّ رجعوا إلى مراكبهم بعد أن يكونوا قد أنجزوا ما كُلفوا به وعادوا إلى قواعدهم سالمين . ولما كان ألكسيوس يعرف ما عليه هؤلاء الرجال من الجهل التام بأمور القتال فقد أوصاهم بالتنبيه على نوتيَّة سفنهم ألا يحدثوا أى صوت بمجاديفهم ، كما حذرهم من تعرض المتبربرين لهم فى الكهوف الصخرية . وبعد تكرار هذه التنبيهات عدة أيام شرع الترك فى الانسحاب من ناحية الساحل شيئا فشيئا، فلما رأى الإمبراطور ما يحدث أمَر رجاله أنْ يقوموا بالاستيلاء على القرى والمبانى التى كان العدو قد احتلها من قبل وأن يقيموا هم بها أثناء الليل، ففعلوا ما أمِروا به حتى إذا أوشكت الشمس على البزوغ وخرج الآخرون لجمع الكلأ أو قضاء ضرورة باغتوهم على حين غفلة منهم ، فإن أصابوا – ولو قدرا قليلا من النجاح – قنعوا بما أصابوا وعادوا سراعا إلى قواعدهم الآمنة ، لأنهم إنْ خاطروا سعيا وراء مزيد من النجاح أتاحوا الفرصة للترك لاستعادة بَأسِهم. وانسحب المتبربرون ثانيةً مما شجع ألكسيوس، وحينئذ استجاب الذين ظلوا مترجلين حتى الآن وأطاعوا الأمر الواقع فامتطوا ظهور جيادهم واستعملوا الرماح وشنوا على العدو هجوما عنيفا وذلك فى وَضَح النهار وليس تحت جنح الظلام، وأصبح أمراء العشرات الآن أمراءَ خمسين، وبدلا من أن يحاربوا ليلا مترجلين والخوفُ ملء قلوبهم أضحوا يشنُّون غاراتهم والشمس بازغة، واشتبكوا فى معارك رائعة وكلهم ثقة بأنفسهم، وهكذا سارت الأمور عندهم على خير ما تكون ، بينما ساءت أحوال الترك إذْ أخذت هيبةُ الروم الضائعة

تعود بالتدريج وتتألّق حتى صارت جَليّةً للعيان غير خافية على أحد ، فلم يقف نشاط كومنين على طرد الأعداء من البسفور والأماكن الواقعة على سيف البحر بل تجاوز ذلك إلى طردهم من نواحى "بيثينيا" ومن تخوم "نيقوميديا" أيضا مما حمل السلطان رغم أنفه على الإلحاح فى طلب الهدنة، فاستجاب له الإمبراطور ألكسيوس عن طيب خاطر بسبب ما أكّدته له المصادر الموثوق بها عن أطماع "روبرت جيسكارد" التى لا حد لها، وعرف أنْ قد حشد له الجيوشَ الكثيفةَ، وكان روبرت قد أسرع إلى الساحل اللمباردى ، وإذا لم يكن هرقل مستطيعا أن يحارب خصمين معا فى وقت واحد كما يقول المثل فما أصدق هذا القول عن قائد استولى منذ قليل على إمبراطورية متهرئة عملت فيها عوامل التفكك والانحلال منذ زمن بعيد وأصبحت الآن فى الرمق الأخير من حياتها وتوشك أن تلفظ أنفاسها، فقد تضاءل حجم جيشها ونضبت خزانتها وتبدّدت كل ثروتها فيما لا يجدى ولا ينفع، وأصبحت اليوم تكابد الإرهاق. ولقد اصطنع ألكسيوس كل الوسائل حتى تمكّن من إخراج الترك من "داماليس" وممّا جاورها من المناطق الساحلية، ثم استمالهم إليه بالصِّلاتِ التى وصلهم بها وأرغمهم على قبول اتفاقية سلام أصبح بمقتضاها نهرُ "دراكون" هو الحد الفاصل بينهما، واشترط على الترك ألا يعبروه بأى حال من الأحوال ولا تحت أى ظرف من الظروف، وألاّ يهاجموا حدود "بيثينيا".

(١٢)

بهذه الوسيلة عمَّ السلامُ القسمَ الشرقىَّ، غير أن وصول "بالايولوجس" إلى "نورازو" سرعان ما تلاه ارتدادُ "مونوماخاتوس" إلى "بودينوس" مما حمل "بالايولوجس" على إرسال أحد السُّعاة على جناح السرعة إلى الإمبراطور يحمل إليه هذا النبأ . والحقّ أنّ "مونوماخاتوس" خاف بسبب ما سبق منه فى حق ألكسيوس حين رفض الاستماع إلى الرسول الذى أوفده إليه ألكسيوس يسأله مساعدته بالمال، فردَّه خائبا، وكان ذلك قبل أنْ تصبح الثورةُ السريةُ أمرا ملموسا وواضحا للعيان. والواقع أنه لم يكن فى نية الإمبراطور اتخاذ أى رد فعل تجاهه

غير خلعه من وظيفته للسبب الذى ذكرناه من قبل. أمّا الآن وقد سمع بما جرى فقد بعث إليه بمرسوم إمبراطورى يؤكد له الأمان التام، فجاء "مونوماخاتوس" والمرسوم في يده.

كان روبرت فى هذه الآونة قد وصل إلى "أترانتو" وبعد أن تنازل إلى ابنه "روجر" عن كامل سلطته بما فى ذلك حكومة "لمباردیا" ذاتها تابع سيره من هناك إلى ميناء "برنديزى" حيث جاءته الأخبار بأنّ بالايولوجس قد وصل إلى "دورازو" فبادر فى التوّ إلى تشييد أبراج خشبية فى السفن الكبيرة وغطاها بالجلد ليقيها عن العيون، وزُوِّدَت السفنُ على وجه السرعة بكل ما يلزمها لإتمام فرْض الحصار، كذلك وضعت الجياد والفرسان المسلحون على "الدرامين" حتى إذا تم ذلك الأمر وجمع كل الأزواد بسرعة من شتى النواحى اشتدت لهفة "روبرت جيسكارد" للعبور بل إنه أراده فى لحظته، وكانت خطته تتلخص فى الإحداق بدورازو لحظة وصوله إليها بالمعدات الحربية برا بحرا ، وكان يحمله على ذلك أمران: أولهما هو الفزع الذى بثه فى قلوب أهلها، وثانيهما عزله إياهم عزلا تاما ينتهى به إلى الاستيلاء على المدينة عند أول هجمة يشنها عليها.

ولقد ملأتْ أخبار هذه الاستعدادات نفوس أهل الجزر بالخوف الشديد ، كما تسرب اليأس إلى قلوب من يعيشون على ساحل "دورازو". فلما اطمأن خاطره إلى إنجاز كل شيء وفق هواه وعلى أكمل وجه أمر بفك مراسى السفن وأخذت مراكب الأسطول من الدرامين والمواعين[١٣] والطرادات فى الإبحار على أتم نظام وجرت الأمور على ما يشتهيه فأبحر جاعلا "أفلونا" على الجانب الآخر ، وظلّ فى إبحاره مصاقبا الساحلَ حتى بلغ "بوترينتو". حينئذ انضم إليه ابْنُه بوهيموند الذى كان قد أبحر قبله واستولى على "أفلونا" دون عناء، وبذلك أصبح الجيش قسمين أحدهما بقيادة روبرت ذاته ومهمته أن يشق طريقه إلى "دورازو" التى جعلها منذ البداية هدفه، وأما القسم الآخر فكان بقيادة "بوهيموند" ومهمته الزحفُ على المدينة من ناحية البر.

كان "روبرت جيسكارد" قد اجتاز "كورفو" واتّخذ طريقه إلى "دورازو" حتى إذا بلغ نتوءا في البحر يسمونه "جلوسا" Glossa باغتته على غير توقع منه عاصفة هوجاء وراح الثلج يتساقط كسفا وهبّت الرياح من الجبال في عنف شديد ومضت تضرب البحر فتصطخب مياهه وتعلو أمواجه هادرة ، وامتلأ الأفق بدويٍ كبير بسبب الأمواج العالية المزبدة فتحطمت المجاديف وتساقطت من أيدي أصحابها وهم يضربون بها وجه الماء ومزقت العواصف الأشرعة، وتكسرت العوارض الخشبية، وتهاوت على ظهور المراكب، وابتلع البحر في جوفه كثيرا من السفن بمن عليها من البحّارة وبكل ما على سطحها من حمولات. ومع ذلك فقد كان الوقت صيفا وقد جاوزت الشمس مدار السرطان وأصبحت في طريقها إلى برج الأسد، وكان الفصل إذْ ذاك هو الفصل الذي يرجع كوكب الشعرى فيه، فاضطرب الجميع وارتاعوا وتملكتهم الحيرة وهم لا يدرون ما يفعلون وقد أصبحوا غير قادرين على مواجهة تلك الأخطار التي تهددهم.

وبينما هم فيما هم فيه من ندب وعويل إذا بصَرخة تشقّ أجواز الفضاء وتلتمس من الرب أن ينزل عليهم شآبيب رحمته وتستعطفه أنْ يَمُنَّ عليهم فيروا الأرض، لكن لم تهدأ العاصفة كما لو كان الرب يأبَى إلا أنْ يصبُّ جام نقمته وغضبه على روبرت جزاء وفاقا لمعصيته الكبيرة وجبروته الطاغي وكأنَّ الرب كان يشير بذلك منذ البداية إلى سوء الخاتمة حين غرقت بعض السفن فابتلعها اليمّ بكل من عليها من الرجال، كما أن بعضها الآخر ارتطم بالصخور فتحطمت تلك السفن فتناثرت شظايا.

ومزّقت الأمطار الجلود المكسوّة بها السفن والأبراج التي تناثرت مساميرها وتَلِفَتْ من كثرة ما تساقط عليها من المياه التي أثقلتها فانهارت الأبراجُ الخشبية ولم يسلم سوى سفينة "روبرت" التي وإنْ صارت شبه محطمة إلا أنها نجت وإن كانت نجاتها بعد لأي ومشقة . وكان من الأمور التي لا يصدّقها العقل أن قُيِّضَت النجاة لها ولبضعة سفن أخرى فسلمت بمن عليها من البحارة وإن كانت الأمواج قد قذفت بجثث الكثيرين

إلى الرمال، كما تناثر عدد غير قليل من صرر النقود والحاجيات الأخرى التى كانت مع البحّارة من رجال أسطول "روبرت جيسكارد"، فقام الأحياءُ منهم بدفن من استطاعوا دفنه من جثث هَلْكَاهُم بعد الصلاة عليهم، ولكن لمَاّ لم يكن من اليسير دفنها كلها فقدْ تركوا ما عجزوا عن مواراته وخلّوه فى العراء فتصاعد النتن فأصاب القومَ منه شرٌ مستطير لم يستطيعوا احتماله. كما هلك الكثيرون ممن بقوا أحياء وكان هلاكهم جوعا فقد ضاع كل ما كان معهم من الزاد، ولم يكن الوقت بالوقت الذى تطيب فيه الزروع حتى تمتلئ الحقول والبساتين بالفاكهة.

كان ما حدث ذا معنى كبير عند أصحاب الرأى السديد وإنْ لم يكن "روبرت" واحدا منهم؛ فلم يرتدع بشىء مما جرى ولا كان له مزدجر بما وقع، ولم تتحرك ساكنة فى بدنه ولا جارحة فى نفسه البليدة الجامدة ، وما أحْسَبُ أنَّه كان حريصا على نجاة روحه وحفظها من الهلاك إلا ليتابع محاربة من أراد محاربتهم. ولم تكن الكارثة التى داهمته بمانعةٍ إياه بأى حال من الأحول من المضىِّ قُدُما لتحقيق غرضه معتمدا فى ذلك على النفر القليل الذين قيض الرب لهم الخلاص بفضله كما أنَّه لم يكن يأذن قط بلحظة يستجم فيها بحارته الذين حطَّمت الأمواجُ سفنهم، ولا يتيح بعضا من الوقت لعسكره الذين خلّفهم وراءه فى "برنديزى" كى يحضروا إليه هم ومن يتوقع قدومهم إليه من النواحى الأخرى مع أنه كان فى انتظار الفرسان والمشاة المزوّدين بالعتاد الثقيل وكذلك القوات خفيفة التسليح القادمين إليــه بَرا والذين كانوا قــد بدءوا مســيرتهم قَبْله بقليل.

فلما التأم شمل جميع قواته الوافدة إليه برا وبحرا احتل بهم سهل "الليريا" وكان الشخص اللاتينى الذى زوّده بهذه المعلومات من بين رجاله الذين فى صحبته - كما قال لى- كان مبعوثا مِنْ قِبَل أسقف "بارى" إلى روبرت وقد أكد لى هذا الرجل أنه لازمَ "روبرت جيسكارد" طوال هذه الحملة وأقام معه بعضا من الوقت فى سهل"الليريا"، كما ذكر لى أنهم أقاموا أكواخا داخل أسوار المدينة المحطمة التى كانت تُسمّى فى القديم باســم "إبيـدامـوس" وقـد عـاش نْ قـبل فى هذا الموضع ذاته "بيـرس" Pyrrhus ملك

إبيدوس [١٤] الذى انضم برجال "تارنتم" ضد الرومان وحارب حربا ضارية فى "أبوليا" وأعمل القتال الفظيع فى جميع سكانها ولم يسلم منهم أحد وخلت المدينة من سكانها[١٥] ، غير أنه جَرتْ فيما بعد -كما يقول اليونان وكما تشهد الآثار المنقوشة هناك- أن "أمفيون وزيتوس" Zethus ردّاها إلى حالها التى هى عليها اليوم وسرعان ما تغير اسمها إلى "دورازو".

وإذا كنت قد أسهبتُ فى الكلام عن هذا الموضع فَلْيَكُن ما قُلتُه عنه ختام كتابى الثالث هذا. أما الرابع فسيتناول ما حدث بعدئذ [١٦].

الحواشى

(١) فى إليزابيث" إيروس" Eiros بدلا من كيوبيد .

(٢) فى إليزابيث: " الملكة ".

(٣) المقصود بذلك الإمبراطورة أو الملكة " مارية "- أم قنسطنطين بن ميخائيل السابع.

(٤) جاءت فى نسخة إليزابيث العبارة التالية: " لقد قُلْتُ ما فيه الكفاية عن الملكة مارية " .

(٥) عرفتهم نسخة سوتير بأنهم الجند الفارانجيون Varangians . أما نسخة إليزابيث فقد اكتفت بأن قالت : " إلى جانب شرذمة قليلة من العسكر المتبربرين الذين اعتادوا حمل فئوسهم" .

(٦) وكانت تدعى " أنَّا" وهى ابنة أندرونيكوس ومارية البلغارية .

(٧) وردت بعد كلمة " دورازو" العبارة التالية فى التعريف بها فى نسخة إليزابيث : "إحدى المدن فى الليريا ".

(٨) فى إليزابيث بلاد الفرنجة .

(٩) تقصد المؤلفة بذلك هنرى الرابع فقد قالت نسخة سوتير "الملك الألمانى" ، وسمته نسخة إليزابيث ملك الامانيا . Alamania

(١٠) ورد اسمه فى نسخة إليزابيث هكذا Bulchardus .

(١١) وردت بدلا منها فى إليزابيث عبارة Balm of Mecca .

(١٢) فى الفقرتين ١١ ، ١٢ من نسخة إليزابيث اضطراب يجعلهما لا تتفقان على وجه الإجمال مع الوارد فى نسخة سوتير.

(١٣) أطلقْنا كلمة " الماعون" على السفن التى كان البنادقة يسمونها باسم " ماهون" وربما يقصد بها ما يعرف باسكنديا وهى مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلين والسلاح . أما الطرادات فنوع من السفن المألوفة فى البحر الأبيض المتوسط وهى مراكب حربية كبيرة لها أبواب خلفية تفتح وتقفل حسب الحاجة كما أنها مُعدَّة فى الغالب لحمل الخيول . انظر النخيلى ، المرجع السابق ص ٨٩ أ - ٩٢ ب ، ١٣٧ أ - ١٣٨ وحاشية رقم ٣١ .

(١٤) هو الملك " بيرس" الذى عاش فيما بين عامى ٣١٩ و ٢٧٢ ق.م وقد جرت بينه وبين الرومان حرب انتصر فيها عليهم فى معركة عرفت بموقعة Heracles سنة ٢٨٠ ق.م

(١٥) تقول نسخة سوتبر فى تعليقها على هذا الخبر أن هنا بعض الاضطراب إذْ لم ترد الإشارة عند أى أحد من المؤرخين إلى حدوث مثل هذا الخلو من السكان وإن كان ينسب إلى كل من أمفيون ، وزيوس من أبطال الأساطير الإغريقية بناء " طيبة".

(١٦) جاء ختام هذا الكتاب فى نسخة إليزابيث على النحو التالى:" لابد أن تكون هذه الكلمات القليلة كافية فى الحديث عن المدينة . وهنا أختم الكتاب الثالث وأشرع فى سرد أخبار روبرت" .

الكتاب الرابع

الحرب ضد النرمنديين

(١٠٨١-١٠٨٢)

فقرات الكتاب الرابع

١ – حصار "دورازو". إبراز ميخائيل للسكان الذين راحوا يسخرون منه.

٢ – ألكسيوس يطلب من البنادقة المساعدة. البنادقة يقبلون مدّ يد المساعدة له ولكن بشروط معينة. انتصار البنادقة بحرا.

٣ – عجز الإمدادات المرسلة إلى روبرت عن عبور الأدرياتيك وهزيمته بحرا مرة ثانية. المجاعة تعم جيش روبرت والوباء ينتشر بين جنده بسبب الحصار الذى فرضه البنادقة والأساطيل الرومانية عليه.

٤ – اشتداد حاجة أهل "دورازو" إلى النجدة. تحطيم برج روبرت الخشبى.

٥ – الإمبراطور يحشد جيشه خارج "دورازو" لكن بالايولوجس يعارض الاشتباك فى معركة كبيرة. إجماع "الكونتات" قاطبة على اختيار روبرت جيسكارد قائدا لهم، وحينذاك يقرر القيام بحملة واسعة النطاق.

٦ – هزيمة الرومان واستبسال ألكسيوس فى القتال، غير أنه يضطر إلى الارتداد.

٧ – العدو يطارد ألكسيوس ولكنه ينجو بفضل خفة حركة جواده العجيبة.

٨ – رغبة "أنا كومنينا" فى التزام الحياد حين الكتابة عن أبيها. تزايد غضب روبرت جيسكارد حين يسمع بخبر نجاة الإمبراطور ألكسيوس الذى يبذل كل ما فى وسعه من أجل سلامة أهل "دورازو".



(١)

عسكر روبرت على الأرض الأم يوم ١٧ يونيو(١٠٨١م) وكان معه من لا يحصيهم العد من الخيالة والمشاة الذين جمعهم من مختلف النواحي وأقامهم في بقعة واحدة، والواقع أن هذا الحشد كان في جوهره ومظهره العسكريَّيْن يبعث الرهبةَ ويبثُّ الفزع في القلوب، فقد غطى البحرَ أسطولُ العدو المؤلف من شتى أنواع السفن التى اعتلاها الجند الذين تمرّسوا بالحرب زمنا طويلا، فلا عجب إن استولى الخوفُ الكبير على سكان "دورازو" الذين رأوا أنفسهم وقد أحيط بهم من كل جانب، أعنى برا وبحرا، وأصبحوا يرون رأى العين قوات روبرت الجديدة التي جاوزت كثافتها كلَّ حد، لكن "جورج بالايولوجس" كان رجلا شجاعا قد أتقن فنون القيادة، إذْ حارب في العديد من ساحات القتال فى الشرق وخرج منها كلها ظافرا منصورا، لذلك أخذ الآن في التقدم بنفس مطمئنةٍ لتقوية المدينة، فأقام الاستحكامات وفْق الخطة التى أشار عليه بها الإمبراطور، وجهَّز جميعَ الأسوار بكل ما يلزمها من آلات الرمى بالمنجنيق ممَّا شَدَّ من عزم العسكر الذين كانت همَّتُهم قد فترت وتراخت، كما وضع الكشافةَ فى جميع الحصون، ولم يَدَعْ ساعة من ليل أو نهار تمرّ إلاَّ وتفقَّد تلك الأماكن حاثًّا الحراس على مضاعفة اليقظة وزيادة الانتباه، ولم يقصر فى الوقت ذاته فى موافاة الإمبراطور فى خطاباته بوصف موقف "روبرت جيسكارد" العدوانى ووجوده على مقربةٍ من "دورازو" وما أعدّه لفرض الحصار خارج المدينة ، وتشييده برجا خشبيا ضخما جاوز فى ارتفاعه جميع الأسوار ثم غطاه بالجلد المدبوغ لحمياته، ونصب عليه آلات الرمى بالحجارة حتى أحيط بمنطقة الأسوار كلها . وأخذت الإمداداتُ تتدفق على روبرت من كل النواحي، فى حين أن المدن الواقعة فى نطاق هذه الناحية كانت عرضة لهجماتٍ مباغتةٍ تأتيها على غير انتظار ، ناهيك عن تزايد أعداد مخيمات العسكر يوما بعد يوم . وقد أدّى ذلك كله إلى بثّ الفزع فى نفوس سكان "دورازو"؛ لأنهم عرفوا ما وراء ذلك من هدف حقيقى يسعى إليه الدوق "روبرت جيسكارد" ؛ إذ لم يكن هدفه إلاّ نهب المدينة

الرومانية والبلاد وجمْع أكبر قدر مستطاع من الغنيمة يصادفها ثم يعود الى " ابوليا".
وليس هذا وَحْده هو السبب وراء احتلاله سهل الليريا ، بل كانت عيناه على الإمبراطورية ذاتها ، وما كان شروعه فى حصار "دورازو" سوى الجولة الأولى من هذه الحرب، ومع ذلك فقد طلب "بالايولوجس" من الأهالى إنْ عاد روبرت يطلّ عليهم من فوق الأسوار أنْ يسألوه عن الداعى له إلى القدوم ، فلما سألوه رد عليهم قائلا: "ما جئت إلاّ لأردَّ نسيبى ميخائيل إلى مكانه السابق الجدير به، فهو الرجل الذى طُرد من إمبراطوريته. وما جاءتْ بى إلى هنا إلاّ رغبتى فى الثأر للإهانات التى نزلت به، وقصارى القول أنى ما قدمت إلى هنا إلاّ لأنتقم له".

فَرَدَّ عليه رهطُ "بالايولوجس" قائلين: "لو أننا رأينا ميخائيلك هذا وأيقنَّا أنهّ هو "ميخائيل" حقا لبادرنا من غير تردد إلى تقديم فروض طاعتنا إليه وأسلمناه المدينة".

ما كاد روبرت جيسكارد يسمع هذا الرد حتى أمر فى الحال بأن يلبس ميخائيل أبهى ثيابه ويخرج إلى الأهالى ليعرفوه، ثم طلع عليهم فى أبهة عظيمة يحوطه الحرس وتعزف أمامه الموسيقى، وتضرب بين يديه الكوسات ، فما كاد الناس يطالعونه حتى انهالوا عليه سبا وشتما من فوق الأسوار، وتساقطت عليه الإهانات وأنكروه؛ إذ كان الذى يَرَوْنه رجلا لا يعرفونه، فلم يعبأ روبرت جيسكارد بما جرى منهم بل انصرف تماما إلى ما فى يده من العمل الذى جاء من أجله.

بينما كان الجانبان فى هذا الحوار إذا بنفر من الرجال ينْسَلّون سراعا ويخرجون لقتال اللاتين وكان قتالهم إياهم عنيفا كبَّدُوهم فيه بعض الخسائر ثم عادوا إلى المدينة.

ولقد اختلفت آراء الناس اختلافا بيِّنا حول شخصية المصاحب "لروبرت جيسكارد" ، فأعلن البعض أنه هو ساقى الإمبراطور ميخائيل وحامل كأس شرابه ، فى حين أكّد آخرون أنه هو الإمبراطور ذاته وأنه هو الذى من أجله أشعل روبرت هذه الحرب الضروس. وقال غير هؤلاء وهؤلاء إنهم واثقون تمام الثقة بأن المسألة كلها من تدبير "روبرت"، وأن الراهب لم يأت إليه من تلقاء ذاته.

لقد تمكن "روبرت" - وهو الرجل الوضيعُ المجهول والفقيرُ المعدم- أنْ يصبح ببطشه وتدبيره سيدا وحاكما مطلقا على جميع مدن "الليريا" وأراضيها.

ولقد حدث قبل قليل من تفاقم أطماعه - التى هى انعكاس طبيعى للجشع - أن قرّر أن يجرب حظه فى حملة يشنها على المدن "الإلّيرية" فإن كتب له النجاح زاد فى عملياته الحربية ، ذلك أن المرء فى العادة لا يكاد يجمع فى يده مقاليد السلطة حتى يزداد نهمه فيصبح شأنهُ شأن الغرغرينا لا تكاد تسرى فى عضو من أعضاء الجسم حتى تستشرى إلى أن تملأ الجسد كله.

(٢)

وتواردت كتب "بالايولوجس" على الإمبراطور حاملةً إليه هذه الأنباء وأعنى بها ركوب "روبرت" البحر فى شهر يونيو. وعلى الرغم من مصادفته لعاصفة هوجاء داهمته وحطمت بعض أسطوله وكانت آيةً على غضب الرب عليه فإنه لم يزدجر ولم يَكُفْ عن التمادى فى غيه إذ استولى على "أفلونا" التى دانت له فى أول هجوم شنَّه عليها برجاله، ثم أقبلت عليه جموع لا تُحْصَى من شتى النواحى كأنَّها ثلج الشتاء يتساقط من غير انقطاع ، كما انضم إليه العوام والجهلة والسذج اعتقادا منهم بأن "ميخائيل" المزيف هو الإمبراطور (ميخائيل دوكاس) ذاته.

أدرك ألكسيوس ضخامة المهمة التى أمامه ، وأدركه الخوف إذْ عرف أن ما لديه من القوات لا يكافئ ضخامة القوات اللاتينية ، ومن ثم رأى الضرورة تحتم عليه الاستنجاد بالترك من الشرق فاستدعاهم وشرح لسلطانهم ما يدور بخلده من الأفكار حتى يكون على بيِّنة من الواقع ، كما استعان من ناحيةٍ أخرى بالبنادقة لنجدته، مستميلا إياهم إليه بالرشاوى والعهود يقطعها لهم على نفسه وتعهّد بدفع المال لهم عاجلا إن هُمْ بادروا إلى تجهيز سفنهم وأسرعوا بالإبحار إلى "دورازو" للدفاع عنها ومقاتلة أسطول روبرت جيسكارد بكل ضراوة . ورأى البنادقة أنهم إن استجابوا لطلب ألكسيوس وَتمَّ أحدُ الأمرين : النصر يؤتيهم إياه الرب، أو تلم بهم الهزيمة، فسوف

يعطيهم الإمبراطور كل ما وعدهم به، ورأوا أن سوف تؤكَّد جميع هذه الرغبات وتدعَّم بالمراسيم الممهورة بالخاتم الذهبى ما لم يكنْ فيها مضرة بمصالح الإمبراطورية الرومانية.

استمع البنادقة إلى كل ما قيل لهم وصرّحوا بمطالبهم على لسان سفرائهم، وتسلموا ما يؤكد تنفيذها ، وإذْ ذاك بادروا بإعداد أسطول جهزوه بجميع أنواع السفن وأبحروا فى نظام تام نحو "دورازو"، وكانت رحلةً طويلة أرسوا بعدها قرب مزار السيدة الطاهرة فى موضع يسمونه "باليا" Pallia ويقع على بعد ثمانى عشرة مرحلة من معسكر روبرت المنصوب خارج أسوار "دورازو" فلما رأوا أسطول المتبربرين على الساحل الآخر من المدينة مزوّدا بآلات القتال ومجهزا بكل عتاد الحرب اضطربت نفوسهم وخافوا أن يشتبكوا معه فى قِتال، فلما سمع "روبرت" خبر وصول البنادقة بعث بولده "بوهيموند" على رأس قوة حربية وأمَرَه بالمناداة بميخائيل إمبراطورا وبالهتاف له دون غيره فأجّلوا الاعتراف إلى اليوم التالى. ولما لم يكن فى استطاعتهم الاقترابُ من الشاطئ لشدة عصف الرياح فقد تريّثوا حتى إذا بسط الظلام طنبه على الكون ربطوا أكبر الشّوانى بعضها إلى بعض بالسلاسل وجعلوا منها ما يمكن أن يقال له "الميناء البحرى"، ثم صنعوا أبراجا خشبية موازية لصواريهم وسحبوها مستعملين حبال زوارقهم الصغيرة، واعتلى الرجال المسلحون هذه الزوارق التى ملأوها بقطع سميكة من الخشب لا يزيد طول الواحدة منها على ذراع، وثبتوا بها مسامير حديدية طويلة ، فلما فرغوا من ذلك كله وقفوا ينتظرون مجيء أسطول الفرنجة، فلما طلع النهار جاء بوهيموند طالبا إليهم الهتاف لإمبراطوره ميخائيل (المزعوم) ولوالده "روبرت جيسكارد" ولكنهم راحوا يسخرون من لحيته سخرية لم يطقها فهاجمهم بنفسه فى ضراوة مستهدفا أكبر سفنهم وتبعه من معه فلما رأى البنادقة وحشية هجوم بوهيموند قذفوا عاليا بواحدة من تلك القطع الخشبية الضخمة فوقعت على السفينة التى تشاء الصدفة أن يكون بوهيموند على ظهرها فثقبتها فامتلأت بمياه البحر فأصبح من فيها مهدَّدين بالغرق ففرّ بعضهم من المركب لكن تلقفهم الخطر الداهم إذ ابتلعهم الموج ، كما كان القتل نصيب من استمروا فى محاربة البنادقة، فلما رأى بوهيموند الخطر محدقا به خاطر بالوثوب الى سفينة أخرى من سفن أسطوله فقُيِّضَتْ له النجاة،

فعاودت الحماسةُ البنادقةَ وضاعفوا من هجومهم إذْ زادت ثقتهم بأنفسهم وأنزلوا ضربة قاصمة بخصمهم وشرعوا يطاردونه حتَّى بلغوا معسكر "روبرت جيسكارد" فوثبوا من فوق ظهور مراكبهم إلى اليابسة والتحموا من جديد بالنرمنديين، فلما رأى "بالايولوجس" ما يجرى هنا انفلت من المدينة وانضم إلى البنادقة وشاركهم قتالهم الذى استمرت حدته حتى بلغ الاستحْكامات التى كان روبرت قد أقامها وطاردوا أصحابها ومن فيها وأعملوا السيف فى الكثيرين منهم، ثمَّ عاد البنادقة إلى سفنهم وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ، على حين رجع بالايولوجس إلى قلعة "دورازو". فلما استجم المنتصرون بضعة أيام أرسلوا الرسل إلى الإمبراطور يفصلون له ما جرى فلا مشاحة أنْ رحَّب ألكسيوس بهم ترحيبًا بالغا وأحْسنَ لقاءهم ثم أذن لهم بالانصراف والعودة من حيث جاءوا بعد أن أرفدهم بالمال الجزيل.

(٣)

على أن طبيعة روبرت جيسكارد العدوانية أملت عليه ضرورة الاستمرار فى الحرب، لكن اعترضت طريقه بعضُ الصِّعاب التى كان منها دخول الشتاء مما لم يمكنه من تعمير شوانيه وإنْزالها إلى البحر للعمل ، كما أنَّ الأساطيل الرومانية والسفن البندقية التى كانت لا تكف عن ذَرْع المضايق وحراستها حالت دون وصول الإمدادات والميرة إليه من " لمبارديا " ، لكن ما إنْ حَلَّ الربيع وسكنت عواصف الشتاء حتى بدأ البنادقة أوَّلَ تحركاتهم فرفعوا المراسى وشرعوا فى الهجوم يُساندهم من الخلف موريس Maurice بالأسطول الرومى وترتَّب على ذلك أنْ شَبَّ القتال العنيف الذى دارت فيه الدائرة للمرة الثانية على رجال روبرت جيسكارد مما أقْنعَه بوجوب سحب جميع سفنه إلى الساحل ، وحينذاك أدرك أنَّ ما صادفه من الحظ العاثر وما أصابه من الهزيمة فى البحر لابد أن يشجِّع أهل الجزر وسكان الأماكن الصغيرة المبعثرة على طول الساحل للبلاد الأصلية وسواهم ممن يدينون بالطاعة له على شجب ما يفرضه عليهم من الالتزامات المرهقة والضرائب الثقيلة ، وأصبح من الواضح الجلىّ أنْ لابد له

من أن يكون دقيقا كل الدقة فى ترتيب أمر الحرب التى لا مفر من نشوبها من جديد برا وبحرا على السواء .

لكن شدّة هبوب الرياح العاتية فى هذا الوقت من السنة حالت بين روبرت جيسكارد وتنفيذ خططه مخافة أن تتحطم سفنه ، ومن ثم اضطر للتريث مدة شهرين قرب ميناء " إيريكو" Elrico إلاّ أنّ ذلك لم يقف حائلاً بينه وبين الاستعداد فراح يعبئ قواته للقتال فى البر والبحر معا .

وبذلت الأساطيل البندقية والرومانية غاية جهدها فى حراسة الممرات المائية ، حتى إذا تحسنت الأحوال الجوية بعض الشىء وصارت كافيةً لتشجيع البحارة على الحركة بذلوا كل ما فى وسعهم لمنع السفن التى كانت قادمةً من إيطاليا .

أمّا رجال روبرت المعسكرون إلى جوار نهر " جليكس " Gllycis فقدْ صَادفوا مشقة كبرى فى جلب الأزْوِدة الضرورية من الأرض الرئيسية ، وكانوا قد تركوا معسكراتهم وخرجوا فى التماس الكلأ وغير ذلك من ضرورات الحياة للإنسان والحيوان ، لكن حال أهل دورازو بينهم وبين ما يرومونه مما أدّى إلى انتشار المجاعة فى صفوفهم . يضاف إلى ذلك أنهم وجدوا مشقة أخرى تتمثل فى أنهم لم يألفوا هذا المناخ مما ضايقهم أشد الضيق وسبَّب لهم إزعاجا وتعبا كبيرين حتى ليقال إنه هلك منهم على مدى ثلاثة أشهر ما يقرب من عشرة آلاف رجل .

وهاجم المرضُ فرسانَ روبرت، فأوْدى بالكثيرين منهم ، وعملت المجاعة عملها هى الأخرى حتى لقد كانت عدة من هلك بالمرض والجوع خمسمائة من الفرسان والمشاة ومن النخبة الممتازة من المحاربين الممتازين . أمّا من قضوا نحبهم من صغار الفرسان فيعجز العد عن حَصْرهم .

كانت سفن روبرت قد تم سَحبها – كما قلت – إلى الشاطئ بجوار نهر "جليكس"، ومع أن الجو أخذ فى التحسن والميل إلى الدفء وتوقفت الأمطار عن الهطول إثر انصرام فصل الشتاء ودخول الربيع فإن انخفاض منسوب المياه وإمساك القنوات الجبلية عن فيضانها الطبيعى أدّى إلى اضطراب موقف روبرت جيسكارد ، فلم تعد

سفنه قادرةً على الإبحار ، لكنه لما كان رجلاً شديد الذكاء حاذقا متفننا فإنّ هذه المضايقات لم تَحُلْ بينه وبين القيام بتكديس أكوام من الموانع على جانبى النهر ، وشدّها بعضها إلى بعض شدا محكما بحبال من لحاء شجر الصفصاف ، كما أمر أن تُجتَثَ أشجار عالية الارتفاع من جذورها وجَعَلها أكواما وراء أكوام وغطى ذلك كله بالرمل حتى يجعل تدفق المياه يأخذ مسارا واحدا ويصب فى مجرى أمين وفى قناة صنعتها هذه الركائز ، فنجم عن ذلك أن تكوّنت البرك شيئا فشيئا ، وملأت المياه المجرى الصناعى ، وارتفعت فيه ارتفاعا كان كافيا للسفن الراسية على البر أنْ تنتقل إلى المجرى الجديد وأن تطفو على سطحه حين يتوفر الماء ومن ثم يمكن دفعها بسهولة إلى البحر.

(٤)

حين سمع الإمبراطور بما فعله روبرت جيسكارد بادر فى الحال فكتب إلى "باكوريانوس " Pacurianus يشرح له مطامع هذا الرجل التى لا حد لها ، ويذكر له وقوع " أفلونا " فى يده وكيف أنه لم يكترث قط بالضربات التى نزلت به فى البر والبحر على السواء ، ولا بالهزيمة النكراء التى لحقته فى مستهل حملته . وكان مما كتبه الإمبراطور إلى " باكوريانوس " أنه لا ينبغى له التريث بأى حال من الأحوال ، بل عليه أن ينهض فى لحظته فيجمع عسكره ويبادر بالانضمام إليه بأسرع ما تمكنه المبادرة ، كما أسرع ألكسيوس فغادر القسطنطينية وكان ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٠٨١م بعد أنْ خَلّف وراءه أخاه إسحاق فى العاصمة للمحافظة على النظام وللقضاء على دعايات العدو وما يبثّه فى العادة من الأخبار السيئة ، كما عَهِد إليه أيضًا بحراسة القصر والعاصمة ووكل إليه فى الوقت نفسه تهدئةَ خواطر النسوة الجازعات .

أمّا فيما يتعلق بأمّه فيخيل إلىّ أنها لم تكن فى حاجة لأية مساعدة؛ لأنها كانت فى رأيى أصلب الجميع عودا ، إلى جانب ما توفّر لها من المهارة فى الإدارة وتصريف الأمور .

ما كاد باكوريانوس يفرغ من مطالعة الكتاب حتى عيَّن " نكولا براناس " Branas مساعدا للقائد ، وكان " براناس " هذا رجلاً شجاعا وذا خبرة هائلة بالحرب ، كما أمره باكوريانوس بمن تحت يده من المشاة المسلَّحين بالأسلحة الثقيلة ونبلاء "أورسكاس" Orskas بالرحيل من " أدرنة " حاثا الخطى للقاء الإمبراطور الذى كان قد أعدَّ جميع من معه من القوات الراكبة وصفَّهُم للقتال ، وانتقى خير قواده من الضباط وأمرهم بالزحف بقدر ما تسمح به الأرض الصخرية. وبذلك عرف كل رجل الترتيب العام للقوات وأدرك كل واحد أين يكون موضعه فى الصف حتى لا يتسرب الهلع إلى قلبه إذا حانت ساعة القتال ، وحتى لا يحاول تغيير مكانه تحت أى ظرف من الظروف. وألقيت قيادة فرقة القوات الراكبة إلى قسطنطين " أوپاس " Opas . كما عهد بالمقدونيين إلى "أنتيوكس" المقدونى، ونيط أمر "التساليين" إلى" إسكندر كاباسيلاس" .

أما " تاتيكيوس " الذى كان حينئذ رئيس حرس القصر فقد قاد التركَ القادمين من إقليم "أخريدا " Achrida . وكان تاتيكيوس هذا محاربا مقداما لا يهاب القتال أبدا ، وقد خرج من أسرةٍ لا تنتمى إلى طبقة الأحرار إذ كان أبوه فى الواقع رجلاً شرقيا سقط فى يد جدى لأبى " جون كومنينوس " فى إحدى غاراته التى قام بها لطلب المعونة .

أما قيادة " المانويين " الذين بلغت أعدادهم ألفين وثمانمائة رجل فكانت بيد زانتاس Xantas وكوليون الزنديقيَّيْن ، ولقد كان جميع هؤلاء الرجال من المحاربين الأفذاذ وكانوا على أتمّ أهبة لاغتنام الفرصة للفتك بأعدائهم . وأزيد على ذلك أنهم كانوا أشداء الشكيمة ، وأقوياء المراس ، ليس فيهم ما يعيبهم أو يشينهم .

أما عسكر أهل بيت الإمبراطور الذين يسمون عادة الـ Vestianite وكذلك كتائب الفرنجة فكانوا بقيادة " بانوكوميتوس " Panocmites وقسطنطين المنعوت بـ " الهمبرتوبولى " نسبةً إلى مهبط رأسه .

ولما تم ترتيب القوات خرج ألكسيوس بجنده كافة لقتال روبرت ، فصادف فى الطريق رجلاً قادما من منطقة " نُورازو " فتحدَّث إليه فاستطاع أن يرسم لنفسه من ردوده صورةً أكثر وضوحا عمّا كان يجرى هناك ، ومؤدَّاه أنّ روبرت جيسكارد نقل

جميع آلات الحصار اللازمة ووضعها قرب الأسوار ، وأن " بالايولوجس " لم يكفّ ليلاً ولا نهارا عن مقاومة قوات "جيسكارد " وبذل كل مُحاولاته لإحباط خططه ، ولكنه لم يفلح فى مسعاه ، فلما أعياه الجهدُ اضطر إلى فتح الأبواب والخروج حيث اشتبك مع العدو فى معركة أرادها أنْ تكون فاصلةً فعاد منها مثخنا بالجراح الشديدة التى أصابته فى أجزاء كثيرة من جسده ، وكان أقساها عليه نَبْل أصابه فى صدغه فحاول إخراجه قسرا فلم يفلح فاستدعى أخصائيا قطع نهايته ، أعنى من حيث تتصل الريشة بالسهم الذى ظل باقيا فى الجرح ، لكن ذلك لم يمنع بالايولوجس من أن يشد الرباط على رأسه شدا وثيقا ، وأسرع فألقى بنفسه ثانية على الأعداء وظلَّ يحاربهم حتى ساعةً متأخرة من الليل دون أن يتخاذل أو يتسرب إليه الخوف ، فلما سمع الإمبراطور بهذا الخبر أدرك حاجة بالايولوجس الملحّة إلى المساعدة ، ومن ثمّ أسرع فى زحفه حتى إذا بلغ سالونيكا توفر عنده المزيد من الأخبار المفصلة عن حقيقة وضعِ روبرت ومدى استعداده للقتال، وما يبذله من محاولاتٍ لتقوية معنويات عسكره ، فراح من جانبه يجمع كميات وفيرة من الخشب فى سهل " دورازو " وضربَ معسكره على مسافة رمية سهم من السور ، كما وضع كثيرا من المقاتلين فى الجبال والوديان والمنحدرات ، وجاءته الأخبار من مصادر مختلفة عما يبذله "روبرت " من الاستعدادات القتالية المحكمة وأنه كان قد رتّب أمره على أن يضرم النار فى البرج الخشبى الذى أقامه " روبرت جيسكارد " ثم راح يرميه بالمنجنيق والنفط والقار وقطع صغيرة من الخشب الجاف ، وبينما كان واقفا فى انتظار مهاجمة العدو له (وهو الهجوم الذى كان يتوقع حدوثه فى اليوم التالى) شَيّد من جانبه فى داخل المدينة برجا خشبيا يواجه البرج الآخر تماما، ولم تستغرق إقامته إياه سوى فترة قصيرة أصبح بعدها مهيأ للقتال . والواقع أنه ظل طول ليلته هذه يجربه فوضع فى أعلاه شُعلةً قَصَد أنْ يقذفها على أبواب برج " روبرت " حين يسند " روبرت" برجه إلى السور ، ثم مضى يختبر ما عمله ليعرف ما إذا كان فى الاستطاعة تحريكه بسهولة ويُسْر ليسقط مباشرةً أمام أبواب العدو فيمنعها من أن تفتح بالطريقة المألوفة . فلما أيقن سهولة قذف هذه الكتلة الملتهبة وتأكّد من نجاحها فى إنجاز ما يهدف إليه إنجازا مُرضيا اطمأن باله إلى أنه لم يعد هناك ما يقلقه ويزعج خاطره بشأن المعركة القادمة .

ثم جاء الغد فأمر " جيسكارد " جميع رجاله بامتشاق السيوف ، وفرّق السلاح فيما يقرب من خمسمائة رجلٍ من المشاة والفرسان وأدْخَلَهم البرج ودفعَه إلى الأمام حتى إذا صار أقرب ما يكون إلى السور أسرع الذين بداخل البرج إلى فتح الباب الموجود فى أعلاه ليتخذوه جسرا متحركا يدخلون عبره إلى القلعة ولكن " بالايولوجوس " عمد فى هذه اللحظة ذاتها إلى قَذْف ما عنده من الكتل الخشبية الضخمة بواسطة آلاته المعدة مِن قَبْل التى استعان فيها بكثير من الرجال الشجعان، فاستحال فتح الباب فأفسد بذلك على روبرت خطته ، وأعقب هذا صَبٌّ وابلٍ موصول من النشاب أصاب الذين كانوا بأعلى البرج من " الكلت "إصابات لم يطيقوا احتمالها فمضوا يتلمسون شيئا يقيهم هذه النشاب ، وحينذاك أصدر " روبرت جيسكارد " أوامره بإشعال النيران فى البرج فأشعلوها قبل أن يفرغ من كلامه إليهم، وأخذ " الكلت " الذين فى أعلى البرج يلقون بأنفسهم من فوقه ، فأما مَن كانوا تحتهم فقد فتحوا الباب القائم أسفل البرج وفرّوا هاربين بحياتهم ، فما كاد " بالايولوجس " يرى هذا المنظر حتى قاد بعض الجند من الباب الخلفى وهُمْ فى كامل لباسهم وعُدّتهم الحربية ، كما قاد طائفةً من حَمَلَة الفئوس وعهد إليهم بتدمير البرج . وحالفه التوفيق فى هذا العمل أيضًا لأن اشتعال النار فى أعلى البرج وتحطيم أجزائه الدنيا بآلات قَطْعِ الحجارة أدَّيا إلى تدميره تدميرا تاما .

(٥)

وتقول الأخبار إن " روبرت " بادر إلى تشييد برج آخر على نمط سابقه وقد أقامه تجاه المدينة وجعله على أتَمِّ الاستعداد للعمل ، وحينئذ أدرك ألكسيوس مدى حاجة المحاصرين فى " دورازو " إلى نجدةٍ عاجلة ، فنادى فى عسكره ورتبهم وشرع فى الزحف على " دورازو " التى ما كاد يبلغها ويضع جنده فى معسكرٍ أقامه على شاطئ نهر " خرزانس " Charzanis حتى أسرع فأرسل رُسلاً من لدنه إلى روبرت يسألونه عما دعاه للمجىء، وما غايته . وكان ألكسيوس قدْ ذهب فى هذه الأثناء إلى المزار الذى كان قَدْ أقيم تمجيدا لنيكولاس أكبر الأساقفة وكان يبعد عن المدينة أربعة فراسخ ،

وراح يتفحص المكان بناظريه ليختار أى الأماكن تكون أصلح ما تكون كساحةِ حرب لجنده قبْل أن يسبقه جيسكارد إليها ، وكان ذلك يوم ١٥ أكتوبر (سنة ١٠٨١م) فوجد لسانا من الأرض يمتد من دلماتيا إلى البحر وينتهى عند ربوة عالية تكاد تكون محاطة بالمياه من كل نواحيها ، وهى التى أقيم عليها ذلك المزار .

وكان على الجانب الآخر المواجه لدورازو سفحٌ ينحدر انحدارا لطيفا إلى السهل ويوجد البحر على يساره ، كما تقوم أكمة عالية على يمينه ، فركز ألكسيوس كل من معه من الجند فى هذه البقعة ونصب معسكره بها ، ثم بعث فى استدعاء " جورج بالايولوجس " الذى دلته خبرته بأمور الحرب على أنه ليس من الحكمة فى شىء أن يترك المدينة فى مثل هذه اللحظة ، ومن ثم رفض القدوم على الإمبراطور مفسرا له الأسباب التى تحمله على الامتناع عن إجابة طلبه هذا ، فعاود الإمبراطور طلبه مرةً ثانية واتسم طلبه هذه المرة بالعنف فلم يُجْدِ ذلك نفعا مع " بالايولوجس " الذى ردّ على الإمبراطور قائلاً : " يبدو لى أنّه من أضَرُّ الأمور وأخطرها أن أتخلّى عن القلعة وهى محاصرة ، وما أنا بمستطيع مغادرتها إلا إذا طالعتُ الخاتم الذى فى يد جلالتكم " ، فأرسل ألكسيوس إليه فى الحال خاتمه الذى ما إن رآه " بالايولوجس " حتى انضم إلى الإمبراطور ومعه بعض السفن الحربية ، فسأله ألكسيوس عن تحركات "روبرت جيسكارد" ففَصَّلها له تفصيلاً ، فقال له ألكسيوس:

" تُرى هل ينبغى علىّ أن أخاطر فأحارب روبرت ؟ " .

لم يكن من رأى " بالايولوجس " المخاطرة بعمل من هذا القبيل فى ظل هذه الظروف الراهنة ، كما أنّ عددا غير قليل من الذين عركوا الحروب سنوات طويلة وتمرسوا بها اشتَدُّوا فى معارضة فكرة الإمبراطور هذه ونصحوه بالركون إلى سياسة الانتظار ، وقالوا له إنه ينبغى عليه أن يعمل على إضعاف روبرت بمناوشةِ رجاله حتى يشغلهم عن مغادرة المعسكر فى طلب الكلأ أو سعيا وراء الغنيمة والنهب ، وأشاروا عليه أن يكتب إلى " بودينوس " و"الدّلماتيين " وكبار أهل النواحى المجاورة يأمرهم باتّباع هذه الخطة ذاتها ، وكانوا على ثقةٍ تامة بأنّ اتخاذ هذه الإجراءات لابد أن يسفر عن إلحاق الهزيمة سريعا برويرت جيسكارد .

أمـا أغلب من مـعـه من صـغـار الضـبـاط وكـانوا من الشـبـاب وعلى رأسـهم "قسطنطين" المبجل و" نقفور " الباسل و " نابيتز " قائد الفارانجيين بل وحتى ولَدَيْ الإمبراطور السابق رومانوس ديوجين وهما ليو ونقفور فكانوا يؤثرون الحرب .

بينما كانت هذه المناقشات جارية ، إذا بالمبعوثين يعودون من عند روبرت حاملين رده الشفهي الذي يقول فيه: " إنني ما جئت لمحاربتكم يا صاحب الجلالة ، وما كان هذا أبدا ليدور بخلدي أو يكون هدفي ، ولكني قدمت لأمسح العارَ الذي لحق بقريبي بالمصاهرة ، فإنْ شئتم جلالتكم عقد السلام معي فَعَلَى الرحب والسعة على شرط أن تكونوا جلالتكم مستعدين لتنفيذ الشروط التي يذكرها رسلي إلى جلالتكم " .

غير أنّ مطالب روبرت كانت مستحيلة التنفيذ لما تحمله في طياتها من الضرر بالإمبراطورية ، رغم أنه وعد في الوقت ذاته أنه إذا ما أجيب إلى ما يسعى إليه اعتبـر " لمبارديا " إقطاعا يتسلمه من الإمبراطور ، وأنه سوف يكون لنا عونا وسندا حين نكون في حاجة إلى مثل هذا العون وذلك السند . بَيْدَ أن ذلك القول منه لم يكن أكثر من ادِّعاء أجوف وقولٍ باطل ، فما كان هدفه من تلك العروض التي قدمها إلا أن يظهر بمظهر الساعي إلى السلام ، الراغب فيه، فإن رفض ألكسيوس الاستجابة إلى هذه العروض كان هذا الرفض ذريعة لروبرت تشفع له في القيام بمحاربتنا. وحينذاك يصبح الإمبراطور الروماني هو المسئول عن إضرام الحرب ويحمل إذ ذاك تبعةَ إشعالها.

على أية حال كانت عروض "روبرت جيسكارد" مرفوضة رفضا أدّى إلى فشله فيما يطلبه، وإذ ذاك استدعى روبرت إليه جميع كونتاته وخاطبهم بقوله: "إنكم لتعلمون مدى الضرر الذي أنزله الإمبراطور نقفور بوتنياتس بصهري، وتدركون العار الذي لحق بابنتي"هيلانة"حين أخرجَت من القصر معه، فلما رأينا ذلك أمرا لا طَاقة لنا باحتماله غادرنا وطننا لنمحوَ الإهانة ونغسلَ عارها وننزلَ العقوبة ببوتنياتس، ولكنه نُحِّيَ عن العرش وأصبحنا نتعامل مع إمبراطورٍ شاب وجندي شجاع له من الخبرة الحربية ما يفوق سنه ، ولا يجوز لنا أبدا أن نستخف بتَحَدّيه الذي يتحتم أن ننظر إليه بعين الجد. وإذا قُدر لجماعةٍ ما أن ينفرد أصحاب الحلّ والعقد فيها بالرأي فيما بينهم فلابد أن تصبح هذه الجماعة فريسةً للفوضى والبلبلة الناجمة عن تعدّد آراء هؤلاء السادة الكبار واختلافهم فيما بينهم، وعلى ذلك فلا مناص لنا من أن يكون فينا من الآن

فصاعدا رجل واحد يتولى وحده حُكْم الآخرين وقيادتهم، على أن يشاورهم في كل عملٍ يُقْدِم عليه فلا يجوز له أن ينفرد برأى فيطبقه وحده بصورة استبدادية وحَسْبَ هواه وشهواته، بل عليه أن يستمع لرأى الآخرين الذين يكون عليهم في الوقت ذاته النزولُ على ما يشير به مَن انتخبوه رئيسا عليهم، ولابد أنّ فينا الآن رجلا على استعداد لأن يكون الزعيم الذى تجمعون الرأى على اختياره، فإذا اخترتموه كنتُ أنا أول الموافقين عليه".

فأثنى الجميع على هذه الفكرة كما أثْنوا على قائلها "روبرت جيسكارد"، واتفق الرأى منهم بالإجماع وبدون أدْنى معارضة على أن يسوقوا القيادة إليه هو نفسه، فما كان منه إلاّ أنْ تظاهر بالخجل الذى كان أشبه بخجل العذراء وأعلن رفضه لما اقترحوه، فلم يُزِدْهُم تظاهرهُ بالرفض إلاّ إصرارا وإلحاحا بوجوب استجابته لما عرضوه عليه، وانطلقوا يتوسلون إليه أن ينزل على رأيهم ويقبل ما أرادوه منه، وتمادوا في إلحاحهم تماديا لم يجد حياله بُدا إلا الاستجابة إليهم، فاستجاب وإن كان ذلك بعد لأى.

والواقع أنه كان قد دبَّر هذه الحيلة منذ زمن بعيد.

وبعد أن قَدَّم لهم مجموعة من الحجج والأسباب التى ربط بعضها ببعض ربطا محكما باهرا تظاهر - لمن لا يفهمون عقليته - بأنه إذْ يقبل عرضهم فإنما يقبله على كره منه وتطوعا من أجل خِدْمتهم، لكن الحقيقة هى أنّ كل جارحة فيه كانت تتلهف على أن يزعّموه عليهم ومن ثم خَتم كلامه بقوله لهم: "أصغوا إليَّ أيها الكونتات ويا رجال الجيش، لقد خلَّفنا وراءنا بلادنا وها نحن الآن فى أرض أجنبية جئناها لنقاتل إمبراطورا شديد المراس عظيم الشجاعة قد آلت إليه منذ قريب مقاليد الحكم وأحرز كثيرا من النصر فى ساحات الحروب التى خاض غمارها زَمَنَ من قبله، كما أنه أذَلّ شكيمة أقوى الثوار فقاتلهم وساقهم أسرى ، ولذلك يجب أن نكرِّس جميع جهودنا لهذا الصراع، فإن منحَنا الربُّ النصرَ فلن نعود فى حاجة أبدا إلى المال. وهذا هو السبب الذى يحتم علينا أن نحرق جميع متاعنا وكل ما لدَيْنا من سفن النقل ونُلقى بها فى قاع البحر، وعلينا أنْ نقبل تحديه فنقاتله معتبرين اليوم هو يوم الفصل، فإما الحياة وإما الممات لنا". فوافقه الجميع على ما قاله.

(٦)

على هذه الصورة كانت أفكار "روبرت جيسكارد" وأهدافُه المُخالفة تماما لأفكار الإمبراطور التى هى أكثر إحكاما ودقة.

ولقد ضم القائدان "ألكسيوس وبالايولوجس" قواتهما بعضها إلى بعض وخلّفاها فى المعسكر، فى حين أخذا يرسمان الخطط والتحركات التكتيكية على أحسن صورة تضمن لهما النجاح. فاتفقا على أن يقوم الإمبراطوْر بشنّ غارة ليلية على جانبى معسكرات روبرت يأخذه فيها على غرة، وأن يكون زحفه عبر المستنقعات الملحية لمباغتة المؤخرة، فلم يمانع "بالايولوجس" فى اتخاذ هذا الطريق رغم طوله، لكن رجاءً أن تنجح المباغتة، وعزم "بالايولوجس" -حين تصله قواته- على مهاجمة مقدمة عسكر روبرت جيسكارد.

أما "روبرت" فقد غادر خيامه واجتاز الجسر بكل من معه من الجند ليلة الثامن عشر من أكتوبر (١٠٨١م) وسار بهم حتى وصلوا إلى المزار المقام منذ زمن بعيد قرب البحر تمجيدا للشهيد "تيودور".

وأمضى النرمان ليلتهم هذه بطولها متقربين إلى الرب بالأدعية الربانية عساه يرضى عنهم، فلما أسفر الصباح أعدّ روبرت صفوف جيشه للقتال وجعل قيادة القلب لنفسه، كما عهد بالجناح القريب إلى أحد الكونتات البارزين واسمه "أنيكيتاس" Anikitas وكان مشهورا ببطشه وحسن تدبيره ، كما جعل على الجناح الأيسر من جيشه ابنه "بوهيموند" الملقب بسانسكوس. فلما وقف ألكسيوس على ما فعله عدوه بدّل هو من خططه ليتمكن من مواجهة التنظيمات الجديدة. وكان ألكسيوس خبيرا لا يطير قلبه شعاعا فى ساعة الضيق فى اختيار الطريق الأرشد، ولذلك أقام جُنده فى موضع يقع على امتداد المنحدر المؤدى إلى البحر بعد أن كانوا متفرقين فى أماكن شتى قبل أن يصله المتبريرون الذين كان قد أعَدّهم للهجوم على معسكر روبرت. أما من سواهم ممن يحملون على أكتافهم السيوف ذات الحدين والذين كانوا بقيادة "نابيتز" Nabites فلم يستعن بهم بل أمرهم بالترجل من فوق ظهور جيادهم والزحف مشاةً حتى يصيروا

على مسافة قريبةٍ أمام المعسكر، وكان هؤلاء الجند يحملون الفئوس شأنهم فى ذلك شأن بنى جلدتهم جميعا .

أما بقية القوات فقد قُسمت إلى بضع فرق، قاد الإمبراطور ذاته القلب، وأقام على اليمين واليسار كُلاً من القيصر "نقفور ميليسينوس" والدوميستيك الكبير "باكوريانوس" كما جعل طائفة من أمهر الرماة بالنشاب فى المسافة الفاصلة بينه وبين هؤلاء المتبربرين ، وكان قد عزم على أن يكونوا أول من يرسلهم لمصادمة "روبرت"، وألقى بتعليماته إلى "نابيتز" ومؤداها أنه إذا ما أراد رماة السهام هؤلاء أن يُغيروا فجأة على الكلت والارتداد ثانية فعليه (أى على نابيتز) أن يفسح الطريق أمامهم فى الحال وذلك بسحب رجاله يمينا ويسارا ثم يعود فيرمى بهم ثانيةً بعد أن يكون قد ضمّهم جميعا بعضهم إلى بعض. فلما تم كل شيء وفق هذا الترتيب مضى هو بنفسه لمهاجمة جبهة الكلت عبْر الطريق الساحلى.

أما المتبربرون الذين كانوا قد يمّموا طريق المستنقعات فقد شنّوا هجوما على معسكر العدو فى اللحظة التى قام فيها أهل "دورازو" بفتح أبواب مدينتهم تنفيذا لتعليمات الإمبراطور، ولما اقترب كلّ قائد من الآخر أرسل روبرت فصيلةً من الخيالة وأمرهم بمداورة الرومان بطريقةٍ أو بأخرى عساهم يتمكنون بذلك من استدراجهم أو استدراج بعضهم للخروج ضدهم .

لكن هذه الحيلة لم تَجُزْ على ألكسيوس ولم يقع فى الشرك الذى نصبه له عدوه، بل كان الذى جرى هو أن إمدادات ضخمة من القوات الخفيفة تحرّكت لصدّهم ، فوقعت بين الجانبين مناوشات صغيرة بيد أنّ " روبرت " انطلق فى أعقاب راكبى الجياد هؤلاء وراح يتعقّبهم ويقصّهم فى هدوء حتى تضاءلت المسافة الفاصلة بينهما وإذ ذاك اندفعت جماعة من فرسان " أميكيتاس " Amicetas ومشاته وهاجموا أقصى الطرف الموجود به " ناميتز " فاستبسل رجالُنا فى مقاومتهم استبسالاً رائعا لم يملك العدّو إزاءه إلاّ أن يُولِيهم ظهره وارتد بمن معه على أعقابهم مَنْحورين ، وألقْوا بأنفسهم فى البحر وغاصوا فيه حتى بلغ ماؤه أعناقهم فلما صاروا على مقربة من سفن الروم والبنادقة توسلوا إليهم أن ينقذوهم وأن يأخذوا بيدهم فلم يستجب أحد لهم.

وهناك قصة تقول أن " غيطة " زوجة روبرت جيسكارد التى كانت إلى جانبه كانت تبدو كأنها " بيلاس " Pellas أخرى إنْ لم تكن " أثينا " جديدةً حين رأت الهاربين يفرون على وجوههم فراحت ترمقهم بنظرات وحشية وصاحت فيهم بصوت مُدَوٍّ: " إلى متى تفرون ... ؟ أمَا ثَبَتُّم فى أماكنكم وكنتم رجالاً ؟ " .

إنها لم تقل لهم نفس كلمات هومير ولكنها قالت شيئا قريبا منها أفصحت عنه بلغتها ، فلما استمروا فى فرارهم التقطت رمحا طويلاً وانطلقت بجوادها وقذفتهم به قذفا أودعت فيه كل غضبها ، فارتدوا إلى صوابهم وعاودوا القتال من جديد .

فى هذه الأثناء كان حَمَلَةُ الفئوس وعلى رأسهم " ناميتز " قد أوغلوا فى البعد عن الروم بسبب عدم خِبرتهم وطبيعتهم الحادة ، واندفعوا فى سرعة عجيبة وهم يتحرقون لمصارعة الكلت الذين كانوا لا يقِلّون عنهم تلهفا للحرب ، ولم يكن أحد من الجانبين دون الآخر شجاعةً وإقداما ، ولم يخْفَ على روبرت ما عليه " جماعة ناميتز " من إرْهاق بلغ غايته وتقطعت معه أنفاسهم ، فقد أضرّت بهم سرعة الجرى وأجهدهم ثقل ما عليهم من السلاح فأمر كتيبةً من المشاة بالكر عليهم وكان يخيل لرائيهم وهم فى شدة الإرهاق أن قد أصبحوا أقل بأسا من الكلت ، لكن مهما يكن الأمر فقد هلك كثير من المتبربرين ، أما باقيهم ممن قُدِّرت لهم الحياة وكانوا شرذمةً قليلة فقد لجأوا إلى مزار القديس ميكائيل رئيس الملائكة اعتقادا منهم أن فى ذلك نجاتهم على حين أن بقيّتهم تسلقوا سور المزار حتى بلغوا سطحه ووقفوا هناك يتدبرون ماذا يمكن أن يفعلوه للحفاظ على حياتهم . فما كان من اللاتين إلا أن أشعلوا النيران فأتت عليهم وعلى المزار معا .

أما بقية رجال الجيش الرومانى فقد استمروا يقاتلون قتال الشجعان ، غير أنهم فوجئوا بروبرت ينزل عليهم كأنه الفارس المجنح ثم يهاجمهم بمن بقى معه من عسكره فأجبر الجندَ الرومان على التراجع فتفرقوا أشتاتا ممزقة ، وانتهى الأمْر أخيرا بسقوط بعضهم فى المعركة ، وفر الباقون على وجوههم يلتمسون السبيل التى قد تؤدى بهم إلى النجاة ، لكن الإمبراطور سرعان ما عاد للوقوف ثابتا وصمد كأنه الطودُ الشامخ والبرجُ المنيع رغم هلاك طائفة كبيرة من رفاقه الذين كانوا رجالاً قد جمعوا بين كرم

المحتد والخبرة في القتال . وكان ممَّن لقى حتفه في هذه المعركة ابن الإمبراطور السابق " قسطنطين دوكاس " المعروف باسم " قسطنطينوس " الذى ولد بعد أن لم يعد أبوه مواطنا عاديا وهكذا جاء إلى الدنيا ونشأ فى مهاد النعمة والرفاهية حيث شرّفه أبوه بالعصابة الملكية .

كذلك هلك فى هذا اليوم أيضًا نقفور المعروف بـ " سينادينوس " ، وكان رجلاً شجاعا وسيما بذل كل ما فى طاقته كى يبزَّ أبطال حرب ذلك اليوم ، وطالما تحدث قسطنطينوس المشار إليه بشأن زواجه من أخته .

كذلك سقط غيرهم من علية القوم ومنهم " نقفور " والد بالايولوجس كما تلقى "زخاريا "طعنةً نجلاء فى صدره فارقت منها روحه جسده فى الحال .

كذلك قتل " أسبيتس " Aspietes وكثيرون غيره من الجنود الأشاوس .

على أنه حدث قبل انتهاء المعركة أنْ خرج من بين صفوف اللاتين ثلاثة كَبُرَ عليهم أن يروا الإمبراطور ثابتا ضد خصومه فحملوا عليه بخيولهم مشرعين سيوفهم الطويلة يرجون قتله . فأمّا أول هؤلاء الثلاثة فكان " أميكيتاس " الذى تكلمْتُ عنه من قبل ، وأما ثانيهم فبطرس الذى ينعت نفسه بأنه ابن " اليفاس " ، وأما ثالثهم فكان مكافئا لهما ولا يقل عنهما أهمية .

لكن أميكيتاس فشل فى أن يصيب الإمبراطورَ إذ حاد به جوادُه قليلاً فلم ينله بضر ، كما أن ألكسيوس تجنب بسيفه رمح ثانيهما ثم وضع كلَّ بأسه فى ضربةٍ أصاب بها ترقوة مهاجمِه وكانت ضربة بَترتْ ذراعه عن جسده .

وأما ثالثهم فقد سدد ضربة مباشرة إلى جبهة الإمبراطور الذى أدرك فى لمح البصر - بفضل ألمعيَّته وحضور ذهنه - ما الذى ينبغى عليه عمله ، إذ ما كاد يرى خصمه يوجه ضَرْبته إليه حتى انحنى إلى الخلف وانكفأ على كَفَل حصانه وقد فعل ذلك فى رباطة جَأشٍ ومن غير خوف فأفسد الضربة فلم يمس السيف سوى جبهته ، وكان جرحه بسيطا ولكنه أحدَثَ قطعا فى الحزام المصنوع من الجلد والمربوط تحت ذقنه وأطاح بمغفره من فوق رأسه فسقط على الأرض ، فانطلق الكلتى بعيدا عنه وهو

يحسب أنه أهلكه لكن سرعان ما انتصب ألكسيوس واقفا على قدميه وعاد فاعتلى صهوة جواده مقتعدا سرجه فى ثبات وهو سليم الذراعين ، ثم انتضى سيفه البتار وكان وجهه معفرا بالتراب وملطخا بالدماء ، كما أنه كان عارى الرأس وقد تهدلت خصلات شعره شديد الحمرة أمام عينيه فأزعجته لأنّ جواده حين خاف شب على قدميه فى جنون أدى إلى تناثر شعره على جبهته ، لكنه سرعان ما استرد جأشه وعاد يتحدّى خصومه . بيد أنه نظر فأبصر الترك يفرون هم أيضًا ورأى " بودينوس " ذاته ينسحب من ساحة المعركة بلا قتال بعد أن كان قد وضع لامته على رأسه ورتب جنده للمعركة . بعد أن ظَلَّ نهاره كله واقفا إلى جانب الإمبراطور مستعدا لمعاونته فى أية لحظة حسب اتفاقهما لكن يظهر أنه كان يرقب مصير المعركة فإنْ رجحت كفة الإمبراطور وواتاه النصر انضم إليه فى مهاجمة الكلت ، أما إن شالت كفته ودارت عليه الدائرة عاد أدراجه وارتد سريعا على عقبيه . ويتضح من أفعاله أن هذه كانت خطته لأنه حين رأى النصر فى جانب الكلت وأنّ الغلبة صارت لهم انطلق عائدا إلى دياره لم يرفع سيفا ولم يضرب ضربة واحدة .

لما وقف ألكسيوس على ذلك كله ولم ير أحدا قد هَمَّ لنجدته ارتد هو الآخر من وجه العدو .

على هذه الصورة كانت هزيمة اللاتين للجيش الرومانى .

(٧)

وصل " روبرت " إلى ضريح القديس نيكولاس حيث كانت الخيمة الإمبراطورية وجميع المتاع الرومانى ، فبعث بكل من عنده من الرجال الأشداء لمطاردة ألكسيوس وبقى حيث هو يتحرق إلى اللحظة التى يتردى فيها خصمه الإمبراطور وقد جاءوا به إليه أسيرا ، وكانت هذه الأفكار وأمثالها تذكى صلف روحه .

أما رجاله فقد طاردوا ألكسيوس مطاردةً عنيفة حتى بلغوا ناحيةً يسميها أهلها "كاكى بلورا " ويجرى أسفلها نهر " خرزانس " ويقوم على الجانب الآخر سَفح شديد

الانحدار فأدركه مطاردوه عنده وكانوا تسعة نفر وقذفوه من ناحية يساره برماحهم فاضطرّ للفرار إلى الناحية اليمنى ، ولم يكن ثمة شك فى أنه واقع فى أيديهم لو لم يتكئ على الأرض بسيفه مما حال بينه وبين السقوط وزيادةً على ذلك فإن طرف مهمازه الذى فى قدمه اليسرى علق بحافة قماش سرج جواده فجعل من الصعب جدا على الراكب أنْ يتحرك ، ثم أمسك براحته اليُسرى معرفةَ جواده ووثب إلى أعلى ، ولا جدال فى أن القوة الإلهية أنقذته من أعدائه بطريقةٍ لم تكن تخطر على بال أحدٍ مما دفع الكلت الآخرين لأن يسدّدوا إليه رماحهم من ناحية اليمين .

كان هذا فى الواقع منظرا يفوق الوصف فبينما كان الأعداء الذين على يساره يجاهدون لدفعه وإلقائه كان الذين على يمناه يسددون رماحهم إلى جنبه كما لو كانوا ينافسون المجموعة الأولى ، مما ساعد الإمبراطور على أن يظل منتصبا بينهم ثم ثبت نفسه فى السرج قابضا بيد من حديد على حصانه ، وشد ساقيه على سرجه شداً محكما .

ولقد صدر فى هذه اللحظة من جواده ما دل على عظمته إذ كان خفيف الحركة خفةً غير مألوفة وكان يتدفق بالحيوية بصورة غير معهودة ، وبلغ من القوة حداً عجيبا فدل على أنه فرسُ قتالٍ حقيقى ، وكان ألكسيوس قد أخذه من " برينياس " كما أخذ منه القماش الأرجوانى حين أسَره زمن " نقفور بوتنياتس " وقت أن كان الآخر لا يزال إمبراطورا . ومختصر القول أن جواد الحرب هذا بدا وكأنّ العناية الإلهية تسيّره إذ قفز فجأة فى الهواء قفزة استقرت به على قمة الصخرة التى أشرتُ إليها من قبل كما لو كان له جناحان طار بهما ، أو كان - كما جاء فى الأساطير- قد استعار أجنحة " بيجاسوس " ، وكان برينياس قد اعتاد أن يسمّى هذا الجواد بالكميت الأسْود .

وشاهد المتبربرون بعض رماحهم تنطلق فى الجو وتسقط من أيديهم ، كما رأى آخرون منهم أنّ سهامهم التى سددوها إلى ملابس الإمبراطور قد بقيت ملتصقة بها ثم طارت مع الحصان إذْ وثب فانتزع ألكسيوس هذه السهام المتساقطة عليه . وعلى

الرغم مما هو فيه من الخطر الداهم فإنه ظل ثابت الجنان لم تطر روحه شعاعا ، ولم يضطرب تفكيره ، ولم يتأخر عن اختيار الطريق الملائم حتى تمكن من النجاة من أعدائه نجاةً لم تكن ظواهر الأمور تشير إليها أبدا .

حينذاك وقف الكلت فاغرين أفواههم دهشةً وذُهولاً مما يجرى أمامهم وهم له شهود . و الحق أن ما حدث كان غريباً كل الغرابة فقد رأوه يسير فى اتجاه جديد فأخذوا يقصّونه ويمشون فى أثره ولكنه بَعُد عنهم حتى إذا اتسعت المسافة الفاصلة بينهما وصار على بُعد كبير من مطارديه استدار على عقبيه وواجه واحدا منهم ورماه بسهم فسقط على ظهره وقد فارقته الحياة ، فانصرف ألكسيوس عنه ولوى عنان فرسه ومضى فى طريقه ، إلاّ أنه اصطدم ببعض الكلت الذين كانوا ملحّين فى طلبه وعليهم دروعهم ، ثم توقفوا حيث هم فلما رأوه صفّوا أنفسهم ، وتظاهروا بأنهم يريحون جيادهم لكنهم كانوا يتطلعون للقبض عليه وتقديمه حيًا لروبرت جيسكارد ليكون أسيره ، فلما رأى ألكسيوس نفسه وقد أحدق به مطاردوه من ورائه ومن قدامه كاد اليأس يتسرب إلى نفسه ، لكنه سرعان ما استعاد جأشهُ وفطنته ، وتطلع إلى أعدائه فأبصر فى وسطهم رجلاً ضخم الجثة وعليه درعه الذى يخطف بريقه الأبصار فظنّ أنه " روبرت جيسكارد " فوخز جواده وكر عليه فاستل الرجل رمحه وسدده نحوه وتقدّما إلى البقعة الفاصلة بينهما للمبارزة ، وبدأ الإمبراطور الضرب فى إحكام مسدّدا رمحه إلى صدر الكلتى ورماه به فنفذ الرمح من ظهره فسقط فى الحال على الأرض لا حراك به وفارقته روحه ، وحينذاك ركب ألكسيوس جواده وعاد مخترقا جمْعهم .

لقد أدّى مصرع هذا المتبربر إلى إنقاذ ألكسيوس وسلامته .

ولما شاهد رفاقُ الصريع صاحبهم مطعونا مسجّى على الأرض التفوا حوله وراحوا يعالجونه وهو فى موضعه . أما الآخرون الذين كانوا يشاهدون من الخلف هذا المنظر فقد ترجّلوا عن جيادهم وتعرّفوا على القتيل فتفطرت قلوبهم حزنا عليه، لأنه وإنْ لم يكن هو روبرت جيسكارد إلا أنّه كان من عظمائهم المبارزين ، وكانوا يعتبرونه يد " روبرت " اليمنى وبينما هم مشغولون بأمْر هذا الرجل كان الإمبراطور قد رحل عنهم وسار فى طريقه .

(٨)

ولقد نسيتُ في غمرة هذه الحادثة ، وبسبب طبيعة التأريخ من جانب وأهمية هذه الأمور الجسام من ناحية أخرى ... أقول نَسِيتُ أنْ أكتب عن نجاح الشخص الذي هو أبي ، وإني لفي أحيان كثيرة - أَمُرّ مَرَّ الكرام على أمور تتعلق به حتى لا يشك أحد في مؤلفي هذا وحتى لا أُتّهم بالمبالغة فيما أكتبه أو فيما اشتملت عليه ملاحظاتي الشخصية ، وكم تَمَنَّيْتُ لو أني تجردت وتحررت من هذا الشعور الذي أشعُر به نحوه كي أستطيع أن أستعمل هذه المادة الكبيرة فأُبَيِّنَ كم يستطيع لساني - وقد تحررت من كل العوائق - أنْ يملي ما يطرب النفس من خبر هذه الأفعال النبيلة ، ولكن الحب الطبيعي الذي أُكِنّهُ له يلقي ظلالاً على رغباتي الشخصية فيحجبها عن الظهور . ولست أحب أن يتصور جمهورُ العامة أنّي أَخْتَلِقُ الأعاجيب في تلهفي للكلام عن أسرتي ، وكثيرا ما تَمَنَّيت - وأنا أستعرض فعال أبي النابهة - لو أني أكتب بالتفصيل كل ما لَقِيَه من الأهوال فأبكي بكاءً حارا ، ولا أستطيع أن أتجاوز في كتابتي القصة من غير بكاء .

لكن أرى لزاما عليّ فيما يتعلق بهذا الجزء من تاريخي أنْ أتجنَّب الكلام المنمق والمحسنات اللفظية وأصوغ ما أقُول في صيغة جامدة كأنها الحجر الصوان أو الرخام البارد ، إذ أَمُرّ مرًا سريعًا على الصعاب التي صادفها أبي والأهوال التي لقيها . ولو كنت أسعى لنيل الشهرة التي تكافئ حبي له لأدرجت نكباته ولأقسمتُ بها ، فاعلةً فعل ذلك الشاب الوارد في أوديسة هومير حين أقسم قائلاً " يا أخيلوس أقسمت عليك بحق زيوس وأحزان أبي " ذلك لأني على وجه التأكيد لست أسوأ من ذلك الشاب .

لكن علينا الآن أن نترك أبي ومتاعبه لأنه ما من أحد سواي هو أجدر مني باجترار آلامه أما القارئ فمن حقه أن يعود إلى سياق الأحداث .

بعد وقوع ما ذكرتُ عاد " الكلت " إلى " روبرت " الذي ما كاد يراهم صُفْر الأيدي ويعلم بما جرى لهم حتى تَفَجّر مرجلُ غضبه وصبّ أعظم نقمته على واحد منهم وثار عليه ثورة عارمة وهدّده بالجلد ، ونعته بالجبن والجهل بفن الحرب ، حتى لقد توقع هذا الشخص من روبرت العذاب الفظيع؛ لأنه لم يقفز إلى الصخرة بحصانه الذي يمتطيه

فيصرع ألكسيوس ويقتله أو يمسكه فيأتى به حَيًا إلى روبرت الذى وإن كان أشجع الرجال وأجرأهم إلا أنه كان سريع الغضب والانفعال ، وكان يتعامل مع خصمه بإحدى الطريقتين : إما أن يطعنه فى قلبه إن عارضه أو يدعه يقتل نفسه بيده .

على أن الجندى الذى كان روبرت يؤنّبه قَدَّم صورةً حية لضخامة الصخرة واستحالة الوصول إليها راجلا أو راكبا ، وأنه لا يمكن تسلقها إلا بمعجزة من السماء ناهيك بمقاتل مهما يكن متمرسا بفنون القتال . كما أنّ محاولة اعتلاء الصخرة ليست سوى ضرب من المخاطرة والجنون ، وقال له : " إن لم تصدق ما أقول فحاول ذلك بنفسك أو ادْعُ واحدا من فرسانك الجريئين أن يمضى إليها فلسوف يدرك صدق ما أقول . ومهما يكن الأمر فإنى أقول لك لو أن أحدا من الناس استطاع أن يقهر تلك الصخرة - حتى ولو كانت له أجنحة - فإنى مستعد أن ألقى من العذاب ما تنزله بى ، وأن أُنعَت بالجبان " .

ولقد أطفأت هذه الكلمات المدهشة غضبَ روبرت وكسرت حدة انفعاله ، فاستحالت نقمته عليه إلى إعجاب به .

أما الإمبراطور فقد وصل إلى " أخريدا " بعد قضاء يومين فى شعاب الجبال المجاورة التى لا تسمع فيها سوى زئير الريح ثم عَبَرَ الإقليم الذى يستحيل السير فيه. وقد اجتاز فى هذين اليومين نهر " خزارانس " حيث توقف قليلاً قرب وادٍ يسمّونه "بابا جورا "ولم تشغله أخطار الحرب ولم يعبأ بالألم الجسمانى الذى يرمضه من جبهته الجريحة لكنه كان يحس الحسرة تعصر فؤاده حُزْنا على من سقطوا فى ساحة المعركة ولا سيما مَن أبْلَى منهم البلاء الحسن ومن حاربوا حرب الشجعان .

غير أنه كان مشغولاً إلى جانب ذلك كل الانشغال بالتفكير فى مدينة " دورازو " وكان يقض مضجعه أنها كانت محرومةً الآن من رئيسها بالايولوجس الذى لم يعد قادرا على العودة إليها بعد أن خسر المعركة وإنْ راح يبذل غاية جهده لضمان سلامة سكانها ، فعهد بالحفاظ على القلعة إلى الضباط البنادقة الذين قدموا إليها ، كما وضع بقية المدن تحت إشراف " كوميسكورتس " وهو من أهالى ألبانيا بعد أن زوده بالنصيحة النافعة التى تعود بالجَدْوَى على متبعها والعامل بها ، وقد ضمّن ذلك كتابا منه إليه .

الكتاب الخامس

الحرب ضد النرمان ١٠٨٢- ١٠٨٣، وأول نزاع بين ألكسيوس والهراطقة

فقرات الكتاب الخامس

١- استسلام ديداخيوم. إفلاس خزينة القسطنطينية. ضرورة حصول ألكسيوس على الحلفاء والمال من أي مصدر.

٢ - تبرّع إيرين بكل ما تملك واقتداء غيرها بها ولكن لا تزال الأزمة المالية مستحكمة. الاستيلاء على أشياء كنسية واعتباره عملاً غير شرعي ولكن إسحاق يدافع عن العمل أمام المجمع. معارضة ليو أسقف خلقدونية الشديدة.

٣ - ألكسيوس يحث هنري الرابع على مهاجمة لمبارديا ويعرض التحالف عن طريق المصاهرة. عودة روبرت إلى بلاده وتركه بوهيموند نيابة عنه. هنري يتخلى عن الحملة ضد كل من البابا وروبرت.

٤ - انتصارات بوهيموند على ألكسيوس.

٥ - عودة ألكسيوس إلى العاصمة وطلبه المعونة من سليمان. إرسال كميرس على رأس سبعة آلاف محارب. وضع كمين للعدو خارج "اريسا".

٦ - هزيمة بوهيموند.

٧ - ألكسيوس يحث الكونتات على مطالبتهم بوهيموند بمرتباتهم المتأخرة. بوهيموند يعجز عن الوفاء بمطالبهم ويذهب إلى أفلونا.

٨ - ألكسيوس في القسطنطينية وأول صراع له مع الهراطقة. حياة إيتالوس وتعاليمه الباطلة. منافسته لبسلوس.

٩ - محاضرات إيتالوس وخبر تلاميذه. إيتالوس ومعارضته لألكسيوس واضطهاده.

(١)

لم يصـادف " روبرت جـيـسكارد " أية مـشـقـة فى الاسـتـيـلاء على الخـيـمـة الإمبراطورية وجَمْع ما فيها من الغنائم ، فلما فرغ من ذلك ضرب معسكره فى السهل الذى كان موجودا فيه من قبل أثناء حصاره " دورازو " وأقام فترة وجيزة من الوقت أخذ يستعرض فيها خططه القادمة ، وكان قد أحضر معه - والزهوُ يملأ عطفيه والكبرياء مسيطرة عليه - ما يشير إلى النصر الذى أحرزه ثم راح يسائل نفسه :" أيعاود القتال فيهاجم الأسوار ؟ أم يؤجل ذلك إلى الربيع القادم علىْ أن يقوم فى هذه الأثناء باحتلال " جلابيينيتزا "Glabinitza وجوانينا Goannina ويمضى الشتاء هناك بجيشه المرابط فى الأودية المنتشرة فى سهل دورازو " ؟

وكان معظم أهل المدينة - كما قلتُ آنفا - من المهاجرين من أهل " أمالفى " والبنادقة الذين ما كادوا يعلمون بالخطوب التى نزلت بالإمبراطور والمصائب الجسام العارضة التى أخذت تترى عليه واحدةً إثر الأخرى وهلاكِ الكثيرين من عسكره الأشاوس ، إلى جانب انسحاب الأساطيل وعزْم " روبرت جيسكارد " على معاودة القتال فى الربيع القادم ... أقول ما كاد أهل أمالفى والبنادقة يعلمون بتلك الأمور حتى أخذوا يفكرون جدّيا فى معاودة النظر فى سياستهم ، فآثروا ما فيه سلامتهم وتَجْنيبهم ويلات هذه الخطوب . لذلك عقدوا اجتماعا راح كل فريق منهم يشرح فيه وجهة نظره ، فلما لم يُجمِعوا على رأيٍ واحد رأى [الأمالفيون] أن الضرورة تحتم عليهم الخضوع لروبرت وتسليمه المدينة ، وحينذاك استجاب لهم البنادقة ونزلوا على نصيحتهم ففتحوا أبواب البلد أمامه وأذنوا له بدخولها ، فما كاد روبرت يصبح السيد المطلق فى المدينة حتى استدعى إليه عسكره ووزّعهم حسب جنسياتهم ثم مضى يتفقدهم فى دقة فَعرفَ مَن فيهم الذى أثقلته جراحه إثقالاً بلغ حد الخطورة ، وعرف مَن أصابتهم السيوف بجراحات طفيفة ، ثم انطلق يستفسر عن نوعية وعدد مَن قتلوا فى المعارك السابقة .

ولما كان الشتاء على الأبواب فقد اهتم بجمْع طائفة من الجند المرتزقة والفصائل الأجنبية ، حتى إذا حلَّ الربيع كان فى استطاعته الزحف بكل قواته ومهاجمة الإمبراطور ، وهكذا أعَدّ روبرت خططه وهو واثق بانتصاراته.

على أنه لم يكن هو وحده الذى أعدّ العدة للحملة القادمة بل كان هناك أيضًا "ألكسيوس "الذى لم تنل منه الهزيمة الكبرى التى لحقته، ولا ما أصيب به هو ذاته من جراح وما أسفر عنه الحالُ من هلاك الكثيرين من رفاقه الأبطال .

لم يكن شأنه شأن رَجُلٍ ترتعد فرائصه أمام شبح يتراءى له فيتراجع ، كما أنه كان أبعد ما يكون عن التهوين من شأن قوات عدوه أو التخلى عن أنشطته ، بل كرّس ذاته وملكاته العقلية تكريسا تاما ليتمكن فى الربيع القادم من غسل عار الهزيمة .

هكذا أخذ كل من القائدَيْن أهبته لكل ما يمكن حدوثه ، موجهين قدراتهما لاستيعاب كل التفاصيل الدقيقة بالنظرة العابرة ، وكان يزكيهما معرفتُهما بمختلف مكائد الحروب وتمرسهما بتكتيكات الحصار ونصب الكمائن والقتال وجها لوجه والاشتباك بالأيدى ، وكانا فى ذلك كله بطلَيْن صنديدَيْن وباطشين جبارين وندَّين لم تطلع الشمس على مثيل لهما ، إلى جانب أن كلا منهما كان صنو الآخر فى الفطنة والشجاعة .

على أن الإمبراطور كان ينفرد بميزة اختص بها دون " روبرت " هى أنه كان لا يزال شابًا ولم يكن صغر سنه [1] جاعلا إياه أدنى منه ، رغم ما انفرد به "روبرت جيسكارد " من طول القامة طولاً يتكافأ مع قوته وبسالته ، وكان يتباهى بقدرته على أن يزلزل الأرض أو يكاد يزلزلها ويبعث الفزع فى قلوب الكتائب كلها إنْ هو صاح صيحة الحرب . ومهما يكن الأمر فالواجب ادّخار القول فى هذا الموضوع إلى مجالات أخرى لابد من أنها سوف تسترعى انتباه الخطباء والمادحين.

بعد أن استراح الإمبراطور فى " أخريدا " قليلاً واسترد معنوياته مضى إلى "ديابوليس " فطيّب ما وسعه الجهد خاطر الأحياء من أهلها الذين كانوا ضحايا أهوال الحرب ، كما بعث رسلا من جانبه إلى سواهم حاملين إليهم أوامره بأنْ يَهُبُّوا إليه من كل ناحية قد يكونون فيها. على أن يكون اللقاء فى "تسالونيكا".

ولما كان لألكسيوس خبرة سابقة بروبرت ومعرفة ببطش جيشه الضخم فقد راح يندد تنديدا كبيرا بما عليه رجاله من البساطة. ولستُ في حاجة لأن أُؤكد الحقيقة القائلة بأنه كان في صحبته طائفة من الرجال لم يدربوا أبدا على القتال ولا يعرفون شيئا عن حياة الجندية، لذلك كان لابد له من الحصول على محالفين يشدّون أزره، لكن كان من المستحيل عليه تحقيق ذلك من غير أن يتوفر لديه المال الذى خلت منه الخزانة الإمبراطورية التى استنزفها - من غير جدوى - سلفه الذى كان على العرش وهو "نقفور بوتنياتس"، وبلغت الخزانة من الخواء حداً صارت معه أبواب بيت المال مفتوحة، وصار في قدْرة أى امرئ أن يلجها دون أن يصده أحد أو يعترضه معترض، ذلك لأن كل شيء فيها كان قد تبدد. وبلغ الحال أشد الحرج ودب الضعف في أوصال الإمبراطورية الرومانية، وأناخ الفقر عليها بكلكله فطحنها طحنا.... فماذا كان إذن في مقدور الإمبراطور الشاب أن يفعله وقد تسلم مقاليد الحكومة منذ زمن قريب جدا؟!

إن مختصر القول هو أنه لم يكن أمامه سوى طريقين: إما أن يستسلم كل الاستسلام لليأس ويدعه يسيطر عليه وعلى كل شيء فيتنحّى عن الصولجان وعن كل شيء حتى لا يرميه أحد بالعجز عن القيادة رغم أنه لم يكن له دخل فيما جرى.

وإماّ أنْ تضطره الحاجة لاستدعاء أعوان له أيا كان هؤلاء الأعوان الحلفاء، ومن أية جهة كانوا، وأنْ يفتش عن كل مصدر يساعده على جمع المال اللازم لسد مطالب الحرب ونفقاتها لإعادة جيشه المشرد في شتى الأرجاء، وحين ذاك يسترد من معَه من الرجال ثقتهم بأنفسهم فترتفع معنوياتهم ويستطيعون الثبات إلى جانبه، وحين ذاك يبادر الغائبون إلى العودة ويصبحون تحت هذه الظروف أكثر جرأة وأقْدَرَ على مقاومة قطعان الكلت مقاومة فعالة.

ولما كان الإمبراطور لا يحب أن يفعل شيئا غير مجدٍ أو يكون مناقضا لمعرفته بعلم الحرب (ولا أقول معارضا لشجاعته) فقد وضع أمام ناظريه هدفين يسعى لتحقيقهما، فأما أولهما فهو جلْبُ الإمدادات من شتّى النواحي وإغراء هؤلاء بما ينتظرهم من المال تسخو يده به عليهم، وأمّا ثانيهما فهو أن يطلب من أمّه وأخيه [إسحاق] إسعافه بالمال يجمعانه له من أى مصدر كان.

(٢)

لكنهما لما كانا عاجزين عن استنباط أية طريقة لتزويده بالمال فإنما لم يجدا بدا من جمع كل ما هو مدّخر لديهما وما تحت أيديهما من أشياء فضية وذهبية وإرسالها إلى دار الضرب الإمبراطورية، وكان السبق فى ذلك لأمى الإمبراطورة، إذ جمعت كل ما ورثته عن أبيها وأمها وقدمته إليه، مؤملةً من وراء ذلك أن تحمل الآخرين على الاقتداء بها، وكانت هى شديدة القلق على الإمبراطور فى محنته الكبيرة هذه التى يمر بها، وترتب على تلك الخطة حصوله على تقادُمٍ من الذهب والفضة تطوع بتقديمها عن طيب خاطر أولئك الأوفياء المُخلصون من أصدقاء صاحبى السلطة إسحاق وإيرين، فأرسلوا جانبا من هذه الإعانات إلى المجندين، كما أرسلوا الجانب الآخر إلى الإمبراطور، لكن ذلك كله لم يف بسداد الحاجات الضرورية، إذ قام فريق من هؤلاء الحلفاء المجندين فطالبوا بالمزيد من المال باعتبار أنهم حاربوا من قبل إلى جانبنا، كما طالب غيرُهم – وهم المرتزقة – بأجورٍ أكبر مما يتناولونها، كما أنه لم تعد للإمبراطور ثقة فى حسن نوايا الرومان مما حمله على زيادة مساعيه عن ذى قبل بغية الحصول على أموال أكثر فضاعف ذلك من همّ أمه وأخيه ومِن قلقهما وما علماه من معاودة "روبرت جيسكارد" تسليح جيشه، مما حملهما على التقدم باقتراحات جديدة، منها ما كان جهرا، ومنها ما نوقش فى السر وراء الأبواب المغلقة. لكن لم يصل المتناقشون إلى حل قاطع وحينذاك راحوا يلتمسون فى القوانين والتشريعات القديمة ما يخوّلهم أن يبيعوا قليلا من المخلفات والآثار الطاهرة وما يتيح شرعِيّة أخْذ بعض الآثار المقدسة الموجودة منذ زمن بعيد فى الكنائس، فتؤخذ هذه لفك أسرى الحرب وافتداء المسيحيين الذين يعيشون فى قبضة المتبربرين وإطلاق سراح غيرهم ممن نجوا من القتل ولكن مَسَّتهم النجاسة لتَعَامُلِهِمْ مع الكفار.

كانت الرغبة فى نفس كل من ألكسيوس وأمه وأخيه وأصحابهم فى سداد رواتب الجند المأجورين دافعةً إياهم إلى الانتفاع ببعض هذه الأشياء المقدسة التى ظلت زمنا طويلا لا ينتفع بها أحد حتى لقد نُحيِّت جانبا لأنَّها لا تخدم أى شىء. ومن الحق أن

أقــول إن هذه الأشـــياء كلها كانت تغرى الكثيرين على القيام بأمور تنطوى على انتهاك حرمتها والاستهانة بها. لذلك ما كانوا يتخذون قرارهم هذا (القاضى بالاستيلاء على بعض هذه المخلفات المقدسة وبيعها) حتى ذهب النائب إسحاق إلى كنيسة الرب الكبرى وعقد فيها اجتماعا حضره رجال المجمع[٢] المقدس ورجال الدين، فلما شاهد المجتمعون البطركَ بينهم استبدت بهم الدّهشة من وجوده معهم إذ لم تجرِ العادة على حضوره إلا للتشاور فى الأمور الكهنوتية، وتساءلوا عن سر وجوده فقال لهم: "لقد جئت لعَرض اقتراح سوف يساعدنا فى هذه المحنة القاسية ويؤدى إلى خلاص جيشنا"، ثم تلى عليهم القوانين المتعلقة بالآثار المقدسة التى لم تعد تستعمل فى شيء، ثم قال بعد أن أسهب فى الكلام فى هذا الموضوع "إننى مضطر لأن أُرغِم من أكْره أن أرغمهم".

ويبدو أن الغالبية العظْمى من الحُضور قد اقتنعوا بالبراهين القوية التى ساقها البطرك لهم، لكن ما لبث أن قام "ميتاكساس" فأثار طائفةً من الاعتراضات الزائفة، ولم يكتف بذلك، بل زاد فراح يسخر من [إسحاق كومنين] ذاته، غير أن ذلك كله لم يحل دون إجازة الاقتراح الأصلى والموافقة عليه. وقد أصبح هذا الأمر موضوع اتهام شديد ضد الأباطرة، ولست أحجم عن نعت إسحاق بلفظ "الإمبراطور" رغم أنه لم يَرْتَدِ قطّ الأرجوان. ولم تقتصر التهمة على هذه المناسبة فحسب بل استمرت فيما بعد حتى يومنا الحاضر.

كان هناك شخص اسمه "ليو" يتبوأ إذ ذاك كرسى أسقفية خلقدونية، ولم يكن بالعالم ولا المتسم بالحكمة العميقة ولكنه كان يأخذ نفسه بحياة التْزَم فيها بالعفة رغم خشونة عاداته بصورةٍ استهجنتها النفوس- ذلك أنه لما انتزعت الفضة والذّهب الموجودان بأبواب كنيسة "سوق[٣] النحاسين" جاء هذا الرجل إلى الأسواق وراح يخطب فى أهلها من غير مراعاة للأحوال العامة أو القوانين المتعلقة بالأوعية المقدسة وسلك مسلكا يتسم بالعنجهية الممقوتة بل والخروج على قواعد اللياقة نحو إسحاق، وما من مرة جاء فيها "ليو" إلى العاصمة إلا وتكلم بكلام كان يجعل صدر إسحاق حرجا ويحمله على التفوه بما لا يليق، ففى أول مرة غادر فيها ألكسيوس القسطنطينية لمحاربة "روبرت" وقام أخوه ونائبه إسحاق بإمداده بالأموال التى جمعها من شتى

المصادر المتاحة والتى حصل عليها بعد موافقة إجماعية ووفقا للقوانين المرعية وأصول العدالة إلا قام "ليو" هذا وسلك مسلكا شائنا وتكلم بكلام بذىء أسخط إسحاق وأثار غضبه عليه.

بعد أن أنزل الإمبراطور بالكلت كثيرا من الهزائم بسبب الهجمات العنيفة رجع مكللا بأكاليل الغار والنصر بإذن الرب، لكنه علم مرة أخرى أنّ قطعانا جديدة من الأعداء (وكانوا من الأسكيثيين[٤] هذه المرة) قادمون لمحاربته، وهنا أصبح من الضرورى - لنفس الأسباب السابقة - القيام بجمع الأموال، وحينئذ شنّها ليو رئيس كرسى أسقفية خلقدونية حربا ضارية شرسة على الإمبراطور الذى تصادف وجوده إذ ذاك فى العاصمة ، وأعقب ذلك جدل عنيف حول ماهية الصور المقدسة، ونادى "ليو" بأن الأمر لا يقف عند حد توقيرها التوقير الصادق بل يجاوز هذا إلى التمسك بعبادتها. وكانت بعض حججه مقبولة عند من كان قبله من الأساقفة لكنه كان حائدا عن محجّة الصواب فى غيرها من الآراء، ولست أدرى عما إذا كان ذلك راجعا إلى ما طبع عليه من روح عدائية نحو الإمبراطور وما تنطوى عليه نفسه من كراهية له أمْ كان صادرا عن جهل منه؟! فقد كان هو نفسه عاجزا عن تفسير أفكاره تفسيرا دقيقا من غير لَبْس ولا إبهام . وعلة ذلك أنه لم يكن قط بالرجل المنطيق . وزاد فى اندفاعه فى تهجمه على الحكام ما كان يلقاه من أُذن مصغية واستجابة صريحة من جانب أصحاب الأفكار الشريرة الذين كان نفر كبير منهم فى هذا الوقت بالذات يشغلون بعض وظائف الدولة الكبرى وبيدهم تصريفُ أمورها فكانوا يشجعونه على الدوام على ما هو فيه ويدفعونه قُدُما إلى المبالغة حتى زلّت به القدم فصار فى وضع مهين وانغمر فى حمأ الإفك السّفيه رغم أن الإمبراطور كان موضع التبجيل والتعظيم من جانب كبار رجال المجتمع البارزين من أنصار هذا الخلقدونى الذين طلبوا من " ليو " أن يغيّر آراءه حول الصور ، وأن يكف عن جعل نفسه بُوقا للقرارات المعادية، لا سيما وأنّ الإمبراطور قطع العهد على نفسه أن يعيد - إلى الكنائس الطاهرة - أيقونات كانت من الأيقونات الأصلية ، وأنْ يعوِّض هذه الكنائس التعويضَ المُرضِى . لكنَّ ذلك كله لم يُجْدِ نفعا وانتهى الأمر أخيرا إلى إدانة " ليو " وشلحه من أسقفيته ، غير أنه لم يرتدع بهذا الخلع فلم يركن إلى السكون بل دأب على إثارة المزيد من الاضطرابات فى الكنيسة مما أكسبه أنصارا كثيرين مالوا إليه لذيوع اسمه فى الخصومة واللدد

وإصراره المطلق على ما يقول وما يراه حقا . إلاّ أنّه بعد بضعة أعوام غير قليلة صدر الحكم عليه بالإجماع بالنفى فاعتزل الناس فى " سوزوبوليس " Sozopolis الموجودة فى " بونتس " حيث وفّر له ألكسيوس كافة أسباب الراحة، بيد أنه أنكر هذه اليد وجحدها ، ولعل مرجع ذلك هو ما كانت تنطوى عليه نفسه من الحقد على الإمبراطور . إلى هنا تنتهى القصة.

(٣)

توالى المجنّدون للانضمام إلى الإمبراطور حين سمعوا بنجاته من الموت فى المعركة ، وكان هؤلاء المجندون قد تمّ تدريبهم على أحسن صورة على ركوب الخيل وإتقان الرمى بالقسىّ والنشاب ونصْب الكمائن وحمْل السلاح واستعماله ، وحينذاك عاد ألكسيوس إلى إرسال الرسل من جديد إلى ملك ألمانيا وجعَل على رأس هؤلاء السفراء " ميثيمنيس Methymnes ودفع إليه كتابا يحمله إلى هنرى [الرابع] يحثه فيه على المبادَرة للخروج لمهاجمة لمبارديا حسب الاتفاق المُبرم بينهما ، وذلك حتى يظلّ روبرت جيسكارد منشغلاً على الدوام انشغالاً يتيح لألكسيوس فرصةً من الوقت ينصرف فيها آمنا لجمع جيوشه ومَن يجنّدهم من العسكر الأجنبى ليتمكن من إخراج روبرت من " الليريكيوم " وطرده منها . وقال الإمبراطور فى رسالته للملك هنرى إن هذا العمل من جانبه سوف يكون مِنّةً إنْ يفعلْها فقد أتاح الفرصة لتأكيد إتمام حلف المصاهرة الذى وعده به على لسان سفرائه .

بعد أن فرغ ألكسيوس من إتمام هذه الترتيبات ترك وراءه فى بعْض النواحى الدوميستيك الكبير " باكوريانوس " ، وعاد هو إلى القسطنطينية ليجند عسكرا من الأجانب من كافة النواحى وليتخذ بعض الإجراءات الضرورية التى تُملِى وجودَها عليه الأزمةُ الراهنة والأحداثُ الجارية .

كان زانتاس Xantas و " كوليون " Koleon قد عادا برجالهما المانويين[٥] الذين يبلغون ألفا وخمسمائة رجل إلى بث الفوضى والاضطرابات ، وكَثُرَت مرات استدعاء الإمبراطور إياهم لكنهم كانوا يؤجلون قدومهم يوما بعد يوم رغم قطعهم العهود على

الوفاء بما عاهدوه عليه . غير أنّ ذلك لم يصرفه عن الإلحاح فى استدعائهم ولم يحمله على الكف عن وَصْلِهم بالعطايا والمبالغة فى إكرامهم ، وكانت العروض تقدم من جانبه مكتوبة لكنها لم تُجْدِ شيئا .

(٤)

بينما كانت الاستعدادات الرومانية تجرى على قدم وساق جاء البعض إلى روبرت يخبرونه أنّ الملك " هنرى " على وشك الوصول إلى لمباردِيا فأسقط فى يده وتأزمت الأمور عنده ، ذلك أنه لما عزم على عبور " الليريكوم " عهد بالمملكة إلى روجر دون أن يخصص جزءا لابنه الصغير " بوهيموند " لكنه بعد أن استعرض كثيرا من الطرق المتاحة وبعد تبديل كبير فى خططه وأفكاره دعا جميع الكونتات وضباطِ فرق الجيش كافةً إلى اجتماع حضره أيضًا " بوهيموند " ووقف " روبرت " أمامهم جميعا ثم خطب فيهم قائلاً : " أيها الكونتات : إنكم تعرفون أنى حين هممتُ بالخروج إلى الليريكوم اخترتُ ولدى الحبيب الأكبر " روجر " ليكون له الحكم فى المملكة كلها ، إذ لم يكن من الصواب ولا العقل أن أرحل فى مثل هذه الظروف على رأس حملة كهذه الحملة الخطيرة تاركا مملكتى بلا رأس يدبر أمورها ويصرف شئونها فتكون إذ ذاك فريسة هيِّنة لأى طامع يتطلع للاستيلاء عليها ، ولما كان ملك الألمان الآن على وشك مهاجمتها فإنه يجب علينا أن نبْذل قصارى جهدنا لصده؛ إذ ليس من الصواب أن نسعى للاستيلاء على أراضى الغير ونهمل فى الوقت ذاته أرضنا ، وهذا هو السبب الذى من أجله أنا ماضٍ بنفسى لحماية وطنى ومحاربة هنرى ، وإنى لأعهد إلى ولدى الصّغير برعاية "دورازو " و " أفلونا " وبقية المدن والجزائر التى استوليت عليها بالحرب وإنى لآمركُم وأرجوكم أن تعاملوه نفس المعاملة التى تعاملوننى بها ، فتخلصون النية له وتحاربون من أجله وتبذلون له أنفسكم : روحا وبدنا " .

ثم التفت إلى بوهيموند وقال له : " والآن يا ولدى العزيز أقدم لك هذه النصيحة ألا وهى أن تبجل الكونتات كل التبجيل وتنتفع بآرائهم فى كل ما تُقْدِم عليه ، ولا تفرض عليهم أمرًا لم تشاورهم فيه ، وعليك أن تنزل على رأيهم فى كل الأحوال ولا تجبرهم على شىء لا يريدونهُ واعمل معهم على الدوام . أما فيما يتعلق بك أنت فالتزم دائما

بالاّ تغفل عن محاربة الإمبراطور الرومانى رغم أنه قد منى بهزيمة نكراء لم يَنْجُ منها الكثيرون من رجاله إلا بمشقة وكاد هو نفسه أن يؤخذ حيا، ولم يفلت من أيدينا إلا جريحا فعليك ألا يهدأ لك بال من ناحيته فإن قليلاً من السكون يمنحه الفرصة لاسترداد أنفاسه ولمعاودة القتال معاودة أشد عنفا عن ذى قبل. واعلم أنه ليس بالخصم العادى فقد تربَّى منذ نعومة أظافره فى ساحات الحرب والقتال ، وذَرعَ جميع أرجاء الشرق والغرب فأسر من ثاروا على الأباطرة السابقين ، وما أحسبك إلا قد سمعْتَ بنفسك الكثير من هذا الأمر وعلمتَ ما فيه الكفاية عنه وأوجِز فأقول لك إنْ أنْت لم تخرج لقتاله جامعا العزم على هزيمته فسوف تنْتهى جميع عهودى السابقة وما حققته أنا إلى لا شىء وسوف تجنى أنت ثمرة إهمالك . وإنى لسائر الآن إلى حرب الملك [هنرى الرابع] وطرده من أراضينا ، وبذلك أدعم مركز ولدى الحبيب فى السلطة التى أعطيتهُ إياها " .

قال روبرت ذلك القول ثم استأذن فى الخروج وركب إحدى المرمات[٦] قاصدا لمباردیا وسرعان ما بلغ " سالرنو " التى ظلت أمدا طويلاً ساحة للمتنازعين على الدوقية ، فأقام بها فترة غير قصيرة لجمْع أكثر من يستطيع جمعهم من القوات والمرتزقة الذين راح يحشدهم من شتى النواحى .

وواكب ذلك إسراعُ الملك الألمانى باحتلال " لمبارديا " وفاءً بوعده للإمبراطور ألكسيوس ، فلما عرف روجر ذلك لم يدخر وسعا فى الانطلاق على وجه السرعة إلى رومة مستهدفا الانضمام إلى البابا [٧] وإفساد أهداف الملك [هنرى] فلم يتردد البابا فى المضى لمحاربة هنرى الذى سمع – وهو فى طريقه لغزو لمبارديا – بالمصائب والأهوال التى حاقت بالإمبراطور ألكسيوس من جراء هزيمته فى إحدى المعارك الكبرى ، كما سمع أن فريقا من رجاله هلكوا عن بكرة أبيهم ، وتشتَّتَ باقيهم فى مختلف النواحى ، وأنّ ألكسيوس نفسه لم يسلم من التعرض لعديد من الأهوال والمخاطر رغم أنه قاتل قتال الأبطال وأصيب بكثير من الجراح التى أثخنت نواحى مختلفة من جسده إلاّ أنه استطاع بفضل جلَده وشجاعته أن ينجو وإن كانت نجاته إحدى المعجزات . وإذْ ذاك ارتدّ الملك على عقبيه وعاد سالكا الطريق الذى جاء منه معتبرا أنَّ نصره لا يعنى تعرض مصالحه الشخصية لأمر لا جدوى منه ، ومن ثم رجع إلى دياره. فلما دخل روبرت معسكر الملك بعد رحيله لم يتحمس لمطاردته ولكنه اكتفى بإرسال فريق من

عسكره الأشداء الأبطال آمرا إياهم بتصيد الألمان . وبعد أن فرغ روبرت من أخذ جميع الغنائم والأسلاب عاد إلى رومة وفى ركابه البابا حيث رده إلى كرسيه فما كان من البابا إلاّ أنْ نادى به ملكا اعترافا منه بفضله عليه ، وإذ ذاك عاد روبرت إلى " سالرنو " ليستجمّ بسبب معاركه الجمة .

(٥)

لم تمض إلا فترة وجيزة حتى انضم بوهيموند إلى أبيه وكان من السهل على أى شخص أن يقرأ فى أسارير وجهه خبر الهزيمة التى لحقته ، وسأشرح الآن كيف دارت الدائرة عليه .

كان بوهيموند محاربا كبيرا عاشقا للمخاطر وقد سيطرت نصائح أبيه على تفكيره ، ولذلك كان مفرقا فى عدائه لألكسيوس ، وكان تحت إمْرته عسكره الخاص وطائفة من ضباط الجيش الرومانى البارزين وولاة البلاد والمدن التى غزاها أبوه روبرت ، وكان هؤلاء الرجال - بعد أن أيأسهم حال الإمبراطور - قد نقلوا كل ولائهم إلى بوهيموند الذى توغل فى " باجنتيا " Bagenetia والذى ما كاد يبلغ "جوانينا" Goannina - حيث كانت الخنادق محفورة خارجها - حتى وضع جميع العسكر فى النقاط المناسبة ، على حين اتخذ بوهيموند ذاته مركز عملياته داخل الموقع وقام بالتفتيش على المزاليج ، وتبين له أن القلعة فى وضع خطير وحالٍ يرثى لها من الضعف، فلم يكتف بترميمها بل زاد فبنى قرب الأسوار قلعةً أخرى منيعةَ التحصين ، وكان من رأيه أن القلعة ستكون هنا فى موضع أجلّ فائدة وأعظم نفعا . كما قام فى الوقت ذاته بنهب المدن والأراضى الواقعة فى تلك النواحى ، فلما ترامى إلى سمع الإمبراطور خبر ما فعله بوهيموند بادر فى لحظته بحشْد جميع قواته وأسرع بمغادرة القسطنطينية وذلك فى شهر مايو ، فلما وصل إلى " جوانينا " كان الوقت مناسبا للقيام بحملة حربية ولكنه كان يدرك تمام الإدراك المصاعب التى تحيط به : فالجند الذين تحت يده لا يتكافئون فى العدد مع عدد الجند الذين عند خصمه ، كما دلته تجربته السابقة فى محاربته روبرت على أنه قد لا يكون فى استطاعته الصمود أمام أول هجوم يشنه الكلتيون ، لذلك عزم على أن يبدأ حملاته الحربية بالاشتباكات تقوم بها مجموعة

صـغيرة من الصـفوة المختـارين ، لأنه إنْ يفعـل ذلك توفـرت لديه بعـض المعرفة بمدى براعة بوهيموند كقائد حربى ، كما أنّ هذه الاشتباكات البسيطة تتيح له الفرصة لاستـكشاف الوضع العام فيكون قادرا بعد ذلك على استعمال ذكائه لمواجهة الكِلت بثقة أكبر .

كان كل من الجيشين المتقاتلَين يتعجّل الحرب ويتحرق شوقا إليها ، لكن لما كان الإمبراطور يخشى من الهجمة الأولى التى يشنها اللاتين فقد اتّبع خطةً استراتيجية جديدة حيث أعدّ عربات النقل الخفيفة التى هى أصغر من العَربات العادية ، وثبّت كل واحدة منها على أربعة قوائم ، كما وضع الجند المشاة المسلحين على مقربةٍ منها ، حتى إذا شَنّ اللاتين هجومهم بكامل قواهم على الصف الرومانى خرج هؤلاء الرجال من وراء العربات فدفعوها إلى الأمام ، وبهذه الطريقة يُمَزّق صفوف العدو. وقرّر الإمبراطور أن يبدأ القتالَ عقب طلوع الشمس مباشرةً ، ومن ثم أخذ مكانه فى القلب ، وتهيأ للمعركة التى ما إنْ بدأت حتى اتّضح للعيان أن بوهيموند لم يقع فى الشرك الذى نصبه الإمبراطور له كأنّما علم مُقَدّما بالخطة الرومانية ، فأعد نفسه لمواجهة الظروف المتغيرة فقسم عسكره إلى قسمين ، ونحى جانبا العربات الصغيرة ، ثم شَنّ هجومه على الجانب الآخر ، وجرت معركة كبيرة وبلغ الصدام أشده وكانت الخسائر فى الجانبين فادحةً وإن انتهت المعركة بانتصار بوهيموند .

أما فيما يتعلق بألكسيوس فقد وقف منتصبا كأنه البرج الشامخ أمام الهجمات التى أخذت تراوحه من اليمين والشمال ، وكان وهو على ظهر جواده يعترض الكلتيين، فإذا ما التحم بنفر منهم أعمل فيهم الضرب حتى يجهز عليهم ، وكان فى أحيان أخرى يطارد الهاربين بصيحاته العالية ، لكنه حين رأى تصدّع صفٍّ فيالقه وتشتت شملها أدرك أن الواجب يحتم عليه أن يلتمس السلامة ، ولم يكن صادرا فى محاولته هذه للنجاة من أجل الحفاظ على روحه أو كان الأمر ناجما عن فَزَع تملّكه كما قد يظن البعض ولكنه فعل ما فعل درأً للخطر ولاسترداد بأسه عساه يواصل فى يوم آخر صراعه مع الأعداء الكِلت ويكون هو حينذاك أكثر إقداما وقدرة. لذلك انطلق على رأسِ نفرٍ قليل من رجاله فصادف طائفة من الأعداء فناجزهم القتال وبرهن مرة أخرى على أنه " قائد " لا يشق له غبار وراح يشجع رفاقه ثم كر على الكلت بنفسه كرةً فيها الموت

فأردى واحدا منهم ، كما أن رجاله - وهم أهل صدق فى اللقاء - أثخنوا الكثيرين من أعدائهم جراحا وطاردوا فلولهم الباقية حتى ردوهم بعيدا ، وهكذا تمكن - إثر اجتيازه " ستروجاى " Strogal - من أن يصل مرة أخرى إلى " أخريدا " سالما بعد أنْ نجا من أخطار مروّعة عديدة وهنا استراح حتى إذا صار وسط قوة كبيرة من جيشه المنهزم تركهم فى هذه الناحية وراءه مع الدوميستيك الكبير ومضى مباشرةً إلى " الوردار " من غير أن يسمح لنفسه بلحظة راحة أو تمهل .

واحتشد العسكر مرةً أخرى حتى إذا أصبح المرتزقة على استعداد للزحف زحف بهم جميعا على بوهيموند مجمعا عزمه على الظهور عليه وقَهْرِه ، ودبّر خطة جديدة تتيح له النصر بعد أن صنع شوكات حديدية قاتلة وتوقع نشوب الحرب فى اليوم التالى ، ووضع هذه الشوكات مساء اليوم السابق للقتال فى السهل الفاصل بين الجيشين فى البقعة التى توقّع أن تشهد قيام فرسان الكلت بهجوم عنيف، وكانت خطته هذه ترمى إلى إفساد الهجوم الكلتى الأول ، إذْ تشق الأشواك الحديدية حوافر الخيل فى حين أن الرماح الرومانية المشرعة إلى الأمام على مسافات محسوبة تجنّبهم خطر الخوازيق وقسمتّهم إلى يمين وشمال ، بينما قام رماة السهام بتفويق سهامهم والرمى بها رميا موصولاً فيصيب الكلت وهم بعيدون وهاجم الجناحان جانبى العدو بوحشية مفزعة .

هكذا كانت الخطة التى دبّرها أبى ليلاً لكنها لم تخدع الأعداء ، فلما طلع النهار اكتشفها الكلتيون فعمد بوهيموند فى حيلة بارعة منه إلى تغيير موقع رجاله حتى يحبط هذه المكيدة .

وهو وإنْ قَبِل التحدى والنزول إلى القتال إلاّ أن هجومه خالف نمطه المألوف الذى جرت عادته باتباعه لأن خطة الإمبراطور كانت مسبوقة بهجوم ضارٍ من الجانبين ، بينما بقى القلب بلا حراك. غير أن الرومان لاقوا الهزيمة فى القتال الذى تلاحموا فيه بالأيدى مع الكلت فلم يجدوا بدا من الفرار . وعلى أية حالٍ فقد كان الخوف مستوليا عليهم حتى قبل أن يبدءوا القتال بسبب النكبة التى سلف أن حلت بهم ، وتملكهم الفزع حتى لم يستطيعوا النظر فى وجوه أعدائهم ، ودبت الفوضى فى صفوف رجالنا رغم ثبات ألكسيوس وصموده صمودا بطوليا جمع فيه كل عزمه وتصميمه فجرح الكثيرين من رجال العدو ، فلما انفرط عقد رجاله وأصبح فى نفر قليل من أصحابه رأى الواجب

يقتضيه ألاَّ يعرض نفسه لمزيد من الأخطار التى لا جدوى منها ؛ لأن الإنسان إذا نفدت قواه من طول البلوى حتى يفقد القدرة على القتال فإنه يكون أحمق إن هو عرض نفسه من جديد لأمر يكون فيه هلاكه .

كان رجال جناحَيْ جيشه الأيمن والأيسر قد لاذوا بالفرار على وجوههم ، بينما ظل الإمبراطور ثابتا فى موضعه بالقلب يتابع المعركة فى شجاعة ضد رجال بوهيموند وتحمَّل عبء المعركة كله، ثم ما لبث أن اكتنفهُ الخطر من كل ناحية اكتنافا أدرَك معه أن المقاومة لم تعد تجدى ولم يَعد الصمود فى الإمكان ، وإذ ذاك انتهى الأمر به إلى أنْ يقرر أن الواجب يقتضيه الإبقاء على مهجة نفسه وإنقاذ روحه حتى يكون قادرا على معاودة القتال ثانيةً فى صلابة فيحول بين " بوهيموند " وبين التمتع بجنى ثمار النصر .

هكذا كان ألكسيوس على الدوام فى حالتى الفرار وتعقب العدو ، كما كان لا يستسلم قط ولا يجبن . والحقُّ أنه كان شديد الإيمان بالرب ، جاعلاً إياه محور حياته فى كل شىء ، وكان يأبى كل الإباء أن يجعله موضعَ قسم [٨] ، فلما كان فى هذه المرة كما قلت وقد رأى خيط النجاة قد انقطع لم يَجِد بُدًا من الفرار، فطارده بوهيموند وصفوةُ مَن معه من الكونتات . وبينما كانت هذه الأحداث تجرى إذا به يقول لجولز Goules – وكان خادم أبيه – كما قال إلى رجال آخرين كانوا معه: إلى متى سنظل نفر؟ ثم استدار واخترط سيفه وضرب به وجه أول خصم التحم به ، فلما رأى الكلتيون ما حدث وعرفوا أن الإمبراطور لا يعبأ بشىء توقفوا حيث هم وكفوا عن مطاردته ودلَّهم طول خبرتهم على أنْ لا سبيل لقهر مثله فهو رجل لا يُغلَب على أمْره ، ولا يُفَل حده. واستطاع هو بهذه الطريقة أن يصبح بمنجاة من مطارديه ، وأنْ تُكتب له السلامة .

كان أبى رجلا ثابت الجنان حتى فى حالات الهزيمَة والارتداد ، وكان يَجْمع إذ ذاك حوله من يستطيع جمعه مِمَّن لاذوا بأذيال الفرار ، ويسخر من غيرهم الذين يتظاهرون بأنهم لا يعرفونه ويتجاهلونه .

على أية حال خلص ألكسيوس ونجا وعاد إلى العاصمة ليجمع جندا آخرين قاصدا الزحف بهم من جديد على بوهيموند.

(٦)

حين عاد " روبرت " إلى " لمبارديا " قام ولده " بوهيموند " بعبء العمليات الحربية ضد الإمبراطور وطبَّق نصيحةَ أبيه فراح يضرم نيران الحرب والمعارك في كل بقعة فأرسل " بطرس بن أليفاس " Aliphas وبصحبته كونت " بونتيسيس " Pounteses لمحاصرة بعض النواحي ، فاستولى بطرس في الحال على موضع اسمه " بولوبي " ، في حين جعل " بونتيسيس " نفسه سيدا على " سكوبيا " Scopia ووصل بوهيموند على جناح السرعة إلى بلدة " أخريدًا " استجابة لنداء أهلها واستغاثتهم به فأقام بينهم فترة وجيزة غادرهم بعدها دون أن ينجز شيئا ما، وذلك لأن قلعتها كانت في حراسة " أريباس " Arlebas ثم تابع زحفه إلى " أستروبوس " Ostrobos ولكنه رُدَّ عنها كما رُدَّ عن سابقتها مما حمله على مغادرتها خاويَ الوفاض ، وشخص إلى حصن "بوريا" Boreae مخترقا بلاد " سوسكوس " Soscus والصرب . وعلى الرغم من شنه بعض الهجمات على الأسوار في كثير من النواحي [٩] فإن سوء الطالع لازمه فاخترق " بودينا " Bodena إلى " مولينا " Molena حيث رمم أحد الحصون الصغيرة وكان هذا الحصن أطلالاً منذ زمن بعيد فقام إلى أحد الكونتات واسمه " ساراكينوس " [١٠] Saracenus وجهزه بحامية قوية. أما بوهيموند فقد مضى إلى " الوردار " إلى موضع يسمونه Aspree Ecclesiae فظل مقيما به ثلاثة أشهر شهدت قيام ثلاثة من الكونتات المختارين هم: " بونتيسيس " و " رينالدس " Renaldus والثالث اسمه " وليم " بتدبير مؤامرة أجمعوا فيها على طرد بوهيموند والانضمام إلى الإمبراطور ، إلا أن مخفيَّ مؤامرتهم انكشف للعيان ، فلما علم " بونتيسيس " بكشفها فرّ إلى ألكسيوس ، أما الآخران فقد ألقى القبض عليهما ولكن أطلق سراحهما ليبارز أحدهما الآخر حسب العرف الكلتي ، وخشي وليم المبارزة ومن ثم أدين وحكم عليه بفقء عينيه . أما الآخر - " رينالدس " - فقد أرسله بوهيموند إلى أبيه روبرت في لمبارديا ليرى رأيه فيه، فأمر " روبرت " بسمل عينيه هو الآخر .

ثم مضى بوهيموند إلى " كاستوريا " بعد مغادرته " أسبريا إكليزياي " . وبعث بهذا الخبر إلى الدوميستيك الكبير " باكوريانوس " فمضى إلى مولينا وألقى القبض

على "ساراكينوس " وأمر بقتله، فقتل في الحال . ثم هدم الحصن الصغير وسواه بالأرض، وكان بوهيموند في هذه الأثناء قد غادر " كاستوريا " إلى " لاريسا " لقضاء الشتاء بها .

أما فيما يتعلق بالإمبراطور فإنه ما كاد يبلغ العاصمة حتى انصرف للعمل كما قلت ، وكان هذا هو المتوقع منه لما طُبع عليه من الانهماك في العمل وعدم إعطائه نفسه حقها من الراحة ، وبعث إلى السلطان " سليمان السلجوقي " يسأله أن يُعِينه بالجند والقوات من أصحاب الخبرة الطويلة فأجابه سليمان إلى مطلبه من غير إبطاء، وأمده بسبعة آلاف رجل تحت إمرة ضباط مهرة من ذوى الكفاءة العالية ، فيهم " كاميرس " Kamyres الذى يفوق كل من سواه في إلمامه بالشئون الحربية إلماما حصل عليه منذ زمن بعيد .

وبينما كان ألكسيوس يقوم بهذه الترتيبات إذا ببوهيموند يستعد بطائفة من رجاله وكانوا كلهم من الكلت المدججين بالسلاح من رأسهم إلى أخمص أقدامهم ، فاستولوا على " بلاجونيا " Pelagunia عنوة ، ثم على " تريكالا " و " كستوريا " . ثم جاء هو بنفسه على رأس بقية العسكر إلى تريكالا ، غير أن طائفة أخرى من المحاربين الشجعان انفصلوا عنه واستولوا على " تزيبسكوس " Tzibiscus ولم يجدوا في الاستيلاء عليها أدنى مشقة ، وإذ ذاك تحرك هو إلى " لاريسا " فبلغها يوم عيد الشهيد القديس جورج [١١] فأخذوا في تضييق الخناق على من فيها وفرضوا الحصار على أسوارها إلا أن واليها " ليو كيفالاس "Cephalas ابن خادم كومنين والد الإمبراطور ألكسيوس ظل مقيما على مقاومة آلات بوهيموند الحربية مدة ستة أشهر وظلَّ يوافي الإمبراطور ألكسيوس خلالها بالرسائل التي تحمل إليه أخبار هجوم هذا المتبربر عليها ، فضاق صدر ألكسيوس لما سمع ، وخرج ولكن في غير عجلة وسلك الطريق المؤدى إلى " لاريسا " جامعا المزيد من المرتزقة من كل النواحي ، الأمر الذى أدى إلى تأجيل رحيله حتى إذا أصبح الجميع مسلحين على أكمل وجه غادر القسطنطينية ، فلما قارب نواحي مدينة " لاريسا " عبَر جبل [١٢] الأديرة المسمى " كليون " Kellion وخلف على يمينه الطريق الرئيسي والتل الذى يسميه الأهالي " كيسبيون " ونزل في " إيزبان " Ezeban وهي قرية ولاشية مجاورة كل المجاورة لأندرونيا Andronia ثم اتجه من هناك

إلى موضع آخر صغير يسمى فى العادة باسم " بلابيتزا " Plabitza قريب من نهر ... [١٣] وهنا ضرب معسكره وحفر حوله خندقا محكما ، ثم توجه على جناح السرعة إلى حدائق " دلفين" ثم إلى " تريكولا " حيث وافاه مبعوث من " كيفالاس " الذى أشرت إليه آنفا يحمل إليه رسالة لم تكن تنقص سطورها الصراحة يقول له فيها: " أريدك يا مولاى [١٤] أن تعرف أننى لازلت حتى الآن محافظا على هذا الحصن فلم يسقط فى يد العدو ، وما ذلك إلا بفضل جهودنا الكبيرة ولكننا أصبحنا الآن محرومين من أى طعام يأكله النصارى ، فاضطررنا إلى العيش على ما هو محرم شرعا ، بل لقد فرغ هذا الزاد المحرّم من أيدينا . فإنْ كنت راغبا فى الإسراع لإنقاذنا ودفع محاصرينا فعَجِّل الشكر لله وإلا فإنى قد أديت واجبى الذى هو فى عنقى على أكمل وجه ، وها نحن قد صِرْنا عبيدا للحاجة . وماذا يفعل المرء إزاء الطبيعة وجبروتها مما لا مفر لنا من مواجهتها . ولقد فكرنا فهدانا تفكيرنا إلى تسليم المكان للعدو الذى يضاعف ضغطه علينا ويشدد علينا الخناق . وأنا أعلم إنى لو فعلت ذلك لأدّى ذلك إلى أن تصب لعنتك علىّ ، ولكننى سأتكلم إليك يا صاحب الجلالة الإمبراطورية بجرأة وأصارحك القول بأنك إنْ لم تبادر إلى مد يد الإنقاذ إلينا من هذا الخطر المحدق بنا والذى لم يعد فى وسعنا احتماله أو دفعه ، إلى جانب ما نعانيه من أهوال القتال وفداحة المجاعة وضراوتها ، وإن أنت لم تبادر إلى إسعافنا – وأنت القادر على ذلك – فستكون – وأنت إمبراطورنا– أول من يُرمَى بالخيانة ".

وأدرك الإمبراطور أنْ لابد له من التفتيش عن طريقة أخرى تؤدى إلى إنزال الهزيمة بالعدو ، واكتنفته الأفكار المزعجة من كل جانب وغرق فى لجة من التقديرات المؤلمة فشغل نفسه طول يومه فى التخطيط بنَصب الكمائن ، وتوّجه إلى الرب يسأله العون الذى جاءه على الصورة التالية: ذلك أنه استدعى إليه واحدا من كهول " لاريسا " الطاعنين فى السن واستفسر منه عن طوبوغرافية المكان ، وراح يدير عينيه فى شتى النواحى ويشير بإصبعه فى الوقت ذاته إلى مختلف الجهات ودقّق فى الاستفسار من الكهل عن الناحية التى شقت السيول فيها طريقا لنفسها فعرف أنها حيث توجد الأشجار الكثيفة الملتفة القريبة من تلك الأماكن ، وكان الحامل له على سؤاله هذا الشيخ الهرم اللاريسى هو رغبته بطبيعة الحال فى نصب كمين للعدو ، ورأى أن يسلك

سبيل المكر والخديعة حتى يتمكن من هزيمة اللاتين ، فرأى أن يتخلى نهائيا عن فكرة محاربتهم وجها لوجه فيتسنى له أن يلم بتكتيكات اللاتين فى ساحة القتال ، ومن ثمَّ فإنَّه لما غربت الشمس وأوى إلى فراشه بعد جهد موصول طول نهاره رأى فى منامه وكأنَّه فى ساحة ضريح الشهيد العظيم "ديمتريوس" وسمع كأن صوتا يهتف به ويناديه " كُفَّ عن تعذيب نفسك ولا تحزن فإنك منتصر غدا " ، وخيل إليه كأنَّ الصوت صادر من إحدى الأيقونات الموجودة فى ذلك الحرم والمنقوش عليها صورة الشهيد ، واستيقظ ألكسيوس من نومه تملؤه النشوة لسماعه ذلك الصوت فى رقاده ، ومضى يبتهل إلى الشهيد قاطعا على نفسه العهد لئن أُوتى النصر والظهور على أعدائه ليزورَنَّ الضريح وليترجلَّن عن حصانه وهو على مسيرة بضع مراحل من مدينة " تسالونيكا " وليدخلنَّ راجلا فى خُطىً بطاء ليقدم تعظيمه للشهيد .

ثم عقد مجلسا ضم جميع القادة والضباط وكافة أقارب الإمبراطور الذين طلب منهم أن يصارحوه بما يرون ، ثم قام هو من جانبه فشرح لهم عزمه على وضع كل القوات الرئيسية فى أيدى أقاربه ، وعيَّن نقفور " مليسينوس " وفازيل كوتريكوس Cutricus المعروف أيضًا بيوحنا [١٥] الضئيل قائدين عامين ، وكان ثانيهما جنديا محنكا قد ذاع صيته بفضل شجاعته وإلمامه بشئون الحرب إلماما طيبا، وكان قد جاء أصلاً من " أدرنة " .

لم يكتف الإمبراطور بأن يعهد بالجيش إلى هذين الرجلين بل زاد فوكل إليهما جمع الرايات الإمبراطورية ، وكلفهما بشن المعارك وفق الخطط التى اتبعها هو نفسه فيما سلف من المعارك، ونصحهما باختبار طليعة اللاتين البارعة عن طريق المناوشات البسيطة أولاً ، ثم يتبعان ذلك بقيام قواتهما كاملة بالهجوم وهى تصرخ صرخات الحرب العالية ، لكن ما كاد المصافان [١٦] يصبح الواحد منهما فى مواجهة الآخر حتى ولّوا الأدبار مهرولين واختلط حابلهم بنابلهم وفروا إلى ناحية " ليكوستوميون " Lykostomion، وبينما كانت هذه الأوامر تصدر إليهم إذا بالجميع يسمعون فجأة صهيل خيل جيش ففزعت النفوس ، وإن كان ذلك بشيرا وفألا طيبا عند الإمبراطور وغيره من ذوى البصيرة النيرة .

ولما انفض الاجتماع غادرهم الإمبراطور قاصدا الناحية الواقعة إلى يمين "لاريسا " وظلَّ بها حتى غربت الشمس، وكان مَعه فى هذا الانتظار نخبة ممتازة من الرجال المنتقين الذين ظلوا وراءه، حتى إذا اجتازوا شِعب " ليبوتانيوم " Libotaniom داروا حول " أليجْ " Allge وأفضى بهم المسير إلى يسار" لاريسا". وقد تفحَّص الإمبراطور المكان بدقة فرأى بقعةً من الأرض منخفضة فنصب فيها مع رفاقه كمينا من الكمائن . وكان القادة الرومان أثناء انطلاق الإمبراطور فى سرعةٍ قد بعثوا بجريدة من العسكر ليشغلوا أعداءهم الكلت وليصرفوا انتباههم حتى لا يتيحوا لهم فرصة يتبيَّنون خلالها وجهة ألكسيوس النهائية ، فنزل رجال هذه الجريدة إلى السهل وشنوا هجوما أدى إلى استمرار القتال فترة طويلة من الوقت حتى دخل الليل فوضع نهايةً لهذا القتال . وبهذه الوسيلة استطاع ألكسيوس أن يصل إلى الموضع المنشود ، وحينذاك أصدر أوامره إلى عسكره بالترجل فترجلوا طلبا للراحة وإنْ ظلوا قابضين بأيديهم على أعنَّة جيادهم ، كما قام هو ذاته فجمع كومة من الحشائش توسدها واتخذها فراشا له حيث قضى بقية ليلته ممسكا بعنان فرسه ، ووجهه منكفئ إلى الأرض.

(٧)

ولما أشرقت الشمس رأى بوهيموند الرومان قد رتبوا صفوفهم للقتال ، وشاهد الرايات الإمبراطورية تخفق فوقهم ، وطالعته الرماح المكسوة بالفضة ، ونظر فرأى الجياد وعليها سروج الإمبراطور الأرجوانية ، فلم يتوان من ناحيته عن بذل أقصى جهده لترتيب عسكره لقتالهم وقسَّمهم طائفتين ، قاد هو واحدةً بنفسه ووكل الأخرى إلى " برينيوس "(١٧) الذى كان من اللاتين البارزين ويُلقبُ بالكونستابل .

ولقد استعمل بوهيموند تكتيكاته المألوفة فكرّ على الطليعة كرة شعواء حيث رأى تَجَمُّع الرايات الإمبراطورية وهو يظن أنّ الإمبراطور تحتها ، ونزل على من فيها كالريح العاصف فقاوموه قليلاً لكن ما لبثوا أن ولّوه ظهورهم وفروا على أعقابهم ،

فـانطلق يطاردهم مطاردة جنونيـة ، فلمـا شـاهد الإمـبـراطور ذلك الأمـر وأيقن أن بوهيموند قد بعد كل البعد عن معسكره اعتلى صهوة جواده وأمر رجاله أن يفعلوا فعله وأغار بهم على مـعسكر الكلت ، ولم يكد يصير في داخله حتى فتك بطائفةٍ كبيرة من اللاتين وغنم هـو ورجـاله مـا وصلت إليـه أيديهم ، ثم راح ينفض الناحيـة التى حـوله بناظريْه بحثا عن بوهيموند والهاربين .

كـان الأخـيرون لا يزالون ملحين في هربهم، في حـين كـان " بوهيـمـوند " لايزال ينطلق في المطاردة وخلفـه " برينيس " ، فـأرسل الإمـبـراطور في طلب جـورج بيـرهس Pyrrhus وكـان مـشـهـورا في الرمـي بالنشـاب ، كـمـا بعث في طلب غـيـره من كـبـار المقاتلين وأمَرَهم بالمضي في أعقاب " برينيس " على أن يتحاشـوا قتاله وجـهـا لوجه ويتجنبوا حربه في الأماكن المغلقة بل يكتفوا برمـي جياده بسـهامـهم دون أن يصيبوا راكبيها . وحينذاك شاهدوا العَدو فأخذوا يرشقونه بسـهامـهم التى فوّقوها إلى خيله فـأصابتها فبثت البلبلة في نفوس الكلت الذين لم يكن في قدرة أحدٍ التغلب عليهم وهم على ظـهور خـيلهم . أمـا إذا ترجلوا عنهـا فـإن دروعـهم تثـقلهم وتعـوقـهم مـهـامـيـزهم فيصبحون فريسة هينة جدا على مطارديهم وإذْ ذاك تفتر حماستهم .

ويبدو لي أن هذا هو السبب الذى حدا بالإمبراطور لأنْ ، يأمر رجـاله برمى الخيل دون راكبيها . ولما كثرت جموع " برينيس " ثارت سحابة من العجاج وعلت حتى بلغت عنان السمـاء وصـارت أشبـه بكـسف الظلام الذى غطى مـصـر منذ زمن سحـيق، وهو ظلام شعر به الناس منذ أن أعمت سحابةُ الترابِ الكثـيفة أبصـارِ القـوم فأصـبحوا لا يدرون من أين تنهال عليـهم السـهـام ، ولا يعرفـون مَن الذين يرمـونهـم بهـا ، ولذلك بعـث " برسيني " بثلاثة من اللاتين إلى بوهيموند يخبرونه بالقصة كاملة ، فلما جاءه هؤلاء الثلاثة وجدوه في ثلة ضئيلة من الكلت بجزيرة صـغيرة واقعة في نهر اسمه "سـالابريا " Salabria ، وشـاهدوه ومن مـعـه يأكلون قطوف العنب وسـمـعـوه يتـبـاهى بصـوتٍ عـالٍ وهو مـزهو زهوا كـاذبا بما طبع عليـه ، ولا تزال مـلاحظتـه التى أبداها يومذاك تتردد على الألسن حتى اليوم ، ولا زال الناس يتندرون بها في سخرية، فقد استمر يقول بلسان بربرى أعوج يقلد به اللسان الليكوستميوني " لقد رَمَيْتُ بالكسيوس في فم الذئب" (١٨) ، وهذا هو الذى يحدث حين يعمى الغرورُ المطبق الناسَ فيمنعهم من رؤية الحق وهو أبلج أمام أعينهم وبين أيديهم .

على أنه لما سمع رسالة " برينيس " وأدرك أن الإمبراطور قد انتصر بالمكر غضب ، ولكنه - كدأبه - لم يجزع بل اكتفى بأن يبعث بنفر من ثقات أتباعه الكلتيين إلى قمة أحد الجبال المواجهة للاريسا ، فلما رآهم العسكر الرومانى فى هذه البقعة أخذوا يناقشون الأمر فيما بينهم وقرروا وجوب النهوض لقتالهم بقوة كبيرة ، فحاول الإمبراطورأن يثنيهم عما يريدون فلم يفلح لأنهم كانوا جمْعا غفيرا يرجعون إلى فيالق مختلفة ، ثم كان لهم ما أرادوه فتسلقوا قمة التل وأغاروا عليهم فتصدى لهم الكلت من غير تردد وقتلوا منهم ما يقرب من خمسمائة رجل ، ثم قام ألكسيوس - وهو يخمن أى طريق يسلكه بوهيموند - فأرسل جماعة من أكفأ جنده على رأسهم " ميجيدينوس " Migidenus ومعها طائفة من الترك يعترضون سبيله فلما اقتربوا من بوهيموند هبّ فقاتلهم وهزمهم وطاردهم ففروا منه حتى بلغوا النهر .

(٨)

حين تبلّج الصباح وأطلّت الشمس من خدرها مضى بوهيموند فى كونتاته الملازمين له واصطحب معه " برينيس " وهم جميعا على صهوات جيادهم وانطلقوا مصاقبين لشاطئ النهر حتى بلغوا ناحية تكثر بها المستنقعات واقعة على أطراف "لاريسا " فوجدوا سهلا تغطيه الأشجار الكثيفة وينتهى عند شِعب صخرى وعْرِ المسالك يسمونه " كليسورا " Klisura ، فدخله بوهيموند بهم ونصب معسكره فى السهل الذى كان يسمى قصر دومنيكوس Domenicus . ولما كان فجر اليوم التالى أخرج ميخائيل دوكاس - الذى هو خالى - كل الجيش ، وكان مشهورا بذكائه ويفوق جميع بنى جنسه بضخامة هيكله وجمال تقاطيعه . والحق أنه كان يبز فى هذه الصفات جميع من كانوا يعيشون فى هذا الوقت ، فلم يكن أحد يراه إلاّ ويتملكه الإعجاب به، هذا إلى جانب ما وهبه الله من ملكات قوية ، كما لا يجاريه أحد فى بعد النظر والقدرة على توقّع الأحداث ولا يقل عن ذلك مهارته فى إدراك الأخْطار الكبرى وكيفية القضاء عليها .

ولقد أصْدر الإمبراطور إليه تعليماته بِألاّ يسمح لرجاله بالدخول كلهم هذا الشِّعب معا وفى وقت واحد بل عليه أن يستبقى الجانب الأكبر منهم خارجه ولا يأذن باقتحام

الشُّعب إلا لنفر قليل من الترك والسرمانيّين الذين ينتخبهم من بين أمهر الرماة بالقوس، كما أوصاه فى الوقت ذاته بمنعهم من استعمال أى سلاح إلا السهام، فلما دخله منهم من دَخلوه وهاجموا اللاتين تنازع بقيتهم الذين فى الخارج فيما بينهم ولم يعودوا يطيقون صبرا عن الانضمام إلى من سبقوهم فى دخوله. ثم أصبح السؤال يدور حول من ذا الذى يدخل منهم.

أما بوهيموند الذى كان يعتمد على إلمامه الكبير بفن التنظيمات القتالية فقد أمر رجاله بالوقوف ثابتين فى صفوف متراصة يحمى بعضهم بعضاً.

فلما رأى القائد العام الرومانيين ينسلّون واحدا بعد واحد ويمضون إلى فَمِ الشعب فعل هو الآخر فعلهم ودخله، ففرح بوهيموند إذ رآهم يفعلون ذلك، وكانت فرحته أشبه "بسعادة الليث ينقض على فريسة دسمة" كما يقول هومير، لاسيما حين رأى بعينى رأسه "ميخائيل دوكاس" وجنده فرمى بنفسه على ميخائيل ومن معه بكل قوته فطاروا سراعا. وكان هناك "أوزاس" ouzas المسمى باسم بنى جنسه، وكان رجلا قد طبقت شهرته الآفاق وكان هو الشخص الذى يعرف "كيف يمزق جلد الثور مزقا يمينا ويسارا"، وقد اندفع بخفة من الشُّعب وانحرف بسرعة ناحية اليمين ثم ضرب اللاتينى الواقف خلفه ضربة سقط منها هذا اللاتينى على أم رأسه.

لكن ذلك لم يمنع بوهيموند من مطاردة الهاربين حتى بلغوا نهر "سلابريا"، غير أنه حدث أثناء ذلك أنْ تمكن "أوزاس" من طعْن حامل راية بوهيموند وانتزعها من يده ولَوَّح بها قليلا ثم نكّسها، فتحيّر اللاتين إذ رأوا علم صاحبهم منكسا فعمَّتهم الفوضى وسادهم الاضطراب وانطلقوا سالكين الطريق الآخر الذى انْتهى بهم إلى "تريكالا" Trikala التى كان بعض اللاتين قد احتلوها أثناء فرارهم إلى "ليكيستوميون"، فانضموا إليهم وعسكروا فى البلد بعض الوقت ثم غادروه بعد حين إلى "كاستوريا".

كان ألكسيوس قد عاد فى هذه الأثناء إلى "لاريسا" ودخل "تسالونيكا" ولم تفارقه فى هذه الظروف مهارته المطبوع عليها، فلم يتوان عن إرسال الرسل إلى كونتات بوهيموند يقطع لهم على نفسه العهود الكثيرة إنْ هم طالبوا قائدهم بما لهم فى ذمته من مال كان قد وعدهم به، فإنْ عجز [بوهيموند] عن الوفاء لهم بما فى ذمته أقنعوه بالسفر والذهاب إلى أبيه "روبرت" ليحثه على دفع رواتبهم.

وأكد ألكسيوس للكونتات أنهم إنْ فعلوا ذلك [أى إذا تخلصُوا من بوهيموند] وذهبوا إلى ألكسيوس فإنّه مُكْرِمُهم غاية الإكرام ومُغْدِق عليهم من الإنعامات ما لا يحصره العد، وكان مما وعدهم به أنه سوف يدرج فى سجلات الجيش منهم من يرغبون فى الانخراط فى سلك العسكر الإمبراطورى، ويجرى عليهم الرواتب والأرزاق السخية التى يحدّدونها هم بأنفسهم. أما من أراد منهم العودة إلى بلاده فإنه يضمن له سلامة الرجوع عبر المجر.

استمع الكونتات بآذان مصغية إلى عروض ألكسيوس فمضوا إلى "بوهيموند" وطالبوه بأجورهم عن السنوات الأربع الماضية وأصرّوا على طلبهم هذا، فعجز عن إجابة مطلبهم ثم راح يماطلهم فضاعفوا من إلحاحهم عليه أكثر من ذى قبل، وكانت مطالبهم هذه معقولة.

لذلك قام بوهيموند - واليأس يملأ قلبه - وترك "بريين" لحراسة "كاستوريا"، كما عهد إلى "بطرس أوليفاس" بحراسة "بولبى" أمّا هو فقد انطلق إلى "أفلونا"، بينما رجع الإمبراطور إلى القسطنطينية منصورا.

(٩)

عاد ألكسيوس إلى القسطنطينية ليجد الكنيسةَ فى حالٍ يُرثى لها إذ اضطربت أمورها، فلم يعط نفسه قسطا من الراحة يلتقط فيه أنفاسه، ولما كان رجلا صادقا فى خدمة الرب ورأى الكنيسة وقد أزعجتها تعاليم "إيتالوس" فإنه بادر بالعمل على إنقاذها من الفوضى التى تردت فيها، رغم أنه كان يعدّ العدة ويرسم الخطط ضد "بريين" الكلتى الذى كان قد احتل كاستوريا.

كانت قد انتشرت فى هذا الوقت تعاليم "إيتالوس" الذى كانت مبادؤه المقيتة قد استشرت، وأرى لزاما علىَّ أن أسوق فى هذا المجال نبذة عن حياة هذا الرجل منذ بدايتها.

كان "إيتالوس" قد قدم أصلا من إيطاليا وعاش ردحا من الزمن فى صقلية ، وحدث أن ثار أهل صقلية على الرومان واستعدوا لمحاربتهم ومن ثم استدعوا لمساعدتهم حلفاءهم الإيطاليين الذين كان من بينهم والد "إيتالوس" وكان ابنه حينذاك غلاما حَدَثا دون السن التى تمكنه من حمل السلاح، إلا أن ذلك لم يمنعه من السير إلى جانبه وملازمته مما أسفر عن إتقانه فن الحرب حسبما يفهمه الإيطاليون.

هكذا كانت مغامراته الأولى فى الحياة وخطواته التمهيدية فى التعلم، غير أنه لما آلت مقاليد الأمور إلى يد "جورج مانياكاس" وأصبح صاحبَ الحل والعقد فى صقلية فى عهد مونوماخوس تمكن الأب والابن من الفرار من الجزيرة ولكن بصعوبة ولجأ الاثنان إلى "لمبارديا" التى كانت لا تزال حتى ذلك الحين تابعة للبيزنطيين، إلاّ أنه استطاع بوسيلة أو بأخرى أن يهاجر إلى القسطنطينية التى كانت مركزا عظيما لجميع فنون العلم والمعرفة والدراسات الأدبية الإنسانية، وعلى الرغم من أن فنون الآداب لم تكن تلقى رعاية كبيرة من جانب الكثيرين منذ عهد بازيل الثانى حتى زمن "مونوماخوس" إلا أنها لم تتلاش تماما، ثم عاد نجمها يتألق من جديد أيام ألكسيوس حتى صارت موضع الاهتمام الكبير عند عشاق الجدل الفلسفى، وكان الناس يعيشون قبل ذلك عيشة الاسترخاء والاستمتاع، وأدّى انغماسهم فى العادات المستهجنة إلى انصرافهم لصيد طائر السمان وغير ذلك من ضروب اللهو المشينة. وكانت جميع فنون الثقافة العلمية والأدب تحتل مكانة ثانوية عند هؤلاء الناس.

هكذا كانت طبيعة القوم الذين وجدهم "إيتالوس" هنا.

لكنه راح يتجادل مع علماء الكلام الذين يَجْمعون بين الخشونة وجفاف الطبع، والذين كانت كثرة منهم يوم ذاك فى العاصمة، وتلقّى "إيتالوس على أيديهم التعليم الأدبى، ثمّ تسنّى له بعد ذلك أن يتصل بميخائيل بسيللوس الشهير كما مكّنه ذكاؤه وسرعة بديهته من التردّد بكثرة على محاضرات العلماء، فكان من جراء ذلك أن حاز النصيب الأوفى من شتى فنون المعرفة، واستوعب تمام الاستيعاب الآراء الهيلينية والخلقدونية؛ ومن ثم ذاع صيت حكمته فى تلك الأوقات.

وعلى الرغم من أن "إيتالوس" تتلمذ على يد "بسيللوس" العظيم ، فإنه بدافع من غروره الهمجى اعتبر نفسه أعلى مكانةً منه، كما أدى به هذا الغرور الأحمق للجدل الفلسفى، ولم يكن يمر عليه يوم إلا ويثير المنازعات فى الاجتماعات العامة حتى قيل إنه يضرب بسهم وافر فى العلم فكان يطرح كثيرا من الآراء الغامضة والقضايا المبهمة ويسوق فى تأييدها عللا فَجّة. وكان إمبراطور ذلك الوقت "ميخائيل دوكاس" وإخوته من أصدقائه الحميمين. وعلى الرغم من اعتبارهم إياه دون "بسيللوس" إلا أنهم أظلوه برعايتهم، وكانوا يقفون إلى جانبه ويؤيدونه فى المناقشات الأدبية. والواقع أن بيت دوكاس لا سيما ميخائيل وإخوته كانوا رعاة للأدب، وكان "إيتالوس" دائم الحقد على بسيللوس الذى كان أشبه بالنسر يحلق دائما فى العلى ويتسامى مترفعا عن جميع ترهات "إيتالوس" الغثة.

ولعلك أيها القارئ تريد أن تعرف ما حدث بعدئذ فأقول: كان اللاتين الطليان فى صراعهم العنيف ضد الرومان قد دبروا خطة للاستيلاء على كل لمباردبا بل وإيطاليا ذاتها.

ولما كان الإمبراطور يُنزل "إيتالوس" منزلة الصديق الشخصى له ويعتبره رجلا فاضلا وخبيرا بالشئون الإيطالية فقد بعثه سفيرا إلى "إبيداموس". وأوجز خبره فأقول إن مجريات الأحداث سرعان ما كشفت عن خيانته لنا، وإذ ذاك بعثوا رسولا كلفوه بإزاحته، فلما وقف "إيتالوس" على ما دُبر له لجأ إلى رومة، ثم عاد كدأبه يعلن توبته ويبدى نَدَمَه على ما سلف منه ويستعطف الإمبراطور حتى سمح له بالعيش فى القسطنطينية فى دير "بيجى" فى كنيسة الأربعين قديسا.

ولما انسحب "بسيللوس" من بيزنطة بعد أن حلق شعر رأسه وانخرط فى سلك الرهبنة اعتلى "إيتالوس" كرسى الفلسفة ولُقب بـ "قنصل الفلاسفة"، وكرّس كل نشاطه لتفسير كتابات أرسطو وأفلاطون، وأظهَرَ ما دلّ على غزير علمه، ورأى الناس أن ليس هناك من أحدٍ أقدر منه على البحث الدقيق فى نظريات الفلاسفة المشائين ولا سيما الجدليين.

على أنّ كفاءته لم تكن بمثل هذا الجلاء في الدراسات الأدبية الأخرى للنقص البين في إلمامه بالنحويات مثلا، كما أنّه لم ينهل من كوثر علوم البلاغة، لذلك كانت لغته تنقصها الطلاوة ويعوزها الصقل وإشراق الديباجة، كما اتّسم أسلوبه بالجفاف، فليس فيه شيء قط من المحسنات اللفظية، كما طُبعت كتاباته بطابع النقد الجارح، وغمست بالجدل التهجمي، وكان بذيء اللسان بذاءةً تزداد وضوحا حينما يكون في إحدى المناقشات الجدلية، وهي أكثر وضوحا حين يكتب، وهو أقوى ما يكون في أحاديثه، حتي إنه ما من أحد يستطيع التغلب عليه حين يتكلم فيصبح معارضُه في وضع يرى نفسه فيه مغلوبا على أمره فلا يملك حياله إلاّ الاعتصام بالصمت المطبق. وقد جرت عادته على أن يجعل السؤال الذي يلقيه شائكا وحينذاك يرمي مُجادله في هوة من الصعاب، فإن عارضه أحد كتم أنفاسه بأكوام من الأسئلة التي تبلبل الفكر وتعوقه عن الردّ.

هكذا كان "إيتالوس" فارسا لا يشق له غبار ولا يجاريه أحد في ميدان الجدل، وما من أحد حاوره واستطاع النجاة من متاهات ضلالاته. أما في غير هذه الميادين التي لم يكن مبرزا فيها فقد كانت تسيطر عليه حِدَّةُ الخلق التي تفسد وتميت كل فطنة اكتسبها من دراساته، فهو لا يتورع عن الاستعانة باستعمال يديه إلى جانب شقشقة لسانه، ولا يكتفي بفشل معارضه ولا يقنع بالتزام خصمه الصمت وإغلاق شفتيه، بل إنه سرعان ما تمتد يده فيجذب لحية مناقشه وشعره ويكيل له الإهانات يتلو بعضها بعضا، ويمطره بوابل من الشتائم المتلاحقة، ويفقد كل سيطرة له على يده ولسانه، وأحسب أن هذا وحده كان كفيلا بِألاّ يجعله أهلا ليقال له إنه "فيلسوف" لاستعماله الضرب مع خصمه، فإذا فارقه غضبه انهمرت دموعه وندم على كل ما بدر منه. وإن شاء القارئ الوقوف على مظهره الجسماني فأستطيع أن أقول إنه كان رجلا ضخم الرأس، بارز الجبهة عريضها، ذا وجه شديد التعبير، واسع المنخرين، مدبب اللحية، مُدَمْلَج الأطراف، وكانت قامته أطول من قامة الرجل العادي، وتدرك من لهجته أنه شخص لاتيني وافد على بلادنا.

وإذا كان قد أخذ نفسه بدراسة اليونانية دراسةً عميقة إلاّ أنّه لم يتقن مصطلحاتنا، فنراه يلحن أحيانا فى بعض مقاطعها، ولم يَفُتْ معظم الناس ركاكة نطقه ولا تداخل الأصوات والمقاطع بعضها فى بعض، فرماه - من أصابوا حظا وفيرا من التعليم - بالسوقية، وعلى الرغم من أنه كان يستمد حججه من مصادر مختلفة فإنّ كلامه لم يَسْلم من أخطاء الإنشاء واللكنة.

(١٠)

ثم شغل هذا الرجل بعد ذلك كرسى الفلسفة العامة، فتكالب الشباب على دروسه، وراح هو يفسّر لهم أعمال "بروكلس" وأفلاطون وتعاليم الفيلسوفين "مورفيرى" و"اميليكاس" ويهتم على وجه الخصوص بمقالات أرسطو، فألقى محاضرات عن منهج أرسطو واستعماله لأغراض عملية، وكان يعتز ويتباهى بأنه يصرف معظم وقته فى هذا الميدان. ومع ذلك فإنه لم يستطع أن ينفع تلاميذه النفع المرجو الكبير بسبب ما طُبع عليه من حدة فى الطبع وعدم الاستقرار.

لكن من هم تلاميذه؟؟

ها هى ذى أسماء بعضهم:

إنّهم "جون سولومون"، و"ياسيتاس" liasitas و"سيربيلياس" serblegias ، وغيرهم من المجدّين فى دراساتهم، وكان معظمهم ممن يكثرون من التردد على القصر.

ولقد أدركتُ أنا نفسى فيما بعد أن معظمهم لم يجنوا أى نوع من المعرفة الدقيقة المنظمة، بل اقتصر دورهم على الاهتمام بالمجادلات المتعلقة بالمتغيرات والمجازات المطلقة، وكان بعضهم ينقصه الفهم الدقيق فى عرض نظرياتهم التى كانوا يطرحونها حتى ذلك الوقت عن تناسخ الأرواح وما شابه ذلك من مسائل أخرى لها نفس الطابع، ويسوقونها فى عبارات غامضة مبهمة. وكان طبيعيا أن يسعى رجال من أهل الثقافة إلى القصر الإمبراطورى فى الليل و النهار على السواء حين يكون الزوجان المؤمنان (وأعنى بهما أبى وأمى) مشغولين تماما بالنظر فى الكتب المقدسة.

وأتوقف عند هذه النقطة فأقول إن البلاغة لن تضن على فى الكلام عنه، فطالما حَدَث بعد فراغي من تناول الطعام أن كانت تمر بذهنى أمي وهى ممسكة بأحد الكتب تطالع أقوال الآباء الطاهرين عن العقيدة، لا سيما أقوال الفيلسوف الشهيد "ماكسيموس" ولم تكن أمي تميل كثيرا إلى التعمق فى طبيعة الأشياء الظاهرية مَيْلَها لدراسة العقيدة ذاتها؛ والسبب فى ذلك راجع إلى أن والدتى كانت تتطلع فى شوق لتجنى ثمار الحكمة الحقيقية، وكثيرا ما تعجبْتُ لهذا الأمر تعجبا حملنى ذات مرة على أن أسألها كيف يا أماه تمكنت وحدك من الوصول إلى مثل هذه الأمور بل وحتى ما هو دونها فإن كتابات هذا الرجل المتسمة بالتأمل العميق و الجانب الفكرى تدير رأس قارئها. فابتسمَت إذ سمعَتْ هذا الكلام وقالت: "إنى واثقة بأنَّ هذا التردد منك أمر محمود، وأنا نفسى لا أقترب من هذه الكتب إلا ويعترينى الاضطراب، ومع ذلك فإنى لا أستطيع أن أنتزع نفسى منها أو أبعد عنها، وأنصحكِ أنْ تأخذى نفسك بالنظر فى غيرها أخذًا دقيقا، ثم عليك أن تتمهلى قليلا. وصَدقينى إنك لابد ذائقة حلاوة تلك الكتب".

لقد ظل صدى كلماتها هذه يتردد فى ذهنى كما أنه مسُّ شغاف قلبى. وإن كلماتها هذه لتغرقنى فى لجة من الذكريات العذبة. غير أن التاريخ يضطرنى للعودة إلى الكلام عن أحوال "إيتالوس" الذى كان وهو فى ذروة مكانته بين الطلاب الذين أشرت إليهم يعاملهم جميعا معاملة تنطوى على الازدراء بهم، ذلك أن معظم الحمقى الطائشين الذين حرّك فيهم عوامل التمرد أصبحوا فوضويين. وكنتُ قادرةً على أن أسمى الكثيرين منهم لو لم يعمل تقدم العمر على ضعف الذاكرة، لأن هذه الأحداث جرت – كما رأيت – قبل أن يتسلم أبى مقاليد الحكم، فلم يكد يرى التدنّى العظيم الذى أصاب الثقافة والمهارات الأدبية –بعد مصادرة الكتابات الأدبية فى المدينة – حتى سعى السعى الحثيث للمِّ شعث ما وجده منها، فعمد إلى دفع من وجد فيه ميلا للعلم وللتعليم وإن كان هؤلاء وأمثالهم قلائل من أتباع فلسفة أرسطو لكنه لم ينصحهم بصرف اهتمامهم الكلى إلى الكتاب المقدس قبل أن ينهلوا من ورد الثقافة الهيلينية.

ولما لاحظ ألكسيوس أن "إيتالوس" يشيع الاضطراب والفوضى أينما حلّ فقد رأى أن يبدأ فيعهد إلى أخيه إسحاق كومنين بأن يحكم على هذا الرجل بما يرى، وكان

عمّى إسحاق عالما كبيرا وصاحب مُثلٍ عليا، إلى جانب شدة إيمانه واقتناعه بأن "إيتالوس" ما هو إلا رجل يعمل على إثارة الشغب، لذلك حاكَمه فأدانه جَهْرا، ثم أمر - وذلك بناء على تعليمات أخيه ألكسيوس- بالمثول أمام محكمة دينية. وكان من المستحيل على "إيتالوس" إخفاء جهله لا سيما أمام هذا المجمع، لذلك فإنه لم يجد بدا من أن " يتقيّأ " التعاليم الدخيلة على التعاليم الكنسية، وإنْ أصَرَّ فى حضرة كبار رجال الكنيسة - إصرارا يتسم بالسخرية - على التشدق بأمور أخرى ذات سمة دينية فجة.

كان الجالس على كرسى الكنيسة إذ ذاك هو "يوستراديوس جاريداس"، فرأى أن يمثل "إيتالوس" أمام محكمة دينية، ثم رأى البطرك أن يقيم "إيتالوس" إلى جوار كنيسة القديسة صوفيا لعله يهتدى إلى سواء السبيل ويرجع عن ضلاله ويتوب عن غيه، لكن الذى جرى هو أن البطرك ذاته ما لبث أن زلّ فاعتنق هو نفسه مبادئ هذا الهرطيق بدلا من أن يهديه إلى محجة الصواب حتى قال الناس إن "إيتالوس" جعل من البطرك تابعا له وأحَدَ حوَاريّيه، مما ترتب عليه خروج كل سكان القسطنطينية إلى كنيسة سنت صوفيا يفتشون عنه وكادوا أن يلقوا به من شرفاتها إلى باحتها لو لم يبادر إلى تسلق سورها واعتلاء سطحها واختبأ فى عاليةٍ بها.

لقد كانت عقائد "إيتالوس" الفاسدة موضوع حديث الساعة بين الكثيرين من أهل القصر، بل إن الكثير من أفكارهِ الضالة المهلكة أفسدت العديد من علية القوم مما سبَّب نكدا للإمبراطور، ومن ثم رُفعت إلى الكسيوس عريضة تضمنت تعاليم "إيتالوس" الكافرة واحتوت على أحد عشر اتهاما، وإذ ذاك بعث ألكسيوس إليه وأرغمه على سماع تلاوة هذه الاتهامات وهو مكشوف الرأس من فوق أحد منابر الكنيسة الكبرى وعلى مسمع من جميع المصلين الذين راحوا يرددون قولهم: "اللعنة عليك... اللعنة عليك" ، كلما فرغ القارئ من قراءة واحدة من هذه التهم.

لكن على الرغم من ذلك فإن إيتالوس أثبت أنه رجل فاسد لا يرجى صلاحه وتقويم معوجه، فقد عاد من جديد لينشر علانيةً نفس هذه المبادئ بين العامة، ولم يلْقِ بالا إلى نصائح الإمبراطور، بل إنه رفضها بوقاحة وبطريقة خارجة على القانون، ومن ثم صدر ضده قرار الحرمان الذى ما لبث أن خفّف بعد قليل حين أعلن توبته للمرة الثانية.

على أنه تقرر تحريم تعاليمه، وأدْرج اسمه في سجلات المنبوذين، فنسيه الكثيرون، ثم بدا له أخيرا أن يغيِّر آراءه المتعلقة بالعقيدة، وأنْ يتوب عن خطاياه السالفة، فنبذ فكرة تناسخ الأرواح والاستخفاف بالصور المقدسة وصور القديسين، وتلهف على تفسير نظرية الآراء الأفلاطونية تفسيرا جديدا وصحيحا إلى حد ما، وتجلى للعيان أنه عرف طريق الحق وتبينه فأصبح كارها لانحرافاته السالفة.

الحواشي

(١) حين وافت روبرت منيته بعد ذلك بثلاثة أعوام أعنى سنة ١٠٨٥ كان فى السبعين من عمره كما تشير إلى ذلك أنا كومنينا . أما أبوها ألكسيوس فقد ولد ١٠٤٨ بناء على ما يقوله " زيناروس" وإن قالت ابنته ذات مرة إنه ولد سنة ١٠٥٦. انظر معجم التراجم البيزنطية ترجمة حسن حبشى ، وانظر ايضا : Ghalan-don, Essai sur La regne d, Alexis , Paris 1900 .

(٢) العبارة مبهمة فى كل من نسختى إليزابث وسوتير ، وإنْ كانت الأخيرة ترجع أنه ربما كان المقصود بذلك المجمع الذى وردت الإشارة إليه فى Cambridge mediveal Hist., IIV, pt. II, PP 109-110

(٣) كان سوق النحاسين المعروف باسم Ghalcopratia فى بيزنطة على مقربة من كنيسة أياصوفيا .

(٤) حين ترد هذه الكلمة فى كتابات أنا كومنينا فإنها تقصد بها أحيانا جماعات البشناق .

(٥) تشير نسخة سوتير إلى أنه كان مُحرَّما على هؤلاء المانويين الانخراط فى الجيش الرومانى للخدمة الحربية اعتمادا على ما يقوله المؤرخ زيناروس .

(٦) آثرنا ترجمة الاسم الإنجليزى الذى يطلق على هذا النوع من السفن المعروفة باسم Morarome بكلمة "مرمة" لأنها أقرب ما تكون إلى maremama التى قال عنها درويش النخيلى فى معجم السفن ، ص ١٤٠ - ١٤١ إنها نوع من السفن الحربية الكبيرة فى العصور الوسطى ، وقال : يظهر أنها من أصل إيطالى. ثم ساق ما جاء فى المراجع والمصادر الإسلامية عنها من حيث الوصف والاستعمال .

(٧) كان بابا رومة فى هذه الآونة هو جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) وقد لعب دورا كبيرا فى أحداث هذه الفترة .

(٨) لعل المؤلفة تشير هنا إلى ما جاء فى الإنجيل: ليكن كلامكم نعم نعم أو لا لا .

(٩) فى إليزابيث: " المدن المختلفة " .

(١٠) الوارد فى إليزابيث :" وهنا نزل أحد الكونتات ويلقب بالشرقى" .

(١١) يكون الاحتفال بهذا العيد يوم ٢٣ أبريل.

(١٢) يعلق سوتير فى ترجمته على هذا فيقول: " إن هذا الجبل سمى بهذا الاسم Kellion نظرا لكثرة الأديرة الموجودة فى تلك الناحية ".

(١٣) فراغ فى نسختى إليزابيث و سوتير.

(١٤) الذى جاء فى نسخة دوس : أيها الإمبراطور .

(١٥) أشارت نسخة سوتير إلى أن جون الصغير Little john هذا هو نفس جون الوارد ذكره فى هذه الترجمة من قبل . ولكننا نرجع أنه غيره وذلك أن جون الصغير أو الضئيل المذكور فى هذه الصفحة لم يكن من رجال الدين .

(١٦) المقصود هنا بالمصافين : الجيش البيزنطى و العدوّ .

(١٧) جاء اسمه بهذه الصورة فى ترجمتى إليزابيث وسوتير . على أن الترجمة الإنجليزية الأخيرة أوردته فى الحاشية باسم كونت بريين Brienne وقالت فى التعريف به كوندستبل " ابوليا" .

(١٨) يعلق سوتير على هذا المثل فيقول إن هنا تلاعبا لفظيا بيْن الكلمتين اليونانيتين: Lyhoustonna, ly-basteon . الواردتين فى الأصل اليونانى.

الكتاب السادس

الحرب ضد النرمان (١٠٨٢ - ١٠٨٣)

فقرات الكتاب السادس

١- ألكسيوس يستولى على" كاستوريا" مرة ثانية.

٢ - إخماد ثورة البوليكان واتهامهم بالخيانة.

٣ - حين يصبح ألكسيوس بالقسطنطينية يقرر مصادرة أملاك الكنيسة ويقدم لها التعويضات عن هذه المصادرة.

٤ - الكشف عن تدبير مؤامرة لاغتياله.. اكتفاؤه بنفى المتآمرين رغم اعترافهم بجريرتهم. خبر"تراولوس" وخطر البشناق.

٥ - روبرت جيسكارد يستعد لمهاجمة" إلليريا" من جديد وأنذاك يحاول ألكسيوس إغراء "جى" بن روبرت جيسكارد بالخروج على أبيه. انتصار البنادقة فى معركة بحرية. ثم هزيمتهم فى المعركة التالية. روبرت يستعمل أشد أنواع القسوة مع أسراه. البنادقة ينتصرون فى المعركة التالية. ألكسيوس يمنح دوق البندقية امتيازات تجارية كبيرة.

٦ - مرض روبرت ووفاته فى" كيفالونيا" .

٧ - تكهنات " سيث" والحديث عن الكهانة. خلف روبرت.

٨ - مولد أنا كومنينا يوم أول ديسمبر ١٠٨٢ ثم ولادة شقيقها "يوحنا الثانى" .

٩- العدوان التركى والحروب الممضة. انتحار سليمان. الترك يصبحون فى غاية القوة. ملكشاه يعدُ ألكسيوس بالمساعدة لقاء التحالف بينهما. المصاهرة.

١٠ - مغامرات أبى القاسم . ألكسيوس يقيم على الساحل الآسيوى عدة حصون سرية .

١١- الحدود التى كانت عليها الإمبراطورية الرومانية قديما .

١٢- أبو القاسم يشنق نفسه. قلج أرسلان يتخذ من نيقية مركزا لعملياته الحربية.

١٣- الرشوة تعمل عملها فى الإيلخان فيهب لنجدة الرومان.

١٤- البشناق بقيادة " تاوروس" Taurus يساعدون المانويين فى هجومهم على الإمبراطورية. انسحابهم بعد النصر ثم هزيمتهم.

هزيمة النرمنديين (١٠٨٢ - ١٠٨٣) ، وموت روبرت جيسكارد

(١)

احتل " بريين" - كما روينا - " كاستوريا "، ولما كان الإمبراطور شديد الحرص على طرده منها واستيلائه هو ذاته على البلد فقد استدعى جيشه للمرة الثانية وجهزه تجهيزا تاما يؤهله للقيام بالحصار والقتال وجها لوجه، ثم خرج به بعد فراغه من كل الترتيبات .

كان الوضع فى مدينة كاستوريا كالآتى هو أنه توجد بحيرة تسمى باسم المدينة، وكان هناك نتوء بارز من الأرض يأخذ فى الاتساع والانبساط حتى يصل إلى منحدرات صخرية متصلة به. وقد شيدت على هذا النتوء أبراج وأسوار لتقويته جعلته أشبه ما يكون بالحصن أو القلعة. ومن هنا جاءت تسمية هذا الموضع بكاستوريا، فلما رأى الإمبراطور انشغال " بريين" صمم على أن يبدأ باختيار التحصينات ولما كان من المستحيل على الجند الاقتراب من هذه الأسوار إلا من ناحية معينة فقد شرع فى وضع " خوازيق" لصق بعضها البعض الآخر، ثم ثنَّى بصنع أبراج خشبية، فلما كمل البناء ربط بعضه إلى بعض بالسلاسل الحديدية ليتخذها مركزا يدير منه عملياته الحربية ضد الكلت[١] .

كذلك أقام آلات الحصار والمنجنيق وواصل الحرب ليلا ونهارا مما ترتب عليه تصدع الجدران المحيطة بالبلد، غير أن ذلك كله لم يفت فى عضد المدافعين بل زادهم صمودا وصبرا على المقاومة، وظلوا يرفضون الاستسلام على الرغم من انهيار الساتر الأمنى. ولما وجد ألكسيوس نفسه عاجزا عن تحقيق أهدافه دبر خطة تنطوى على المخاطرة قَدرَّ انطوائها على المهارة، وذلك بأن يفتح جبهتين للقتال فى وقت واحد، تكون إحداهما على اليابسة، والأخرى على البحيرة، فيضع طائفة من الرجال البواسل

فى قوارب بالبحيرة . لكن لما لم يكن تحت يده هذه القوارب فإنه عمد إلى ما كان عنده من الأساكيف[٢] فحملها على العربات وأنزلها فى البحيرة من رصيف هناك. ثم إنه لاحظ أن اللاتين يتسلقون الربوة من أحد جوانبها بسرعة فائقة فإذا تم لهم ذلك أسرعوا ينزلون ببطء شديد من الجانب الآخر، ولذلك فإنه أنزل إلى الماء " جورج بالايولوجس" وبصحبته طائفة من المقاتلين، وأمره أن يشدّ " أساكيفه " عند سفح الصخور.

واتفقا على علامة خاصة بينهما إذا شاهدها" بالايولوجس" مضى قُدُما فاستولى على الناحية العليا حيث توجد مؤخرة العدو، كما أمره بأن يتحاشى الطريق المألوف وأن يسلك أقصر الطرق. وزاد على ذلك فأخبره بأنه إن رآه يهاجم اللاتين براً بادر"أى بالايولوجس" فهاجمهم بحرا فيصبح اللاتين إذ ذاك عاجزين عن القتال فى جبهتين بنفس القوة ويصير بأسهم فى إحدى الجبهتين أضعف مما هو عليه فى الجبهة الأخرى، فلا يستطيعون الصمود.

رابط بالايولوجس بالسفن عند الصخور الناتئة واستعد بالسلاح، ووضع حارسا فى الناحية العليا كلفه بمراقبة الإشارة المتفق عليها فيما بينهما والتى إن جاءته من جانب الإمبراطور أسرع بإبلاغ بالايولوجس بها. فلما طلع الصباح شرع ألكسيوس وجندُه فى القتال برا صارخين صرخات الحرب. فلما رأى الحارس الإشارة المتفق عليها كلف سواه بأن يمضى بخبرها إلى بالايولوجس فيطيرها إلى ألكسيوس الذى أسرع إلى الاستيلاء على قمة التل وصفَّ جنده هناك. لكن على الرغم من معرفة "بريين" بأنه محاصر من ناحية البحر، وعلى الرغم أيضا من يقينه التامّ بتربص بالايولوجس الوحشى له من الجانب الآخر فإنه لم يذعن للاستسلام بل أمر كونتاته بتكثيف مقاومتهم، لكنهم ردّوا عليه ردا كريها إذْ قالوا له:" ها أنت ذا ترى بنفسك متاعبنا تتضاعف، وإنه لمن الصواب أن يتدبر كلٌ واحد منا - من الآن فصاعدا - ما يضمن سلامة نفسه، فمن رأى خيره فى الانضمام إلى الإمبراطور انضمّ إليه، ومن رأى الخير لنفسه فى العودة إلى دياره عاد من حيث جاء". ثم وضعوا موضع التنفيذ ما قالوه فطلبوا من الإمبراطور ألكسيوس أن يرفع رايتين من راياته، يجعل واحدة منهما على مقربة من مزار الشهيد العظيم" جرجس" وهو المزار الذى كان قد شُيِّد

تمجيدا له، ويجعل الراية الأخرى ترفرف على الطريق المؤدى إلى "أفلونا" وقالوا له:" من شاء منا الانخراط فى خدمتك يا صاحب الجلالة الإمبراطورية توجَّه إلى الراية المجاورة للمزار، أما من آثر الرجوع إلى بلده اتجه نحو الراية الأخرى سالكا طريق أفلونا".

على هذه الصورة كان انضمامهم السريع إلى ألكسيوس.

أما" بريين" وهو الرجل الشجاع فلم يكن عنْده أدنى رغبة فى الانضمام إلى الإمبراطور لكنه أقسم قسما غليظا ألاّ يحمل السلاح ضده أبدا. غير أنه اشترط عليه إزاء ذلك أن يمنحه عهدَ أمانٍ يكون سارىَ المفعول حتى حدود الإمبراطورية، وأنْ يكون له الحق فى العودة حرًا إلى دياره. فوافق الإمبراطور على طلب"بريين". أما ألكسيوس فقد سلك الطريق المؤدى إلى بيزنطة فدخلها ظافرا منصورا.

(٢)

وأتوَقَّف عند هذه النقطة قليلا لأصف صورة تغلبه على الثوار" البوليكان" الذين كانوا شوكة تقض مضجعه، فهو لا يريد أن يدخل القصر بعد النصر الذى حازه إلاّ بنصر جديد على المانويين الذين كانوا من سلالة" البوليكان" والذين كانوا فى اعتباره النقطة السوداء التى تشوِّه سجل انتصاراته الرائعة على أعدائه الغربيين. إلاّ أنه لم يشأ أن تتم غلبته عليهم بالحرب لما فى القتال من هلاك الكثيرين من الرجال فقد عرفهم منذ زمن بعيد فعرف فيهم قوما محاربين لا يكترثون بالموت، ناهيك عما يكنونه فى صدورهم من كراهية شديدة تجاه خصومهم. ولم يكن يطمع فى أكثر من معاقبة زعمائهم المحركين لهم، وإنْ سعى فى الوقت ذاته لتدوين هؤلاء الزعماء فى سجلات ديوان جيشه الخاص، فعمد إلى حيلة مكَّنته من إدراك غايته هذه، فقد كان يعرف ما جبلوا عليه من الولع باقتحام الأخطار وحبهم للحرب والنزال مما بثَّ الخوف فى صدره من أنْ يفتتنوا حدوث أزمة من الأزمات للقيام بارتكاب جريمة مروعة، وإن كانوا فى لحظتهم الحالية يركنون إلى الهدوء داخل حدود أراضيهم ولا يشنون غارات جديدة

يسلبون فيها مَن حولهم، لذلك فإنه ما كاد يعود إلى بيزنطة حتى استدعاهم إليه بكتب بعثها إليهم، قاطعًا فيها العهود لهم على نفسه، لكنهم خافوا- وقد سمعوا بالنصر الذى أحرزه منذ قليل على الكلت - أن تكون كتبه هذه إليهم مجرد وعود جوفاء، بَيْد أنَّهم رغم ذلك قَدِموا عليه ولكن على كُرْهٍ منهم. وحدث بعد وصوله إلى ضواحى " موزينوبوليس" Mosynopolis أن توقف متعللا ببعض العلل الواهية، لكن الواقع أنه كان يترقب مجيئهم إليه، فلما جاءوه تظاهر بالرغبة فى لقائهم شخصيا وإدراج أسمائهم فى سجلات الجيش، وجلس أمامهم مقطبا الجبين ليبدو فى غاية الهيبة والجلال. ثم أشار أن يدخل عليه زعماؤهم مترجلين فترجلوا وساروا أمامه بانتظام فى مجموعاتٍ كان قوام كل واحدة منها عشرة أشخاص، حتى إذا تمَّ تدوينهم فى السجلات أمر بفتح أبواب البلد لهم ففتحت كى يدخلوا، ثم وعد أنْ يستعرض بقيتهم فى اليوم التالى.

كان الإمبراطور قد أعدَّ رجالاً لتجريد كل مجموعة مما معها من الجياد والسلاح، ثم اختار سجونا معينة وضع فيها زعماءهم وتمَّ ذلك كله دون أن يدرى أتباعهم الذين جاءوا فى أثرهم بما جرى لقادتهم، فلما تقدَّم هؤلاء الأتباعُ دخلوا وهم يجهلون المصير المُخبَّأ لهم فألقى الإمبراطور القبض عليهم جميعا وصادر كل ما معهم وقسَّمه بين الرجال الشجعان الذين شاركوه من قبل أيام عسرته فى الحروب، كما نال من شاطروه الأخطار التى واجهها من قبل بعضها.

ثمَّ مضى (٤) الضابط الموكول إليه هذا العمل لينتزع النساء المانويات من دورهن وزجَّ بهن فى القلعة رهيناتٍ بها. على أنَّ الإمبراطور رأى أن يبسط ظل رحْمَته(٥) فلم يمنع أحدا من التعميد إن أحبَّ أن يُعَمَّد، ثم أجرى بعد ذلك تحقيقا عرف منه مَن هم رءوس الشغب والفتنة ومن المسئولون عن مسلكهم الزرىّ فأمر بنفيهم فنُقلوا إلى الجزر وسجنوا بها. أما سواهم فقد أطلق سراحهم وأذن لهم بالذهاب أنَّى شاءوا فآثروا وطنهم على ما سواه من البلاد وسرعان ما عادوا إليه يمارسون حياتهم على ما ألفوا.

(٣)

عاد[٦] ألكسيوس إلى القسطنطينية غير غافل عما يتهامس به الناس فيما بينهم فى كافة أرجاء المدينة، فأحدث هذا التهامس جرحا عميقا فى نفسه، ومع أنّ عمله لم يكن على الصورة التى زعموها من الفظاظة إلاّ أنّ شانئيه والمغرضين المفترين عليه ظلما كانوا يتضاعفون يوما بعد يوم،على الرغم من أنه لم يفعل ما فعل إلاّ تحت وطأة الظروف من وجود حالة قومية طارئة لم تسعفه فيها خزانة الدولة بالمال الذى يحتاجه والذى يريده قرضا على أنْ يرده عند ميسرة. ولم يكن يعتبر أخذَه المال الذى أخذه ابتزازا (كما يحلو لمناوئيه أن يصفوه به) ولا هو بطغيان طاغية، فقد كان فى نيته بعد تغلبه فى الحروب التى تهدده أن يُعيد إلى الكنائس كلَّ ثمين أخذه منها. أمّا الآن– وقد عاد إلى العاصمة – فقد كانت الفكرة الأولى التى توجه أفعاله وتسيطر عليها هى عدم وجود أى مبرر للتأخر عن دَحْضِ كل ما يقال ضده، فأعلن عن عقد اجتماع هام جدا فى قصر" بلا شر ناى" عرض فيه أن يقف موقف المذنب ليدافع عن نفسه ويبسط حجته وسط الجمع من أعضاء السينيت والقادة الحربيين ورجال الكنيسة على اختلاف مراكزهم وأمام من يتحرق شوقا لمعرفة هدف هذه الجلسة التى كانت لا تزيد فى الواقع عن أن تكون ردا من جانب الإمبراطور على الشائعات المتناثرة ضده. وحضر هذا الاجتماع رؤساء الأديرة المقدسة، ووزعت السجلات المسماة عادة باسم "المختصرات" Brevia للنظر فيها والتى كانت تتضمن ما يخص كل دير ومزار مقدس وكنيسة. وربما ظن البعض أن الإمبراطور سوف يجعل من نفسه فى هذه الجلسة القاضى الذى يصدر الحكم فيما يقدّم فيها، لكن الواقع هو أنه جعل من نفسه متهما يحاكمه الحاضرون. واستهلت الجلسة بقراءة ما فى هذه السجلات من الهدايا التى أهداها الكثيرون منذ أزمنة بعيدة إلى دور العبادة، ثم تُلِيَت بعد ذلك قائمة بما تَمَّ أخْذُه منها، سواء أكان ذلك بواسطة الإمبراطور أم أخذها من كانوا قبله فثبت وجود كل شىء على ما هو عليه سوى الحلىّ الذهبية والفضية التى كانت موضوعة على تابوت الإمبراطورة " زيو Zoe"[٧] وكذلك بعض أشياء صغيرة بطل استعمالها فى الطقوس الدينية، وحينئذ صرح الإمبراطور علانية وعلى رءوس الأشهاد أنه يعتبر نفسه المذنبَ وأنه يحيل نفسه للمحاكمة ويعلن رضوخه لأى حكم يقضى به عليه أى شخص يكون حاضرا المجلس ويقبَل أنْ يكون محلفا. ثم سكت الإمبراطور لحظة قصيرة وعاد فتابع كلامه فى لهجة

مغايرة للهجته السابقة قائلا : " لقد كان من سوء حظي[٨] أنى حين اعتليت العرش وجدت المتبربرين قد أحاطوا بالإمبراطورية من كل ناحية دون أن يتوفر للإمبراطورية أيُّ وسائل دفاع قوية تدفع عنها شر هؤلاء الأعداء الذين يهددونها . وإنكم لتعلمون كثرة الأخطار التى تعرضت لها الإمبراطورية حتى لقد كدتُ أنا نفسى أن أكون ضحية سيف أحد المتبربرين، وتعلمون كلكم كثافة من هاجمونا برماحهم وقسيهم وأسلحتهم من الشرق والغرب، ولا يمكنكم أن تتجاهلوا الحملات الفارسية وغارات الأسكيثيين، وما أظنكم قد نسيتم أيضا رماح اللمباردييين الحادة المُدببَة التى كانت تترصدنا، فلم ندّخر وسعا حينذاك فى صرف كل ما لدينا من مالٍ لجلب السلاح فى وقتٍ ضاقت فيه رقعة سلطان الإمبراطورية حتى بلغت أقلّ اتساع لها . وإنكم لتدركون كيف بنَينا جيشا وجمعنا له العسكر من شتى النواحى ودرّبناهم على الدفاع عن البلد فأحسنّا تدريبهم، ولا يوجد أحد بينكم يجهل النفقات الضخمة التى تكلفتها كل هذه الأشياء. ولقد صرفنا جميع ما أخذناه على كل ما هو ضرورى ولازم، وفعلْنا فى ذلك ما فعله باركليز العظيم، فقد بذلنا المال فى سبيل الحفاظ على شرفنا، وليس عجيبا أن يرى الكارهون لنا والحاقدون علينا فيما فعلنا تعديا على الشرعية لأننا نعلم أن الملك داود النبى اضطر إلى ما اضطررنا إليه فأكل الخبز المقدس مع جنده على الرغم من أنه كان محرما على الشخص العادى أن يمس طعاما مخصصا للكهنة[٩] . وعلى أية حال فإن الشرائع المقدسة تبيح صراحةً– فيما تبيح– بيع الأشياء المقدسة لافتداء الأسرى إذا كانت أرضنا كلها معرضة للوقوع فى أسر الرق، فهل هناك من عيب نؤاخذ عليه فيما قمنا به فى هذه اللحظة الخطيرة حين وضعنا يدنا على بضعة أشياء لا تستحق أن تُنعت جميعها بالقداسة واستعْملناها لضمان حريتنا؟ ألاَ إنّ ما فعلناه لا يمكن أن يكون سببا وجيها فى أيدى المتربصين بنا السوء لمهاجمتنا".

ولما فرغ من كلامه هذا غيَّر من لهجته وأعلن تحمّله عاقبة كل ما جرى ثم أدان نفسه، ثم طلب ممَّن بيدهم السجلات أن يعاودوا النظر فيها ليتضح لهم بجلاءٍ ما أخَذَه من هذه الأشياء. ثم قرر فى لحظته قدرا سنويا من الذهب يدفعه عمال الخزانة إلى القوامين على كنائس المخلّص الثلاث الكبرى[١٠] . وعلى قبر الإمبراطورة "زيو" ، وصار ذلك عادة جاريةً لا انقطاع لها حتى يومنا هذا . كما أمر بتخصيص مبلغ سنوى من الخزانة الإمبراطورية لكنيسة" خالكوبراكيا" Ghalcoprakeia للصرف على أولئك الذين يرتلون الأناشيد الدينية فى مزار كنيسة العذراء.

(٤)

اكتُشفت في هذه الأثناء مؤامرة دبّرها بليلٍ ضد الإمبراطور نفر من كبار أعضاء السينيت ورهط من القادة الحربيين أصحاب القوة والنفوذ. فجيء أمامه بالمتآمرين وأدينوا، لكن على الرغم من ثبوت التهمة عليهم وقسوة العقوبة التى يفرضها القانون عليهم فإن ألكسيوس لم يكن ميالا كل الميل لإمضاء الحكم فيهم بل اكتفى بتجريدهم من أملاكهم ونَفْيِهم، ولم يسمح للانتقام أنْ يذهب به إلى أبعد من هذا المدى.

لكن هيا بنا نعود الآن إلى حيث توقفنا فأقول إنه لما قام "نقفور بوتنياتس" فرفع ألكسيوس إلى مرتبة "الدوميستيك" اصْطحب معه رجلا مانويا اسمه" تراولوس" Traulos وجعله من ناحيته، وكان هذا الرجل أهلاً لنعمة التعميد، كما زوجه إحدى وصيفات القصر الإمبراطورى كما كان له أربع أخوات غضب لهّن إذ رآهن يؤخذن من بيوتهن ويُزجّ بهن فى الحبس مع غيرهن ويُحْرمْنَ من كل متاع فى أيديهن، فلم يستطع أخوهن كبح جماح غضبه. وتلظّى حنقا وراح يلتمس الوسيلة التى تمكنه من الفرار من خدمة الإمبراطور، فاكتشفت امرأتُه ما دبّره حتى إذا ما رأته موشكا على الهرب أفضَت بالخبر إلى الرجل الذى كان قائما حينذاك بحراسة المانويين، فلما علم"تراولوس" بما فعلته امرأته سارع فطلب ممن يطمئن إليهم وممن شاركوه سره أن يلتقوا ليلا به، فاستجابت له عشيرته وأقاربه وانطلقوا كلهم إلى مكان صغير اسمه " بلياتوبا"Bellatoba واستولوا عليه وهو بلدة صغيرة واقعة على قمة التل المشرف على الوادى المسمى بنفس الاسم، فلما وجدوا الناحية مقفرةً من الناس اعتبروها ملكا خاصا لهم واصطَفُوها لأنفسهم وجعلوها لهم مقاما يشنون منه كل يوم غاراتهم، وقد يوغلون فيصلون فى بعض الأحيان إلى بلدهم:" فيليبوبوليس" ثم يكرون راجعين وقد فاضت أيديهم بالأسلاب التى تسنى لهم نهبها من تلك النواحى.

لم يقنع"تراولوس" بما تَسَنّى له فعقد اتفاقا مع" الأسكيثيين" الذين كانوا يسكنون الدانوب واكتسب صداقة الزعماء فى"جلابينتزا" "و" دريسترا" وما تاخمهما من البلاد، ثم تَزَوّج فى الوقت ذاته من ابنة أحد الزعماء الأسكيثيين الذى بذل قصارى جهده ليقوموا معه بغارة تُلحق الضرر بالإمبراطور الذى كانت التقارير تصله يوميا

بخبر ما يقوم به" تراولوس" ومدى الضرر المحتمل وقوعه، فكتب إلى"تراولوس" الكثيرَ من الكــتب التى يســـترضيه فيـها ومــلأها بالعـهود حتى إنّه بعث إليه ذات مـرة مرسوما إمبراطوريا يمنحه الأمان والحرية التامتين، ولكن هيهات أن يستقيم الظل والعود أعوج(١١) .

فقد ظل"تراولوس" سادرا فى غيه وأخَذَ نفسه بما كان عليه بالأمس وقبْل الأمس من التآمر مع الأسكيثيين فأرسل فى طلب المزيد منهم فكانوا يأتونه من كل فج يكونون فيه فينهبون الناحية كلها.

(٥)

انتهى الأمر أخيرا بالإمبراطور إلى سيطرته على المانوية ووضعها تحت رقابته وأصبحَتْ بعد ذلك أمرا ثانويا غير ذى بال. لكن بوهيموند كان فى الوقت ذاته لا يزال ينتظر فى" أفلونا"، فهيا بنا نرجع إليه فنقول إنه حين سمع بما آل إليه أمر "بريين" والكونتات الآخرين الذين آثر بعضهم الدخول فى خدمة الإمبراطور على حين انساح غيرهم فى بلاد أخرى، أقول إنه حين سمع بما آل إليه أمر بريين رجع هو الآخر إلى وطنه راكبا البحر إلى لمبارديا فلما بلغ سالرنو التقى بأبيه روبرت جيسكارد كما قلت من قبل وحاول إثارة غضب أبيه على الإمبراطور فراح يرميه عنده بشتى الاتهامات. ونظر الأب إلى وجه ولده بوهيموند فطالعته أساريره بالخبر المحزن وأيْقن كأنْ قد مسّته صاعقة ألجمته وعقدت لسانه، وتملكه اليأس وخاب رجاؤه وتعطل ذهنه فلم يسعفه بأية فكرة، غير أنه أصبح أكثر تلهّفا على الحرب ولم يعد له من شاغل سوى التفكير فى القتال والتخطيط له.

كان" روبرت جيسكارد" إذا جافَى أحدا أجمع عزمه على تنفيذ ما دبر من خطة تقتله، وكان من المستحيل عليه أن يعاود النظر فى قرارٍ اتخذه، ومجمل القول فيه إنه كـان رجـلا صـعب المراس لا يثنيـه ثان عـمـا رآه، إيمـانا منه بأن النصْـر إنما يكون

لصاحب الضربة الأولى، لذلك فإنه سرعان ما استرد هدوءه وتلاشت نظرته المفزعة فأرسل المنادين فى شتى النواحى ينادون بالتعبئة العامة وبالهجوم من جديد على الإمبراطور فى" إلليريا"، واستنفر الناسَ للانضمام إلى" روبرت" وسرعان ما توافد عليه الناس زمرا إثر زمر من جند وفرسان ومشاة وقد جاءوه من كل فج ومعهم أحسن لباس الحرب ولا يشغل بالهم شىء سوى القتال. كما انضم إليه من المدن المجاورة وغيرها من البلاد ما لا يقل عن هؤلاء عددا، ومَنْ لو رآهم هومير لقال الذى قال من قبل" إنهم أرتال" من النَّحْل تطير. حينذاك توافرت عند روبرت جيسكارد القوة البحرية التى يستطيع بها الثأر لهزيمة ولده بوهيموند، فلما اجتمع لديه هذا الحشدُ الكثيف من العسكر أرسل فى طلب ولديه الآخرين: روجر و"جى"[١٢] . وكان الإمبراطور قدْ أخذ يفاوض ثانيهما سرا ويعده بعقد حلف يصاهره فيه، ويمنّيه بالشرف الذى ليس بعده شرف، كما لوّحَ له بالإنعامات الضخمة مؤمّلا من وراء ذلك أنْ يحمله على التمرد على والدِه، فاستمع" جى" إلى عروض" ألكسيوس" وقَبِلها ولكنه كَتَم الأمر فى نفسه وجعله سرا لاَ يبوح به لأحد.

أسلم "روبرت" كُلا من "روجر"و" جى" كل فرسانه وأرسلهما للاستيلاء على " أفلونا" دون أىّ تلكؤ فتمَّ فى الحال ما أمرهما به أبوهما ثم تركا بها شحنة للحفاظ عليها وانطلقا بمن معهما إلى" بوترينتو" Butrinto واستولوا عليها هى الأخرى دون أن يصادفهم فى هذا الاستيلاء كمين أو يلقوا مشقة تنهكهم.

كان روبرت قد أبحر مع كل أسطوله مصاقبا الساحل المواجه لمدينة" بوترينتو" وظل مبحرا منها حتى بلغ برنديزى وفى عزمه أنْ يركب البحر منها، إلا إنه اكتشف أن الرحلة سوف تكون أقصر إنْ بدأها من" أترانتو[١٣] " فسافر منها إلى" أفلونا" حيث سار محاذيا لساحلها، فأفضى به السفر إلى أنْ انضم إلى ولده. وكانت" كورفو" التى سبق له إخضاعها من قبل قد ثارت عليه مرة أخرى فلم يكن منه إلاّ أن ترك ولديْه "جى" وروجر، وأبحر هو إلى جزيرة" كورفو" وكان هو طول هذه التحركات والعمليات يقود الأسطول وحده لا يشاركه فى ذلك مشارك.

ترامى إلى علم الإمبراطور حينذاك خبر تحركات" روبرت جيسكارد" فلم يفزع ولم يضطرب. لكنه اعتزم أنْ يقبل تحدّىَ خصمه، فحثَّ البنادقة على تجهيز حملة بحرية قوية واعداً إياهم بأنه سوف يعوضهم أضعافا مضاعفة عما صرفوه، كما أنه قام بتجهيز الدرامين (١٤) والمرازيب(١٥) وغيرها من شتى أنواع سفن الحرب وأبحر عليها هو والعسكر المدرب على القتال بحرا لمنازلة روبرت جيسكارد. غير أن خبر مناورات هذه السفن لم يبق سرا مخفيا عن روبرت الذى ما كاد يبلغه نبؤها حتى تجلت طبيعته التى طبع عليها فأخذ المبادرة ورفع المراسى وأبْحَر بكل من معه إلى ميناء" كاسيوبى" Kassiopi، ولم يكد البنادقة يسمعون بخبر هذه (ولم يكن لهم وقت طويل فى مرسى باسارون Passaron) حتى أسرعوا هم أيضًا بالذهاب إلى" كاسيوبى"، ونشبت بين الجانبين معركة عنيفة دارت فيها الدائرة على روبرت، ولكنه بقى رابط الجأش ثابت الجنان يُعدّ العدة لمعركة تالية تكون أشدّ من هذه هولاً، وأعظم منها ضراوة، وتكون فى واقعها نموذجا لشخصية الرجل القتالية وما طبع عليه من روح تعشق الحرب.

على أن أمراء السفن الحليفة الذين كانوا يعرفون استعداداته كانوا واثقين من أن النصر سيكون فى جانبهم إنْ هم بادروا إلى الهجوم عليه فهاجموه بعد ثلاثة أيام فأحرزوا فوزا مدوّيا انكفئوا بعده مرة أخرى إلى ميناء"باسارون". لكن يبدو أنهم بالغوا فى تقدير نجاحهم وظهورهم عليه أو لعلهم اعتقدوا أن عدوهم قد انتهى أمره ومضى إلى غير رجعة، فتراخوا واستناموا للراحة كأنما قد فرغوا من كل شىء يزعجهم، وأنْ ليس عليهم من خطر إنْ هم استهانوا به ولم يكترثوا.

وانطلقت إلى البندقية بضعُ سفن سريعة تنقل لأهلها خبر هذه الأحداث وتروى كيف تم القضاء على روبرت الذى ما كاد يسمع هذا النبأ من بندقى كان قد فرَّ إليه منذ قريب اسمه Petro Gortanini حتى اغتم للنبأ وزايلته شجاعته بعض الوقت، ثم ما لبث أن طرح ذلك كله وراءه ظهريا واستعاد رباطة جأشه وهدوء تفكيره وعاود الهجوم على البنادقة الذين أذهلتهم المفاجأة التى لم تكن تخطر لهم على بال فلم يضيعوا لحظة فى ربط سفنهم الكبيرة بسلاسل حديدية فى ميناء كورفو، وشدّوا إليها المراكب الصغيرة الموجودة بهذا الميناء، فأصبح هنا ما يمكن تسميته بالميناء البحرى المفتوح.

ووقف الجميع فى كامل عدّتهم يترقبون- ولكن فى فزع - هجوم روبرت عليهم، وأعقب ذلك معركة كانت أشد شراسة من سابقتيها وأفظع منهما فى ضراوتها، واستبسل فيها الرجال من كلا الجانبين استبسالا غير مسبق، ولم يتزحزح واحد منهم قط عن موضعه وتحاربوا وجها لوجه، وكان البنادقة قد أتوا على كل ما لديهم من المئونة وقلّ رجالهم، وخلت سفنهم إلاّ من العسكر الذين اندفعوا إلى أسطحها وتزاحموا على جانب واحد هو المواجه للعدو فمالت سفنهم بهم فغرقت وأغرقتهم معها، وابتلعت مياه اليَم منهم ما ناهز ثلاثة عشر ألف رجل، ووقعت السفن الأخرى فى قبضة عَدُوّهم بمن فيها من البحارة.

ومن الأمور المؤسفة أن روبرت نهج نهجا وحشيا اتسم بالهمجية فى معاملة الأسرى عقب انتصاره الكبير، ففقأ عيون بعضهم وجدع أنوف البعض الآخر، وبتر أيدى آخرين وقطع أرجل غيرهم من خلاف. أمّا مَن بقوا بعد ذلك فقد بعث إلى أبناء جلدتهم بالمنادين ينادون جهارا ببيعهم فى سوق النخاسة وأنّ من شاء شراء قريب له واستعد لدفع الثمن فعليه أن يتجهز بالمال ويجيء آمنا دون خوف فيُدفع إليه قريبه وينصرف به. على أن وقاحته مازالت تلازمه فى الوقت ذاته حيث اقترح على البنادقة إجراء مفاوضات الصلح فرفضوا الصلح وقالوا له:" أيها الدوق روبرت، كن واثقا أننا لن نشجب اتفاقنا مع الإمبراطور ألكسيوس حتى ولو شاهدنا بأعيننا أطفالنا يُذبحون، ورقاب نسائنا تُقطع، ونزيد على ذلك فنؤكد لك أننا لن نكف عن مساعدة ألكسيوس وسوف نقاتل بشجاعة إلى جانبه". ثم ما لبثوا أن جهزوا بعض الدرامين ونجحوا فى أن ينتزعوا من روبرت " بترنتو" التى كان معسكرا بها وقاتلوه فانتصروا بعد أن فتكوا بالكثير من أعدائهم، وأغرقوا فى البحر منهم أكثر ممن قتلوهم، وكادوا أن يقبضوا على ولده [الشرعى] جى وزوجته ثم بعثوا بتفاصيل هذا النصر الرائع - الذى أحرزوه على روبرت - إلى ألكسيوس الذى كافأهم بالهدايا الجمة وأغدق عليهم آيات الشرف، كما خلع على دوق البندقية دومينيكو سيلفو Domenicosilvo لقب المقدم: بروتوسيباستوس Brotosbastos ، وأجرى عليه الراتب اللائق به، كما أنعم على البطرك أيضا بلقب Hynertos مع الراتب الذى يكافئ هذا اللقب. وزيادة على ذلك فقد أمر بتخصيص مقادير كبيرة سنوية من الذهب تُدفَع لجميع الكنائس فى البندقية، على أن تؤخذ من

الخزانة الإمبراطورية، كما فرض على الأمالفيين ممن لهم أعمال بالقسطنطينية فريضةً معينة من المال يدفعونها لكنيسة القدّيس الإنجيلي مرقس[١٦]، كما وهبهم أيضا الحوانيت الممتدة من رصيف" العبرانيين" القديم حتى"ڤيليا" vigla بما في ذلك أماكن الرسو الواقعة بين هاتين النقطتين . ولم يكن هذا هو كل ما وهبه لهم بل منحهم- إلى جانب ما ذكرنا- كثيرا من الأملاك الهامة في كل من العاصمة وفي مدينة" دورازو" وغيرهما مما طلبه البنادقة.

على أن المنحة العظمى التي حصل عليها البنادقة تمثلت في السماح لهم بإقامة أسواق حرة في جميع الولايات الواقعة تحت الإشراف البيزنطي ليتمكنوا بذلك من المتاجرة أنَّى شاءوا دون تدخل أحد في شئونهم مع الإعفاء من كل الرسوم والضرائب الأخرى التي كانت تجبى للخزانة، وبذلك أصبح البنادقة لا يخضعون أبدا للسيطرة الرومانية.

(٦)

والآن هيا بنا نصل ما انقطع من الحديث ونعود إلى ما كنا فيه فنقول إن روبرت جيسكارد لم يَعُدْ أبدا يجنح للسلم أو الهدوء حتى بعد هزيمته الهزيمة التي كان قد مُنِي بها، فقد بعث إحدى شُونَه[١٧] بقيادة ابنه"روجر" لمحاربة" كيفالونيا" التي كان يتحرق شوقا للاستيلاء عليها. أما بقية مراكبه فقد أبْحَرت من"فونتسا" Fonitsa حاملة على ظهرها جميع العسكر. أما هو فقد اعتلى بَطْسَةَ ذات مجاديف من جانب واحد، وسافر إلى"كيفالونيا"، لكن أصابته حمى[١٨] عنيفة قبل أن يتمكن من الانضمام إلى القوات الأخرى وقوات ابنه في لحظةٍ كان قد توقّف فيها انتظارا لقدومهم قرب نتوء الجزيرة المعروف باسم" أثير" Ether ، ولما لم يعد يحتمل الحرارة المتقدة في بدنه فقد طلب أن يسعفوه بالماء البارد فانطلق رجاله يضربون هنا وهناك بحثا عن الماء، فصادفوا رجلا من أهل البلد قال لهم "هل ترون جزيرة إيتاكا Ithaca التي أمامكم؟ لقد كانت مركزا في القديم لمدينة قديمة تسمى"جيروسالمو" لكنها درست وصارت أطلالا، فإن بلغتموها فإنكم واجدون بها نبعا يفيض بالماء الزلال البارد". فلما سمع روبرت ما قاله هذا

الرجل فزع فزعا شديدا لأنّ قوما كانوا قد أخبروه منذ وقت بعيد بنوءة قالوا فيها: " سوف تتغلب على كل شيء يصادفك حتى تبلغ "أثير" التى لا تكاد تهم بالعودة منها إلى جيروسالمو حتى تخضع لما يخضع له كل ابن أنثى".

ولا أستطيع أن أجزم عما إذا كانت الحمى هى التى أوْدَت به أم أنّ الالتهاب الرئوى هو الذى أهلكه.

لقد أقام على ما هو عليه من السقم والعلة ستة أيام فارق بعدها الحياة(١٩). وقد جاءته زوجته "غيطة" Gaita وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ورأت إلى جانبه ولده يذرف الدمع السخين عليه ثم نعوه إلى ولده الآخر[روجر] الذى كان روبرت قد اختاره من قبل وربما له يخلفه على كل ما يملك، فتفطّر قلبه عليه حزنا، لكنه ما لبث أن فاء إلى العَقْل واسترد رباطة جأشه فدعا الحاضرين إلى اجتماع عام نعى فيه أباه وهو باك، ثم دعاهم وهو باكى الطرف وطلب منهم أن يقسموا له يمين الولاء، ثم اجتاز بهم البحر إلى "أبوليا". وكان الوقت إذ ذاك صيفا ثمّ صادف فى سفره هذا عاصفةً هوجاء أغرقت بعض سفنه وألقت بالبعض الآخر إلى الشاطئ فتحطمت، بل إن السفينة التى كانت تحمل جثمان الراحل أوشكت هى الأخرى على الغرق، وبذل أصحابه جهدا كبيرا ولاقوا صعوبة كبرى فى إنقاذ النعش بمن فيه وجاءوا به إلى"ڤينوزيا" venusia حيث واروه رمسه فى أحد الأديرة التى كانت قد شيدت منذ زمن بعيد تمجيدا للثالوث المقدس، وكان هذا القبر قد ضم جثث إخوته من قبل ... مات روبرت بعد أن بلغ السبعين من عُمره، وفرُّج موتُه الفجائى كربةً عن صدر الإمبراطور الذى بدا وكأنّما قد أزيل عن كاهله عبء ثقيل كان ينوء تحته، ومن ثم فإنّه سرعان ما التفت إلى الأعداء الذين كانوا لا يزالون يحتلون" دورازو" فسعى لبَذْر الشقاق بين بعضهم والبعض الآخر عن طريق الرسائل وغيرها من الوسائل المؤدية إلى تحقيق هدفه، وكان يطمع من وراء خطته هذه أن ييسّر على نفسه مهمة الاستيلاء على المدينة، كما أنه راح من ناحية أخرى يقنع البنادقة المقيمين فى القسطنطينية بالكتابة إلى إخوانهم فى" أبيدامْنُوس" وفى أمالفيا وسواهم من الأجانب ينصحونهم باستجابة رغبات الإمبراطور فى تسليم هذا الموضع إليه.. ولم يترك ألكسيوس قط طريقا يؤدى به إلى تحقيق هذه الغاية إلاّ سلكه، فاستعان بالرشوة، ولم يمسك عن العهود يقطعها على نفسه فاستجاب له جميع سكان

هذه النواحى. كما أن اللاتين كانوا شعبا يحب المال حبا جما ولا يتوانون عن بيع أى شىء - حتى أقرب الناس إليهم - لقاء المال لمن يلوّح لهم به، وقد حملهم طمعهم فى الحصول على المكافآت الكبيرة إلى المشاركة فى مؤامرة قضت على الرجل الذى كان أوّلَ من مضى بهم لتسليم المدينة إلى "روبرت جيسكارد" فقتلوه وقتلوا معه أنصاره، فلما غسلوا أيديهم من دمه ودماء رفاقه جاءوا إلى الإمبراطور وأسلموه "دورازو" فجازاهم بأن منحهم أمانا شاملا.

(٧)

كان يوجد عالم رياضى اسمه "سيث" (Seth) لا يكف عن التباهى علنا بأنه على جانب كبير وذو حظ عظيم فى المعرفة بعلم النجوم، فقد سبق أن تنبأ بموت "روبرت جيسكارد" بعد مضيّه إلى "الليريكوم"، وكان قد دوّن هذه النبوءة فى ورقة وختمها ثم دفع بها إلى نفر من أقرب أصدقاء الإمبراطور بعد أن طلب إليهم الاحتفاظ بها حينا من الوقت، فاستجابوا لما طلبه منهم وحفظوها عندهم فى مكان أمين حتى إذا وافت "روبرت" منيته فضّوها فوجدوا بها ما يلى" إنّ عدوًّا عظيم الشأن من الغرب أحدث اضطرابا مبيرا سيموت فجأة" فتملكت الجميع الدهشة من مهارة هذا الرجل "سيث" وقالوا عنه إنه بلغ الذروة عن حق فى هذا الفن.

ولنترك ما نحن فيه الآن برهة لنقول كلمة بشأن المعجزات والتنبّؤات.

إن فن العياقة حديث النشأة ولم يكن معروفا فى العالم القديم، ولم تكن له أصول زمن "يودوكيوس"[٢٠] Eudoxius الفلكى العظيم، ولم يكن لأفلاطون دراية بهذا الفن، بل إن معلومات "مانيتون" [المصرى] الفلكى عن هذا الموضوع لم تكن تتسم بالدقة. وكانت تنقصهم جميعا فى محاولتهم للتكهن معرفة البروج وتحديد الجهات الأصلية، ولم يكونوا يعرفون طريقة رصد النجوم للشخص عند مولده، ولا يدركون الأمور الأخرى التى أضافها مبتدع هذا الفن مما ساعد على ازدهاره، وهى أمور يتقنها المشتغلون بمثل هذا اللغو.

ولقد انصرفت أنا نفسى حينا من الوقت- وإنْ يكن قصيرا- للنظر فى هذا الفن دون أن أقصد من وراء ذلك استغلال مثل هذه الأمور- لعنها الله - بل لأكون أكثر إلماما بأحاجيها التى لا جدوى من ورائها، كما كنت أبغى تسفيه رجالها والتنديد بهم. ولست أكتب هذا تمجيدا لنفسى ولكن لأبين ازدهار كثير من العلوم زمن هذا الإمبراطور الذى بسط ظل رعايته على الفلسفة والفلاسفة رغم ما هو واضح من كراهيته للتنجيم. ومَا أخال هذه الدراسة إلاّ قد أضلت الكثيرين من ذوى الأفكار البسيطة فزحزحتهم عن اليقين بالله إلى إيمان مضلّ بتأثير النجوم.

على أنه لا ينبغى لك أيها القارىء أن تخال ندرةً فى المتنبئين فى هذه الفترة، إذ الواقع أبعد من ذلك كثيرا، فقد ظهر وقتذاك المنجم المصرى الإسكندرى الأصل الذى ذكرته من قبل، وقد ذاع صيته فى الآفاق، وكرس الجانب الأكبر من وقته فى كشف عجائب التنجيم، فتزاحم الناس على بابه يسألونه فيمدهم بنبوءات غريبة كل الغرابة لما اتسمت به من الدقة فى بعض الأحيان دون أن يستعمل الأسطرلاب. وكان يعتمد فى بعض تنبؤاته على آلة تشبه آلة رمى الحصا، ولم يكن فى هذه العملية شىء من السحر ولكنها تنطوى على مهارة معينة من جانب هذا الإسكندرى. فلما رأى الإمبراطور تزاحم الشباب على بابه لاستشارته كما لو كان نَبِيًّا وضع هو بنفسه فى مرتين بضعة أسئلة وجاءه الرد صحيحا فى كلتيهما. فخشى ألكسيوس أن يفتن هذا الرجل الناسَ فتتحول العامة إلى التنجيم ثم ينصرفون إليه انصرافا ليس ثمة جدوى وراءه، لذلك أمر بنفيه من المدينة وفرض عليه البقاء فى"رايدستوس" Rhaidests بعد أن اهتم بتوفير كل احتياجاته التى أمر بأن يكون الصرف عليها من الخزانة الإمبراطورية.

ثم كانت هناك - إلى جانت ذلك - مشكلة" إيلاثريوس" Elautherias المنطقى العظيم الذى كان هو الآخر مصريا وضرب بسهم وافر فى هذا الفن الذى مارسه بمهارة فائقة، ولا يستطيع أحد أن يجادل فى أنه كان رأسا فى هذا الموضوع. ثم ظهر بعد ذلك رجل آخر اسمه" كاتانانكس" Katanankes قدم من أثينا مهبط رأسه واستقرّ فى القسطنطينية طامعا فى إظهار ما هو عليه من مهارة فى هذا الفن تجعل له السبق على من جاءوا قبله، فجاءه بعض الناس يسألونه عن الإمبراطور متى يوافيه أجله فزعَم لهم يوما حدده، قد دلته عليه حساباته، لكن ظهر خطؤه.

غير أنه حدث هذه الأثناء أن أصابت الحمى الأسد الموجود بالقصر ولازمته أربعة أيام مات بعدها فظن الكثيرون أنّ كاتانانكس" كان يعني الأسد بنبوءته، ثم بدا لهذا الرجل بعد حين أن يعود فيتنبأ بموت الإمبراطور في يوم عينّه لهم فلم تَصْدُق نبوءته ولكن ماتت في هذا اليوم أمّه الإمبراطورة" أنا دالاسينا ". ومع ما ظهر من دجل الرجل في كلتا المرتين إلاّ أن الإمبراطور لم يشأ أن يخرجه من المدينة ولم يكن يحب أن يفعل ذلك رغم اقتناعه بوجوب نفيه منها، وقد أراد أن يتحاشى إثارة العامة وغضبهم.

والآن آنَ لي أن أعود إلى ما كنت فيه فأقول إني لا أحب أن يذاع عني بأنّي أرعى النجوم كما لا أحب أن أطمس توهج تاريخي فأقبّحه بسرد أسماء المنجمين.

إن من المتفق عليه وما أكّدتْه الأخبار هو أن "روبرت جيسكارد" كان قائدا فذا سريع العمل حاضر البديهة، بهيّ الطلعة، إلى جانب أنه كان محدثا لبقا يجلجل صوته إن تكلم، هذا بالإضافة إلى ضخامة هيكله، وطول لحيته الكثيفة، كما أنه كان حريصا أشدّ الحرص على التمسك بتقاليد قومه. ولم تفارقه نضارة الشباب حتى في أخريات أيامه، وتمثلت هذه الفتنة في وجنتيه وجسمانه مما كان موضع تباهيه. ومجملُ القول إنه كان جامعا لكل الصفات اللازم توفرها في القائد. يضاف إلى ذلك حسن معاملته لرعاياه لا سيما من كانوا يبزون غيرهم في إخلاصهم له.

لكنه كان من ناحية أخرى شحيحا كل الشح، متكالبا على الدنيا غايةَ التكالب، ناجحا في ما يريد عمله، إلى جانب ما هو عليه من شدة الجشع. ولقد استهجنه الجميع لسيطرة هذه الصفات عليه، كما لام البعضُ الإمبراطور على تسرعه في محاربته، وكان الرأي عند هؤلاء أنه لو لم يكن قد تعجل في إثارة غضب روبرت لتيسرت له الغلبة عليه لأنه كان هدفا من كل جانب لسهام من يُسمّون بالألبانيين وأهل دلماتيا الذين أرسلهم " بودينوس" (Bodinus) وأن الذين لا هَمّ لهم إلاّ تصيُّد الأخطاء إنما هم الذين لا ينزلون ساحة الحرب ولا يخوضون غمار القتال بل يكتفون بإطلاق ألسنتهم بالنقد الجارح. والواقع أنّ" بطولة" روبرت الفذة في الحرب وثبات جأشه إنما هي أمور معترف بها من الجميع إذْ لم يكن هو بالخصم الذي يقبل الهزيمة أو يطأطئ لها رأسه، بل كان عدوا مسرفا في عدائه، بل لعله في ساعة هزيمته يكون أشدّ بسالة وأعنف منه في غيْرها.

(٨)

عاد الإمبراطور كما قلنا من قبل فى أوّل ديسمبر[١٠٨٣] إلى العاصمة مكللا بأكاليل النصر، ورجع وفى ركابه من آثروا الانضمام إليه من لاتين" بريين" الذين فارقوا صاحبهم برضا من أنفسهم، وحين دخل العاصمة وجد الإمبراطورة تعانى آلام الوضع[٢١] فى الحجرة المخصصة لها منذ فترة غير قصيرة لتقيم فيها حين تجيئها آلام المخاض، وكان أسلافنا يسمونها بالحجرة" البورفيروجينيس" Porphrogenius فلما كان فجر السبت أول ديسمبر وضعت الإمبراطورة وليدةً شابهت أباها تماما كما يقول الناس فى جميع سماته، وكنْتُ أنا هذه الطفلة الوليدة .

ولقد سمعْتُ أمّى تردد كثيرا – وفى مناسبات عدة – أنّه حَدَثَ قبل يومين من عودة الإمبراطور إلى القصر من معركته ضدّ روبرت ومن حروبه الجمة أن أحست بآلام المخاض فرسمت علامة الصليب على رحمها وقالت:" مهلا أيها الجنين الصغير: تمهّل فى الخروج إلى الدنيا حتى يصل أبوك الإمبراطور". فلما سمعَتْها أمها تقول هذا الكلام لامتها لوما عنيفا قائلةً :" ماذا يكون الحال لو تأخرَتْ عودة الإمبراطور وطالت فبلغت شهرا؟ هل تراك تعرفين مَتَى تكون أوبته" ؟ ثم زادت فقالت غاضبة" وكيف لك أن تتحملى مثل هذا الألم الشديد؟".

هذا ما قالته أمها أعنى جدتى. واستجيب لطلب الإمبراطورة.

ولقد أحاطنى أبواى بالحب وأنا مازلت مضغة فى أحشاء أمى، وهو حب أظهرته الأيام القادمة. فلما اكتملت أنوثتى واستقام عودى زاد حبى وإخلاصى لأمى ولأبى معا، ويشهد الكثيرون– وشهادتهم غير مغموزة– ممن يعرفون من سيرتى مقدار حبى لهما ويدركون ما تحملْته من الآلام والمشاق بل والأخطار العديدة بسبب حبى العميق لهما، فقد سيطر حبى لهما على كل جارحة فى نفسى حتى لقد عرضتُ نفسى للأخطار من أجلهما مرارا عدة، ولم أكن أدّخر مالا ولا جهدا بل ولا حياتى ذاتها فى سبيلهما. على أن وقتى الآن ليس بالوقت الملائم للكلام عن هذا الموضوع بل علىّ أن أقص على قارئى الأحداث التى تلت مولدى.

لقد انتهت على أكمل وجه جميع الاحتفالات المتبعة عادة عند ميلاد طفل ملكى وأعنى بها الهتاف باسمه والإنعام بالهدايا والخلع التشريفية على كبار رجال السينيت وقادة الجيش، وصحب ذلك- كما أخبرونى- فرح لم يسبق له مثيل: رقص فيه الجميع وغنوا، لا سيما أقارب الإمبراطورة الذين لم يستطعوا كتم فرحتهم كما قام أبواى بعد فترة فأكرمونى بوضع التاج على رأسى، وعصبوا جبهتى بالعصابة الإمبراطورية. أما " قنسطنطين" ابن الإمبراطور السابق" ميخائيل دوكاس" الذى أكثرت من الإشارة إليه فى تاريخى هذا فكان لا يزال يشارك أبى العرش، وقد وقَّع معه قائمة الهدايا بالمداد الأحمر وكان يمشى خلفه فى المواكب وعلى رأسه التاج، والناس يهتفون باسمه بعد هتافهم لأبى، وحظيت - أنا الأخرى - بمثل هذا الهتاف، كما راح الضباط الذين قادوا المتظاهرين يربطون اسم قسطنطين واسمى بعضهما ببعض، وكثيرا ما سَمعت أقاربى فيما بعد يقولون إنَّ هذا الأمر ظل زمنا طويلا. ولربما كان ذلك إشارةً إلى ما سيحدث فيما بعد من خير وشر.

ولما وُلِدَت الابنة الثانية [وهى مارية(٢٢)] وكانت شديدة الشبه بأمّها وظهرت عليها ملامح الفطنة والذكاء التى تميزت بهما فى مستقبل أيامها اشتدت لهفة أبى وأمى على ذَكَرٍ يولد لهما ولم يكفَّا عن الدعاء أن يقبل الله دعاءهما. واستجاب لهما الرب فأنجبا ولدا(٢٣) كان مولده حَدَثًا أحْدَث فرحة عارمة وانجلت الغمة به عن صدريهما، ولم يعد ثم وجود لما كان ينغِّص عليهما الحياة.. فقد تحققت رغبتهما المنشودة إذ رُزقا هذا الطفل الذى كان مولده مبعث فرحة للناس قاطبة وذلك مشاركةً من الناس لحاكميهما فى سرورهما، ورفرفت السعادة على القصر وتبددت الأحزان وشتى صنوف المنغصات، وأظهر المخلصون الغبطةَ الصادقة وشاطرهم غيرهم هذه الغبطة مشاطرة ظاهرةً، إذ المألوف أنَّ عامة الناس لا يكونون على الدوام مؤيدين لحكامهم بل يتظاهرون عادة بالولاء نفاقا لكسب رضا ساداتهم. ومهما يكن الأمر فقد كان السرور فى هذه المناسبة باديا لكل ذى عينين.

كان الوليد الصّغير[جون أو يوحنا الثانى] أسمر البشرة، عريض الجبهة رقيق الخدين، ذا أنف ليس بالمفرطح ولا الأقْنى بل بَيْن بَيْن، وكان أسود المقلتين ويستدل منهما عند طفل حديث الولادة على الحيوية الدفاقة. وطبيعى أن يسعى الوالد إلى أن

يرفع الوليد الصغير إلى رتبة الإمبراطور فجعلهُ وريثا للإمبراطورية الرومانية ومن ثم عمّداه فى كنيسة الرب الكبرى حسب المألوف وتم تتويجه.

على هذه الصورة كانت الأحداث التى جرت لنا منذ لحظة ميلادنا، أما ما وقع لنا فيما بعد فستعلم خبره فى حينه وفى موضعه.

(٩)

عقد الإمبراطور اتفاقية مع سلطان قونية"سليمان" بعد أن طرد السلاجقةَ - كما قلت - من مناطق بيثينيا الساحلية والبسفور ذاته وكذلك من النواحى القاصية الموجودة فى المناطق الداخلية، حتى إذا فرغ من هذا كله التفت إلى" الليريكوم" فهزم" روبرت جيسكارد" وابنه" بوهيموند" هزيمةً ساحقة بعْد أهوال جسام، فأنقذ بذلك ولايات الغرب من الخطر الداهم، ثم عاد من حملته هذه ليجد سلاجقة أبى القاسم لم يقتصروا على غزو الشرق مرة ثانية بل إنهم انتشروا حتى بلغوا البروبونتس Propontis والمواضع الساحلية هناك.

والآن ينبغى أن أصف كيف كان الأمير" سليمان"- عند مغادرته" نيقية" بعد أن عُيِّن" أبو القاسم" هذا حاكما للمدينة، وكيف أن سلطان فارس أرسل"بوزانوس" (Pouzanus) إلى آسيا، وكيف قضى عليه"تتش" أخو السلطان وقتله بيده، ثم ما لبث"تتش" أن شُنق على أيدى أبناء عمومة" بوزانوس".

كان هناك أرمنى اسمه" فيلاريتوس" Philaretos يوقّره الناس ويكبرون فيه شجاعته ويثنون على ذكائه، وقد رفعه الإمبراطور السابق "رومانوس ديوجين" إلى مرتبة" القائد الدوميستيك" فلما رأى سقوط رومانوس ديوجين وسَمْلَ عينيه ضاق صدره وجف معين صبره ولم يعد يحتمل ما يجرى نظرا لحبّه العميق الذى كانت تنطوى عليه جوانحه نحو هذا الإمبراطور، وهو الحب الذى دفعه للقيام بتدبير ثورة استولى بها على زمام الأمور فى أنطاكية، ثم ما لبث أنْ قرر الانضمام إلى الأتراك حين رآهم يعيثون فسادا فى النواحى المحيطة بالمدينة، ثم تمادى فختن نفسه كما يفعلون.

غير أن ولده أنكر عملَهَ المزرى هذا أشدّ الإنكار ونهاه عن جنونه فلم ينته، فكان ذلك دافعا له إلى المضىّ على نيقية فوصلها بعد سفرٍ استغرق منه ثمانية أيام صادف فيها أقصى ضُروب الشدة، ودخل على الأمير " سليمان " الذى كان قد تبوأ السلطنة حالا، وراح يحثه على محاصرة أنطاكية ومتابعة الحرب ضد أبيه، فاستجاب له سليمان الذى كان موشكا على الخروج إلى إنطاكية، ومن ثم عيّن أبا القاسم واليا على نيقية وجعل له السلطة العليا على جميع القواد الحربيين الآخرين، ودخل " سليمان " وفى معيته ابن " فيلاريتوس " أنطاكية بعد رحلة استغرقت منهما اثنتىْ عشرة ليلة كانا يسيران فيها ليلا وينامان نهارا حتى بلغاها دون أن يراهما أحد وتمكّنا من أخْذها بعد أول هجوم لهما عليها.

فى هذه الأثناء قام " خارتيكس " Charatikes بشن هجوم لم يتوقعه أحد على " سينوب " واستولى عليها، وذلك بسبب ما عرفه من وجود قدْر كبير من الذهب والمال كان قد نُقِل إليها من الخزانة الإمبراطورية، كما شرهت نفس " تتش " أخى السلطان الأكبر وحاكم القدس وجميع أرض الجزيرة وحلب حتى بغداد، أقول شرهت نفسه لأخذ أنطاكية، فلما رأى تمرد الأمير سليمان وتطلعه لحكم هذه المدينة عسكر بجيشه فيما بينهما وبين حلب، فزحف سليمان نحوه، وشَبت فى الحال حرب ضروس بينهما. غير أنه لما اشتد القتال وصَغُرتْ المسافة الفاصلة بينهما فرّتْ قوات سليمان وهى فى أشد حالات الفوضى، ولم تُجْده نفعا محاولاته الكثيرة فى بث الشجاعة فيهم وشد عزائمهم حتى أنه فر هو الآخر من ساحة المعركة حين رأى حياته مهددة بالخطر الفادح. فلما اطمأن إلى سلامة نفسه ألقى بدرعه على الأرض وجلس إلى جواره، فرآه بنو جلدته فجاءه بعض عماله وأخبروه أنّ عمه "تتش" أرسل فى استدعائه إليه فارتاب فى هذه الدعوة وتوقع من ورائها شرا فرفضها، فتكاثروا عليه. ولما لم يكن قادرا على مقاومة "تتش" بأى حال من الأحوال لأنه كان وحيدا فقد استلّ حسامه من غمده وأغمده فى صدره فاخترمه فهلك هذا الشقى على أسوأ صورة من الهلاك، وكان مصرعه إذْنا لَمن بقى حيا من عسكرهِ بالانضمام إلى تتش الذى تزايد باسه.

انزعج السلطان لهذا الخبر فأرسل واحدا يدعى " سياؤس (Siaous) إلى الإمبراطور يقترح عليه المحالفة عن طريق المصاهرة، ووعده إنْ تمّت هذه المصاهرة أنْ يعمل هو من جانبه على حمل السلاجقة على الانسحاب من المناطق الساحلية، وأن يُسلِم الأماكن الحصينة للإمبراطور ويمد له يد المعاونة الصادقة.

واستقبل الإمبراطور مبعوث السلطان الذى اختلى به وأطلعه على محتوى كِتاب السلطان، لكنه لم يشر قط إلى موضوع المصاهرة، وإذ أدْرك ألكسيوس ما عليه "سياؤس" من الحصافة العالية والحكمة فقد سأله من أين جاء؟ ومن يكون أبواه؟ فأخبره أنه" أيبيرى"[٢٤] الأم سلجوقى الأب . فأبدى الإمبراطور اهتماما به وأحاطه برعايته وتمنى لو أنه تعمّد فتعمد، وقطع له يمين الولاء ثم زاد فأكد له أنه لن يعود إلى السلطان بعْد أن تمت نعمة هذه الشعيرة الطاهرة .

كان بيد" سياؤس" أمْر كتابى سلطانى[٢٥] يخوله خلع من يشاء من الولاة ونزع ما بيدهم من المدن الساحلية، كما عرفه أنّ تنفيذ هذا المرسوم موقوف على استعداد الإمبراطور لإبرام عقد الزواج، وإذ ذاك اقترح ألكسيوس على" سياؤس" أن يستغل هذا المرسوم السلطاني فيخلع جميع الولاة ثم يعود بعد ذلك إلى العاصمة.

وخرج" سياؤس" وهو يتقد حماسة، وعرج أوّلا على" سينوب" وأبرز كتاب السلطان لواليها" خاراتيكس" وأمره بمغادرة القصر وألا يحمل معه فى خروجه شيئا من المال حتى ولو كان دانقا واحدا كما أن عليه أن يترك خزينة الولاية كما هى فلا يمسها، فلما غادر"خاراتيكس " مدينة سينوب قام بتدمير المزار المقام تمجيدا لسيدتنا العذراء أم المسيح لكنه لم يفلت من يد العدالة الإلهية إذ سلطت عليه شيطانا كبَّه على وجهه فخرج الزبد من فيه وظل مطروحا على الأرض يعانى من مس الشيطان. ومضى " سياؤس" إلى سينوب فولى عليها حاكما جديدا هو" قسطنطين دالاسينى" الذى كان الإمبراطور قد أنفذه لهذه الغاية ذاتها. وكرر"سياؤس" هذا المشهد ذاته فى المدن الأخرى فزارها جميعا، مبرزا فى كل واحدة منها مرسوم السلطان، ومزحزحا ولاتِها، ومنصّبا مكانهم رجالا اختارهم الإمبراطور. فلما أتم" سياؤس" مُهمّته هذه انكفأ إلى ألكسيوس الذى نصبه دوقا على"أنخيالوس" Anchialos وأفاض عليه إنْعَاماته الجمة.

(١٠)

حينما ذاع خبر مقتل الأمير سليمان فى أرجاء آسيا استقل كل من كان موجودا من ولاة المدن والقلاع بما فى يده. وكان سليمان - حين رحل إلى أنطاكية - قد عهد بحماية نيقية" إلى أبى القاسم، كما اختار رهطًا من الولاة وكَلَ إليهم الحفاظ على المنطقة الساحلية مع كبادوكيا وجميع آسيا، وألزم كل واحد منهم بالحفاظ على ما فى يده إلى حينِ عودته. ولكن لما كان أبو القاسم وقتئذ حاكما لنيقية وله إشراف على هذه المدينة(التى شاءت الظروف أن تكون مركز قيادة السلطان) ولما كان السلطان قد أسلم أيضا بعض أقسام من" كبادوكيا" إلى أخيه" أبى القاسم" فقد اطمأن إلى أن الظروف مواتية له ليكون هو السلطان إيمانا منه بأنْ قد تمَّ جَمْعُ كل مقاليد الأمور فى يده. والحق أنه كان رجلا داهيةً لا يحجم عن اقتحام المخاطر، ولم يكن لأطماعه حد تقف عنده، فلا عجب إنْ هو أرسل جماعات تغزو وتنهب كل الأقاليم المجاورة الممتدة من" بيثينيا" إلى " بروبونتس".

أما الإمبراطور فقد تابع سياسته التى استنّها من قبل وأعنى بها التصدى للغارات بصورةٍ أرغمت (أبا القاسم) نفسه على السعى فى طلب الصلح. غير أن ألكسيوس أدرك جيدا أن الرجل دائب على التخطيط سرا ضده، وأنه من أجل ذلك يؤجل إمضاء أى اتفاق مما أوضح له ضرورة إرسال حملة كبيرة لمحاربته، فجهز جيشا قويا جعل قيادته فى يد" تاتيكيوس" الذى كثيرا ما وردت الإشارة إليه من قبل فى هذا الكتاب، وبعثه إلى" نيقية" وكلفه بالحذر فى قتال من يلقاهم من الأعداء خارج أسوار المدينة. وانطلق" تاتيكيوس" حتى إذا أصْبح خارج البلد تماما مضى يرتب عسكرهُ بعد أن لم يعد يرى أثرا للعدو. لكن ما لبثت طائفة من الترك قوامها مائتا رجل أن هاجمته على غرة منه، فخرج إليهم نفر من الكلت وبأيديهم المزاريق الطويلة وقاتلوهم قتالا شرسا فأثخنوا أكثرهم بالجراح وارتدت بقيَّتُهم على أعقابها إلى القلعة خاسرين. وظل" تاتيكيوس" واقفا مع جنده الشاكى السلاح حتى إذا آذَنَتْ الشمس بالمغيب ولم يظهر أحد من الترك خارج الأبواب زحف إلى" بازيليا" Basileia ونصب

معسكره بها، وكانت" بازيليا" هـذه على بعد عشرة مراحل من" نيقية" . وحدث أن جاءه في أثناء الليل أحد الفلاحين يحمل إليه نبأ يقول إن" بروزوخ" Prosouch في الطريق إليـه على رأس خـمـسـين ألف رجل أرسلهم السلطان الجـديد "بركيـاروق[٢٦]" وجـاء الكثيرون إلى ألكسيوس يؤكدون صدق هذا الخبر. ولما كـان عسكر" تاتيكيوس" أقلّ بكثير من العسكر القادم لمهاجمته فقد اضطر لتغيير خططه وآثر سلامة جيشه كله بدلا من أن يحارب هذه الجموع الكثيفة فيخسر كل شيء؛ لذلك أجمع العزم على الارتداد إلى العاصمة عبر مدينة" نيقوميديا" فرآه" أبو القاسم" من شرفات حصون المدينة فعرف وجهته إذ رآه يزحف في الطريق المؤدى إلى القسطنطينية، فخرج من المدينة بقصّه وَاندفع إلى مهاجمته حين يعسكر في موضع يتيح للترك أن تكون لهم اليد العليا فيه، وتسنّى له ذلك عند" برينتوس" Prenetos فبادر إلى مهاجمته هناك وكر عليه كرةً عنيفة، ولكن" تاتيكيوس" كان سريعا غاية السرعة في ترتيب صفوفه وإعْدَادها للقتال، وعهد إلى الكلْت بالرد على هذه الغارة وأن يبادر فرسانهم إلى الهجوم على هؤلاء المتبربرين، فحملوا عليهم بمزاريقهم الطويلة حملةً صِدقٍ ونزلوا عليهم نزول الصاعقة وفرقوا صفوفهم فتشتتوا على وجوههم وفروا يتخبطون لا يدرون أين يذهبون، وعاد "تاتيكيوس" إلى العاصمة مجتازا "بيثينيا" ومع ذلك فإن" أبا القاسم" لم يزدجر بما جرى بل طمع في الاستحواذ على صولجان الإمبراطورية الرومانية لينتزع من يدها السيطرة على المناطق البحرية فإن لم يستطع فلا أقل من أن يسيطر على الأماكن الأخرى كالجزر، وحملته هذه الفكرة التي اختمرت في رأسه على بناء سفن قتال مادام قد استولى على مدينة" كيوس" Kios الواقعة على ساحل، بيثينيا.

كان العمل جاريا لإتمام بناء هذه السفن وكان مشروعه يمشي على أكمل وجه أو هكذا خُيِّل إليه، ولكن الإمبراطور كان واقفا على نشاطه فولى مانويل" بوتوميتس" قيادة السفن الموجودة وقتذاك وهي تتألف من العداءات[٢٧] والشواني وغيرها من أنواع المراكب الأخرى، وأمَره بشنّ هجوم مباغت على" أبي القاسم" وألاّ يتراخى لحظةً واحدة عن حرق هذه المراكب، وصدر الأمر إلى" تاتيكيوس" أيضا بمهاجمة" أبي القاسم" برا بقوة ضخمة فغادر القائدان مَانويل و تاتيكيوس المدينة فلما رأى أبو القاسم أن"

بوتوميتس" قد أبحر على جناح السرعة وأنّ بقية العدوّ فى الطريق إليه برا أمر عسكره أن يتوقفوا ليبحث عن المكان الملائم باعتبار أن الموضع السابق لم يعد يصلح له لشدة وعورته وضيقه، كما أنه لا يصلح لرماة النبال لأنّه لا يسعفهم بما يفيدهم إنْ هم واجهوا خيول فرسان الروم.

كان الوضع الجديد الذى اختاره لينصب عنده خيامه يعرف عند بعضهم بهالياى Halyal وعند غيرهم باسم" كيباريسون" Kyparission لكنه ما كاد يصبح على سيف البحر حتى بادر"بوتوميتس" فأحرق سفن" أبى القاسم"، كما وصل "تاتيكيوس" فى اليوم التالى برا فتخيَّر مكانا عدّه من أحسن الأماكن لنصب معسكره ودأب لمدة خمسة عشر يوما- من الصباح الباكر حتى دخول الليل- على مواصلة الغارات على أبى القاسم، وكان بعضها عبارة عن مناوشات، والبعضُ الآخر معاركَ نظامية، لكن أبا القاسم لم يستسلم قط ولم يَهن عزمه بل جرى النقيض إذ اشتد صموده وحميت مقاومته مما أزْعج اللاتين إزعاجا راحوا يلتمسون فيه من"تاتيكيوس" أنْ يأذن لهم بُمحاربة الترك السلاجقة بأسلوبهم الخاص رغم طبيعة الأرض الصخرية غير الملائمة ، لكن" تاتيكيوس" رفض هذه الخطة ونعتها بالحمق .

بَيد أنه اضطر رغم أنفه إلى إفساح الطريق للاتين وتراجع عَمّا كان يراه، وذلك حين شاهد أنّ قوة السلاجقة آخذة فى التزايد يوما إثر يوم، فصفَّ صفوفه حين قاربت الشمس الشروق، وبدأ القتالَ الذى لقى فيه رهط كبير من السلاجقة حتفهم وإنْ كان القتل أكثر ما يكون فى الأسرى، وأمّا غيرهم فقد لاذوا بأذيال الفرار مخلّفين وراءهم ما معهم من المتاع غير عابئين به، بل إن" أبا القاسم" فر مباشرة إلى" نيقية" فوصلها وقد أوشكت روحه أن تذهب بددا . على أن الرجال الذى كانوا بصحبة تاتيكيوس لم يعودوا إلى معسكراتهم إلاّ بعد أن امتلأت أيديهم بالغنائم والأسلاب.

كان الإمبراطور رجلا يعرف كيف يكسب قلوب الناس ويستميلها إليه، كما كان قادرا على أن يُلين أشدهم جفوة، لذلك أرسل فى لحظته كتابا إلى أبى القاسم ينصحه

فيه بالتخلي عن هذه الخطط التي لا تجدى نفعا، وأنْ يكفّ عن الضرب في الهواء، وأدرك أن الخير له إنما يكون في مبادرته إلى الاتفاق معه هو ذاته، لأنه إنْ فعل ذلك جنَّب نفسه كثيرا من المشقة وغنم النعم الوفيرة وحظى بالإنعامات الجمة. ولما كان أبو القاسم يعرف أنّ "بروسوخ" قائم على محاصرة المواقع الحصينة بفَضْل بعض الولاة وأنه سوف يصبح في القريب العاجل أدْنى ما يكون إليه فقد أرغَمَتْهُ الضّرورة – كما يقولون– أن يرحّب بعروض السلم مع الإمبراطور فعقدهُ معه في السر لا سيما وقَد كانت عنده فكرة صحيحة عن مقاصده، ومن ثم أمضيت اتفاقية صلْح بين الطرفين، غير أنّ ألكسيوس كان يهدف للحصول على فائدة أكبر من هذه الفائدة لكنه أدرك ألاّ سبيل إلى تحقيق هدفه إلاّ إن هو دعا هذا التركى إلى العاصمة، فدعاه، ووعده بالأموال الطائلة وبأطيب إقامة ثم يعود بعدها إلى الموضع الذى جاء منه، فقبل "أبو القاسم" عَرْض ألكسيوس ورحّب به أعظم ترحيب، وأحاطه الإمبراطور – حين قدم العاصمة – بكل مظاهر الحفاوة والود.

كان السلاجقة الذين يحكمون "نيقية" قد احتلوا أيضا "نيقوميديا" التى هى أكبر مدن بيثينيا، وأراد الإمبراطور إخراجهم منها، فرأى أن تحقيق هذا الهدف يحتم عليه تشييد قلعة(٢٨) حصينة تطل على البحر، وكان ذلك في الوقت الذى كان "الغَزَل" متبادلا فيه بيْن الجانبين في القسطنطينية، فجهزت جميع المَواد اللازمة لتشييد هذه القلعة، ووضعت على الحمالات(٢٩) بصحبة المهندسين. وخرجت بقيادة القائد "يوستاسيوس" قائد عام البحرية وجعلوه المسئول الأول عن هذه العمارة البحرية، كما أنّه كان الشخص الذى استأمنه الإمبراطور على مشروعه الذى أبقاه سرا مكتوما. وكلّف "يوستاس" بأن يُظهِر للترك الذين يمرون بتلك الناحية كلّ مظاهر الترحيب والود، وأن يمدّهم بكل ما يحتاجونه، وأن يُفهِمَهم في الوقت ذاته أن "أبا القاسم" عارف بالمشروع، وأنّه صدرت التعليمات بمنع جميع السفن من دخول مناطق "بيثينيا" الساحلية حتى لا يسمع أبو القاسم بما هو جار هناك. على أنّ الإمبراطور لم يكن يدع يوما يمر من غير أنْ يبعث إلى أبى القاسم بالمال، أو يدعوه إلى السباحة والاستحمام ومشاهدة حفلات سباق الخيل والركوب للصيد والخروج في رحلات جميلة لمشاهدة الأعمدة التذكارية المقامة في الأماكن العامة.

ورغبة من الإمبراطور فى إدخال مزيد من السرور على قلب أبى القاسم فقد أمر سائقى المركبات الحربية بتنظيم عَرْض على ظهور الخيل فى المدرج الذى كان قسطنطين الكبير قد أقامه منذ زمن بعيد. فراح يدعوه لزيارته كل يوم ومشاهدَة سباق الخيل والتفتيش عليها وكان هدف الإمبراطور من وراء ذلك ومن كل ما صنعه معه أن يضيع وقت أبى القاسم، حتّى يتيح للبنائين أطول زمن ممكن لإتمام ما يقومون به من أعمال البناء والتشييد، فلما فرغوا من إقامة الحصن ورأى ألكسيوس أن قد تم له إنجاز هدفه زاد فى هداياه إلى "أبى القاسم" الأمير السلجوقى، ثم زاد فأنعم عليه بلقب "سيباستيوس" وأكد ما تم الاتفاق عليه بينهما، ثم رده بعد ذلك عن طريق البحر مكرما مبجلا.

لكن لما سمع أبو القاسم فى النهاية بأمر الحصن الذى تم تشييده أحسَّ بالهمّ العميق فى صدره وإنْ تظاهَرَ بالجهل والتزم الصمت المطبق حيال هذا المشروع.

وهناك قصة مماثلة فى التاريخ القديم عن " السبياديس[٣٠]" حين ضلل هو الآخر " اللاكيدميونيين" ورفض إعادة تشييد أثينا بعد خرابها على يد الفرس، فقد طلب إلى أهلها إعادة بنائها، ثم مضى عنهم إلى إسبرطة كمبعوث، وظلت المفاوضات دائرة وامتدت زمنا ليس بالقصير مما أتاح فرصةً طيبة للناهضين بالبناء لإتمامه، ولم يعلم " اللاكيدميونيون" بذلك إلاّ بعد أن نجحت الحيلة، ويشير" ديموستين ألبونى" فى إحدى خطبه إلى حيلة " السبياديس[٣١]" الرائعة هذه.

كانت خطة والدى فى الواقع تشبه هذه الخطة تمام الشبه، ولكن يجب على المرء أن يقرّ أنها كانت خطة تليق بقائدٍ عظيم، إذْ أنه استطاع إلْهاءَ المتبربر وشغله بحفلات سباق الخيل وغير ذلك من فنون الملاهى، فتأجّل رحيله يوما بعد يوم مما ساعد على إنجاز العمل، فلما انتهى ذلك كله أذِن للرجل بالرحيل عن العاصمة.

(١١)

وتبعا للتقديرات فقد وصل "بروسوخ" على رأس قوة كبيرة لحصار نيقية حسبما قال زائر" تاتيكيوس" الليلى، واستمر حصارُ البلد ثلاثة أشهر موصولة غير مقطوعة، ورأى سكان المدينة بل وأبو القاسم نفسهُ أنّ الأحوال قد بلغت منتهى اليأس، وأصبح من المُستحيل الصمود فى وجه" بروسوخ" أكثر مما كان، فأنفذوا رسالةً إلى الإمبراطور يطلبون إسْعافهم بنجدة من عنده، ويخبرونه أنهم يؤثرون أن يُنعتوا بعبيد الإمبراطور بدلا من أن يستسلموا لبروسوخ، فاستجاب الإمبراطور فى لحظته وعمل على مساعدتهم، فأرسل إليهم أحسن من لديه من العسكر، وبعث معهم الرايات والصولجانات المطعّمة بالفضة، ولم يكن غرضه من وراء ذلك مساعدةَ أبى القاسم كما يبدو للناظر ولكنه قدّر أن تؤدى هذه القوة إلى تدمير الرجل لأنه كان يرى أنّه إذا حارب عَدُوّان للإمبراطورية الرومانية كل منهما الآخر فخير للإمبراطور أن يُعينَ أضعفهما لا ليجعله أشدّ بأسا ولكن لينتزع من يد الآخر مدينة لم تكن حتى هذه اللحظة تحت الحكم الرومانى فتصير بهذه الطريقة فى دائرة النفوذ الرومانى، ثم تتلوها خطوة أكبر فيستولى على مدينة ثانية فثالثة، وحينذاك تزداد رقعة هذا النفوذ اتّساعا بعد أن كان قد تقلص هذا النفوذ لا سيما منذ أن أخذت قوة الترك الحربية فى الازدياد.

لقد مر زمن كانت فيه حدود الإمبراطورية الرومانية محصورة بين ما يعرف بأعمدة هرقل فى الغرب وأعمدة" ديونيسيوس" القريبة من الحدود الهنديّة فى الشرق، ويكاد يكون من المستحيل أنْ نلمّ بمدى الاتساع الذى كانت عليه رقعة الإمبراطورية فقد كانت تشمل مصر والمورة وجميع أراضى"تروجلوديتس" **Troglodytes** والبلاد المتّصلة بالمنطقة الصحراوية.

أما من الناحية الأخرى فكانت هناك جماعات" الثول" الشهيرة التى تسكن المنطقة القطبية الشمالية، لكن كان البسفور فى هذا الوقت الذى نتكلم عنه هو الحَدّ الشرقى للقوة الرومانية كما كانت مدينة" أدرنة" هى حدها الغربى. وكان الإمبراطور ألكسيوس يبذل الجهد مضاعفا فى محاربة المتبربرين الذين يهاجمونه من الجانبين

على السواء، فحشد حشوده الكثيفة حول بيزنطة معتبرا إياها مركزا لعملياته، ومدَّ حدودَ الإمبراطورية حتى صار الأدرياتيك يحدها غربا، ودجلة والفرات يحدّانها شرقا. وكادت طموحاتُ الإمبراطور فى استعادة ما كان للإمبراطورية من مجد قديم أن تتحقق لولا أن عاقتها الحروب والأخطار والاضطرابات التى لم تكن لتنقطع أبدا، ذلك لأنه يغرّر بنفسه ويعرضها للأخطار الجسيمة والبسيطة على السواء.

ولقد قلتُ فى مستهل هذا الخبر أنه كان يهدف من وراء إرساله عسكرا من لدنه إلى" أبى القاسم" حاكم نيقية أن يُنْجِدَه بقدر ما كان يرمى إلى إحراز النصر لِذَاته، غير أن الحظ تجهَّم له وأضْعف جهوده، فقد حدث - حين وصلت التجريدة العسكرية إلى موضع يعرف" بسنت جورج" - أنْ بادر الترك ففتحوا الأبواب لهذه التجريدة، فارتقى الجندُ المتاريسَ التى تعلو البوابة الشرقية ونصبوا كل أعْلامِهم وبيارقهم ، وتعالَتْ صرخاتهم الحربية إلى عنان السماء، فاضطرب المحاصرون الموجودون فى الخارج من هذه الجلبة، وظنّوا أنّ الإمبراطور قدجاء بنفسه، فغادروا الناحيةَ تحت جنح الظلام، وعادت القوات الرومانية هى الأخرى إلى العاصمة لتشتد فى مقاومة غزوٍ فارسى آخر كان متوقعا أن يأتى من أعمق أعماق الإمبراطورية التركية.

(١٢)

ظل السلطان ينتظر عودة" سياؤس" الذى طالت غيبته، ثم علم بما جرى له وكيف أنه احتال فخلع "خاراثيكس" من" سينوب" كما علم بتنصّره وتعميده، وكيف أرسله الإمبراطور إلى الغرب وأنعم عليه بلقب دوق" أنخيالوس" Anchialus . أقول لما علم السلطان بذلك كله انزعج خاطره واعتراهُ الهمّ، إلاّ أنه رأى الظروف حينئذ تفرض عليه أن يرسل" بوزانوس" لمهاجمة أبى القاسم، وحمَّله رسالة وجهها إلى الإمبراطور حول حلف المصاهرة يقول له فيها: " لقد سمعت أيها القيصر عن متاعبك، وأعرف الصعابَ الكبيرة التى صادفْتَها منذ مستهل عهدك، وأنّ البشناق يتأهّبون لقتالك بعد أن فرغ بالك من المشاكل اللاتينية، وأنَّ الأمير أبا القاسم - بعد شجْبِه الاتفاقية التى عقدها معك سليمان- راح يعيث فى آسيا مخربا نواحيها حتى بلغ" داماليس" ذاتها، فإن

شئتَ أنْ يخرج " أبو القاسم" من هذه النواحي وأن تخضع لك آسيا وأنطاكية فابعث إليّ بابنتك لتكون زوجة لأكبر أولادى وإذ ذاك لن يقف قط أحد فى طريقك، وسيكون من اليسير عليك أن تستفيد من مساعدتى لك فتحقق كل ما تنشده، ليس فى الشرق وحده فحسب بل وحتى فى الغرب بأجمعه، ولن يعود أحد ليقاومك خوفا من القوات التى سوف أرسلها إليك".

هذا هو فحوى اقتراح السلطان الفارسى(٣٢).

كان"بوزانوس" فى هذه الأثناء قد وصل إلى نيقية وشنّ عدة هجمات على المدينة ولكنها مُنِيت جميعها بالفشل ولم تصادف أى نجاح فقد ردها أبو القاسم ردا عنيفا، وحينئذ وجد " بوزانوس" نفسه مضطرا إلى طلب المساعدة من ألكسيوس الذى استجاب لسؤاله، وإذ ذاك أسرع" بوزانوس" فغادر موضعه ليهاجم المدن والقلاع الأخرى وعسكر بجيشه عند نهر اسمه" لامب " Lampe قرب"لوباديون" Lopadion وكان أبو القاسم قد أوسق خمسة عشر بغلا بأكثر ما تقدر على حمله من الذهب ورحل إلى السلطان الفارسى مؤملا أن تعمل هذه الرشوة فيه عملها فلا ينزعه من قيادته، فوجده معسكرا قرب" سباخا "Spacha ، فاستأذن فى مقابلته فرفض السلطان الإذن له فأنفذ أبو القاسم الوسطاء إليه يلحّون عليه – نيابةً عنه – باستجابة رجائه، فقال لهم السلطان: " لقد منحتُ الأمير" بوزانوس" تأييدى وعهدى فلا أنقضه، فقولوا لأبى القاسم أن يأخذ المال الذى جاء به، وأن يفضى بكل ما يريد إلى بوزانوس الذى لا أنقض شيئا أمضاه معى بل إنى مقر كل ما قضى به".

ولما طال انتظار أبى القاسم هنا ، وبَعْد ما صادفه من مشقة كبيرة وبعد فشله فى كل شىء رحل قاصدا بوزانوس فلقيه فى الطريق إليه مائتا عامل أرسلهم الأخير للقبض عليه لأن رحيل أبى القاسم لم يعد سرا مكتوما فأمسكه هؤلاء الرجال وصنعوا أنشوطة من وتر القوس أحكموها حول عنقه فخنقوه.

والرأى عندى أن الأمر لم يتم عفويا من ناحية" بوزانوس" ولكنه كان بتدبير من السلطان" بركياروق" الذى أمر بمعاملة أبى القاسم بهذه الصورة. وكان ذلك شيئا كبيرا لا يستحقه الرجل.

ولنعد الآن إلى ما كُنّا فيه من الكلام عن الإمبراطور فأقول إنه لما قرأ كتاب السلطان لم يكن عنده من رد عليه سوى رفض اقتراحه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

لئن زُفَّتْ ابنته إلى أكبر أبناء هذا المتبربر فستكون أتعس البنات قاطبة، وهذا أمر لا جدال فيه وإنّ ذلك أمر لم يَقْضِ به الله ولا يشاؤه، كما أنه لم يكن يخطر على بال الإمبراطور- مهما استحكمت حلقات الضيق من حوله - أنْ يلَبِّى هذا الطلب .

لم يتمالك الإمبراطور نفسه - حين قرأ الرسالة لأول مرة- من الانفجار ضاحكا من سفاهة السلجوقى فدمدم قائلاً : " ما أرى إلا الشيطان هو الذى أملّى عليه ما كتب وَزيّنَ له ما طلب".

لكن مهما يكن رأيه فى هذه المصاهرة إلاّ أنه كان لا يزال يرى الحكمة تقتضيه أن يفتح أمام السلطان أبواب الأمل الكاذب حتى يظل واهما، لذلك استدعى إليه "كورتيكيوس" Kourtikios " وثلاثة آخرين وبعثهم سفراء من جهته إلى السلطان وجهّزهم بالرسائل التى تتضمن ترحيبه بفكرة السلام وموافقته على اقتراحاته، ولكنه طلب فى الوقت ذاته بضعة مطالب خاصة كان من شأنها أن تطيل أمد المفاوضات.

بيد أنه حدث قبل وصول السفراء إلى خراسان أن سمعوا باغتيال السلطان[٣٣] فعادوا أدراجهم إلى بيزنطة.

ولقد امتلأت نفس" تتش" بالزهو بعد مقتل خَتَنه الأمير سليمان الذى كان قد زحف عليه من نواحى بلاد " العرب" وإذْ كان قد سمع بسعى شقيقه السلطان للصلح مع الإمبراطور فقد راح يدبّر خطة لاغتياله فاستدعى إليه اثنى عشر رجلا من السفاكين الذين يُطلق عليهم فى الفارسية اسم Chasiois أى الحشاشون وأرسلهم فى الحال إليه كسفراء من قبِله وألقى إليهم بتعليماته القاضية باغتياله ، وقال لهم : " اذهبوا، ولكن أذيعوا أنكم تحملون إلى السلطان نبأ خطيرا حتى إذا سمح لكم بالمثول بين يديه اقتربوا منه بصورة يخيل للجميع أنكم راغبون فى التحدث إليه سرا، وحينذاك ثِبوا عليه وافتكوا به فى لحظتكم".

خرج هؤلاء السفراء - أو على الأصح هؤلاء السفّاكون- وهم أبهج ما يكونون نفسا كما لو كانوا ماضين لحضور حفل عشاء أو حضور وليمة، وما علم أحد بأنهم يزمعون الاغتيال، فوجدوا ضحيتهم قد أثقلته الخمر، فأيقنوا أن الظرف موات لهم ، وإذْ ذاك اقتربوا من السلطان و استلوا خناجرهم من تحت آباطهم ووثبوا عليه ومزقوا التعيس إربا.

كان هؤلاء الحشاشون رجالا يلذ لهم سفك الدماء، وما من لذة تفوق لذتهم وهم يغمدون خناجرهم فى صدور ضحاياهم فإن هاجمهم الناس فى هذه اللحظة ومزقوهم إربا اعتبروا مصرعهم مجدا لهم وشرفا تتحدث به ذراريهم جيلا بعد جيل وإرثا يتوارثه الخلف عن السلف.

على أية حال لم يُقَدَّر رجوع أحد من هؤلاء إلى" تتش" فقد دفعوا جميعهم حياتهم ثمنا لهذه الجريمة إذ ماتوا هذه الميتة الشنعاء. فلما ترامى خبر ما جرى إلى سمع " بوزانوس" عاد بعسكره قاصدا خراسان التى هى آخر مراحل رحلته، فوجد أخا القتيل قد خرج إليه وشبت معركة بينهما اتسمت بالضراوة وإنْ لم تُسْفِر عن نصر حاسم لأحدهما على الآخر، وأبدى" بوزانوس" بطولةً فى القتال فقد استطاع أن يبثّ الاضطراب والفوضى فى صفوف خصمه وبين جنده على اختلاف رتبهم، ولكنه خرَّ فى النهاية صريعا مثخنا بالجراح، فلما رأى رجاله ما آل إليه أمره راح كل منهم ينشد النجاةَ لروحه ويطلب سلامةً نفسه ففروا على وجوههم وتشردوا فى شتى النواحى. أما " تتش" فقد عاد إلى خراسان منصورا كأنما صار سلطانا . لكن الواقع هو أنه كان فى خطر داهم، ذلك أن" بركياروق" ابن السلطان" ملكشاه" المقتول- اعترض طريقه مسرورا "كأنه الليث صادفً فريسة دسمة" كما يقول هومير، فهاجم تتش هجوما ضاريا بدَّد فيه شمل عسكره مرة بعد مرة ثم ضربه ضربة صرعته فأهلكه، فامتلأ صدره بزهو" نواتوس" .

فى الوقت الذى مضى فيه أبو القاسم بالمال إلى سلطان خراسان كما قلت من قبل قدم أخوه"بولخانيس" إلى نيقية واحتلّها، فلما سمع الإمبراطور بما فعله أسرف فى تقديم الرِّشَا إليه لعله يعيد إليه المدينة ويرحل عنها، فوافق ذلك العرض هوى فى نفس

"بولخـانيس" ولكنه ظل يمـاطل فى اتخـاذ القـرار البـات، نـاظرا مـرة أخـرى إلى " أبى القاسم"، كما وصل إلى الإمبراطور سيل دفاق من الرسائل التى تركته مُبلبل الخـاطر لا يتقدم ولا يتأخر، ولكن الواقع هو أن الرجل كان ينتظر عودة أخيه.

بينما كانت الأمور تسير على هذه الصورة إذا بحادث يجدّ، وأنا أوجزه فيما يلى وهو أن سلطان خراسان الذى اغتاله الحشاشون كان قد أُلقى القبض قبل اغتياله على ابنَى سليمـان الكبير، فلما لقى أبوهما مصرعه فر الوَلدان من خراسـان فبلغا سريعين نيقية، فما كاد أهلوها يرونهما حتى ضجوا فرحا بهما، وأسلمهما" بولخانيس" المدينة عن طيب خـاطر كمـا لو كـانت إرْثا عـائليا. ولقّب أكبـر الولدَين واسـمـه" قلج أرسـلان" بالسلطان. وبادر فأرسل فى طلب حريم العسكر وأبنائهم الموجودين فى نيقية واستقروا مرة ثانية، وصـار من الممكن أن يقال إن المدينة أصبحت مقرا رسميا للسلاطين، فلما تم لقلج أرسـلان تنظيم أمـور نيقـية أرغم" بولخـانيس" على التـخلى عن وظيفتـه، ورفـع محمدا إلى مرتبةٍ صـار فيها كبيرَ نوابه ثم خلّفه وراءه فى نيقية. أما هو فقد مضى لمهاجمة ملطية.

(١٣)

هذا هو تاريخ هؤلاء السلاطين .

لقد استولى الإيلخان- وهو أكبر هؤلاء الحكام - برجاله على مدينتى" أبولونياس" Apollonias " وزيسيكس" Cyzicus الساحليتين وخرّب جميع المناطق المطلة على البحْر مما أدّى بالإمبراطور إلى تجهيز العديد من القوارب التى وجدها بين يديه إذْ لم يكن قد تمت تعبئة الأسطول، وجهّز هذه القوارب وزودها بالمقاتلين الأشـداء ، وجعل ذلك كله تحت إمـرة رجل عظيم ذاعت شـهـرته لشـجـاعـتـه يدعى" إسكندر يوفـوربينس" Euphorbenus فبلغت" أبولونياس" واستطاع - بعد الهجوم المستمر على أسوارها ليلا ونهارا مدة ستة أيام موصولة - أنْ يسيطر على السور الخارجى لقلعتها التى تسمى عادة باسم" أكسبولوس" Expolos ولكن الإيلخان ظل يدافع فى عناد عن" الأكروبوليس" أملا منه فى مجىء الإمدادات إليه من الخارج .

والواقع أن إسكندر رأى قوةً بربرية ضخمة قادمة للمساعدة، ولما كان الجند الذين معه لا يكافئون في العدد إلاّ قليلا من عسكر الروم فقد أدرك أنه لن يتمكن من الانتصار، لذلك رأى الخير في استبقاء قواته بعيدا عن الخطر. والحقُّ أن موقفه كان بالغ الخطورة وكان من المستحيل أن يضمن السلامة بأية صورة من الصور، لذلك قرّر أنْ يبحر فأركب الرجالَ السفنَ وأبحر إلى النهر لكن خطته لم تفت تقدير الإيلخان الذى اتخذ العُدة للاستيلاء على المدخل المؤدى إلى البحيرة والجسر المشيد على النهر عند موضع كان قد أقيم فيه في الأزمنة السالفة مزار شيّدته القديسة هيلانه تمجيدا لقسطنطين الكبير الذى أصبح اسمه يطلق على الجسر منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا.

اختار الإيلخان خيرة المدربين من جنده وأقامهم عند مدخل البحيرة وأوقفهم على يمين الجسر ويساره وأمرهم بمباغتة السفن الرومية وهى مبحرة. ونجحت مكيدته فسقط في الشرك كلُّ من كانوا مبحرين في قوافل صغيرة من المراكب، فلما رأى مَن فيها الخطرَ محدقا بهم عادوا يائسين إلى الشاطئ وانطلقوا يثبون من مراكبهم إلى اليابسة فتلقّاهم الترك واشتبكوا معهم في قتال بالنهر الذى جرفهم تياره وابتلعتهم مياهه. وكان لهذا النبأ وقع شديد الإيلام في نفس الإمبراطور فأرسل ضد الترك برّاً قوةً كبيرة بقيادة" أوپاس" Opus الذى وصل إلى" سيزيكس" Cyzicus واستولى على الموضع من أول هجوم عليه، ثم انتقى من جماعته ثلاثمائة رجل قد دُرّبوا خير تدريب على عمليات الحصار ومواجهة الأخطار، وأرسلهم ليحملوا على بويمانيون Poimaneon التى تقاومهم ولكن لم يستعص وقوعها في أيديهم وهلكت طائفة من المدافعين عنها، وأسر الكثيرون فبعثوا بهم إلى أوپاس الذى سرعان ما أنفذهم إلى ألكسيوس . وبعد أن فرغ أوپاس من" بويمانيون" غادرها إلى" أبوللونيوس" وبالغ في حصارها ولم يكن بها من رجال الإيلخان سوى نفر ضئيل للدفاع عنها، لكنهم ما لبثوا أن استسلموا لأوپاس طواعيةً وأسلموه البلد، فلما تم ذلك غادر المدينة مستصحبا معه أقرب الناس رحما له ومضى بهم إلى الإمبراطور الذى أفاض عليه من الهدايا ما لا يعَدّ ولا يحصى وكان أثمنها جميعا وأسماها تعميده.

أما الذين لم يرغبوا في متابعة" أوپاس"- ونذكر منهم على سبيل المثال سكالياريوس Scaliarius الذى أُنعم عليه فيما بعد بلقب Hyperperilampros - فقد

جاءوا هم أيضا إلى الإمبراطور ونالوا منه ما تمنوه، وكان ذلك حين سمعوا بعروضه الوديّة السخية التي قدمها للإيلخان، وسمعوا بما كان من كرمه الكبير. وإنه ليمكن أن يقال بحق إنّ هذا الإمبراطور كان رجلا من أطهر الرجال وأحسنهم بسبب ما طُبع عليه من الفضائل، ويفضل أسلوبه فى الحديث، وإنه ليكاد فى ذلك أن يكون قديسا عظيما عليه من المهابة أسماها، وكما كان معلما رائعا مع إيمان الأنبياء شديدَ الحرص على ألاّ تقتصر هدايته إلى المسيحية على البشناق وحدهم بل جاوزهم إلى هداية من كانوا فى فارس كما شملت كافة المتبربرين(٣٤) الذين يعيشون فى مصر أو ليبيا ممن يتبعون ملة محمد[صلى الله عليه وسلم] .

(١٤)

لا أريد أن أطيل الكلام فى هذا الموضوع أو أزيد عما قلته ولكنى أحب أن أشير إلى غزوة أفدح مما سبق أن تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية، وأرى الصواب أن أقص الخبر من بدايته لأن هؤلاء الغزاة الذين قدموا واحدا بعد آخر كانوا أشبه ما يكونون بأمواج البحر يتلو بعضها بعضا(٣٥).

كانت إحدى قبائل البشناق قد تعرضت للنهب المستمر على أيدى السرمانتيين مما حملها على مغادرة أرضها وركبت الدانوب ، ولما كان من الضرورى لها الحياة فى سلام قرب هذا النهر فقد راحت تفاوض أحد زعمائهم واسمه "Tatos" الذى يسمى كذلك خاليس Chales ، كما فَاوضت أيضا" تيثلافوس" Tésthlavos وساتزاس Satzas.

ولابد لى من أن أذكر أسماء قادتهم حتى ولو بدا ذلك نشازا فى سياق كتابى التاريخى هذا فلقد صار لواحد منهم الأمرُ والنهى على" درسترا" وبيتزينا Pitzina وبقية تلك النواحى ، ثم تمخض الأمر عن إمضاء اتفاقية استطاع البشناق بمقتضاها عبور الدانوب فيما بعد آمنين، ثم شرعوا فى نهب الإقليم المجاور له حتى تمكّنوا من

الاستيلاء على بعض القلاع. حين أصبحوا فيما بعد يتمتعون بعهدٍ ترفرف فيه أعلام السلام فقد أخذوا فى فلاحة الأرض وزراعة الذرة والقمح .

إلاّ أن " تراولوس" الشرير المانوى أضلّهم وأغواهم فقاد أتْباعه ومن لفّ لفهم واستولوا على الحصن الواقع على قمة تل" بلياتوبا" Bellatopa حسبما فصلت فى تاريخى هذا من قبل، فلما علموا ما علموا عن نشاط هؤلاء البشناق أخرجوا إلى حيز الوجود مشروعا شديد الخطورة كانوا يفكرون فيه منذ زمن بعيد، إذ راح تراولوس بمن معه يضعون الرجال المسلحين في المسالك الوعرة والممرات الجبلية، كما استدعى هو نفسه إليه البشناق وانطلقوا جميعا يعيثون فسادا وتدميرا فى الإقليم الرومانى، وكان المانويون شعبا مطبوعا على القتال حتى وهم جياع يهيمون على وجوههم كأنهم الكلاب الضالة التى تعيش على الجيف، فلما نمى خبر ذلك إلى علم ألكسيوس أصدر أمره إلى دوميستيك الغرب" باكوريانوس" بالزحف عليهم بمن معه من العسكر وأن يصحبه فى حملته هذه " براناس" Branas وهو محارب من الطراز الأول. إلى جانب ما امتاز به من الكفاءة النادرة فى تنظيم الجموع الكثيفة سواء كان ذلك فى ساحة القتال أو كان فى المناورات المُعَقّدة، وسرعان ما اكتشف أن البشناق قد مروا عبر المضايق والأنفاق، وأنهم نصبوا معسكرهم على مسافةٍ لا تبعد كثيرا عن" بلياتوبا" وأنهم فى جموع غفيرة تشير إلى أن الحرب لابد ناشبة. وكان التفكير فى هذا وحده مدعاةً لأن يأخذ حذره فرأى أنّ خير سبيل يجب عليه التزامه بها فى الوقت الحاضر هو أن ينأى عن الخطر فلا يدفع بنفسه إلى أتون القتال فيكون الهلاكُ والإبادة هو المصير فى معركة خاسرة.

لكن" براناس" لم يوافقه على هذا الرأى بسبب ما طُبع عليه من الجرأة والاندفاع، فاضطر "الدوميستيك" إلى الرضوخ لرفيقه حتى لا ينسب امتناعه إلى الجبن إنْ هو رفض التحدى. وعلى هذا صدرت الأوامر للجميع بامتشاق السلاح حتى إذا تمّت ترتيبات القتال كان الزحف ضد البشناق، وتولى" باكوريانوس" فى هذا القتال القلب.

كان الروم أقلّ من عدوّهم كثيرا فخافوا، وإنْ لم يمنعهم هذا الخوف من الهجوم الذى أسفر عن هلاك الكثيرين منهم، حتى إن" براناس" أُصيب بجرح أوْدى بحياته. واستبسل" الدوميستيك" استبسالا وحشيا فى القتال، وكّر على البشْناق كَرَّة ضارية

فارتطم بشجرة بلوط فصرعته فأسلم روحه فى الحال فتبدّد شمل الجيش كله حينذاك فى شتى النواحى . وكان حزن ألكسيوس على من سقطوا فى ساحة القتال كبيرا وبالغا، وكان أعظم بكائه لموت" باكوريانوس" الذى كان عزيزا على نفسه وقريبا من قلبه وكان شديد الحب له حتى قبل اعتلائه العرش، فلا عجب إن هو ذرف الدّمع السخين على الدوميستيك، لكن الذى حدث لم يؤد إلى التراخى فى بذل الجهد، فقد أرسل الإمبراطور القائد" تاتيكيوس" إلى أدرنة وزوّده بمبالغ مالية كبيرة لدفع رواتب الجند السنوية ولتجنيد آخرين من كل ناحية لتكوين جيش جديد قادر على خوض المعارك، كما صدرت الأوامر إلى" همبرتوبولوس" بالإسراع مع الكلتيين وحدهم للانضمام إلى " تاتيكيوس" بعد أنْ خلّف حامية متوسطة العدد والعدّة فى" زيسكس".

ولقد امتلأت نفس تاتيكيوس بالثقة بوصول هؤلاء اللاتين وقائدهم، لذلك اغتنم ما تتيحه هذه الكتيبة من قوة وبادر فزحف على البشناق وضرب معسكره قرب " فيليبوبوليس" على شواطئ نهر يجرى عند" بليسنوس" Blisnos لكنه أبصر الأعداء قافلين من إحدى غاراتهم وقد فاضت أيديهم بالغنائم والأسرى، وكانت رؤيته لهم على هذه الحال قبل أن يتم وضع كل متاعه داخل استحكاماته ولذلك أنفذ لصدهم كتيبة قوية سار هو فى إثرها على رأس بقية العسكر الذين حملوا كل ما لديهم من السلاح ورتّبوا صفوفهم للحرب، فلما انضم البشناق بما يحملون من الغنائم والأسرى إلى بقية جماعتهم قرب شواطئ "يوروس"Euros انقسم الروم إلى قسمين وصاحوا صيحة الحرب وهجم جناحَاهم مُحْدِثِين جلبةً عالية وصرخوا صريخا يصم الآذان فأسقط فى يد العدو الذى هلك الكثيرون من رجاله فى القتال الضارى الذى نشب بين الجانبين، وفر من استطاع إلى الفرار سبيلا، وانطلقوا هائمين على وجوههم على غير هدى، وعاد" تاتيكيوس" إلى" فيليبوبولس" محمّلا بالغنائم، وشرع - وهو فى هذه القاعدة الحربية الجديدة - يتأهّب لهجوم جديد كانت المشكلة فيه هى: "من أين يبدأ".

ولما كان" تاتيكيوس" على علم بأن لدى الأعداء رصيدا كبيرا من القوة البشرية فقد بَثّ كشافته فى كل الاتجاهات؛ لأنه كان يريد الحصول على سَيْل لا ينقطع من الأخبار عن جميع تحركاتهم، فجاءته عيونه بوجود جيش كبير من البشناق قد تركز

قرب" بلياتوبا" وكانت الناحية المجاورة لهذا الموضع قد جرى عليها النهب. وعلى الرغم من معرفة" تاتيكيوس" بعجزه عن مضاهاة البشناق فى كثرتهم العدديّة إلا إنه وقف فى انتظار هجومهم عليه، ولكنه كان موقف الحائر وبلغ الارتباك به أشدّه لكنه ما لبث أن شحذ سيفه وحضّ رجاله على القتال، فلما جاءه بعضهم يعلنون إليه أن المتبربرين زاحفون عليه وأكدوا له أنهم صاروا أقْرب ما يكونون: لبس لباس الحرب ونادى فى عسكرِهِ أجمعين وعبر بهم الدانوب فى لحظتهم ، واصطفّ العسكر على مدى البصر للقتال، واتخذت كل كتيبة مكانها، ووقف هو فى القلب.

أما العدو فقد رتّب صفوفه حسب النظام البشناقى متحرقا للقتال، وراح يثير الرومان. لكن على الرغم من ذلك كله فقد كان كل من الطرفين يخشى الآخر ويؤجل لحظة الالتحام وكان الروم يضطربون فَرقا أمام أعداد البشناق الكاسحة. كما كان البشناق جازعين من رؤية هذه الدروع التى على أجساد أعدائهم، كما أخافتهم الرايات الخفاقة وبريق السلاح الذى مع الروم، وأزعجهم الضوء المنعكس منه كأنّه شعاع يتساقط من نجوم السماء. أما اللاتين فكانوا وحدهم دون غيرهم هم الذين بلغت الجرأة بهم حداً أخذوا معه المبادرة فعَضّوا بأسنانهم وهزّوا سيوفهم، ولكن" تاتيكيوس" كبح جماحهم لما اتصف به من الحصافة والرزانة اللتين جعلتاه يدرك ما قد يحتمل حدوثه.

هكذا لبث كل جانب ساكنا لا يريد التحرك من مكانه منتظرا أن يبدأ خصمه الخطوة الأولى، ولم يجرؤ هذا الطرف أو ذاك على الركوب والمضى إلى الساحة، حتى إذا أخذت الشمس تميل إلى الغروب عاد قائد كل جيش إلى معسكره بِمَن معه، وتكرر هذا الأمر فى اليومين التاليين، ثم أخذ القادة فى التأهب للقتال صافّين صفوفهم، لكن لم يكن لدى أحد الطرفين الشجاعة التى تدفعه للهجوم. فلما كان فجر اليوم الثالث انسحب البشناق، وحينذاك انطلق" تاتيكيوس" يطاردهم ولكنها كانت مطاردةً أشبه بالمشية التى تضرب بها الأمثال فى تعقب العربة الليدية مشيا على الأقدام لمسافة طويلة، فقد عبر البشناق إلى وادى"سيدرا" Sidera أوّلا ورجع" تاتيكيوس" بكل جيشه إلى"أدرنة" بعد أن ترك الكلتيين فى تلك المنطقة. ثم نودى فى العسكر بأن يذهب كل منهم إلى دياره.

أما تاتيكيوس فقد عاد إلى العاصمة وليس معه سوى كتيبة واحدة.

الحواشى

(١) فى إليزابيث " الفرنجة" وهما بمعنى واحد .

(٢) هو نوع من القوارب الصغيرة ذات الأشرعة ويعادلها فى الإنجليزية Skbiff ويرجع النخيلى : قاموس السفن الإسلامية ص ٤ أ - ٥ ب ، أن يكون الأسكيف هو القارب الخفيف الذى يسير بالمجاديف أو بمجداف واحد قصير. وقد بنى النخيلى ذلك على ما ورد فى قاموس أكسفورد ، على أنه أورد ما قاله رنسمان من أن هذا النوع من السفن كان يستعمله البيزنطيون كسفن حربية صغيرة إذ كان الأسكيف ضمن قطع الأسطول البيزنطى. انظر رنسمان الحضارة البيزنطية، وانظر أيضًا يحيى الشهابى معجم المصطلحات الأثرية ، مادة Esquife ص ١٧٣ .

(٣) هم طائفة من الشعوب المتبربرة وكانوا كثيرى التعدى على الحدود البيزنطية مما حمل بيزنطة على نقلهم من حدودها الشرقية إلى تراقيا أما المانوية فقد أصبحت "تراقيا" مركزا لهم .

(٤) فى إليزابيث : أما الضابط الذى قام بهذا التوزيع فقد ذهب إلى فيليبوبوليس وساق الجميع حتى النساء من خدورهن وزج بهن فى القلعة .

(٥) فى إليزابيث جاء بعد ذلك " على المانويين المحبوسين ."

(٦) كانت عودته إلى القسطنطينية أول ديسمبر ١٠٨٣ كما سيرد فى موضع آخر من هذه الترجمة .

(٧) هى الإمبراطورة " زيو كارابونوبسيا Zoe Karabounopsia التى ظلت على العرش البيزنطى من ٩٠٦ حتى ٩١٩ ، وكانت مشهورة بجمالها الأخاذ حتّى عشقها الإمبراطور ليو السادس ٨٨٠ - ٨١٢ وولدت له ولدا ، وكانت حياتها شديدة التقلب ولم تحافظ على هيبتها كما ينبغى لمثلها المحافظة ، راجع تاريخها بالتفصيل فى Jenbins (1966) , p 198 - 211 Vasillve, Byzant. Empire, p 115 - 216 . وكذلك فى معجم التراجم البيزنطية ترجمة حسن حبشى .

(٨) عبارة: "كان من سوء حظى " ساقطة من إليزابيث .

(٩) هذه إشارة إلى ما جاء فى التوراة فى قصة خبر داود .

(١٠) كانت توجد بالقسطنطينية ثلاث كنائس كبرى الأولى Oyhara والثانية Pautopaires والثالثة Pau-taerato

(١١) فى نسخة سوتير The grab refusd to learn to walk straight أما فى سوتير فقد جاءت How tlearn to run straight وقد وجدنا أن أقرب ما يماثلها فى العربية هو المثل الذى ذكرناه أعلاه .

(١٢) فى إليزابيث Juidus ثم فى الحاشية Juide والصواب ما أثبتناه فى المتن .

(١٣) بعدها فى هامش إليزابيث "إلى الليريا" .

(١٤) الدرامين هى الترجمة العربية Priemes وقد ذكرها رنسمان فى المرجع السابق ص ١٨٠ وقال إنها ضرب من السفن الحربية البيزنطية العادية وهى ذات صفين من المجاذيف وتحوى عددا من الرجال يتراوح عددهم بين مائتى رجل إلى ثلاثمائة . انظر النخيلى ، فى المرجع السابق ص ٤٦ أ - ٤٨ ب والمراجع التى أوردها فى صفحتها .

(١٥) ومفردها " مرزاب" على وزن " مثقال" وقد ذكرها النخيلي في المرجع السابق ص ١٤٠ أ - ب ، وقال بناء على ما ورد فى المراجع العربية بأنها " السفينة الضخمة الطويلة " .

(١٦) وهى الكنيسة الكبرى الموجودة فى البندقية .

(١٧) أثرت ترجمة كلمة Galley الواردة فى كل من نسختى إليزابيث وسوتير بكلمة شونة والتى يراد بها " شيني" و " شانى " وشينية" وكلها تجمع على شوانى وقد جاء فى النخيلى : السفن الإسلامية ، ٨٣ - ٨٤ نقلا عن ابن مماتى ، قوانين الدواوين فى كلامه عن الشينى انها كانت تسير بمائة وأربعين من المقاتلة ، وزاد المقريزى فى عددها .

(١٨) كانت إصابته بالحمى فى صيف ١٠٨٥ كما ذكرت نسخة سوتير .

(١٩) كانت وفاته يوم ١٧ يوليو ١٠٨٥ .

(٢٠) جاء فى الترجمة الإنجليزية أن " يودوكيوس Eudoxius 408 - 355 ق.م كان من الرجال الذين درسوا على يد أفلاطون وأكثر من الكتابة عنْ النجوم والرياضيات أما مانيتون فكان كاهنا مصريا عاش حوالى سنة ٢٨٠ ق.م وقد ألف كتابا عن مصر أهداه إلى بطلميوس الثانى .

(٢١) فى دوس: " قبل ثلاثة أيام " .

(٢٢) هى مارية التى تزوجت نقفور بن كونت كاتا كالون وقد ترتب على هذا الزواج أنْ حصل أبوه على كثير من الامتيازات فى الدولة .

(٢٣) هو يوحنا الذى عرف بيوحنا الثانى الذى كان مولدُه سببا فى خلع التاج عن رأس مؤلفتنا أنا كومنينا مما أحدث لها إحباطا لازمها بقية حياتها وصبّغ أيامها بصبغة سوداء .

(٢٤) نسبةإلى " أيبيريا Iberia فى بلاد القوقاز التى ترجع علاقة بيزنطة بها إلى زمن هرقل الذى كان أول من ضم إلى جيشه جماعات من أهلها فى سنة ٦٢٥ ، وأخذ أهلها يظهرون منذ ذلك الوقت على مسرح التاريخ البيزنطى . انظر Vasilieve : Byzance et les arabes I, 22 . وقد أصبحت منطقة أيبريا هذه موضع اهتمام بيزنطة حتى أن الإمبراطور بازيل الثانى فى أخر العقد الأخير من القرن العاشر قام بضبط أمورها بنفسه، راجع Ostrogorsky, op. cit. 298-313

(٢٥) كان من ابن السلطان ملكشاه .

(٢٦) كان ملكشاه قد مات سنة ١٠٩٢ وخلفه ابنه" بركياروق " ويعلق سوتير على ما جاء فى النص أعلاه فيقول:" إنه من الصعب متابعة ما تذكره أنا كومنينا، ويبدو وجود اضطراب فى تسلسل الأحداث" .

(٢٧) راجع النخيلى ، المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٢٨) يشير سوتير فى الحاشية تعليقا على هذه العبارة إلى أن هذا الحصن هو حصن قلعة Kilosos ويقع على ساحل بحر مرمرة.

(٢٩) أثرنا تسمية هذه السفن بالحمالات بناء على التعريف الوارد فى النخيلى ، شرحه ص ٤٠ ب – ٤١ ، والمراجع التى ذكرها فى حواشيه .

(٣٠) أشارت نسخة سوتير إلى أن المؤلفة أخطأت إذْ قالت " البادِس" ، ولكن الصحيح هو "تيموستيكليس" .

(٣١) راجع الحاشية السابقة.

(٣٢) الأصح أن يقال بركيا رق سلطان سلاجقة الروم.

(٣٣) أشار سوتير مرة أخرى إلى أن هنا اضطرابات فى مقولة أنا كومنينا ويرجح أنها تشير إلى اختيار وزير السلطان ، وكان ذلك قبل شهر تقريبا من موت ملكشاه مسموما، وكان مصرعه يوم ١٩ ديسمبر ١٠٩٢ .

(٣٤) يلاحظ أن المؤلفة – كما قلنا فى المقدمة – كانت تقصد بالمتبربرين كل من ليس بيزنطيا .

(٣٥) وردت هذه الفقرة فى إليزابيث على الصورة التالية: " لقد قيل عن الترك ما فيه الكفاية وإنى لأعتزم الآن أن اقص خبر هجوم ثان من الإمبراطورية الرومانية وهو هجوم أبشع من الأول ، وأكبر منه وأعود فأتابع القصة من البداية لأن المواضيع تأتى واحدة إثر أخرى شأنها فى ذلك شأن الأمواج" .

الكتاب السابع

الحرب ضد البشناق

(١٠٨٧ - ١٠٩٠)

فقرات الكتاب السابع

١- تزلجو يعبر الدانوب بقوة قوامها ثمانون ألف مقاتل . انتصار رومانى .

٢- العدو لا يزال فى داخل الأراضى الرومانية.تحذير من برينيس الكبير. أنّا كومنينا تعاود الكلام عن زوجها. كسوف الشمس. البشناق يسعون للصلح.

٣ - هزيمة الإمبراطور عند" درِسترا" و يوشك أن يؤخذ أسيرا .

٤ - نجاة" بالايولوجس" بعد أن كاد يلقى خاتمته.

٥ - وصول" تاتو" نهر" أستُر" بعد أن غنم غنيمة كبرى. حلفاؤه الكومان يطالبون بنصيبهم و لكنهم يُصَدون. مذبحة المتبربرين.

٦ - الأسكيثيون يوافقون على عقد هدنة، ثم لا يلبثون أن ينكثوا فى يمينهم ويبدءون فى مسيرهم إلى القسطنطينية.. الهدنة الثانية.

٧ - مصرع ثلاثمائة بلا جدوى فى هجومهم على أعدائهم البشناق. وصول فرسان لمحاربة أبى القاسم فى آسيا .

٨ - " تزاخاس" يقيم إمارة مستقلة على الساحل الآسيوى. انتصار" تزاخاس" برًا و بحرا .

٩- البشناق يقتربون من العاصمة. خبر" نيانتزس" . هزيمة الروم. إصابة ألكسيوس بالحمى .

١٠- ألكسيوس أشجع الشجعان يهزم المتبربرين.

١١ - مكيدة" العجلات" . هجوم جديد للبشناق.

(١)

فى مستهل ربيع عام ١٠٨٧ عبر" تزلجو" Tzelgu –القائد الأعلى البشناقى – سهل الدانوب الأعلى على رأس قوة من جماعات شتى، و كان معه ما يقرب من ثمانين ألف مقاتل من السرمانيين و البشناق إلى جانب فريق من الداكيين بقيادة شخص اسمه سُولومون، ولقد تابع" تزلجو" زحفه مخربا المدن الواقعة حول"خاروبوليس" وانطلق فى طريقه حتى وصل إلى المدينة المسماة بهذا الاسم فأصاب منها غنائم وفيرة واستولى على أسلاب جمة، ثم أقام معسكره فى موضع يسمونه " سكوتينوس " Skotinos فلما سمع" موروكاتاكالون"Maurocatacalon بما جرى قام هو و"بمبتزيوتيس" Bembetziotes – الذى يشير اسمه إلى موطنه الأصلى – ومن معهم من العسكر باحتلال " بامفيليا"، لكنهم ما لبثوا أن خلّفوها ورحلوا عنها حين شاهدوا القرويين الذين يعيشون حولها يسرعون إلى المدن والحصون وقد تملّكهم الذعر القاتل، فنقل القائدان الجيوش كلها إلى بلدة" كول " "Koul الصغيرة. ثم جاء البشناق فى آثارهم وكانوا قد عرفوا أنّ النرمان قد استبدّ بهم الملل – كما قال الجند– واقتفوا آثارهم، وكانت تباشير الصباح قد أهلّت منذ قليل حين صف" تزلجو" عسكره ليحارب "موروكاتاكالون" الذى تسلق مع جماعة منتقاة من رفاقه مرتفعات أحد الشعاب الصعبة المشرفة على الوادى واستطا ع من هنا أن يرى قوات المتبربرين.

وعلى الرغم من شدة تلهفه على قتال البشناق فإن رؤيته جموعهم حملته على أن ينبذ هذه الفكرة فقد كان من الواضح الجلىّ أن الرومان يقلون عن البشناق قلةً ملحوظة، ومع ذلك فإنّه لم يكد يعود إلى المعسكر حتى جمع ضباط جيشه لتبادل الرأى والمشورة فيما إذا كانت الضرورة تحتم عليهم القيام بالحرب، فأجمعوا رأيهم على وجوب القيام بها، كما إنه هو ذاته كان شديد الرغبة فى محاربتهم، و من ثم قسم القوات الرومانية ثلاثة أقسام و نادى فيهم بالحرب، و بدأت المعركة التى سقط فيها

كثير من البشناق مثخنين بجراحهم، و هلك الكثيرون منهم أيضا حتى لقد كان من بين الهلكى "تزلجو" نفسه الذى أصابته ضربة و هو يحارب فى شجاعة بثَّت الفزع فى كل صفوف الرومان، و لقد تردّى معظم رجال العدو فراحوا ما بين رجل وطأته الأقدام وآخر ولّى هاربا فابتلعته مياه النهير الواصل بين" سكوتينوس" Skotinos و"كول" Koule .

ودخل رجال الإمبراطور القسطنطينية بعد أن أحرزوا هذا النصر العظيم، فأغرقهم الإمبراطور بالهدايا الغالية و أغدق عليهم إنعاماته الجمة، ثم انصرفوا من المدينة مع أخى الإمبراطور" أدريان كومنين" الذى رفعه أخوه إلى مرتبة" دوميستيك الغرب العظيم" (أى القائد الأعلى لجيوش الغرب) .

(٢)

ما إن تم طرد الأعداء من مقدونيا و من المنطقة المحيطة بفيليبوبوليس حتى عادوا إلى الدانوب وعسكروا به، وعاثوا على طول حدود بلادنا و ساروا فيها سيرة من هو مالك لها، كما انطلقوا ينهبونها و استباحوا الحرمات. فلما جاء الخبر إلى ألكسيوس وسمع بعيثهم فسادا داخل الأراضى الرومانية نفد صبره و لم يعد قادرا على احتمال عَرْبَدتهم. و خشى أن يشُقّوا طريقهم عبر الممرات الجبلية مرة أخرى فيرتكبون ما هو أسوأ من ذلك، فأمر بالاستعداد لهم و تجهيز العسكر أحسن تجهيز، و أن يتم ذلك قبل أن ينهض هو إلى"أدرنة" التى رحل عنها إلى" لارديا" Lardia الواقعة بين "ديامبوليس" Diampoles و"جوليا" Goleo ولما صاروا فى " لارديا" تم تعيين "جورج يوفيربينوس" Euphorbenus مع تكليفه بالذهاب بحرا الى" درسترا".

و لقد أمضى الإمبراطور ذاته أربعين يوما فى ذلك الإقليم فى جمع العسكر من شتى النواحى حتى تسنى له جَمْعُ حشد كثيف كان كافيا لمحاربة البشناق، ثم اتخذ

قرارا لا رجعة فيه و أعنى به الزحف شمالاً عبر مضايق الجبال، كما أبدى ألكسيوس ملاحظةً مفادُها أنه لا ينبغى مهادنة البشناق بأية حال من الأحوال، و كان ذلك الرأى منه صحيحا كلَّ الصحة فيما يتعلق بهؤلاء المتبربرين الذين كانت غاراتهم لا تبدأ فى فصل من فصول السنة إلا و تنتهى فى الفصل التالى له، فإن هى بدأت فى مستهل الصيف مثلا استمرت حتى وقت متأخر من الخريف حين يصبح الجو أميل للبرودة. ولم تكن حركات البشناق الشريرة تمتد طويلا، فلم يُقَدَّر لواحدة منها أن تطول فتبلغ عاما بأكمله، و هكذا كانوا يقضّون مضجع رومة، ولم يؤثر الكلام الطيب فيهم ولا أجْدَى نفعا فى إيقاع الفرقة بينهم.

وعلى الرغم من شتى محاولات الإمبراطور وتلويحه لهم بالإغراءات فإنه لم يحدث قط أنْ هرب إليه – ولو سرا – أحد منهم، وهكذا كان تصميمهم تصميما باتا ولا يمكن استمالتهم، ولم يكن" نقفور برينيس" أو " جريجورى موروكاتاكالون"[1] بالشخص الذى يرغب فى محاربتهم فى هذه الظروف فى "باريستيريون" Paristrion .

ومن ناحية أخرى كان جورج بالايولوجس و"نيكولا موروكاتاكالون" وغيرهما ممن على شاكلتهم أى من هم أصغر الضباط النشطين يميلون لاعتناق فكرة الإمبراطور، ولذلك حثوه على عبور الممر الواقع أعلى" هايموس" Haemus ومحاربة البشناق عند الدانوب، كذلك كان نقفور و" ليو" ولدا الإمبراطور ديوجين يعتنقان نفس الرأى[2] .

على أنه ما كاد ينفَخ فى النفير لعبور" هايموس" حتى بذل" برينيس" جهده ليصرف ألكسيوس عن هذا المشروع و يتخلى عن هذه الخطة، فلما فشلت مساعيه وذهبت أدراج الرياح ختم كَلاَمَهُ معه بهذه الكلمات: " إننى أقول لك يا مولاى إنك إن تعبر الهيموس فسوف تجد نفسك مضطرا للبحث عن أسرع جيادك "، فلما سأله بعض مَن حوله ما الذى يعنيه بهذا الكلام قال: " أعنى فراره وفرار الجميع".

كان" برينيس" رغم فقده بصره بسبب الثورة التى قام بها معدودا أكبر حجة وأعظم خبير فى الاستراتيجية و التكتيكات الحربية. أمّا مَن شاء الوقوف بالتفصيل على كيفية فقده بصره بسبب ثورته ضد الإمبراطور" بوتنياتس"، وكيف وقع أسيرا فى

يد ألكسيوس كومنين الذى كان حينذاك القائد الأعلى للجيوش الشرقية والغربية وكيفية تسليم" برينيس "بعدئذ إلى "بوريلوس " Borilles وهو معافى فى أمره فإنى أحيله إلى ما دونه" برينيس الصغير" الذى تزوج ابنة الإمبراطور ألكسيوس بعد أن اصبح إمبراطورا.

لكن ما أشدّ وقع هذه الذكريات على نفسى[٣]. و إنّ قلبى ليرفض حزنا على قيصر هذا فقد كان رجل علم برهنت كتاباته على صدق هذا القول، وكان من الأمور التى زادت فى قَدْره ما كان عليه من القوة والإبداع فى العمل وتناسب أعضاء البدن، إلى جانب ما يتمتّع به من الصفات الذهنية الفائقة، ولقد وهبه الله منذ مولده شخصية فذّة نادرة بزّ بها جميعَ أقرانه. وإذا كان هومير قد امتدح" أخيل" فجعله صاحب السبق على الآخيّين فأحْجِ بقيصرى هذا أنْ يُقال فيه إنه فاق كافة الرجال الذين طلعت عليهم الشمس، ومع أنهَ كان جنديا فذا إلاّ أنّ ذلك لم يصرفه عن الاهتمام بالأدب فما من كتاب وقع فى يده إلا نظر فيه كما تمعن فى علوم القدماء والمحدثين على اختلاف مواضيعها مما أكسبه قدْرا كبيرا من الحكمة، حتى إذا انصرف إلى الكتابة وضع كتابا قيما لا يجوز لأحد أن يفوته وقد كتبه استجابةً لتوجيه من والدتى الإمبراطورة "إيرين"، فوضعه مؤرخا للحملات التى قام بها أبى قبْل أن يأخذ مقاليد الحكم فى يده، كما أنه يُفَصِّل فيه خبر أبيه" برينياس" ويستعرض الخطوب التى حاقت به، كما ضمنه فى الوقت ذاته أعمال حميه الدالة على البطولة، و لما كان قيصر هذا ابنا لأحدهما وختنا للآخر فإنّ ما قاله عنهما خلى من كل شبهة كذب كما أشرت إلى ذلك فى الأقسام الأولى من كتابى هذا.

ولما رأى البشناق" جورج يوفوربينوس" قادما لمهاجمتهم من ناحية نهر"أستر"[٤] مستصحبا قوة بحرية وأخرى حربية ضخمة، وعَلموا أنّ الإمبراطور زاحف عليهم هو الآخر بجيش كالدّبى فى كثرته أيقنوا استحالة مواجهة خطر الاثنين الشديد، ومن ثم راحوا يلتمسون طريقا ينجيهم منه فبعثوا مائة وخمسين رجلا للتفاوض فى شروط الصلح التى لم يَخْل بعضُها من الانطواء على لهجة التهديد، وأبدوا استعدادهم للوقوف إلى جانب الإمبراطور إنْ هو استجاب لمطالبهم، وإذ ذاك يمدونه بثلاثين ألف فارس، فلم ير ألكسيوس فيما عرضته هذه السفارة البشناقية سوى محاولةٍ لاحتواء الخطر

الجسيم الذى يهددهم، كما أدرك أنّهم إنْ حصلوا على أمان عام فإن ذلك يكون إيذانا باندلاع شـرارة الشـر الكامنة تحت الهـشـيم اندلاعـا لا يبـقى ولا يذر، لذلك رفض الاستماع إلى الرسل.

بينما كانت هذه المفاوضات جارية إذا بواحد من وزراء ألكسيوس يدنو منه ويسرّ فى أذنه بكلمات يقول له فيها "سوف ترى كسوف الشمس فى يومك هذا". فلما رأى الرجلُ الشكَّ يساوره فيما أفْضى به إليه عاد فأقسم على صدق ما سارّه به، فالتفت الإمبراطور إلى البشناقيين و قال لهم بما طبع عليه من سرعة التقدير: " إنّى تاركٌ للرب تدبير ما يرى، فإن تجلّت فى السماء علامة خلال بضع ساعات فاعلموا أن عندى سببا وجيها لرفض سفارَتكم والتشكك فيها، وحينذاك نعلم أن زعماءكم لا يتفاوضون معنا حقا من أجل السلام. أما إذا لم نرَ أية علامة فى السماء فإنى أكون إذ ذاك مخطئا فى ظنونى هذه".

ثم حدث بعد أقل من ساعتين من هذا الحديث أن انكسفت الشمس كسوفا كليا لمرور القمر أمام قرصها(٥).

حين رأى البشناق ما رأوا من كسوف الشمس تملكتهم الدهشة واستولى عليهم الاستغراب وحينذاك أسلمهم ألكسيوس إلى" نيكريتس" Nlcerites آمرا إيّاه بمرافقتهم فى الخروج تحت حراسة قوية حتى يصلوا إلى القسطنطينية. وكان"نيكريتس" خصيا أمضى حياته منذ نعومة أظفاره بين الجند وبرهن على أنه رجل يمكن الاعتماد عليه، فسار بهم فى الحال فى الطريق المؤدى إلى المدينة وهو أشد ما يكون حماسة. أمّا المتبربرون الذين لم يطمعوا إلا فى استرداد حريتهم فقد اغتنموا فرصة الظلام الذى أسدَل على الدنيا أستاره فلما بلغوا نيقية الصغرى وثبوا على حراسهم و فتكوا بهم، وكان ما حدث من جانب هؤلاء الحراس من التراخى فى الملاحظة مساعداً البشناق على فعلتهم النكراء هذه.

بعد ذلك انطلق هؤلاء السفراء البشناقيون راجعين إلى من كانوا أوْفَدُوهم سالكين دروبا ملتوية، ولم ينْجُ" نيكريتس" بحياته إلا بعد لأىٍ وبعد أنْ كاد يعتبر فى عداد الهالكين، وعاد إلى الإمبراطور ثانية مع ثلاثة من رفاقه، والتقى به عند "جولى".

(٣)

نزل نبأ ما وقع على ألكسيوس نزول الصاعقة، و خافَ أن يثير السفراء البشناقيون ضده كل عسكرهم فيهاجمونه و لم يكن حاله مثل حال" أجاممنون" محتاجا لأن يرى فى نومه ما يدفعه للحرب بل إنه كان يتطلع إليها فى حرقة، وسرعان ما جاوز بعسكره " سيدرا" Sedra ونصب معسكره قرب نهر « بتسينا » Bitzina الذى ينبع من التلال المجاورة ، وحدث أن خرج كثير من الرومان يفتشون عن الطعام فأوغلوا إيغالا أسفر عن أنهم أصبحوا أبعد ما يكونون عن المعسكر فصادفهم العدو فقتل طائفة منهم وأسر الكثيرين، فلما علم الإمبراطور بما جرى بادر مع إطلالة الفجر و خرج على جناح السرعة قاصدا" بلسكوبا" وصعد ربوة "سمعان" وإن سماها أهالى الناحية: منتجع البشناق[٦]، وهنا جرت على العسكر الذين خرجوا لالتماس المئونة ما جرى على من سبقوهم فى مثل هذا الخروج، فلما كان اليوم التالى وصل الإمبراطور إلى نهر يجرى قرب مكان اسمه" درسترا" Dristra و أنزل متاعه وضرب معسكره فى موضع يبعد أربعا وعشرين مرحلة من هذا النهر، ففاجأه البشناق على غرة منه بالإغارة من الخلف على خيمته فهلك فى هذا الهجوم الغادر طائفة من العسكر المدججين بالأسلحة الخفيفة، واندفع نفر من المانويين فهاجموه والغضب يملأ نفوسهم لكنهم وقعوا أسرى فى يده .

غير أنَّ هذا الهجوم أسفر عن وقوع الفوضى والهرج فى صفوف عسكره حتى لقد اجتاحت الخيل فى فزعها فسطاط الإمبراطور، فلما رأى كارهوه ما جرى أدركوا ما وراء هذا الحدث من شر مستطير لابد أن يلحَقه، بيْد أنَّه استطاع بثلة من رجاله أن يدفع بعيدا عن خيمته هؤلاء الذين تجرءوا على التطفل عليها، فسكنت الفتنة ومن ثم ركب جواده وأعاد النظام إلى ما كان عليه، ورتب صفوف عسكره وسار بهم على أتمّ نظام ميمما وجهه شطر" درسترا" وفى عزمه محاصرة المكان بالجند الخفاف، وبدأ العمل فلم يَدَعْ رجالُه ناحية من نواحى المدينة إلا وأحاطوا بها ثم فتحوا ثغرة دخل منها الإمبراطور و جميعُ عسكره رغم أنّ قلعة" درسترا" كانت لا تزال فى أيدى رجال "تاتوس " Tatous الذى كان قد رحل ساعيا لاستمالة الكومان إلى صفِّه، ومؤملا أن

يعود بهم لمساعدة البشناق، وكان عند رحيله قد استأذن أصحابه قائلا لهم: " إننى أعرف معرفةً تامة أن الإمبراطور سوف يحاصر هذا البلد، فإنْ رأيتموه زاحفا إلى السهل فبادروا إلى الاستيلاء على الربوة التى تشرف على الوادى قبل أن يتيسر له حصارُ هذه الناحية التى هى خير البقاع جميعا، و أقيموا معسكركم بها وإذ ذاك لن يكون قادرا على تطويق الحامية بل سيكون اهتمامه منصبا على المؤخرة خوفا من أى اضطراب يحدثونه له. و عليكم فى الوقت ذاته أن تواصلوا هجماتكم عليه طوال الليل وأثناء النهار فى نوبات من الرجال كلما فرغت نوبة حلت أخرى محلها".

أذْعن الإمبراطور لما تمليه عليه الضرورة فتخلى رغم أنفه عن فكرة الاستيلاء على القلاع، وغادر "درسترا" ثم نصب ثكنة اتخذها موضعا يشاور فيه أصحابه فيما إذا كان يتحتم عليه مهاجمة البشناق. ثم اختار ناحيةً قريبة من نهر" أستر" ومتاخمةً لشْعبٍ جبلى، وحينذاك اتفق رأىُ " بالايولوجس" و"جورج موروكاتاكالون" و رجالهما على التخلى عن فكرة محاربة البشناق وأن ينصرفوا - بدلا من ذلك - ليحتل بعسكره مدينة "برستاليابا" Perstaliaba وقالوا له:" لئن رآنا البشناق ونحن نزحف فى أتم نظام فلا مشاحة أنهم لن يجرءوا على مهاجمتنا، أما إنْ خاطر فرسانهم فأغاروا علينا - وهم من غير عجلات حربية - فكن واثقا من أن الدائرة لابد أن تدور عليهم وحينذاك نستولى على" برستلافا" العظيمة ونتخذها حصنا نحتمى به يستحيل على أحد ما اقتحامه(٧) ".

ثم تابع" موروكاتاكالون" وصاحبه كلامهما قائلين:" لو أننا اتخذنا من هذا الموضع غرفة عمليات لنا لألحَقْنا بالعدوّ من الخسائر ما لا انقطاع له ولأمكننا مراوحتهم بالهجمات الخاطفة اليومية المستمرة، وإذ ذاك لن يستطيعوا أبدا أن يجدوا لحظة واحدة يغادرون فيها معسكرهم لجلب المئونة أو الميرة" .

كان الحوار لا يزال جاريا حين ترجّل نقفور وليو - ولَدَا ديوجين من على ظهرى جواديهما وأرخيا لهما العنان ثم أطلقاهما يرعيان وقالا لألكسيوس : "لا تَخْشَ شيئا يا مولانا من جانبهم، فلو أنهم خرجوا فسوف نجرد عليهم سيوفنا ونمزقهم شر ممزق" .

كان ليو ونقفور شابين فى ميعة الصبا ولم يكونا قد تمرسا بالحرب وأهوالها - أما الإمبراطور ذاته فكان رجلا يحب المخاطرة فلا عجب أن كان يميل إلى القتال ولم يُلْقِ سمعا لمن نصحوه بالكف عن الحرب بل عهد بالخيمة الإمبراطورية وبكل متاعه إلى " جورج كوتزوميتس" Koutzomites وبعث به إلى "بترونس" Betronis ثم أصدر تعليماته لمن معه بالمبيت هذه الليلة حيث هم، لا يسرجون خلالها مصباحا ولا يوقدون نارا فى المعسكر، وأمرهم أن يُعِدّوا جيادهم وألاّ تغمض لهم عين حتى تبرز الشمس من خدرها . فلما تنفس الفجر وبدت فى الأفق طلائع الضياء قام ألكسيوس فقسم رجاله فرقا وأقساما وهيأهم للقتال، وأخذ فى استعراضهم على عجل واتخذ هو مكانه فى الوسط مع رهط من أقربَ الناس إليه و كذلك ممن تربطه بهم وشيجة الدم والقربى، وفيهم أخوه "أدريان" حيث وكل إليه قيادة طائفة اللاتين وغيرهم من الفرسان الشجعان.

أما الجناح الأيسر فكان عليه قيصر "نقفور ميليسينوس" Melissenus الذى كان متزوجا من إحدى أخوات الإمبراطور. وكان على الميمنة من القواد" كاستامونتس" kastamonites وتاتيكيوتس، فى حين كان الحلفاء بقيادة" أوزاس" و "كراتزاس" السرميين. واصطفى الإمبراطور ستة من رجاله ليكونوا حرسه الخاص يرعونه هو وحده ويحافظون عليه ولا تغمض لهم عين عن ملاحظته. أما هؤلاء الستة فهم ولدا رومانوس ديوجين، ونيكولا موروكاتاكالون الذى عرك الحروب طويلا وتمرس بشتى صورها وجواناكس Joonnaces ، و " نامبيتس" Nampites قائد الفارانجيين، وأما سادسهم فيدعى " جولس" Goules الذى هو آخر من بقى من أسرته على قيد الحياة.

كذاك استعد البشناق هم أيضا من جانبهم للمعركة وكانوا قوما مطبوعين على الحرب التى يجرى حبها فى عروقهم مجرى الدّماء، فقد كانوا يعرفون كيف ينظّمون كراديسهم، فلما فرغوا من نصب كمائنهم وجمعوا صفوفهم وصاروا قريبين بعضهم من بعض وأقاموا من عرباتهم الحربية ما يشبه المتاريس، أقول فلما فعلوا ذلك كله زحفوا بجموعهم كأنهم البنيان المرصوص ضد الإمبراطور وأخذوا يناوشونه من بعيد، وكان ألكسيوس قد ضم المشاة و الخيالة بعضا إلى بعض وجعلهم فريقا واحدا، ثم أصدر تعليماته ألاّ يسبق أى جندى جماعته التى ينبغى أن تظل كتلة متراصة حتى

يصبح الرومان على مقربة من خصمهم، و أمرهم ألا يهاجموه حتى يروا أن المسافة الفاصلة بينه وبينهم لا تزيد عن انطلاقة حصان قد أرخى له العنان.

كانت الاستعدادت الرومانية لا تزال جارية على قدم و ساق حين ظهر العدو في نسائه وأطفاله وأصبحوا في الناحية المذكورة المغطاة بعرباتهم وحينذاك ابتدأ القتال الذى استمر موصولا من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل، وكانت الخسائر فادحة في الجانبين وكرَّ " ليو" بن ديوجين كرة ضارية على العدو وانطلق فتوغل في البعد في اتجاه العربات فأصابه سهم غرب أودى بحياته وكان فيه هلاكه.

كما أن " أدريان" أخا الإمبراطور والقائد المؤقت للاتين أبصر استحالة صد الهجوم البشناقي فأسرع يخب بمن معه وهم على جيادهم مسرعين غاية الإسراع، وشقوا طريقهم مباشرة إلى العربات البشناقية، وقاتلوا قتالا عنيفا لمْ يَعُد منه سوى أدريان وسبعة هم الذين قُيِّضت لهم الحياة وحدهم. أما من سواهم فقد راحوا ما بين قتيل وأسير. ظلت المعركة متكافئة في ضراوتها بين الطرفين المحاربين بالأسلحة وكانت حربا بطولية.. ثم لاح على البعد رهط من القواد البشناق على رأس ستة وثلاثين ألف مقاتل مما أدى بالرومان إلى النكوص على أعقابهم، ولم يَعُد الصمود أمام هذه الجموع الزاخرة مجديا بل أصبح غير ذى موضوع.. ومع ذلك فقد ظل الإمبراطور واقفا في مكانه، ثابتا في موضعه وراء رهطه قابضا بإحدى يديه على سيفه، وممسكا بالأخرى قناع رأس " أم الكلمة " متخذا إياه رايةً له.

وكان رجال الإمبراطور قد خلفوه مع عشرين فارسا ليس فيهم إلاّ كلُّ كميٍّ صِنْدِيد، وكان منهم نقفور الابن الآخر لديوجين والقائد ميخائيل دوكاس أخو الإمبراطورة وبعض حواشي الأسرة. فوثب ثلاثة من البشناق المشاة على الإمبراطور وأمسك اثنان منهم بجانبي فرسه، وأما الثالث فقد جذبه من قَدَمِه اليمنى، فلم يكن من ألكسيوس إلاّ أن عاجل أحد الثلاثة بضربة بترت يده ، ثم هزَّ سيفه هزةً قوية وصرخ صرخة مدوية أفزعت ثانيهما ففر سريعا على وجهه ، ثم عاجل الإمبراطورُ ثالثَهم الممسك بقدمه بضربة أودعها كل بأسه لكنها لم تصب البشناقي بضرر. وكان ذلك

بسبب أن الإمبراطور كان يخشى إنْ هو لم يصبه وحاد السيف فربما أصاب قدمه هو ذاته أو يصيب الجواد الذى تحته فيقع إذ ذاك أسيرا فى يد العدو. غير أنه ثنَّى بضربة أخرى حدد فيها هدفه تمام التحديد.

كان ألكسيوس يسترشد دائما بالعقل فى كل ما يصدر عنه من قَول أو فِعل، ولم يحدث أن استفزه الغضب فأخرجه عن صوابه، أو استسلم لانفعالاته استسلاما يؤدى به إلى الخطأ.

إذا كانت الضربة الأولى قد زحزحت قلنسوة الرجل إلى الوراء فإن الضربة الثانية التى كالها ألكسيوس له نزلت على رأسه العارية فجندَلَتْهُ فى لحظته على الأرض لا ينطق ببنت شفة، فلما رأى البروتستريتُر تَفَكُّكَ شَمل الرومان و تفرق صفهم و لم يعد فى قدرتهم مراقبة الطريق أمامهم تقدم إلى الإمبراطور و قال له: " لماذا تظل يا مولاى حيث أنت ؟ لماذا تعرض حياتك للضياع يا مولاى ؟" ، فأجابه الإمبراطور : "إنْ مت وأنا أحارب ببسالة خير منْ أن أُسلِم روحى بعمل شىء ليست له جدوى". ولكنَّ محدِّثه قال له : " لو كنت يا مولاى جنديًا كسائر الجند لكانت هذه الكلمات مقبولة . أمَّا إن كان هلاك الآخرين جميعا فى هلاكك فلماذا لا تسلك الطريق السويَّ؟ .. إنك إنْ نجوت من الموت حاربْتَ مرة ثانية و كسبت المعركة".

حينذاك رأى ألكسيوس فداحةَ الخَطْب الذى يتهدده إن استمر البشناق فى مهاجمته على هذه الصورة العنيفة، و أدرك الآمالَ إنْ كتبت له النجاة، فقال لنفسه: " هذه هى اللحظة التى يجب علينا فيها أن نلتمس عون الرب ليكتب لنا السلامة، ولكن ينبغى علينا ألا نسلك سبيل الآخرين فلربما قابلنا الأعداء فى الطريق وهم عائدون من المطاردة". قال ذلك فيما بينه وبين نفسه ثم لَوَّح بيده ناحية البشناق الواقفين حيالهم وقال: " يجب علينا أن نركب الصعب ونقتحم الأهوال إنْ أردنا أن يجعل الله لنا الغلبة عليهم، وسوف نلتفَّ ونسلك طريقا آخر". ومضى يشجع كل من معه وسَار أمامهم بنفسه وهاجم العدو ونزل عليه نزول الصاعقة فضرب أوَّلَ رجل صادفه – و كان مترجلا – ضربةً صرعته. و بهذه الطريقة شقَّ طريقا لمن معه وسط البشناق انتهى به إلى مؤخرتهم.

هذا ما يمكن أن يقال عن الإمبراطور.

أما البروتستريتور فقد شاء نكد طالعه أن يكبو به جواده لكن سرعان ما بادر أحدُ خدمه فأعطاه دابّته التى تحته، فعاد بذلك للانضمام إلى الإمبراطور ثم لم يفارقه أبدا لعظم محبته له فقد كان زوجَ أخته، وكان يسير معه كتفا إلى كتف، لكن حدث فى معمعة هذا الاضطراب الكبير الذى فرَّ فيه البعض أنْ هاجم بشناقيٌّ الإمبراطورَ الذى سرعان ما التف حول مهاجمه وضربه فصرعه هو وآخرين معه، ويقول أحد شهود عيان هذه اللحظة إن غيرهم لقوا نفس المصير، وقام بشناقيٌّ فغافل "نقفور ديوجين " وباغته من خلفه وأوشك أن يُجهز عليه لولا أن لمحه الإمبراطور فصاح بنقفور محذّرا إياه وقال له: "خذ حذرك يا نقفور فخصمك وراءك"، فاستدار نقفور فى خفة و ضرب مهاجمه ضربةً شديدةً أصاب بها وجهه.

و لقد سمعتُ ألكسيوس- فيما بعد من السنين-يروى هذا الخبر و يقول إنّه:" لم ير قط مثل ما رآه فى نقفور فى هذه اللحظة من خفة الحركة و سرعة استعمال يده"، ثم يتابع حديثه فيقول:" لو لم أكن أحْمِلُ الراية هذه اللحظة لقتلتُ البشناقى وثُلّةً مِنْ قومه وعددا يزيد عن عدد شعر رأسي".

لم يكن ألكسيوس مبالغا فيما قاله، و الحقُّ إنه لم يكن أحد يجاريه فى تواضعه، وكان إذا أُرغمه أحد منا على الحديث فى هذا الموضوع قصَّ علينا و على أدنى أقاربه طرفا من مخاطراته، غير أنه ما كان يفعل ذلك إلا بعد إلحاحنا عليه. و لم يتَسَنَّ لأحد أبدا أن سمع الإمبراطورَ يتباهى بما فعل أو يتجاهر به. و حدث ذات يوم أنْ هبت الريح عاصفةً بشدة، فى لحظة كان البشناق فيها يكرون عليه كرا عنيفا أرهقه غاية الإرهاق حتى لم يعد قادرا على الإمساك برايته بقوة، و حينذاك استل بشناقيٌّ رمحا طويلا وأخذه بكلتا يديه ثم قذفه فأصاب إليَتَه و كانت إصابةً لم تجاوز الجلد لكنها أدَّت إلى وَجَع مُمِض لازمه سنوات طوالا فيما بعد، بيْد أنه تمكن - وهو يعانى الألم المبرح - أن يخفى الراية فى غابة من شجر البوص فلم يتسنَّ لأى إنسان أن يراها ثم سار تحت جنح الظلام حتى بلغ" جولى" سالما فتابع السير فى يومه إلى " بوريا" Borea التى توقّف عندها لافتداء الأسرى.

(٤)

وحدث ذات يوم أن حاقت الهزيمة بالروم يوم فروا على وجوههم فسقط " بالايولوجوبس" من فوق صهوة جواده وفَقَدَه، فاشتد الموقف تأزما عليه، و لما أدرك ما هو فيه من الخطر مضى يفتش عن دابته فى كل ناحية و ينفض كل موضع بناظريه فلم يقف لها على أثر، لكن شاهده[٨] " ليو " أسقف خلقدونية - الذى أشرنا إليه من قبل - وكان فى مسوحه الكهنوتية فقدم إليه ليو جوادهُ الذى يمتطيه فركبه بالايولوجس فكُتِبت له النجاة ثم لم يرَ بعدئذ أثرا لليو الأسقف الموقر الذى كان - والحق يقال - من كبار رجال الكنيسة، ولكنه كان رجلا بالغَ الطيبة والسذاجة، وتقوم حكايته فى بعض الأحيان على معرفة ناقصة. ويمكن القول أنه لم يكن لديه إلمام دقيق بالكتاب المقدس مما جلب عليه اللوم الكبير كما أشرتُ إلى ذلك آنفا، وقد أدى هذا الأمر إلى خلعه، لكن بالايولوجس كان ينظر إليه على الدوام نظرةً تفيض بالحب وظل على توقيره العظيم له بسبب ما يراه فيه من الفضيلة المتناهية، أمّا أنا فلا أستطيع أن أجزم عما إذا كان اعتقادُ " بالايولوجس" فى هذا الرجل هو الذى جعل الرحمة الإلهية تُريه إياه أم أن خياله هو الذى صور له أنه لَقِي هذا الأسقف، فكان ما كان مما يعد معجزة حَبَتْه بها العناية الربانية ، ومهما يكن الأمر فقد وصل" بالايولوجس"- والعدوُّ فى أعقابه - إلى أرض سبخة تغطيها الحشائش ، فوجد بها مائة وخمسين جنديا قد أحدق بهم البشناق فصاروا فى موقع تقطعت فيه أسباب الرجاء بهم وانبتَّ كلُ أمل فى نفوسهم، ولما رأى هؤلاء الجندُ أنفسهم عاجزين عن مقاومة هذه الحشود الكثيفة طمعوا فى أن يسدى إليهم" بالايولوجس" النصيحة عما يفعلون فقد كان مشهورا فيهم منذ بعيد بثباته ورباطة جأشه و إقدامه الذى كان طبيعةً ركبت فيه ، فأشار عليهم بمهاجمة خصومهم، وألاّ يكترثوا بسلامة أرواحهم، وبين لهم أنهم إنْ فعلوا ذلك كان النصر بلا جدال من نصيبهم ، ثم أضاف إلى ذلك قوله:" لكن يجب أن نؤكد هذه الخطوة باليمين نقطعها على أنفسنا و نقسم ألاّ ينكص أحد على عقبيه ولا يكف عن القتال ضد العدو، وأن نكون جميعا يدا واحدة، و أن يعتبر كلُّ واحدٍ منا سلامته فى سلامة رفاقه وبلواهُ فى بلواهم". ولما فرغ من كلامه وثب وثبةً قوية على ظهر جواده و انطلق فضرب أولَ رجل اعترض طريقه. فضربه ضربةً قذفت به على الأرض قتيلا لكن رفاق" بالايولوجس "

ركبوا بقلوب واجفةٍ فلما رأوا أن بعض أصحابهم هلكوا ارتدّوا على أعقابهم إلى الحشائش الكثيفة التى كانت أشبه بالجحور فى الأرض و اختفوا فيها فنجوا فسلِمتْ أرواحهم. ولما عاد البشناقى إلى تصيّده - يحاول الوصُول إلى قمة تل من التلال بجواده إذا بالجواد يسقط من تحته من جُرْح أصابه فانطلق هو فى طريقه حتى أوصله الانطلاق إلى جبل قريب من حيث كان واقفا ، فظل يتجول هناك أحد عشر يوما يفتش عن طريق يسلكه فتكتب له النجاة. لم تكن نجاتُه بالأمر اليسير، لكنه صادف فى النهاية أرملةَ جُنْدِى آوَتْه فى بيتها حينا من الوقت، و دلّه أولادها الذين نجوا من الهلاك على الطريق المؤدية إلى حريته فسلكها.

على هذه الصورة كانت مخاطرات " بالايولوجس".

فى هذه الأثناء دبر زعماء البشناق خطة للفتك بأسْراهم، لكن أنكر عليهم عامة جندِهم ما يعتزمونه إنكارا تاما رغبةً منهم أن يبيعوهم للحصول على الفدية، و علم الإمبراطور بهذا الخبر من الكتب التى بعث بها إليه" ميلييسينوس" الذى رغم وقوعه فى الأسْر إلا أنّه بذل جهدا كبيرا فى تحريض البشناق على بيع أسراهم. وإذ ذاك قام الإمبراطور - وكان لا يزال مقيما فى بيرويا Beroe - فأرسل إلى القسطنطينية يطلب قدرا كبيرا من المال اشترى به حياة رجاله.

كان " تاتوس " قد وصل فى هذه اللحظة إلى نهر " أستر" مع الكومان الذين كان قد انتصر عليهم، فلما رأوا ضخامة الأسلاب وكثرة الغنائم والأسرى قالوا للزعماء " البشناق " لقد خلّفْنا وراءنا ديارنا وجئناكم من أقصى البلاد لنكون عونا لكم، وقطعنا العهد على أنفسنا أن نشاطركم الهزيمة والنصر على السواء، ولما كنا قد ساهمنا معكم بكل طاقتنا وجهدنا فليس من الإنصاف ولا العدْل أن تردّونا صفْرَ الأيدى، وما كان تأخُّرنا فى الوصول إليكم للقتال إلى جواركم باختيار منا حتى تلومونا عليه، بل إنه يرجع إلى غلطة الإمبراطور إذْ عجّل بالقتال.

والآن فإمّا أن تقسموا الغنيمة قسمة عادلة بيننا وبينكم فننال منها قدْرا مثل القدر الذى تنالونه فنكون لكم أحلافا وإلا سوف تجدون فينا قوما على استعداد

لقتالكُم". هكذا قال الكومان. إلا أن البشناق رفضوا مطلبهم، فلم يستطع الكومان الصبر عَلى هذا الرفض أو التجاوز عنه، فنشبت معركة عنيفة ضارية دارت فيها الدائرة على البشناق وتمت عليهم الهزيمة النكراء ولم يستطيعوا الحفاظ على حياتهم إلا بالفرار إلى مدينة " أوزوليمن" Ozolimne، لكن شلَّ الكومانُ حركَتَهم وأحْدقوا بهم فترة طويلة لم يستطيعوا خلالها حراكا، حتى إذا نضبت مئونة الكومان رجعوا إلى ديارهم و فى نيتهم العودة لقتال البشناق بعد أن يتزودوا بكل ما قد يحتاجون إليه أو ينقصهم.

(٥)

قام الإمبراطور فى هذه الأثناء بحشد قواته فى مقر قيادته فى " بروبا"، فلما تم له تجهيزهم همْ وأسرى الحرب على أحسن وجه قابله هنا فى " بروبا " كونت فلاندرز وهو عائد من بيت المقدس، فقطع له يمين الولاء المعتادة عند اللاتين ووعده بأنه حالما يصل إلى بلده سوف يبعث إليه [أى إلى الكسيوس] بخمسمائة فارس من ناحيته فأكرم الإمبراطور لقاءه غاية الإكرام وصرفه فانصرف راضيا مغتبطا وانقلب راجعا إلى بلده. وزحف الإمبراطور من "بروبا" بعد قليل بمن معه وبمَن جمعهم من العسكر قاصدا " أدرنة " وكان البشناق قد عبروا الوادى الواقع بين " جولى" و " ديانوبوليس" Dianopolis ثم ضربوا معسكراتهم على مقربة من " ماراكيلا" وكانت عودتهم أمرا متوقعا وإن أزعجت أنباء تحركاتهم الإمبراطور وأثارت مخاوفه، فاستدعى إليه " سينوسيوس" وعهد إليه بالبحث عن أعدائه البشناق وزوده بمرسوم يتضمن أنه إذا تمكن من حمل البشناق على التفاوض والتوقف عن الزحف فإنه يسمح لهم بالبقاء فى المنطقة التى يقيمون فيها الآن من غير تدخل منه، فإنْ قبلوا هذه العروض وصلهم الإمبراطور بمزيد من المال. وكان الحامل له على اتخاذ هذا المسلك معهم هو أن سياسته كانت ترمى إلى أن يجعل البشناق ضد الكومان إن عاود الأخيرون الاقتراب من نهر " أستر " فى محاولة منهم للاستيلاء على الإقليم الواقع وراءه.أمّا إنْ أصَرَّ البشناق على عنادهم ولجّوا فى مكابرتهم فعلى"سينوس" أن يتركهم هناك ويقفل راجعا إلى المعسكر.

واتصل بهم الرسول وتمكن بعد المحادثة التقليدية معهم أن يحملهم على عقد هدنة مع الإمبراطور، ثم ظل مقيما فيهم بعض الوقت وأحسن معاملتهم غاية الإحسان وراح يتودد إليهم، وعمل على تجنّب أيّ شيء قد يسيء إليهم أو يغضبهم.

وعاد الكومان منْ جديد يتأهبون لقتال البشناق، لكنهم لم يستطيعوا الالتحام بهم إذ علموا بعبورهم الممرات، وأنهم عند بلوغهم "ماراكيلا" عقدوا اتفاقا مع ألكسيوس وأصرّوا على أن يكون لهم الحق فى تعقبهم ومهاجمتهم، فأنكر ألكسيوس ذلك الطلب عليهم نظرا لإبرامه الصلح معهم من قبل ، وقال فى رده عليهم: " نحن الآن فى غير حاجة إلى مساعدتكم لنا ، فخذوا هذه العطايا وعودوا إلى دياركم". وكان الإمبراطور قدْ أكرم سفراءهم غاية الإكرام ولم يدعهم يبارحونه إلا وقد امتلأت أيديهم بعطاياه ثم ردّهم فى سلام.

على أن هذا الأمر الذى تمّ شَجّع البشناق على شجب الصلح فعادوا إلى سالف همجيتهم وعاثوا فسادا فى المدن وفى الأقاليم المجاورة. والحقّ أن المتبربرين جميعا قَوْم قُلّب قد طبعوا على النكث بعهودهم والحنث بأيمانهم، فلما شاهد " سينوسيوس" بنفسه فعالهم هذه عاد من تلقاء نفسه إلى الإمبراطور ليقدم له الدليل على تجاوزهم الأهوج، وكانت أنباء استيلائهم على " فيليبوبوليس" قد طرقت سمع الإمبراطور فملأته غما واستبد به القلق لأنّ القوات التى كانت تحت يده لم تكن كافية لخوض غمار حرب شاملة ضد جموع هؤلاء الأعداء، ولكنه لما كان رجلا لا يطيش صوابه فى الأزمات بل يجد الطريق والوسائل للخروج منها، ولما كان قد درّب نفسه على ألاّ يفقد ثباته مهما تعقدت الأحوال من حوله فقد أجمع رأيه على تحطيم العدو عن طريق مراوحته بالهجمات البسيطة ومفاداته بالكمائن ينصبها لهم، ولما كان يخمّن الأماكن التى قد يحتلها العدو والمدنَ التى قد يستولى عليها خصُمه فى الصباح فإنه شرع يدبر فى ليلته فكرة مهاجمتهم فى الصباح. أما إنْ هاجموه ليلا فإنه سوف يسبقهم إليها مع بزوغ النهار. وقد تمكن بهجماته الفدائية واستخدام مَنْ لديه من العسكر أحسن استخدام أن يناوشهم القتال عن قرب مناوشةً أعجزتهم عن الاستحواذ على القلاع والحصون.

ثم حدث أن وصل الطرفان: الإمبراطور والبشناق إلى " كيبسلا" Cypsella دون أن تصل إلى ألكسيوس مرتزقته الذين كان يترقب قدومهم فأوقع في يده وكان يعرف أن البشناق بارعون في التحرك بسرعة فائقة، كما رأى أنهم أخذوا في الزحف بسرعة نحو القسطنطينية ذاتها. وكانوا إلى جانب ذلك يفوقونه ومن معه عددا، وأدرك أن لابد من معركةٍ بينه وبينهم، فاختار أهون الشرين وهو أن يلجأ إلى مفاوضتهم على يد رُسُل من قبِله إليهم في هذا الصدد فاستجابوا مرة ثانية إلى رغبته.

غير أنه حدث قبل قليل من إتمام الهدنة أنْ فر إلى الروم "" نيامتزس" Neamtzes في الوقت الذي كان فيه" مجدينوس" يقوم بحشد الجنود بأعدادٍ كثيفة جمعها من الأقاليم المجاورة. غير أن البشناق لم يستريحوا طويلا إلى الاتفاق فكانوا بذلك أشبه بالكلاب المسعورة تَعُود إلى النباح حيث خرجوا من "كيبسلا " و استولوا على "توروكومس" وأمضوا الشتاء في نهب القرى القريبة منها.

(٦)

لمَّا أهل ربيع (١٠٩٠) مضــوا إلى القســطنطينية و كان الإمبراطور حيــنذاك في "بلجاروفيجون" لكنه لم يُطل الإقامة بها ، كما فَصل قسما كبيرا من الشباب المختارين وبعث بهم إلى " أرخونتوبلي" و امتاز أفراد هذا الفريق بأنّ معنوياتهم كانت عالية جدا ثم أمرهم ألكسيوس بمهاجمة البشناق من الخلف ، وكان البشناق يقفون على عرباتهم.

خرج الأرخونتوبليون المجنّدون منذ قريب وهم على أحسن هيئة من التنظيم القتالي وكان العدو كامنا لهم عند سفح أحد التلال وظل يرصد قدومهم، فلما رآهم اندفع نحو العربات وهاجمها بزخم فظيع وجرت معركة استعملوا فيها أيضا الأيدي فسقط من " الأرخنتبولين" ما يقرب من ثلاثمائة رجل بَعْد قتال بطولي، وظل الإمبراطور حزينا عليهم فترة ليست بالقصيرة وهو يذرف من أجلهم الدموع وينادي كل واحد منهم باسمه. ثم مضى البشناق بعد هزيمتهم لهؤلاء الخصوم عبر " خاريوبوليس" ثم انطلقوا إلى " أسبرا" Aspra مدمرين كل ما يصادفونه في طريقهم.

أما الإمبراطور فقد تابع النهج الذى انتهجه من قبل، إذ مضى أولا إلى " أسبرا " لأنّ قواته لم تكن – كمَا قلتُ من قبل – كافية لخوض المعركة، ولما جاءه الخبر بأن البشناق سيفادرون معسكرهم فى الصباح الباكر بحثا عن الكلأ أصدر أمره إلى " تاتيكيوس" بحشد أشجع العسكر الشباب، فاستجاب له "تاتيكيوس" وكانوا جميعا من اللاتين والصفوة المختارة من خاصة حرس ألكسيوس الذى حذّره من أن تغفل عينه عن تحركات البشناق، وأمره بالإغارة عليهم بخيله ورجاله قبل انبثاق الفجر حين يتيقن أنهم صاروا بعيدين عن معسكرهم فى طلب العلف والكلأ.

ونفذ " تاتيكيوس " التعليمات الصادرة إليه فقتل من العدو ثلاثمائة رجل وأسر الكثيرين، ثم وصل بعدئذ الفرسان الذين كان كونت فلاندرز قد اختارهم وتعهد بهم، وكانوا قرابة خمسمائة فارس " وجاءوا بهدية إلى ألكسيوس وهى عبارة عن مائة وخمسين جوادا من الجياد الأصيلة ، فتلقى الإمبراطور الفرسان بما يليق بهم من التعظيم وشكرهم شكرا حارا. وقد أرسلهم والدى فيما بعد لحماية منطقة نيقوميديا حين جاءته الأخبار من الشرق بتأهب أبى القاسم حاكم " نيقية" للقيام بعُنْوان على " نيقوميديا " .

(٧)

ما إن سمع " تزاخاس "Tzachas فى هذه اللحظة بالصعوبات الجمة الكبيرة التى تواجه الإمبراطور فى الغرب و ما استولى عليه من ضيق سبّبه له البشناق حتى قرر أنه لابد من وجود أسطول يكون تحت يده، وكانت الدلائل كلها تشير إلى نجاحه فى هذا المشروع فقد قابل رجلا من أهل " أزمير " واسع الخبرة فى هذا المجال فعهد إليه ببناء بضع سفن حربية، فجهزه بما يحتاجه وأتمّ له بناء أسطول كبير أعدّه له قرب "أزمير " وتوفر إلى جانب هذه السفن الحربية أربعون مركبا بملاحيها الذين هم من أمهر البحارة الذين أبحروا بهذه السفن ثم أرسوا عند " كلزومين" Calzaomen وسرعان ما استولوا على البلد ومن هنا مضى "تزاخاس" إلى "فوكيا" Phocaea التى وقعت فى أيديهم منذ أول هجوم شنّه عليها ومن ثم بعثوا رسولا إلى " ألوباس"Alopus

حـاكم مـيـتـيلين و لكنه تلقى تهديدا بأفظع أنواع العـقـاب إذا لم يغـادر الموضـع حـالا، وأضـاف " تزاخـاس" إلى ذلك قـوله إنه لا يريد به شـرا بل يريـد له الخـيـر ولذلك فـإنه يحذره من المصير التعيس الذى ينتظره إنْ هو عصى الأمر، فاستولى الفزع الشديد على" ألوباس " من هذا التـهديد وتسلل تحت جنح الظلام فـركب إحدى السفن وأبحـر بها إلى القسطنطينية. فلمـا سـمـع " تزاخـاس " بما جرى أرسى واستولى على المدينة قسرا، لكن قاومتـه" ميثيمنا " الواقعة على نتوء من الجزيرة ذاتها فـأسرع ينقل هذا الخبر إلى ألكسيوس الذى بادر فى الحال فأرسل إليه قوة كبيرة عن طريق البحـر دعم بها المكان. لكن جرى من " تزاخاس" ما لم يكن متـوقعا فقد تجاهل " ميثيمنا" وسـار رأسـا إلى " خيـوس" فدانت له من غيـر مـشـقـة واستـسلمت له من غيـر جـهـد. إلاّ أن تجهيزةً رومية بقيادة "نيكيتـاس كاستامونيت" **Nicetas castamonite** اعترضته وكان فيها العدد الكافى من الرجال ومن السفن لقتال العدو وهزم هزيمة بشعة فى الاشتباك التالى وكان أسوأ ما أصابه أنه فقد كثيرا مما معه من المركبات التى استـولى عليـها " تزاخـاس" فلمـا جـاء نبـأ هذة الكارثة إلى الإمبـراطور جـهـز من جـانبـه أسطولا آخـر وأرسله هذه المرة مع "قسطنطين دالاسينوس" وجعله أميرا للبـحـرية، وهو مقـاتل كمى يمت إلى الإمبراطور بوشيجة القربى من جـهة أمه. ومـا كـاد قسطنطين هذا يرسـو على ساحـل " خيوس " حتى بذل غـاية جهده فى حصـارها وأخْذِ المدينة قبل عودة" تزاخـاس" من أزمير، وراح يرمى أسْوارها عن آلاته الحربية بقذائف المنجنيق والأحجـار الضـخمة، وتحطمت الاستـحكامـات الموجودة فيمـا بين كل برجين من أبراجـهـا. ولما عرف الترك الذين بداخل المدينة بما جرى وأدركوا استحالة بذل أىّ مقاومة أخرى من جانبهم دعوا الله القـوى باللسـان الرومـى أنْ ينزل عليـهـم رحـمـتـه. لكن لم يسـتـطـع أحـد ردَّ عـسكر "دالاسينوس" ولا" أوباس" فى انْدفـاعهم الشديد لاقتحـام القلعة ولاشك فى أنهم كـانوا خائفين من أنهم لا يكادون يصبحون فى الداخل حتى تمتد أيديهم فتغنم الأموال التى كـان " أوباس" أودعـهـا هنـاك و قـالوا: "هـا أنتم ذا تسـمـعون الترك يهـتـفون بتـبعيَّـتـهم للإمـبـراطور وهـا هـم أولاء قـد استـسلمـوا لنا، ولذلك فـإنه يـكون من الخطأ أن تـدخلوا عليهم البلد و تفتكوا بهم".

وانقضى اليوم بطوله وأوشك الليل على الدخول. وقد تمكن الترك من إقامة سور آخر بدلا من الذى تحطم، وعلقوا عليه من الخارج الحشايا والبسط المصنوعة من الأدم السميك ومن كل قماش تمكنوا من الحصول عليه أملاً منهم فى ألاّ يعصف الرمى بالقذائف أو على الأقل حتى يقلّ خطرها، وأعَدّ "تزاخاس" فى الوقت نفسه أسطوله، ودوّن فى سجلات الجيش ثمانية آلاف تركى ساروا برا إلى "خيوس" ثم تبعه الأسطول وهو أقرب ما يكون محاذاةً للساحل، فلما وقف " دالاسينوس" على هذا الوضع أمر قوادَ سفينته أن يحملوا علىْ ظهرها أكبر عدد مستطاع من الجند ومعهم قائدهم "أوباس" ثم يرفع المرساة معتزما الاشتباك فى قتال مع " تزاخاس" أنّى ثقفه على سطح الماء، إلاّ أن الأخير غادر الناحية و أبْحَرَ فى التوّ إلى " خيوس". فلما صادفه "أوباس " – وقد انتصف الليل أو كاد – تبين له أنّ العدوّ غيَّر خطته واتخذ شكلا جديدا فى الرسو؛ فقد جاء " تراخاس" بسلسلة طويلة جدا وشَدَّ جميع سفنه بعضها ببعض بصورة يستحيل معها على أية سفينة منها أن تفرَّ إنْ هى أرادت الفرار، كما يستحيل على السفن التى تريد التقدم إلى عرض البحر الإفلات من هذه المراكب، فانزعج خاطر" اوباس" مما يرى انزعاجا أعْجزه عن عمل أى شيء حتى ولو كان الاقتراب منها، ومن ثم استدار وانكفأ عائدا إلى "خيوس" فلم يتوان " تزاخاس" عن اقتفائه وراحت مجاديفه تضرب وجه الماء بلا هوادة ولا انقطاع، حتى إذا أصبح الخصمان على مقربة من " خيوس" كان أوباس أول من ألقى مراسيه فى الميناء التى كان " دالاسيناس" قد احتلها من قبل، ولكن "تزاخاس" أبحر وجاء بسفنه الخاصة لترسو إلى جوار سور الحصن وكان ذلك رابع أيام الأسبوع. فلما أصبح اليوم التالى – وهو الخميس[٩] – أنزل إلى البر جميع رجاله و أحصاهم ثم دوّنهم فى قائمة كان يمسك بها فى يده. أما " دالاسينوس" فقد صادف قرية صغيرة قرب الميناء فلم يقصّر فى اتخاذها قاعدةً لعملياته، وكان أوّل شيء فعله هو أنْ شيد استحكامات جديدةً بدلا من تلك التى كان قد أقامها من قبل ، ثم حفر خندقا كبيرا ونقل جيشه إلى هذا الموضع.

فلما كان اليوم التالى تأهّب الجانبان للقتال فخرجا فى كامل عتادهما الحربى، ووقف الرومان فى سكون عميق ومن غير أية حركة، وأصدر " دالاسينوس" أمْره بألاّ

يبرح أحد صفه، في حين أنّ " تزاخاس" راح يحفّز مشاته على الهجوم مستصحبين معهم طائفة قليلة من الفرسان لمعاونتهم، فلما رأى اللاتين هذا المنظر كرّوا برماحهم الطويلة ولم يوجه هو سهامه إلى الكلت[١٠] ولكن إلى الجياد التي تحتهم وإن لم يَحُلَ ذلك دون إصابة مَن عليها أو بعضهم بجراح لحقت بهم من أطراف الحراب، وكانت الخسائر فادحة جدا وارتدّ الفرسان على أعقابهم إلى داخل استحْكاماتهم في تزاحم شديد، وانطلقوا منها إلى المراكب مذعورين ذعرا لا يملكون معه أنفاسهم.

شاهد الرومان هذا الارتداد الذي تسوده الفوضى فانسحبوا هم أيضا ولكن في بطء وقد تملكهم الفزع الكبير، وبلغوا في انسحابهم إحدى القرى فتوقفوا عندها، ثم جاء المتبربرون فنزلوا إلى الشاطئ واستولوا على بعض السفن التي كانت راسية هناك، وحينذاك فك الملاحون أمراس السفن ودفعوها ثم وقفوا بعيدا عنها ينظرون بقلوب واجفة إلى ما يجري أمامهم، فأمرهم " دالاسينوس" بالإبحار على طول الشاطئ في اتجاه الغرب إلى "بوليسوس" Bolissos وانتظاره هناك. غير أنّ جماعة من البشناق جاءوا إلى " تزاخاس" وأخبروه مقدّما بخطة " دالاسينوس"، فبعث في الحال خمسين كشافا وأمرهم أنْ يوافوه على وجه السرعة متى يكون أسطول الروم جاهزا للإبحار، ثم أرسل بعد ذلك كتابا إلى " دالاسينوس" ربما تضمّن رغبته في التفاوض معه بشأن عقد الصلح بينهما. والرأي عندي هو أنه يئس كل اليأس من النصر حين شاهد خصمه الشجاع يتأهّب لمواجهة الخطر. على أنّ الأخير وعد " تزاخاس " أنه إذا كان الغد جاء إلى الناحية التي عند طرف معسكره ليناقش معه الشروط التي قد تكون مقبولة عند كليهما فقبل " تزاخاس" العرض. والتقى القائدان في الصباح الباكر ونادي" تزاخاس" على " دالاسينوس" وبدأ حواره معه قائلا له: " دعني أقدم لك نفسي ...إنني أنا تزاخاس ذلك الشاب الذي أكثر في الأعوام الماضية من شن الغارات على آسيا، وحاربْتُ بروح عالية، لكن جازت الحيلة عليّ لعدم خبرتي حينذاك وقلة تجربتي فأمسكني " إسكندر كاباليكا" Caballka وقدّمني أسيرَ حرب إلى الإمبراطور نقفور بوتنياتس الذي أنعم عليّ في لحظته تلك بلقب " الشريف الأفخم " Protonobilissimus وعاهدتُه أن أكون فَصَلا تابعا له فأجزل لي العطاء. لكن حدث أن آلت مقاليد الأمور إلى يد ألكسيوس كومنين فجرت الأمور جميعها على عكس ما هو متوقع وما كنت

أرجو فألغى الإمبراطور كل ما لى من امتيازات خُصِصْت بها على يد سلفه، وهأنذا الآن قد جئت بمحض إرادتى شارحا لك سبب خصومتى لعلك تحمل خبرها إلى الإمبراطور، فإن شاء أن يضع نهاية لهذه الخصومة فعليه أنْ يردّ علىّ جميع ممتلكاتى الشرعية التى حُرمت منها. أما فيما يتعلق بكَ أنت فإنى مخبرك أنك لو وافقتنى على أن نتحالف فتكون بين أُسْرَتينا مصاهرة فلنكتب عقدا بذلك يكون مقبولا منْ الطرفين حسب عادات الروم وعاداتنا نحن المتبربرين، فإذا تم الوفاء بكل هذه الشروط التى ذكرتُها لك و تَم عقد اتفاقية بشأنها فإنى أعيد إلى الإمبراطور -بمحضر منك وعلى يدك - جميع الجزائر التى غزوتُها واغتصبتها من الإمبراطورية البيزنطية وأعود إلى وطنى لتنفيذ شروط الاتفاق".

" كان لدالاسينوس خبرة طويلة بالترك وما طُبعوا عليه من الغدر، ولذلك اعتبر جميع عروض "تزاخاس" عروض نفاق وخديعة، لذلك أجّل المصادقة فى ساعته على مطالبه، لكن ذلك لم يمنعه من التصريح له بشكوكه فيما قاله ثم قال له: " إنك لن تعيد الجزائر إلينا حسبما تقول، كما أنى أشير عليك بانتظار حضور الدوق الكبير " جون " صهر الإمبراطور بكل الأسطول ثم تُسْمِعه اقتراحاتك، وحينذاك تكون واثقا كل الثقة من إتمام نجاح عقد اتفاقية مع الإمبراطور على شرط أنْ يقوم جون بدور الحَكَم الذى ينجز عقد الصلح".

وقام " دالاسينوس" أثناء انتظاره وُصول جون فأوْضح "تزاخاس" خلال تفاوضهما معا - أن المسالة برمتها في يد " دوكاس "، فأظهر " تزاخاس" كلَّ ما يصدق عليه قول هومير" لقد دخل الليل و إنه من الأجدى أن نحذر الليل " فقد وعده بأنه مسعفه بأعدادٍ كبيرة من النمتزيِّين حين يطلع النهار. ومع ذلك فقد كان كلُّ ما انفرجت عنه شفتاه كذبا ورياء، والواقع أنّ " دالاسينوس " لم يكن مخطئا فى حكمه على الرجل الذى انفلت خلسة فى عتمة الفجر مُنْسَلاً إلى شاطئ " خيوس". ولما كانت الريح رخاء فقد فَرد الشراع وأبحر إلى أزمير ليجمع جندا كثيرا يعود بهم إلى الجزيرة.

لم يكن خصمه " دالاسينوس " أقلَّ منه مكرا فقد اعتلى هو ورجاله ظهور السفن التى وجدوها راسية هنا ومضى بهم إلى " بوليسوس" حيث حصل على كثير من المراكب واستعد بآلات الرمى. وبعد أن منَح عسكره قسطا من الراحة ودوَّن أسماء الكثيرين منهم فى السجلات عاد إلى الناحية الأولى إلى بدأ منها رحلته، وتَلا ذلك صراع عنيف مع الترك تحطم فيه كثير من الموانع وسقطت البلدة فى يد "دالاسينوس". كل ذلك وتزاخاس لا يزال موجودا فى أزمير ولما هدأ البحر أبحر دالاسينوس إلى "ميتلين " وفى صحبته الأسطول كله.

(٨)

كان هذا هو الإجْراء الذى اتخذه الإمبراطور ضد " تزاخاس " أما ما جرى بعد ذلك فكان اكتشافه أن البشناق فى طريقهم مرة أخرى إلى " روسيون "، وعرف أنهم ضربوا معسكرهم عند " بوليبوتوس " polybotos لذلك لم يتردد فى مغادرة القسطنطينية ووصل إلى "روسيون" وفى صحبته العلج " نيانتز" الذى كان يحيك ضده مؤامرة دنيئة دبَّرَها له بليل، كما كان معه "كاتزاس" وكاترانس katranis اللذان كانا شديدى الحب لألكسيوس، كما كانا جنديين برهنت التجربة على صدق ولائهما له. وظهرت على البُعد كتيبة ليْستْ بالضئيلة من عسكر البشناق، فاستعدَّ الإمبراطور لقتالها، وشبَّت بين الجانبين معركة سقط فيها كثير من الروم ووقع آخرون أسرى فى أيدى العدو ففتك بهم بعد حين . أما غير هؤلاء و هؤلاء فقد ظلوا فارين على وجوههم فبلغ بهم الفرار "روسيون". على أن ذلك كله لم يكن أكثر من مناوشة مع أوباش البشناق .

كان وصول من يسمون باللاتين المنياكيين رافعا من معنويات الإمبراطور الذى عزم على أن يخوض المعركة فى اليوم التالى وأن تكون معركةً فاصلة شرسة. ولما كانت المسافة الفاصلة بين الجيشين قصيرة كل القِصَر فإنه لم يسمح بالنفخ فى الأبواق رغبة منه فى أن يأخذ خصمه على غرة.على أنه أمر باستدعاء الرجل المسئول عن

صقور الصيد الإمبراطورية ويدعى " قسطنطين"وطلب منه أن يأتى فى المساء بطبلة فجاء بها وظل يطوف بها حول المعسكر ويضرب بها حتى يجذب انتباه الجميع ويكونوا على علم بأنّ الإمبراطور عـازم على مقاتلـة البشـناق، وأنه لن يكـون هنـاك نفخ فى الأبواق.

كان العدو القادم من "بوليبوتس" قد وصل منذ قليل إلى موضع يسمونه" هادس" Hades حيث كان المعسكر منصوبا. وظلت استعدادات الروم قائمة على قدم وساق منذ دخول الليل، حتى إذا طلعت الشمس رتّب ألكسيوس عسكره فى مجموعات، ونظم صفوفهم وهيأهم للمعركة، لكن لم يبدأ القتال إلا حين تسلق " نيانتز" تلا فى هذه الناحية - ليكشف كما قال - الصفوفَ البشناقية ثم يعود للإمبراطور بأخبارهم، لكنه كان يزمع أمرًا يخالف فى الواقع ما قاله تمام المخالفة فقد تحدث إلى العدو بلغته الوطنية، ونصحهم أن يهيئوا عرباتهم فى صفوف يتلو الواحد منها الآخر، وحذرهم من أن يخافوا عدوهم فقد ذاق الهزيمة من قبل وجرى عليه الانكسار وأنه لا يحجم عن الفرار اليوم أمام رهط ضئيل جدا من الجند إذ ليس معه شىء من الإمدادات.

بعد أن فرغ" نيانتز" مما أراد قوله للبشناق عاد أدراجه إلى صفوفنا لكن كان هناك رجل نصف مولّد يعرف اللسان البشناقى فَهِمَ ما دار من حديث بين " نيانتز" وبين العدو فحمل إلى ألكسيوس الخبر، فلما سمع " نيانتز" ما قاله هذا أنكره إنكارا باتا وطلب إقامة البيّنة على صدق ما قاله وما يزعمه هذا الرجل الذى تقدم منه غير هياب ولا وَجِل وأعلن استعدادهُ للبرهنة على صحةِ ما يقول على رءوس الأشهاد، فما كان من " نيانتز" إلا أن جرّد سيفه و ضرب به رقبة الرجل فأطاحها وكان ذلك فى حضرة الإمبراطور والعسكرُ مصطفون عن يمينه وشماله. وإنه ليخيل إلىّ أن "نيانتز" جعل نفسه بما فعل أكثر عرضة للشبهة والريبة فقد ظن أنه بفتكه بالرجل يبعد الظنّة عنه ويدحض الشكوك حوله، وكان الواجب يقتضيه أن يتريث ليرى ماذا سيكون الدليل الذى يسوقه هذا الرجل، لكن يبدو لى أنّ رغبته فى الاستعجال بإبطال البيّنة على

خيانته حملته على ارتكاب شيء أعظم خطرا، كما أنه عَمَل لا يصدر إلا من همجي، هذا إلى جانب اتسامه بالحمق وتأكيده سوء الظن به هـو ذاتـه. على أن الإمبراطور لم يتخذ أي إجراء سريع ضده في لحظته هذه، فلم ينزل به العقاب الذي هو أهل له، لكنه كظم غيظه المتأجج وغضبه منه، كما أنه لم يشأ أن يتسرب الفزع إلى الفريسة فتفر من يده أو يثيرَ انزعاج العسكر. لكنه لم يكظم غيظه طويلا ولم يُخْفِه إلاّ إلى حين فقد دلته أعمال سابقة لهذا الرجل على خيانته، وإذ كانت الحرب لا تزال غير معروفة الخاتمة فقد كتم ألكسيوس حنقه مؤقتا ولم يعد يدري ما يُنزله به في لحظته الراهنة، لذلك فإن "نيانتز" سرعان ما اقترب منه وترجّل عن فرسه طالبا أن يمنحه حصانه فلم يرفض طلبه بل جاد عليه بما سأله، وكان هذا الجواد جوادا رائعا بسرج ملكي فامتطاه "نيانتزا" وانتظر حتى مشى كل من المصافين عبر ساحة القتال لقتال الآخر وتظاهر هو بأنه حامل على العدو ، ثم نكس رمحه ومضى إلى بني جلدته وأفضى إليهم بالكثير مما يعلمه من أخبار جيشنا.

استفاد العدو مما قاله لهم استفادة تجلت في نجاح رجاله في القتال الضاري الذي شب إثر ذلك وانتهى بكسر الروم الذين فروا على وجوههم في كل ناحية و تمزقت صفوفهم شر ممزق، ولما رأى الإمبراطور هذا الوضع أدرك أنه في موقفٍ بالغ الخطورة. ولما لم يكن راغبا في القيام بعمل طائش فيجلب أخطارا لا مبرر لها فقد ثنى عنان فرسه وانطلق شطر النهر القريب من "روسيون " حتى إذا بلغه توقف واستطاع مع رهط قليل من خيار جنده أن يبعد مطارديه جهد ما استطاع ، وكان قد هاجمهم وهو على ظهر جواده فقتل الكثيرين منهم وإن لم يسلم هو من ضربات أصابته هنا وهناك .

ثم إنه رأى جورج " بيرس" Pyrrhus يسلك شِعبا آخر وأنه يفر من خلاله إلى النهر فأعاده وراح يلومه على ما فعل. ورأى ما عليه الأعداءُ من عربدة وأنَّ أعدادهم تزداد يوما بعد يوم لورود الإمدادات إليهم بوفرة لمساعدتهم فأدرك أنّ الحكمة تملي عليه أن يغادر الساحة بعد أنْ ترك جنده تحت أمر جورج بيرس وطلب إليه أن يصمد

ما وسعه الصمود حتى يعود إليه، فلما فرغ من كلامه هذا لوى عنان فرسه وعبر النهر ودخل " روسيون " حيث كان جميع العسكر الفارين موجودين بها فقرر إخلاء المدينة في الحال من كافة الأهالي القادرين على حمل السلاح و كذلك من الفلاحين بعرباتهم وأمرهم بالتجمع كلهم عند ساحة النهر، فتم تنفيذ ما أشار به في لحظته وفي وقت أقلّ من الوقت الذي أستغرقه أنا في تدوين هذا الخبر. ورتب ألكسيوس صفوفه ثم عبر النهر ثانية على جناح السرعة عائدا إلى " جورج " رغم ما كان يشكوه الإمبراطور من الحمى التي بردت معها أطرافه، و أصابته قشعريرة اصطكت منها أسنانه بعضها ببعض. وتجمّع الجيش البشناقي كله حين رأى عسكرنا قد تضاعف عددهم، وحين نظر فرأى الإمبراطور لا يكلّ عن بذل نفسه، فتوقفت الكتائب البشناقية حيث هي ولم تخاطر فتلتحم مع ألكسيوس في القتال لعلمها بأنه قد استعد لمواجهة أيّ خطر يتهدده، وأنه صادق مع نفسه في حالي النصر والهزيمة، وأيقنوا أنه إن هاجمهم فستنطوي هجمته هذه على ما فيه دَمَارُهم وخسارتهم الفادحة، ولكن ألكسيوس أمسك عن منازلتهم بسبب الرعشة التي أصابته. ولما لم يكن الهاربون قد انضموا جميعهم إليه بعد فقد وقف حيث هو وإن راح يمشي بين العسكر تارة ثم يركب جواده قليلا تارة أخرى فيخطر به على مرأى من العدو و قد بانت عليه دلائل الثقة بالنفس، وهكذا ظل الجيشان ساكنين طوال الوقت حتى دخل الليل الذي ما كاد يرخي سدوله حتى انسحب كل جانب إلى معسكره دون قتال، وما كان ذلك إلا خوفا من الاشتباك في معركة تنطوي على المخاطرة. أما الرجال الذين كانوا مشردين على وجوههم في شَتَّى النواحي فقد أخذوا في العودة إلى "روسيون" شيئا فشيئا، وكانت غالبيتهم العظمى لم يسبق لها أن شاركت أبدا في القتال، أمّا " موناستراس" Monastras وأوزاس و"سينيسيوس" Synsios و هم الرجال الغالون عند " ارس " فقد ساروا عبر " اسبرون" في ذلك الوقت ووصلوا هم أيضا إلى " روسيون " دون أن يضربوا العدو ضربة واحدة.

(٩)

كان الإمبراطور محموما كما أشرت فأرغموه للخلاص من هذه الحمى على أن يلزم فراشه فلا يبرحه بعض الوقت، لكن معاناته هذه لم تستطع أن تحول بينه وبين رسم خطط اليوم التالى. وتقدم إليه بشناقى اسمه " تارتانس" Tartanis برأيٍ ارتآه سليما وكان هذه الرجل قد تعددت مرات فراره من قبل إلى الإمبراطور ثم انتهى الأمر به إلى العودة أخيرا إلى بلده، كما تعددت مرات العفو عنه إلى أنْ أحبه الإمبراطور وعفا عنه فبقى وفيا له روحا و جسدا. ولما جاء هذا الرجل إلى الإمبراطور قال له: "إننى أتوقع يا مولاى أن يُحْدِق بنا البشناق غدا، وهم إنْ فعلوا ذلك ناجزونا القتال، وما دام الأمر كذلك فعلينا أن نكون خارج الأسوار عند شروق شمس الغد استعدادا لقتالهم قبل أن يصلوا إلينا". فأثنى عليه الإمبراطور ووافق على خطته حتى إذا كان الفجر وضعها موضع التنفيذ، وحينذاك انطلق " تارتانس" إلى القواد البشناق وقال لهم: " لا يغرنكم الغرور فها أنتم ذى ترون كثرة الهزائم التى أنزلها بنا، وما صرنا إليه من قلة لا تخفى على أحد، فلا تخدعوا أنفسكم ولا تحاربوه فإنه قوى لا يقهر و عسكره لا يُغلَب، بالإضافة إلى أنه الآن فى انتظار الإمدادات القوية، فإنْ أنتم لم تعقدوا السلم معه أصبحتم طعاما للطيور تنهش أجسامكم".

هذا ما كان منْ شأن "تارتانس" أما الإمبراطور فقد هاله أنه ما من يوم يمر أو ليلة تنقضى إلا ويغير البُشناق على أرضنا، لذلك رأى أنه من اليسير الاستيلاء على جيادهم أثناء رعيها فى الوادى بأعدادها الضخمة. ومن ثم أرسل فى طلب " أوزاس" و" مونستراس "، وأمرهما بالخروج على رأس تلك الثلة من الفرسان المختارين إلى الناحية الواقعة خلف العدو وأن يكونوا وقت طلوع الصباح فى الوادى فيأخذون الخيول مع رعاتها، ثم قال لهم " لا تخشوا شيئا فإنا مهاجموهم من الأمام وستجدون من اليسير عليكم تنفيذ ما كلفتم به ". لم يكن ألكسيوس مخطئا فيما قاله فقد نجحت خطته حين بدأ التنفيذ، ولم يغمض له جفن تلك الليلة تَحَسّبا لغارة يشنها البشناق عليه وكان خلال ساعات الظلام يستدعى عسكره لاسيما المحنّكون من رماة الأقواس

ويتحدث إليهم طويلا عن البشناق، محركا همتهم للقتال شأنه فى ذلك شأن المدرب الرياضى وهو يشجع لاعبيه قبل النزال، ونصحهم الإمبراطور فيما يتعلق بالمعركة المتوقع نشوبها فى الغداة، وعلّمهم كيف يثنون قسيهم ويطلقون سهامهم، ومتى يكبحون جماح جيادهم ومتى يرخون لها العنان، ومتى ينزلون عن ظهورها إن دعت الحاجة إلى الترجل، واستمر على ذلك طول الليل حتى إذا بدأ النهار فى الطلوع أخذته سنة خاطفة من النوم وذلك قبل أن يعبر النهرَ صناديدُ جيش البشناق كلهم مرة واحدة مثيرين الروم للقتال. وقد ثبتت صحة فراسة الإمبراطور إذ كان ما حدث على جانب كبير من التوقع الصحيح عما سوف تجرى به الأحداث، وقد اكتسب هذا بسبب طول خبرته بالحروب المستمرة التى خاض غمارها، لذلك فإنّه امتطى فى الحال جواده وأمر نافخى الأبواق بنفخة الإنذار ثم صف جنوده و تقدمهم. و لما رأى أن الأعداء قد اشتد هجومهم عن ذى قبل أشار على رماة القسى بالترجل عن جيادهم دون تريث والسير على الأقدام ثم يتلوهم بقية العسكر ورمى البشناق بوابل هطال من السهام.

وأنجز الرماة مهمتهم بدقة وشجاعة فائقتين حين طالعوا ألكسيوس يُشرف على القلب، واستمر القتال، فلما رأى البشناق تماسك صفوف الروم ومساهمة الإمبراطور ذاته فى القتال الضارى وضاقوا ذرعا بالوابل الهتون من القسى التى تنهال عليهم انقلبوا على أعقابهم فارين، وأسرعوا فعبروا النهر الذى وراءه لائذين بعربات نقلهم المكسوة بالجلود، فطاردهم عسكر الروم بأقصى سرعة وأصابوا بعضهم فى ظهورهم برماحهم ورموا البعض الآخر بالسّهام عن قسيهم حتى لقد هلك الكثيرون منهم قبل تمكّنهم من بلوغ شاطئ النهر، كما سقط كثير من الفارين فى الدوامات المائية فجرفتهم مياه اليم فابتلعتهم فهلكوا.

ولقد برّ أتْباع الإمبراطور فى ذلك اليوم سواهم فى شجاعتهم، أما ألكسيوس فأثْبَت أنه أبسل القوم قاطبةً، و قد عاد إلى فسطاطه من تلك المعركة ظافرا لا ينازعه أحد ظفره.

(١٠)

بقى ألكسيوس مستجما فى هذه الناحية ثلاثة أيام مضى بعدها إلى "تزوروبولوس" Tzouropolous و لما كانت الضرورة تقتضيه سرعة التحرك فقد حفر خندقا كبيرا عند الجانب الشرقى من هذه القرية يسع جميع ما معه من القوات و وضع بداخله خيمته الإمبراطورية وكل متاعه. كذلك تقدم البشناق نحو "تزوروبولوس " لكنهم علموا أن ألكسيوس سبقهم إليها فعادوا يعبرون النهر من جديد و انطلقوا عبر السهل قرب القرية التى يسمونها " زيروجبسيس" ونصبوا مخيمهم فى المنطقة الواقعة بين النهر وبين "تزوروبولوس" فى دائرة خارجها فسَدُّوا جميع السبل أمام الإمبراطور فأصبح بذلك محصورا، وإذا كان هوميروس يقول أنه حينما يقبل الليل تغفو عيون الجميع من آلهة و محاربين، فإن النوم اللذيذ لم يعرف سبيله إلى عينى ألكسيوس الذى ما زال يقظان ساهرا. وظل يدير فى رأسه الوسيلة التى تمكنه من شل حركة العدو. ثم لاحظ أنّ قَرْية "تزوروبوليس" هذة قائمة على تلّ شديد الانحدار وأنّ جميع قوات العدو معسكرة فى السهل الموجود تحته، وتبين له أنه من المستحيل عليه أن يحاربهم وجها لوجه حربا يكون واثقا من ظهوره فيها عليهم لأنهم كانوا يفوقونه عددا، ولكنه أعمل الفكر ودبر على الرغم من ذلك تدبيرا بلغ ذروة العبقرية إذ استولى على عربات النقل التى يملكها الأهالى و فصلها من الأجزاء العليا من العجلات ومن محاورها و أمر برفعها على المتاريس ثم شدها بالحبال كما كانت خارج السور على هيئة صفوف وربط الحبال ربطا متينا إلى المتاريس.

لم يضع الإمبراطور لحظة واحدة فى تنفيذ هذه الخطة فما مضت ساعة من الزمان إلا و كانت العجلات ومحاورها معلقة حول السّور كحلقات سلسلة مترابطة تمسك كل واحدة منها بالأخرى وتبدو وكأنها مشدودة بالمحاور. واستيقظ الإمبراطور أبكر ما يكون فى الصباح التالى، وحمل هو ورجاله سلاحهم، وسار بهم بعيدا عن السور وصَفَّهم فى مواجهة البشناق ، وهكذا اتخذ رجالنا موضعهم فى الجانب الذى كانت العجلات معلقة به فى مواجهة العدو. ووقف ألكسيوس فى وسط رجاله و أمرهم بالترجّل عن جيادهم إنْ هم سمعوا النفير المؤذن بالهجوم، ثم ينطلقون نحو عدوهم

يرمونه من أقواسهم لا يكفّون عن ذلك ولا يسكتون عن مناوشته القتال ليثيروه. حتى إذا رأوا خصومهم يتقدمون إلى الأمام- وهم يصرخون فى جيادهم أن تكرَّ عليهم - فرّوا أمامهم فى غير انتظام ثم انقسموا طائفتين تمضى إحداهما يمينا والأخرى يسارا، وبذلك يفسحون الساحة أمام البشناق ليتقدموا حتى يصيروا ملاصقين للسور. كذلك صدرت الأوامر للواقفين على الأسوار من الروم أن يبادروا - حال رؤيتهم العسكر - إلى قطع الحبال بسيوفهم فتتساقط والمحاور ويصطدم بعضها ببعض وتتدحرج إلى أسفل. وتم الأمر على الصورة التى رسمها ألكسيوس. فقد اندفع فُرْسان البشناق كلهم مرة واحدة وكروا على عسكرنا وهم يصيحون صيحات تنخلع لها القلوب.

بينما كان الروم يتقدمون جميعا سيرا على أقدامهم ولكن ببطء وليس فيهم من راكب جواده سوى الإمبراطور كان يخيل لرائيهم أنهم شبه ناكصين على أعقابهم وكأنما انفصل كل واحد عن الآخر فاستولت الدهشة على العدو مما يرى، وخُيل إليه كأنمَا قد فتح لهم متسع يدخلون منه. فلما صار البشناق داخل هذه الثغرة أحْدَق رجالنا بهم من يمين وشمال، ثم تهاوت العجلات من فوقهم محدثةً دويا عاليا فانكبّوا على وجوههم وهم على بعد ذراع واحد من المتاريس لأنّ عجلات المتبربرين اندفعت بعيدا كأنها قذيفة أطاحها مقلاع وتدحرجوا وسط فرسانهم كأنهم جمعوا زخما كبيرا.

كان ثقل العجلات التى هوت فى هذا السقوط كبيرا، وقد تساقطت على البشناق فى عنف مروّع فسحقتهم سحقا ذريعا وصاروا أوصالا ممزقة، وكانت كالمنجل فتقطعت أرجل خيولهم التى غرقت فى بحر من الدماء وألقت بمن عليها إلى الأمام وإلى الوراء، وسقط أصحابها بعضهم فوق بعض. وحينذاك تقدم مشاتنا نحوهم وأحدقوا بهم من كل جانب، وهكذا أصبح الفزع من المعركة يلاحق البشناق من كل حدب وصوب، وراحوا ما بين قتيل تخطفت السهام روحه، وصريع أثخنته جراحه فهلك.أما معظم البشناقين فقد جرفهم اندفاع العجلات القوى إلى النهر فغرقوا .

ولما كان اليوم التالى رأى الإمبراطورُ الأحياء منهم يتأهّبون لمعاودة القتال، لذلك حرك كل عسكره إذ عرف ارتفاع معنوياتهم وثقتهم بأنفسهم، ولبِس هو سلاحه. وبعد

أنْ صفَّهم نزل إلى السهل وكلفهم بمواجهة العدو ووقف فى انتظار اللحظة المناسبة للقتال متخذا مكانه فى القلب. وجرت معركة مريرة انتصر فيها الروم وانطلقوا فى إثر البشناق يطاردونهم مطاردة عنيفة جنونية، فلما رأى ألكسيوس أن المطاردة ذهبت أبعْد مما ينبغى أن تذهب إليه سار راكبا بين عسكره طالبا إليهم الكف عن القتال وإعطاء جيادهم حظها من الراحة، وكان يخشى أن يكون بعض من رجال العدو مختفين فى بعض الكمائن فيخرجون منها مباغتين رجاله ويُحيلون هزيمة البشناق إلى نصر، وعرف أنهم قد يستطيعون - بمن انضم إليهم وبمن رجع إليهم من الهاربين - أن يجْعلوا جيش الروم فى خطر داهم.

على أيّة حال فإن صورة رجوع كل من الجانبين فى هذا اليوم تمثلت فى أن أحدهما لاذ بالفرار، و أما الآخر فقد عاد إلى معسكره فرحا بنصره العظيم.ثم مضى العدو فنصب خيامه بعد هزيمته المنكرة فى الناحية التى بين " بلجاربيوس" ونيقية الصغرى ، و كان الشتاء قد دخل فرأى الإمبراطور و جوب العودة إلى القسطنطينية؛ إذْ كان هو وجيشه أحوج ما يكونون إلى شىء من الراحة و الاستجمام بعد المعارك العديدة التى خاضوها . وإذ ذاك قسم قواته قسمين وانتقى أعظم مقاتليه شجاعة وجعلهم تحت قيادة الضابطين " جواناكس" Joanaces" ونيكولا مورو كاتاكالون" اللذين كلفهما بوضع عدد كاف من العسكر فى كل بلد لحمايته، وتزويد الجند المشاة فى المنطقة بأجمعها بمركبات النقل وثيران الجرّ. كما اشتد عزمه على متابعة القتال عند اقتراب الربيع، وأخذ يرسم الخطط ويعد التجهيزات اللازمة لما يضمن له النصر فلما فرغ من كل هذه الترتيبات عاد أدراجه إلى بيزنطة.

الحواشى

(١) أضافت نسخة إليزابيث إلى المتن ما أورده سوتير فى الحاشية تعريفا فقالت: " كان القوم قد ألقوا القبض عليه وافتداه الإمبراطور بأربعين ألف قطعة ذهبية ".

(٢) العبارة التالية واردة فى إليزابيث وهى تختلف عما هو وارد فى نسخة سوتير ولكن العبارتين من قلم أنا كومنينا حيث تقول " وقد ولد فى الحجرة الملكية بعد اعتلاء أبيها العرش، ولُقِّب كل منهما بالبروفوجينتس وهو الاسم الذى يطلق على من يولد فى الحجرة الخاصة بالولادة الموجودة بالقصر التى تتميز باللون الوردى الأحمر، والمبنية على شكل مربع وتطل على البحر كما تطل على تماثيل الثيران والأساد الحجرية . أما أرضها فمن الرخام وأمّا جُدْرانُها فمن المرمر الغالى الثمن ولا يمكن الحصول عليه إلا من رومة، كما أن رخامها منقط بنقط بيضاء تبدو وكأنُّها حبات رمل وأحسب أن هذا هو السبب الذى من أجله سميت هذه الحجرة بهذا الاسم" .

(٣) تقصد المؤلفة بذلك نفسها فقد تزوجها قيصر نقفور برينياس الذى تكثر الإشارة إليه فى ثنايا هذا الكتاب، ويبدو مما كَتَبتْه عنه مقدار حبها العظيم له وقد استمر هذا الزواج من ١٠٩٧ حتى ١١٣٧ أعنى إلى أن مرض هو فى حملة أخيها جون الذى جاء إمبراطورا وعرف بيوحنا الثانى ، وكانت هذه الحملة فى أسيا. وقد مات برينيس فى هذا المرض. ونعرف أنه وُلد له منها أربعة أولاد : ولدان وبنتان .

(٤) أشارت المؤلفة فى ثنايا كتابها هذا إلى نهر " أستر" فقالت إنه ينبع من الجبال الغربية حتى إذا اجتاز مجموعة من الشلالات التى تعترض مجراه صَبَّ فى البحر الأسود عبر خمسة روافد ، ويمتاز هذا النهر بطوله واتساع مجراه واختراقه سهولا فسيحة ، هذا إلى جانب صلاحيته للملاحة مما يساعد السفن الكبيرة على اختراقه وهو ينقسم إلى قسمين يطلق على أحدهما اسم الدانوب ، أما ما يلى ذلك من الناحية الجنوبية فيسمى أستر .

(٥) يقرر " سوتير " أن هذا الكسوف حدث يوم أول أغسطس ١٠٨٧ .

(٦) أطلقت نسخة إليزابيث عليه اسم " الندوة " أو " مجلس المشورة ".

(٧) وردَتْ بعد هذه الكلمة فى نسخة إليزابيث العبارة التالية : وهذه المدينة الآن هى واحدة من الأماكن الهامة وتقع قرب نهر " أستر " ولم تكن هذه المدينة فى القديم تسمى بهذا الاسم الذى تعرف به الآن ولكن كان يطلق عليها فى اليونانية اسم " المدينة العظمى" وهى تسمية طابقت الواقع ، ولقد تغير اسمها بعد ظهور ملك البلغار وحلفائه وكذلك صمويل آخر ملوك الأسرة البلغارية ، كما كان Zedlak آخِر أفرادها من اليهود.

(٨) فى حاشية سوتير جاءت العبارة التالية: " أو على الأصحّ ظن أنه لما رأى " ، وستتضح دلالة هذه الحاشية من متابعة الخبر فى النص .

(٩) كلمة " الخميس" غير واردة فى سوتير.

(١٠) ورد فى إليزابيث كلمة الفرنجة بدلا من الكلت وكلتاهما صحيحة.

الكتاب الثامن

حرب ٢٩ أبريل ١٠٩١ فى ليفنتيوم

والمؤامرات ضد الإمبراطور

فقرات الكتاب الثامن

١– الأسكيثيون يستعدون لمهاجمة "خيروفانتشى". انتصار الإمبراطورية مرة أخرى.

٢ – سخرية الإمبراطور بهم.

٣ – التحاسد بين بالايولوجس و"ميليسينوس". شتاء قارس البرودة غير مألوف (١٠٩٠ – ١٠٩١) تهديد جديد من جانب تزاخاس.

٤ – ألكسيوس يرشو الكومان للانضمام إليه لمحاربة البشناق.

٥ – وقعة "ليفونتيوم" يوم ٢٩ أبريل ١٠٩١ .

٦ – مقتل الأسرى البشناق. خبر سينسيوس. مكافأة الكومان وارتدادهم.

٧ – مؤامرة جديدة ونَفْى المتهمين. اتهام "جون بن إسحاق" بتدبير ثورة فى أزمير.

٨ – إسحاق ينفى بشدّة اتهامات "أدريان" و"ميليسينوس" ضد ولده. قدوم "جون ابن إسحاق" وعفو ألكسيوس عنه.

٩ – تيودور جبراس يثير الاضطرابات والقلاقل. توقف الزواج . قصة الحربة الطاهرة.

(١)

علم الإمبراطور أن كتيبة بشناقية فى طريقها لمهاجمة "خيروفاتشى" Gherobache على وشك الوصول إليها، ولما كان هو على الدوام على استعداد لمواجهة أى طارئ مفاجئ فقد قام بما طُبع عليه من السرعة بجمع القوات المرابطة للحماية، كما حشد كل المجندين البالغ عددهم حوالى خمسمائة شخص، وكان يسهر الليل بطوله فى تجهيز احتياجاتهم، ولم ينعم بهذا المكان بالراحة ولو لمدة أسبوع واحد، ولم يتسنَّ له أن ينفض غبار المعارك عن قدميه، إذ ما كاد أول بصيص من نهار اليوم التالى يطل على الكون حتى كان قد غادر المدينة، وأنبأ أقاربه ممن تربطه بهم وشيجة الدم وتصلهم به صلة الرحم والمصاهرة وجميع الكبار المسجلين بالجيش أنه عازم على الخروج لقتال البشناق، ثم أصدر إلى هؤلاء كلهم تعليماته. وكان اليوم الجمعة من أسبوع المساخر الذى يسبق الصوم الكبير وقال لهم : "لقد نمى إلى علمى أن البشناق يزحفون على "خيروفاتشى" وإنى لراحل عنكم الآن، ولكن عليكم أن تلحقوا بنا فى الأسبوع السابق للصوم الكبير، وسوف أدعكم تأخذون نصيبكم من الراحة - وإنْ يَكُن قليلاً- طوال الفترة الممتدة من اليوم الذى يبدأ به أسبوع الكرنفال إلى يوم الاثنين التالى لأسبوع الجبن، لأنى إن لم أسمح لكم بذلك فإنى أكون قد ظلمتكم ظلما فاحشاً.

قال لهم ذلك ثم انطلق فى لحظته إلى "خيروفاتشى". فلما صار داخلها أحكم غلق أبوابها وراءه واحتفظ بمفاتيحها معه إذ لم يكن يأتمن عليها أحدا سواه هو شخصيا. كما وَكَلَ حمايةَ أسوارها إلى أتباعه الصادقين فى ولائهم له، وطلب إليهم ألا تغفل لهم عين ولا يستكينوا إلى التراخى والكسل، بل عليهم أن يظلوا أيقاظا فى حراستهم لأسوارها وألا يصعدوا عليها أبدا وألا يُطِلوا منها قط وألا يتحدثوا إلى أحد من البشناق.

ولما طلع النهار جاء الأعداء - كما هو متوقع - واتخذوا مكانهم على نشز عال من الأرض على مقربة من السور، ثم انفصل عنهم ما يقرب من ستة آلاف رجل انطلقوا

ينبهون ما تصل إليه أيديهم حتى بلغوا "ديكاتوس"Decatus " التى تبعد عن القسطنطينية عشر مراحل تقريبا والتى يخيل إلىَّ أنها سميت من أجل ذلك بهذا الاسم، أما بقية رهط البشناق فقد ظلوا فى "خيروفاتشى".

وصعد الإمبراطور إلى سطح الحصن ليكتشف السهول والتلال تخوفا من أن يكون هناك قوة أخرى فى طريقها لمساعدة العدو، أو ربما يكون البشناق قد وضعوا كمائن لتصيّد أىّ أحدٍ يهاجمهم، لكن لم يظهر أى أثر لشىء من هذا التخوف. غير أنه لاحظ - وقد آذنت الساعة على الثانية ظهرا - أنهم ليسوا فى وضع يستطيعون فيه الحرب لانصرافهم حينئذ إلى تناول الطعام وأخْذ قسطٍ من الراحة والاستجمام. وأسقط ألكسيوس من حسابه فكْرة محاربة البشناق وهم فى هذا الحشد الضخم من العسكر، لكن الذى أزعجه وأرّق باله هو ما جال بخاطره من أنهم قد يعيثون فسادا وتخريبا فى ريف البلد ثم يقتربون من أسوار العاصمة ذاتها لا سيما وأنه كان قد تركها من أجل دفع العدو. لذلك جمع عسكره وتكلم معهم قاصدا اختبار معنوياتهم وقال لهم : "ينبغى ألا تخيفنا كثافة عدد الأعداء، لكن علينا أن نتوكل على الله ونمضى لقتالهم، فإن كُنَّا جميعا يدا واحدة وقلبا واحدا فإنى مطمئن تمام الاطمئنان إلى أننا سنكون الغالبين".

فلما رآهم عازفين تماما عن هذه الفكرة رافضين الإنصات إليه أخافهم بُغية إثارتهم، ثم تابع كلامه قائلاً : "إن الخطر يكمن فى أن يرجع من خرجوا منهم للسلب والنهب، فحينئذاك إما أن يستولوا على معسكرنا فيعملون فينا الذبح، وإما أن يعاملونا كأنْ ليس لنا وجود ويَحُولون إذْ ذاك بيننا وبين دخوله. وعلى ذلك فإنه ما من سبيل أمامنا إلا أن نخاطر بأنفسنا حتى لا يقال إننا مِتنا جبناء إذلاّء. وإننى - من ناحيتى - خارج الآن وسابقكم بجوادى ومقتحم به صفوف العدو، وسأرمى بنفسى فى وسطهم، فمن شاء منكم أن يفعل فِعلى فليتبعنى، وأما العاجزون عن ذلك أو من لا يريدون العمل بما أشرت به فلا يخرجوا".

قال ألكسيوس ما قاله ثم انطلق وهو فى كامل سلاحه وخرج من الباب المواجه للبحر وأسرع يعدو بجواده مصاقِبا الأسوارَ ثم دار دورة وصعد التل من الجانب

البعيد لأنه كان متأكدا أن جيشه لن يقاتل العدوّ وجها لوجه عن قرب، ثم شق طريقه وهو على رأس نفر من رجاله مُشْرِعا رمحه فى يمينه، واتخذ سبيله مباشرة إلى قلْب عدوه البشناق، فضرب أول من اعترض طريقه منهم فأرْداه قتيلاً يتخبط فى دمه.

لم يكن الذين مع الإمبراطور أقل منه حرصا على القتال أو رغبةً فيه فأسروا بعضا من رجال العدو وقتلوا آخرين أكثر منهم عددا، وإذ كان الإمبراطور رجلاً واسع الحيلة فقد ألْبَس عسكره زى العدو وأركبهم الخيول البشناقية، ثم جمع جيادا من جياد الخصم ورايات من راياته وعددا من رءوسهم وعهد بكل ذلك إلى نفر قليل من أوفى رجاله وأشار عليهم بالرجوع إلى القلعة وانتظاره بها.

ولما فرغ من اتخاذه كل هذه التدابير مضى بالبيارق البشناقية وبرجاله المتزيين بالزى البشناقى إلى النهر القريب من "خيروفاتشى"، فقد جال بظنه أن لابد لخصومه من عبور النهر أثناء عودتهم من النهب، فما رآهم البشناق واقفين حيث هم حتى ظنوهم رفاقهم الريفيين فأسرعوا جريا نحوهم دون أن يتفحصوهم جيدا، فلاقت طائفة منهم حتفها قتلاً، وحقَّ الأسر على باقيهم.

(٢)

ولما أسدل الليل ستاره – وكان ذلك مساء السبت – عاد الإمبراطور بأسراهُ فاستجم طوال غده ثم غادروا القلعة عند شروق شَمس يوم الاثنين على رأس جيش رتبه على النظام التالى. ذلك أنه وضع فى الطليعة حَملة البيارق البشناقية، وجعل الأسرى فى المؤخرة بعد أن عهد بالمحافظة عليهم إلى جماعة من أهل الناحية. ثم كان هناك رهط غير هؤلاء قد رفعوا رماحهم معلقين عليها رءوس القتلى.

على هذه الصورة كان زحفهم.

ثم جاء بعدهم الإمبراطور وإن كانت المسافة الفاصلة بينه وبين هؤلاء ليست بالشاسعة، وكان معه رجاله والرايات الرومية.

ولما كان الصباح الباكر ليوم الأحد الثانى قَبْل الصوم الكبير قام "بالايولوجس" - وكان يتحرّق لهفةً لينال حظا من المجد الحربى - فغادر بيزنطة على رأس طائفة أخرى من الجند، ولما كان يعرف طبيعة البشناق تمام المعرفة وما طُبعوا عليه من روح عدوانية فقد رأى أن يأخذ الحذر فى زحفه، فجاء إلى نفر من حاشيته فنحاهم جانبا وكلفهم أن يسبقوه فى الخروج وعهد إليهم بتمشيط سهول المنطقة وأحراشها وشعابها فإن طالعوا أى بشناقى - أيا كان هذا البشناقى- عادوا مسرعين إليه يعلمونه بخبره.

سار الزحف على هذا النسق حتى إذا بلغ السير بهم إلى سهل "ديميليا" Dimylia أبصروا رجالاً فى زى عسكر البشناق يرفعون الأعلام البشناقية فانفلتوا عائدين إلى مولاهم ناقلين إليه ما رأوْه، وأخبروه أن البشناق فى طريقهم إليه، فهب "بالايولوجس" فى الحال إلى حمل السلاح استعدادا لمصادمتهم.

ثم جاء إليه فى أعقاب هؤلاء مباشرة رسول أكّد له أن وراء الرجال الذين يظن أنهم بشناقيون أعلاما بيزنطية يتبعها الجند ولكن على مسافة لا بأس بها.

لم يكن ثم شك فى أن الرسل كانوا صادقين فيما قالوه، كما كانوا من جهة أخرى مخطئين فيما ظنوه، فقد كان هذا الجند فى الواقع جيشا رومانيا خالصا ولكنه تحت قيادة الإمبراطور. كما أن رجال الطليعة المُتَزَيّين بالزى البشناقى كانوا بيزنطيين كلهم قد استجابوا لتعليمات الإمبراطور فارتدوا لباس البشناق تمويها على البشناق أنفسهم، ولقد أدى ارتداؤهم هذا الزى من ناحيةٍ أخرى إلى خديعة جازت على قومنا أنفسهم.. وقد عمد الإمبراطور إلى هذه الحيلة حتى يبث الخوفَ فى نفوس طليعة الرجال الذين يقابلون عسكرنا فيحسبونهم بشناقا. وكانت هذه مزْحَةَ قائدٍ تنطوى نفسه على الدّعابة بقدر ما تنطوى عليه من الترويع.

لكنهم قَبْل قيامهم بأى عمل ضار رأوا الإمبراطور ذاته وراء البشناق مما أعاد إلى نفوسهم الطمأنينة فلم يرتكبوا شيئا يعود بالمضرة على رفاقهم، ولم يُفزع هذا "العفريت" المشاة أمّا غيرهم فقد أزعجهم ما رأوا ، لكن بالايولوجس- الذى جمع من الخبرة ما لم يجمعه غيره- أدرك فى الحال أنّ ما جرى لم يزد عن أن يكون حيلة من حيل ألكسيوس الحربية، ومن ثم استعاد رباطة جأشه وطلب ممن معه الاقتداء به.

(٣)

أما الآن وقد انضم إلى الإمبراطور جميع أقاربه وأصهاره فقد أسرعوا إلى مقابلته حسبما اتفقوا عليه من الانضمام إليه بعد الانتهاء من أسبوع الصيام عن اللحم. والواقع أنهم لم يكونوا قد غادروا المدينة حتى وقت عَوْدَته منصورا، فلما قابلوه فى هذه الظروف لم يكونوا يصدقون أنه كان فى مَقْدُوره إحرازُ هذا النصر العظيم وعودته محملاً بكل هذه الغنائم لولا أن رأوا بأعينهم رءوس البشناق مرفوعة على أسنة الرماح، وشاهدوا الأحياء من البشناق ومن لازالت رءوسهم تعلو أكتافهم يسيرون فى صف طويل وأيديهم خلف ظهورهم مربوطة بالحبال.

أحدثت السرعة التى اتسمت بها هذه الحملة دهشة بين الناس، فلقد سمعتُ (وإن كان ما سمعت صادرا من رجل غير مسئول) أن جورج بالايولوجس وكان شاهد عيان أنه تأفَّف ولام نفسه وغضب أنْ تأخر طويلاً عن الإسهام فى هذه الحملة والمشاركة فى تلك المعركة، وأنه كان يود لو أنه كان مع الإمبراطور حين أحرز هذا النصر الذى لم يكن بالحسبان، وود من صميم قلبه لو أنه أصاب حظا من هذا المجد الباذخ والشهرة المستفيضة.

على أنه يمكن للمرء أن يقول فى الإمبراطور فى هذه اللحظة أن قد صدق فيه ما قاله "ديترنومى" كيف يتسنى لفرد واحد أن يتصيد ألفا، وكيف يحمل اثنان فقط عشرة آلاف رجل على الهرب، ذلك لأن الإمبراطور ألكسيوس واجه فى هذه الأزمة جموعا غفيرة من المتبربرين وتحمَّل شدة الحرب وبلواها فى صبر عجيب ثم أوتى النصر وكتبت له الغلبة. والحق أنه ما من أحد يفكر فى عدد العسكر الذين كانوا بصحبته ويملكون من المقدرة ما يملكه هؤلاء ثم يقارن ذلك كله بتدابيره الحربية وحسن تصرفه وقوة بأسه وجرأته على مواجهة كل هذا الجيش من المتبربرين وما هم عليه من البطش والفتك... أقول إنه ما من أحد يفكر فى هذا كله إلاَّ ولابد له من أن ينتهى إلى الاعتراف بأن ألكسيوس وحده هو صانع هذا الانتصار.

هكذا كانت صورة النصر الذى منحه الله يومئذ لحاكمنا وهو نصر لم يؤته الرب لأحد غيره. ولما شاهده البيزنطيون يدخل المدينة مكللاً بالغار تملكهم الفرح الطاغى واستبدت بهم الدهشة بسبب ما اتسم به مشروعه من السرعة والشجاعة والمهارة وما حازه هو من الغلبة العاجلة، فانطلقوا يُغَنّون ويرقصون ويشكرون الله على أنه أنْعَم عليهم بهذا المنقذ المحسن.

أما نقفور "ميليسنوس" فقد نعت هذا النصر الذى أحرزه ألكسيوس بأنه فرحة لا جدوى منها لنا، وأنه لم يصب العدو بِشرٍّ كبير. والحق أن نقفور كان صادرا فيما قاله عن نفس قد أزعجتها هذه الاحتفالات ولا تستطيع تحملها، وهذه عادة بنى الدنيا . والحق أن هذا الانتصار لم يكبح جماح الجموع البشناقية التى لا يحصيها العد من العيث فسادا فى كل ما تصادفه إذ ظلت دائبةً على نهجها التخريبى ثم انتشرت فى ربوع الغرب معربدة لم يخضد شوكتها ما أصابها من الأضرار. فقد استولى البشناق فى كثير من نواحى الغرب على العديد من المدن وإنْ كانت صغيرة، بل إن بعض المدن الكبرى لم تسلم من شرهم وهى المدن القريبة من القسطنطينية، فأوغلوا فى زحفهم حتى بلغوا ما يطلق عليه "المنحدر العميق" حيث توجد كنيسة أعظم الشهداء "تيودور" التى أقيمت تمجيدا له والتى جرت عادة الكثيرين على التردد عليها يوميا للتبرك بهذا القديس والتوسل به، فإذا جاء يوم الأحد غص الضريح الطاهر بزرافات من الناس يقضون نهارهم وليلهم ومنهم من يظل فى دهاليزه، بل إن منهم من لا يجد موضعا سوى الموضع الموجود وراء الكنيسة . لكن بطش البشناق الذى لا يقهر كان ذا أثر ضار على من يزمعون الحج إليه فلم يعودوا يجرءون على أداء هذه الشعيرة بل ولا حتى ولوج أبواب بيزنطة بسبب هجمات البشناق .

إذا كانت هذه هى صورة الأهوال الفادحة التى داهمت الإمبراطورية فى القسم الغربى فإن البحر لم يسلم هو الآخر من البلوى تنصب عليه حين توفر لتزاخاس أسطول راح يغير به على السواحل، وهكذا كان الوضع بالغ الخطورة فتناهبت الإمبراطورَ الهمومُ من جراء الضربات التى توالت عليه واحدةً بعد واحدة، وأصبح مهموما، وانصبت عليه البلايا من كل حدب وصوب فقد جاءته الأخبار تقول إنّ

أسطول "تزاخاس" الذى جمعه من الأقاليم الساحلية كان أكبر من ذى قبل بصورة لم يسبق لها مثيل، وأنه خرب الجزر التى كان قد أخذها من قبل، كما خطط لمهاجمة الولايات الغربية، وبعث رسله إلى البشناق يشير عليهم باحتلال "خرسونيا". ثم إن هناك ما هو أفدح من ذلك ألاَ وهو أنه سوف يحول بين المرتزقة وبين الوفاء باتفاقهم مع ألكسيوس، ذلك أن "تزاخاس" ما كاد يرى تُركَ المشرق يجيئون لمعاونة الإمبراطور حتى فكر فى أمر يحملهم على الانضمام إلى جانبه هو ذاته، ومن ثم تقدم إليهم قاطعا العهد بأن يجزل لهم العطاء حالما يستولى على الغنائم، فلم يبق شىء من ذلك كله طى الخفاء على الإمبراطور الذى راحت مصالحه تسير على أسوأ حال فى البحر والبر، وزاد من ذلك أن الشتاء قارس البرودة اشتد شدة كبيرة حتى لم يعد ممكنا فَتْحُ أبواب المنازل لضخامة الجليد المتراكم خلفها، كما شاهدت هذه السنة من الثلوج ما لا يذكر أحد أنه رأى له مثيلاً من قبل. بيد أن ذلك كله لم يمنع ألكسيوس من التحرك فأرسل الكتب إلى المرتزقة يستدعيهم من أية ناحية يكونون فيها.

لكن ما إن دخل الربيع حتى تبدّدت مع مقدمه مخاوف الإمبراطور من السحب الملبدة بالغيوم والمنذرة بالمطر الغزير، وسكن البحر بعد هياج.

وعلى الرغم من أنّ ألكسيوس كان يحارب فى جبهتين فإنه رأى الخير كل الخير فى أن يؤكد سيطرته على البحر فإنْ تم له ذلك استطاع الصمود فى يسر وسهولة أمام أسطول العدو، كما استطاع فى الوقت ذاته أن يتخلص بصورةٍ مرضية من الهجوم البرى عليه. لذلك بادر فأرسل فى لحظته رسالة إلى قيصر نقفور ميليسينوس يأمره فيها بالاستيلاء على "إينوس" Einos وكان قد بعث قبل ذلك إليه بتعليماته فى رسالة خطية يطلب فيها منه أنّ يجمع أكبر عدد من الرجال يستطيع جمعهم، على ألا يكون هؤلاء من القدماء الذين كان الإمبراطور قد وزعهم من قبل على شتى مدن الغرب لحراسة مواضع ذات أهمية كبرى، بل اشترط عليه أن يكون هؤلاء أصحاب وجوه جديدة يستخدمهم لفترات معينة، وأن يجمعهم من البلغار ومن البدو المعروفين باسم "الولاشيين" وغيرهم ممن يجيئونه من أى الولايات ليكونوا فرسانا ومشاة.

كما بعث الإمبراطور يستدعى من "نيقوميديا" الكلت الخمسمائة أتباع كونت فلاندرز فلما فرغ من كل هذا ترك بيزنطة وأسرع فى الزحف إلى "إينوس" فبلغها وفى صحبته نوو قرباه. وهنا استقل مركبا راح يستكشف به جغرافية النهر من أدناه إلى أقصاه، ويختبر قاعهُ عند شاطئيه، ثم قرَّ رأيه على بقعة معينة اعتبرها أحسن موضع يضرب فيه معسكره. فلما انتهى من ذلك عاد أدراجه إلى المعسكر حيث عقد فى الليل اجتماعا مع ضباط جيشه وأخذ يحدثهم عن النهر وعن الأوضاع على كلا شاطئيه ثم قال لهم: " عليكم أن تعبروا النهر غدا وتستطلعوا السهل كله استطلاعا دقيقا، ولعلكم واجدون الموضع الذى أشرت عليكم به ويكون ملائما لنصب المعسكر"، فوافقه الجميع على ما قاله، حتى إذا طلع الصباح كان الإمبراطور أول من نهض لعبور النهر فعبره ومن خلفه الجيش كافة، فمضى ثانية يختبر مع ضباطه شاطئيه والسهل المتاخم له، ثم أشار لهم على الموضع الذى كان قد اختاره ليخيم فيه وهو واقع على مقربة من بلدةٍ صغيرة يُسميها أهلها "خيرنى" ويطل أحد جانبيها على النهر، أما الجانب الآخر فيجاوره أحد المستنقعات.

ولما أيقن الجميع أن المكان ملائم لهم بادروا إلى حفر خندق أقاموا به كلهم ثم رجع ألكسيوس إلى "إينوس" على رأس طائفة من العسكر لصد هجمات البشناق من هذه الناحية.

(٤)

جاءت الأنباء إلى رجال ألكسيوس الموجودين فى"خيرنى" بوصول جموع الأعداء الكثيفة التى يعجز العد عن إحصائها وكان الإمبراطور لا يزال فى"إينوس" فبادر فى ساعته إلى ركوب سفينة استطلاع ظلت مبحرة به على طول الساحل حتى وصلت به إلى منبع النهر، وحينذاك عاد فانضم إلى الآخرين حيث تبين له أن قواته ليست على القدر الذى يمكنه من تحدى جموع البشناق أو بعض منها، وأدرك وضعه المتحرج وعدمَ وجود المساعد له، لكن ذلك كله لم يجعل قلبه يطير فزعا ولم يفلّ من عزيمته بل كان الذى جرى على العكس من ذلك إذْ تزاحمت فى رأسه شتى الآراء والأفكار.

ثم حدث بعد أربعة أيام من هذا الحدث أن رأى ألكسيوس - على مسافة قريبة - جيشا من الكومان يقدر بحوالى أربعين ألف مقاتل قادمين نحوه من الناحية الأخرى، وأدرك أنهم لو انضموا إلى البشناق لشنوا عليه حربا مروعة إنْ تتمخض عن شيء فعن بوارهِ الكامل ودماره الشامل، ومن ثم راح يفكر في حيلة تجنبه هذا الشر، فهداه تفكيره إلى أن يأخذ المبادرة فطلب من الكومان أن يلتقى بهم للحديث معه، وكان من أبرز زعماء الكومان "طغرتك" ومانياك Maniac إلى جانب غيرهما ممن امتازوا بقدراتهم القتالية . كما أن منظر الكومان الذين اجتمعوا كان يبث الخوف والفزع العظيم من مَرْآهم.

لكن خبرة ألكسيوس الكبيرة جعلته يعرف أنهم يميلون مع كل ريح، وأنْ ليس من العسير عليهم أن ينقلبوا أعداء لمن كانوا لهم حلفاء وحينذاك يصبحون مصدر خطر جسيم. لذلك رأى الحكمة تفرض عليه أن يَعْبُرَ بكل جيشه إلى الجانب الآخر من النهر على أن يسبق ذلك الانتقال الذى يقوم به استدعاء زعمائهم إليه فلبّوا دعوته فى الحال واستجابوا له . وإذا كان "مانياك" قد رفضها فى البداية فقد عاد فقبلها وإنْ جاء ذلك منه متأخرا عن سواه من أمثاله من القادة. فأمر ألكسيوس بإعداد مأدبة لهم فأكلوا حتى امتلأت بطونهم، أما هو فقد زاد فعاملهم أرقّ معاملة وأفاض عليهم شتى الإنعامات فلم يمانعوا فى تلبية طلبه وقطعوا على أنفسهم العهود التى طلبها منهم، ثم سألوه أن يأذن لهم بشن حرب على البشناق لمدة ثلاثة أيام وعاهدوه إنْ هم انتصروا ليقسِّمُنّ الغنائم التى يستولون عليها شطرين يخصونه بأحدهما، فأذِن لهم إذْ ذاك بقتال الخصم لا لثلاثة أيام فقط بل زاد فجعلها عشرا إنْ شاءوا، ووعدهم لئن كتب الله لهم الغلبة ليتنازلن لهم عن نصيبه من الغنائم لتكون كلها لهم.

كانت قوات الجانبين (البشناق والكومان) فى هذا الموقف باقية حيث هى، وإن عمد الكومان لاختبار خصومهم ببعض مناوشات يراودونهم بها، على أنه قبل انقضاء الأيام الثلاثة بعث الإمبراطور فى طلب "أنتيوخس" Antiochus أحد النبلاء من أتباعه المخلصين وكان مشهورا بذكائه الوقاد، وأمره أن يشيد جسرا - فى أسرع وقت

ممكن – من القوارب التى شد بعضها إلى بعض بألواح خشبية طويلة جدا، فلما أنجز أنتيوخس ما طلبه منه الإمبراطور استدعى ألكسيوس إليه البروتستراتور والدوميستيك الكبير وعهد إليهما بالمرابطة على الشاطئ ومنع المشاة والخيالة من العبور على هذا الجسر من غير نظام بل أمر أن يتقدم المشاة أولاً ومعهم عربات نقل الأمتعة وبغال الحمل. فلما مضى المشاة ساوره الخوف من عسكر البشناق والكومان الجفاة الغلاظ، وارتاب على وجه الخصوص فى نوايا الكومان الخفية فأمر بحفر أُخدود بأسرع ما يمكن ثم جمع فيه كل رجاله، فلما تم الحفر أشار لفرسانه بالعبور. أما هو ذاته فقد وقف على الساحل يراقب ما يجرى.

فى هذه الأثناء قام "ميليسنوس" بتنفيذ تعليمات الإمبراطور المكتوبة، وجمع المجندين الجدد من أماكن كثيرة متفرقة. فأما المشاة الذين أخذهم من المنطقة المجاورة فقد كدّسوا أمتعتهم وكل ضرورات معاشهم على العربات التى تجرها الثيران وبعث بهم على جناح السرعة إلى ألكسيوس . غير أنهم ما كانوا يصيرون على مرأى البصر حتى ظنهم معظم كشافة الإمبراطور من البشناق فى طريقهم لمهاجمة الروم، وأكد أحدهم لألكسيوس أنهم بشناق فصدّقه الإمبراطور، وتملكته الحيرة وأصبح لا يدرى ماذا يفعل لا سيما وأنه هو ومن معه كانوا أقل منهم عدد، وبعث فى الحال إلى "بروبومير" ليتجسس له على هؤلاء العسكر المقتربين منه وسرعان ما عاد إليه رسوله مخبرا إياه بأنهم جماعة أرسلهم "ميليسينوس" فأثلج الخبرُ صدره وانشرح له قلبه وانتظر مَقدمَهم الذى لم يطل، وسرعان ما اجتاز بهم الجسر. ولم يتأخر عن زيادة رُقعة المعسكر فقد انضموا إلى بقية الجيش. على أنّ الكومان ما لبثوا أن وصلوا إلى الموضع الذى كان ألكسيوس معسكرا فيه قبل عبوره النهر وانتشروا فيه.

ولما كان اليوم التالى مضى ألكسيوس وهو مزمع النزول على مخاضة يسميها الأهالى "فيلوكالوس" ولكنه فوجئ بطائفة من البشناق يعترضون طريقه، فلم يتوان عن مهاجمتهم فى ساعته، وشب قتال ضارٍ لاقى الكثيرون من الجانبين فيه حتفهم وإن انتهى بهزيمة البشناق هزيمة نكراء.

ولما انتهى الاشتباك عاد إلى معسكره.

لقد ظل الروم ليلتهم هذه بطولها فى تلك الناحية ثم غادروها مع انبلاج الصبح إلى مكان اسمه "ليبنيوم" Lebunium وهو تل يشرف على السهل فتسلقه ألكسيوس لكنه وجد سطحه أقل بكثير مما يستطيع معه إيواء الجيش كله فأمر بضرب معسكره حول السفوح الدنيا التى كانت من السعة بحيث تسع الجميع. وحَدَث فى هذه الأثناء أن عاد ثانية الآبقُ "نيانتزس" وجاء إلى الإمبراطور وفى صحبته رهط - وإن كان قليلاً - من البشناق، فتذكر ألكسيوس - إذ رآه - ما كان من جحوده عليه. كما كانت هناك عدة أمور أخرى أخذها ألكسيوس بعين الاعتبار حملَتْه على أن يأمر بإلقاء القبض عليه هو ورفاقه وقيدهم جميعا بالسلاسل والأغلال.

(٥)

بينما كان الإمبراطور منهمكا فى هذه الأمور التى كانت شغله الشاغل قام البشناق فعسكروا إلى جوار مجرى مائى يتدفق ماؤه من الجبال ويسمونه "مافربوتاموس" وحاولوا كسب الكومان سرًا إلى جانبهم، لكنهم على الرغم من ذلك لم يكفوا عن تقديم المقترحات إلى ألكسيوس الذى خمَّن نواياهم الخبيثة، فرد عليهم بما يلائمها مستهدفا من وراء ذلك أن يستبقيهم فى وضْعٍ قلق حتى يَصِله المرتزقة المنتظر قدومهم من رومة. وبعد أن أدرك الكومان كذب البشناق فى عهودهم أحسوا أنهم أضحوا فى حِلّ من مدِّهم يد العون لهم فاغتنمُوا فرصةَ دخول الليل وجاءوا إلى الإمبراطور وقالوا له : "إلى متى سنظل نؤجل المعركة؟ ألا فاعلم إننا لن ننتظر أطول مما انتظرنا، ولقد عزمنا على أن نحسم هذا الأمر عند طلوع النهار وبروز شمس الغد بصورةٍ أو بأخرى" .

فلما سَمع الإمبراطور ما قالوه - وكان يعرف ما طُبع عليه الكومان من حُمق- رأى ألاّ يطيل تأجيل المعركة أكثر مما تأجلت وعاهدهم أنه سوف يقاتل العدو المشترك فى نهار الغد، وصمم فى الوقت ذاته على أن يجعل من غده هذا نقطة فاصلة فى

الحرب كلها، ولم يتريث فى إصدار الأوامر لقواد الفرق العسكرية وغيرهم من الضباط بالنداء فى صفوف العسكر كلهم بأن القتال واقع غدا. غير أنه كان- رغم كل هذه الإجراءات - متخوفا من جموع البشناق والكومان الكثيفة وتوجّس خيفة من أن يتّحدوا فى الوقـوف ضده، وظلّ هذا الخاطر يشغل باله ويؤرق خاطره ويسيطر عليه إلى أن انضـم إليه بعض الجبليين وكانوا رجالاً شجعانا وأهل جرأة، قد امتلأوا بسعار الحرب.

كان هؤلاء الذين أعلنوا انضمامهم إلى جانبه والمحاربة فى صفه يُقدَّرون بخمسة آلاف رجل فسقطت بذلك كل ذريعة كان يتذرع بها ألكسيوس لتأخير الحرب، فدعا ربه أنْ يعينه والشمسُ موشكة على الغروب وخرج بالمصلين فى موكب يحمل شعلةً متقدة وهم ينشدون التراتيل الدينية، ولم يسمح الإمبراطور لبقية العسكر بالراحة، وحذا حذوهم أرفع القوم، ولم يستثْن أحدا حتى الدهماء الذين أمرهم بمثل هذا الأمر.

ولما غاب قرص الشمس وراء الأفق كنت ترى السماء مضاءة بكثير من الأنوار المتألقة الوضاءة وقد خرج الجميع يحملون المشاعل والشموع: كل حسب قدرته، وثبّتوها على رءوس رماحهم. ولا شك أن صلوات الجيش قد بلغت السماء... أم تراني أقول إنها ارتفعت حتّى بلغت الرب ذاته؟ وما أرى قوله باعتقاده بعجزه عن مهاجمة العدو - إن لم يعنه الرب - إلاّ برهانا على صدق إيمانه لأنه كان لا يضع ثقته فى إنسان أو جواد أو آلة حرب، ولكن إيمانه كان يتركز فى قدرة الرب العلي.

ولقد استمرت هذه المواكب حتى أذن الليل بالانتصاف حيث مضى الإمبراطور ليعطى جسده المنهوك قسطا من الراحة ونام قليلاً ثم هَبّ ليُسلّح الجند استعدادا للقتال حتى إنه كان فى بعض الأحيان يصنع صديرية الظهر والصدر واللّامة من الحرير لعدم وجود القدر الكافى من الحديد لسد حاجة الجميع، وكان القماش الحرير يشبه الحديد فى لونه، ولبس رجاله هذه الملابس وتم تجهيزهم جميعا حتى إذا برزت الشمس من خدرها ترك الإمبراطور الأخدود - بعد أن أمر بالنفخ فى الأبواق- ليأخذ الجيشُ أهبته. وتجمّع القواد واحتل هو مكانه فى المقدمة يزفر زفرة الحرب الوحشية، وجعل على الميمنة والميسرة القائدين جورج بالايولوجس وقسطنطين دلاسينوس.

أمّا "مونستراس" فكان يقف على رابية وهو فى كامل سلاحه وكان رجاله إلى يمين الكومان الذين ما كادوا يرون الإمبراطور وهو يرتب صفوف جيشه للمعركة حتى راحوا يسلحون أنفسهم ويرتبونها وفق أساليبهم القتالية، فكان على مَيْسرتهم "أوزتاس" وكان فى الشطر الغربى "همبرتوبلس" مع الكلت.

هكذا كان جيش الإمبراطور أشبه بالطابية يحفها مشاته وفرسانه من كل جانب، وصدرت الأوامر مرة أخرى أن يُنفخ فى الأبواق استعدادا للقتال. ولما رأى الروم جموع البشناق التى لا حصر لها وعَرباتهم المخيفة التى كانت أشبه بالحصون دعوا الله فى صوت واحد أنْ يكلأهم برحمته، ثم اندفعوا اندفاع رجل واحد لقتال عدوّهم، وتَقَدَّمَهم الإمبراطور على جواده. فلما أصبح الصف على شكل الهلال تقدم الجيش بأكمله بمن فيه من الكومان وكَرُّوا جميعا على البشناق. غير أن واحدا من رجال العدو (وكان يقود الصفوة المختارة من الرجال) توقّع ما سوف تسفر عنه هذه الملحمة فاغتنم الفرصة لينجو بروحه فتقدّم مع رهط من رجاله إلى الكومان وكان يتكلم لغتهم. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأخيرين كانوا منهمكين فى قتال ضار مع بنى قومه إلاّ أنه كان يثق بهم أكثر من ثقته بالرومان، وانضم بمن معه إليهم طمعا منه فى أن يكونوا شفعاء له عند الإمبراطور الذى ما إن شاهد هذا المنظر حتى خاف أن يحذو حذوهم رجال غيرهم من البشناق فيفرون إلى الكومان ويقفون جميعًا ضد الجيش الرومانى، وحينذاك يتبدل الموقف برمته.

وكان ألكسيوس من ذلك النوع من الرجال الذين إذا تأزمت الأمور اتخذوا على وجه السرعة القرار الحاسم الملائم للموقف الذى هم فيه، لذلك فإنه لم يتراخ لحظة واحدة فى أن يأمر حامل العلم برفع الراية الإمبراطورية والوقوف على مقربة من الكومان.

كان البشناق فى هذه الأثناء قد دبت الفوضى فى صفوفهم، وتقاتل الجيشان فيما بينهما قتالاً أسفر عن وقوع مجزرة مروعة لم يسبق لها مثيل، واستحر القتل الفظيع فى البشناق كما لو أن العناية الإلهية تخلت عنهم، وأصاب الإنهاك الشديد أعداءهم لكثرة ما أعملوا السيف فيهم حتى تراخوا فى مطاردتهم إياهم، وحينذاك كر

ألكسيوس على قلب العدو كرة بثّت الفوضى فى كتائب العدو بأجمعه وراح يصرع بحسامه كل من يقف فى طريقه، وكان يصرخ صرخات مدوية تنخلع لها القلوب حتى قلوب من كانوا بعيدين عنه.

ولما حلّت الظهيرة وصارت الشمس فى كبد السماء رأى ألكسيوس الخير فى أن يرسل من لدنه بعض الكشافة إلى الفلاحين ليملأوا روايا خمرهم بالماء ويحملوها على ظهور بغالهم ويعودوا بها إلى العسكر ففعلوا، وفعل مثلَهم جيرانُهم حتى الذين لم يُكلَّفُوا بذلك ليطفئوا ظمأ رجال أنقذوهم من بطش البشناق، فجاء البعض بالجرار والبعض الآخر بالروايا، وغيرهم بما وصلت إليه أيديهم من الأوانى والأوعية. وكان المحاربون يرشفون الرشفة من الماء ثم يعاودون الحرب، فكان المنظر حينذاك رائعًا. وهلك فى هذا اليوم الذى هو الثلاثاء التاسع والعشرون من أبريل رجال جاوز عددهم عشرات الألوف . ولاقى هؤلاء الرجال ونساؤهم وأطفالهم مناياهم، وقد قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم لم يبق أحد منهم على قيد الحياة. وأخذ الناس يتندرون بأغنية تهكمية تقول: " بسبب يوم واحد لن يرى البشناق بعده قط شهر مايو" .

ولما أوشكت الشمس على المغيب – وقد لقى الجميع مصارعهم بالسيف بما فيهم الأطفال والأمهات ووقع الكثيرون غيرهم فى رق الأسر – أصدر الإمبراطور أمره بإعادة النداء بالرجوع، ورجع هو إلى معسكر الروم. وكان منظرا عجيبا لكل من يسترجع فى خياله ما جرى فى سالف الأيام يوم غادر جنودُنا بيزنطة لمحاربة البشناق الذين اشتروا الحبال والأنشوطات الجلدية لربط من يقع فى أيديهم من عدوهم، فإذا بهم هم أنفسهم أسرى فى أيدى خصومهم فقيدوهم بالسلاسل، لكن هذا هو الذى جرى ذلك اليوم يوم حاربناهم عند"درسترا" حربا أذلّ الرب فيها كبرياءهم، ثم شاء الرب بعدئذ – أعنى فى اليوم الذى أتحدث عنه الآن – وقد عرَف ما هم فيه من خوف وحزن أفقداهم كل أمل لهم فى الخلاص وأصبحوا عاجزين فى وجه هؤلاء الجنود.. أقول إن الرب حينئذ منحهم نصرا فوق الذى يتوقعونه إذ ظهروا على عدوهم أسْرا وقَتْلاً ، وربما يكون ذلك مألوفا فى الحملات الصغيرة، أما فى هذه الحالة فقد هلك فى يوم واحد شعب بأكمله : ذكوره ونساؤه وأطفاله.

(٦)

انفصلت القوات الكومانية والرومانية بعضها عن بعض وعاد كل من الجانبين إلى معسكره، وبينما كان الإمبراطور يتأهب لتناول عشائه وقد دخل الليل إذا برجل اسمه "سينوسيوس" يظهر أمامه ويصيح في غضب : "ما هذا العبث الذى يجرى حولنا؟ وما تفسيره؟ إنه يوجد ثلاثون أسيرا بشناقيا أو أكثر إزاء كل جندى من رجالنا.. ترى ما الذى سوف يحدث هنا إذا ما استغرق رجالنا فى النوم وحق لهم أن يناموا بسبب الإنهاك الشديد الذى حل بهم ؟ .... سيقوم البشناق ويحلّ كل أسير قَيْدَ زميله ثم يستلون خناجرهم ويفتكون بعسكرنا.. لذلك أطلب منك أن تأمر بقتل معظم الأسرى حالاً ..".

فرماه الإمبراطور بنظرات قاسية وقال له: "رغم أن هؤلاء الأسرى بشناقيون إلا أنهم آدميون..وربما كانوا خصوما لنا ولكن من حقهم أن تلحظهم رحمتنا، ولستُ أدرى ما الذى يحملك على أن تتلفظ بهذه السفاسف والترهات ؟".

فلم يتزحزح "سينوسيوس" عن موقفه ولم يملك ألكسيوس إلا أن صرفه غاضبا منه ولكنه أمر أن ينادَى في كافة أرجاء المعسكر بتجريد البشناق من كل سلاح يحملونه ووضع كل هذه الأسلحة فى مكان واحد مع تشديد الحراسة على الأسرى. فلما فرغ الإمبراطور من هذا أمضى بقية ليلته هادئ البال قرير العين.

على أن فريقا من الجند قاموا أثناء هذه الليلة بقتل كثير من الأسرى كما لو كانوا مأمورين بقتلهم، ولستُ أدرى أفعلوا ذلك استجابة لإيحاء علوى أم كان هناك دافع آخر غير معروف. على أن الإمبراطور ما كاد يسمع بهذا الخبر حتى تخيل أن هذا العمل من تدبير "سينوسيوس" فطلبه فى ساعته فحضر فعنفه وهدده بأفظع أنواع التهديدات، ثم أمر بإلقاء القبض عليه وقال له : "ما أرى هذا العمل إلا من تدبيرك وفعلك" .

وعلى الرغم من أن "سينوسيوس" نفى التهمة عن نفسه وأقسم أنه لا يد عما جرى إلا أن ألكسيوس أمر بزجه فى الحبس مقيدا بالسلاسل وقال لمن حوله: "دعوه يعلم كمْ تكون القيود وحدها مؤلمة أفظع الإيلام حتى لا يعود ثانية فيصدر حُكما ضد إخوانه" .

وربما كان الإمبراطور يفكر فى مضاعفة العقاب له وكاد أن يذهب أبعد من هذا لولا أن تدخل نفر من كبار رجال الدولة وأقرب الناس إلى ألكسيوس ومن ذوى رحمه والتمسوا منه العفو عنه.

ولقد تخوّف معظم الكومان إذ ذاك من نوايا الإمبراطور وخالجهم الظن بأنه قد يدبِّر لهم مكيدةً تصيبهم منها مضرةً تحت جنح الظلام، ومن ثم حملوا كل ما يملكون واتخذوا من الليل جنة وستارا وتسللوا عبر الطريق المؤدى إلى الدانوب. كما أن ألكسيوس بادر بالرحيل عند طلوع الصباح بسبب النتن الخبيث المتصاعد من جيف القتلى ومضى إلى مكان يدعى "قلعة كالادندرا" Caladendra الذى يبعد عن "خيرينى" ثمانية عشر فرسخا، وانضم إليه فى الطريق "ميليسنيوس" الذى لم يستطع مشاركته القتال لانصرافه إلى لقاء المجندين الجدد، فرحب كل منهما بالآخر وراحا يتجاذبان الحديث فى الطريق عن الأحداث التى أدت إلى هزيمة البشناق، ولما بلغ ألكسيوس "كالادندرا" علم بنزوح الكومان، وإذ ذاك أمر بجمع جميع أمتعتهم ووضعها على ظهور البغال لإرسالها إليهم، وبعث بكل ذلك صحبةَ رجالٍ مِن قبله وطلب إليهم أن يسرعوا ما وسعتهم السرعة ويفتشوا عن الكومان حتى يلحقوهم ولو كانوا قد جاوزوا الدانوب ويسلموهم ما أمر هو به أن يُسلَّم إليهم وذلك حسب الاتفاق المبرم بينه وبينهم ذلك لأنه كان يرى طيلة حياته أن الأكذوبة ولو صغرت أمْر مستنكر وخطيئة مرذولة، وكثيرا ما كان يندد بالكذب جهرا.

هذا خلاصة ما يمكن أن يقال بشأن الكومان الهاربين.

أما بقيتهم الذين تبعوه فقد أولم لهم وليمة فخمة استغرقت منهم بقية يومهم. غير أنه رأى الحكمة تقتضيه ألاَّ يمنحهم المكافآت السخية فى لحظتهم هذه بل يحسن إرجاؤها حتى ينالوا قسطا من النوم ليذهب عنهم أثر الخمر التى تجرعوها، وحتى يكونوا قد استعادوا كامل وعيهم، ولذلك فإنه جَمَعَهم فى اليوم التالى وناولهم أجورهم فكان ما نقدهم إياه قَدْرا كبيرا يجاوز القدر الذى كان قد وعدهم به من قبل، ولما أراد ردهم إلى بلادهم خاف أن ينطلقوا هنا وهناك فى طلب الأسلاب والغنائم فيسرقون وينهبون كل ما يصادفهم، لذلك أخذ منهم الرهائن فأجابوه إلى ما أراد ولكنهم سألوه بدورهم أن يمنحهم عهود أمان لتطمئن قلوبهم فبعث بصحبتهم "جواناكس" Jonnaces وكان رجلاً فَذًا فى شجاعته، عظيما فى حزمه، قويا فى عزمه. وعهد إليه أن يرتب لهم كل شيء يحتاجونه، وأن يتأكد من وصول هؤلاء الكومان إلى "زيجم" Zygum سالمين لم يصبهم أحد بضُر. وبذلك اطمأنت أحوال الإمبراطور بفضل العناية الإلهية.

ولما استقر كل شيء على ما يرام كر راجعا إلى بيزنطة وكان ذلك فى النصف الأخير من شهر مايو فدخلها دخول الظافر المُنتصر.

هنا ينبغى علىَّ أن أمسك عن الكلام عن البشناق رغم أنى لم أذكر من خبرهم إلا القليل بالنسبة لما ينبغى أن يقال ، فما يبلغ ما قلته فيهم "قطرة ماء علقت بطرف إصبع غمست فى مياه بحر الأدراتيك" كما يقول المثل.

أما فيما يتعلق بانتصارات الإمبراطور الرائعة ونكساته الحربية على أيدى خصومه وأعماله الشخصية البارزة الدالة على شجاعته، والأحداث التى جرت وقتئذ والطريقة التى كان يُكيِّف بها نفسه فى كل ظرف، والوسائل المختلفة التى كان يعمد إليها للتغلب على الأهوال التى كانت تهدده أقول إنه ما كان بقدرة أحد ما- ولو كان هذا الشخص "ديموستين" ومعه رهط من الفصحاء - إيفاءه حقه، بل حتى لو اجتمع كافة رجال الأكاديمية واتحدوا جميعا ثم حاولوا وصف إنجازات الإمبراطور لما استطاعوا بلوغ ما يرومون

(٧)

ما كادت تمضى بضعة أيام على عودة الإمبراطور إلى قصره حتى أميط اللثام عن مؤامرة حاكها ضده "أريبيس" Ariebes الأرمنى، وهوبرتوبولوس Hubertopoulos الكلتى (وكانا من الضباط البارزين وصناديد الرجال) وقد استطاعا إغراء عدد لا بأس به ليشاركوهما فى مؤامرتهما. ولم يكن الرجال الذين ضموهم إليهما من غمار الناس.

وقد توافرت الأدلة على تدبيرهم هذه المؤامرة فحوكموا وأدينوا وقضى عليهم بالنفى فى الحال ومصادرة ممتلكاتهم، ولكن الإمبراطور عارض بشدة هذه العقوبة الصارمة التى تقضى بها القوانين فى مثل هذه القضية.

ولقد تردد الكلام حينذاك عن هجوم يشنه الكومان وهو هجوم وصل خبره إلى سمع ألكسيوس ثم ما لبثت الأخبار أن جاءته بعد قليل بأن "بودينوس" Bodenus ورجاله الدلماتيين قد دبروا خطة للزحف على بلادنا، وكان من الصعب على الإمبراطور أن يقرر ضد أى الجانبين يبدأ بالتحرك، ثم تبين له أخيرا أن الضرورة تحتم عليه أن يشرع بتكريس قوته لدفع الخطر الدلماتى، وأن الواجب يفرض عليه أن يأخذ المبادرة بتأمين الأودية الواقعة بين أرض الدلماتيين وبلادنا، وعقد مؤتمرا عاما شرح فيه الإمبراطور غرضه فوافقه الجميع عليه وأيّدوه فيه، ومن ثم غادر العاصمة، وما كاد يبلغ مدينة "فيليببوبوليس" حتى تسلم رسالة خطية ممن سيكون بعد حين رئيس أساقفة بلغاريا الذى حذره من دوق "دورازو" المدعو "جون" وهو ابن أخيه ونائبه إسحاق فقد اتُّهِم عنده بتدبير ثورة ضده، فظلّ ألكسيوس طول يومه وليلته مشغول البال يتناهبه القلق من جرّاء سماع هذا الخبر. لكنه لم يشأ أن يجعله موضوع بحث واستقصاء حفاظا منه على خاطر أخيه (إسحاق والد جون). لكنه من ناحية أخرى خاف أن تكون الشائعة حقيقة.

كان "جون" شابا فى ميعة الصبا وكان الإمبراطور يعرف أن أمثاله يكونون فى العادة ضحايا انفعالات تحركهم وتثيرهم، وكان عنده ما يبرر الشك فى قيامه بتدبير

مؤامرة وثورة ضدّه ومن الممكن أن يصبح هذا الشاب [جون] سبب حزن ممض لكل من العم والأب على السواء، ومن ثم كان من الضرورى على ألكسيوس البحث عن أية وسيلة تمكنه من إخماد الفتنة فى مهدها والقضاء عليها قبل استفحالها. وكان مدفوعا فى ذلك أيضًا بحبه الصادق للشاب، لذلك استقدم إليه كبير رجال الحرس الأجنبى إبان ذلك الوقت واسمه " أرجيروس كازاتزس"وهو وإن كان بشناقى المولد إلاّ أنه كان حكيما حصيفا رزينا محبا للفضيلة والحق، وناوله كتابَيْن وَجَّه أحدهما إلى جون جاء فيه: "لقد علمت بتحركات المتبربرين العدوانية فى نواحى الممرات، وإننى – وأنا مولاك الإمبراطور– قد غادرتُ مدينة قسطنطين وخرجت للحفاظ على حدود الإمبراطورية الرومانية وضمان سلامتها. والمطلوب منك أن توافينى بالوضع فى دلماتيا، وتخبرنى عن مدى احترام "بولكان" Bolcanus ومراعاته لاتفاقية السلام المبرمة بيننا وبينه إذ ما من يوم ينقضى إلاّ ويوافينى الخبر بما يسوءنى بشأن ما هو جار هناك، وأخاف أن يكون "بولكان" من الأعداء ومن المتآمرين ضدى، فإذا اتَّضح أمامى ما هو جار هناك أخذنا استعداداتنا التامة للقضاء على خططه ثم نعيدك إلى الليريوم بعد أن نكون قد زودناك بالخطة المثلى التى ينبغى انْتهاجها حتى ينصرنا الله بفضله ونحن نحارب أعداءنا فى جبهتين".

كان هذا هو مضمون الرسالة التى بعث بها ألكسيوس إلى ابن أخيه جـــون [ابن إسحاق].

ثم كانت الرسالة الثانية التى عهد بها أيضًا إلى" أرجيروس" وأمَره أن يسلمها إلى كبار أصحاب السلطة فى مدينة "دورازو" وهى كالآتى:"حين علمنا أن بولكان عاود التآمر ضدنا غادرنا بيزنطة لنطمئن على سلامة الوديان الواقعة بين دلماتيا وبين أراضينا ولنعلم فى الوقت ذاته بالخبر اليقين عن تحركات هذا الرجل ونشاطه هو وأتباعه. ولقد قضت هذه الأمور علينا أن نستدعى دوقكم وهو العزيز جون ابن أخى إمبراطوركم وأحللنا مكانه حامل هذه الرسالة ورفعناه إلى مرتبة الدوق ومن ثم فالواجب عليكم أن تكرموا وفادته وتستجيبوا لكل ما يصدر عنه ويأمر به".

حمل "كازاتزس" هاتين الرسالتين وأذن له بالسفر وصدرت إليه التعليمات أن يبدأ بتسليم جون [ابن إسحاق] الرسالةَ الموجهة إليه فإن أطاع ما تضمنته بنفس راضية فعلى كازاتزس أنْ يستدعى كلَّ كبار مواطنى دورازو ويقرأ عليهم سرا الرسالة الثانية حتى يساعدوه فى إلقاء القبض على "جون".

(٨)

تناهت هذه الأخبار إلى سمع إسحاق النائب الأول أثناء وجوده فى القسطنطينية فغادرها على جناح السرعة ووصل إلى "فيليبوبوليس" بعد رحلة استغرقت يومين وليلتين، ودخل على الإمبراطور فسطاطه وهو مستغرق فى نومه دون أن يحدث أى صوت أو جلبة قد توقظ ألكسيوس من نومه، ثم مضى فرقد فى الفراش الآخر المجاور لأخيه مشيرا بيده إلى حُجّاب أخيه بالتزام الهدوء ونام هو الآخر. فلما استيقظ ألكسيوس اعترته الدهشة حين شاهد أخاه، لكنه أمسك عن الكلام برهة وأمر من كانوا حاضرى المجلس حينذاك أن يفعلوا فعله فلا ينْبسون ببنت شفة. ولما استيقظ إسحاق وجد أخاه ألكسيوس قد سبقه فى الاستيقاظ فجلس أمامه يراقبه ثم عانق كل منهما الآخر وتبادلا التحية، ثم استحلفه الإمبراطور أن يذكر له ما يريده وعما دعاه إلى الحضور فقال له: "لقد جئت من أجلك أنت" ، فرد عليه ألكسيوس: " لقد حمَّلتَ نفسك مشقة سفرك الطويل بلا مبرر"، فلم يستطع نائبه الرد عليه وأمسك عن الكلام برهة استغرقه فيها التفكير فى النبأ الذى يتوقعه من"دورازو".

كان الأب إسحاق [والد جون] حال سماعه الشائعات الدائرة حول ولده قد أنفذ إليه رسولاً حمله سطورا قلائل يحثه فيها على المبادرة السريعة لزيارة الإمبراطور والقدوم عليه، ثم بادر إسحاق فغادر العاصمة فى الوقت الذى بعث فيه رسوله بهذه الرسالة إلى ولده، ثم راح يحث الخطى إلى "فيليبوبوليمس" لدحض الاتهامات التى رُمى بها جون عند ألكسيوس ويسعى للتحدث إلى الإمبراطور عساهما يقفان على

الأسباب التي يحتمل أن تكون هي التى أدّت إلى ما جرى، كما أراد في الوقت ذاته انتظار ولده "جون".

استأذن إسحاق من الإمبراطور وانسحب من فسطاطه إلى الخيمة التى خصّصت له ولم يلبث رسول إسحاق أن عاد إليه من "نورازو" يخبره أنّ ولده "جون" فى الطريق إليه، فتنفس الأب الصعداء عند سماعه هذا الخبر وتبددت مخاوفه وعادت الطمأنينة تغمر نفسه من جديد، ثم تقدم إلى الإمبراطور وجوانحه تغلى غضبا ونقمة على الذين افتروا الكذب على ولده، ووقف أمام أخيه ثائرا حنقا ضيق الصدر بما فعلوا، فما رآه الإمبراطور حتى أدرك علة قدومه عليه واكتفى بأن قال له: "لقد أصبحتُ أنا أسوأ ما أكون والعلة أنت" .

والحق أنه كان يضطرم بالغضب إذ لم يكن هو الشخص الذى يستطيع السيطرة على غضبه، وربما كانت الكلمة العابرة كافية لإثارة حنقه.

ثم تابع كلامه قائلاً: "ليس غضبى من جلالتكم مثل غضبى على ذلك الرجل الذى افترى الكذب على ولدى" (مشيراً إلى أدْريان).

ولما كان الإمبراطور رقيق الحاشية سَمْح الطبع فقد أمسك عن الرد على أخيه لأنه كان يدرى الطريقة المثلى لِفَثْءِ غضب اسحاق.

وجلس الاثنان مع قيصر "نقفور ميليسينس" ورهط من أقرب الناس إليهما يتحدثون فى التهم الموجهة إلى جون، فلما رأى إسحاق أخاه "أدريان"وميلينس يهاجمان ولده بخبث ودهاء لم يعد قادرا مرة أخرى على كبت ثورةِ حنقه المضطرم، ونظر إلى أخيه "أدريان" نظرات نارية ولم يحول عينيه عنه وهدده بأنه سوف ينتف لحيته ويلقنه درسا يمنعه من أن يحاول بأكاذيبه الوقحة حرمان الإمبراطور من أمثال هؤلاء الأقارب. وبينما هم فى غمرة هذه الأحاديث إذا بجون (ابن إسحاق) يصل فدخلوا به مباشرة إلى الفسطاط الإمبراطورى حيث استمع إلى جميع التهم التى رمى بها عند ألكسيوس، ومع ذلك فإنه لم يوضع موضع الاستجواب أبدا.

ووقف المُدعَى عليه بينما خاطبه الإمبراطور بقوله: "إننى لا أستطيع أن أعير أذنا لهذه الشائعات بسبب أبيك الذى هو أخى (إسحاق) فاطرح عنك كل هَم يساورك وتابع حياتك التى أنت عليها".

لقد قيل كل هذا داخل الخيمة الإمبراطورية واقتصر الحضور على أدنى الأقارب ولم يحضر أحد غريب عنهم وكان الهدف مما قيل - أو ما قُصِد أن يقال -هو تهدئة الخواطر. ثم بعث الإمبراطور فى طلب أخيه (أعنى نائبه إسحاق) وابنه جون، وطال الحديث بينهم وانتهى بأن قال لإسحاق: "اذهب الآن إلى القسطنطينية هادئ البال وأخْبِر أمُنَا بما جرى بيننا. أما عن هذا الشاب - وأشار إلى "جون"- فإنّى راده ثانية إلى "دورازو" ليُصَرِّف أمور ولايته ويدبر شئونها على عادته".

ثم انفصل كل واحد منهما عن الآخر فمضى إسحاق غداة يومه هذا إلى القسطنطية، وأما جون فقد انطلق إلى "دورازو".

(٩)

لم يكن هذا الحادث خاتمة متاعب الإمبراطور بل كان هناك أيضًا "تيودور جبراس" الذى كان يقيم فى بيزنطة، ولم يكن الإمبراطور يجهل ما طبع عليه هذا الرجل من شدة التهور وسرعة الاندفاع، فلا عجب إن أمر بنفيه من العاصمة وإن أكرمه فأصبح دوق مدينة طرابيزوس Trapezus التى سبق استردادها من يد السلاجقة الأتراك.

ولقد جاء هذا الرجل أصلاً من "خلديا" Chaldaea وكان من الطبقة الأرستقراطية إلى جانب أنه كان محاربا ذائع الصيت وذكيا مقداما، وقد لازمه التوفيق فى كل عملٍ تولاه، فما من حرب خاض غمارها إلاّ ومشى النصر فى ركابه، فلما وَلِى المدينة اعتبرها ملكا خالصا له، وأوصد أبوابها فى وجوه الجميع.

وكان السباستكريتور إسحاق كومنين قرر أن يزوج إحدى بناته لجريجوى بن جبراس، ولكن لما كان الشاب والفتاة لا يزالان طفلين غريرين فلم يزد خبر المصاهرة عن كلام نطقت به الشفاه لكنه لم يَرْقَ إلى مرتبة العقد. وكان جبراس قد قدم على الإمبراطور ليعهد بولده "جريجورى" إلى رعايته وينشأ في كنفه حتى يبلغ سن الزواج فيشهر عقد قرانه على الفتاة.

ثم استأذن "جبراس" الإمبراطور في العودة إلى بلده فأذن له فعاد لكن لم تلبث زوجته أن ماتت فتزوج ثانية وكانت زوجته الجديدة امرأة" ألآنيَّة "تجرى في عروقها دماء تشير إلى شرف أصلها. وشاءت الصدفة أن تكون هي وامرأة السباستكريتور ابنتي خالة ولما عرفت صلة القرابة هذه أصبح زواج الابن للابنة بعضهما ببعض باطلاً بحجة أنَّ القانون يمنعه وترفضه الشرائع الكنسية ولا تجيزه.

كان الإمبراطور يعرف شهرة جبراس الحربية ويدرك خطره الجسيم عليه، ومن ثم لم يكن ميالاً – وقد شُجِبت المصاهرة – لأن يعود جريجورى إلى أبيه [جبراس] بل أراد إبقاءه في القسطنطينية لسببين: أما أولهما فرغبته في اتخاذه رهينة عنده يحبط كل شر قد يهم أبوه بارتكابه ويريد أن يلحق هذا الشر بالإمبراطور، وأما ثانيهما فإنه كان يطمع أن يكتسب من ورائه مودة جبراس وصداقته إذ كان في عزمه أن يزوج جريجورى من إحدى أخواتي.

هذان هما السببان اللذان دفعا الإمبراطور ليمنع جريجورى من الرحيل.

ولقد زار جبراس الكبير القسطنطينية وهو لا يدرى شيئا عن دواعي الإمبراطور وخططه في إبقاء ولده عنده، ومضى يلتمس – سرا – الوسيلة التي يستطيع بها استرجاع وده. وها أنت ذا ترى أنه على الرغم من أن ألكسيوس تكلم بعبارات مبهمة غامضة عن فكرته تارةً وألقى بعض الوضوح على الموقف تارة أخرى إلا أن شيئا من ذلك لم يوضح الحقيقة ولم يبينها صراحة، وإذا كان جبراس لم يقف على حقيقة الأمر إلا أنه لم يعد يكترث بشيء ما بعد فسخ الخطوبة السابقة وهي الخطوبة التي لا أدرى

السبب فيما صارت إليه فإنه طالب برد ولده إليه كما طالب باستصحابه معه في أوبته إلى ولايته، لكن الثابت أن الإمبراطور رفض في كل الحالات رد ابنه إليه وأنكر على أبيه استصحابه معه في رجوعه إلى ولايته، وحين ذاك لم يجد جبراس مندوحةً عن التظاهر بالقبول لِما أراده ألكسيوس وأن يترك ولده وراءه متظاهرا بطاعته للإمبراطور واحترامه لمشيئته واستجابةً لرغبته . وحين هم جبراس بمغادرة بيزنطة بعد وداعه الإمبراطور إذا بإسحاق يستقبله استقبالاً تجلت فيه مظاهر المودة وقيل إن ذلك راجع إلى صلة القرابة الكبيرة التي تربط كلا منهما بالآخر وانعكاسا لعلاقة الصداقة بينهما وزاد إسحاق فاستضاف جبراس في دارٍ له من أجمل الدور في ضواحي "بروبونتوس" حيث تقوم كنيسة القديس الشهيد العظيم "فوكاس" وبعد الفراغ من المآدب الفخمة استأذنه إسحاق في العودة إلى العاصمة وعندئذ تقدم جبراس إليه سائلاً إياه أن يأذن لولده في اصطحابه طوال اليوم التالي فأذن إسحاق ووافقه على ما طلبه .

وبينما كان جبراس اللئيم على وشك مفارقة الصبي في اليوم التالي مضى الأب يلتمس من مؤدبي الغلام أن يأذنوا له بمرافقته حتى "سوثينيوم" Sotheinum لاعتزامه البقاء بها بعض الوقت للاستجمام فاستجابوا له وإن ذهبوا معه. غير أنه عاد مرة أخرى يرجوهم -وهو يهم بالرحيل- أن يرافقه ولده حتى "فاروس" Pharus فأنكروا عليه سؤاله هذا فأخذ ينتحل شتى المعاذير ويعزو ما يطلبه منهم إلى عاطفة الأبوة وحب الوالد لولده ولاسيما وهو سوف يفارقه أمدا قد يطول، فأثر إلحاحه الشديد فيهم وعطفت عليهم قلوب مؤدبي الغلام فرضخوا مرة أخرى له وتابع الجميع الرحلة حتى إذا بلغ السفر بهم "فاروس" كشف جبراس عن مكنون طويته وخفي قصده وانتزع ولده منهم ووضعه على ظهر سفينة تجارية مضت به وبولده إلى البحر الأسود.

ما إن سمع الإمبراطور بما جرى حتى بعث في الحال القوارب السريعة في أثر الفارين، وحمّل ملاحيها رسالة خطية كلفهم بتسليمها إلى" جبراس" وأمرهم أن يعودوا إليه ومعهم الغلام، فإن رفض الأب وكابر فعليهم أن يوضحوا له مغبة رفضه وما ينطوي عليه هذا الرفض من غضب الإمبراطور عليه.

استجاب الملاحون لأمر ألكسيوس ولحقوا بجبراس بعد مغادرتهم مدينة "إيجينوس" Eeginus وكان لحاقهم إياه قرب موضع يطلق عليه الأهالى اسم "كارامبز" وسلموه الرسالة الإمبراطورية التى أفصح فيها الإمبراطور ألكسيوس عن رغبته فى أن تزف إحدى أخواتى إلى الغلام، وطال الجدال والحوار بين الجانبين لكنه انتهى بإرغام "جبراس" على أن يسلمهم ولده "جريجورى" وسرعان ما صادَق على الزواج وفق ما تقضى به الشريعة وحدها وعهدوا بجريجورى إلى مؤدب كان من حاشية الإمبراطور هو الخصى "ميخائيل" .

أصبح "جريجورى" يقضى وقته فى القصر وأحيط بكل ضروب الرعاية، فنشأ على الأخلاق الكريمة ودربوه أحسن تدريب على جميع فنون القتال حتى أصاب منها القدر العظيم وصار له القدح المعلى فى هذا الفن، لكن على الرغم من هذا الأسلوب من الحياة التى يحياها الصبى والتى أحاطوه بها فإنه كان يأبى أنْ يرضخ لأحد ما أيا كان هذا الشخص، وشق عليه ما اعتقده من أنهم يظنونه لم يكن أهلاً للاحترام رغم أنه كان يعتبر نفسه جديرا به. ويضاف إلى ذلك أنه كان فى نزاع دائم مع مؤدبه . لذلك فكر فى الفرار إلى أبيه مع أن الواجب كان يقتضيه أن يكون شاكرا على ما يبذلونه من الرعاية به. وعلى الرغم من أنه لم يُكتَب لمحاولته الفرار النجاح الذى كان يرجوه فإنه حاولها حين اختار رجالاً معينين أخذ يتقرب إليهم وجعلهم موضع ثقته وهم السادة: جورج "ديكانوس" Decanus و"يوستايوس كاميتسس " وميخائيل الساقى الملقب عادة بين رجال القصر بالساقى، وكانوا جميعا من المحاربين الصناديد ومن بطانة الإمبراطور، غير أن واحداً منهم وهو "ميخائيل" مضى إلى الإمبراطور وأفضى إليه بكل شىء، فأنكر ألكسيوس ما سمعته أذناه ولم يستطع أن يصدق ما قيل له.

لما أصر جبراس الصغير على التعجل بالهرب قال له من ظلوا على الوفاء للإمبراطور: "ما يكون لنا أن نساعدك إن لم تُؤكد خطتك باليمين تقسمه لنا "، فاستجاب لهم وأقسم اليمين وإذ ذاك كاشفوه سرا بالموضع الذى فيه المسمار المقدس الذى غرزه الفاسق الزنيم فى جنب مخلصنا، ثم رتبوا الأمر على أن يأخذوه من مكانه ويأتوا به إلى جبراس ليقسم عليه فأطاعهم جبراس ودخلوا المكان خلسة.

وحينذاك انطلق واحد ممن كانوا قد أخبروا الإمبراطور من قبل بالخطة وقـال له:
" هذا هو البرهان.. وهذا هو جبراس والمسمار فى طيات ثيابه".

فأمر الإمبراطور بالقبض عليه فى الحال وأخرجوا الأثر المقدس من مكان خفى فى ثيابه وجرت مساطته فاعترف بكل شىء وأفصح عن أسماء شركائه فى الجرم واعترف بكل تفاصيل خططه وحاكَمه ألكسيوس وحكم عليه بالحبس وأسلمه إلى "جورج بوتوماتس" دوق فيلادلفيا وكلفه بوضعه تحت الحراسة والزج به فى سجن القلعة مع تقييده بالسلاسل.

كما بعث بجورج ديكانوس محملاً بكتاب إلى ليونيكيريتس دوق "باريستيرون" آمرا أن يعاونه فى حماية منطقة الدانوب. ولكن الحقيقة أنه أرسله إلى هناك ليكون تحت نظره، أما يوستاس "كاميتزيس" وبقية مَن معه فقد أدينوا فنفوا وسجنوا.

الكتاب التاسع

الحرب ضدّ السلاجقة (١٠٩٢ - ١٠٩٤)

مؤامرة نُقفور ديوجين (١٠٩٤)

فقرات الكتاب التاسع

١- ألكسيوس يزور زيجم. تزاخاس يعلن نفسه إمبراطورا في أزمير.

٢- جون دوكاس يستولى على ميتلين وتزاخاس يسعى إلى الصلح ولكن يفسد الاتفاق.

٣ - جون يقضى على التوازن فى كريت وقبرص.

٤ - رسالة ألكسيوس إلى قلج أرسلان الذى يقتل "تزاخاس" بعد أن يؤمّنه.

٥ - بلكان يدخل الأرض البيزنيطة من دلماتيا، ثم يعقد الصلح مع الإمبراطور حين اقترابه لكنه سرعان ما ينقضه وينتصر على جون بعد محاولتين.

٦ - وصف شامل لحياة "ديوجين" .

٧ - ألكسيوس لا يزال يبذل محاولاته لتهدئته.

٨ - "موزاكِس" يبث الخوف فى نفس "ديوجين" بذكر أعدائه.

٩ - سمل عينى" ديوجين" بموافقة - أو بغير موافقة - من الإمبراطور.

١٠ - التغلب على ديوجين الذى يتقن علم الهندسة رغم كفّ بصره. استمراره فى تدبير المؤامرات واعترافه بها، ولكنه يلقى العفو من الإمبراطور.

(١)

ما كاد بال الإمبراطور يفرغ من مشكلتي جون [ابن أخيه إسحاق] وجريجوري جبراس حتى غادر فيليبوبوليس إلى السهول الواقعة بين دلماتيا وبلادنا، واجتاز كل المنطقة التي يسميها أهلها بمنطقة "زيجم" الجبلية، وكان اجتيازه إياها سيرا على القدمين ولم يركب دابةً لشدة وعورة الناحية وامتلائها بالأخاديد العميقة الغاصّة بالغابات التي يكاد يكون اختراقها أمرا مستحيلاً، ولم يترك الإمبراطور مكانا إلاّ زاره، ولا شِعبا إلا نفضه بعينيه، كما أنه لم يدع موضعا من المواضع - حتى ولو كان صغيرا - يمكن الوصول منه إلى بلادنا إلا وأقام به ما يمنع العدو من اقتحامه، وأمر بحفر الخنادق في بعض المناطق، وجاء إلى أماكن أخرى فأمر بتشييد الأبراج الخشبية بها بقدر ما تسمح به الناحية، كذلك أصدر تعليماته بإقامة تحصيناتٍ صغيرة كان بعضها من اللبِن والبعض الآخر من الحجارة، وحدّد هو بنفسه المسافات التي تفصل كل واحدةٍ عن الأخرى، ثم جاء إلى نقاط غير هذه وتلك فأمر باجتثاث ما فيها من الأشجار الباسقة واقتلاعها من جذورها وسد بها الطريق أمام الأعداء، فلما أنجز كل ذلك عاد أدراجه إلى القسطنطينية.

ربما أوحت كلماتي هذه إلى القارئ بأن تلك الإجراءات التي اتخذها كانت بسيطة سهلة، ولكن شهود العيان الذين لا يزال بعضهم أحياء إلى اليوم يشهدون بالمشقة التي تكبّدها ألكسيوس في هذه السفرة المضنية.

على أنه ما كاد يئوب من سفره هذا حتى توالت الأخبار عن "تزيجاس" وما ابتلي به من الهزائم في البر والبحر على السواء، ومع ذلك فإنه لم يكف عن السعي لتحقيق نواياه السابقة فعصب رأسه بالعصابة الإمبراطورية، ونعت نفسه بالإمبراطور، واتخذ من أزمير دار إقامة ملكية، وجهز أسطولاً عاث به فسادا في الجزر المتناثرة هناك، غير مستهدف من ذلك كله سوى الوصول إلى بيزنطة ذاتها والاستيلاء على السلطة العليا إنْ أمكنه ذلك، وكان الإمبراطور يتلقى كل يوم من التقارير ما يؤكد له هذا القصد، ومن

ثم أيقن أنه يستحيل عليه– تحت هذه الظروف – أن يتراخى أو يضعف أو يكف عن بذل الجهد لدَرْءِ الخطر، لذلك أمضى بقية السنة (من نهاية الربيع حتى أواخر الشتاء) وهو يتجهز للحرب ليكون قادرا على مواجهة "تزاخاس" بقوات كبيرة مستعدة للقضاء تماما على آماله قضاء مبرما وتدمير خططه وسحق مشاريعه في أقصر وقت وبأسرع ما يمكن. على أنه رأى أن تحقيق هذه الأمور يحتم عليه أن يعمل على إخراجه من "أزمير" نفسها ومن غيرها من النواحى التى كان قد استولى عليها من قبل ومن ثم أصبح لِزاما على ألكسيوس انتزاعها منه. فلما أوشك الشتاء على الانصرام وأهلّتْ تباشير الربيع اللطيفة استدعى ألكسيوس إليه "جون دوكاس" زوج أخته وكان فى "إبيدامنوس" وعيَّنه أميرا أعظم للبحرية، كما وضع تحت قيادته جيشا من المقاتلين على اليابسة ممن أحسن اختيارهم وأمره بالزحف بهم على "تزاخاس"، كما عهد إلى "قسطنطين دالاسينوس" بالإشراف على الأسطول والإبحار به على طول الساحل، وكانت الفكرة التى وراء ذلك هى أن يصلوا إلى "ميتيلين" وأن يحدقوا بتزاخاس من البر والبحر على السواء.

حالما وصل دوكاس إلى الموضع المشار إليه أمر ببناء أبراج خشبية واتخذ من المدينة مركزا لعملياته الحربية، وهكذا بدأ الحملة بدءا عنيفا. وكان تزاخاس قد خلف هنا أخاه "جَلَّباتزس" Galab-atzes على رأس الحامية ، ولما كان يعلم أن القوة التى تحت يده ليست كافية للوقوف فى وجه رجل له من الخبرة ما لدى دوكاس فقد أسرع عائدا على رأس جيش هاجمه به وكان قتالاً ضاريا مرهقا لم يكف أحد فيه عن الآخر إلا بدخول الليل. وشهدت الشهور القمرية الثلاثة التالية هجمات يومية على الأسوار فى "ميتلين"، كما ظلت الحرب على "تزاخاس" كل يوم من مطلع الفجر حتى غروب الشمس.

وعلى الرغم من بطولة "دوكاس" إلا أن جهوده العظيمة لم تسفر عن تقدم يذكر مما بلبل خاطر الإمبراطور وأثار حنقه، فجاء ذات يوم إلى أحد الجنود وسأله وهو يغادر "ميتلين" وقد اكتشف أن ليس لدوكاس من عمل سوى القتال– أقول إنه سأل هذا الجندى عن الأحوال قائلاً له: "فى أية ساعة من ساعات النهار تشرعون فى قتال تزاخاس"؟ فأجابه الجندى" قرب شروق الشمس"، فعاد يسأله وأىّ الفريقين يكون فى مواجهة الشمس"؟ فقال الرجل" فريقنا نحن".

فأدرك ألكسيوس علة فشل رجاله، وسرعان ما وجد العلاج فى لحظته، ومن ثم أرسل كتابا إلى دوكاس ينصحه فيه بالكفّ عن قتال الخصم إذا كان الوقت صباحا. وجاء فى كتابه هذا إليه قوله: "لا تدع واحدا يقاتل اثنين"؛ يقصد بذلك "شعاع الشمس والبرابرة"، وأخبره أن الوقت يكون أكثر ملاءمة وفى صالحه إنْ هو قاتل حين تكون الشمس قد عبرت خط الزوال وانحرفت نحو الغرب.

ثم وضع هذه الرسالة فى يد الجندىّ وصرفه بعد أنْ زوده بكثير من النصائح وأنهى كلامه إليه قائلاً: " إنْ قاتلتم والشمس جانحة للغروب أحرزتم النصر فى الحال".

وتسلم دوكاس الرسالة من رجله ولم يعد ثَم للعدو نجاح منذ أنْ أخذ دوكاس نفسه بنصيحة الإمبراطور ولم يقصر فى اتباعها.

فلما كان اليوم التالى برز البرابرة فى سلاحهم كعادتهم، أما العسكر الرومانى فقد ركنوا للسكون نزولاً على اقتراح ألكسيوس، فلما رأى المتبربرون ما جرى من جانب الروم يئسوا من الاشتباك فى معركة معهم فى يَوْمهم هذا، فنَحّوا سلاحهم جانبا وأقاموا حيث هم.

ولكن "دُوكاس" لم يكن بالرجل الذى يركن للهدوء إذ ما كاد النهار ينتصف حتى كان هو ورجاله كافة على أتم أهبة للحرب وأكمل استعداد لها، فلما آذنت الشمس بالانحدار إلى خدرها كانوا هم قد رتبوا صفوفهم للقتال، وغافلوا البرابرة وهاجموهم وهم يصيحون صيحات الحرب المفزعة، ويصرخون صرخات مخيفة تبعث الرعب فى القلوب. لكن يظهر أن "تزاخاس" لم يؤخذ على غرة فقد أمر رجاله أن يحملوا سلاحهم ويصدّوا عدوهم ويكروا عليهم كراتهم الوحشية. وَهبّت إذ ذاك ريح عاصفة فلما أخذوا فى الاشتباك انعقدت فى الأفق سحابة من التراب وألقت الشمس بشعاعها فى وجوه البرابرة فأعماهم، وزاد من بلواهم أنّ هجوم الروم عليهم كان أعنف من كل هجوم سبقه فى ضراوته ووحشيته، ففر المتبربرون، وأعقب ذلك ما اعترى "تزاخاس" من ضعف لم يعُد قادرا معه على الصمود أو تحمّل أهوال الحصار ولا القتال، فراح يلتمس الصلح وصار غاية ما يرجوه أن يتمكن من الإبحار إلى "أزمير" سالما هو ومن معه، فوافق دوكاس على التماسه وأخذ رهينتين من وجوه من معه.

كذلك طلب "تزاخاس" هو الآخر أيضًا من دوكاس أن يسلمه رهائن من جانبه، فأجابه إلى ما طلب شريطة ألاّ يمس الميتليين بسوء أثناء مغادرته الناحية، وألاّ يصحب أحدا منهم معه إلى أزمير.

وأسلمه اثنين هما "إسكندر يوفيربينوس" و"مانويل بوتوميتس" وهما من أمهر المحاربين وأشجع الرجال، كما تعهد من جانبه بحماية "تزاخاس" وأن يخرجه محروسا آمنا فى طريق عودته إلى أزمير. وتبادل الطرفان الأيمان على الوفاء بما تعهّدا به، وبذلك تنفس دوكاس الصعداء لعدم تعرض تزاخاس بالأذى لأهل "ميتلين" أثناء انسحابه، واكتفى "تزاخاس" بالعهد يأخذه بألاّ يعرض له الأسطول الرومى بالشرّ فى رحيله. وإذا كان من المستحيل على السرطان أن يسير فى خط مستقيم فقد كان من المستحيل على تزاخاس أن يفارق الشر الذى طبع عليه، إذْ حاول نقل أهالى "ميتلين" بما فيهم من الحريم والأطفال.

بينما كانت الأمور تجرى على هذا النسق أرسى أمير البحر "قسطنطين دالاسينوس" بسفنه عند رأس بوغاز هناك وكان دوكاس قد أمره بالمجىء لكنه لم يكن قد وصل حتى هذه اللحظة فلما رأى ما ارتكبه تزاخاس جاء هو إلى دوكاس ملتمسا منه أن يأذن له بالقتال فلم يقرّه على ما طلب احتراما منه لليمين التى أقسمها، ولكن "دالاسينوس" مضى يلحّ عليه ويقول: "لقد أقسمتَ أنت اليمين ولم أكن أنا حاضرَكما، فأوفِ بيمينك كما تشاء ولا تشجبْه، أما أنا فلما لم أكن موجودا ولم أعرف شيئًا عما اتفقتما عليه فيما بينكما فلا جناح علىَّ إنْ أنا قمت بعمل ضد تزاخاس".

وبينما كان تزاخاس يفك مراسيه ويهمّ بالإبحار مباشرة إلى أزمير إذا بـ دلاسينوس يباغته بالهجوم ويأخذه على غرة أخذ مقتدر ويستولى على بقية أسطول العدو وهو يهم بالإقلاع، وبذلك أنقذ دالاسينوس جميع الأسرى وغيرهم ممن كانوا يرسفون فى قيودهم. واستحوذ دالاسينوس على كثير من سفن عدوه القتالية وفتك ببحارتها وملاحيها، وكاد تزاخاس الزنيم أن يقع هو نفسه أسيرا لولا أنه كان يتوقع ما جرى فركب واحدة من أسرع السفن وانطلق بها فنجا دون أن يَدْرى به أحد ولم تَرهُ عين، ولم يتوقع أحد خاتمة الموقف فإنه قد جاء إلى جماعة من الترك اتفق معهم على أن يقفوا له على البر يرقبون مجيئه حتى يبلغ أزمير دون كيد.

أما إن اعترضه الروم وقطعوا عليه طريقه فسوف يتوجه إلى هؤلاء الترك ويلجأ إليهم. وقد كتب له النجاح إذ أرسى هناك واتصل بالترك فاستطاع العودة فى النهاية إلى أزمير.

أما قاهرهُ "دالاسينوس" فقد عاد للانضمام إلى الدّوق الكبير الذى كان يدعم استحكامات ميتلين.

بعد عودة دالاسينوس إلى بلده أخذ دوكاس قسما كبيرا من الأسطول الرومى ومضى ليحرر الأماكن التى كان تزاخاس قد استولى عليها ومن بينها عدد كبير من الجزر كان منها "ساموس" واتسم استيلاؤه عليها بالسرعة قبل أن يعود دوكاس إلى القسطنطينية.

(٢)

سمع الإمبراطور بعد أيام قلائل بخبر ثورة كريكس Karykes واستيلائه على كريت، كما علم بوقوع قبرص فى يد الرابسوميين فجهز أسطولاً قويا بقيادة "جون دوكاس" الذى ما إن علم أهل كريت بوصوله إلى "كارباثوس" Karpathos - التى يعرفون أنها لا تبعد كثيرا عنهم - حتى هاجموا كريكس وذبحوه ذبح الشاة، ثم أسلموا المدينة إلى الدوق الكبير. فلما وثق دوكاس من أن كريت صارت فى أيدٍ أمينة غادرها تاركا بها حامية كافية للدفاع عنها وأبحر إلى طرابلس، فلما أرسى بها بادر بالاستيلاء أولاً على "كيرينا" Kyrena التى سرعان ما خضعت من أول غارة شنّها عليها.

ولقد شد هذا النبأ من عزيمة الرابسوميين فخرجوا بأسلحتهم لقتاله فلم يجد بدا إزاء هذه الاستعدادات الكبيرة من مغادرة "نيقوسيا" واحتلال المرتفعات المشرفة على "كيرينيا"، ثم ضرب معسكره فى هذه البقعة ولكنه رفض الحرب فى لحظته هذه ، مما دل على عدم خبرته بالقتال وجهله بفن التخطيط الحربى، فقد كان الواجب يفرض عليه أن يهاجم الروم قبْل أن يستعدوا للقتال، ولم يكن تأجيله الهجوم راجعا إلى نقصٍ

عنده في الترتيبات التي تسبق الهجوم، أو أنه غير مستعد للحرب، إذ يشير الواقع إلى كامل الاستعداد لشن معركة في لحظته هذه، ولكنه كان عازفا عن الزجّ بنفسه في منازعات من أي نوع ، ولقد سلك سبيلاً لا يليق إلا بالأولاد الصغار إذ أرسل رسله إلى الروم سرًا، ولعله بذلك كان يتوقع أن يكسبهم إلى جانبه بسلوكه المطمئن لهم.

والرأي عندي هو أن الحامل له على اتباع هذا السلوك هو ما كان عليه من الجهل إذ تدلُ المعلوماتُ التي وصلتني عنه أنه لم يمسك السيف ولا الرمح إلا منذ وقت قريب، بل إنه كان لا يدري كيف يركب جوادا ، فإن نجح في ركوبه مرة عن طريق الصدفة ثم حاول ذلك مرة ثانية فزع وأغمي عليه، وهذا يفصح عما كان عليه هذا الرجل الرابسوميتي من عدم الخبرة بالجنديةُ. وعلى أية حال فقَدْ فقد صوابه ولم يعد قادرا على تمالك نفسه ولم يصمد لهجوم شنّه الروم عليه إذ كان هذا الهجوم مباغتة شديدة الوقع على نفسه مما فتّ في عضده. ولقد حاول مرة ثانية أن يقاتل ولكن الأمور سارت على غيْر ما يهوى لأن "بوتوماتويس" أغرى بعض عسكره بالانفضاض من حوله فلما استمعوا إليه وانفضوا ضمّهم "بوتوماتيوس" إلى جنده حتى إذا أصبح اليوم التالي رتب الرابسوميتي صفّه ومضى يغرى دوكاس بالهجوم وبالخروج لقتاله إذ راح يمشي الهويني عَبْرَ منحدر أحد التلال، حتى إذا ضاقت المسافة بين الجيشين ضيقا شديدا خرجت طائفة من رجال "الرابسوميتي" تقدّر بمائة من الرجال الأشداء فاندفعوا حتى كان يخيل لناظرهم أنهم سيهاجمون دوكاس، ولكنهم نكسوا رماحهم وانضموا إلى الروم ففر الرابسوميتي يَحدُوه الأمل في العثور على سفينة يستطيع الهروب على ظهرها إلى الشام حيث يكون أمنا على نفسه.

لكن "مانويل بوتوميتيس" اشتد في مطاردته فخاب بذلك رجاؤه، وما زال مانويل يطارده حتى وصل إلى جبل في الناحية الأخرى والتجأ إلى كنيسة بنيت منذ زمَنٍ تمجيدا للصليب المبارك، لكن بوتوميتس – الذي عهد إليه دوكاس بالاستمرار في مطاردة تزاخاس– أدركه فأمسكه ووعده بالإبقاء على حياته ثم رده إلى الدوق الكبير ثم ساروا جميعا بعدئذ إلى نيقوسيا"، فلما فرغوا من إخضاعهم الجزيرة بأكملها بذلوا كُلّ جهدهم في تحصينها وأرسلوا تقريرا مفصلاً عن هذه الحملة إلى ألكسيوس الذي سَرّتْه جهودهم، لكنه أدرك أنّ سلامة الجزيرة تتطلب اهتماما خاصا وأن هذا من ألزم

الضرورات، فعين من أجل ذلك "كاليباريوس" Kalliparios قاضيا ووكل إليه جباية الضرائب، ولم يكن كاليباريوس هذا من علية القوم ولا أشرافهم ولكنه أقام الدليل البيِّن على حسن معالجته لما يُعهَد إليه من الأمور إذ جمع فى ذاته بين القناعة والاستقامة.

ولما كان الوضع فى الجزيرة يتطلب وجود حاكم حربى فقد وقع الاختيار على "يوماثيُوس فيلوكاليس" Eumathius ليكون حاكما عسكريا ووكلت إليه مهمة الدفاع عن الناحية براً وبحراً، وزود بالمراكب الحربية والفرسان. أما بوتوميتس فقد عاد أدراجه إلى دوكاس وبصحبته "لاسوميتس" والخالدون الذين كانوا قد شاركوه فى الثورة، وتابع هو رحلته إلى القسطنطينية.

(٣)

هذه هى الأحداث التى جرت فى جزيرتى قبرص وكريت.

والآن هيا بنا نرجع إلى تزاخاس فنقول إنه لِمَا طُبع عليه من حب للحرب وميل للمغامرة وعزوف عن الركون إلى الهدوء فإنه سرعان ما هاجم أزمير ودعم مركزه بها واتخذها قاعدة له، ثم عاد فجهز مراكبه الحربية على أكمل وجه، كما مهد الدرامين والعداءات والقراقير الطويلة والبطس والشواني والمرازيب[1] الطويلة ثلاثية المجاديف وغير ذلك من السفن وأعدّها كلها لما يريده منها.

على أن هذه الأخبار التى وصلت إلى سمع الإمبراطور لم تستطع إدخال اليأس إلى قلبه ولم تدفعه إلاّ إلى زيادة إقناعه بالعمل السريع للقضاء على تزاخاس براً وبحراً، لذلك عهد بالأسطول إلى قسطنطين دالاسينوس وجعله أميرا للبحرية، وكلفه بالخروج فى الحال على رأس كل سفنه، كما رأى أن إتمام هدفه يتطلب العمل على إثارة القلاقل بين تزاخاس والسلطان ومن ثم أرسل كتابا إلى الأخير يقول له فيه: "إلى السلطان المعظم قلج أرسلان. إنك لتعرف أن السلطنة ملك خاص لك بحق الوراثة ولا ينازعك فيها منازع، ولكن ها هو ذا ابن جلدتك تزاخاس على الرغم من تظاهره

بالاستعداد لمحاربة إمبراطور الروم نفسه فإن الواقع يؤكد أن تشدقه بمحاربتنا ليس إلاَّ ذرًا للرماد فى العيون، وما هذا الكلام سوى ذريعة مفضوحة لا تجوز على أحد، لأنه – وهو الخبير المجرب – يعرف تمام المعرفة إن إمبراطورية الروم يستحيل أن تكون له، ولكن طويته الشريرة وخطَّته اللئيمة موجهة بأكملها ضدك أنت. فإن كنت حصيفا فلا تقبل ذلك منه، وليس الموقف بالذى يدعوك لليأس بل يحتم عليك اليقظة والحذرَ منه وإلاَّ سلبَك سلطانك وانتزعه منك، أما أنا فإنى باذل جهدى وعامل على إخراجه بعون الرب من الأراضى الرومية، كما أن حرصى على مصالحك يحملنى على أن أبذل لك النصيحة بالحفاظ على سلطانك وتأكيد قوتك ودعْمِها. وعليك أن تعجل بما يحمله على الخضوع بالوسائل السلميَّة، فإن جادَلكَ فيما لاَ حَقٌّ له فيه فلا جواب عليه سوى السيف فهو خير معلِّم".

بعد أن انتهى الإمبراطور من استعداداته ظهر "تزاخاس" على رأس المعسكر فى الجانب البرى لإبيدوس ونَصَبَ صنوفا من آلات الحرب والرمى لمضايقة المكان، ولم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك؛ إذ لم يكن معه فى تلك اللحظة إلا القليل من سفن الغزو والقتال.

أما "دالاسينوس" الذى يعشق الحروب وخوض غمارها والذى بلغ فى الواقع ذروة الشجاعة فقد زحف بكامل قواته قاصدا "إبيدوس".

وأما السلطان قلج أرسلان فإنه ما كاد يتسلم رسالة الإمبراطور حتى زحف بجيشه على "تزاخاس"وهُو يتحرّق شوقا للحرب شأنُه فى ذلك شأن بقية المتبربرين من وَلَعٍ بها، وتقَدَّم حتى صار أقرب ما يكون إلى "تزاخاس" الذى وجد نفسه مهددا من ناحيتى البر والبحر على السواء، ولكن لم تكن عنده السفن الكافية، كما أن جيشه كان دون جيش الروم ودون عسكر ابن جلدته "قلج أرسلان" عددا، ومن ثم كان موقفه أدْعَى إلى اليأس، كذلك خاف من أهل "إبيدوس" وحاميتها. فلا مشاحة إنْ هو رأى الخير فى التقرب إلى السلطان دون أن يدرى بالتدابير التى تم الاتفاق عليها بين الإمبراطور والسلطان، ومن ثم مضى إلى قلج أرسلان الذى أظهر الترحاب به، كما تلقاه ضاحك السن ومَدَّ مِنْ أجله السماط على مألوف العادة ودعاه لمشاركته العشاء، وسقاه أكثر

مما يطيق فأثقلته الخمر حتى لم يعد يدرى شيئا مما يدور حوله. وحينذاك جَرّد السلطان سيفه وطعنه فى جنبه طعنةً أذْهَبَتْ روحه.

حينذاك شرع السلطان فى مفاوضة الإمبراطور بشأن ما يكون من الصلح بينهما فى المستقبل، وتكللت اقتراحاته بالنجاح، وتم عقد الاتفاق بينهما، وبهذا عاد السلام يرفرف من جديد على الولايات البحرية.

(٤)

لكن مصاعب ألكسيوس تجددت قبل أن يفرغ مما كان يشغل باله من أمور أخرى كانت لا تزال موضع اهتمامه وقبل أن يتخلص من جميع الآثار السيئة التى سببها "تزاخاس" الذى وإن كان غائبا عنها بشخصه إلاّ أنه لعب فيها دوره، وكان عاملاً من العوامل التى ترتب عليها أمور كثيرة، فما انقضى عامان شمسيان على القضاء على البشناق حتى قام "بولُكان" فعبر الحدود الإقليمية وعاث فسادا ونهبا فى المدن والنواحى المجاورة، وانطلق فبلغ "ليبينيوم" Lepinium وأضرم فيها النار.

كان "بولكان" هذا حاكما على "دلماتيا" وهو خطيب مفوه ومحارب شديد البأس، فلما قصَّ الناسُ على الإمبراطور خبر ما ارتكبه قرر ألكسيوس أن يؤدبه ويعاقبه فحشد جيشا ضخما وزحف به على الصرب متجها إلى "ليبينيوم" التى وإن كانت محطة صغيرة على الطريق إلاّ أنها كانت تمتاز بحصانتها ووقوعها عند سفح إقليم "زيجم" الفاصل بين دلماتيا وبلاد الروم. وعزم على أن يحارب ليتمكّن من ترميم "ليبينيوم" وغيرها من الأماكن التى أصابها الدمار ، كما عَزَم أنْ يُعيد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل.

على أن "بولكان" ما كاد يسمع بوصول الإمبراطور حتى مضى إلى "سفنتزانيوم"Sphentzanuim وهى قلعة صغيرة تقع إلى الشمال من "زيجم" فى الأراضى الموجودة بين دلماتيا وبلاد الروم.

ولما وصل ألكسيوس إلى "سكوبيا" جاءه سفراء "بولكان" يسعون في عقد الصلح بين الاثنين، كما أكد بولكان له على لسان سفرائه أن لا دخل له مطلقا فيما جرى من الأمور المستنكرة والأعمال الضارة، وألقى باللائمة في كل ما حدث على الولاة الروم وقال إن بقاءهم داخل حدوده أدّى إلى كثرة غاراتهم مما أضرّ بالصرب ضررا بليغا، ثم قال: "أما فيما يتعلق بي أنا شخصيا فأعِدُك ألاّ يحدث شيء من هذا القبيل مرة أخرى لأنني راحِل إلى بلدي، كما أنني مرسل إليك يا صاحب الجلالة أفرادا من عائلتي ليكونوا رهائن في يدك، ولن أخرج في المستقبل أبدا عن حدُود بلدي".

فقبل ألكسيوس هذا التفسير من جانب بولكان وعاد أدراجه إلى القسطنطينية بعد أن خلّف وراءه من يقومون بترميم المدن التي أصابها الدمار، وعهد إليهم بتسلّم الرهائن الذين لم يكن "بولكان" قد بعث بهم حتى الآن رغم الإلحاح عليه، فقد ظل يراوغ ويُسوِّف في إجابة هذا الطلب يوما بعد آخر. لكن عاد "بولكان" للإغارة على الأراضي الرومية بعد انقضاء اثني عشر شهرا، على الرغم من أنه تلقى العديد من الرسائل من الإمبراطور يذكره فيها بالاتفاق المبرم بينهما والعهود التي قطعها "بولكان" على نفسه، إلاّ أنه ظل سادرا في غلوائه مُصِراًّ على عدم الوفاء بالتزاماته، ومن ثم لم يجد الإمبراطور مناصا من استْدعاء "جون"[٢] ابن أخيه إلى حضرته وأنفذه على رأس جيش قوي ليتعامل مع هذا الرجل، ولم يكن لجون خبرة ولا دراية بالحرب، وكان شأنه شأن أمثاله الشباب الذين لا صبر لهم على مجابهة العدو.

على أية حال فقد عبر "جون" النهر الذي يجري إلى جوار "ليبينيوم" وضرب معسكره عند أسفل جبال "زيجم" في مواجهة "سفنتزانيوم"، ولم تَخْفَ تحركاته عن عين الخصم الذي عاد ثانية يستفسر عن شروط الصلح ويعد بتسليم الرهائن وإنه لن ينقض بعد اليوم سلما يبرمه مع الروم، أو يشجب صلحا يعقده معهم، بل سوف يحترم كل ما يكون بينه وبينهم من مواثيق وعهود ولا يحيد عنها. لكن الواقع هو أن هذا القول منه لم يكن أكثر من كلمات جوفاء وادعاءات باطلة، إذ راح يتسلح ليهاجمنا على غفلة منا.

بينما كان "بولكان" يعدّ عدته للزحف علينا ويرتب أموره لمهاجمتنا إذا براهب يسبقه ويحضر إلى "جون" [ابن إسحاق] ويحذره من المكيدة التي يدبرها له عدوّه وزاد

فأكد له أنّ خصمه قد أصبح على مقربة منه، فغضب "جون" من الراهب وطرده ورماه بالكذب والخداع والإيقاع لكن سرعان ما برهنت الأحداث على صدق هذا الراهب إذ اغتنم بولكان فرصة الظلام وفتك بالكثيرين من الجند وهم نيام فى خيامهم. أما الذين نجوا من القتل فقد شنّوا أعنف الهجمات على معسكر جون ولم يمكن إنقاذه إلا بعد لأىٍ وبعد قتال عنيف، فلما رأى بولكان هلاك معظم جيش الروم جمع رجاله وتسلقوا جبل "زيجم"، فلما صاروا على قمته ثبتوا أقدامهم فى "فنتزانيوم" وإذ ذاك نصح رجال "جون" مولاهم أن يعدّوا العدة لعبور النهر لقلة عددهم قلةً تعجزهم عن مقاتلة خصمهم، فنزل جون على نصيحتهم ونقل مقر قيادته وعسكره إلى"ليبينيوم" على بعد يقرب من اثنتى عشرة مَرحلة وأصبح من المستحيل أن يصمدوا أكثر مما صمدوا وبعد ما تكبدوه من الخسائر الفادحة، ومن ثم تابع زحفه وسلك الطريقَ المؤدى إلى العاصمة وحينذاك ازدادت جرأة خصمه على الخروج لنهب الريف والمدن المحيطة بالناحية المذكورة، وقد شجعه على ذلك ما رآه من أنه لم يبق ثم أحد يعترض سبيله بعد رحيل الروم، وراح يعيث فسادا فى نواحى "سكوبيا" ودمّرها عن آخرها وأحالها أنقاضا ثم أضرم النيران فى بعض منها، وكَأنَّ ذلك كله لم يشْفِ غليله فزحف حتى بلغ "بولوبوس"Palobos ثم جاوزها إلى "برانيا" مدمرا كل شىء فى طريقه واستولى على كميات هائلة من الغنائم والأسلاب ثم عاد بعد ذلك إلى دياره.

(٥)

أدرك الإمبراطور أن الوضع لم يعد محتملا ومن ثم جهز نفسه للحرب فى الحال وأعدّ تجريدة أخرى، ولاشك أنه لم يكن فى حاجة لمن يحثه على ما أقدَم عليه كحاجة الإسكندر المقدونى إلى "تيموتيوس" نافخ الناى حتى يثير حميته، بل استعد للحرب وهيأً جميع العسكر الذين فى المدينة وأسرع فزحف بهم سالكا أقصر الطرق المؤدية إلى "دلماتيا" مستهدفا ترميم القلاع المهدّمة واتخاذ الإجراءات الفعالة للقصاص من "بولكان" جزاء له على أفعاله الشريرة، ولذلك بدأ زحفه من العاصمة فوصل إلى مدينة "دافناتيوم" Daphantium القديمة التى تبعد مسافة أربعين مرحلة، وأقام بها فى

انتظار رجاله الذين لم يكونوا قد وصلوا حتى الآن، فلما كان اليوم التالى حضر ديوجين نقفور وقد فاضت نفسه غضبا وخيلاء، ولكنه رسم على وجهه ابتسامة الفرح فلقد ادّعى ذلك الثعلب الماكر أنه سلك سبيل الصراحة فى تعامله مع الإمبراطور، ثم ضرب مخيمه على مقربة من مخدع الإمبراطور خلافا للعرف الجارى بأن يكون بعيدا عنه بُعدا كبيرا، فلما أدرك مانويل فيلوكاليس Fhilokalis ما يرمى إليه الرجل من قصد سيئ إذ لم يكن هناك من هو أعرف منه بمخططات "ديوجين" فقد وقف كمن مسته صاعقة وانعقد لسانه فلم يستطع نُطقا، فلما أفاق من ذهوله لم يطق السكوت على ما يرى فأفضى إلى الإمبراطور بما كَشَفَ الغطاءَ عن الواقع قائلاً له: " يخيل إلىّ يا صاحب الجلالة أنّ مؤامرة تُدبّر لاغتيالك ليلاً، ومهما يكن الأمر فإنى سوف أتحدث إليه[٣] وأحمله على الانتقال بعيدا"[٤] .

غير أن ألكسيوس كان كدأبه رابط الجأش ثابت الجنان فلم يأذن لفيلوكاليس بالتدخل فيما يجرى، إلاّ أن ذلك لم يزد الأخير إلاّ إصرارا فقال له ألكسيوس: دَعْه فما ينبغى أن نقدم له ذريعة للعمل ضدى ولندعه حتى يكون هو وحده المسئول أمام الله والناس عن تدابيره. فلما سمع فيلوكاليس هذا الرد غادر الخيمة غاضبا يضرب كفا بكف ويعلن أنّ الإمبراطور قد أصابه مس من الغباء.

لكن لم تنقض إلا فترة قصيرة حتى تسلل ديوجين تحت جنح الظلام حين انتصف الليل وقد أخفى خنجره تحت إبطه ومضى فى سكون حتى صار أمام مدخل الخيمة التى ينام بها الإمبراطور والإمبراطورة. وكان من عادة الإمبراطور أنه إذا نام لم يغلق الأبواب ولم يسمح لأحد من الحرس بالوقوف خارجها لحراستها.

على هذه الصورة كان الوضع فى هذه اللحظة التى حالت فيها المشيئة الإلهية بين ديوجين وبَيْن إتمامه جريمته، ذلك أن الفتاة الصغيرة التى تُرَوِّح بمذبَّتها وتهش البعوض عنهما شاهدته فلما عرف أنها رأته اعترته رجفة "وتخاذلت أعضاؤه وكسا الشحوبُ وجنتيه" كما يقول الشاعر، فأرجأ الاغتيال [٥] إلى اليوم التالى.

لم يتوقف ديوجين عن متابعة تدبيره الآثم وإن لم يكن هناك ما يبرر إقدامه عليه، غير أنه ما كان لمؤامراته هذه أن تبقى سرا مجهولاً فلما طلع النهار مضت تلك الفتاة الصغيرة إلى الإمبراطور وقصت عليه ما شاهدته، فما كان منه إلا أن غادر المكان ومضى لما هو فيه من سفرٍ استغرق منه يومه كله، وتظاهر بأنه لا يدرى شيئا مما جرى، لكنه اتخذ الاحتياطات الكافية لضمان سلامته دون أن يتيح لديوجين سببا يتذرع به للتذمر والشكوى.

ولما بلغ الركب به ناحية "سيريس" Serres استضافه رفيقُ رحلته وهو وقسطنطين دوكاس البرفيروجينس ودعاه للنزول فى ضيعته الخاصة وكانت ضيعة تبهج النفس وتسر العين فماؤها عذب قراح وحجراتها رائعة روعة تليق باستقبال ضيف كريم كالإمبراطور وكانت تسمى "بنتوجيستس"Pentogastes، فرحب ألكسيوس بالدعوة وقبلها وأقام بالضيعة ما أقام حتى إذا أبدى رغبته فى الرحيل فى غده لم يستجب قسطنطين بل التمس منه البقاء حتى يستجم تماما وكان قد أعدّ له فى الواقع وليمة تليق به بذل فيها الكثير، فاستجاب له ألكسيوس ونزل على سؤاله.

كل ذلك ونقفور ديوجين- الذى يطمع فى السطوة والسلطان- يترقب فى اهتمام الفرصة التى تواتيه لاغتيال الإمبراطور بيده، فلمّا سمع باغتسال ألكسيوس ومغادرته الحمام أخذ خنجره ودخل الدار التى بها ألكسيوس وتظاهر بأنه عائد من الطراد والقنص، فرآه "تاتيكيوس" - وكان يَدْرى منذ بعيد بما يدبره- فدفعه فى صدره دفعة قوية ألقت به بعيدا وصاح فيه: "ما معنى هذا؟ ما الذى جاء بك إلى هنا بهذه الصورة المرذولة وأنت تحمل خنجرا؟ إن هذه ساعة الاغتسال وليست ساعة الرحيل أو الصيد أو الحرب".

لم يجد نقفور بدًا من الانسحاب وقد أفلتت فرصته فى تنفيذ مرماه، وأدرك أنّه أصبح الآن رجلاً تحوطه الريب فعزم على العمل على ما فيه نجاته بالهرب إما إلى "بيرنيكوس" Pernikes أو "بترتزس" Petritzes وهما من ضياع الإمبراطورة مارية فى "خريستوبوليس" حيث يستطيع هناك إصلاح حاله بقدر ما تسمح الظروف. وكانت

الإمبراطورة مارية تقف فى صفّه شخصيا لأنه شقيق زوجها الإمبراطور السابق "ميخائيل دوكاس" من ناحية الأمّ.

فلما كان اليوم الثالث غادر ألكسيوس بنيتوجستس Pentogostis ولم يستصحب معه قسطنطين [دوكاس]، وكان الإمبراطور مشغول البال بالوضع الدقيق لهذا الشخص الذى لم يألف الحملات الحربية والذى كانت هذه السفرة أول سفرة له إلى الخارج. إلى جانب أنه كان وحيدَ أمه وأثيرا فى الوقت ذاته إلى نفس الإمبراطور الذى أذن له بالبقاء مع والدته ما شاء أن يَبقى.

وخلاصة القول إن الإمبراطور كان كبير الحب له كثير العطف والإيثار له كما لو كان ولده ومن صلبه.

(٦)

ولكى أتجنب بلبلة الذهن عند هذه النقطة من تاريخى هذا فإنى أُورد نبذة من حياة نقفور ديوجين منذ بدايتها. ولقد أفاض العديد من المؤرخين[٦] فى كيفية ارتقاء أبيه رومانوس العرش الإمبراطورى كما أفاضوا فى ذكر صورة سقوطه. وسيجد القارئ فى كتب هؤلاء المؤرخين تفصيلاً لكل ما يريد الإلمام به عنه.

حين مات رومانوس ديوجين كان ليو ونقفور لا يزالان طفلين، ووجدهما ألكسيوس فى مستهل حكمه قد نزلا إلى مرتبة المواطنين العاديين إذ منعهما ميخائيل- حين ارتقى العرش - من لبس الصنادل الحمراء، ونزع عنهما العصابتين، ونفاهما مع أمهما الإمبراطورة يودوكيا Eudocia إلى دير "كيبردوس" Cyperdoues فلما جاء ألكسيوس رأى أنَّ الواجب يقتضيه أن يمنحهما تلك الامتيازات التى كانا يتمتعان بها شفقة عليهما مما يقاسيانه كما، شدَّهُ إليهما ما كانا عليه من الوجاهة والقوة النَّادرتين، ولما صارا على عتبة الرجولة أصبحا طويلين متناسقى التقاطيع وكان منظرهما يوحى إلى كل ذى بصيرة نَفَّاذةٍ بما هما عليه من روح متوثبة وشجاعة كاملة حتى لكأنهما شبلا أسد.

فإذا خلينا تلك الصفات جانبا فإن ألكسيوس لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يحكمون على الشخص اعتمادا على مظهره ولا ممن يتعامون عن رؤية الحق ويترك نفسه تلعب بها الأهواء التافهة، ولكنه كان واحدا من هؤلاء الرجال الذين يعملون بما تمليه عليهم ضمائرهم؛ ولذلك وضع في اعتباره ما انحدر إليه الشابان من حطّة المركز فعاملهما كما لو كانا ولديه، وما من مرة جاء فيها اسماهما أمامه إلا وذكرهما بالخير، ومن ثم كان يعمل على ما فيه صلاح شأنهما وتأمين مستقبلهما رغم الحسد الذى كان فى قلبيهما نحوه.

والواقع أن كثيرا من الناس حاولوا إثارة حفيظته على الشابين وإيغار صدره عليهما فلم يزده ما يقولونه إلا إصرارا على التماس كل الطرق لمدّ يده بالعون إليهما، فما كان يلقاهما أبدا إلاّ هاشا باشا، مظهرا إعجابه بما يفعلان ولا يكفّ عنْ أن يسدى إليهما من النصح ما فيه صلاحهما وخيرهما، ولو كان[٧] أحد ما غيره فى موضعه لما نظر إليهما إلا بعين الريبة وعمل على حرمانهما من أية قوة حرمانا تاما، ولكنه دأب على دفع كل ما يرميهما به الناس بسبب ما كان ينطوى عليه قلبه من حب عميق لهما ولأمهما "يودوكيا" التى كان يراها أهلاً لكل شرف ونعمة، فعين نقفور حاكما على جزيرة قبرص وأباح له التصرف فيها كيفما شاء كما لو كانت الجزيرة ملكا خاصا له.

أما فيما يتعلق بليو فقد كان شخصا طيب القلب، نزاعا للخير، مقدرا كل ما يحبوه به الإمبراطور ويأخيه من الحدب الكريم، كما كان راضيا بما قسمه له القدر، سعيدا بما هو فيه عاملاً بالمثل القديم القائل "أما وقد أصبَحتْ إسبرطة من نصيبك فاعمل على رفع شئوها".

أما أخوه نقفور فكان على العكس منه، جاف الطبع ومن ثَم لم يكفّ قط عن أن يرسم فى الخفاء ما يلحق الضرر بالإمبراطور، ولم يرجع عن تدبير المؤامرات بهدف الاستحواذ على مقاليد السلطة، وكان شَرِها فى هذا المسعى شراهة لا تعرف حداً وليس لها انقطاع، هذا مع قدرته وبراعته فى كتم سره. فلما رأى الوقت قد جاء للتصريح به أفضى إلى شرذمة قليلة من رفاقه بما يخفيه فى صدره.

لكن علم بالمؤامرة كثيرون غيرهم فنقلها بعضهم إلى الإمبراطور الذى كان رده عليها جديدا فى نهجه إذ استدعى الأخوين إليه وأسهب فى الحديث إليهما ولم يمسك

عن إسداء النصح الخالص لهما. وكان كلما ازداد علما بأخبار المؤامرات زادت معاملته لهما حُسنا، وكان يطمع من وراء هذا السلوك ومن هذا الأسلوب فى التعامل معهما أن ينجح هو ذاته فى كسبهما إلى جانبه وإخلاصهما له، ولكن هيهات للأثيوبى أن يصير أبيض البشرة[٨].

وعلم بخبر مؤامرة نقفور جميع من شاءت المقادير أن يتّصلوا به ومن ضمهم إليه بعد أن بذل لهم العهود وبعد أن اطمأن باله من ناحية العسكر وضَمِن وقوفهم إلى جانبه وتأييدهم له. كما راح يسعى السعى الحثيث لاجتذاب رجال من الطبقة العليا الأرستقراطية وكبار الضباط وأعضاء من السينيت البارزين. وكان له ذهن وقاد أحدُّ من السيف البتار، ولم يعد يشغله إلاّ أمر واحد وأعنى به ما يمكِّنه من أخذ السلطة.

وكان نقفور إلى جانب ذلك محدِّثا لبقا، لطيف المعشر فى حياته الاجتماعية، يخدع الناس بما يطالعهم به من التواضع وبما يُسمعهم من كلماته المعسولة، وإن لم يمنعه ذلك من التنمر لهم فى أحيان كثيرة تنمر الوحش الضارى.

كان نقفور من ناحية أخرى رجلاً قوى البنية إذا صارع المَرَدة صرعهم، كما كان عريض الكتفين، أشقر الشعر، سبط الجسم، طويل القامة طولاً يجاوز قامة أى شخص فى عمره، وكان الذين يرونه وهو يلعب الكرة على ظهر الخيل أو يرمى القوس، أو يقذف الرمح تتملكهم الدهشة منه فيقفون مشدوهين فاغرين أفواههم وقد تسمّرت أقدامهم حيث هم حتى لكأنهم يرون جِنِّيا، وكان هذا الأمر - أكثر من غيره- هو السبب فى أنه نال تأييد الناس وكسب عطفهم عليه حتى لقد استطاع أن يخدع زوج الإمبراطورة المدعو ميخائيل تارانيتس Taranites الذى تشرف بأن ينعت بالأمير العظيم المبجل Panhypersebastes.

(٧)

أما وقد بلغتُ هذه النقطة فالواجب يحتم علىَّ أن أقول إنه لما اكتشف الإمبراطور خبر مؤامرة ديوجين راح يراجع الموقف برمّته مراجعة دقيقة، ويستعيد فى ذهنه معاملته للأخوين منذ مستهل حكمه وما أسبغه عليهما من الرعاية التى أظلهما بها على مدى السنوات الماضية الطويلة.

فلما رأى أن كل ما فعله لم يؤت الثمرة المرجوة من هذه المعاملة الطيبة أحسّ بالأسى والإزعاج يغمر نفسه، وبلغ السيل الزبى وأحزنه ما كان من نقفور بعد أن انكشفت مؤامرته الثانية هذه، وكان انكشافها على يد "تاتيكيوس" إذ لم يكف عن شحذ أسلحته لقتله وعدم اكتراثه بتلطيخ يديه بالدم البرىء، وأنه مازال يسعى إلى المزيد من ذلك، وما كان من ترقبه الفرصة تواتيه تحت جنح الظلام ليرتكب جريمته، وها هو ذا الآن يتابعها جهرا وعلانية.

وعلى الرغم من أن هذه الخواطر المختلفة الجمّة أزعجت الإمبراطور كثيرا إلا أنها لم تحمله على معاقبته أو تدفعه للقصاص منه؛ وذلك بسبب حبه الشديد له، وعطفِه البالغ عليه. غير أنه فزع حين أخذ يفكر فى الأمر مليا وأدرك مدى ما يمكن أن ينجم عنه من الشر الجسيم والخطر الفادح الذى يهدد حياته، فلما استعرض كل ذلك فى ذهنه قرر إلقاء القبض على نقفور الذى دبر خطة للهرب والسفر إلى "خرستوبوليس" متسربلاً بظلام الليل، وبعث من أجل ذلك رسولاً من قبله إلى "البروفيروجينتس قسطنطين" يلتمس منه أن يعيره جواده السريع الذى كان الإمبراطور قد أهداه إليه فرَفض قسطنطين إجابته إلى ما طلبه قائلاً إنه لا يستطيع التخلى عن هدية غالية كهذه الهدية لأحد ما، وكان قد تسلمه من الإمبراطور فى يومه. ولما طلع الصباح بدأ ألكسيوس الرحلة التى أزمعها، وسار خلفه "ديوجين" ومن معه، وما كانتْ مُصَاحبته إيَّاه إلاَّ بتدبير من الرب الذى يجعل الفشل خاتمة المُفسدين الضالين، إذ ظلّ هذا الرجل "ديوجين "يدبّر فى ذهنه خطة الهروب لكنه راح يؤجلها من ساعة إلى أخرى حتى كانت ليلة الاحتفال بذكرى الشهيد العظيم "تيودور" إذْ بعث ألكسيوس فى طلب شقيقه الدوميستيك الكبير "أدريان" وأفضى إليه بكل الحقائق المتعلقة بديوجين ولم يكن أدريان يجهلها بل كان عالما بها وحدّثه عن تطفله بدخوله البيت مسلحا ولكنه رُدّ عند الباب، وأخبره أنه ظل مصرا على اقتراف الجُرم الذى يخطط له منذ بعيد، ثم ألقى الأمر بتعليماته إلى أخيه أدريان أن يدعو ديوجين إلى خيمته الخاصة ويغريه بمعسول الكلام ويعده بشتى العهود ليميط اللثام عن كامل مؤامراته، وأن يؤمنه بالعفو إن هو كشف النقاب عن كل شىء بما فى ذلك أسماء شركائه فى المؤامرة، وعلى الرغم من أن

أدريان كان يائسا من تحقيق ما كلفه به الإمبراطور فإنه نفذ ما أمر به، ولم يحجم عن تهديد ديوجين ليحمله على الاعتراف فلم يُجد التهديد نفعا. ثم راح أدريان يقطع له العهود فما رضخ ولا لانت قناته، ثم أسدى أدريان إليه النصيحة فما أصاخ لها ولم يكشف عن أيةِ خطة من خططه، وإذ ذاك اشتد الغضب بالدوميستيك وانزعج خاطره لما هو معرض له من الخطر.

ولما كان أدريان هو الذى اختاره من قبل زوجا لصغرى أخواته فقد ظن أدريان أن هذا الأمر قد يعطفه فتوسل إليه حتى ذرف الدمع بين يديه تذللاً، لكن ذهب كل ذلك أدراج الرياح ثم ذكّرهَ بيوم كان فيه الإمبراطور يلعب الكرة فى ساحة مدرسة الفروسية بالقصر الكبير حين دنا منه متبربر جمع بين الأصلين التركى والأرمنى وقد أخفى خنجرا فى طيات ثيابه فلما رأى المتبربر الإمبراطور قد أصبح بمفرده واللاعبين بعيدين عنه تقدّم منه وهو على هيئة سائل مستجد فأوقف الإمبراطور فى الحال جواده واستدار إليه مستفسرا عن حاجته فدس ذلك السفاك الأثيم (وهو النعت الصحيح له) يده تحت إبطه وأمسك بقبضة خنجره محاولاً أن يستله من قرابه فلم يفلح فكرر المحاولة أكثر من مرة فلم يوفق، وحينذاك طرح نفسه على الأرض فى يأس أمام الإمبراطور الذى كان على ظهر جواده واسترحمه ، فسأله الإمبراطور عما يدعوه لطلب الرحمة والمغفرة وإذ ذاك أراه المتبربر الخنجر وهو لايزال فى جرابه ثم راح يضرب صدره بكفه ويصيح بصوت عال : " الآن فقط عرفت أنك عبد صالح مخلص للرب، وهأنذا قد رأيتُ الله القدير يرعاك ويُكرمك لأننى كنت قد أعددت سلاحى هذا لاغتيالك فلم ينجح، وقد جئت من بلدى البعيد لأغمده فى قلبك ومضيتُ أجذبه مرة بعد مرة فيأبى أن يغادر غمده". فلم يكن من الإمبراطور إلاّ أن وقف ساكتا لا ينطق ببنت شفة دون أن يبدو عليه أثر الخوف كأنه لم يسمع شيئا غريبا، وإنْ كان الكثيرون قد عجّلوا بالقدوم إليه فلما سمعوا ما قاله الرجل فزعوا، كما حاول أخلص رجال ألكسيوس الفتك بالمتسول المتبربر وهمّوا بتمزيقه لولا أن حال ألكسيوس بينهم وبين ما أرادوه: تارة بالإيماءة وتارة بالإشارة وثالثة بالنهى الصريح، ثم عفا الإمبراطور عن ذلك السفاح، ولم يكتف بذلك بل زاد فوصله بشىء من المال ثم مَنَّ عليه بالحرية. فتعجَّب الكثيرون ممن كانوا معه، ثم ألحّوا عليه أن ينفيه من العاصمة فلم يجبهم إلى ما سألوه، لكن

كان جوابه عليهم :"لئن لم يكن الرب حارسا لى فلا جدوى من الحراس مهما بلغوا من اليقظة. وعلينا أن نصلى للرب ونسأله أن يكتب لنا السلامة وأن يَكْلأنا بعنايته".

ولقد تهامس البعض فقالوا مؤكدين أن محاولة الاعتداء هذه على حياته قد تمت بتدبير "ديوجين" ولكن الإمبراطور رفض رفضا باتا أن يلقى أذنا إلى ما يقولون بل لقد اشتد غضبه مما قالوه، وبلغ من تسامحه مع ديوجين أن تظاهر بالجهل.

ونعود إلى الدوميستيك الكبير فنقول إنه لم يقصر فى تذكير ديوجين بكل هذا لكن ذلك لم يؤت ثمرته المرجوة، ومن ثم ركب إلى ألكسيوس وأخبره بعناد الرجل ومكابرته وقال له: "لقد توسلت إليه مرارا عسى أن يتكلم ولكنه أصرَّ على الإمساك وصمم على ألاّ يقول شيئا رغم كثرة المحاولات التى بذلتها معه لحمله على الكلام".

(٨)

ثم بعث الإمبراطور فى طلب " موزاكس" Moezaces وأمره أن يمضى فى نفر من المسلحين لإحضار "ديوجين" من خيمة الدوميستيك الكبير والقدوم به إلى خيمته والتحفظ عليه، على ألاّ يُقَيَّد بالسلاسل وألاّ يُسىء أحد معاملته بأية صورة من الصور، فأطاع "موزاكس" الأمر دون تلكؤ وأمضى ليلته بطولها مع ديوجين يسأله مصارحته بما كان منه ويحذره مغبة إصراره على عدم الإجابة، فما أجدى التوسل ولا أفاد التحذير بل ذهبت كل محاولاته أدراج الرياح.

ثم كان هناك ما هو أسوأ من ذلك ألاّ وهو ما لمسه "موزاكس" من سلوك عُدْوانى أغضبه غضبةً حملته على أن يتجاوز تعليمات الإمبراطور فرأى أن هذا الوضع يملى عليه أنْ يشْتَدّ فى تعذيبه تعذيبا لم يكد يبدأ أول خطوة منه حتى عجز ديوجين عن الاستمرار فيما هو آخذ نفسه به من الإمساك عن التصريح بشىء، فانطلق يُفضى بكل شىء بالتفصيل وحينذاك أطلق سراحه واستدعى"موزاكس" إليه أحد الكتاب فجاء بالقلم فى يده واعترف ديوجين بكل شىء وبمحاولته اغتيال الإمبراطور، فلما كان الصباح جمع "موزاكس" الأوراق التى تضمنت اعترافاته وكذلك الأوراق التى عثروا

عليها أثناء قيامهم بتفتيشه وتفتيش داره فكان من بينها رسائل موجهة إليه من رجال معروفين، كما دلت بوضوح على أن الإمبراطورة مارية كانت على علم بأطراف المؤامرة ولكنها رفضت رفضا باتا فكرة اغتيال الإمبراطور، واتضح أنها بذلت كل الجهد لتقصى ديوجين عن الجريمة، بل لقد حاولت منعه من التفكير فيها.

وحمل "موزاكس" كل هذه الأوراق إلى الإمبراطور فطالعها على انفراد فعرف منها أسماء كثير من المتآمرين وكلهم من عِلْيَة القوم وأصحاب الوظائف السامية، وحينذاك أحس بالضّياع ولم يعد يدرى ما يفعل.

لم يكن ديوجين يلقى بالاً إلى عامة الناس؛ لأنهم كانوا يعدّونه منذ أمدٍ طويل المقدم بينهم وينظرون إليه بعيون ملؤها الإعجاب به، ولكنه كان حريصا على استرضاء قادة الجيش وكبار المدنيين.

قرر الإمبراطور إبقاء كل شيء يشير إلى الإمبراطورة مارية طى الكتمان. وعلى الرغم من أنه أخذ يحقق فى كل ما جرى وما وقف عليه إلا أنه تظاهر بأنه لا يعرف شيئا لثقته فيها وللرابطة التى كانت تربطه بها حتى قبل اعتلائه العرش، وشاعت شائعة تقول إنّ ولدها قسطنطين برفيجرونيوس أفضى بخبر المؤامرة إلى ألكسيوس وإنْ كان هذا القول بعيدا عن الصحة لأن الحقائق المتعلقة بهذه المخططات اعترف بها المتآمرون أنفسهم.

ولما أدين ديوجين قيدوه بالسلاسل ونفوه.

أما رءوس الفتنة الذين لم يكن قد تم إلقاء القبض عليهم حتى الآن فقد أدركوا أنهم قد أصبحوا موضع الريبة والشك فاضطربوا أشد الاضطراب وتملكهم الخوف ذعرا مما سوف تكون عليه الخطوة التالية. ولاحظ أحد أصدقاء الإمبراطور ما أصبح عليه هؤلاء من بلبلة الخاطر إدراكا منهم لمدى الخطر الجسيم المحيق بهم، كما تملكه هو ذاته الاضطراب الشديد حين راح يستعرض فى ذهنه ما كان من محاولات ديوجين المتكررة لاغتياله بيده، وهكذا كان هناك الشيء الكثير الذى يزعج خاطره ولذلك كان يغير خططه بين آونة وأخرى لإدراكه كيف أغوى ديوجين المدنيين والعسكريين

بآرائه المضلة الفاسدة، كما أنه كان يشعر أيضًا أن ما تحت يده من القوات غير كاف لحراسة العدد الضخم من السجناء. أضف إلى ذلك أنه كان لا يميل إلى زيادة عدد القتلى زيادة كبرى، لذلك انتهى تفكيره إلى نفى عدد غير قليل كان بينهم كبيرا المتآمرين وهما ديوجين وكاتاكالون كيكامينوس Gecamenws إلى "قيصرية بولس"، ليظلا مصفّدين بها ولم يوقع عليهما فى لحظته عقابا أكبر مما جرى بهما رغم أن هناك العديد ممن نصحوه بنفيهما فلم يسمع إليهم لحبه الشديد لديوجين، فقد كان يرجو صلاح حاله وتقويم ما اعوج من أمره.

كذلك بعث إلى المنفى بمخائيل تارنتس زوج أخته وصادر أملاكه وأملاك من اتهموا معه، أما من سوى من ذكرنا فقد رأى الإمبراطور أن الطريق السليم هو ألا يتعقبهم، بل عليه استمالة قلوبهم بإسباغ رحمته عليهم. فلما جاء المساء سمع كل واحد من المنفيين بالمكان الذى تقررت إقامته فيه، كما أنّه سمح لديوجين بالتوجه إلى "قيصرية بولس"، وصدرت الأوامر إلى البقية منهم بألا يغادر أحد منهم الناحية التى تقرر نفيه إليها فظلوا مقيمين حيث فُرِضَت عليهم الإقامة.

(٩)

قرر الإمبراطور فى غمرة هذه الأزمة السيئة عقد اجتماع عام فى اليوم التالى يبسط فيه خطته، وحضر هذا الاجتماع كلّ أقاربه ومن تربطه بهم وشيجة الدم أو المصاهرة، وكانوا جميعا من الصادقين المخلصين له، كما حضره جميع حشم الأسرة وكلهم من الرجال الأقوياء القادرين على سرعة البت فى الأمور وحسن تصريفها، مع تدبُّر عواقبها والوصول فى أقصر وقت إلى أحسن الخواتيم. وكان الخوف أنْ يهمّ رجال - ممن يحضرون اجتماع اليوم التالى الذى حُشد له الناس- بمهاجمة الإمبراطور وإيذائه وهو جالس على كرسى عرشه، ولم يكن هناك سبيل لتجنّب ذلك الأمر إلاّ بالقضاء على هؤلاء المتآمرين الذين تعلقت آمالهم بديوجين فأذاعوا القول أنْ قد سُملتْ عيناه على غير علم من أحد، ثم بعثوا سرا فى جميع النواحى من يفشون هذا الخبر، ولم يكن ألكسيوس قد فكّر فى مثل هذا الأمر ولكن سرعان ما انتشر هذا

الزعم الذى نجح فى تحقيق الغرض المقصود منه، كما سيقف قارئى على ذلك الأمر بعد قليل فى كتابى هذا .

ما كادت الشمس تطل من خدرها فى اليوم التالى وتنير الأفق حتى كان جميع رجال الحاشية الإمبراطورية - الذين لم تطلهم خيانة ديوجين بلْ صاروا حرسا خاصا له - قد ساروا إلى فسطاطه، وكان بعضهم شاهرى السيوف. أما البعض الآخر فكانوا إمّا بين حاملين رماحهم أو فئوسهم الحديدية، وأحاطوا به على شكل هلال وهم يتفجرون سخطا، وحملوا أرواحهم على أكفهم، كما وقف على جانبى العرش أقارب الإمبراطور والمرتبطون به وتجمع عن يمينهم وشمالهم حاملو الأسلحة، وكان ألكسيوس على كرسيه رائعا كل الروعة فى لباسه العسكرى. ولما لم يكن فارعَ الطول فإنه لم يجاوز رءوس الباقين، لكن المنظر كان بالغ الروعة فقد كان الذهب يرصع عرشه ويعلو هامته وهو مقطب الجبين، وقد صبغت الحمرةُ خديه وأفصحت نظراته عند مدى ثقل الهموم التى تراكمتْ عليه والتى كانت تشغل باله.

ومضى الجميع إلى فسطاطه وهم فى حال من الذعر وقد أوشك بعضهم على الانهيار من جراء الفزع الذى بثه توقعهم حدوث شر ما، كما ساور الشكُّ آخرين فوقفوا صامتين كأن على رءوسهم الطير، وكانت عيونهم متعلقة بالضابط المنوط به حراسة باب الفسطاط وهو الرجل الجادّ "تاتيكيوس" الذى أشار إليه الإمبراطور بطرف عينيه فأذن للقوم بالدخول فدخلوا فى وجل وفى خطوات بطيئة وعيون منكسرة، فلما تكاملت صفوفهم ظَهَر عليهم الذعر إذ خاف كل منهم أن تكون منيته قد دنت، وساعته الأخيرة قد حلّت، كما أنّ الإمبراطور نفسه لم يكن ثابت الجنان (وأنا أتكلم عنه كإنسان قد وَكلَ أمره إلى الرب) إذْ تخوّف أن يكون فى هذا الحشد واحد قد دبر ارتكاب جريمة شنعاء أخرى ليست فى الحسبان، لكنه ما لبث أن استرد رباطة جأشه وعاوده ثباته واستعد للنضال فشرع فى التهجم عليهم بكلمات حادّة، فاعتصموا بالصمت حتى لكأنهم السمك لا يسمع له نفَس، أو كأنّ ألسنتهم قد قُطعت، ثم قال لهم :" تعرفون أن ديوجين لم يصبه قط أىّ أذى من ناحيتى، ولم أكن أبدا سببا فى إنزال أية مضرة به، وزيادة على ذلك فلم أكن أنا بالذى خلعتُ أباه من حكم هذه الإمبراطورية بل فعل ذلك غيرى، وزيادةً على ذلك فإنّنى لما صرت بمشيئة الرب وحده حاكم هذه الإمبراطورية لم أكْتَفِ بأن أسبغ حمايتى عليه وعلى أخيه بل آثرتهما

بحبى، وعاملتهما كما لو كانا ابنين لى من صلبى، وما من مرة ألقيت القبض فيها على نقفور بتُهمة التآمر ضدّى إلاّ غفرت له ذنبه وعفوت عنه وأغضيتُ عن جرائره، إدراكا منّى لما سيؤدى إليه الحقد والبغضاء. ومع ذلك فلم يُفلِح إحسانى إليه فى حَمله على نفض يده من الخيانة، بل قرر أن يجازينى بالسوء على إحسانى إليه والعمل على ما فيه هلاك روحى".

ما كاد القوم يسمعون هذه الكلمات تنفرج عنها شفتا الإمبراطور حتى صاحوا جميعا فى صوت واحد إنهم لا يحبّون أن يروا على العرش الإمبراطورى أحدا سوى ألكسيوس، ولم يكونوا جميعا أو كلهم يعنون ما قالوا، ولكن ألكسيوس اغتنم تلك الفرصة وأمنهم جميعا من خوف مكتفيا بأن حكم على رءوس الفتنة بالنفى. وإذ ذاك حدث هرج ولغط عظيمان لم يسمع بمثلهما من قبل أحد ممن كانوا حاضرين فى هذه اللحظة، ولقد أثنى بعضهم على الإمبراطور وأخَذَهم التعجب من بالغ رحمته، على حين ذهب آخرون إلى تقبيح عمل المنفيين واستهجان سلوكهم وأصروا على وجوب محاكمتهم والحكم عليهم بالموت.

هذا هو سلوك البشر فهم اليوم يحبون الواحد من الناس حبًا جمًا ويمجدونه ويعاملونه بالاحترام لكن ما يكاد الحظ يدير له ظهره حتى يسلكوا الطريق المغاير لطريقهم السابق دونما خجل.

لكن الإمبراطور أسكتهم بإشارة من يده وعاد يقول لهم: " ليس ثم داع للجلبة والصياح ، ولعلكم تريدون معرفة ما اعتزمت اتخاذه ، فأقول لكم إنّه فيما يتعلق بى أنا شخصيا فقد قررت الصفح العام وسأظل فى معاملتى لكم على النهج السالف لا أحيد عنه قيد شعرة" .

وبينما هو يعدهم بهذا الصفح إذا بنفر قد اتخذوا قرارا شنيعا ذلك أنهم أرسلوا رهطا من الرجال دون علم الإمبراطور، فسملوا عينى "ديوجين" وفعلوا مثل هذا الفعل مع "كيكامينوس" الذى كان ضالعا مع ديوجين فى جرمه ويشاطره تدبير المؤامرة.

وقد تم ذلك يوم عيد تمجيد الرسولين العظيمين بطرس وبولس وهو التاسع والعشرون من يونيو عام ١٠٩٤م.

ولقد ظلت هذه الأحداث موضع جدال منذ ذلك الحين وإن بقى ما أزمعوه من سمل عينى ديوجين وصاحبه سرا حتى يقال إنه وافقهم على ما نفذوه. أما من ناحيتى أنا فلم أستطع بأى حال من الأحوال -حتى اليوم - أن أتبين الحقيقة على وجه اليقين.

(١٠)

هذه هى صورة المتاعب التى واجهت الإمبراطور بسبب ديوجين ، غير أن يد الرب التى هى فوق كل يد والتى لا يغلبها غالب أنقذته من الخطر المحدق به إنقاذا لم يكن أحد يتوقعه بحال من الأحوال. ولقد ظل هو رابط الجأش، ثابت الجنان رغم كل هذه الأحداث ومن ثم سار مباشرة إلى "دلماسيا"، ولم يكد "بولكان" يعلم بوصوله إلى "ليبينيوم" ويراه بعينى رأسه يمارس ما جاء من أجله حتى بادر بإرسال الرسل إليه يعرض عليه الصلح ويعلن فى الوقت ذاته استعداده لتسليمه الرهائن التى سبق أن اتفقا عليها من قبل، ويقطع العهد على نفسه ألا يعمد بعدئذ إلى ما فيه إشعال نار العداوة، وذلك بسبب أنه كان من الصعب عليه أن يتحمل رؤية الجيش الرومى بتنظيماته التى اشتهر بها وبتجهيزاته الحربية،فلما قدَّم "بولكان" عَرْضه قبله الإمبراطور راضى النفس؛ لأنه كان قد سئم القتال وملت نفسه الحروب الداخلية.

كان الرسل الذين حملوا إليه هذه العروض دلماتيين ولكنهم من أتباع الملة المسيحية، وسرعان ما جاء فى أثرهم سيدهم "بولكان" الذى لم يتردد فى المثول بين يدى الإمبراطور مستصحبا معه ذوى قرباه وكبار الرجال البارزين "والزوبان" الأعظم . أما الرهائن فكان منهم "أوريسيس" واستفان وطائفة غيرهما لتمام عشرين نفسا وسلمهم إليه. والواقع أنه لم يكن فى استطاعته اتخاذ إجراءات غير هذه فى لحظته الحالية، وهكذا أنجز ألكسيوس بالوسائل السلمية كل ما قد كان يمكن أن يحققه عادة بالحرب. فلما فرغ من ذلك عاد أدراجه إلى عاصمته القسطنطينية.

لكن على الرغم من كل ما جرى فإنه كان مهتما اهتماما كبيرا بديوجين، وكثيرا ما شوهد الإمبراطور يذرف الدمع السخين عليه مصحوبا بزفراته وتأوهاته على

ما لحقه من الضرر ولم يكن يكتم ما تنطوى عليه نفسه من عطف عليه عطفا يملأ جوانحه ، كما أن اهتمامه بتخفيف آلامه حمله على أن يعيد إليه معظم أملاكه المصادرة.

أما ديوجين نفسه الذى لم يكن يقر له قرار وكان قلبه يفيض بالحزن فقد أصبح عازفا عن السكن فى المدينة الكبيرة، لكنه وجد السلوى فى الإقامة بمزارعه، صارفا كل نشاطه إلى دراسة الأدب القديم الذى يتلوه آخرون على مسامعه ، وهكذا فإنه لما حرم نعمة البصر استعان بعيون الآخرين تقرأ له ما يريد.

والحق أنه كان رجلا جبارا فى كفاءته إذ إنه كان يستوعب -رغم عماه- فى يسر وسهولة ما قد يصعب على بعض المبصرين استيعابه، حتى لقد انتهى الأمر به أخيرا إلى الإلمام بجميع فروع المعرفة، بل إنه درس الهندسة وكان ذلك حدثا لم يسبقه أحد إليه وتم له ذلك الأمر على يد فيلسوف كان قد لقيه من قبل فاستقدمه إليه فراح يكتب له بحروف بارزة يلمسها "ديوجين"بأطراف أنامله فيعرفها وبذلك نافس "ديديمس"واستطاع رغم ضياع بصره وبفضل ذكائه الخارق أن يصل إلى أعلى الدرجات فى فن الهندسة والموسيقى وإن كان سوء حظه أسقط - بعد ذلك - الإنجاز الرائع فى هوة الهرطقة الوضيعة فطمس الغرور ملكاته المتقدة. وإن كل من يسمع بأخبار ديوجين هذه ليأخذه العجب ولكنى رأيت الرجل وشاهدت كل ذلك بنفسى وسمعته يتكلم فى هذه العلوم التى كنت ملمة بها بعض الشىء . ورأيت فى ديوجين فهما دقيقا وإلماما عظيما بها.

وعلى الرغم من معرفته الدقيقة بها وانكبابه على الدراسات الأدبية فإنه لم يتخلص من عيبه القديم فقد ظل محافظا على التوافه بغية إحرازه القوة ورغبته فى السلطان وقد أفضى بهذا إلى أفراد معينين فذهب أحدهم إلى ألكسيوس وأخبره بما يدبره ديوجين من الخطط فاستقدمه إليه فلما صار بين يديه سأله ما خبر مؤامراته الجديدة ومن يكون رفاقه فاعترف فى الحال بكل شىء اعترافا صريحا مفصلاً ، فلم يكن من الإمبراطور إلا أن سامحه فى لحظته.

الحواشى

(١) فيما يتعلق بهذه السفن الواردة أسماؤها فى المتن راجع النخيلى : معجم السفن الإسلامية ، ص ٤٦ أ ، ٤٦ ب ، ١٤٠ أ ، ١٤٣ أ ,والمراجع العربية التى ورد فيها شرح لهذه المراكب.

(٢) المقصود بذلك الدوق جون بن إسحاق والى دورازو .

(٣) أى إلى نقفور ديوجين .

(٤) أى بعيدا عن الناحية التى ينام فيها الإمبراطور.

(٥) لم تحدد نسخة إليزابيث اليوم الذى ارتآه ديوجين لتنفيذ مؤامرته إذ جاء فيها: " لقد أرجأ ديوجين الاغتيال إلى يوم آخر ".

(٦) أشار سوتير إلى ما جاء فى كتاب ميخائيل باسيليوس بأنه من أشدّ الكتابات وضوحا.

(٧) جاءت ترجمة هذه العبارة فى إليزابيث على الصورة التالية: " وربما لو كان غيره مكانه لجعلهما موضع شكه وريبته وابذل غاية جهده لطردهما من مملكته بوسيلة أو بأخرى ".

(٨) إشارة الى إرميا : ١٣ / ٢٣ حيث يقول: " هل يغير الكوشى جلده أو النمر رقطه ".

الكتاب العاشر

هرطقة جديدة، وحرب الكومان، والحرب الصليبية الأولى (١٠٩٤ - ١٠٩٧م)

فقرات الكتاب العاشر

١- نيلّوس الزنديق وصدور قرار الحرمان ضده ولعنة تعاليمه.

٢- ديوجين الدعيّ وخبر انضمامه إلى الكومان. ظاهرة ربانية. العزم على قتال الكومان.

٣ - الارتداد إلى "أدرنة".

٤ - القبض على "ديوجين" وسمل عينيه. شجاعة ألكسيوس.

٥ - معاودة الترك السلاجقة اكتساح "بيثينيا". ألكسيوس يتطلع إلى نيقوميديا. شجاعته. بطرس الناسك يبدأ خروجه الصليبي. هجوم الجراد قبل مقدم الكلت.

٦ - مقدم "هيج" في أعقاب بطرس. فظائع النرمان خارج نيقية.

٧ - "هيج" فيرماندوا وكبرياؤه.

٨ - وصول بوهيموند وغيره من النرمنديين. وقوع معركة بحرية تكشف الغطاء عن براعة "ماريانوس" القسيس المحارب.

٩- وصول جودفروى إلى القسطنطينية. الشائعات الكاذبة. الإمبراطور يرفض القتال يوم الخميس الطاهر حين يتقدم الفرنجة نحو المدينة. هيج يحمل جودفروى على قطع يمين الولاء.

١٠- توالي وصول المزيد من الفرنجة. يمين التبعية.

١١- اللقاء بين "بوهيموند" وألكسيوس. طيب المعاملة. ميل ألكسيوس إلى الصنجيلي. سير الفرنجة إلى آسيا الصغرى.

(١)

لم ينقض غير قليل من الوقت على تسفيه بدعة "إيتالوس" حتى ظهر "نيلوس Nilos" اللعين الذى نزل على الكنيسة كالبلاء المهلك فبثّ الرعب الطاغى فى النفوس. والواقع أن الكثيرين انجرفوا بسببه فى موجة من الهرطقة لأنه أحسن صياغتها، وكان له من الصيت الطيب ما ساعده، ولست أعرف من أين جاء ولكنى أعرف أنْ قد مرّت عليه فترة كان فيها كثير التردد على العاصمة ويعيش فى عزلة مع الله ومع نفسه، ويحيا حياة يكتنفها الغموض، وكان يقضى وقته كله فى النظر فى الكتب المقدسة، ولم ينل قط إلا قسطا تافها من الثقافة الهيلينية، كما أنه لم يتتلمذ أبدا على عالمٍ يأخذ بيده فى التعمّق فى معانى الإنجيل وإنْ أخذ نفسه بالنظر الدقيق فى أعمال القديسين. لكن لما كان ينقصه الإلمام بالمنطق والتدريب عليه فقد ضل ضلالاً كبيرا فى تفسيره للكتب المقدسة، لكنه استطاع رغم ذلك أن يجتذب إليه طائفةً من الأتباع والمريدين الذين لم يكونوا قلة، فمهد الطريق لنفسه لدخول البيوت الكبيرة مدرساً لأبنائها، وفَرَضَ نفسه عليها، وقد أهّله لذلك ما كان عليه من مظاهر التقوى، وأخذُه نفسه بالحياة الخشنة وما كان عليه من معرفة افترض الناس أنها تهيأت له سرًا من جهة أخرى، لكن جهله ساقه إلى السير فى طريقٍ حادَ فيه عن جادة الصواب فى فهم اتحاد الطبيعتين الناسوتية واللاهوتية بعضهما ببعض فى شخص واحد هو المسيح حسبما نتعلمه فى عقيدتنا. كما أنه لم يكن قادرا على استيعاب معنى "الاتحاد" ولم تكن عنده أدنى فكرة على الإطلاق عن معنى "الإنسان"، ولم ينتفع من الرجال الأتقياء فيعرف أن الهيكل الناسوتى الذى تجسد فيه مخلصنا أصبح لاهوتيا ومن ثم فإنه ضلّ ضلالاً بعيدا وزاغ عن الحق حتى توهم أن جسد المخلص غير طبيعته.

لم تغب هذه الهرطقة عن بال الإمبراطور ولم تفته ملاحظتها، فلما عرف ما هو جارٍ بادر فى لحظته إلى معالجة الأمر فاستدعى الرجلَ إلى حضرته وندّد بوقاحته وجهلِه تنديدا قاسيا وأثبت بطلان ما يدّعيه فى كثير من النقاط وعلّمه فى وضوح معنى اتحاد الجانب اللاهوتى مع الجانب الناسوتى، وفسّر له الطبيعتين وكيف أنهما اتحدتا

فصارتا أقنوما واحدا لا يتجزأ، وكيف أن الهيكل الآدمى الذى ظهر به المسيح أصبح إلهيا بنعمة جاءت من "فوق". ولكن ذلك لم يغير من مسلك "نيلوس" الذى بقى مُصرا على تعاليمه الفاسدة لا يريد أن يتزحزح عنها، كما أظهر استعداده التام لتحمل أى عقاب ينزلونه به، سواء أكان هذا العقاب بالسجن أم جدع الأنف.

كان فى هذا الوقت بالعاصمة كثير من الأرمن الذين تفاقم فجورهم من جديد حين عقد "نيلوس" عدة محاورات مع "أرساكس" Arsaces الفاجر، و"تيكرانس" Ticranes الزنيم اللذين أغواهما نيلوس على التمادى فى الكفر والضلالة، فلما تبين للإمبراطور أن هذا الشرير أفسد أرواحا كثيرة، وأنه والأرمن شركاء جميعا فى هذا الإثم، وأنهم لا يدَعون فرصة تمر إلاّ ويجاهرون على رءوس الأشهاد بأن الجزء الناسوتى من المسيح قد تقدس فى الطبيعة، وأنّ أقوال الآباء الطاهرين فى هذا الموضوع قد أهملت، وأن فكرة الطبيعتين المتحدتين فى شخص واحد كادت ألاّ تقوم لها قائمة. أقول إنه لمّا تبين كل ذلك للإمبراطور أجمع على مقاومة تيار هذه الهرطقة الجارف، ووافقه كبار رجال الكنيسة على عقد مجمع عام لمناقشة هذا الموضوع فكان المجمع الذى حضره كبار رجال الدين ومعهم البطرك "نيكولا"، ومثل أمامهم نيلوس وفى صحبته الأرمنيّان، وطرح أمام المجتمعين مبادئ هذا الرجل الذى استمات فى الدفاع عنها وراح يشرحها فى صوت عالٍ وفى إطالةٍ أكثر من الأول، ورأى المجمع -حِرْصا منه على ألاّ تضل كثير من الأرواح بسبب هذه التعاليم الفاسدة- أنْ يصدر قرار اللعنة الأبدية على نيلوس وأن يصرِّح علانية وفى وضوح أكثر باتحاد الطبيعتين كما قرر آباء الكنيسة الأوائل، ثم أصدر المجتمعون ضدّه قرار الحرمان.

على أنه بعد قليل - أو على الأصح فى الوقت ذاته - عوقب Blachernites "بلخرنيتس" لاعتناقه أفكارا إلحْادية مناقضةً لتعاليم الكنيسة رغم أنه كان قد رُسِّم قسيسا ودخل فى زمرة رجال الكهنوت. والواقع أنه كان يتعامل مع طائفة "الإخوثيّين" Euchites الذين نفثوا فى روعه زغلهم فأضَلَّ الكثيرين، وقوض أركان بيوت عدة فى العاصمة لما بثه فيها من بدْعته الفاجرة، وكثيرا ما استدعاه الإمبراطور على عجل وأكثر من نصحه لكنه لم يأخذ بالنصيحة ورفض رفضا باتا أن توسم مبادؤه بالهرطقة. ولما تأكد رجال الدين من فسادها أصدروا قرار الحرمان ضده، ولعنة على تعاليمه.

(٢)

بهذه الطريقة قاد الإمبراطور السفينة فى أمان قيادة الملاّح الماهر عبر الأمواج المتلاطمة فى بحر لجى، وما كاد يغسل عن نفسه الأملاح الكبيرة التى علقت به، أعنى ما كاد يفرغ من تنظيم أمور الدولة حتى جَدّ من الأحداث ما استدعاه إلى خوض لجُة موجة جديدة من البلايا. والواقع أنه لم يكن ثم نهاية لمتاعبه فكان كل ما حوله شبْه بحر صاخب ملىء بالاضطرابات مما لم يدع له لحظة يلتقط فيها أنفاسه أو يأخذ قسطا من الراحة.

إن إيرادى موجزا – وليس وصفا كاملا – لقليلٍ من أعماله فى تلك الأزمة لهو أشبه بنقطة ماء فى بحر الأدرياتيك؛ لأنه كان يصارع العواصف والزوابع ليتمكن من إيصَال الدولة إلى المرفأ الأمين حيث النسيم العليل. والحقُّ أنه ليس فى قدرة صوت "دمستين" العذب ولا أسلوب "بوليمو" البليغ، ولا جميع ربات شعر هوميروس أن توفى أعماله حقها، وإنى لأذهب أبعد من هذا فأقول إنه ليس فى استطاعة أى شخص أن يصف شجاعة الإمبراطور حتى ولو كان هذا الشخص هو أفلاطون ذاته أو جميع رجال الأكاديمية حتى ولو تكاتفوا كلهم، فقد واجه الإمبراطور تجربةً لا تقل خطورة عن سابقتها قبل أن تهدأ العاصفة وتسكن الزوابع التى داهمته بأشرس ما فيها من قوة، وقَبْل أن تضع الحروب الكثيرة أوزارها، ذلك أنَّ رجلا من الرعاع ليس له عرق فى الشرف أعلن أنه ابن الإمبراطور [رومانوس] "ديوجين" رغم أنّ هذا الابن لقى مصرعه منذ أمد بعيد فى المعركة التى خاضها إسحاق كومنين شقيق الإمبراطور ضد الترك التى كانت على مقربة من أنطاكية. وعلى الرغم من محاولة الكثيرين وقف هذا الكذاب عن الاسْترسال فى الهذيان فإن محاولتهم لم تنفع، لأنه كان شديد التمسك بكل مزاعمه وادعاءاته الباطلة.

كان هذا الجندى الكذّاب قد وفد من الشرق فقيرا مفلسا خاوى الوفاض يتدثر بجلد الماعز، لكنه كان وغْدا خبيثا على أقبح ما يكون عليه الوغد الخبيث من ضعة، وكان كثير الانحراف لكنه راح يتجول فى المدينة ويدخل بيوتها دارا فدارا، مزهوا

بنفسه، زاعما أنّه "ليو" ابن الإمبراطور السابق ديوجين، وقد قالت الأخبار عن هذا الابن إنه مات برمية سهم فى أنطاكية كما ذكرتُ آنفا. لكن هذا الكاذب ردّ ليو للحياة مرةً ثانية. ولقد بلغت القحة به أنْ تسمّى باسمه ولم يعدم أن يلقى تأييدا بين أناس كثيرين ليسوا مسئولين فكان هذا الأمر نكبةً جديدة تضاف إلى النكبات التى سبق أنْ حلّت بالإمبراطور، حتى ليمكن أن يقال إن القدر كان يخطط لمأساة جديدة تتم على يد هذا الشخص المنحوس الذى يسعى لأن ينافس الإمبراطور ألكسيوس الذى لم يُعِرْ هذه الشائعات فى بادئ الأمر أذنا بل ازْدراها. بيد أن هذا الشخص التافه الذى هو من حثالة الجيش أصرَّ على حماقته ولم يدّخر وسعا فى نشر هذه المزاعم فى كل شارع وزقاق من شوارع المدينة وأزقتها، حتى بلغت مسامع "تيودورا" أخت الإمبراطور ألكسيوس وهى أرملة ابن ديوجين الراحل فضاق صدرها بما سمعت وانزعج خاطرها أشدّ الانزعاج وهى التى آثرت أن تترهب بعد زوجها، وعاشت حياة الفقر وإنكار الذات وانصرفت تماما إلى خدمة الرب.

ولما لم يمسك هذا الأحمق لسانه عن ذلك السفه رغم تحذير الإمبراطور له مرارا عدة فقد رأى ألكسيوس أن الواجب يقتضيه أن ينفيه فنفاه إلى "خيرسون" Gherson ثم صدرت الأوامر بحبسه فحبس. على أن هذا المدعى الكذوب كثيرا ما كان يقوم كلما جَنَّ الليل وهو فى محبسه فيتسلق الساتر الترابى ويطلّ من فوقه متحدثا إلى الكومان الذين جرت عاداتهم على زيارة تلك الناحية للمتاجرة مع أهلها وابتياع ما يلزمهم منهم.

وتوثّقت أواصر الصداقة بينه وبين هؤلاء الكومان الذين تبادلوا معه المواثيق، حتى جاءت ليلة اتفق فيها وإياهم على أن يتدلّى إليهم بالحبال من السور، فتدلى فتخلص من منفاه، فاصطحبوه إلى ديارهم، وعاش معهم يعمل ما يعملون زمنا غير قصير حتى اكتسب ثقتهم، وكان تأثيره فيهم كبيرا حتى اكتسب تأييدهم ووقوفهم إلى جانبه فكانوا ينادونه بالإمبراطور.

لقد وجد هؤلاء الكومان– أكلةُ لحوم البشر ومصاصو الدماء والمتلهفون على الغنائم يسلبونها من بلادنا– فى ذلك الدعىّ ذريعة لهم فاتّخذوه كف قط وقرروا الزحف

من أجله بكل قواتهم ضد إمبراطورية الروم، مدّعين أنهم يهدفون من وراء عملهم هذا إلى إعادة الدعى إلى عرش آبائه المسلوب، ولم تكن دعواه هذه سوى ادعاء باطل، وما كان خبرها بخاف عن الإمبراطور الذى سلح عسكره على أكمل وجه وأعدّ للحرب عدتها فحصّن الممرات الجبلية المعروفة عند العامة باسم "كليسوراى" كما قلتُ من قبل، فلما علم ألكسيوس بعدئذ أن الكومان قد احتلوا مع المدعى بلدة "بارستون" جمع كبار ضباط جيشه ومن هم من ذوى قرباه وناقشهم عما إذا كانوا يرون خيرا فى المبادرة إلى الخروج ضد الكومان، فأجمعوا الرأى على معارضته ولم يشذ أحد منهم.

ولما كان ألكسيوس غير قادر على الاستبداد والتفرد برأيه هو وحده فقد وكّلَ الأمر للرب سائلاً إياه أن يصرّف الأمور كيف يشاء، ثم بعث فاستدعى إليه جميع رجال الكنيسة والجند ليوافوه ليلاً فى كنيسة القديسة صوفيا. وحضر هذا الاجتماع الإمبراطور نفسه والبطرك نيكولا، ثم جاء ألكسيوس بورقتين فيهما عبارة "هل أخرج لمهاجمة الكومان"، وأضاف إلى واحدة منهما كلمة "نعم" وإلى الأخرى "لا" وختمهما بخاتمه، وأمر البطركَ بوضعهما فى موضع طاهر مقدس وظلّ المنشدون ينشدون التراتيل الدينية طول الليل. فلما كان الصباح مضى البطرك نيكولا إلى المذبح والتقط إحدى الورقتين وفضّ خاتمها وقرأ ما فيها بصوت عال أمام الجميع، فإذا هو "نعم". وارتضى الإمبراطور القرار وعدّه أمرا قضت به السماء، وإذ ذاك تركزت كل الجهود على إعداد الحملة، وبعث فى استدعاء الجيوش من شتى نواحى الإمبراطورية. فلما تم كل شىء على أكمل وجه زحف لقتال الكومان، حتى إذا وصل إلى "أنخيالوس" Anchialus مع عسكره كافة أرسل فى استدعاء كل من زوج أخته القيصر نقفور ميليسينوس وجورج بالايولوجس وابن أخيه وأرسلهم إلى "بوريا" منبها عليهم باليقظة التامة وحراسة المدينة وما جاورها. ثم قسم الجيش إلى أقسام تحت قيادات منفصل بعضها عن بعض، وعهد بها إلى "السيباسيوس ديباتينوس" وجورج "يوفوربينوس" و"قسطنطين توبوليس" وكلّفهم بحراسة الممرات الجبلية المحيطة بزيجم.

ثم تابع الإمبراطور زحفه إلى "خورتاريا" التى كانت شعبةً من شعاب تلك الناحية، وفتش المنطقة كلها ليرى دقة ضباطه الذين عهد إليهم بتنفيذ أوامره، وكان إذا رأى قصورا فى بعض التحصينات والتجهيزات أصرَّ على أن يكون كل شىء فى وضعه

الصحيح حتى يسد جميع المسالك أمام الكومان. فلما أيقن أنْ قد تمّ إعدادُ كل شىء على أكمل وجه عاد أدراجه من "خورتاريا" وضرب معسكره عند البحيرة المقدسة قرب "أنخيالوس".

ولما أسدل الليل ستاره على الكومان جاءه شخص اسمه "بودينوس" من زعماء الولاشيين وأفضى إليه أنّ الكومان فى طريقهم إلى عبور الدانوب، فرأى ألكسيوس ضرورة عقد مجلس حربى يشهده أقرب الناس إليه ويحضره أقرب قواده، فلما طلع النهار أرسل إليهم يستدعيهم فأجمعوا على وجوب الاستيلاء على "أنخيالوس"، وإذ ذاك زحف هو بنفسه عليها بعد أنْ قدّم أمامه كانتاكوزينوس وتاتيكيوس وبعض الجند الحلفاء أمثال الخان "سكالياروس" وغيرهم من كبار الضباط، وبعث بهم إلى موضع يقال له "ثيرما" Therma ، وعهد إليهم بالعمل على ما فيه تأمين الناحية. غير أن الخبر جاءهم وهم هنا بأن الكومان ماضون إلى "أدرنة" فجمع ألكسيوس جميع وجوه سكانها وكان من أبرزهم "كاتاكالون" الملقب بالطرخون ونقفور ابن المدعو "برينيباس" الذى كان قد تطلع ذات مرة إلى العرش فسُمِلت عيناه يوم ذاك وكلفهم بالحفاظ على القلعة وأن يبذلوا فى سبيل ذلك غاية جهدهم فإن جاء الكومان اشتبكوا معهم فى قتال شرس عنيف لا تراخى فيه ولا هوادة، ونصحهم بأن يُحْكِموا العمل برميهم بسهامهم ومطاردتهم إلى مسافات بعيدة وأن يحكموا غلق الأبواب معظم الوقت، ووعدهم بالعطاء السخى والصلات السنية إذا ما تم تنفيذ هذه الترتيبات على أكمل وجه، فعاد برينياس ورفاقه إلى أدرنة تملؤهم الثقة بما يفعلون.

كذلك صدرت الأوامر الكتابية إلى "قسطنطين كاتاكالون" وإلى "يوفوربينوس" بأن يصحبا مونستراس وميخائيل أنيماس ويسيروا بما تحت أيديهم جميعا من قوات، وأن يتعقبوا الكومان من قريب حالما يسمعون باجتيازهم الشعاب، وأن يباغتوهم بغارة شعواء يفاجئونهم بها من الخلف.

وكان "مونستراس" رجلاً نصف متبربر لكنه ذو خبرة كبيرة بالحرب.

(٣)

لقد قام الولاشيّون كما هو متوقع منهم بأنْ دلّوا الكومان على الطريق الذى يسلكونه عبر الممرات، وبذلك اجتازوا جبال "زيجم"نون أن يصادفُوا أيّة مشقة، وما كادوا يقتربون من "جوليو"حتى ألقى سكانها القبض على قائد الحامية وكبّلوه بالأغلال وأسلموه إلى الكومان.

أما كاتاكالون قسطنطين فكان واعيا لتعليمات الإمبراطور فالتحم بطائفة من الكومان كانوا قد خرجوا فى طلب المرعى فشنّ عليهم هجوما ضاريا وقع فيه مائة من رجالهم فى الأسْر. فأكرمه الإمبراطور بأن أنعم عليه فى لحظته بلقب "النبيل المبجل" Nobilissimus .

ولما رأى أهالى البلاد المجاورة – مثل "ديابوليس" وغيرها – ما كان من استيلاء الكومان على "جوليو" سارعوا من تلقاء أنفسهم بتقديم الهدايا إليهم تعبيراً عن خضوعهم لهم، وقدموا لهم ما تقضى به واجبات الضيافة، واعترفوا بـ"ديوجين" الذى ما كاد يوقن من سيطرته على كل هذه النواحى حتى زحف بكل جيش المتبربرين على "أنخيالوس" مجمعا العزم على الإغارة فى لحظته على تحصيناتها، وكان الإمبراطور فى هذه اللحظات موجودا داخل البلد، ودلّه طول تمرسه بالقتال على أنّ الكومان لابد أن ينصرفوا عن هذا المكان نظرا لما يتمتع به من مناعة طبيعية جعلت أسواره من الحصانة بالدرجة التى لا يمكن معها اقتحام الناحية، لذلك قسم ألكسيوس قواته أقساما عدة وفتح أبواب القلعة، وصفّ رفاقه جنبا إلى جنب خارج أسوارها، فاندفعت طائفة منهم إلى مهاجمة أقصى خطوط الكومان. وكانت قواته هذه تطلق صرخاتها العالية المفزعة فأهلكت هذه القوات بعض من صادفها، وطاردت بقيتهم على طول الطريق حتى ساحل البحر، وكان ذلك على مرأى من ألكسيوس. لكنه لما كان يعرف أن قواته أقل عددا من تلك المعادية وأنها غير قادرة على الصمود فى وجه العدوّ أصدر أوامره إلى صفوفه المتراصة بالبقاء على ما هى عليه بلا حراك، وألاّ ينفصل بعضها عن بعض.

كذلك اصطف الكومان فى مواجهة الروم من غير أن يقوموا بأية حركة تدل على عزمهم على الهجوم.

وظل كل من الطرفين يرتب صفوفه على هذا النسق مدة ثلاثة أيام متتالية من الصباح الباكر حتى المساء. وعلى الرغم من تلهف العدو على القتال فإنه كان يخشى وعورة الأرض كما لم يخرج لمهاجمته أحد من صفوف الروم.

كان البحر الأسود يقع على يمين القلعة المسماة "أنخيالوس" التى كان على يسارها أرض وعرة يصعب اجتيازها ومغطاة بالحشائش والنباتات الشائكة، مِمَّا لا تساعد على مناورات تقوم بها الخيالة، وأسفر صمود الإمبراطور وعزمه وصبره عن تسرب اليأس إلى نفوس المتبربرين فانصرفوا عن خطتهم وسلكوا الطريق المؤدى إلى أدرنة، وكان الدعِى هو المسئول عن ذلك فقد زعم لهم أن نقفور "بريناس" لن يكاد يسمع بخبر قدومه إلى "أدرنة" حتى يفتح لهم أبوابها ويرحب به وبهم فى سعادة، وقال لهم: " إنه سوف يمدنى بالمال ويبدى نحوى صداقته فقد كان أبى أخا له (مع أنه لم تكن بينهما وشيجة قربى) ، ولسوف نتابع بعدئذ زحفنا إلى العاصمة حين يسلمنا نقفور القلعة".

كان هذا الدعى قد اعتاد على مناداة بريناس بعمى وما هو بذى قُربى له، وما كان ذلك القول إلاَّ كذبا وافتراء، لكن كان ثمة مبرر لهذا النداء إذْ يرجع إلى أن الإمبراطور السابق رومانوس ديوجين كان شديد الإعجاب بملكات بريناس الذهنيّة الفائقة وكان هناك ما يزكى هذا الإعجاب ألاَ وهو ما طبع عليه من الاستقامة، وما اتسم به من الصدق فيما يقول والإخلاص فيما يعمل، حتى لقد تمنى رومانوس ديوجين أن يتبنى بريناس. وهى رغبة صادفت قبولاً من الطرفين فتم التبنى. وليس هناك من أحد يجادل فى هذه الحقائق التى كانت معروفة للجميع غير أنّ وقاحة الدعى الكبرى تمثلت فى مناداته بريناس كما لو كان عمه الحقيقى وما كان ذلك إلاّ لخدمة أهوائه.

هذا ما يمكن أن يقال بشأن خططه.

ولما كان شأن الكومان شأن المتبربرين عامة في أنهم شعب لا يقرّ لهم قرار، وأنهم قومٌ قُلّب فقد أصغوا إلى ما يزعمه الدعي واستجابوا له وارتدّوا إلى مدينة "أدرنة" وعسكروا خارجها وجرت بينهم وبين الأهالي المناوشات التي استمرت ثمانية وأربعين يوماً موصولة، كان الشباب يخرجون خلالها على الدوام لمقابلة المتبربرين.

وحدث في هذا الوقت بالذات أنْ وقف الدعيّ عند أسفل السور وصاح يطلب رؤية "برينياس" الذي انحنى من فوق السور وأعلن له -لما سمع صوته- أنه ليس رومانوس ديوجين الذي هو أخوه بالاختيار إذْ لا جدال في أن ذلك الابن قد لقي خاتمته عند أنطاكية.

كانت كلماته هذه ميسم عار في جبين الدعي.

على أنه بمرور الوقت أخذت المئونة بالمدينة تقل وتنعدم، وبعث الأهالي إلى الإمبراطور يطلبون الغوث فبادر إلى إصدار أمره إلى "قسطنطين يوفرينوس" باصطحاب طائفة كبيرة من الكونتات ممن تحت يده والسير بهم ليلاً إلى "أدرنة" فدخلها من ناحية Galathades كالاثادس، كما سار "كاتاكالون" على وجه السرعة إلى "أوريستياس" وهو واثق تمام الثقة أنْ لن تقع عليه عيون الكومان اليقظة، ولكنه كان مخطئا فيما ظن فقد كروا عليه في جموع كاسحة ردّته هو ومن معه من الروم ولم تكتف بذلك بل طاردته مطاردة عنيفة، وأمسك ولده نقفور حربة طويلة والتف حولهم بقوة فخرج لمواجهته بشناقي. ولكن نقفور اعترضه وضربه في صدره ضربة صرعته في لحظته، وكان نقفور شابا يحسن الرمي بالرمح، عارفا باستعمال الدروع لوقاية نفسه. وكان إذا امتطى صهوة جواده ظنه الناس نرمنديا وليس برومانى، هذا إلى جانب إجادته ركوب الخيل إجادة تامة، كما أنه كان يتمثل الرب أمامه فيخشع، ناهيك عما امتاز به من رقة الحاشية في معاملاته مع الآخرين فكان لا يلقى أحدا إذ يلقاه إلاّ ضاحك السن هاشّ الوجه باشه .

ولما تقلد برينياس مقاليد السلطة العليا في أدرنة أصدر أوامره – وقد أوشكت الأيام الثمانية والأربعون على الانصرام – بأن تفتح أبواب البلد وأن يخرج المقاتلون

عَبْرَها لمحاربة العدو، وكانت حربا شرسة خاطر فيها الروم بأرواحهم دون أن تغْنيهم سلامتهم، واستحر القتل فيهم وفشا، وإنْ كان هَلْكَى الكومان أكثر منهم نفرا.

ثم لاحت فى هذه اللحـظة نظرة من "ماريانوس مافروكاتاكالون" فرأى قائد عسكر الكومان "طغرطق" فاندفع نحـوه فى عنـف هـازا مزراقه بيمينه، ولم يكن شك حينذاك فى أنَّه قاتله لولا أنّ الحرس الكومانى تصدَّى له دفاعا عن كبيرهم فى اللحظة المناسبة دفاعا كادَ فيه ماريانوس ذاته أن يلقى مصرعه، وكان "ماريانوس" هذا شابا صغيرا لم يتبوأ مكانه بين الرجال إلا مُنذ قريب، ولكنه دأب على التسلل من أبواب المدينـة بين آن وآخر فلا يعود من خروجه هذا إلاّ مظفرا قد أثخن فى العدو وقتل منه أكثر من واحد، فكان - والحق يقال - جنديا رائعا جديرا بأن يوصف بالبطولة وكأنما كانت إرثا انتهى له، كما أنه كان أحد أفراد أسرة ذهبت فى الشجاعة بصيت بالغ.

ولما رأى نفسه قد نجا من الموت اندفع وهو يرغى ويزبد نحو الدعى "ديوجين" الذى كان يقف على شاطئ النهر فى الموضع الذى كان "ماريانوس" يقاتل فيه المتبربرين. فلَمّا رآه ماريانوس لابسا الأرجوان وعاصبا جبينه بالعصابة كأنه أحد الأباطرة ولكن بلا حرس يحرسه اندفع نحوه رافعا سوطه وراح يضربه على رأسه دون تراخ ويلعنه ويَنْعَتُه بالملك النصاب.

(٤)

وجاءت التقارير إلى الإمبراطور تشير إلى صمود التركمان وعنادهم أمام أدرنة، وتحكى خبر المعارك الجمة التى جرت أمام أبوابها، وحينذاك اقتنع بوجوب رحيله عن "أنخيالوس" والذهاب بنفسه عونا لرجاله. وعقد مجلس حرب ضم كبار القادة ووجوه الأهالى والسكان، غير أن رجلاً يدعى "ألكاسيوس" Alacaseus اعترضه قائلاً له: "كان أبى فى سالف الأيام صديقاً لوالد هذا الدعى فإنْ أذنتم لى بالذهاب إليه وظَّفْتُ هذه الصداقة لما فيه صالحنا وبما يعود علينا بالنفع، وسوف أمضى إليه وأمضى به إلى

داخل أحد الحصون وأعتقله فيه" . فلما سُئل وكيف يتم ذلك والمهمة عسيرة والأمر جلل قال إنه مقلّد خطة زوبيروس.

لكن ألكسيوس كان يقظا لحيلتهم فأرسل على جناح السرعة رهطا من خاصته يحذر الضباط الموكل إليهم حماية الطرق المؤدية إلى "زيجم"، ويأمرهم بمراقبة العدو مراقبة دقيقة وردّه على أعقابه والقبض عليه إن أتيحت الفرصة.

ثم جاء الخبر بأن جيش الكومان قد سبق، وأنّ الإمبراطور خرج على رأس كل من كانوا موجودين من رجال الجيش الروماني إلى مكان يسمونه "سكوتارى" Scutari ويبعد عن "أدرنة" ثماني عشرة مرحلة، فلما طلع اليوم التالى وصل الإمبراطور إلى "أجاثونيك" Agathonic، وهنا اكتشف أنّ العدو لازال موجودا فى إقليم "أكريليفو" الذى لا يبعد كثيرا عن هذين الموضعين ومن ثم سار فى هذا الاتجاه فشاهد على البُعد ألسِنَة نيران أضرمها العدو فنفض المكان بناظريه، حتى إذا ما استوعبه بعث فى طلب "نيكولا موروكاتاكالون" ونفرٍ من كبار الضباط وتناقشوا فيما بينهم فيما ينبغى عليهم اتخاذه، فأسفر النقاش عن وجوب استدعاء قادة المتحالفين أمثال "أوزاس" Ouzas السرمانتى وكاراتزس Garatzas البشناقى والمولد "مونستراس" وأمرهم أن يوقدوا عند كل معسكر خمس عشرة شعلة أو أكثر حتى إذا رآها الكومان اعتقدوا أن الروم فى عسكر كبير فيغلب عليهم الخوف وتفارقهم شجاعتهم فلا يعاودون التفكير فى أى هجوم بعد ذلك.

ووضعت هذه التعليمات موضع التنفيذ وتم ما سعوا إليه، فاستبد الجزع بالكومان ولم يتنفس صبح اليوم التالى حتى كان الإمبراطور قد بادر فلبس سلاحه وبدأ فى الإغارة عليهم ونشبت معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بأن ولّى الكومان منهزمين على أعقابهم، وقسمّ الروم أنفسهم أقساما عدّة فتقدم الجند المسلحون بأسلحة خفيفة مقتفين أثر العدو الذى فر على وجهه فهب ألكسيوس لمطاردته مطاردة انتهت باشتباكه معه فى معركة قرب الشعب الحديدى، فلاقى الكثيرون من الكومان مصارعهم ووقع فى الأسر منهم أكثر ممن هلكوا. وعادت مؤخرة الروم واستردت ما كان الكومان قد سلبوه. ثم رجع ألكسيوس إلى قصره بعد يومين وليلتين.

(٥)

اكتشف الإمبراطور- بعد استراحة قصيرة من متاعبه الجمة - أن الترك قد انصرفوا إلى النهب وأنهم تجاوزوا الحد فى عبثهم داخل "بيثينيا" كما استرعى انتباهه من ناحية أخرى شئون الغَرب وإنْ ظلّ الترك شغله الشاغل ممّا تطلب منه اهتماما مضاعفا فرض عليه تَبَنّى مشروع بالغ الأهمية يتكافأ وعبقريته، ورأى أن حماية "بيثينيا" تفرض عليه القيام بشَق قناة هناك لصد المعتدين.

على أنه يجدر بنا وصف هذه الخطة فنقول إن نهر "سنجاريس" يمتد فى خط طولى على طول الطريق الواصل إلى قرية "خيلى" Ghili، كما أن هناك طريقا آخر يبدأ من الساحل ثم يتجه شمالاً فى انحراف، فكان هذان الطريقان - بالإضافة إلى نهر سنجاريس- عبارة عن صقع فسيح من الأرض، وكان الإسماعيليون - وهم أسوأ جيران لنا منذ زمن بعيد - كثيرا ما يعيثون فسادا فى تلك النواحى اعتمادا منهم على أنه ما مِن أحد يُمكنه التصدى لهم، فكانوا يشنون غاراتهم عبر "مرياندان" ويسلكون الإقليم الواقع وراء نهر "سانجاريس" فإذا اجتازوه كانت نيقوميديا على وجه الخصوص هى أكبر مكان يقاسى وطأة هجماتهم، فلا مشاحة إذن إذا ما تطلع ألكسيوس لردع هذه الهجمات البربرية ومنع أصحابها من التخريب، ثم إنه أراد- فوق ذلك كله - أن يضمن سلامة مدينة "نيقوميديا" ، فأبصر إلى الجنوب من بحيرة "باعانه"Baana أخدودا عميقا بالغ الطول فسار فيه حتى إذا بلغ نهايته دلّه موقعه وهيأته على أنّ حَفرَه - على هذه الصورة- لم يكن من قبيل الصدفة، ولا كان من فعل الطبيعة بل إنه عَمَلٌ يدل على التروى والأناة وأنه من صنع الإنسان لا الطبيعة، فجدَّ طويلاً فى استقصاء خبره فدله بعض الناس على أن [الإمبراطور] أناستاسيوس ديكورس هو فى الواقع الرجل الذى أشرف على حَفْرِه، لكنهم عجزوا عن أن يفسّروا له الباعث على ذلك الحفر. فرجح ألكسيوس أن يكون "أناستاسيوس" كان قد استهدف من ذلك تحويل الماء من البحيرة ليتدفق فى هذا المجرى الصناعى. فلما انتهى الإمبراطور إلى هذه الخاتمة أمَر بتعميق الخندق أكثر مما هو عليه، غير أنه خاف أن يستحيل اجتياز الطريق عند نقطة التقاء البحيرة بالقناة لذلك أقام هنا حصنا منيعا آمنا يكون سداً فى وجه جميع

الفارات لا بسبب المياه وحدها بل وأيضًا بسبب ارتفاع الجدران وسُمكها. ومن أجل هذا سُمّي البرج بالبرج الحديدى ، ولا تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم، كما أنها أشبه ما تكون بمدينة أمام أخرى أو طابية تحمى أسوار البلد، وكان الإمبراطور يشرف على العمل بنفسه منذ الصباح الباكر حتى يدخل الليل متحملاً حرارة القيظ لأن الشمس كانت فى الانقلاب الصيفى، وبذل فى سبيل ذلك الأموال الجمة ليتأكد من أن تصبح الأسوار شديدة المناعة ولا يمكن اقتحامها، كما بسط كفه بالمال لمن كانوا يقومون بنقل الأحجار حجرا بعد حجر، وكان يستعمل فى المرة الواحدة خمسين أو مائة من العمال الذين جاءوا من تلقاء أنفسهم، كما ساهم فى العمل جميع العسكر والخدم والأهالى والأجانب على السواء فقد أسعدهم جميعا القيام بنقل الأحجار نظير الأجور الضخمة التى يتناولونها بتوجيه شخصى من الإمبراطور الذى كانوا ينظرون إليه كأنه موزع الجوائز فى الألعاب، وقد برع ألكسيوس فى الاستفادة بالجموع التى تدفقت للمساعدة فى حمل الكتل الصخرية الضخمة مما جعل الأمر أيسر وأسهل.

هذا هو النمط الذى كان عليه ألكسيوس.

لقد كان يفكر فى المشروع الذى يزمع الإقدام عليه تفكيرا عميقا ثم يُقبل على تنفيذه بهمة عالية وعزيمة جبارة.

وهكذا كانت أحداث الإمبراطور حتى شهر ... ... من سنة ... ...

لم يكن الإمبراطور قد استراح حين بلغت سمعه الشائعة التى تقول إن جيوشا كثيفة من الفرنجة آخذة فى الاقتراب، فساوره القلق من جرّاء وصولهم لعلمه بما هم عليه من اندفاعٍ جموحٍ وطَبعٍ فاسد، ناهيك عن الصفات الذاتية التى طبع عليها الكلت، كما خاف من العواقب الوخيمة التى لابد أن يسفر عنها ما يقع منهم، ومثالُ ذلك جشعهم الذى كان يقودهم دائما - كما يبدو - لجبِّ اتفاقياتهم من غير مبرر يرتضيه الضمير، وكان ألكسيوس يسمع على الدوام عنهم الكثير من مثل هذا الكلام الذى أثبتت الأيام صدقه، لكنه لم يدع لليأس سبيلاً إلى نفسه بل راح يبذل قصارى جهده للاستعداد للحرب إنْ قضت الضرورة بها.

غير أنَّ ما جرى فى الواقع كان أكثر فداحة مما تقوله الإشاعات لأن الغرب بأجمعه وجميع الشعوب المتبربرة التى تعيش فيما بين الأدرياتيك ومضيق جبل طارق نزحت دفعة واحدة إلى آسيا مخترقة أوربة قطرا فقطرا، مصطحبة معها كل ما تملك من متاع، وسيرد تفصيل أسباب هذه الهجرة الجماعية فى الأحداث التالية التى تتمثل فى أن رجلا كلتيا اسمه بطرس ويعرف بـ"كوكو بطرس" خرج ليصلى عند القبر المقدس لكنه عاد بصعوبة إلى موطنه بعد أن صادف شدائد جمة وقاسى أسوأ معاملة من جانب الترك الشرقيين الذين كانوا يَنْهبون كل آسيا، ولما كان كارها للاعتراف بفشله فقد أرادَ أن يجرِّب حظه مرة ثانية فى القيام بنفس المحاولة، لكنه أدرك ما ينطوى عليه سفره وحيدا من الحماقة تخوفا من حدوث أشياء تكون أكثر إضرارا به، ومن ثم دبَّر حيلة ماهرة إذ مضى يبشر فى جميع الأقطار اللاتينية وقال إنَّه سمع صوتا إلهيًا أمره بأن يعلن إلى جميع الكونتات فى فرنسا بوجوب مغادرتهم بلدانهم والنهوض إلى أداء الصلاة فى الهيكل الطاهر، وأن يجاهدوا بأرواحهم وقواهم لتخليص بيت المقدس من أبناء"هاجر".

والعجيب فى الأمر أنه نجح فى دعواه هذه وكأنه صبٌّ فى كلّ قلب قبسا ربانيا، فتوافد الكلت زرافات بعضها فى إثر بعض من شتى النواحى حاملين أسلحتهم ومستصحبين جيادهم وكل تجهيزاتهم الحربية، وفاضت بهم الحماسة والحمية فتزاحموا وساروا عبر جميع الطرق وجاء مع هؤلاء المحاربين حشد من المدنيين كانوا فى كثرتهم كرمل شاطئ البحر أو كنجوم السماء فى عددها، وقد حملوا معهم سعف النخيل ورسموا الصليب على أكتافهم، وكان فيهم النساء بل والأطفال الذين تركوا وراءهم أوطانهم وكانوا أشبه بروافد متعددة المنابع وتدفقوا فى قوة جارفة نحونا ونحو "داكيا" على وجه الخصوص.

وقد سبق هذا الحشدَ الكثيف هجوم أسراب الجراد التى عزفت عن القمح ولكنها أغارت على المزارع، وقد فسر علماء تلك الأيام هذا الحدث بأنه علامة على أن الجيش الكلتى سيتجنب التدخل فى شئون المسيحيين، ولكنه سيجلب الخراب على الإسماعيليين المتبربرين: أسرى الخمر والشراب وعبيد اللهو.

والحق أن هؤلاء الإسماعيليين كانت تسيطر عليهم آلهة اللهو والعربدة والفسق، فما من لذة جنسية إلاّ انغمسوا فيها. وإذا كانوا يمارسون الطهارة الجسدية فإنهم ليسوا كذلك في شهواتهم والواقع أن أولاد إسماعيل هؤلاء ليسوا سوى عبيد لرذائل أفروديت فهم يعبدون صورة "أكبر" الذهبية..

فلندع الكلام عن كل هذا ولنتابع حديثنا فنقول إنه قد توالت أخبارُ تَقَدم المتبربرين على النسق الذى ذكرته، وكان ثم شيء غريب لا يفوتُ نظر الأذكياء، أعنى به عدم وصول هذه الحشود كلها فى وقت واحد أو عن طريق واحد، إذْ كيف يتسنى لهم عبور الأدرياتيك دفعة واحدة بعد أن خرجوا من بلادهم بهذه الكثرة الهائلة، ومن ثم سافروا متفرقين فجاء البعض فى الرحلة الأولى ثم تلاهم غيرهم فى الثانية، ثم قدم فى الثالثة غير هؤلاء وهؤلاء، فلما تكامل وصول كافتهم شرعوا فى الزحف عبر "ابيروس" وكان يسبق كلَّ فريق منهم حدوثُ بلاء من الجراد كما قُلْتُ، فلما لاحظ الناس تكرار هذه الظاهرة أصبحوا يعتبرون الجراد نذيرا بقدوم جيش الفرنجة.

وكان الفرنجة قد شرعوا فى عبور مضايق لمبارديا فى مجموعات صغيرة حين استدعى الإمبراطور قادة العساكر الرومانية وأرسلهم إلى المنطقة الواقعة حول "دورازو" و"أفلونا" وأوصاهم بحسن مقابلة هؤلاء الوافدين وبتزويدهم فى كل بلد يمرون به بالميرة وبما يكفيهم من الطعام طول رحلتهم، وأمر العسكر بمراقبتهم مراقبة دقيقة والسير فى آثارهم فإن رأوا منهم اعوجاجا بشنهم الغارات أو نهبهم الأقاليم كبحوا جماحهم فى غير شدّة.

وصحب هؤلاء العسكر مترجمون يعرفون اللغة اللاتينية وقدْ عُهد إليهم بإخماد أىّ فتنة فى مهدها قد تشب بين الأهالى وبين الحجاج.

وأحب أنْ أقدم هنا تقريرا يمتاز بالوضوح عن هذا الموضوع.

(٦)

انتشرت دعوة بطرس التبشيرية فى كل مكان وكان "جودفروى دى بويون" دوق اللورين أول من أقدم على بيع أملاكه وخرج قاصدا القدس. وكان رجلا واسع الثراء، شديد الاعتزاز بنفسه وبنبل مولده وشرف محتده وشجاعته ومجد أسرته، شأنه فى ذلك شأن كل كلتى فيما طبع عليه من الرغبة فى التفوق على سواه.

كانت الهزة الهائلة التى تمخضت عن خروج الرجال والنساء حدثا لم تع الذاكرة مثيلاً له من قبل، فقد كانت جموع البسطاء - والحق يقال - مدفوعة بحنينها الجارف للصلاة عند ضريح سيدنا، وكان تلهفها على زيارة الأماكن المقدسة شديدا، وكان لأرْذل الشخصيات فيهم - لا سيما بوهيموند ومن شايعه - هدف مستتر فقد قصدوا من خروجهم الاستيلاء على العاصمة ذاتها التى اعتبروا سقوطها فى أيديهم هو النتيجة الطبيعية للحملة. وقد أفسد بوهيموند معنويات وأخلاقيات الكثيرين ممن هم أشرف منه؛ إذْ لم يزل حقده القديم على الإمبراطور ألكسيوس يعشش فى صدره.

لقد كان بطرس الناسك- بعد أن بشر بحملته- أول مَن عبر مضيق لمبارديا على رأس ثمانين ألف شخص من المشاة ومائة ألف من الفرسان ووصل إلى العاصمة عن طريق البحر.

إن الكلت -كما يعرف الناس- جنس حاد الطبع، سريع الانفعال، شديد الطمع، ما إنْ تلوح الفرصة أمامهم فيما يشتاقونه حتى يصبحوا قوما يعجز الكل عن كبح جماحهم.

لما وقف الإمبراطور على ما كابده بطرس من قبل على أيدى السلاجقة نصحه بالتريث حتى يصل الكونتات الآخرون، لكنه لم يأخذ بالنصيحة اعتمادا منه على كثرة عدد الذين معه، بل عبر بحر [مرمرة] ونصب معسكره قرب موضع صغير يسمونه "هيلينوبوليس" Helenopolis وما لبث أن انضم إليه بعد قليل عشرة آلاف نرمندى

انفصلوا عن بقية الجيش وراحوا يعيثون فسادا فى أطراف "نيقية" وسلكوا مع الأهالى مسلكا زريا ينطوى على الوحشية والفظاظة فقطعوا بعض الأطفال الرُضع إربا وأجلسوا آخرين على الخوازيق الخشبية وألقوا بهم فى النار، كما تعرضوا للشيوخ والعجزة فأنزلوا بهم شتى أنواع التعذيب، فلما وقف سكان البلد على ما هو جار فتحوا أبواب مدينتهم وهاجموهم وشبت معركة حامية الوطيس حارب فيها النرمانُ فى عنف وضراوة حملت أهل نيقية على الارتداد إلى داخل قلعتهم. وحينذاك عاد العدو أدراجه إلى "هيليسبونت" حاملاً معه كل الغنائم التى وصلت إليها يده ثم شبت منازعات مألوفة فى مثل هذه الظروف؛ لأن الحسد كان يأكل صدور الآخرين منهم ؛ مما أدى إلى حدوث هرج ومرج كبيرين انطلق معهما النرمنديون المتهورون للمرة الثانية واستولوا على "زيروجردس" Xeroigordus فردّ السلطان السلجوقى قلج أرسلان على ما جرى بأن أرسل قوة كبيرة لتأديبهم بقيادة الخان الذى وصل إلى "زيروجردس" وأخذها وقتل من النرمان بعضا وأسر البعض الآخر، ثم راح فى الوقت ذاته يرسم خطة لمواجهة بقيتهم فتخير من المواضع ما رآه ملائما لنصب الكمائن الكثيرة التى طمع من ورائها أن يقع فيها الأعداء – من غير أن يعلموا بها – وهم فى طريقهم إلى نيقية فيكون فى ذلك مصرعهم .

ولما كان يعرف أيضًا حب الكلت للمال فقد استعان بخدمات رجلين شديدى العزم أرسلهما إلى معسكر بطرس الناسك يعلنان إليه أن النرمان قد استولوا على نيقية وهم الآن يتقاسمون فيما بينهم كل شىء فى المدينة. وكان لهذا الخبر أثره العجيب فى نفوس رجال بطرس فسادتهم الفوضى الشديدة حين سمعوا كلمات "القسمة" و"الثروة" و"النفوذ" فلم يتوانوا لحظة عن الزحف فى الطريق المؤدى إلى نيقية وقد ضربت عليهم الفوضى بأجرانها وساروا من غير نظام حربى، ولم يتخذوا الترتيبات التى ينبغى اتخادها من جانب خارجين مثلهم للحرب.

ولقد كان اللاتين على الدوام كما قلت شعبا نهما للمال بصورة غير طبيعية، ويبلغ نهمه هذا أقصاه إذا كان المال عن طريق غارة. وكان إذا أزمع الهجوم على قطر من الأقطار لم يزجره زاجر ولم يردعه رادع من عقل ولا قوة، ولذلك خرج كثيرون من هؤلاء الذين مع بطرس خروجا عشوائيا من غير اكتراث. فلما صاروا على مقربة من نهر

"دراكون"Dracon سقطوا فى الكمين الذى نصبه لهم الأتراك السلاجقة الذين فتكوا بأغلبهم وهلك أكثرهم بسيوف أولاد إسماعيل حتى إنه لما جمعوا قتلاهم ومن تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك صارت أكواما، ولا أقول إنها صارت تلالا أو أكمة بل غدت جبلاً كبيرا متسعا. وكانت العظام متناثرة بكثرة هائلة حتى إن بعض رجالٍ من نفس جنسهم حين كانوا يبنون بعض الأسوار (كسور المدينة) راحوا يستعينون بعظام هؤلاء الهلكى يتسلمونها كأنها الحصى يملئون به الفجوات، وهكذا صارت المدينة قبرا لهم. ولا يزال السور المحيطُ بهذه المدينة مشيدا من هذه العظام والحجارة.

ولما انتهى القتل عاد بطرس إلى "هيلينوبوليس" ومعه حفنة من الرجال، وكان السلاجقة الأتراك قدْ أرادوا القبض عليه فنصبوا له كمينا ولكن لما تناهى إلى علم الإمبراطور خبر هذا الكمين والمذبحة المروعة التى جرت وجد أنه من أسوأ الأمور أن يقع بطرس الناسك هو الآخر أسيرا فى يد السلاجقة لذلك أرسل الإمبراطور لمساعدته "قسطنطين كاتاكالون" الذى طالما ورد ذكره فى ثنايا تاريخى هذا وأرسل صحبته عسكرا كثيفا قويا قد تمرسوا بفن الحرب والقتال، فلما أبصر التركُ بطرسَ يدنو منهم بعسكره لانوا فرارا، فبادر "كاتاكالون" إلى أخْذ بطرس ورفقته وكانوا قلة وجاء بهم سالمين إلى ألكسيوس الذى أعاد على سمع بطرس ما كان منه من الحماقة منذ البداية، وأضاف قائلاً إن هذه النكبات التى حاقت به إنما ترجع إلى عدم استماعه للنصيحة ورفضه الأخْذَ بها، ولكن بطرس- بما طبع عليه من العجرفة اللاتينية ونظرا لمسئوليته عما جرى - ألقى باللوم على كاهل رجاله لأنهم كانوا -كما قال- لا يعرفون الطاعة وإنما يتبعون أهواءهم، ونَعَتَهم بأنهم "لصوص وقطاع طرق" واعتبرهم غير جديرين من المخلص بدخول كنيسة القيامة للصلاة بها. وكان بعض اللاتين ممن هم على شاكلة بوهيموند تتحلب أشداقهم طمعا فى التهام الإمبراطورية الرومانية وأخذها لقمةً سائغة، ويتمنون الاستيلاء عليها لأنفسهم، فوجدوا فى دعوى بطرس الناسك مبررا لهم وقاموا بارتكاب هذه الزلة الجسيمة إذْ خدعوا الأبرياء والسذج الذين أسلموهم قيادهم فباعوا أراضيهم بحجة أنهم راحلون لقتال الترك وتحرير بيت المقدس.

(٧)

كان هناك شخص معين هو "هيج" أخو ملك فرنسا قد جمع في ذاته كل كبرياء المتحذلقين في التفاخر والازدهاء بشرف مولده وثروته، وبينما هو موشك على مغادرة وطنه بزعم أنه خارج للحج إلى القبر المقدس إذا به يرسل كتابا بالغ الحماقة إلى الإمبراطور يشير عليه فيه أن يعد له استقبالاً حافلاً يكون على أعظم قدر من الأبهة والروعة، وقال له فيه: "اعلم أيها الإمبراطور إنني مَلِك الملوك وأعظم من أظلتهم السماء وحملتهم الأرض، وإنه ليشرّفك أن تخرج لاستقبالي عند وصولي وأن تتلقاني بالأبهة والاحترام اللائقين بشرف مولدي".

تسلم الإمبراطور هذه الرسالة وقت أن كان "جون" بن إسحاق نائب الإمبراطور دوقا لدورازو وكان "نيكولا مفرو كاتاكالون" قائد الأسطول قد أرسى في المناطق المحيطة بميناء دورازو، وكان يقوم من هذه القاعدة بطلعات استطلاعية كثيرة حتى لا يفلت من رقابته الأعداء المهاجمين ، فلما وقف الإمبراطور على رسالة هيج بعث إلى هذين الرجلين بتعليماته الخاصة التي كانت تحذّر الدوق من أن تغفل عينه عن مراقبة وصول "هيج" برا أو بحرا، وأمره بالإسراع بإخبار مولاه في الحال بوصوله كما كلّفه أن يُحْسِن استقباله.

أما تعليماته إلى أمير البحر فقد أوصاه بالالتزام باليقظة الدائمة وألاّ تغفل له عين أو يتراخى عن رصد حضور هيج الذي ما إنْ وصل سالما إلى ساحل لمبارديا حتى بعث أربعة وعشرين رجلاً من جهته إلى الدوق في دورازو وعليهم زردياتهم الحديدية ودروعهم المذهبة التي تصل إلى الركبتين، وكان في صحبتهم الكونت "وليم النجار" و"إلياس" الذي كان قد فر من الإمبراطور وهو في تسالونيكا. فلما بلغوا هناك خاطبوا الدوق بقولهم: " ليكن معلوما لديك أيها الدوق أن مولانا هيج قريب جدا من هنا وقد أحضر معه من رومة راية القديس بطرس الذهبية، وزيادة على ذلك فعليك أنْ تعلم أنه هو القائد الأعلى لجيوش الفرنجة. فرتّب أمرك على أن تهيئ له استقبالاً يليق بقدره ويتفق مع مكانته، وعليك أن تخرج بنفسك لاستقباله".

وفى الوقت الذى كان فيه مبعوثو هيج يقولون ما ذكرناه ويفضون إلى الدوق برسائل مولاهم كان هيج قد عَبر رومة إلى لمبارديا وأفرد الأشرعة مبحرا إلى الليريا من بارى. لكن صادفته عاصفة هوجاء ضاع فيها معظم سفنه بمن فيها من المجدفين والملاّحين ولم يسلم غير مركب هيج التى كان هو ذاته عليها إذ جنحت إلى الشاطئ فى موضع بين دورازو ومكان يسمونه "بالس" Palus وقد وصلته وهى شبه محطمة. فتلقاه اثنان من حراس السواحل الذين كانوا يرصدُون وصوله فأنقذاه. وكانت نجاته إحدى المعجزات، وقالا له: " إن الدوق ينتظرك فى شوق لأنه فى لهفة شديدة لرؤياك ". فطلب منهما فى الحال جوادا فترجل أحدهما عن حصانه وقدّمه إليه عن طيب خاطر.

حين رآه الدوق وقد نجا على هذه الصورة حيّاه ورحّب به وسأله عن رحلته فقد سمع بخبر العاصفة التى حطمت مراكبه وأخذ يمنى هيج بوعود طيبة ودعاه إلى مأدبة فخمة حتى إذا فرغ من طعامه انصرف لينال قسطا من الراحة وإن لم يحظ بالحرية التامة، ذلك أنّ الدوق بعث فى الحال إلى الإمبراطور بما كان من أمر مغامرات هيج الفرنجى. أما هو (أى الدوق) فكان فى انتظار المزيد من تعليمات ألكسيوس الذى ما كاد يتلقى هذا الخبر حتى بادر فأرسل "بوتوميتس" إلى "أبيدامنوس" لمرافقة "هيج" وإحضاره، لا بالطريق العادى بل أمره أن يسلك به شعابا ملتوية من "فيليبوبوليس" إلى العاصمة تخوفا من جموع الكلت المسلحة القادمة وراءه. ثم رحّب به الإمبراطور ترحيبا كبيرا، كما وصله بالمال الجزيل. ولم يدخر مظهرا من مظاهر الود إلاّ حباه به ليُتِمّ رحلته وليقسم له اليمين المألوفة التى اعتاد اللاتين قطعها على أنفسهم.

(٨)

كان هذا الحدث فاتحة أحداث كبيرة تلته، إذْ لم تمر خمسة عشر يوما حتى عبر بوهيموند البحر وأرسى على ساحل "كاباليون" Caballon مع بعض من معه ثم ما لبث أن جاء فى إثره "ريتشارد" الذى استأجر سفينة حربية من النوع المعروف بالثلاثى ذات حمولة كبيرة بمبلغ ستة آلاف قطعة ذهبية يونانية، وكان بالسفينة مائة مجداف

وتقطر خلفها ثلاثة قوارب كبيرة، ولكن ريتشارد لم يفعل ما فعلته الجيوش اللاتينية الأخرى فيتجه إلى "أفلونا" بل بدل وجهة سفره قليلاً بعد أن رفع المرساة وأبحر وقد صارت الريح رخاء واتجه إلى "خيمارا" خوفا من الأسطول الرومي، على أنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ ذلك أن تجنبه السفن الراسية في مختلف المضايق الامبراردية حمله على الإبحار في الطريق الذي فيه قائد عام الأسطول الرومي وهو "نيكولامفرو كاتاكالون" الذي كان قد سمع من قبل بنبأ أسطول القرصان فجهز الشواني والمرازيب الثلاثية المجاديف من الجانبين وبعض الأغربة السريعة وفصلها عن الأسطول الرئيسي وتحرك بها كلها من قاعدته البحرية في "أسون" Ason ثم أرسى بها في "كاباليون".

أما الرجل الملقب بالكونت الثاني فقد أرسل قرقورته الخاصة التي اصطلح عامة البحارة على تسميتها بـ Excussatwm ليشعل شعلة حين يراها المجدفون يفكون الحبال الغليظة التي تربط سفينة العدو ويقذفون بها في البحر. فلم يتراخوا في تنفيذ هذه الأوامر، وما كاد "نيكولا" يرى الإشارة المتفق عليها حتى أبحر ببعض سفنه بينما كانت سفنه الأخرى تشق عباب اليم كأنها "الخنافس"، وانطلقت هذه السفن ضد ريتشارد الذي غادر الميناء إلى البحر، ولكنها ألقت القبض عليه قبل أن يتم قطع ثلاث مراحل بعيدا عن اليابسة، وكان يتلهف على الوصول إلى ساحل أبيدامنوس المواجه له، وكان عدد الجند الذين معه على ظهر السفينة ألفا وخمسمائة بالإضافة إلى ثمانين جوادا من جياد النبلاء، فلما رأى ربان السفينة نيكولا صاح بالفرنجة "إن الأسطول السوري قادم لمهاجمتنا ونحن في خطر يتهددنا بالموت بالخناجر والسيوف". فأصدر الكونت أمره في الحال إلى رجاله بحمل أسلحتهم والاستبسال في القتال، وكان الوقت إذ ذاك في أشدّ أيام الشتاء برودة، أما اليوم فكان يوم الاحتفال بأكبر البابوات "نيكولا". وعلى الرغم من ذلك كان كل شيء ساكنا سكون الموتى والقمر منيرا، ولما كانت الريح قد سكنت تماما فإن سفينة المغير لم تعد قادرة على التقدم في إبحارها فظلت كما هي على سطح الماء.

عندما أصل إلى هذه النقطة في تاريخي أحب أن أُنَوِّه بأعمال "ماريانوس" فإنه سرعان ما سأل أباه أمير الأسطول أن يعطيه بعض السفن الخفاف فأعطاه

ما طلب، فتقدم بها مباشرة نحو مركب ريتشارد حتى بلغ جؤجؤها وحاول اعتلاء ظهرها وسرعان ما تدافع البحارة إلى هناك حيث رأوه في سلاحه استعدادا للقتال.

وتكلم ماريانوس إلى اللاتين بلسانهم مبينا لهم ألاّ داعي للخوف ونصحهم ألاّ يقاتلوا إخوة لهم مسيحيين مثلهم. غير أن واحدا منهم سدد سهما من كنانته أصاب به مغفره ولم يمس السهم شعرةً من رأسه فلقد أفسدت العناية الإلهية على الرجل عمله. ثم ما لبث الرجل أن أطلق سهما آخر نحو الكونت أصابه في ذراعه ولكنه اخترق درعه وصديرته ومس جبينه مسا خفيفا. وكان هناك قسيس لاتيني تصادف وجوده إذ ذاك في مؤخرة السفينة مع اثني عشر محاربا فشاهد ما حدث فرمي عن قوسه رميات يريد بها ماريانوس الذي لم يحمله ما جرى على اليأس والاستسلام بل ازداد شراسة في القتال ومضى يشجع رجاله فاستجابوا لطلبه حتى إن رفاق القسيس حل محلهم غيرهم ثلاث مرات بسبب الجراح التي أصابتهم والإرهاق الذي حل بهم. أما القسيس فعلى الرغم من كثرة ما أصابه من الإصابات ورغم الدماء التي سالت من جروحه فإنه لم يتخاذل ولم تفارقه شجاعته، واستمر القتال المرير على أشده من المساء حتى منتصف اليوم التالي حين استسلم اللاتين أمام ماريانوس، وإذ ذاك سألوه الأمان فلم يبخل عليهم به. غير أن القسيس المحارب لم يكف عن القتال حتى بعد الحصول على الأمان فلما فرغت جعبته من السهام التقط مقلاعا وقذف به ماريانوس الذي كان يحمي رأسه بدرع فأصابته القذيفة فتناثر الدرع أربعة أجزاء وتحطمت خوذته، وأغمي عليه وظل بعض الوقت طريحا عاجزا عن الكلام فكان أشبه بهكتور العظيم، ثم أصابه حجر من "أجاكس" كاد أن يسلم معه أنفاسه.

ولما استرد ماريانوس وعيه بعد مدة وصحا من إغمائه تحامل على نفسه قاذفا القسيس بالسهام كما أصابته ثلاثة جراحات. أما القسيس الذي هو أحق بأن ينعت بالقائد الحربي فلم تهدأ شهوة القتال في نفسه على الرغم من نفاد كل ما كان معه من أحجار وسهام فأصبح في حيرة لا يدري ما يفعل ولا يعرف كيف يدفع عن نفسه خطر عدوه. واستبد به الغضب فنفد معين صبره. وحينذاك أجمع عزمه ووثب وثبة الحيوان الضاري واستعد لأن يستعمل أي شيء تصل إليه يده فوجد زكيبة مملوءة بكعك

الشعير فراح يأخذ الكعك واحدة بعد أخرى ويقــذف بهــا كأنها الحــجارة، وبدا كما لو كان يؤدى مهمة رسمية فى أحد الاحتفالات. ثم أخذ كعكة واستجمع قوته وطوح الكعكة في عنف فأصابت وجه ماريانوس فأدمت جبينه.

تلك بعض أخبار ذلك القسيس الكثيرة وأخبار السفينة وملاحيها.

أما فيما يتعلق بكونت ريتشارد فقد أسلم نفسه وسفينته وبحارتها إلى ماريانوس، وتبعه راضى النفس فلما بلغوا اليابسة ونزلوا ظل القسيس يسأل عن ماريانوس ويستفسر عمَّن يكون إذ كان يجهل اسمه وراح يذكر لهم صفته وشكله وثيابه، فلما وجده أخيرا احتضنه وعانقه وهو يقول متباهيا: "لو أنى التقيت بك على البر لقتلت الكثيرين من رجالك بيدى".

ثم جذب كأسا فضية كبيرة تقدر بمائة وثلاثين قطعة من الفضة وناولها إلى ماريانوس وهو يقول قوله هذا ثم لفظ أنفاسه ومات.

(٩)

كان الكونت جودفروى دى بويون فى ذلك الوقت قد أبحر هو أيضًا مع ثلة من الكونتات أكبر عددا ممن مع ريتشارد وبجيش قوامه عشرة آلاف فارس وسبعون ألفا من المشاة، فلما وصل إلى العاصمة أنزل رجاله فى ضاحية قُرْبَ "برونتيس" تمتد من البحر الذى هو أقرب ما يكون إلى "كوزميديوم Cosmidium حتى كنيسة القديس فوكاس، فلما حثه الإمبراطور على الذهاب إلى ناحية "برونتيس" القاصية ظل يسوف ويرجئ الرد يوما بعد يوم متعللاً بكثير من الذرائع والعلل، والواقع أنه لم يفعل ذلك إلا انتظارا لوصول بوهيموند وبقية الكونتات.

أما بطرس الناسك فكان قد رحل منذ وقت بعيد إلى الضريح المقدس لتأدية مناسك حجه. وأما غير بطرس وأعنى بهم على وجه الخصوص بوهيموند وأمثاله فقد راودتهم نواياهم القديمة الفاسدة ضد ألكسيوس وراحوا يترقبون الفرصة للثأر منه بسبب انتصاره العظيم فى "لاريسا"، وكان يجمعهم هدف واحد يحثهم على تحقيق

حلمهم القديم المتمثل فى الاستيلاء على القسطنطينية. وكثيرا ما أشرت إلى هذا الموضوع الذى يتلخص فى أنهم كانوا يخططون لإسقاط ألكسيوس من فوق عرشه والاستيلاء على العاصمة، غير أن نكد طالعهم أبى إلا أن يكون الإمبراطور على علم بسوء طويتهم بفضل خبرته الطويلة بهم فأصدر أوامر كتابية تقضى بتحرك القوات الاحتياطية دفعة واحدة بضباطها من "أثيرا" Athyra إلى فيلياس الواقعة على ساحل البحر الأسود، وأن يظلوا هناك فى انتظار رسل من ناحية جودفروى كانوا فى طريقهم إلى بوهيموند وإلى سواه من الكونتات القادمين وراءه.

على أنه جرت الحادثة التالية فى هذه الأثناء وهى أنّ الإمبراطور دَعَا لمقابلته بعض الكونتات الذين صحبوا جودفروى راميا من وراء ذلك إلى حَثّ جودفروى على قطع يمين الولاء له، غير أن اللاتين أضاعوا الوقت فى الثرثرة وفيما لا يجدى نفعا، وسرت شائعة كاذبة وصلت إلى سمع الفرنجة تزعم أن ألكسيوس ألقى القبض على كبار رجالهم وسرعان ما زحفت كتائب عدة على بيزنطة وأعملوا يد التخريب فى القصر القريب من الناحية المعروفة بالبحيرة الفضية ثم عاجوا فهاجموا أسوار المدينة وإن لم يستعملوا آلات الحصار لعدم وجود شيء منها فى متناول أيديهم ولكن غرتهم كثرة عددهم فازدادوا جرأة ووقاحة وحاولوا إشعال النار فى أبواب القصر السفلى القريبة من مزار القديس نيكولا وكان أحد الأباطرة قد شيده منذ زمن بعيد.

أما عامة أهل بيزنطة والدهماء الذين كانوا متخاذلين كل التخاذل والذين لم تكن لهم خبرة بالحروب فقد انخرطوا فى البكاء واسترسلوا فى العويل ولطم الصدور، واستولى عليهم من الخوف ما يستولى عادة على المغلوبين. ثم جاوز الفزع حده بين أتباع الإمبراطور الأوفياء فقد تذكروا يوم الخميس الذى غُلبت فيه المدينة على أمرها وخافوا أن يقع اليوم مثل الذى وقع فى ذلك اليوم من انتقام ربما قد لا يسلمون منه، وأسرع جميع العسكر المدربين إلى القصر من غير نظام، ولكن الإمبراطور ظل رابط الجأش فلم يحاول حمل السلاح ولم يتمنطق بالحزام الواقى ولم يحمل درعا أو يأخذ رُمْحا ولم يستل من وسطه سيفا بل ظل جالسا على عرشه الإمبراطورى ثابتا كالطود

لا يتزحزح، ويقى يراقب الجميع بمزيد من الانتباه واليقظة ويشد من عزائمهم ويبث الشجاعة والثقة فى نفوسهم. كل ذلك وهو يشاور أقاربه وقواده فيما يجب اتخاذه فكان أول ما قرره وأجمع العزم على اتخاذه هو ألا يغادر أحد المدينة لمهاجمة اللاتين تحت أى ظرف من الظروف. ويرجع اتخاذه ذلك القرار إلى سببين: أولهما هو قداسة يومهم هذا فقد كان فى الأسبوع الطاهر الذى هو أعظم أسابيع العام وهو اليوم الذى لاقى فيه المخلص الموت من أجل خلاص العالم كله، وأما ثانيهما فرغبته فى تجنب سفك الدماء المسيحية.

لذلك لم يقصر فى إرسال الرسل الكثيرين إلى اللاتين ينصحهم بالكف عن مثل هذا العمل ويقول لهم: "عليكم أن توقروا الرب فى هذا اليوم الذى ضحى بنفسه فيه من أجلنا، وتحمَّل ما تحمل من صلب وتسمير وطعن بالحربة، وكلها وسائل تعذيب وعقاب لا تكون إلا للأعمال الشريرة، فإن لم يكن بد من المحاربة - ونحن أيضًا مستعدون لها - فلنحارب غَدَاة يوم القيامة".

لكنهم لم يلقوا سمعا إليه ولا أعاروه أذنا مصغية بل راحوا يعدّون عسكرهم ويضاعفون الرمى بالسهام، حتى إن سهما أصاب صدر أحد رجال حاشيته وكان يقف على مقربة من العرش، فلما شاهد الباقون المصطفون على جانبى الإمبراطور ما حدث شرع معظمهم فى الانسحاب. أما هو فقد ظل جالسا متمالكا نفسه يهدئ خواطرهم ويلومهم فى أسلوب رقيق، فتملكت الدهشة نفوس الجميع.

لكن لما رأى الإمبراطور وقاحة اللاتين إذ زادوا اقترابا من السور ورفضهم الأخذ بنصيحته الصادقة خطا من جانبه خطوة فعالة فاستدعى إليه ختنه قيصرى نقفور وأمره أن ينتقى أحسن المقاتلين وأمهرهم بالرمى بالنّبل، وأن يصفُّهم على المتاريس ليمطروا اللاتين بوابل من سهامهم محاولين جهدهم ألاّ تصيب اللاتين بل يرمون بها بعيدا عنهم ليبثوا الفزع فى قلوبهم حتى يدركوا صرامة الهجوم. كما أمرهم أن يتجنبوا جهد طاقتهم أن يصيبوهم فى مقتل فقد كان - كما بينت -يخاف انتهاك حرمة هذا اليوم ويرغب أن لا يقتل الأخ أخاه.

ثم جاء إلى جماعة أخرى من المختارين الذين كان معظمهم من حملة الأقواس ومنهم كثرة مهروا فى استعمال الرماح الطويلة وأمرهم بفتح بوابة القديس رومانوس على مصراعيها والهجوم هجمة شرسة على العدو، كما أمرهم أن يصطفوا بصورة يكون فيها لكل حامل رمح اثنان يحميانه عَن يمين وشمال، ثم يسيرون قدُما إلى الأمام على هذه الهيئة ولكن فى خطى بطيئة على أن يقدّموا قبلهم طائفة من رماة النبال المهرة يرمون الكلت من بعيد، وأن يبدّلوا اتجاهاتهم يمينا أو شمالاً بين وقت وآخر، حتى إذا رأوا المسافة الفاصلة بين الجيشين قد تضاءلت جدا أذن لهم برمى جياد العدو بالسهام مع تجنب إصابة راكبيها، وأنْ يكروا عليهم كرا عنيفا.

كانت الفكرة التى تستهدفها هذه الخطة هى تحطيم حدة هجوم الكلت إذ تصاب جيادهم بجراح فيعجز أصحابها عن مهاجمتهم بهذه الخيول وهى على هذا الوضع. كما أنه من ناحية أخرى كان يتحاشى قتل المسيحيين وهذا أمر يفوق كل ما سواه أهمية، وقد امتثل الضباط لتعليمات الإمبراطور بنفوس راضية ففتحوا الأبواب على مصاريعها وقتلوا كثيرا من الجياد. وإذا كان قتلى الكلت فى ذلك اليوم كثيرين فقد كان جرحى الروم قلة ضئيلة.

والآن أترك هؤلاء فيما هم فيه وأعود إلى سيدى القيصر زوجى نقفور برنياس فأقول إنه بعد أن أخذ معه رجاله المدربين على الرمى بالقوس واعتلى بهم الأبراج كلفهم برمى المتبربرين عن أقواسهم، وكان مع كل واحد من الرماة قوسه المحكم الذى يرمى به بطلقته فيصل إلى مسافة بعيدة، وكانوا كلهم شبابا مهرةً مهارة "تويير" بطل هوميروس فى الرمى بالنبل.

وكان قوس قيصر رائعا يليق بأن يكون قوس "أبولو" لكن قيصر لم يكن مثل أبطال هومير الإغريق، فهو لا يوتِّر القوس حتى يمس صدره ثم يسحب السهم حتى يصير طرفه الحديدى قريبا من القوس، ولم يكن يختال فى مشيته أو يستعرض مثلهم مهارة الصياد ولكنه كان هرقلا ثانيا يفوِّق سهمه القاتل ويُطلقَه من قوسه الذى لا يخيب أبدا فيصيب هدفه ولا يخطئه.

إذا ما شارك في مباراة صيد يرمي سهمه فيصيب مَن يرومه فيخرجه في الحال وبذلك كان يسيطر سيطرة كاملة بفضل قوته على قوسه، كما كان يشد قوسه شدا قويا ويطلق سهمه في خفة لا يجاريه في ذلك أحد حتى ولا "توسير" ولا "الاجاسكيان". وعلى الرغم من مهارته هذه فإنه احترم قدسية هذا اليوم في ذهنه ونفذ تعاليم الإمبراطور حتى إنه لما رأى الفرنجة يقتربون من الأسوار - اقتراب المستهين الغبي - وقد حموا أنفسهم بالمغافر والدروع وتَّر قوسه على أشده وتعمد أن تكون رمياته بعيدة عن الفرنجة فلا تصيبهم.

وعلى الرغم من أنه تجنب رمي اللاتين مباشرة إجلالاً لذلك اليوم فإنه كان يُوتر قوسه حين يرى أحدهم لم يقف به طيشه عند رمي المدافعين عن الحصون بل يزداد غيا فيتلفظ بألفاظ نابية مهينة، وكان إذا أطلق السهم أحكم الرمي فلا يعدو أن يخترق الدرع الطويل فيصيب الذراع والجنب معا فيسقط المصاب مباشرة على الأرض فاقد النطق كما يقول الشاعر فيهتف الروم بحياة قيصرهم، ويحيونه تحية تبلغ عنان السماء وتشق أجواز الفضاء على حين يذرف اللاتين دموعهم حزنا على محاربهم المصاب.

ثم شب الصراع من جديد.

واعتلى رجالهم ورجالنا الأسوار، واستبسلوا جميعا في قتال اتسم بالضراوة والعنف واكتوى الجانبان بأواره، حتى إذا دفع الإمبراطور بحرسه في هذا الصراع فر عسكر اللاتين. فلما كان اليوم التالي جاء هيج إلى جودفروي ونصحه أن يستجيب إلى رغبة الإمبراطور إذا كان يريد أن يعرف مرة أخرى براعة ألكسيوس في القتال. فلما سمع قول هيج اشتد في تعنيفه قائلاً له: "لقد غادرت وطنك ملكا ومعك كل ما تملك من ثروة وما تحت أمرك من عسكر قوي، وهأنتذا قد نزلت من عليائك وبلغت منزلة العبيد ثم تجيء إليّ الآن وكأنك قد أحرزت نصرا عظيما فتحثّني أن أقترف الإثم الذي اقترفته أنت".

فرد عليه هيج دي فرماندوا قائلاً: "لقد كان الأولى بنا أن نبقى في بلادنا ونرفع أيدينا عن الشعوب الأخرى، لكن ما دمنا قد مضينا إلى هذا المدى البعيد وجئنا إلى

هنا فما أحوجنا إلى رعاية الإمبراطور يسبغها علينا، ونحن لن نجني أي خير من هذا المجيء إنْ لم نطعه".

ثم انصرف هيج دي فرماندوا من عنده لم يحقق شيئا ما.

فلما علم الإمبراطور بما جرى بين هيج وجودفروى وجاءه الخبر بأن الكونتات القادمين في أثر جودفروى قد أصبحوا على مقربة منه تَخَيَّر طائفة من أحسن جنده وأنفذهم بعسكرهم إلى جودفروى ينصحونه بأن يعبر البحر، فإن لم يرضخ لما أشاروا به عليه أرغموه قسرا. لكن لم تكد طلائعهم تهل من بعيد حتى بادر اللاتين إلى مهاجمتهم حتّى قبل أن يكلفوا أنفسهم بسؤالهم عما يريدون. وانجلى الموقف عن سقوط كثير من الجانبين في هذا القتال العنيف في حين أثْخنت الجراح جميع رجال الإمبراطور الذين هاجموا من غير اكتراث، فلما رأى اللاتين ما أبداه الرومان من كفاءة عالية كفوا عن القتال وفروا على وجوههم، وما لبث جودفروى أنْ جاء واستسلم وأقسم بين يدى الإمبراطور اليمين التى أرادوه أن يقسمها وهي أنه ما من مدينة أو بلد أو قلعة يفتحها في المستقبل وتدين له وكانت تابعة من قبل للإمبراطورية إلا ويسلمها إلى الضابط الذى يختاره الإمبراطور لهذا الغرض. فلما أقسم جودفروى اليمين أجزل له الإمبراطور العطاء ودعاه لأن يشاركه مجلسه ومائدته، وكان قد أولم له وليمة فاخرة، فلما فرغ من ذلك غادره ميمما وجهه شطر بلكانس Pelcanws حيث نصب مخيمه. كما أصدر ألكسيوس أمره بتزويده هو ورجاله بمزيد من المئونة.

(١٠)

ثم جاء كونت راءول في إثر ذلك على رأس خمسة عشر ألفًا من الفرسان والمشاة فعسكر مع أتباعه الكونتات وحدهم عند "بربونتيس" قرب الدير المعروف بديْر البطرك [ميخائيل]، أما بقية من معه فقد أنزلهم في قلعة على الشاطئ الذى يمتد حتى "سوثينيوم" Sothenum ونهج راءول نهج جودفروى في بادئ الأمر حيث ظل يماطل ويسوف [في قطع اليمين] ترقبا منه لوصول القادمين في إثره، فأزعجت هذه المماطلة

الإمبراطور تحسبا منه لما يحتمل وقوعه. فاستعمل كل الوسائل الحسية والنفسية لاستعجاله هو ومن معه لعبور البسفور، واستدعى فى الحال أوباس "Opus" وكان رجلاً فاضلاً ليس من أحد يفوقه فى إلمامه بالأمور الحربية ، فلما صار بين يديه أوفده سرا مع رهط من الرجال الشجعان الصناديد إلى راءول بعد أن زوده بتعليماته القاضية بأن يحمل "راءول" قسرا على الرحيل إلى الشاطئ الآسيوى. فلما اتضح لأوباس بما لا لبس فيه ولا إبهام عدم توفر النية عند الرجل فى الرحيل وتبين له وقاحته وعجرفته إزاء الإمبراطور، لم يجد بدا من أن ينتضى سيفه ويهيئ رجاله للقتال عساه بذلك يبث الفزع فى نفس هذا المتبربر "راءول"، كما ظن أنه يحمله بهذا السلوك على الإبحار. غير أن رد الكلت لراءول على ذلك العمل كان سريعا جدا فقد قبل التحدى والحرب بمن فى صحبته من الرجال وأظهر نشوة الأسد إذا صادف فريسة دسمة وبدأ فى الحال يقاتل قتالاً شرسا وصل أثناءه "بيجاسيوس" عن طريق البحر لينتقل راءول ورجاله الكلت إلى الجانب الآخر، فلما شاهد الحرب تجرى على اليابسة، وأن الكلت يهاجمون عسكر الروم بلا هوادة أرسى على البر وشارك بنفسه فى القتال وهاجم العدو من الخلف. وجرت معركة لاقى فيها كثير من الفرنجة مصارعهم وإن كان الجرحى يفوقونهم عددا. أما الذين قيضت لهم الحياة فسرعان ما حملتهم هذه الظروف المحيطة بهم على أن يلتمسوا من الإمبراطور السماح بنقلهم عبر البسفور. وخيل إليهم أنهم إن تم لهم ذلك استطاعوا الانضمام إلى جودفرى فيخبرونه بما حدث لهم فتثور ثائرته فيتحفز لعمل شىء ما ضد البيزنطيين.

وقد أجابهم الإمبراطور بكياسة إلى ما التمسوه منه فوضعهم فى السفن وأمر بنقلهم إلى حيث يستطيعون السفر إلى قبر المخلص لاسيما وأن هذه كانت غاية مقصودهم.

وتلقى الكونتات- الذين كان يطمع فى جهودهم- رسائل ودية منه تفيض بالآمال العذاب الكبيرة، فترتب على هذا إقبالهم - حين وصلتهم هذه الكتب - على تنفيذ تعاليمه برضا وطيب خاطر. وإنى لأرى أن فيما ذكرتُه الكفاية عن كونت راءول.

جاء فى أعقاب راءول فريق كبير مؤلف من أقوام مُتَبايني الأجناس من أمم شتى ومن مختلف النواحي الكلتية تحت رايات قوادهم من ملوك وأدواق وكونتات بل وأيضاً من أساقفة ورجال دين، فأوفد الإمبراطور مندوبين عنه ليبرهن لهم على ما يكنه من الصداقة لهم، وقدم إلى هؤلاء الرسل رسائل سياسية كدأبه، فكان رجلاً بعيد النظر إذ يعرف كيف يغتنم الفرصة ويستغلها لصالحه قبل أن يغتنمها منافسوه. وقد اختار لهذه المهمة ضباطا وكلفهم بمد هؤلاء القوم بالطعام الذى هم فى حاجة إليه طول سفرهم حتى يصلوا إلى العاصمة، وكانوا من الكثرة كنجوم السماء أو كحبات الرمل المتناثرة على الساحل ، فلما ساروا إلى العاصمة كانوا أشبه بأوراق الشجر إنْ أنا اقتبست من هومير هذا الكلام، وكم كنت أود لو سميت قادتهم فردا فردا ولكنى أوثر أن أتجاوز عن إيراد أسمائهم لأنى عاجزة عن ذلك من ناحية ولعدم قدرتى من ناحية أخرى على رسم منطوق أسمائهم البربرية. وعلى أية حال فإنى أتساءل ما الذى يحملنى على تدوين أسماء جمْع كبير كهذا الجمع فى الوقت الذى كان من حضروا الاجتماع يكرهون حتى النظر إليهم.

على أنهم حين دخلوا العاصمة - بناء على أوامر الإمبراطور- أنزلوا جنودهم قرب دير القديس " كوسماس" والقديس "داميان"، وانساحوا فى بقعة من الأرض امتدت إلى "هيرون". ولم يحدث ما جرى عليه العرف اليونانى القديم من إرسال تسعة نفر ينادون عليهم بكف أيديهم عن النهب ، واستُعيض عن ذلك بإرسال من يرافقونهم حثا لهم على إطاعة أوامر الإمبراطور الذى رغب فى أن يُلزمهم بقطع يمين التبعية الذى أخذه جودفروى على نفسه من قبل، لذلك استدعى إليه زعماءهم واحدا بعد واحد وتحدث مع كل واحد منهم على انفراد، وأوضح لهم ما يريده منهم. والتمس من عقلائهم التوسط عندهم لكسر شوكة المتشددين منهم، فلما رفضوا الاستجابة لنصحه- ولم يكن رفضهم إلا انتظارا منهم لقدوم بوهيموند- لم يعدموا سلوك طرق فجة لتقديم مطالب جديدة، فقام الإمبراطور فدحض اعتراضاتهم فى يسر، ودخل عليهم من شتى النواحى، فحاجَّهم بمئات الحجج حتى حملهم على إعطاء اليمين كالتى أخذها جودفروى. وحينذاك بعث إلى الأخير يستقدمه بحرا من "بليكانم" ليشهد حفل اليمين فلما اجتمعوا كلهم وفيهم جودفروى ذاته، وقطع كل كونت منهم اليمين على نفسه تجرأ أحد كبارهم وكان وقحا فجلس على كرسى الإمبراطور الذى كظم غيظه من هذا

المنظر واعتصم بالصمت فلم ينبس ببنت شفة لمعرفته ما طبع عليه اللاتين من العجرفة، ولكن كونت بلدوين مشى إلى الرجل وأخذه من يده و أنزله حيث يكون مجلسه، وعنفه تعنيفا قاسيا وقال له: " ما كان يجوز لك أبدا أن تفعل هذا الفعل لاسيما بعد أن أقسمت أن تكون فصلاً لجلالته، واعلم أن الأباطرة الرومان لا يأذنون لأحد أبدا من رعاياهم أن يجالسهم، وهذا هو العرف السائد هنا، كما أن اليمين التى قطعتها بتبعيتك لجلالته تفرض عليك مراعاة تقاليد البلد". فلم يرد الرجل على بلدوين بشىء ولكنه صوب نظرة حادة إلى ألكسيوس وتمتم بكلمات قالها بلغته "يا له من جلف!!... أينفرد بالجلوس وحده دون الجميع ويبقى أمثال هؤلاء القادة وقوفا بجواره؟".

ورأى ألكسيوس شفتى الرجل تتحركان فنادى واحدا من المترجمين يعرف لغة الرجل وسأله عما يدمدم به فأعلمه المترجم بما قاله، فلم يعلق ألكسيوس على ما قاله بشىء ما فى لحظته هذه، بل كتم كل ملاحظاته عنه فى صدره ولم يصرح بها لأحد، إلا إنه لما شرع الجميع يستأذنونه فى الانصراف بعث فى طلب هذا الرجل الوقح المتطاول عليه وسأله من يكون ومن أين جاء، وما نسبه فقال:" أنا فرنجى قح ورجل شريف المولد ولا أعرف سوى أنه يوجد فى أحد مفارق الطرق فى بلدى الذى ولدت به مزار عتيق يمضى إليه كل ذاهب للمبارزة ويصلى فيه داعيا الرب أن يُعينه، ويظل هناك فى انتظار الرجل الذى يَجْرؤ على تحديه. ولقد أمضيت أنا نفسى فى مفترق الطرق هذا بعض الوقت أتلهف على الرجل الذى يبارزنى، لكن لم يظهر أحد ما يجرؤ على مبارزتى".

فلما سمع الإمبراطور مقالة الرجل قال له: "إذا كنت لم تجد من يبارزك حين رحت تلتمسه فإن الفرصة سانحة لك الآن لمبارزة الكثيرين، لكنى أمْحضك النصح الخالص ألاّ تقف فى مؤخرة الجيش أو فى المقدمة بل عليك أن تتخذ مكانك فى الوسط مع صغار الضباط فإنى أعلم الناس بأساليب العدو. وإن لى تجربة طويلة مع هؤلاء الترك".

لم تكن النصيحة موجهة إليه هو وحده بل إنه حين غادره الجميع حذر بقيتهم من الأخطار العديدة المحتمل تعرضهم لها فى سفرهم. ونصحهم ألاّ يوغلوا بعيدا فى مطاردة العدو إنْ نصرهم الله حتى لا يتردوا فى الشراك التى ينصبها لهم القادة الترك فترديهم مورد الحتوف.

هذا ما كان من جودفروى وراءول ومن صحبهما.

(١١)

ثم وصل بوهيموند إلى ابيروس مع بقية الكونتات، ولما كان يعرف عن نفسه أنه ليس من أصل نبيل وليس معه العديد من المحاربين بسبب قلة موارده وضيق ذات يده فقد أراد أن يكسب رضاء الإمبراطور، وإنْ أخفى فى الوقت ذاته نواياه العدوانية ضده، لذلك أسرع مع عشرة فقط من الكلت فى الوصول إلى العاصمة قبل غيره، فلم تفت خططه ألكسيوس لقديم معرفته بما جُبل عليه بوهيموند من ختل وغدر، وأراد الإمبراطور أن يتحدث إليه قبل دخول رفاقه، وأن يسمع منه ما يريد أن يقوله له قبل أن تتاح فرصة من الوقت تمكنه من إفساد بقية الصليبيين عليه، الذين لم يكونوا بعيدين عن العاصمة، كما طمع فى الوقت ذاته أن يحمله على العبور إلى آسيا.

حين أصبح بوهيموند فى حضرته وبين يديه هش له الإمبراطور وبش وسأله كيف كانت رحلته وأين ترك الكونتات. فأجابه بوهيموند بصراحة عن كل ما يسأل، وإن كان الإمبراطور قد ذكره فى أدب بغاراته فى لارسا وديورازو، وبما سلف من عدائه. ثم رد عليه بوهيموند قائلاً: "أجل لقد كان ذلك.. ولقد كنت يومذاك فى الواقع خصما وعدوا، ولكنى جئتك اليوم بمحض إرادتى كصديق لك يا صاحب الجلالة".

وتحدث معه الإمبراطور فى أمور شتى ولكن فى حرص شديد محاولاً أن يستشف مشاعره الحقيقية حتى إذا أيقن فى النهاية أن بوهيموند مستعد لأن يقسم يمين الولاء قال له: "ما أحسبك الآن إلا مجهدا من سفرك، فامض وخذ حظك من الراحة، فإذا كان الغد استطعنا أن نناقش المسائل الخطيرة ذات الاهتمام المشترك".

وانتقل بوهيموند إذ ذاك إلى دار الضيافة حيث أُعِد له نزل خاص به وجهزت له مائدة حفلت بشتى صنوف الطعام والمشهيات والحلوى، ثم جاء الطهاة بلحوم الحيوان والطيور النيئة غير مطهية، وقالوا له: "إنك ترى إننا جهزنا لك الطعام حسبما جرت عليه عادتنا، فإن لم يرق لك ذلك ولم يوافق هواك فدونك اللحم النيئ فمرنا بطهيه لك حسبما تشتهى".

لم يكن الطهاة فيما فعلوا وما قالوا إلا منفذين لتعليمات الإمبراطور الذى كان إذا حكم على امرئ أصاب محز الحقيقة، كما كان بارعا فى قراءة ما يخفيه الشخص فى أعماق نفسه من الأفكار. ونظرا لمعرفته بطوية بوهيموند وما جبل عليه من الشك فقد

توقع ما سوف يحدث. ولقد وقع ما توقعه. ولكن رغبة منه فى ألا يذهب سوء ظن بوهيموند به مذهبا يجعل الشك يحتك فى صدره فقد أمر أن يأتوه باللحم نيئا أمامه. وكانت هذه الحركة منه رائعة؛ ذلك أن هذا الفرنجي الخبيث لم يكتف برفض تذوق أى طعام يوضع أمامه بل زاد فأبى أن يمسه ولو بأطراف أنامله، ثم أمعن فى الرفض الصريح فأمر بتوزيعه بين جميع القائمين على خِدْمته دون أن يفصح عن توجساته الخفية، وبدا وهو يفعل ذلك كأنه يحسن إليهم ويرفق بهم، لكن لم يكن ذلك العمل منه فى الواقع إلاّ تظاهرا ونفاقا، فإنك لو نظرت للمسألة نظرة تمعن لأدركت أنه يظن إنه يقدم لهم كأس الموت، ولم يستطع ستر خيانته فقد دأب على معاملة الخدم بمنتهى البخل والازدراء: طبيعةٌ رُكِّبَتْ فيه، فقد أمر طهاته الخصوصيين أن يعدوا له اللحم النيئ حسب الطريقة الإفرنجية.

فلما كان اليوم التالى سأل مرافقيه بما يشعرون به بعد تناولهم عشاءهم الليلة الماضية فقالوا له "نحن على خير ما نكون"، وزادوا فقالوا إنهم لم يحسوا قط بأدنى تعب يدعو للشكوى من هذا الطعام، وحينذاك قال لهم: "حَسِبْتُ أن يكون قد دبر مكيدة لقَتْلى فدس السم لى فيما قدم من طعام".

ويتحتم علىّ أن أقول إنى لم أر قط فى حياتى رجلاً شريرا كهذا الرجل، اتسمت جميع أفعاله وأقواله بالبعد عن الصواب وتنكب السبيل السوى، فما من شخص يحيد عن الطريق المعتدل إلاّ ويباعد بين نفسه وبين الخير.

ثم بعث الإمبراطور فى استدعاء بوهيموند وطلب إليه ما طلبه من الآخرين من قطع يمين الولاء له على الطريقة اللاتينية المألوفة، فقطعها.

والحق أن بوهيموند كان يعرف حقيقة ذاته ويعرف أنه ليس بالثرى الكبير الثراء، ولا بالرجل المنحدر من أسلاف رجالٍ عظام يحق له الاعتزاز بهم مما ترتب عليه أن يقسم قسما كاذبا، فالكذب جبلته وطبيعته وديدنه.

وحدث بعد انتهاء الاحتفال أن أفرد ألكسيوس من حجرات القصر واحدة فرشت أرضها بالبسط الغالية ونثرت عليها العملات الذهبية والفضية والمصوغات التى هى دون ذلك، حتى اكتظت بهذه الأشياء اكتظاظا أصبح من المستحيل على أى شخص أن يتمكن من السير فى الحجرة. ثم أمر ألكسيوس الشخص المرافق لبوهيموند أن يريه

هذه الثروات ففتح له الأبواب فجأة فلما طالعها اعترته الدهشة مما يرى وقال: "لو أن لى مثل هذه الثروة لتملكت كثيرا من البلاد منذ زمن بعيد "، فقال له مرافقه: "إن كل ما تراه الآن إنما هو لك هدية من الإمبراطور". فامتلأت نفس النرمندى فرحا، وبعد أن حملوا إليه الهدية شكر الإمبراطور على ما أهداه إليه ثم مضى يستجم فى مسكنه المؤقت. لكنه عاد بعد قليل فبدل رأيه وإعجابه بالهدية قائلاً: "ما كنت أحسب أبدا أن يهيننى الإمبراطور هذه الإهانة... ألاّ دونكم الهدية فاحملوها وأعيدوها إلى مرسلها".

على أن الإمبراطور كان معتادا على خُلُق اللاتين الذاتى فردد مثلاً شعبيا يقول "سوف يحيق به سوء مكره ويقع على رأسه".

سمع بوهيموند بما كان ورأى الخدم يبذلون أقصى همتهم فى جمع الهدايا للعودة بها إلى حيث كانت، وحينذاك بدل رأيه مرة أخرى وابتسم للخدم بدلاً من أن يصرفهم غاضبا، فكان أشبه بأخطبوط البحر سرعان ما يبدل هيئته. وقد كان بوهيموند –والحق يقال – مطبوعا على الخبث والنذالة ولا يثبت على رأى واحد بل سرعان ما يحيد عنه حسب ما تُمْليه عليه الظروف. ولقد بز فى دناءته جميع اللاتين الذين مروا على القسطنطينية فى ذلك الحين وإن كان هو أقلهم ثروة ودخلاً، كما أنه أكْبَر الساعين فى الشر يوغِل فيه إيغالاً كبيرا، هذا إلى جانب عدم وفائه ونقضه العهد وإن كان ذلك الأمر خصلة شائعة بين اللاتين فاشية فيهم بصورة ملحوظة، ومن ثم فلا عجب أن بلغ الفرح به غايته حين تسلم الهدايا التى سبق أن رفضها من قبل مبلغا عظيما ولقد غادر وطنه وهو مملق أشد الإملاق لا يملك من الأرض شبرا وادعى وهو خارج أنه ماض للحج والصلاة بكنيسة القيامة، ولكن الحقيقة هى أنه خرج ليكسب قوته، ويحصل على أرضٍ لنفسه وكان فى ذلك سالكا مسلك أبيه منصاعا له، وإن أمكن الاستيلاء على الإمبراطورية الرومانية ذاتها. وكان مستعدا للذهاب إلى أقصى مدى يمكن الذهاب إليه، لكن ذلك يتطلب كثيرا من المال، ولما كان الإمبراطور غير جاهل بنزعة الرجل الكريهة وطبيعته المرذولة فقد جاهد الجهاد الصادق فى القضاء على كل شىء يخدم خطط بوهيموند السرية، لذلك لم يستجب لسؤال بوهيموند إياه بأن يجعله نائبه فى القسم الشرقى من الإمبراطورية وإلا أصبح منافسا له، ثم إن الخوف ساوره منه إذا

هو ملك شيئا من السلطة والنفوذ فيستعمل ما ملك لإخضاع جميع الكونتات الآخرين، ومن ثم يصبح من اليسير عليه أن يوجههم الوجهة التي يريدها.

كذلك أراد ألكسيوس من ناحية أخرى ألا يثير ريبة في نفس بوهيموند فيعرف انكشاف أمره، لذلك راح يمنيه بالأماني العذاب ويمالئُه فيقول له: "لم يحن الوقت بعد لتحقيق هذا المطلب وإن لم يكن بعيدا أن تنال هذا الشرف العظيم الذي هو مرتبط بما تبذله من الهمة وما تبديه من الولاء"!!

فلما كان اليوم التالي لحديث ألكسيوس وما أظهره لبوهيموند ومن معه من المودة التي تمثلتْ فيما أغدقه عليهم من الصلات الجمة وما منحهم من المِنَح المختلفة وما أسبغه عليهم من التعظيم؛ أقول إنه غداة هذا كله جلس الإمبراطور على عرشه الإمبراطوري ثم استدعى إليه بوهيموند وغيره من الكونتات وحذرهم من أمور يحتمل أن يصادفوها في أثناء زحفهم. ومحضهم النصيحة الخالصة وعرَّفهم بحيل الترك التي اختصّوا بها في الحرب، ثم اقترح عليهم الأسلوب الذي ينبغي عليهم اتباعه في تنظيم جيشهم وترتيب صفوفهم، ونصحهم بألا يتمادوا في مطاردة الترك السلاجقة إنْ رأوهم يفرون أمامهم.

وقد استطاع ألكسيوس بفضل الله أن يخفف من حدة مسلك الفرنجة الوحشي وأنْ يُزَوِّدهم بالرأي السديد، فلما بلّغ ذلك كله اقترح عليهم أن ينهضوا ليعبُروا البسفور إلى آسيا الصغرى.

لم يصْطفِ ألكسيوس من جميع الفرنجة أحدا سوى ريموند كونت صَنْجيل وقد حبَّبه إلى نفسه عدة أسباب منها ما طبع عليه هذا الكونت من الذكاء الوقاد والسمعة الطيبة وصفاء نفسه، ثم ما عرفه الإمبراطور فيه من تعظيمه للحق فهو - أيا كانت الظروف- مؤيد للعدل، جاعل إياه فوق كل شيء. والواقع أن الصنجيلي كان يَبُزّ جميع اللاتين في كل الصفات الحميدة، وكان أشبه بالشمس يكسف نورها ضوء النجوم.

من أجل هذا استبقاه ألكسيوس عنده بعض الوقت حتى إنه لمَّا استأذنه جميع الكونتات الآخرون وعبروا مضيق "بروبونتيس" إلى "داماليون" وزالت الغمة عن الصدور وتنفس الصعداء لتخلصه من وجودهم المؤذي لم يكن يدع فرصة تسنح له إلا ويبعث في

طلب الكونت ريموند الصنجيلي، مفصلا له الأخطار التى لابد أن تواجهه هو واللاتين فى زحفهم، كما صارحه بشكوكه الكبيرة فى نواياهم، ولم يكتم عنه سوء ظنه بما ينتظرهم، وكثيرا ما كان يصرح للكونت وهو يتحدث فى هذه الأمور بأنّه فتح له مغاليق قلبه. كما أن ألكسيوس لم يكن ينى لحظة عن تحذيره من غدر بوهيموند، ولم يكن يدع فرصة تمر دون أن يحذره من خيانته ويوصيه بأن يكون على استعداد لإحباط كل محاولة من جهة بوهيموند فالغَدْر أمر قديم فيه وليس بالجديد، وهو إرْث ورثه عن أسلافه. وكان مما قاله ريموند فى هذا الصدد: "لئن يوف بوهيموند بيمينه ويبر بقسمه فذلك ضرب من المعجزات. أما فيما يتعلق بى أنا - ريموند الصنجيلى- فسوف أبذل دائما قصارى جهدى فى الالتزام بأوامرك".

ثم استأذن ريموند من الإمبراطور فى السفر وخرج لينضم إلى بقية جيش الكلت.

كان ألكسيوس يرغب من ناحيته فى المساهمة إلى جانب الكلت فى زحفهم لقتال المتبربرين، لكنه خاف من ضخامة عددهم. ورأى الصواب فى الانتقال إلى "بلكانوم" ليجعل مركز عملياته الحربيّة الدائم قرب نيقية فيتسنى له بذلك الحصول على أخبار تقدم السلاجقة والوقوف على نشاطهم خارج المدينة، كما يستطيع أيضًا الإلمام بأحوال من فى داخلها من السكان، كما اعتقد أنه من العار عليه فى الوقت ذاته ألا يحوز نصرا عسكريا أيا كان هذا النصر. ولذلك رسم خطته للاستيلاء بنفسه على نيقية، وعد ذلك الاستيلاء أحسن مما لُو رَدُّها الكلت عليه بناء على الاتفاق المبرم منذ قريب بينه وبينهم، لكنه كتم عزمه على الخروج وأبْقى ما اتخذهُ من الاستعدادات طى الكتمان إذ كان لا يصرح لأحد ما بأى تصرف يزمع القيام به وقد عهد بهذه المهمة إلى أخلص ثقاته وموضع السر منه وهو "بوتوماتيس" حيث وكل إليه القيام بخديعة المتبربرين من أهل نيقية إذْ يمنيهم بالعفو التام عنهم، ويثير الجزعَ فى نفوسهم من الكلت الذين سوف يعذّبونهم العذاب الأليم الذى يصل إلى قتلهم بالسيف إن استولى هؤلاء الفرنجة على مدينتهم.

وكان الإمبراطور يثق من أمد بعيد فى إخلاص تابعه بوتوماتيس له، ومن ثم كان يعرف أنه سوف يتخذ من الإجراءات الفعالة ما يراه ضروريا وواجب الاتخاذ.

وقد سارت الأحداث التى جرَت من قبل على هذا النسق.

الكتاب الحادى عشر

الحرب الصليبية الأولى

(١٠٩٧ -١١٠٤)

فقرات الكتاب الحادى عشر

الفرنجة يحاصرون نيقية . النجدة السلجوقية تُغلب على أمرها وتُهزم. الصنجيلى يهاجم برج جوناتس.

١- بوتوميتس يتفاوض لتسليم نيقية.

٢ - جميع الكونتات يقسمون يمين الولاء قبل خروجهم إلى أنطاكية. الانتصار الكلتى الرومانى فى سهل دوريليم. (يوم أول يوليو ١٠٩٧).

٣ - الوصول إلى أنطاكية عبر الطريق السريع. المدينة تستسلم بالخديعة. بوهيموند يطالب بها لنفسه بعكس الاتفاق.

٤ - العمليات ضد تزاخاس الذى يسلم سيميرنا . المذبحة فى الأتراك واستيلاء جون دوكاس.

٥ - الإمبراطور يساعد الكلت قرب أنطاكية ضد الهجمات السلجوقية. طبيعة الجنس الكلتى. ألكسيوس يخشى أن يحاصر أنطاكية والقسطنطينية فينسحب. خبر المسمار المقدس. بوهيموند يصبح حاكم أنطاكية. أخبار عن استسلام القدس. المناداة بجودفرى ملكا .

٦ - أميرت مونس يهاجم الكلت. وقوع أسرى كثيرين فى الرملة. الإمبراطور يقدم فدية. بناء قلعة صنجيل أمام طرابلس. تنكريد يحاصر اللاذقية.

٧ - بولدوين يخلف جودفرى ملكا على القدس. جيش نورماندى جديد يزحف رغم معارضة ألكسيوس. وقوع مأساة. صنجيل ينجو ولكنه لا يلبث أن يموت عند طرابلس.

٨ - الأمر إلى بوهيموند بتسليم أنطاكية . الرد وكله عجرفة. بوتوميتس يذهب لحماية كيليكيا.

٩ - إرسال النجدة إلى الفرنج وحرق السفن.

١٠- حملة جنوية تبحر بمساعدة بوهيموند. الهجوم على اللاذقية بحرا وهجوم مونستراس برا.

١١- بوهيموند يعهد بأنطاكية إلى تنكريد. إعلان وفاته الكاذبة وعودته إلى كورفو فى النعش.

(١)

تَلاقى بوهيموند وجميع الكونتات فى الموضع الذى كانوا قد أزمعوا الإبحار منه إلى "كيبوتس" Kibotes [التى هى شيفتوت] فى انتظار وصول "ريموند الصنجيلى" الذى كان قادما صحبة الإمبراطور، واتفقوا على ألاَّ تكاد تنضم جيوشهم كلها بعضها إلى بعض حتى يزحفوا كتلةً واحدة إلى نيقية، لكنَّ أعدادهم بلغت من الكثرة حداً أصبح من المستحيل معه أن يتريثوا أكثر مما تريثوا، وقلّت المئونة والأزواد التى عندهم قلة شديدة. ومن ثم قسموا عسكرهم قسمين، اتجه أحدهما شطر "نيقية" وعبر "بيثينيا" و"نيقوميديا"، بينما عبر القسمُ الآخر البسفور إلى "كيبوتس" التى اتخذوها قاعدة لتجمعاتهم، فلما قاربوا نيقية على هذه الصورة عهدوا إلى البعض منهم بحراسة الأبراج والمبانى الجاهزة قاصدين من ذلك الهجوم على الأسوار وفق ما اتخذوه من الإجراءات، وبذلك تشتد المنافسة بين مختلف الكتائب ويزداد الحصار عنفا وضراوة. لكن ظل المكان الذى خُصص للصنجيلى فارغا فى انتظار قدومه. أما الإمبراطور فكان قد وصل فى هذه الآونة إلى "بلكانوم" Pelkanum واحتلها وهدفه نيقية كما قُلت من قبل، فأكثَرَ المتبربرون الذين بداخلها من إرسال الكتب إلى سلطانهم يسألونه النجدة ولكنه أضاع الوقت، واستمر الحصار مضروبا عليها أياما طويلة منذ شروق الشمس إلى غروبها حتى بلغت أحوال أهلها أقصى ما يمكن أن تبلغه من السوء الذى لم يكن يخفى عن العيون. مما أفضى بهم إلى الكفّ عن القتال وجَعَلَهم يؤثرون موادعة الإمبراطور بدَلاً من وقوعهم فى الأسر، لذلك استدعوا إليهم "بوتوميتس" الذى أغرقهم بسيل لا ينتهى من الكتب التى يمنيهم فيها بما سوف يسبغه الإمبراطور عليهم من العطف والرعاية إنْ أسلموا أمرهم إليه هو وحده دون سواه. كما فصّل لهم مشاعر مولاه الودّية ولوّح لهم بعهود أمانٍ مكتوبة، فوجدت كلماته هذه ترحيبا من أتراكها السلاجقة الذين داخلهم اليأس من قُدرتهم على الصمود فى وجه كثرة عدوهم، كما رأوا الخير كل الخير فى أنْ يسلموا نيقية إلى الإمبراطور طواعية ومن تلقاء

أنفسهم فتصيبهم نعمةُ ويُحسن إليهم بدلاً من أن يكونوا وقودا لحربٍ لا جدوى تعود عليهم منها.

لم يكن قد مضى على "بوتوميتس" فى ذلك الموضع سوى يومين حين وصل الصنجيلى الذى بادر إلى مهاجمة الأسوار بلا تمهلٍ ولا إبطاء، فنصب آلات الحصار وأعدّها لتكون جاهزةً لذلك العمل، لكن عمّت فى تلك الآونة شائعة تزعم أن السلطان قادم إليهم وأن وصوله إليهم فى القريب، فشد هذا الخبر من عزمهم مرة أخرى وقاموا بإخراج "بوتوميتس".

أما ما كان من شأن السلطان فقد أرسل مفرزة من عسكره ليعلموا خبر العُدوان الفرنجى وكلفهم بالقتال إنْ هم قابلوا أحدا من الكلت. ثم إنّ رجال الصنجيلى أبصروهم من بعيد فتقدّموا نحوهم والتحموا بهم، فشالت كفة الترك بسبب قيام بعض الكونتات ومنهم بوهيموند ذاته حين علموا بهذا الاشتباك فأخذوا مائتى رجل من كل طائفة، فتألف منهم جيش كبير وأرسلوهم فى الحال لمساعدة "ريموند الصنجيلى" فكلفوا الترك بذلك مِن أمْرهم رهقا فى قتالٍ ظلّوا يراوحونهم به حتى أسدل الليل سدوله، وقد جرت كل هذه الأحداث والسلطان السلجوقى أبعد ما يكون عن الإحساس بخطورة هذا الاندحار، لكنه عمد فى اليوم التالى وقد أشرقت الشمس فبرز فى كامل سلاحه وأنزل رجاله السهلَ الواقع خارج أسوار "نيقية"، فلما سمع به الكلت انتضوا أسلحتهم هم أيضاً واستعدوا للقتال وهجموا على أعدائهم هجمة الأسد الضارى، وشبَّ قتال عنيف بين الطرفين استمر نهارهم كله وإنْ لم يُسْفِر عن نتيجة حاسمة. غير أن السلاجقة ما لبثوا أن شرعوا فى الفرار حين مالت الشمس إلى المغيب، وهكذا وضع الليل نهايةً لهذا القتال الذى سقط فيه الكثيرون من الجانبين.

أما غالب المقاتلين فقد أثخنتهم جراحهم، وهكذا انتصر الكلت انتصارا كبيرا على عدوّهم فرفعوا على رماحهم رءوس كثير من السلاجقة القتلى، ثم قفلوا راجعين بها

كأنها البيــارق فى أيديهم، فلمــا أبصــرهم المتــبربرون [التــرك] من بعــيد أدركــوا ما جرى، وإذ ذاك حملــهم الخوف من الهــزيمة - التى حلّت بهم فى أول لقــاء بينــهم وبين الفرنجــة - على الكف عن التفــكير فى قتالهم فى المستقبل إنْ راودهم مـثــل هذا التفكير.

هذا خبر ما كان من أعمال اللاتين.

حـين أدرك السلطان كـثرة اللاتين وثقـتهم بأنفسـهم خاطب تركَ "نيقـية" قـائلاً: "افعلوا من الآن فصاعدا كل ما ترونه فى صالحكم"، وكان يعرف من قبل إيثارهم العافية بتسليم المدينة إلى ألكسيوس بدلاً من الوقوع فى أسر الكلت.

أما الصنجيلى فقد بادر إلى القيام بما عهد به إليه إذ شرع فى تشييد برج خشبى مستدير وكَسَاهُ من الداخل والخارج بالجلد المدبوغ، وملأ القسمَ الأوسط منه بحبال رطبة مجدولة، فلما تماسك البرج وكمل على أحسن صورة دفعه حتى قارب ما يسمى ببرج "جوناتاس" Gonatas .

أما آلاته الحربية المسماة الواحدة منها بالسلحفاة فقد ملأها بالرجال الذين اقتصرت مهمتهم على قصف الأسوار ببطارياتهم، كما زوّدها بالعسكر المدربين على حفر الخنادق والسراديب وجهزهم جميعا بالآلات الحديدية الخاصة بالهدْم والنقب من أسفل، وكانت مهمة الأولين تتلخص فى شغل المدافعين الواقفين على المتاريس ومناجزتهم القتال. أما الآخرون فكانوا يعملون من تحتٍ وهم آمنون فيضعون فيها كتلا من الخشب بدلاً من الحجارة التى أحضروها ووصلوا فى الحفر والنقب إلى النقطة التى يمكن لبصيص ضئيل من النور أن ينفُذ منها، وأضرموا النار فى هذه الكتل حتى إذا صارت رمادا زاد ميل برج "جوناتاس". أما بقية الأسوار فقد أحيطت بالسلاحف وبآلات الرمى المعروفة بـ"الكباش"، وامتلأ الخندق الخارجى بالتراب حتى استوى بسطح الأرض من كلا الجــانبين. ثم اندفــعوا إلى الأمــام بأقصى ما فيهم من قوة.

(٢)

أما الإمبراطور الذى تدبر أمر نيقية تدبيرا دقيقا فقد أدرك تمام الإدراك أنه ربما لا يكون من الممكن للاّتين أن يستولوا عليها مهما بلغوا من الكثرة العددية، فلما جاء دوره شيد وسائلَ دفاعٍ مختلفة الأنماط وكلها من ابتداعه مما لم يسبقه إليها أحد، ثم أرسل هذه الآلات الحربية إلى الكونتات، وكان - كما قلت - قد عبر بالقوات التى تسنّى وجودها إذ ذاك تحت يده وأقامها على مقربة من "ميساتبوليه" Mesanpolet حيث كان فى الأيام الخالية أحد المزارات المقام تمجيدا للشهيد العظيم جورج.

كان ألكسيوس يتمنى لو يصاحب بنفسه الحملة الخارجة ضد السلاجقة الكفار، غير أنه تخلى عن هذا بعد التأمل الدقيق، إذْ كان مما يحول بينه وبين المشاركة فى هذه الحملة قلة عدد الجيش الرومانى قلةً ملحوظة إذا ما قيس بجموع الفرنجة الكثيفة. كما دلّته خبرته الطويلة باللاتين على أنهم قوم ليسوا موضع ثقة ولا يمكن الاعتماد عليهم، إلى جانب ما طبعوا عليه من الخيانة والتقلب الشديد تقلب أمواج مضيق "يوريبس" من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، كما أن ما جبلوا عليه من الجشع وحبٍّ المال كان يجعلهم على استعداد لبيع نسائهم وأولادهم، فكانت هذه الأسباب وأمثالها هى التى حالت بينه وبين الانضمام إلى الحملة. لكن إذا كان قد رأى الخير فى ألا يشارك فيها بنفسه فقد رأى أنه لا أقل من أن يقدم للكلت أكبر قدر من المساعدة كما لو كان هو حاضرا بذاته ومشاركا لهم فى حملتهم.

وكان ألكسيوس على ثقة تامة باستحالة تمكن اللاتين من اقتحام "نيقية" بفضل مناعة أسوارها مناعةً تجعلها عزيزة المنال، بيْد أنه لما جاءه الخبر بأن السلطان "قلج أرسلان" قادم بقوات كثيفة وبكل ما يحتاج إليه من وسائل تمكّنه هو ومن معه من عبور[١] البحيرة دون أية صعوبة وعرف من اليسير دخول كل هؤلاء الرجال إلى المدينة صمّم على بسط سيطرته على "البحيرة" فصنع قوارب خفيفة تكون قادرة على الإبحار فى مياهها، ورفعها على عربات النقل ثم أنزلها على جانب "كيوس" Kios وملأها بالعسكر وهم فى كامل سلاحهم الحربى، كما زوّد قائدهم "مانويل بوتوميتس" بأعلام فاقَتْ فى الكثرة ما تُزَوَّد به القوات فى العادة حتى تبدو وكأنها أكثر من عددها

الحقيقى بمراحل كبيرة، كما أنه جهزهم بكثير من الأبواق والطبول، ثم التفت بعدئذ إلى الأرض الأصلية فأرسل فى طلب "تاتيكيوس" و"تزيتاس" Tzitas وأنفذهما إلى "نيقية" على رأس قوة من المحاربين قوامُها ألف جندى، وأمرهم أن يأخذوا أكبر عدد مستطاع من القُسيّ يحملونها على ظهور البغال حالما يرسون على الشاطئ، ثم يتقدمون بعدئذ للاستيلاء على قلعة "القديس جورج"، فلما صاروا على مقربة من أسوار نيقية ترجّلوا عن جيادهم ومشوا رأسا إلى برج "جوناتس" يرابطون عنده ويهاجمون- بالاتفاق مع الكلت - وأطاع "تاتيكيوس" أوامر الإمبراطور، لذلك فإنه بادر إلى إخبار الفرنج بوصوله على رأس عسكره فلبس كل واحد مغفرهُ وحمل سلاحه وكرّوا كرةَ رجل واحد وهم يصرخون صرخات الحرب، وأطْلق عسكر "تاتيكيوس" وابلاً من السهام. وتمكن الكلت من فتح ثغرات فى السور واستمرُّوا يرمون بالحجارة مِن مناجيقهم، ووقف العدو على جانب البحيرة مشدوها وهو يطالع الرايات الإمبراطورية تخفق عالية ويسمع نفخ أبواق "بوتوميتس" الذى اختار هذه اللحظة بالذات ليُخبر الترك بالوعود التى كان الإمبراطور قد وعدهم ومناهم بها، وكانت معنويات المتبربرين قد انهارت إلى الحضيض حتى لم تعد عندهم جرأة على أن يُطلوا من شرفات أسوار نيقية، كما تبدد أملهم فى الوقت ذاته فى قدوم السلطان إليهم بنجدة لهم، فأجمعوا الرأى فيما بينهم على أن الخير لهم يكون فى تسليمهم المدينة والشروع فى فتح باب المفاوضات مع "بوتوميتس" من أجل الوصول إلى هذا[٢] الغرض. وبعد أن فرغوا من المجاملات المألوفة أطلعهم "بوتوميتس" على المرسوم السامى الذى معه من الإمبراطور وهو مرسوم لم يقتصر على تزويدهم بالأمان فقط بل سخا عليهم إلى جانب ذلك بقدر كبير من المال، زيادةً على إنعاماته التشريفية على أخت السلطان، وعلى زوجته التى قيل إنها كانت ابنة "تزاخاس"، كما شملت هذه العطايا جميع المتبربرين فى "نيقية" دون أن يستثنى منهم أحدا، ثم أُذن لبوتوميتس بدخول المدينة ثقة بعهود الإمبراطور، فما كان من بوتوميتس إلاّ المبادرة بإرسال رسالة إلى تاتيكيوس يقول له فيها: لقد صارت الطريدة الآن فى أيدينا فيجب إعداد التجهيزات اللازمة لشن الغارة على الأسوار، كما يجب أن يشارك الكلت أيضًا فى هذا الهجوم، ولكن لا تدع لهم سوى الهجوم على الأسوار التى حول

المتاريس، أما أنت فعليك أن تحاصر المدينة من شتى نواحيها بكل ما يمكنك الحصار به، وأن تكون هجمتك مع شروق الشمس.

كان الهدف الحقيقى من هذه الخطة هو حمل الكلت على الاعتقاد بأنّ المدينة قد سقطت فعلاً بالحرب فى يد "بوتوميتس". وقد رتب ألكسيوس هذه الحيلة ترتيبا دقيقا باهرا، وأبقاها طىَّ الخفاء؛ لأن رغبته كانت تتمثل فى أن تظل المفاوضات التى يقوم بها "بوتوميتس" سرا مكتوما عن الكلت. فلما كان اليوم التالى شبَّ القتال فى جانبى المدينة، فقام الكلت من ناحية الأراضى الرئيسية وشدّدوا الحصار الذى اتسم بالوحشية. أما الجانب الآخر فكان به "بوتوميتس" الذى اعتلى الأسوار وركّز الرايات والبيارق الإمبراطورية وتعالى الهتاف للإمبراطور وقد خالطته دقات الطبول وأصداءُ النفخ فى الأبواق، ودخلت القوات البيزنطية بأجمعها نيقية على هذه الصورة.

ولما كان "بوتوميتس" يعرف كثرة عدد الفرنجة وشدّة بأسهم وتقلّبهم وسرعة انفعالهم فقد توقّع استيلاءهم على القلعة إنْ هم أصبحوا داخل البلد. وزيادةً على ذلك فإن المرازبة السلجوقيين فى نيقية كانوا قادرين- لو صحت عزيمتهم - على ذلك الأمر أى على أسْرِ قواته الخاصة والفتك بها لأنها كانت ضئيلة إنْ هى قورنت بقوات الترك من حيث العدد، ومن ثم بادر إلى أخْذ مفاتيح الأبواب التى كانت كلها مغلقة سوى باب واحد فقط سمح للناس باستعماله فى الدّخول والخروج، وكان إغلاق بقية الأبواب بسبب الخوف من الفرنجة الواقفين وراء الأسوار، فلما أخذ "بوتنياتس" مفاتيح هذه البوابة دبر حيلة تؤدى إلى قلة خطر المرازبة بصورة تجعلهم تحت رحْمته، وبذلك يتجنب أية خيانة يدبرونها فيما بينهم ضده، فبعث فى طلبهم فلما استجابوا له وحضروا أشار عليهم بزيارة الإمبراطور إنْ هم أرّادوا مزيدا من المال يأخذونه منه يدا بيد، أو أرادوا مزيداً من الامتيازات السامية يمنحهم إياها الإمبراطور ومن الإنعامات التى يضفيها عليهم وذلك بإدراج أسمائهم فى سجلات الذين يُنعَم عليهم سنويا، فيما مناهم به، فلما دخل الليل فتح باب المدينة وأذن لهم بالخروج فى جماعات يتلو بعضها بعضا وعلى فترات متباعدة ليأخذوا طريقهم عبر البحيرة القريبة فتلقاهم "رودومير" Rodomerوالعلج المهجن "مونستراس" Monastras اللذان كانا واقفين عند القلعة المسماة بقلعة سنت جورج.

كانت تعاليم بوتوميتس إلى هذين الرجلين تقضي بإرسال الترك إلى الإمبراطور على وجه السرعة منذ أن تطأ أقدامهم اليابسة حتى لا يتصلوا بالترك القادمين فى أعقابهم فيدبرون فيما بين بعضهم والبعض الآخر ما يعود عليهم بالضرر، ولم يكن هذا الذى فعله سوى توقُّع بسيط يرجع إلى طول تجربته وخبرته وبعد نظره إذ توقَّع -وصحَّ توقعه - أن الإبطاء فى إرسال الترك إلى الإمبراطور سينطوى على الخطر، فهم إما أن يثبوا على روبومير ومونستراس تحت جُنْح الظلام، وإما أن يأخذوهما أسيرين إلى السلطان. وكان الهجوم ليلاً وكان مونستراس رجلاً مهجنا واتفقوا على ثانى الأمرين فقاموا وقد تكاثر عددهم - بالهجوم عليهما. كان مونستراس يعرف اللسان التركى أما "روبُومير" فقد سبق أن وقع فى أسْر الترك منذ زمن بعيد وعاش بينهم ردحا من الدهر مكنه من الإلمام بلسانهم إلماما كبيرا، لذلك لوَّح الاثنان إليهم بالعروض السخية وقالا لهم: "ما الذى يحملكم على قتلنا دون نفع يعود عليكم من هذا القتل؟ وها أنتم ذا ترون أنكم تحرمون أنفسكم من المزايا الجدية والنعم السخية التى يجود بها الإمبراطور على من تُدَوَّن أسماؤهم فى دواوين العطاء السنوى. والآن استمعوا إلينا ولا تكونوا فى عداد الحمقى لا سيما إذا كنتم تستطيعون العيش آمنين لا يمسكم إزعاج وتستطيعون أن تعودوا إلى دياركم وقد فاضت أيديكم بالمال، وقد تحصلون على ممتلكات لم تكن لكم من قبل، فلا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة... إنكم قد تصابون فى الكمائن التى ينصبها لكم البيزنطيون المتربصُون بكم". وكانت هذه إشارة إلى الشعاب الجبلية والمستنقعات التى حولهم.

ثم تابعا كلامهما إليهم قائلين: " لئن خرجتم على الإمبراطور فقد قتلتم أنفسكم بأيديكم وضاعت حياتكم هباء إذْ إنَّ هناك آلافا من الرجال يكمنون لكم ويَتَرصدونكم للوثوب عليكم وليس هؤلاء الرجال من الفرنجة ولا من المتبربرين فحسب بل فيهم أيضًا كثير من البيزنطيين.. فهَيّا استمعوا إلى نصيحتنا واعملوا بها وأديرُوا وجوه خيلكم وتعالوا معنا إلى الإمبراطور، وإنّا لنُقسم لكم أنكم سوف تنعمون بما لا مزيد عليه من النعم التى تسبغها راحتاه عليكم، فإن أردتم العودة إلى بلادكم عُدْتُم أحرارا لا يمنعكم أحد".

أتت هذه العبارة أُكلها وأقنعت الترك فتبادلوا وإيَّاهم الأيْمان ومضوا جميعا قاصدين الإمبراطور، فلما بلغوا "بلكانوم" تلقاهم الإمبراطور راضيا مغتبطا وإن كان بداخله الغضب على رودمير ومونستراس. فلما كان اليوم التالى استدعى جميعَ الترك الذين آثروا العمل فى خدمته ووصلهم بالعطايا الكثيرة، أمّا الذين آثروا العودة إلى ديارهم فقد أذن لهم بما أرادوه وصرفهم محملين بهداياه الثمينة.

ثم شرع ألكسيوس فى لوْم رودومير ومونستراس، فلما رآهما خجلين منه لا يقدران على رفع نظرهما إلى وجهه بدّل من لهجته وراح يهدئ خاطرهما وعفا عنهما.

والآن فلنترك رودومير ومونستراس ولنرجع إلى "بوتوميتس" فنقول إنه لما أنعم الإمبراطور عليه بلقب "دوق نيقية" سأله الكلت أن يأذن لهم بدخول المدينة رغبة منهم فى زيارة كنَائسها الطاهرة، ولكنه كان كما قلنا شديد التوجّس منهم لمعرفته بطباعهم، وأبَى أن تكون زيارتهم جماعية، واكتفى بأن يفتح لهم الأبواب ليدخلوا ولكن فى جماعات صغيرة قوامُ كل واحدة منها عشرة أشخاص.

(٣)

كان الإمبراطور لا يزال مقيما فى "بلكانوم" حين أراد الكونتات الذين لم يقسموا له يمين الولاء أن يحضروا إليه وأدّوا له اليمين، ثم صدرت التعليمات المكتوبة إلى "بوتوميتس" أن ينصح جميع الكونتات بألاّ يشرعوا فى السير إلى أنطاكية قبل أداء اليمين، ووعَدَهُم إن هم فعلوا ذلك بمضاعفة إنعاماته عليهم. فلما سمع بوهيموند بالمال والهدايا كان هو أوّل من أطاع بوتوميتس ونزل على مشورته ثم أمر جميع من معه بالعودة.

هكذا كان بوهيموند رجلاً شديد الشهوة للمال.

ورحب بهم الإمبراطور وأحسن استقبالهم فى "بلكانوم" وبذل جهده فى توفير العناية والراحة لهم، ثم جمعهم كلهم وتكلم فيهم قائلاً: "تذكّروا اليمين التى أقسمتموها

لى، فإنْ كنتم عازمين عزما صادقا وأمينا على ألاّ تشجبوها فانصحوا من تعرفون أن يبادروا بالقسم إنْ لم يكونوا قد أقسموه بعد". فلم يكن منهم وقد سمعوا الذى قاله إلاّ أن أرسلوا فى الحال إلى هؤلاء فاجتمعوا كلهم لقطع اليمين وقطعوها ولم يشذ عنهم سوى تنكريد ابن أخت بوهيموند، وكان ذا نزعة استقلالية فاحتجّ بأنه لا يَدِينُ بالطاعة إلا لرجل واحد فقط ذلك هو "بوهيموند". وأنه معتزم الحفاظ على عَهْدِهِ له حتى آخر يوم من حياته. فتزايد الضغط عليه من الآخرين ومن حاشية الإمبراطور وأقاربه. لكن لم تَلِنْ قناته ولم يبال بما يقولون بل صوّب ناظره وصعّده فى أرجاء فسطاط المجلس الذى كان به الإمبراطور وكان فسطاطا أكبر من كل آخر رأته العين وقال: "لن أقسم اليمين حتى ولو امتلأت هذه الخيمة بالمال"، فثار "بالايولوجس" من أجل كرامة الإمبراطور ولم يحتمل هذا السفه الذى يقوله "تنكريد" لما فيه من عجرفة ممقوتة ما بَعْدَها من عجرفة، ومن ثم دفعه[٣] فى صدره دفعة قذفت به بعيدا فهاج تنكريد وحينذاك قام الإمبراطور من فوق كرسيه وحال بينهما.

كذلك حاول بوهيموند تهدئة ابن أخته وقال له أن ليس من اللائق أن يسلك مسلكا ينطوى على عدم الاحترام لأقارب الإمبراطور وحاشيته، فخجل تنكَريد مما فعله مع "بالايولوجس" وأدرك أن سلوكه معه كان سلوكَ سوقِى أثقله الشراب، كما أنه اقتنع بعض الشىء بكلام بوهيموند، فقام وأقسم اليمين للإمبراطور. ولما استأذن الجميع من الإمبراطور فى الرحيل صدر الأمر إلى "تاتيكيوس" – وكان وقْتَذاك هو القائد الكبير– بأن ينضم إلى الفرنجة مستصحبا معه جميع مَنْ تحت يده من القوات على أن تكون مهمته مساعدتهم والحفاظ عليهم فى كل الأحوال، وأن يتسلم منهم المدن التى يستولون عليها إنْ تعطّف الرب عليهم بالاستيلاء عليها.

انطلق الكلت فى اليوم التالى عابرين المضيق للمرة الثانية ويمّموا وجوههم شطر إنطاكية، ولما كان ألكسيوس قد توقّع أن لن يخرج جميع الرجال وراء الكونتات فقد أوحى إلى "بوتوميتس" أن يستأجرَ كلَّ كلتى يتخلف عن الخروج ويستخدمه فى حماية "نيقية".

بلغ "تاتيكيوس" في مدى يومين "لوكاى" Leukai على رأس جميع عسكره والكونتات صحبة جنودهم الذين لا يحصَون كثرة، وهنا التمس بوهيموند منه أن يوكل إليه قيادة المقدّمة فاستجاب له وسارت البقية في إثره في خُطًى عسكرية بطيئة، فلما شاهد بعض الترك هذا الجيش الكلتي متجها إلى اسكى شهر خُيِّل إليهم أن الفرصة سنحت لهم بمهاجمة هذا الجيش والتنكيل برجاله، وسرعان ما شبت معركة(٤) بين الجانبين وكان الظن عند الترك أنّ ما يرون إنما هو كل الجيش الفرنجي.

غير أن "لاتينس" Latinus الأحمق المغرور- الذى رأيناه من قبل قد تجرأ فجلس على كرسي العرش- نسي نصيحة الإمبراطور التى سلفت منه إليه فانفصل عن بقية العسكر وسبقهم في غباءٍ إذ كان موقعه في أقصى طرف من صف بوهيموند، فلقى أربعون من الرجال الذين كانوا معه مصارعهم، وأصابته هو نفسه جراح بالغة فانقلب على عقبيه فارا وأسرع راجعا إلى القلب، وأيقن اليقين التام -وإنْ لم يصرح بلسانه- بمدى صدق النصيحة التى كان الإمبراطور قد أسداها إليه.

لما رأى بوهيموند ضراوة الأتراك أرسل في طلب(٥) الإمدادات فجاءته على جناح السرعة، وحينذاك اشتد أوار الحرب شدة مفزعة انتهت بانتصار البيزنطيين والكلت. فتابع القوم زحفهم زحفا كانت فيه الكتائب قريبة من بعضها كل القرب، فلاقاهم قرب "هبريكا" Hebraica السلطان "دانشمند"(٦) وحسن الذى يقود وحده ثمانين ألف مقاتل من المشاة المسلمين. وجرت معركة شعواء ليس فقط لكثرة من شاركوا فيها بل وأيضًا لأن كلاً من الجانبين ظل ثابتا في الساحة لا يتزعزع، وإنْ لم يَخفَ على بوهيموند - الذى كان على الميمنة- أن الترك كانوا أقوى روحا وهم يحاربون، لذلك انفصل عن بقية العسكر واندفع بلا روية مستهدفا "قلج أرسلان" ذاته وكرّ عليه كرة " الأسد المعتز بقوته" كما يقول الشاعر.

كان لهذه الهجمة أثرها الفعال على العدو فلاذ بأذيال الفرار، فلم يتعقبهم الكلت وكفوا عن مطاردتهم، وترتب على ذلك أنهم لم يَبعُدُوا عن قواعدهم عملا بتعاليم الإمبراطور التى ألقاها إليهم واكتفوا باحتلال القاعدة التركية، ونالوا بعض الراحة لفترة قصيرة عادوا بعدها لمهاجمة الترك من جديد قرب "أوجستوبوليس"

Augustopolis هجوما بطشوا فيه بهم فهلك أكثرهم. أما الذين قُيِّضت لهم النجاة فقد هاموا على وجوههم فى الأنحاء كافة تاركين وراءهم نساءهم وأطفالهم، ولم يكترثوا فى هذا الفرار إلاّ بسلامة أنفسهم فقط، ولم يعودوا يجرءون بعدئذ على شىء ما حتى مجرد النظر فى وجوه اللاتين.

(٤)

ولعلك تسأل ما الذى جرى بعد ذلك..؟؟

حسنا..!! لقد وصل اللاتين مع الجيش الرومى إلى أنطاكية عبر ما يعرف بالطريق السريع[٧] . متجاهلين الأقاليم التى على الجانبين، حتى إذا اقتربوا من أسوار المدينة أعدوا مكانا جمعوا فيه أمتعتهم وشرعوا فى حصار أنطاكية حصارا طال حتى بلغ ثلاثة أشهر[٨] قمرية، وإذْ تخوف الترك أشدَّ التخوف من صعوبة الموقف الذى وجدوا أنفسهم فيه فقد بعثوا رسولاً منهم إلى سلطان خراسان يسألونه أن يسعفهم بمزيد من الرجال ليساعدوهم فى الدفاع عن المدينة [إنطاكية] وعن أهلها، ويعينوهم على طرد اللاتين الذين كانوا يهاجمونهم من الخارج. وشاءت الصدفة أن يكون هناك فى هذه الأثناء شخص أرمنى[٩] اسمه فيروز على أحد أبراج المدينة ويقوم بحراسة ذلك القسم من السور الذى يواجه بوهيموند، وكثيرا ما كان هذا الرجل الأرمنى يطل من فوق المبنى فيتحدّث هو وبوهيموند الذى راح يمنّيه ويخدعه بالعهود البراقة ويستميله إليه بمعسول الكلام لعله يسلمه المدينة، فعاهده الأرمنى على ذلك وقَال له: "متى أبرزتَ لى من الخارج علامةً يُتفق عليها بينى وبينك فسوف أسلم لك فى الحال هذا البرج الصغير، ولكن كل ما أبغيه منك هو أن أكون على ثقة بأنك سوف تكون مستعدا أنت ومن معك لدخول البلد، وعليك أن تُعِدَّ أيضًا سلالمك للعمل الذى لا يصح أن تكون أنت وحدك متأهبا له بل لابد من وجود بقيتكم فى كامل سلاحهم، حتى إذا ما رآكم الترك على البرج وسمعوكم تصيحون صيحات الحرب فزعوا وفروا على وجوههم".

على أن بوهيموند كتم هذا الاتفـاق فيما بينه وبين نفـسه فى وقتـه الحـاضر ولم يصرح به لأحد إلى أن جاء واحد - وقد بلغت الأمور إلى هذه المرحلة - يحمل الخبر بأنّ عساكر كثيفة جدا من الترك بقيادة "كربوغا" أمير الموصل على وشك الوصول من "خراسان" لمحاربة الكلت. ولقد وصل هذا النبأ إلى بوهيموند الذى كان كارها أن يُسلِم أنطاكية إلى "تاتيكيوس" حسبما كان المتفق عليه من قبل بينه وبين الإمبراطور، ولما كان بوهيموند يشتهى أن تكون أنطاكية ملكا خالصا له فقد دبّر خطة خبيثة رمى من ورائها إلى زحزحة "تاتيكيوس" رغم أنفه وجاء إليه يقول له: "أحِب أن أكشف لك عن سر خفى لأنى حريص على سلامتك، ذلك إنه وصل إلى سمع الكونتات خبر مزعج أشد الإزعاج خلاصته أن هؤلاء العسكر الذين بعث بهم السلطان من "خراسان" إنما بعث بهم استجابةً لطلب الإمبراطور ليكونوا ضدنا، وإن الكونتات آمنوا بصحة هذا الخبر، لذلك تراهم يُعِدُّون العدة للفتك بك، وهأنذا قد أديت واجبى فى تحذيرك قبل وقوع الخطر الموشك أن يُلِمَّ بك. فانظر ماذا أنت فاعل إزاء ما تفرضه عليه مصلحتك، واتخذ ما تراه لازما للحفاظ على أرواح[١٠] رجالك".

كذلك كان هناك بعض المتاعب الأخرى التى تشغل بال "تاتيكيوس" فقد انتشرت المجاعة القاسية حتى بيع رأس الثور بثلاث قطع ذهبية، كما داخله اليأس من الاستيلاء على أنطاكية، ومن أجل هذا كله غادر الناحية وركب السفن البيزنطية الراسية فى ميناء "السويدية" قاصدا قبرص، فلما رحل قام بوهيموند - وكان لايزال يكتم فى صدره ما وَعَدَه به الأرمنى [فيروز] - وراودته الأمانى العذاب فى أن ينفرد فى الغد بحكومة أنطاكية لا يشاركه فيها مشارك ولا ينازعه فى إدارتها منازع، ومن ثم خطب فى الكونتات قائلاً لهم: "ها أنتم ذا ترون كم من الوقت انقضى ونحن فى تعاسةٍ وغُمَّة لا تنجلى إذْ لم نحرز أىّ تقدم ملموس، ولعل أسوأ ما نتوقع أن يحدث لنا فى القريب هو أن تفتك بنا المجاعة فنغدو ضحية لها إنْ لم نتخذ أمن السبل للحفاظ على سلامتنا". فلما سألوه ما الذى ينبغى عليهم أن يفعلوه تابع كلامه إليهم قائلاً: "إن الرب لا يحقق بالسيف وحده كل ما يتمناه المرء من النصر، وقد نستطيع بالتفاوض أن نحرز ما قد يفوتنا إحرازه بالحرب، ولَكَمْ أتت العلاقات الودية أطيب النتائج. والرأى

عندى أن الخطأ كل الخطأ هو أن نضيع وقتنا بلا هدف فلا نجنى ثمرة ما، ولذلك فالواجب علينا أن نبادر فنرسم خطة عملية جريئة لإنقاذ أنفسنا قبل وصول كربوغا ويكون فى هذه الخطة الحفاظ على سلامة أرواحنا، لذلك أقترح عليكم أن يقوم كل واحد منا [نحن القادة] على انفراد بمحاولة جادة تُكتب لنا فيها الغلبة على هذا الهمجى، ويقوم كل واحد منا فى ناحيته الخاصة بالعمل من أجل ذلك، وأرجو أن توافقونى على منح جائزةٍ لأول من ينجح فى هذا المجال، ولتكن هذه الجائزة مثلاً أن يكون له الحُكم فى المدينة حتى يصل مندوبُ الإمبراطور فيتسلمها منا، وإنْ كنا بطبيعة الحال- حتى بهذه الوسيلة - لم نحصل على تقدم إيجابى ملحوظ".

لم يكن بوهيموند الخبيث المحب للسلطة يطمع فى السلطة حبًا منه للاتين، ولا سعيا منه للصالح العام الذى يعود عليهم بالنفع، ولكنه كان يؤثر ذلك لمجده الشخصى. ونجحت خططه ومؤامراته وحِيَلُه فى أن تؤتى ثمارها فجنَاَها شهية وفى يُسرْ كما دل عليه سيرُ الأمور، فقد أجمعَ الكونتات على الموافقة على ما اقترحه بوهيموند وشرعوا فى العمل، لذلك ما كادت طلائع الفجر الوليد تهلّ على الكون حتى مضى بوهيموند على وجه السرعة إلى البرج[11] المعروف ببرج الأختين، ففتح له [فيروز] الأرمنى أبوابه حسبما تم الاتفاق عليه بينهما، فوثب بوهيموند بمن معه فى الحال إلى سطح البرج بأسرع ما يمكنه الإسراع وأمر بالنفخ فى الأبواق استعدادا للقتال.

كان المنظر إذ ذاك من أروع المناظر التى يتسنى مشاهدتها إذْ وقف الترك مذعورين وقَدْ رَانَ عليهم الصمتُ ثم انطلقوا من غير جلبة من الباب القائم فى الجانب الآخر من المدينة واقتحموا البلد منه، ولم يتركوا وراءهم إلاّ ثلة ضئيلة من المحاربين الشجعان للدفاع عن القلعة[12] كما أنّ الكلت الواقفين فى الخارج مضوا وراء بوهيموند مقتفين خطواته فصعدوا الدّرج حتى بلغوا السطح واحتلوا المدينة.

أما تنكريد فقد خرج فى لحظته على رأس طائفة كبيرة من العسكر الفرنجة وراحوا يلحون فى مطاردة الفارين من أهل البلد وأعملوا القتل فيهم وأثخنوا البعض منهم جراحا.

ولما وصل كربوغا بمن معه من جموعه التى لا تحصى قاصدا المساعدة وجد المدينة قدْ سقطت فى أيدى أعدائه فحفر خندقا يضع فيه متاعه وتأهب لمهاجمة البلد. إلاّ أن الفرنجة لمْ يتركوا له وقتا ينجز فيه ما أراد بل خرجوا إليه وهاجموه، وشب قتال ضار رجحت فيه كفّة الترك فانتصروا، واحتشد اللاتين خلف الأبواب وقد تعرضوا لخطرين: أحدهما من ناحية الحامية المدافعة عن القلعة التى كانت لا تزال فى أيدى المتبربرين، وثانيهما خطر الترك الموجودين خارجها. ولما كان بوهيموند رجلاً ذكيا يطمع فى أن ينفرد وحده بحكومة أنطاكية فإنه جمع الكونتات وخطب فيهم قائلاً: "ليس من العَدل أن نحارب العدو كلنا فى آن واحد فى جبهتين إحداهما خارجية والأخرى داخلية، وأرى الواجب يحتم علينا أن نقسّم قواتنا إلى مجموعتين غير متساويتين بالنسبة إلى حجم العدوّ المتعرض لنا ثم نمضى لمحاربته. فتكون مهمتى أن أقاتل حامية القلعة إن أنتم رضيتم بذلك، أما القسم الآخر[١٣] فعلَى رِجاله قتالُ من بالخارج ومهاجمتهم هجوما عنيفا" .

وافق الكونتات كلهم على اقتراح بوهيموند الذى بادر فى الحال إلى إقامة حاجز صغير أمام القلعة ففصلها عن بقية أنطاكية فكان خطٌ دفاع شديد المناعة إن كانت ثمة حرب.

ولما تمّت إقامة هذا الحاجز تولى بوهيموند ذاته حراسته بنفسه، ولم يتوان لحظة عن الضغط على المدافعين عن القلعة كلما سنحت الفرصة للضغط عليهم. وقام الكونتات بحراسة المناطق الموكول إليهم حراستها، كما قام كل واحد منهم بذلك فى ناحيته قياما مشكورا، وحافظوا على المدينة من كل نواحيها وراحوا يتفقدون الأسطح والمبانى الحربية التى تعلْو الأسوار حتى لا يتمكن أحد من المتبربرين من اعتلائها بواسطة السلالم فيأخذون المدينة، كما لا يتمكّن أحد ممن هم فى داخلها من التسلل إلى الأسوار فيتحدث إلى العدو الذى بخارجها فيسهل له الاستيلاء عليها غدرا وخديعة.

(٥)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى أنطاكية كان الإمبراطور منصرفا تمام الانصراف لنجدة الكلت ومساعدتهم، لكن عاقه عما هو بسبيله ما حاق بالمدن والمناطق الساحلية من الخراب الشامل والدّمار الكبير، فقد استولى "تزاخاس" على أزمير واعتبرها ملكا له يتصرف فيها وفق هواه . كما أن تنجربيرمس" Tancripermes استولى بالسلب على مدينة من مدن الأفسوسيين الواقعة قرب البحر قد شُيِّد فيها من قبل كنيسة لتمجيد الرسول "يوحنا" المبارك، وكان الولاة قد قاموا باحتلال المواقع الحصينة ومعاملة رعاياها كأنهم عبيد لهم ولم يعفّوا عن تخريب كل شىء كما استولوا على جزيرتى "خيوس" Chios ورودس وعلى مدن كثيرة أخرى، وبنوا فيها سفنا حربية لهم. ولقد ترتب على هذه الأعمال أن رأى الإمبراطور أن الأوْلى به هو أن يصرف جهده إلى الناحية البحرية.

واحتفظ "تزاخاس" بعسكر كثيرين إلى جانب أسطول قوىّ لتكون تحت يده قوة كافية لصد المتبربرين وردعهم، كما رأى أن يخرج هو ذاته ببقية الجيش قاصدا أنطاكية ومحاربة من تشاء الظروف أن يلقاهم فى الطريق، ولذلك استدعى إليه نسيبه "جون دوكاس" وعهد إليه بالعسكر الذين جمعهم من مختلف الأقطار، كما جمع قدرا كافيا من المراكب لحصار المدن الساحلية، ووضع ابنة "تزاخاس" تحت رعايته الخاصة وكانت أسيرة عنده هى وأخريات غيرها شاءت الصدفة أن يكُنّ موجودات فى نيقية فى ذلك الحين، وكانت تعليمات "جون" هى أن ينادى نداء عامّ يعلن استيلاءه على "نيقية" فإنْ لم يصدق الناس النداء عرضوا "السيدة" ذاتها على مرازبة الترك والمتبربرين الذين يعيشون فى المناطق الساحلية، وكان الهدف من وراء ذلك أنه لن يكاد يراها المرازبة المسيطرون على تلك النواحى التى أشرتُ إليها حتى يصحّ الخبر عندهم، وإذْ ذاك يوقنون بصدق سقوط المدينة ويستسلمون من غير كيد، إيمانا منهم بيأسهم من المقاومة.

لهذا نراه يبعث بجون دوكاس ويزوده بالمئونة من كل صنف، وسنصف في موضع تال من هذا الكتاب كيف أحرز "جون" كثيرا من الانتصارات على "تزاخاس" وكف تم إخراجه من "أزمير".

وأكتفي الآن بأن أقول إنه استأذن الإمبراطور في الرحيل وغادر العاصمة وعبر البحر إلى "أبيدوس"Abydos .

صار كاسباس(١٤) Kaspas أميرا للحملة البحرية التى أُلقي على كاهله كل ما تتطلبه من المسئوليات، ووعده جون بأنه إنْ ينجح فى حربه هذه وتَمَّ له الاستيلاء على أزمير فإنه سوف يجعله حاكما عليها وعلى ما جاورها من النواحى والبلدان الواقعة على أطرافها. وبينما كان "كاسباس" يبحر كقائد عام للقوات البحرية أقام جون دوكاس فى البر باعتباره هو القائد (١٥) العام، ورأى سكان أزمير أن الاثنين(١٦) يحضران فى وقت واحد.

إذا كان دوكاس قد نصب معسكره على مقربة من الأسوار فقد أرسى "كاسباس" بمراكبه في الميناء. ولما تأكد لأهل أزمير سقوط مدينة نيقية بذلوا كل قدرة لهم على مواصلة القتال، ومن ثم آثروا التفاوض فى طلب الصلح والسلام، وتعهدوا بأن يسلموا بلدهم إلى جون من غير حرب أو سفك دم إنْ هو أقسم على السماح لهم بالعودة إلى ديارهم سالمين، فوافقهم دوكاس وأقسم لهم بشرفه بتنفيذ اقتراح "تزاخاس" تنفيذا حرفيا، وبهذا غادر العدو البلد فى هدوء وصارت أمور الحكومة بأزمير فى يد "كاسباس" وحده لا ينازعه فيها منازع.

حين أصل إلى هذه النقطة أرى أنه لابد لى من أن أذكر حادثة قد جرت حينذاك وإنْ كنت أذكرها موجزة، ذلك أنه بينما كان كاسباس يهم بمغادرة "جون دوكاس" جاءه رجل من أزمير متهما أحد الشاميين بأنه قد سلبه خمسمائة قطعة ذهبية، فأمر "كاسباس" باستقدام الطرفين بين يديه ليحكم بينهما، فجرّوا الشاميَّ جرا عنيفا ظنَّ معه أنهم سائرون به لقَتْله، فأراد الدفاع عن حياته فاستل خنجره وطعن به كاسباس طعنة نجلاء أصابت قلبه، ثم استدار على عقبيه وضرب أخا الوالى ضربة أصاب بها فخذه، فحدث هرج كبير تَمكّن أثناءه هذا الشرقى من الفرار. بَيْد أن جميع بحارة

الأسطول (بما فيهم المجدفون) اقتحموا المدينة في جموع غوغائية وأخذوا يذبحون كل من يصادفونه من غير شفقة ولا رحمة، وكان المنظر يدعو للرثاء فقد لقى أكثر من عشرة آلاف شخص مصرعهم ذبحا في وقت قصير.

لقد حزن "جون دوكاس" حزنا عميقا لمصرع "كاسباس" واضطر مرة ثانية - ولبعض الوقت - أن يولي شئون أزمير[١٧] عنايته، فقدم إلى المدينة وبذل قصارى جهده في تفقد وسائل الدفاع عنها تفقدا كبيرا، ثم جاءه الخبر الدقيق من العالمين ببواطن الأمور وبمشاعر أهلها فرأى أن الموقف يتطلب وجود رجل شجاع. فعيّن أحد العسكر الأبطال حاكما جديدا عليها وكان اسمه "هيلياس" Hyleas فقد رآه الرجلَ المناسبَ لهذا المنصب.

أما الأسطول فقد استبقاه "جون دوكاس" لحماية "أزمير" حتى إذا فرغ من هذه الترتيبات تابع زحفه على رأس قواته إلى بلدة "أفسوس" التي كانت في أيدي اثنين من المرازبة هما "تانكريبرميس" Tancripermes و"مَرَاكس" Marakes ، فلما شاهد الأعداءُ اقترابه منهم حملوا سلاحهم وأعدّوا عسكرهم للالتحام به في الساحة الواقعة خارج البلد، ولم يتوان الدوق لحظة واحدة عن أن يحمل عليهم هو ورجاله حَمْلةً صِدق، واستمر القتال معهم معظم يومهم، والتحم الجانبان بعضهما ببعض فلم يتبين أحد الخاتمةَ إلاّ حين أدبر الترك فارين بسرعة فلقى الكثيرون منهم حتفهم ووقع البعض الآخر أسرى، ولم يكن كل هؤلاء القتلى والأسرى من عامة الجند بل كان فيهم أيضًا طائفة غير قليلة من المرازبة قدّروهم بما يقرب من ألفي شخص، فلما سمع الإمبراطور بهذا الأمر أمر بتشتيت الأسرى بين الجزر.

أما الترك الذين بقوا على قيد الحياة فقد أبحروا في نهر "ماخاندروس" Machandros متوجهين إلى "لبيتوس"[١٨] Labytos وكان موقفهم مُزريا فقد ظنوا أنهم يشاهدون بأعينهم خاتمة "دوكاس"، لكن طاشت سهامهم وخابت ظنونهم فلم يسفر الأمر عما كانوا يتصورون، ذلك لأن "جون دوكاس" لم يرحل عن "بتزياس" Petzeas إلاّ ليحكم المدينة. ولما كان قد استصحب معه كل مشاته فقد سار عسكره سيرا اتسم بالانتظام حتى بلغ غايته.

والواقع أن "جون دوكاس" كان ينفّذ إرشادات الإمبراطور بحذافيرها ويراقب تقدم العسكر بأسلوب ينم عن أنه قائد محنك خبير. أما الترك فكانوا كما قلت قد شقوا طريقهم عبر نهر "ماكاندروس" والبلدان المطلّة عليه حتى بلغوا "بوليبوتس"، لكن الدوق لم يمض فى تتبعهم بل اتّبع طريقا أقصر منه فاستولى بالمباغتة على "ساردس" Sardes و"فيلادلفيا" ثم ندب لحمايتهما بعدئذ ميخائيل "كيكامينوس" Cecamenos.

حين وصل "جون دوكاس" إلى "لاتيكا" هب سكانها عن بكرة أبيهم للقائه فعاملهم معاملة الفارين إليه من العدو، وعطف عليهم وأذن لهم بالسكن فى ديارهم دون [١٩] تدخل أحد ما فى شئونهم حتى إنه لم يعين أحدا من جهته، ثم تابع رحلته مخترقا "خوما" واستولى على "لامب" Lampe التى عين عليها "يوستاثيوس كانتازيس" Eustasius Kantazes وجعله حاكما عسكريا عليها.

ولما انتهى السير به إلى "بوليبوتس" وجد بها طائفة كبيرة من الترك فحاربهم حربا اضطّروا إزاءها إلى التخلى عن أمتعتهم وانتصر عليهم انتصارا عظيما قتل فيه منهم خلقا كثيرين، كما غنم غنيمة ضخمة تتناسب وأعدادهم الكبيرة.

(٦)

لم يكن جون دوكاس قد عاد من منازلته الترك حين استعد الإمبراطور للزحف لمساعدة الصليبيين[٢٠] فى إقليم أنطاكية، غير أنه بعد استئصاله الكثيرين من المتبربرين الذين صادفهم فى مسيرته وصل إلى "فيلوميليوس" بمعظم جيشه، ونهب كثيرا من البلدان التى سبق للترك الاستيلاء عليها، فلما بلغ به الزحف هذا الموضع انضم إليه "وليم دى جراندمنسل"[٢١] كونت فرنسا و"بيير دولبس" ممن كانوا فى أنطاكية، وكانوا قد تدلّوا بالحبال من أسوار البلد ثم جاءوا من طريق طرسوس. وعلم هؤلاء الثلاثة أن الفرنجة قد تدهور بأسهم تدهورا ينذر بالخطر الفادح، وأكّدوا له هذا الخبر مقسمين له على صدق ما يقولون، فزاده هذا الخبر حرصا على أن يسرع إلى

نجدة "الصليبيين" ومد يد المساعدة إليهم رغم ما لقيه من معارضة شديدة لإقدامه على هذه المخاطرة الحربية.

لكن كانت قد انتشرت في هذا الوقت شائعة عمت جميع الأرجاء تنذر بهجوم فجائي على وشك الوقوع، وهو هجوم يعتزم القيامَ به جموعُ المتبربرين التي لا حصر لها، وأنّ سلطان خراسان أرسل ابنه "إسماعيل" على رأس قوات قوية من خراسان وما وراءها من الأماكن القاصية بعْد أنْ قدْ أحسن تسليحها وكلّفها بصد ألكسيوس كما أمَر ابنه أن يعاجل الإمبراطور قبل أن يتمكن من الوصول إلى إنطاكية.

ولقد نجم عن هذه الأنباء التي جاء بها هؤلاء[٢٢] الفرنجة من أنطاكية وما تردد عن اقتراب بني "إسماعيل" أنْ توقّف ألكسيوس عن متابعة تنفيذ مخططه الرامي إلى إسعاف الكلت رغم شدة حرصه على سحق الهجوم التركي الأهْوج والقضاء على قائده "كربوغا" قضاء مبرما.

أما فيما يتعلق بالمستقبل فقد انتهى ألكسيوس إلى النتيجة التي لابد أن يتوقعها المرء ونعني بها أنه من المستحيل إنقاذ مدينةٍ وقعت في يد الكلت منذ وقت قصير ولم تستقر أمورها بعد، هذا إلى جانب حصار المسلمين لها.

يضاف إلى ذلك أن الكلت كانوا قد يئسوا من إنقاذ أنفسهم حتى باتوا يتهيئون لهجر أماكنهم الحصينة، غير ناظرين إلى شيء إلاّ لسلامة أنفسهم وهي السلامة التي رأوا أنها لا تتسنّى لهم إلاّ بالفرار.

إن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن من خصائص شعب الفرنجة الذّاتيّة الاستقلال، ورفضه رفضا باتا الالتفات إلى التدريب العسكري والأخذ بالفنون العسكرية. لكن إذا كانت المسألةُ حرب وقتال فإنّ الغضب يستعر في قلوبهم وحينذاك لا يمكن مقاومتهم. ولا ينطبق هذا على العسكر وحدهم بل يتعداهم أيضًا إلى قوادهم الذين إذا احتدّ القتال رموا بأنفسهم وسط صفوف العدو بصورة قَلَّ أنْ تُقاوَم. في حين أن جُرأتهم هذه تتلاشى حين ينصب الخصوم الكمائن لهم، وخلاصة القول أنّه إذا شنَّ خصومهم عليهم الحرب في العراء هاجموهم لكنهم لا يلبثون على ذلك طويلاً بسبب ثقل

ما عليهم من لباس الحرب وبسبب عدم مبالاتهم، وإذ ذاك يكون التغلب عليهم من أيسر الأمور.

ولما لم يكن تحت يد الإمبراطور من القوات ما يكفى لصد أعداد الكلت الضخمة، وليس عنده من القوة ما يستطيع أن يغير به قرارهم، وليس فى مقدوره أن يحملهم على نهج سياسة معتدلة عن طريق النصح والتعقل والتروّى فقد رأى ألاّ يذهب إلى مدى أبعد من مداه الحالى، وخاف أن تضيع منه القسطنطينية وأنطاكية إنْ هو حاول معاونتهم. ثم إنه رأى أنه لو هاجمته الآن جحافل الترك الكثيفة فقد يقع الذين يعيشون فى منطقة "فيلوميليون" ضحيةً لسيوف المتبربرين.

ونظرا لهذه الظروف كلها فقد أمر بأن ينادَى فى كافة الأرجاء بالتحذير من قدوم الترك الوشيك، كما أمر مَن فى تلك الناحية من الرجال والنساء بمغادرتها قبل وصول الترك حفاظا على أرواحهم، كما أوْصاهم أن يحملوا معهم كل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم، فبادر الجميع ذكورا وإناثا بالخروج وراء الإمبراطور.

لقد قسم ألكسيوس الجيش إلى مجموعات متعددة وجّهها وجهات مختلفة لمحاربة الترك حيثما كانوا، وكلفها باستعمال القوة لإيقاف تقدم الزحف التركى، ثم أخذ هو أهبته للرجوع إلى القسطنطينية بمن معه من أسراه المتبربرين ومن المسيحيين الذين كانوا قد توافدوا عليه، وكان الخبر قد جاء إلى كبير المرازبة "إسماعيل" برحيل الإمبراطور من العاصمة وبما جرى فى أعقاب ذلك الرحيل من مجزرة فاحشة، وما نزل أثناء سيره من الدمار الشامل بكثير من المدن فى أثناء زحفه.

ثم عرف أن ألكسيوس على وشك العودة إلى عاصمته محملاً بالغنائم الوفيرة وبِمَنْ يقودهم من الأسرى وهم كثيرون. وتَحَرَّج موقف إسماعيل إذ لم يعد شىء يفعله إذ أفلتَتْ الطريدة من يده بعد أن كان هو قابَ قوسين أو أدنى مِن أخذها، ولذلك بدَّل طريق سيره وصمم على محاصرة "بيبرت" Palpert التى كانت قد سقطت منذ قليل فى قبضة "تيودور جبراس" المعروف. وتوقفت القوة التركية بأكملها عند النهر الذى يجرى قرب هذا الموضع. ولم تخْف هذه الحركة عن جبراس الذى خطط لمباغتة الأعداء بغارة شعواء يشنها عليهم تحت جنح الظلام.

أما فيما يتعلق بنهاية "جبراس" وأصله وصفته فأمور أُرْجِئ الكلام عنها إلى موضعها المناسب فى كتابى هذا.

أما الآن فلا بد لى من العودة لمتابعة ما كنت فيه فأقول إنه استحكمت المجاعة باللاتين وضاقوا ذرعا بويلات الحصار ومن ثم جاءوا إلى أسقفهم[٢٣] بطرس الذى حاقت به الهزيمة من قبل فى "هيلينيبوليس" Helenepolis كما أوضحْتُ سلفا، وسألوه أن يشير عليهم بما يجديهم نفعا، فردّ عليهم قائلاً: "لقد أقسمتم أن تحافظوا على طهارة أنفسكم حتى تصلوا إلى بيت المقدس، ولكنكم شجبتم يمينكم ونقضتم عهدكم ونكثتموه ، ومن ثم فإنى أحسب الرب لن يعود إلى مساعدتنا كما ساعدنا من قبل، فعودوا الآن إلى بارئكم واستغفروه وتوبوا إليه من خطاياكم. ثم تدثروا بالمسوح الخشنة وعفّروا وجوهكم فى التراب، واسكبوا الدمع السخين وامضوا ليلكم فى التوسل إليه مقدّمين البرهان على صدق توبتكم، وحينذاك فقط سأنضم إليكم ملتمسا معكم العفو الإلهى".

فأصغوا إلى رأيه واستجابوا إليه، فما انقضت أيام قلائل على هذا الأمر حتى أوحى إليه بأمر فاستدعى كبار كونتاتهم ووجّههم أن يحفروا هناك بالمكان الطاهر[٢٤] فإنهم واجدون المسمار الطاهر، فامتثلوا لما قاله لهم وحفروا فلم يجدوا شيئا فعادوا إليه وعليهم آيات الخزى، فزاد من صلواته وضاعف ابتهالاته، ثم أمرهم بمعاودة الحفر والفحص بدقة فوجدوا فى هذه المرة ما كانوا ينشدونه، فغمرتهم الفرحة وعلتهم الطمأنينة وحملوا المسمار [٢٥] رأسا إلى بطرس، ثم مضوا بهذا الأثر الطاهر إلى صنجيل الذى كان أكثرهم طهرا.

فلما كان اليوم التالى طلعوا على الترك من بابٍ سرّى وأغاروا عليهم وهنا سنحتْ الفرصة لروبرت كونت فلاندرز أن يلحقهم وأن يكون فى الطليعة معهم مع ثلاثة من رفاقه فأجابوه إلى سؤاله.

حين أصبح المصافان وجها لوجه ترجّل كونت فلاندرز عن جواده وركع على الأرض ثلاث مرات مبتهلاً إلى الرب أن يؤتيه نصره، فلما صاحوا جميعا فى صوت

واحد "الرب معنا" كرٌ هو بكل قوته على "كربوغا" الذى كان واقفا إذ ذاك على أكمة يرقب ما يجرى. أمّا الذين اعترضوا سبيله هو ومن معه فقد هاجمهم[٢٦] "الصليبيون" مباشرة بالرماح فجندلوهم أرضا مما أثار الرعب فى قلوب الترك الذين فروا قبل أن تشب المعركة، وظهر واضحا للعيان أن العناية الإلهية ساعدت النصارى.

على أنه جرى أثناء هذا الفرار بعد ذلك وقوع كثير من المتبربرين فى النهر فابتلعهم مَوْجُه فكانوا من الغرقى وصارت جثثهم جسرا يعبر عليه من جاءوا بعدهم، وظل الكلت يطاردون الترك مسافة طويلة عادوا بعدها إلى معسكر العدو فاستولوا على كل ما كان به من متاع وما كانوا قد أصابوه من الغنائم، وعلى الرغم من أن الفرنجة ودّوا لو أخذوا تلك الأشياء كلها فى لحظتهم هذه إلاّ أن ما نهبوه كان أضخم وأثقل مما يستطيعون حمله معهم إلى أنطاكية فى ثلاثين يوما، ولكنهم ظلوا مقيمين هنا بعض الوقت للراحة من عناء الحرب، كما كانوا فى الوقت ذاته مشغولين بسير الأمور بأنطاكية لاختيار حاكم جديد لها، فوقع اختيارهم على بوهيموند الذى كان يسعى إلى هذه المكانة حتى قبل سقوط المدينة فى أيديهم، وبذلك آلت إليه مقاليد الأمور، وأمسك بزمام السلطة العليا، أما ما كان من شأن الكونتات الآخرين فإنهم ساروا قاصدين القدس بعد أن عهدوا إليه بالحكم، وتمكنوا -فى أثناء سيرهم - من الاستيلاء على كثير من النقاط الساحلية الحصينة الواقعة على طول الطريق، غير أنهم تَجَنَّبوا فى سيرهم هذا التعرضَ للمواضع التى تتطلب حصارا طويلاً لأنهم كانوا فى عجلة من أمرهم وكانوا يحثّون الخطى كى يبلغوا القدس سريعا. فلما طالعوها أحْدقوا بأسوارها وأكثروا من الهجوم الشديد عليها حتى سقطت[٢٧] فى أيديهم بعد حصار طويل امتد شهرا قمريا، فلما استولوا عليها فتكوا بأغلب من كان بها من المسلمين واليهود.

ولما فرغوا من إخضاعها وانتهت كلُّ مقاومة وضعوا مقاليد الأمور كلها فى يد "جودفروى دى بويون" ونادوا به ملكا عليها[٢٨].

(٧)

بلغ مسامع أمير المؤمنين[٢٩] أمير بابليون خبر غزو الكلت، وسمع بكيفية امتلاكهم القدس واحتلالهم أنطاكية ذاتها وغيرها من المدن فى تلك الناحية، ومن ثم حشد حشدا كثيفا من الأرمن[٣٠] والعرب والشرقيين والترك وأرسلهم لقتال الكلت الذين حذرهم "جودفروى" بما هو مرتب ضدهم، فبادروا فى الحال إلى حَملِ أسلحتهم ونزلوا على يافا التى كان قد استشهد فيها جورج العظيم وأقاموا بها فى انتظار مجىء العدو، واشتبكوا فى قتال مع جيش (الخليفة الفاطمى)، فرجحت كفة الفرنجة وكُتب لهم النصر السريع. لكن ما لبث الوضع أن تغير فى اليوم التالى حين هاجمتهم مقدّمة العدو من الوراء فهزمَتْهُم فولوا الأدبار إلى الرملة حفاظا على أرواحهم، ولم يتخلف عن هذا القتال من الكونتات سوى بلدوين الذى لم يكن غيابه يُعزَى إلى جبن فيه ولكن سعيا منه لالتماس وسائل أخرى أحسن من هذه لضمان سلامة ذاته ولجَمْع عسكر يحارب بهم المصريين الذين انطلقوا فى آثارهم وأحدقوا بالرملة التى سرعان ما وقعت فى أيديهم بعد حصارهم لها حصارا هلك فيه كثير من اللاتين فقد هلكت طائفة كبيرة منهم، لكن وقع فى الأسر أكثر منهم وسيقوا إلى القاهرة مكبلين بالأصفاد، ثم اتجهت معظم القوات المعادية من الرملة على جناح السرعة قاصدة يافا لحصارها، وكانت تلك مناورة اصطنعها المتبربرون كمألوف عادتهم.

أما ما كان من شأن بلدوين بعد هذا فقد زار جميع المدن الصغيرة[٣١] التى استولى عليها الفرنجة، وجمع منها عددا غير قليل من الفرسان والمشاة فكانوا قوة تؤخذ بعين الاعتبار ويُحسب لها حسابها، ثم زحف بهؤلاء على المصريين[٣٢] وأنزل بهم الهزيمة النكراء.

نزل خبر النكبة التى حلّت باللاتين فى الرملة على الإمبراطور نزول الصاعقة فزلزلت كيانه، كما ارفضت القلوب لخبر وقوع الكونتات فى الأسر، إذ كانوا يُعَدّون منافسين لأبطال العهد القديم فى شبابهم الغض وقوتهم العظيمة وشرف محتدهم، ومن ثم كان لا ينبغى أن يظلوا أسرى فى أرض غريبة، لذلك استقدم ألكسيوس إليه رجلاً اسمه برداليس Bardales وزوده بالمال الوفير ليفديهم به، وحمّله (قبل إرساله

إلى القاهرة) كتبا منه إلى(الخليفة الناصر) أمير المؤمنين[٣٣] تتعلق بهؤلاء الكونتات. فلما طالع الخليفة رسالة الإمبراطور أطلق سراح جميع أسراه من غير فدية[٣٤]، سوى "جودفروى" الذى كان أخوه بلدوين قد افتداه من قبل بمبلغ من ماله.

واستقبل الإمبراطور الكونتات فى القسطنطينية استقبالاً كريما وأغدق عليهم المال الوفير ثم ردّهم إلى ديارهم بعد أن نالوا قسطا كبيرا من الراحة، فعادوا إلى نويهم وألسنتهم رطبة بالثناء عليه وتلهج بطيب ما حباهم به من المعاملة الحسنة، ورجع جودفروى إلى ما كان عليه: ملكا على القدس، كما مضى أخوه "بلدوين" إلى الرها.

وحينذاك أصدر الإمبراطور تعليماته إلى [ريموند] صنجيل بتسليم اللاذقية إلى "أندرونيكوس تزنيتلوكس" Tzintilookes وبتسليم قلعتى ماراكيوس وبلانياس إلى ضباط "يوماتيوس" الذى كان دوق قبرص حينذاك.

كذلك أصدر الإمبراطور أمره إلى صنجيل بمواصلة الزحف والقتال على أحسن ما يمكنه القتال ليسيطر على المواقع الحصينة الأخرى، فأطاع صنجيل الأمر، حتى إذا سلم تلك الأماكن التى أخضعها من قبل إلى الضباط المشار إليهم رحل إلى أنتاراس Antaras فاستولى عليها دون سفك دم. فأثار هذا الخبر أتابك دمشق فجمع العديد من العسكر استعدادا للزحف بهم على ريموند الذى لم يكن لديه من القوات ما يكافئ عدد قوّات الأتابك مما حمله على رسم خطة تتغلب فيها المهارة على القوة. فجاء إلى سكان "أنتاراس" الذين كان هو شديد الثقة بوفائهم له، وقال لهم إنه سوف يستخفى فى ركن من أركان قلعته الضخمة، كما قال لهم: "لا تفضوا إلى الأتابك بالحقيقة ولا تدلوه على موضعى حين يصل إليكم بل قولوا له إنى خفت فهربت".

فلما قدم الأتابك واستفسر عن أمر صنجيل اقتنع بأنه فر، وإذ كان السفر قد أرهقه فقد نصب خيمته قرب الأسوار، ولما كان أهالى الناحية قد أظهروا له كل دلائل الصداقة فلم يعد عند الترك ما يدعوهم للتخوف من حدوث أية حركات عدوانية من جانب هؤلاء الأهالى فاطمأنوا وأطلقوا خيولهم ترعى فى الوادى كيف شاءت، حتى إذا حان وقت الظهيرة فى أحد الأيام وصارت الشمس فى كبد السماء تماما فتح صنجيل البوابات وخرج فى كامل سلاحه وجميع رجاله وكانوا أربعمائة رجل، وكرّ بهم على

عسكر العدو، فأما الذين اعتادوا منهم القتال ببطولة فقد صمدوا وحاربوا غير آبهين بسلامة أرواحهم، وأما غيرهم فقد فروا على وجوههم فى محاولة منهم للنّجاة بأنفسهم، وترتب على اتساع رقعة السهل - وخلوه من المستنقعات والتلال والأخاديد التى تتجمع فيها السيول - أن وقعوا فى أيدى اللاتين الذين قتلوا كثيرا ممن أسروهم، وبعد أن مكر صنجيل بعدوّه مكره هذا تابع زحفه إلى طرابلس التى ما كاد يصلها حتى ارتقى قمة التل المواجه للمدينة واحتله، وكان هذا التل جزءا من جبل لبنان فكان بموقعه هذا صالحا لأن يكون قلعة، إذ يستطيع المسيطر عليها أن يحول دون تدفق المياهِ من الجبل إلى طرابلس، وكتب إلى الإمبراطور بكل ما فعله والتمس منه أن يأذن له ببناء حصن هنا يكون شديد المناعة ويكون هذا كله قبل أن تصل الإمدادت الجديدة من خراسان فتغلبه. وحينذاك عهد ألكسيوس إلى دوق قبرص ببناء هذا الحصن(٣٥) فى الموضع الذى يختاره [الكونت صنجيل] الفرنجى.

هذه هى صورة الوضع الذى كان قائما فى هذه اللحظة. ولقد عسكر الصنجيلى خارج طرابلس مكرسا كل جهده للاستيلاء على ذلك المكان.

لكن دعنى أعود إلى بوهيموند فأقول إنه حين علم بدخول " تزنتزلوكس" Tzintzilloukes اللاذقية كشف عمّا فى صدره من حقد دفين على الإمبراطور، فأرسل ابن أخته تنكريد على رأس قوة كبيرة لحصار اللاذقية، وسرعان ما بلغ خبر زحفه سمع الصنجيلى فبادر فى لحظته إلى النهوض بنفسه إليها ودخل فى مفاوضات مع تنكريد ليرفع الحصار عنها، ولم يدخر وسعا فى سبيل هذه الغاية، وتعدّدت اللقاءات بين الاثنين لكن اتضح أخيرا استحالة إقناع تنكريد بشىء مما حدّثه به صنجيل الذى كان فى أحاديثه معه "كمن يغنى لأصم"، فلما رأى الأخير ما آل إليه الموقف عاد إلى طرابلس. وأما تنكريد فلم يتوان لحظة عن مضاعفة حصار اللاذقية والتضييق على تزنتزلوكس حتى صار منه فى موقف صعب كل الصعوبة، لاسيما وقد كثّف العدو من ضغطه مما ألجأه إلى طلب المساعدة من رودس فأبطأت النجدة طويلاً ولم تصله إلا بعد انعدام كل حولٍ له وقوة بسبب شدة الحصار عليه وقسوة المجاعة عنده وما أنزلته به من بلاء حمله على العزم على تسليم اللاذقية.

(٨)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى أصبح من الضرورى اختيار ملك يكون خلفا لجودفروى الذى اخترمته يد المنون[٣٦]، فبادر مَن كانوا بالقدس من اللاتين إلى استدعاء صنجيل من طرابلس راغبين فى تنصيبه على العرش. بيد أنه رفض السفر فى هذا الوقت بالذات مؤثرا الذهاب إلى القسطنطينية العاصمة فلما عرف اللاتين الذين بالقدس ما جرى منه بعثوا فى استقدام بلدوين ونصبوه ملكا.

حين وفد صنجيل على الإمبراطور رحّب به وأسعده قدومه واستبقاه إلى جانبه بالقسطنطينية[٣٧] حين سمع خبر اعتلاء بلدوين العرش، وكان العسكر[٣٨] النرمان قد وصلوا فى هذه الآونة بقيادة الكونت بياندريت[٣٩] Biandrate وأخيه فلم يُقصِّر الإمبراطور فى الإكثار من نصحهم بأن يسلكوا الطريق الذى سلكته الجيوش السابقة، وبذلك ينضمون بطريق البحر إلى بقية جيش اللاتين فى بيت المقدس فلم يصغوا إلى ما يقوله ولم يستجيبوا له عزوفا منهم عن الانضمام إلى الفرنجة[٤٠]، وتبين له أنهم يريدون الذهاب إلى المشرق سالكين طريقا آخر يوصلهم مباشرة إلى خراسان إذْ كان عزمهم قد صَحَّ على فتحها.

وأدرك الإمبراطور ما تنطوى عليه هذه الخطة من دمارهم التام، ولكن لما كان يكره استئصال شأفة هذا الجيش الكبير الذى يتألف من خمسة آلاف فارس ومائة ألف من المشاة، ويرى فى الوقت ذاته استحالة ثنْيِهم عن عزمهم فقد حاول أن "يغير اتجاه دفة المركب" كما يقولون، فاستدعى إليه ريموند كونت صنجيل و"تزيتاس" وندبهما لمصاحبتهم، وعهد إليهما بتوجيههم الوجهة الصحيحة، وأن يمنعاهم جهد ما استطاعا من ارتكاب أعمالٍ تنطوى على الحماقة، ومن ثم عبروا البحر جميعا إلى Kibotus وأسرعوا إلى أرمينيا وباغتوا تنكريد بالاستيلاء عليها ثم اجتازوا Halys إلى قرية صغيرة فى يد الروم فلم يجفل أهلها منهم، حتى إن رجال الدين فيها خرجوا لاستقبالهم فى مسوحهم الكهنوتية حاملين الأناجيل فى أيديهم ورافعين الصلبان،

لكنهم ما كادوا يقتربون منهم حتى وثب عليهم أولئك الغزاة ولم يكتفوا بقتل القسس قتلا لم تأخذهم فيه بهم رحمة ولا شفقة، ثم وثبوا على بقية المسيحيين فأعملوا فيهم السيف ثم تابعوا زحفهم كأن لم يقترفوا شيئا إدًا، وانتهوا إلى "أماسيا" وحينذاك نهض الترك البارعون فى فنون الحرب واحتلوا جميع القرى التى فى طريق عدوهم، وأحرقوا كل الأزودة والأطعمة قبل وصولهم، ثم ما لبثوا أن هاجموهم وكان ذلك يوم الاثنين. وكان هؤلاء النرمان قد عسكروا هناك فى ضاحية من ضواحى أماسيا ، ووضعوا كل متاعهم داخل المخابئ، وتجدد القتال يوم الثلاثاء، وأحاط عسكر الترك بالنرمنديين فسدوا عليهم كل سبيل للحصول على العلف فلم يستطيعوا تسريح جيادهم ولا دواب الحمل التى معهم للشرب، وحينذاك رأى الكلت أن مصيرهم الإبادة، فما كان منهم فى غدهم (وكان يوم الأربعاء) إلاّ أن خرجوا فى كامل سلاحهم والتحموا مع المتبربرين فى قتال عنيف لم يأبهوا فيه بسلامة أرواحهم، فلما رآهم الترك قد صاروا فى متناول أيديهم لم يعودوا يعتمدون على الرماح ولا النشاب بل جرّدوا سيوفهم وقاتلوهم عن كثب، وسرعان ما ولُّى النرمنديون فرارا إلى معسكرهم يلتمسون النصيحة.

لكن ممّن تكون النصيحة؟!

لقد خلا المسرح من أحسن مَن كان قد دلهم من قبل على الطريق التى كان عليهم أن يسلكوها ولكنهم أبوا وقتذاك الاستماع إليه، ولم يعد أمامهم الآن إلا أن يطلبوا من صنجيل ومن تزيتاس ما يشيران به عليهم، كما استفسروا فى الوقت ذاته عما إذا كانت فى هذه الناحية أرض تابعة للإمبراطور لعلهم يجدون فيها - هُم ومَنْ معهم - ملجأ يلوذون به، لكنهم لم يجدوا فى النهاية بدا من ترك متاعهم وخيامهم ومشاتهم، وامتطوا صهوات جيادهم وخبّوا مسرعين نحو المناطق الساحلية لولاية أرمينيا وباوراى Paurae.

أما الترك فقاموا من جانبهم بهجوم شامل على معسكر النرمان ونهبوا كل ما صادفوه به، حتى إذا ما فرغوا من النهب تابعوا زحفهم والتحموا بالمشاة النرمنديين وحملوا نفرا قليلاً منهم إلى خراسان ليعرضوهم للناظرين[٤١].

على هذه الصورة كانت روعة حملات الترك البطولية فى مقاتلتهم النرمنديين.

أما صنجيل و"تزاتاس" فقد اتجها إلى القسطنطينية بالقلة من الفرسان الذين ظلوا على قيد الحياة، فتلقاهم بها الإمبراطور وأغدق عليهم الأموال الطائلة، وأذن لهم بالاستراحة. فلما استجمّوا سألهم أى الأماكن يحبون التوجه إليها، فكانت القدسُ الموضعَ الذى اختاروه فجهزهم بالسفن وسافروا فى أبهة عظيمة.

كذلك غادر صنجيل هو الآخر القسطنطينية للحاق بجيشه الخاص الموجود فى مدينة طرابلس التى كان شديد التلهّف لأخذها، لكن أصابه مرض عضال فأرسل وهو فى الرمق[٤٢] الأخير فى طلب ابن أخيه وليم [جوردان]كونت سردينيا، وعهد إليه بكل الأماكن المنيعة التى استولى هو بنفسه عليها، وعيّنه قائدا عاما لعسكره، لكن ما كاد خبر وفاته يبلغ مسامع ألكسيوس حتى كتب إلى دوق قبرص ليبعث بمبالغ كبيرة إلى وليم [ابن أخى ريموند الصنجيلى] على يد نيكتاس، وأن يعمل على استمالته وإغرائه بقطع يمين الطاعة للإمبراطور، وهى اليمين التى كان عمه صنجيل قطعها على نفسه وظل محافظا على الوفاء بها حتى آخر يوم فى حياته.

(٩)

كذلك وصلت الأخبار إلى الإمبراطور عن احتلال تنكريد اللاذقية فبعث ألكسيوس برسالة إلى بوهيموند جاء فيها : " إنك تدرى بالأيمان التى لم تعطها أنت وحدك للإمبراطورية الرومانية بل قطعها أيضًا جميع الكونتات، ولكن هأنتذا أول من ينكثها ويشجبها إذ احتفظتَ بأنطاكية واستوليت بالخديعة على أماكن أخرى حصينة منها اللاذقية ذاتها، وإنى لآمرك بالانسحاب من مدينة أنطاكية وما سواها، فتكون حينذاك قد سلكت السبيل القويم، ولا تحاول أن تشعل ضرام نار خصومات وحروبا جديدة ضدك".

حين طالع بوهيموند هذه الرسالة على انفراد لم يعد فى قدرته اللجوء إلى أساليبه الخادعة المعروفة فى الدفاع عن نفسه بسبب أن أعماله كانت تحمل البرهان الناصع

علي صدق ما جاء في هذا الكتاب، ولكنه رغم ذلك راح يصب اللوم على الإمبراطور متهما إياه بما ارتكبه هو ذاته من الأعمال الفاسدة فكتب إليه يقول: "لست أنا المسئول عن كل ما جرى بل أنت المسئول، فقد عاهدتنا أن تلحق بنا على رأس قوة كبيرة من جيشك. غير أنك لم تقرن قط القول بالعمل. أما نحن فقد أقمنا (بعد وصولنا إلى أنطاكية) ثلاثة أشهر نقاسي الأهوال الجسام ونكابد المجاعة التي لمْ تَعِ الأذهان مثيلاً لها حتى انتهت بالكثيرين منا إلى الحضيض فأكلوا اللحوم المحرمة، لكنا تحملنا جميع هذه الأمور بكل ما فينا من قدرة، كما أنه في الوقت الذي كنا نعمل فيه ذلك قام أوفى أتباعك "تاتيكيوس" الذي اخترتموه يا صاحب الجلالة لمساعدتنا فتركنا فيما نحن فيه من الخطر الداهم ورحل عنا، فلم يكن منا إلا أن انتزعنا المدينة (على غير توقع من أحد) وأبدنا القوات الزاحفة من خراسان لمساعدة أهل إنطاكية...

فهلاً بربك أخبرتني كيف يجوز لنا أن نتخلّى في سهولة عما بذلنا فيه العَرَق والجهد".

فلما عاد رسل الإمبراطور إليه بردّ بوهيموند وقرأ جوابه أيقن أن بوهيموند اليوم هو نفس بوهيموند الأمس لم يغير شيئا من طبيعته، وأنه رجل فاسد لا يرجى صلاحه، وأنه لا يرعوى عن غيّه. وتجلى في وضوح الضرورة القصوى لتقوية حدود إمبراطورية الروم والعمل على كبح جماح مطامع بوهيموند التي لا تعرف حدا، لذلك أرسل بوتوميتس إلى كليكيا[٤٣] على رأس طائفة كبيرة من العسكر المعدودين من أروع المقاتلين، وكان كل واحد منهم يصلح أن يكون حارسا لأرليس.

كذلك رافَقَه "برداس" وميخائيل الساقي حامل الكأس، وكانا في ميعة الشباب لم ينبت شعر لحيتهما إلاّ من قريب، وكان الإمبراطور قد تكفل هذين الشابين منذ طفولتهما وحباهما برعايته ورباهما فأحسن تربيتهما ونشّأهما على فنون القتال، ولما كانت ثقته بهما كبيرة واطمئنانه إلى وفائهما له غير مغموز بل إنه ليفوق ما يحسه نحو كثيرين غيرهما فقد أرسلهما مع "بوتوميتس" ليعملا تحت إمرته مع آلاف غيرهما من العسكر البارزين: سواء أكانوا من الكلت أم الرومان، وأمرهما بأن يرافقا "بوتوميتس" ويطيعاه في كل ما يأمر به، كما كلفهما في الوقت ذاته - لثقته بهما - بأن

يوالياه هو ذاته فى السر بكتب لا تغادر صغيرة ولا كبيرة مما يحدث إلا أحصياها، وكان الإمبراطور شديد الاهتمام بالاستيلاء على كليكيا لأن ذلك الاستيلاء يمهد السبيل أمامه لشن الحملات على إنطاكية.

وخرج "بوتوميتس" بكل من معه من العسكر حتى إذا بلغ "أتاليا" Attalia تبين له أن كلا من "برداس" و"ميخائيل" لا يطيعان أمره، وأراد أن يتجنب وقوع أى تمرد فى صفوف العسكر إذ لابد لمثل هذا التمرد من أن يؤدى إلى وقف نشاطه كله، ومن ثم ينتهى الأمر إلى لا شيء، مما يحمله على الجلاء عن "كليكيا" دون أن ينجز شيئا؛ لذلك بادر فى لحظته إلى الكتابة إلى ألكسيوس مخبرا إياه بما كان من برداس وميخائيل وملتمسًا منه إعفاءه من مرافقتهما له، فأدرك الإمبراطور مدى الدمار الموشك أن يلم بالحملة بسبب هذين الشابين، فكلفهما ومن لفّوا لفهما ممن حامت الشكوك حولهم بمهمة أخرى، فأرسل كتابا يأمرهما فيه بالمضى إلى قسطنطين يوفربينوس الذى كان إذ ذاك دوق قبرص وتنفيذ كل ما يأمرهما به.

طالع الشابان فى سرور كتاب الإمبراطور وعملا بما أوصى به فأبحرا على عجل إلى الجزيرة. لكن لم يمض عليهما وقت وجيز وهما عند الدوق إلاَّ وعاودا سيرتهما المنطوية على ما اشتهرا به من العجرفة نحوه هو الآخر أيضًا، فلا مشاحة أن ساوره الشك فيهما.

فقد قاما من ناحيتهما بملاحقة الإمبراطور برسائلهما التى تفيض بالتهم يلحقانها بالدوق، فأزعجت كتبهما الإمبراطور وبلبلت خاطره.

كان معهما فى قبرص جماعة معينة من الأشراف الأثرياء ممُن كان ألكسيوس يشك فى ولائهم له فنفاهم من البلاد، إذْ لمْ يستبعد أن يحركهم سخطهم عليه للوقوف ضده، لذلك فقد أصدر أوامره فى تلك الحال إلى كانتا كوزينوس أن يمضى فيعود بهم فجاء إلى "كيرينيا" وعاد بهم جميعا إلى العاصمة.

هذا هو الخبر عن برداس وميخائيل رئيس السقاة.

أما فيما يتعلق ببوتوميتس فقد وصل إلى كليكية مع "مونستراس" Monstras وبقية القادة الذين تخلفوا معه، فلما علم باتفاق الأرمن مع "تنكريد" بادر بالزحف عليهم واستولى على مرعش وما جاورها من القرى والدساكر، ثم ترك قوة كافية لحراسة تلك الناحية بأكملها، وجعل على رأس هذه الحامية العلج "مونستراس"، أما هو فقد عاد إلى العاصمة(٤٤).

(١٠)

كان الفرنجة حين زحفوا من بيت المقدس لفتح مدن الشام قد منّوا [دامبرت] أسقف(٤٥) بيزا بالأماني الجميلة إن هو عاونهم في تحقيق هدفهم فوافقهم، فأغرى اثنين ممن يعملون في البحر بسلوك مسلكه هذا فلم يتأخرا عما دعاهما إليه، فتجهزا ببعض العدّاءات(٤٦) والشواني والقراقير والقوارب الصغيرة وغير ذلك من السفن سريعة الانسياب فكانت في مجموعها تسعمائة مركب، ثم رحل إلى الشام(٤٧).

على أنه في أثناء إبحاره فصل عددا من السفن ومعها دامبرته(٤٨) وأرسلها للإغارة إلى كورفو ولوكاس وكفالونيا وزاكنتوس، فلما سمع الإمبراطور بهذا الأمر أمر جميع ولايات الإمبراطورية الرومانية أن تعد هي الأخرى سفنها، كما بنى مجموعة غير هذه في القسطنطينية ذاتها، وركب هو سفينة ذات صف واحد من المجاديف، وراح يشير على صناع السفن بما يتفق كلٌ وعمله، وكان يخشى الاشتباك في معركة بحرية مع البيازنة لما يعرفه عنهم من أنهم أمهر المحاربين بحرا، ولذلك كان إذا حارب علق في مقدمة كل سفينة رأس سبع أو ما شابهه من حيوانات الغابة المصنوعة من البرونز أو الحديد فاغرة أفواهها. وكانت الطبقة الذهبية الخفيفة المطلية بها هذه التماثيل تبعث الرعب الشديد في قلوب مشاهديها، كما كانت النار الإغريقية التي يرميها على العدو تنطلق من خلال أنابيب تخرج من أفواه هذه الأسود وغيرها من الوحوش حتّى ليخيل إلى ناظرها أن هذه التماثيل تقذف بالحمم. فلما تَمَّ إعداد كل شيء على هذه الصورة بعث فطلب "تاتيكيوس" – وكان قريب العهد بالعودة من إنطاكية– وعهد إليه بهذا الأسطول ولقّبه بأمير البحر الأعظم، وإن كان قد وكل إلى "لاندولف"(٤٩) Landulf رعاية

كل السفن كما رفعه إلى مرتبة "الدوق الكبير"؛ لأنه كان من أعظم الخبراء بفن القتال البحرى.

غادر هؤلاء العاصمة فى النصف الثانى من أبريل [سنة ١٠٩٩م] ووصلوا إلى "ساموس" بهذه المراكب التى أرست برفقة الأسطول الرومانى إلى جوار الساحل فنزلوا منها وسحبوها إلى الساحل وطُليت بالقار، لكنهم ما كادوا يسمعون بخروج البيازنة حتى انطلقوا يتعقبونهم فبلغوا جزيرة "كوس" التى كان البيازنة قد وصلوها فى الصباح، فلما جاءها البيزنطيون فى المساء لم يعثروا على أثر للبيازنة فتركوها إلى "كندوس" Kindus القريبة من الساحل الأناضولى، وبينما كان البيزنطيون فى هذه الناحية إذ بهم يكتشفون وجود أفراد قلائل من البيازنة هرب منهم رفاقهم وخلّفوهم وراءهم، فسألهم البيزنطيون أين ذهب أسطول بيزا فقالوا إلى "رودس"، ففرد الروم أشرعتهم ثانية وبادروا إلى الرحيل فى أثرهم فلحقوهم فى موضع بين جزيرة رودس وبتارا Petara ، فلما رآهم البيازنة استعدوا للقتال ورتبوا صفوفهم مشرعين سيوفهم.

واقترب الأسطول الرومانى، وكان فى الروم كونت بلوبونيزى اسمه Perichytas برختاس قد تخصص فى الكمائن البحرية، فما كاد هذا الكونت يرى الأعداء فى مستوى النظر حتى أسرع وهاجمهم بقاربه المفرد وشق طريقه بينهم كأنه البرق الخاطف، ثم عاد إلى صفوف الرومان الذين لم يقتحموا المعركة بطريقة نظامية، بل اكتفوا بشن هجمات غير منتظمة وإن اتسمت بالعنف. وكان "لاندولف" نفسه أول من التحم بالخصم وراح يرميه بنيرانه ولكنها أخطأت الهدف فلم يَجْنِ مما فعل سوى إضاعة الوقود بدداً.

أما الكونت المسمى "إليمون" Eleemon فقد شق طريقه فى عنف مستهدفا الهجوم على مؤخرة أكبر سفينة من سفن العدو إلا أنه لم يصب منها غيْر دفتها، ولم يتمكن من إعطابها بل إنه هو ذاته كاد أن يقع فى يد عدوه لو لم يتذكر سريعا الآلة التى معه المهيأة لرمى النار(٥٠)من الأنابيب، فرماهم بهذه النار، وأخذ يراوغهم فى حذق ومهارة بسفينته فى كل اتجاه، وتلى ذلك تركيزه الرمى على ثلاث من أكبر سفن المتبربرين فنجح فى إشعال النار بها، ثم هبت فى الوقت ذاته وعلى حين فجأة ريح عاصفة غطت

البحر فهاج فارتطمت المراكب بعضها ببعض، وأوشكت جميعها على الغرق حين ضربتها الأمواج العاتية فانكسرت الصوارى وتمزقت الأشرعة وساد الذعر بين المتبربرين واستبد بهم الخوف واحتاروا ماذا يفعلون إزاء النار الإغريقية التى ترميهم بالحمم، ولم يكن لهم بهذه النار عهد، فهى نار تتقد وتتقد ثم تنطلق فى أى اتجاه يبغيه الرومان فتصيب جوانب السفن وأسفلها كما تصيب فتحاتها وجوانبها.

وزاد فى اضطراب البيازنة شدة هيجان البحر، لذلك رأوا ألا سبيل أمامهم إلا الهرب وكان هذا الهرب هو غاية ما يمكنهم عمله للنجاة.

أما فيما يتعلق بالأسطول الرومانى فإنه لجأ إلى جزيرة صغيرة يطلق أهلها عليها اسم سيتلوس Setlos حتى إذا طلع النهار أبحر الأسطول وظل مبحرا حتى أرسى برودس، فنزل الرومان إلى البر وساقوا أمامهم من فى أيديهم من الأسرى، وفيهم ابن أخت بوهيموند، وحاولوا إرهاب أسراهم فهددوهم ببيعهم فى سوق النخاسة أو قتلهم بالسيف، فلمّا لم تُجْدِ معهم هذه التهديدات نفعا لم يجدوا بُدًا من تحكيم السيف فى رقابهم فهلكوا عن بكرة أبيهم فى ساعتهم هذه.

أما من بقى على قيد الحياة من رجال الحملة البيزنطية فقد تحولوا لنهب الجزر التى صادفوها لاسيما جزيرة قبرص التى شاءت الصدفة أن يكون "يوماتيوس فيلوكالس" Eumathius Philokales موجودا بها حينذاك فهاجمهم، فدب الذّعر فى أوصال ملاحيهم بصورة حملتهم على التنكر لرفاقهم الذين كانوا قد نزلوا الشاطئ للنهب والتخريب وتركوهم - إلا قلة ضئيلة منهم أخذوها معهم والخوف يملأ جوانحهم - ثم فردوا قلاعهم وأبحروا إلى اللاذقية رجاء الانضمام ثانية إلى بوهيموند، فلما وصلوا إلى حيث كان يقيم صرحوا له - وهم بين يديه - عن حرصهم الشديد على توثيق أواصر الصداقة بينهم وبينه، فسرّه باعثهم على القدوم إليه ورحب بهم.

حين عاد الذين كانوا قد تركوهم وراءهم بالجزيرة لجمع الغنائم لم يجدوا سفنهم فألقوا بأنفسهم فى الماء غير مبالين بالموج يطويهم فى لجته فطواهم فكانوا من الغرقى.

ما كاد أمراء البحر الروماني و"لاندولف" يصبحون في قبرص حتى أجمعوا أمرهم على عقد اجتماع بشأن مفاوضات الصُّلح الذي يمكن الوصول إليه، وحينذاك وقع اختيارهم على بوتوميتس ليكون رسولهم إلى بوهيموند الذي عوقه عنده وأبقاه لديه خمسة عشر يوما تفشت المجاعة خلالها في اللاذقية وعمَّتْها.

لقد بقي بوهيموند على ما هو عليه لم يتغير منه شيء ولم يتبدّل شيء من طباعه ولو قلامة ظفر، ولم يتعلم معنى الحفاظ على السلم إذْ أرسل إلى بوتوميتس يقول له: "إنك لم تأتِ إلى هنا سعيا للصداقة ولا التماسا للسلام بل جئت لتضرم النار في أسطولي، فعليك أن تعود من حيث جئت، واحمد الله وطب نفسا أنْ عُدْت سليما لم يُمَثَّل بك".

ورحل بوتوميتس ليجد أصحابه في ميناء قبرص، وأميط اللثام تماما عن نوايا بوهيموند الخبيثة بعد هذه المكاشفات، وصار من الواضح أنّ الاتفاق مع الإمبراطور أصبح غير ذي موضوع.

حينذاك رفع الرومان المراسي مرة أخرى وصدرت الأوامر بالإبحار إلى العاصمة عبر المعابر المائية، ثم هبّت عاصفة هوجاء من "سايك" Syke في غرب قيليقية تعالت من جرائها الأمواج مزمجرة غاضبة وقذفت بالمراكب إلى الشاطئ فغطته جميعها ولم ينجح من هذا العطب إلا ما كان بقيادة "تاتيكيوس".

على هذه الصورة كانت خاتمة المعارك البحرية ضد البيازنة.

على أن بوهيموند -وقد ظهر للكلّ سوء طويته- داخله الخوف مما يكون الإمبراطور قد بيته له، ومن ثم سعى لأخذ مدينة "كوريكوس"(٥١) Kourikos ومباغتة ما يكون راسيًا بها من السفن التي ربما يكون الروم قد أعدّوها للدفاع عن قبرص والحيلولة دون وصول الإمدادات التي يراوده الأمل في وصولها إليه من "لمبارديا" عبر الساحل الأناضولي(٥٢). لذلك قرر إزاء هذه الظروف أن يرمم ما تهدم من "كوريكوس"، ويحتل الميناء التي كانت في سالف الأزمنة مدينةً شديدة الحصانة لكنها غدت اليوم أطلالاً.

واتخذ الإمبراطور احتياطاته الخاصة بعد أنْ أدرك خطة بوهيموند فرفع "أوستاسيوس" الخصى من وظيفة كانيكلوس[٥٣] Kanikleas إلى مرتبة القيادة الكبرى للأسطول، وبعثه مزودا بالتعليمات القاضية بأخذ "كوريكوس" على وجه السرعة دون تريث، كما أمره أن يعجل بترميم المكان نفسه وكذلك قلعة "سلوقية" التى تبعد عنها حوالى ست مراحل، وأن يُزوِّد كلا منهما بحامية قوية، وأن يعين "ستراتيجوس سترابو" دوقا عليها، وكان سترابو هذا رجلاً ضئيل الجثة ولكنه أُمّة فى الفنون الحربية، كما أمر بالإضافة إلى ذلك بوضع العدد الكافى من السفن معه، مع التنبيه على بحارتها باليقظة فى حراستها وألا تغفل لهم عين عن رصد ما قد يأتى إلى بوهيموند من الإمدادت من لمبارديا، وأن يكونوا هم غوثا لقبرص ونجدةً لها.

وأبحرت قراقير أمير البحر الذى أشرت إليه و أفسدت على بوهيموند خططه.

كذلك أعاد ترميم مدينة "سلوقية" فى الحال وحصَّنها بالخنادق التى تم حفرها فأحاطت بها من كل جانب، وكان تحت يد "ستراتيجوس" العدد الكافى من الرجال لمواجهة الطوارئ التى قد تحدث فى سلوقية وفى "كوريكوس". وزوَّدهم بمجموعة كبيرة من السفن الراسية بالميناء. فلما فرغ "يوستاكيوس" من ذلك كله عاد إلى العاصمة فأثنى عليه ألكسيوس الثناء الجميل وتوالت إنعاماته عليه.

(١١)

هذه هى التجهيزات التى اتخذت فى "كوريكوس".

ثم علم ألكسيوس بعد عام[٥٤] من هذه الأحداث أن هناك حملة جنويَّة على وشك الإبحار لمساعدة الفرنجة، وتوقع أن ينزِل الجنويون الأضرار الجسيمة بإمبراطورية الروم كما فعل غيرهم، ولذلك خرج "كانتكوزينوس" بجيش برى ضخم، كما أبحر "لاندولف" هو الآخر بأسطول تم إعداده على وجه السرعة، وكانت مهمة "لاندولف" هى النزول إلى الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ومهاجمة الجنويّة أثناء مرورهم أمام

"كليكية". ونفذ كل من القائدين البرى والبحرى ما عهد إليه القيام به. غير أن عاصفة شديدة هبت فأعطبت كثيرا من المراكب عطبا أفسدها فحملوها إلى البر ثانية وعالجوها بالقطران السائل، ثم جاء الخبر إلى كانتاكوزينوس بوجود الأسطول الجنوى على مقربة منه وهو فى طريقه إلى الجنوب فاقترح البعض على "لاندولف" أن يأخذ ثمانى عشرة السفينة ويبحر بها. وكانت هذه هى السفن الوحيدة الموجودة إذ ذاك بالبحر، أما سواها فكانوا قد سحبوها إلى اليابسة. وتم الاتفاق معه على أنه إذا وصلت إشارة الإمبراطور أنْ يبادرهم هو بالهجوم عليهم. أمّا إن لم يفعلوا ذلك فلينظر هو إلى ما فيه سلامته وليتدبر أمان بحريته فيرسو فى "كورن".

ثم خرج فلما شاهد ما عليه أسطول الجنوية من الضخامة عدل عن قتالهم وعاد سريعا إلى "كورن" لكنه قاد القوات الرومانية البحرية عن بكرة أبيها وكان من الضرورى أن يفعل ذلك فأركب العسكر الذين معه السفنَ وطارد أسطول العدو إلى أبعد نقطة استطاع أن يطرده إليها غير أنه فشل فى اللحاق به وإمساكه ومن ثم تابع شيره حتى وصل إلى "اللاذقية" طمعا فى أن تتاح له فرصة يجرب فيها قوته مع بوهيموند، لذلك شرع فى العمل للاستيلاء على الميناء مواصلاً ليله بنهاره فى العديد من الحملات ولكنه لم يحرز أى نجاح فى التغلب على الخصم، وانتهى به الحال أخيرا إلى عمل سور دائرى صغير من الصخر يقوم بين الرمل وأسوار الميناء واستغرق هذا العمل ثلاثة أيام سويا لم يكفّ الرجال خلالها عن العمل ليلاً ولا نهارا، فلما قام البناء استعمله كستار واق، ثم شيد داخله بناء حصينا من الأسمنت المسلح اتخذه كقاعدة لعمليات أشد عنفا فى الهجوم على تحصينات المدينة، كما يضاف إلى ذلك إقامة برجين على حافتى مدخل البناء ومدُّ سلسلة حديدية عبر المسافة الفاصلة بينهما وبذلك استحال وصول أية نجدة من ناحية البحر.

كذلك استولى فى الوقت ذاته على كثير من الأماكن الحصينة المتناثرة على طول الشاطئ حتى حدود طرابلس مثل "أرجيروكاسترون" Orgyrocastron و"مارخابين" وجبلة وغيرها وكلها كانت تؤدى الجزية من قَبْلُ إلى المسلمين لكنها رجعت بعد حين

إلى الإمبراطورية الرومانية على يد ألكسيوس الذى جاهدَ وبذل كثيرا من العرق فى سبيل استردادها.

كما رأى الإمبراطور وجوب مهاجمة اللاذقية برا.

ولما كان ألكسيوس على درجة كبيرة من العبقرية التى سرعان ما يدرك بها ما تنطوى عليه نفس كل شخص، ولما كان ذا دراية عميقة بأحابيل بوهيموند الماكرة ومخططاته العدوانية والغرور الذى كان طبيعة ركبت فيه، والعناد الذى كان سجية لا تفارقه فإنه بادر فبعث بمونستراس على رأس تجريدة قوية لمحاصرة اللاذقية من ناحية البر، فى الوقت الذى يقوم فيه "كانتاكوزينوس" بالتضييق عليها بحرا.

لكن حدث قبل وصول "مونستراس" إليها أن سبقه رفيقه "كانتاكوزينوس" واحتل البلد والميناء ولم يعزّ عليه سوى قلعتها التى لازالت فى يد خمسمائة من المشاة الكلتيين ومائة من خيالتهم، ووصل نبأ ذلك إلى سمع بوهيموند، كما أخبره الكونت المسئول عن الدفاع عن القلعة بنفاد المئونة التى عندهم، ولذلك كلف جميع قواته الخاصة وقوات تنكريد وصنجيل بتحميل البغال بجميع أنواع المأكولات التى يتيسر وجودها. ولما بلغ هو المدينة بادر إلى نقلها على وجه السرعة إلى القلعة.

كذلك جرت مقابلة بين بوهيموند و" كانتاكوزينوس" سأل الأول فيها الثانى عما وراء إقامة هذه المتاريس الترابية فأجابه: "إنك تعرف أنك ورفاقك الكونتات أقسمتم أن تكونوا فى خدمة الإمبراطور والتزمْتُم بهذا القسم أن تَرُدّوا إليه كل المدن التى تقع فى أيديكم، لكنك حنثت بهذا القسم ونبذت جانبا شروط الصلح إذ احتفظت بهذه المدينة بعد استيلائك عليها وكان الواجب يقضى أنْ تردّها له، لكنك غيرت رأيك إذْ لما جئتُ لأتسلم المدن التى تم لك فتحها عدتُ خالى الوفاض ولم تُجدِ زيارتى نفعا". فسأله بوهيموند:" وهل تراك جئت إلى هنا لتأخذها بالمال أم بالسيف"؟ فرد عليه:" لقد تسلم حلفاؤنا المال ليشتد عضدهم ويزدادوا بسالةً فى القتال".

فبان الغضب الشديد فى وجه بوهيموند وقال له: "كن واثقا بما أقوله لك.. لئن لم تدفع المال فلن تستطيع أبدا أن تأخذ شيئا ما حتى ولو كان مركز حراسة صغيرا".

وعلى أثر ذلك حرك قواته للمضى مباشرة إلى أبواب المدينة فلما اقترب الفرنجة من السور ردهم بالسهام التى راحت تتساقط عليهم بكثافة كأنها حبات الثلج.

وحينذاك أسرع بوهيموند فاقتحم بكل عسكره القلعة وعزل مَن بيدهم أمر الدفاع عنها وقام فى الوقت ذاته بتدمير حقول العنب والبســاتين القريبة من الأســوار حتى لا تقف عائقا أمام اللاتين وهم على ظهور جيادهم، فلما فرغ من كل ذلك غادر المدينة عائدا أدراجه إلى أنطاكية.

أما ما كان من أمر "كانتاكوزينوس" فقد تابع الحصار بكل ما توفر له من آلاته، واستخدم مئات الطرق: من الهجوم المفاجئ إلى الرمي بالمنجنيق الذى أدى إلى وقوع الاضطراب بين اللاتين الموجودين بالقلعة.

أما "مونستراس" فكان مشغولاً بالقدوم عن طريق البر مع الخيالة فاحتل "لونجينياس" Longnias وطرسوس وأدنة والمصيصة، أعنى أنه احتلَّ معظم كليكيا.

(١٢)

استولى الخوف على بوهيموند من جراء تهديدات الإمبراطور لعدم توفر وسائل الدفاع عنده إذ لم يكُن تحت يده جيش برى كبير أو أسطول بحرى فكان الخطر يهدّده من هاتين الناحيتين، لذلك دبر خطة مستهجنة دلت على خساسة مكره ووضاعة نفسه، فكان أول ما فعل أن غادر مدينة أنطاكية واستودعها ابن أخته تنكريد ابن المركيز "أودو"، ثم أشاع فى شتى النواحى أنه مات، وعمت هذه الشائعة كل ناحية ولاكَتْها الألسن التى كانت تقول "مات بوهيموند". حتى اقتنع الجميع بها وما كانت إلا أكذوبة؛ فقد كان حيا وكان لا يزال على قيد الحياة. ثم أمر مَن حوله بأن يعدُّوا له نعشا وسفينة. أما النعش فقد وضعه على ظهر السفينة بعد أن سَجَّى نفسه فيه مدّعيا مفارقة روحه بَدَنَه ولكنها كانت جثة "تَتَنَفَّس".

ثم أبحرت السفينة بالجثة من ميناء "السويدية" التى هى ثغر أنطاكية إلى رومة وبدا للعيان من النعش ومن سلوك رفاقه أنه أصبح "جثة" وكان رفاقه المتبربرون لا يكادون يبلغون ناحية من النواحى إلاّ توقفوا وهم يشدّون شعورهم، ويندبون صاحبهم، ويزعمون أنه ميت وما هو بالميت، بل لا يزال حيا تتردد أنفاسه فى صدره، وقد زودوا النعش بثقوب خفية للتنفس.

هكذا كانوا يفعلون فى الأماكن الساحلية.

أما حين تصبح المركب فى عرض البحر فيشاركه رفاقه الطعام ويرعونه ويقومون بخدمته، فإذا توقفوا فى أحد الموانئ عاودوا الندب والعويل والقيام بذلك المنظر الزرى الحقير.

ثم أرادوا إظهار تفسخ جثمانه فجاءوا بديك خنقوه ووضعوه فى النعش، فلما مضت أربعة أيام أو خمسة فاح النتن وبلغ كلَّ أنف فجازت الحيلة على من يكون حاضرا حتى يظنّ أن النتن إنما هو من جثمان بوهيموند، وكان هو يجد غاية اللذة والسعادة فيما يقوله الناس ويسعده "سوء طالعه الوهمى الكاذب".

أما من ناحيتى أنا فإنى أتعجب كيف يستطيع إنسان - أيا كان هذا الإنسان - أن يتحمل ما تحمله هو من رائحة النتن، وأن يُحمل ثم يبقى على قيد الحياة، لكن هذه الحادثة تعلمنى كيف لا يبالى هؤلاء القوم بما يلقون فى سبيل ما يريدون.

لم يكن هذا الرجل بوهيموند قد مات حقا، بل إن موته كان زورا وبهتانا حتى إنه لم يعفّ عن العيش مع جيفة، ولم يشهد جيلنا حيلة كحيلة بوهيموند هذه وهى حيلة فريدة كان يسعى من ورائها إلى إسقاط إمبراطورية الروم، كما أنه لم يسبقه متبربر أو إغريقى إلى مثل هذه الخطة ضد أعدائه، ولا أظن أنهُ سوف يتسنى لأحد ما فى عصرنا أن يرى شبيها لهذه الخطة.

كان بوهيموند حين وصوله إلى "كورفو" أشبه بمن بلغ ذروة جبل شاهق، وكأنما كانت الجزيرة له ملاذا إذْ وفرت له الأمان وأبعدت عنه كل خطر، فقد نهض - حين بلغها - من "موته الكاذب" وغادر النعش الذى كان مسجى فيه، ونَعِم بالشمس المشرقة

وتنفس الهواء النقى وتجول فى أنحاء المدينة، فلما شاهده أهلها يخطر بينهم فى ملابس المتبربرين الغريبة المستهجنة تساءلوا عمن يكون هذا الشخص، ومن تكون أسرته؟ وما اسمه؟ ثم راحوا يستفسرون من أين جاء؟ وما هى وجْهَتُهُ؟ وإلى أين هو ذاهب؟ فعاملهم بوهيموند بازدراء وترفع، وطالبهم أن يذهبوا به ليرى دوقها الذى كان يُدعىَ هو أيضًا "ألكسيوس" والذى جاء من ولاية أرمينية، فلما صار الاثنان وجْها لوجه حَدَّجه بوهيموند بنظرة متعجرفة تفيض بالتحدى، وخاطبه بلهجةٍ فيها كثير من الصلف وبألفاظ همجية، وأمره أن يرسل إلى الإمبراطور السطور التالية التى يقول له فيها:

"إليك أرسل هذه الرسالة منى أنا بوهيموند بن روبرت العظيم..

إنى أنا بوهيموند الذى علمك فى الماضى كما علَّم إمبراطوريتك مدى ما أنا عليه من الشجاعة والبطش.

ولقد علمتَ بأس معارضتى

إنه حين تتبدل موازين الحظ فلن أنام عن طلب الثأر لما لحق بىَ فى الماضى وما أصابنى من الكوارث منذ أن أخذتُ أنطاكية أثناء عبورى وزحفى فى الإقليم الرومانى، وكيف أذللت بسيفى كلَّ بلاد الشام، وكان نصيبى الشقاء على يديك وعلى يد جيشك، فتحطمت آمالى كلها الواحدة تلو الأخرى، وألَمّت بى آلاف البلايا ونكبتُ بألف حرب قاسية، أما الآن فقد تغير وضعى وإنى أريدك أن تعلم أنه على الرغم من أنى قدْ مِتُّ فقد رُدِدتُ إلى الحياة وبُعِثْتُ ثانية، وتخلصت من قبضتك واستطعت - وأنا فى صورة رجل ميت - أن أتَجنّب وأتحاشى أن ترانى أى عين، أو تمتد إلىَّ يد ما أو تدبر خطة ضدّى.

والآن هأنذا أعيش وأتحرك وأتنفس الهواء، وأرسل لك يا صاحب الجلالة من كورفو أخبارا ذات وقع كريه على نفسك فتقضُّ مضجعك وليس فيما تقرأ منها ما يسرك وترتاح إليه نفسك.

قد أعطيت - أنا بوهيموند - لابن أختى تنكريد مدينة أنطاكية وخلّفته خصما عنيدا لقوادك. أما أنا فإنى ماض لمهبط رأسى وإن كنت لا أعدو فى نظر أصدقائك

سوى رجل ميت، ولكنى أعلم ويعلم أصدقائى إنى رجل حَىّ، وإنى أدبر خاتمة سوداء لك.

وإنه سعيًا منى لتفتيت العالم الرومانى - الذى تحكمه - قد أَمَتُّ نفسى حيا، وأحييتها، والآن هأنذا حى، وإنه حين أصل إلى أرض إيطاليا وأطالع بعينى رأسى اللمبارديين وجميع اللاتين والجرمان وجميع رجال شعبنا الفرنجة الذين تملأ قلوبهم الحماسة للحرب فسوف أُغرِق مدنك وأراضيك بسيلٍ من دماء الذين سوف أقتلهم حتى أركز رمحى فى بيزنطة ذاتها".

بمثل هذه الجعجعة العالية كانت نشوة هذا المتبربر.

الحواشى

(١) تسميها المراجع المعاصرة لها ببحيرة أسكانين askainin وهي واقعة إلى الغرب من المدينة.

(٢) المقصود بذلك تسليم البلد.

(٣) جاءت هذه العبارة فى نسخة إليزابيث على الصورة التالية: " فما كان منه إلا أن أخرجه مهانا فاندفع".

(٤) جرت هذه المعركة أول يوليو ١٠٩٧ وكان بوهيموند بدأ زحفه يوم ٢٦ يونيو ١٠٩٧ أما الفرق الأخرى فقد خرجت يومى ٢٨ و٢٩ يونيو على التوالى وهذا ما نستفيده من مطالعة سوتير فى تعليق على العبارة الواردة أعلاه.

(٥) كانت هذه الإمدادات كما جاء فى إليزابيث تتألف من الفرنجة.

(٦) سمَّتْه نسْخة سوتير.باسم " تانيسمان" Tanisman وقال المترجم فى تعليق له فى ترجمته: "إنه من المرجح أن يكون الملك غازى ابن الملك دانشمند". ثم أنه سمى القائد باسم حسن وإن سمته نسخة إليزابيث باسم Asan ويبدو محرفا عن حسن.

(٧) أوردته إليزابيث باسمه اللاتينى القديم وهو Oxo Dranas .

(٨) جاء فى حاشية سوتير: "إن الجيش وصل إلى أنطاكية فى الحادى والعشرين من أكتوبر ١٠٩٧ وكان سقوط المدينة فى الثالث من يونيو ١٠٩٨".

(٩) المقصود بهذا فيروز الذى كان قد أسلم أو تظاهر بالإسلام سعيا وراء مصالح شخصية مادية وربما كان منها اغتنام فرصة تمكنه من الحصول على مطالب ذاتية ومن ثم كان إظهاره الولاء الكاذب لياغى سيان. راجع تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ترجمة حسن حبشى .

(١٠) هذه القصة التى تسوقها المؤلفة أنا كومنينا لا نراها إلا من وحى خيالها وما نحسبها إلاّ محاولة لتبرير انسحاب تاتيكيوس والجيش البيزنطى فى عدم وقوفه إلى جانب الفرنجة والزحف معهم .

(١١) راجع القصة كاملة فى Runciman op cit. I.

(١٢) وردت فى نسخة إليزابيث كلمة Gula وهى تصحيف لكلمة " قلعة " العربية.

(١٣) جاءت هذه العبارة فى إليزابيث على الصورة التالية : " فلتكن مهمتى إنْ رضيتم جميعا أن أحارب مع المدافعين عن الأكروبوليس أما أنتم فعليكم أن تحاربوا بقوة ضد العدو الموجود بالخارج".

(١٤) جاء فى نسخة إليزابيث : "وحين ذاك استدعى رجلا يسمونه " كاسباس وعهد إليه بقيادة الأسطول ".

(١٥) ورد اسمه في إليزابيث هكذا Tangamentaeh ولم يجد سوتير تفسيرا لهذا اللفظ وقد ترجمناهُ حسب السياق العام بـ " القائد العام".

(١٦) تقصد المؤلفة بلفظها " الاثنين " كلا من كاسباس و " جون دوكاس".

(١٧) لم ترد كلمة أزمير في نسخة إليزابيث ولكن ورد بدلا منها كلمة " القلعة ".

(١٨) جاء في إليزابيث: أما الترك فقد سخروا من دوكاس ظانين أنه لم يعد شيئا مذكورا.

(١٩) جاء في إليزابيث : حتى من غير أن يعين حاكما .

(٢٠) آثرنا كلمة " الصليبيين " بدلا من كلمة " الفرنجة " الواردة في إليزابيث ومن كلمة "الكلت" الواردة في سوتير .

(٢١) المقصود به ستيفن دى بلوا ، وكان انضمامه هو الآخر إلى ألكسيوس في منتصف يونيو ١٠٩٨ .

(٢٢) المقصود بالفرنجة هنا : الثالوث المؤلف من : وليم جرند منس وستيفن دى بلوا ، وبطرس أبولوس.

(٢٣) يشير سوتير إلى الاختلافات الكبيرة في تفسير المؤرخين لهذا الموقف كما يشير إلى ما قاله في هذا الصدد Runciman, op cti. I p.p 241 - 261 حيث يوضح أن المقصود بطرس هذا بطرس بارتلميو وليس بطرس أسقف بوى.

(٢٤) المقصود بالمكان الطاهر هنا كنيسة القديس بطرس الموجودة بأنطاكية.

(٢٥) تقول المؤلفة على الدوام " المسمار" على حين أن اللاتين يقولون " الحربة المقدسة " التي طعن بها المسيح .

(٢٦) كان هذا يوم ٢٦ يونيو ١٠٩٨ .

(٢٧) كان سقوطها يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ .

(٢٨) الواقع أنه لم يصبح ملكا على بيت المقدس ولكن اكتفى أن يلقب بحامى القبر المقدس وإن كانت القدس أصبحت تعرف "بالمملكة " وليست بالإمارة أو " الكونتية ".

(٢٩) المقصود بذلك خليفة مصر الفاطمي.

(٣٠) لا نرى موضعا هنا لكلمة الأرمن فما كان لهم ذكر في صد الفرنجة ولكن المعروف أنّ المؤلفة أنا كومنينا كانت شديدة الكراهية للأرمن وتعتبرهم أعداء.

(٣١) جاء وصف هذه المدن "بالصغيرة " في إليزابيث.

(٣٢) تستعمل أنّا كومنينا لفظ "البابليين " بدلا من المصريين . وليس في هذه التسمية خطأ.

(٣٣) وردت كلمة Aemermmenes في كل من إليزابيث وسوتير ولا شك أن المقصود بها هو أمير المؤمنين.

(٣٤) جاءت في إليزابيث العبارة التالية : " إلا جودفروى فإنه أطلق سراحه بلا فدية ".

(٣٥) المقصود بهذه الكلمة القلعة التي سماها العرب بقلعة " الصنجيل " وكانت تقع على جبل الحجاج.

(٣٦) كان موته يوم ١٨ يوليو ١١٠٠ بمرض التيفود ودفن فى كنيسة القيامة.

(٣٧) كان وصوله إليها يوم ٢٥ ديسمبر ١١٠٠ .

(٣٨) الواقع أن أغلبهم كانوا من النرمنديين .

(٣٩) وردت هـذه العبارة فى نسخة إليزابيث على الصورة التالية : " وجاء فى هذه الآونة جيش نرمندى" .

(٤٠) كان اهتمامهم منصبا على إنقاذ بوهيموند الذى كان الترك قد أسروه فى أغسطس.

(٤١) كان ذلك فى المعركة المعروفة باسم وقعة " مِرْسيفان" Mersivans التى وقعت فى خريف ١١٠١ وهلك فيها أربعة أخماس جيشه .

(٤٢) ألَمَّ المرض بريموند الصنجيلى وهو فى القلعة الموجودة على تلّ الحجـاج ، أما موته فـكان يوم ٢٨ فبراير ١١٠٥ .

(٤٣) ذكر سوتير فى تعليق له على ذلك الأمر أنه يستدل منه على أن كيليكيا كانت ولاية عظيمة الأهمية وأنها كانت تعتبر البوابة المؤدية للشام .

(٤٤) تعلق نسخة سوتير على ذلك بأنَّ المؤلفة تشير هنا إلى أحداث حرب ١٠٩٨ – ١٠٩٩ ثم يأخذ المترجم على المؤلفة أنها بذلك تعود إلى الوراء .

(٤٥) هو " دامبرت" رئيس أساقفة بيزا الذى عينه البابا أربان الثانى سنة ١٠٩٨ بطركا للقدس بعد موت أديمار أسقف "بوى".

(٤٦) "العدَّامات" هى الترجمة العربية فى معجم النخيلى ص ١٤٦ لكلمة Bremes وهى نوع من السفن ذات صفين من المجاديف ويزيد عدد رجالها على مائتى ملاح وربما وصلوا إلى ثلاثمائة . أما الدرمونة وقد كثرت الإشارة إليها من قبل فمصطلح عربى مرادف لكلمة Dramend وجمعها درامين . وبناء على ما ذكره خليل بن شاهين الظاهرى فى زبدة كشف الممالك ١٢٢– ١٢٣ فإنها كانت تطلق فى مصر على نوع من المراكب النيلية التى تحمل غلال الملوك والأمراء من إقطاعياتهم وقت زيادة النيل وكانت تستعمل عند البيزنطيين فى الحرب.

(٤٧) جاء بعدها فى إليزابيث كلمة " لمقاتلتهم " والمقصود بذلك مقاتلة الفرنجة الذين دعوه لمشاركتهـم بحريا فى الحرب .

(٤٨) دامبرت أسقف بيزا.

(٤٩) كان "لاندولف" من مواليد إيطاليا وليس من شك فى أنه كان يفهم الأساليب اللاتينية المتبعة فى البحار .

(٥٠) فيما يتعلق بالنار الإغريقية يمكن مراجعة ما جاء فى Pallrington ,A Hist of greeck fire p 517

(٥١) هى المعروفة حديثا باسم Korigon.

(٥٢) فى إليزابيث: " الساحل الشرقى" بدلاً من عبارة: " ساحل الأناضول" الواردة فى سوتير.

(٥٣) فسرتها نسخة إليزابيث بأن معناها " الحافظ للمداد الأحمر المستعمل فى التوقيع الإمبراطورى. أما سوتير فقال فى تفسيره لهذه الوظيفة إنها تعنى القيام على المحبرة الإمبراطورية التى يقال إنها كانت على هيئة كلب ومن هنا اشتق اسمها وكان لمتوليها حق توقيع الوثائق الهامة.

(٥٤) ذكرت نسخة سوتير المطبوعة حديثا أن أنا كومنينا تتكلم فى هذه الأحداث عن حوادث ١١٠٤ هذا على الرغم من أن هذه السفن الجنوية كانت راسية فى تلك الناحية منذ سنة ١٠٩٧ .

الكتاب الثانى عشر

الاضطرابات الداخلية والحملة النرمندية الثانية

(١١٠٥ - ١١٠٧)

فقرات الكتاب الثانى عشر

١- بوهيموند يجمع جيشا فى لمبارديا. خلاص ثلاثمائة كونت ومعاملتهم معاملة طيبة من جهة الإمبراطور. وصفهم بوهيموند بالمهرج.

٢ - دعاية تنكريد واستعداده للحرب. أنا كومنينا تدافع عن اختيار ألكسيوس لأوشين حاكما لطرطوس.

٣ - الإمبراطور فى سالونيكا مع الإمبراطورة. تواضعها ورعايتها لزوجها.

٤ - ذِكر ما جرى قبل هجوم بوهيموند.

٥ - المؤامرات ضدّ الحكومة. إخوة أنيماس وسولومون. الإمبراطور الدعيّ.

٦ - ضياع فرص الاغتيال. سولومون يصرح بأسماء رفاقه. سمل عيون إخوة أنيماس. حزن أنّا كومنينا. "الأيدى".

٧ - متآمرون جدد. جريجورى تارونيتس وانهياره العصبى.

٨ - العفو عن جريجورى.

٩ - إسحاق كونتستفانوس يفشل فى الاستيلاء على أترانتو- تغلب امرأة عليه. الأسرى البشناقيون وعرضهم على البابا. البابا يشجع قيام بوهيموند بالحملة. الإشراف الرومانى على المضايق . بوهيموند يعبر لمهاجمة كونتستفانوس. الاستعداد لمحاصرة دورازو . وصف موقعها. هدوء الإمبراطور.

(١)

فصلنا – فيما سبق – الأحداث التى جرت أثناء العبور الأول لبوهيموند وأفَضْنا فى ذكر المؤامرات العدة المكشوفة ضدَّ الإمبراطور ومحاولاته الخبيثة التى بذلها من أجل الاستحواذ على مقدرات الأمور فى الإدارة الرومانية واحتجانها لنفسه، كما ألمنا بالظروف التى صحبت رحيله السرى من أنطاكية، وهو الرحيل الذى دبّره فأحكم تدبيره، ونفذه فأحسن تنفيذه فى يُسرٍ وسهولة، وهو أمر يجب الاعتراف بنجاحه فيه على أكمل وجه، ثم سافر على هيئة "جثة" ميت ووصوله إلى كورفو. أما الآن فإنى أمضى متابعةً ما جرى بعد ذلك من الأحداث فأقول إنه حين وصول الجثمان "النتن" إلى كورفو بعث بوهيموند إلى الإمبراطور بتهديداته على يد دوقها، وقد بسطتُ كل ذلك فى إسهاب، ثم إنه أبحر بعدئذٍ إلى "لمبارديا" وشرع فى تكريس همّته لإعادة احتلال "الليريكوم" مما اقتضاه أن يُسْرِع إلى تكوين جيش من المأجورين يكون فى مجموعه أكبر مما كان تحت يده من قبل، ثم ما كان من دخوله فى مفاوضات مع ملك فرنسا [فيليب الأول] (١) ليزوجه إحدى ابنتيه فكان له ما أراد فزوج واحدة ، وأما الأخرى فأرسلها إلى إنطاكية بحرا لتكون عروسا لابن أخته تنكريد الذى ما كاد يتمّ له جَمْعُ قوات كثيرة من شتى الأقاليم والمدن حتى استدعى الكونتات للمثول بكتائبهم بين يديه وأسرع بهم إلى "الليريكوم"، وما كادت هذه الأخبار تصل إلى سَمْع الإمبراطور بواسطة دوق "كورفو" المسمى هو الآخر بالكسيوس حتى كتب فى الحال إلى جميع النواحى مثل بيزة وجنوة والبندقية يحذّرها من بوهيموند وينصحها ألاَّ تخدعَها أكاذيبه وتضلُّها ترهاتُه فينتهى الأمر بهم إلى انضمامهم إليه، والواقع أنه ما من بلد أو إقليم حلَّ به بوهيموند إلاَّ وهاجم الإمبراطور هجوما عنيفا وحمل عليه حملة سوء ، وأشاع عنه الأكاذيب والأضاليل فراح ينعته تارةً بالكافر، وتارة بعدو المسيحيين.

ثم حدث إذ ذاك أن خرجت قطعان الفرنجة التى لا انتهاء لها من الغرب ودخلت آسيا، كما راحوا يكيلون ضرباتهم لأنطاكية وصُور وجميعِ النواحى هناك، وزاد من

هذه الأحداث وقوع ثلاثمائة من الكونتات فى أسْر البابليين [أى الفاطميين] وكان أسْرا فظيعا أفضى إلى الزج بهم فى السجون، فوقع هذا النبأ وما حاق بالأسرى من العذاب وقعا أليما على نفس الإمبراطور الذى أبى إلاّ أن يبذل قصارى جهده لإطلاق سراحهم، فأوفد "نيكيتاس بانوكوميتس" Panoukomites بالمال الكثير يحمله إلى حاكم مصر ومعه رسالة من إمبراطور بيزنطة يسأله فيها أن يفك سراح الكونتات، ويعده الوعود الكريمة إنْ هو استجاب لرجائه وأذن لهم بالرجوع، فأصغى [الخليفة الفاطمى] إلى رسالة الإمبراطور التى أفضى بها إليه على لسان "بانوكوميتس" الذى ما كاد يفرغ من تلاوتها عليه حتى تناولها الخليفة منه ونظر فيها ثم أمر بإطلاق سراحهم فى الحال بلا إبطاء، فجىء بهم من حبسهم الذى هم فيه وإنْ لم ينالوا حريتهم كاملة فقد أسلمهم إلى رسول بيزنطة الذى عاد بهم إلى الإمبراطور، كما رفض [الخليفة] قبولَ شىء من المال المعروض عليه لقاء هذا الإطلاق حتى ولو كان درهما واحدا. وربما كان ذلك الرفض راجعا إلى استصغاره مبلغ الفدية المقدمة لفك رجالٍ عظام كهؤلاء الرجال، أو ربما لأنه أراد أن يُقِرَّ فى الأذهان إنه لا يتخذهم وسيلةً للمساومة والاتجار، وإنما يُسْدِى إلى الإمبراطور يدا كريمة، أو لعله كان يريد من المال قدرا أكبر من هذا القدر... والله أعلم بما كان يريد.

ما كاد هؤلاء الأسرى يبلغون القسطنطينية ويراهم الإمبراطور حتى اغتبط أيّما اغتباط بما فعله المتبربرون[٢] واعتَرَته الدهشة مما كان من الخليفة.

ولما لاحق الإمبراطورُ الكونتات بالسؤال عن أيامهم التى قضوها فى أسر المصريينَ عَلِمَ منهم كيف ظلوا فى سجنهم أمدا طال حتى بلغ أربعة أشهر لم يروا خلالها الشمس بل ظلوا يرسفون فى أغلالهم، ولم يكن لهم من طعام سوى الخبز والماء القراح، فأحزنه ما سمعه منهم وانهلّت عبراته حزنا ممّا حاق بهم، وأمر بمعاملتهم أحسن معاملة وبتوفير الملابس لهم، ثم دعاهم للاستجمام وبَذَلَ كل محاولة تنسيهم ما كابدوه، ولقد كان لحسن المُعاملة التى عاملهم بها الإمبراطور وما انطوت عليه من الود أجملُ الأثر وأطيب الوقع فى نفوسهم فأحسّوا الغبطة تملأ جوانحهم، وبهذه المعاملة أصبح هؤلاء الرجال أحبابا لنا وهم الذين كانوا أعداءً لنا بالأمس وخصوما ، وكانوا هم الذين شجبوا أيمانهم ونكثوا بعهودهم التى عاهدونا عليها. أقول إن هؤلاء الرجال

أصبحوا هم أنفسهم يذكرون هذا الجميل الذى طوّقهم به الإمبراطور. كما أنه استقدمهم إليه بعد بضعة أيام وقال لهم: "إن شئتم الإقامة فى المدينة[٢] فأقيموا ما طابت لكم الإقامة، أمّا من آثر الرحيل لرعاية أسرته فليرحل بعد استئذاننا وحينذاك آذن له من غير عائق أو ممانعة، وليَعُد إلى دياره مزودا بالمال الكثير وبكل ما يحتاجه فى عودته هذه، وأحب أن يكون لكم مطلق الحرية فى الاختيار بين الإقامة بين ظهرانينا وبين الرحيل. كما أريد منكم أن تستجيبوا لما فيه نفعكم مسترشدين برأيكم الخاص كرجال أحرار".

ولقد ظل هؤلاء الكونتات بعض الوقت وهم عازفون عن مغادرة البلد بسبب ما أحاطهم به الإمبراطور من شتى صنوف الرعاية، ولكن موقفهم هذا تبدّل حين وصل بوهيموند من "لمبارديا" كما ذكرت من قبل، فقد كان حريصا كل الحرص على أن يضاعف عدد عسكره، فما كان يمّر ببلد من البلاد أوْ ينزل إقليما من الأقاليم إلاّ ويطلق لسانه بالقدح فى الإمبراطور والنيل منه والإساءة إليه، مجاهرا بين الناس بأعلى صوته بكفره، ومتّهما إياه بأنه يخلص فى مساعدة الوثنيين الملاحدة. فلما سمع الإمبراطور بما يقوله "بوهيموند" ردّ هؤلاء الكونتات إلى بلادهم محملين بالهدايا الثمينة، وكان صادرا فى هذا العمل عن عاملين: أمّا أحدهما فهو شوقهم إلى بلادهم وأُسَرِهم، وأمّا ثانيهما فهو أنهم سوف يدحضون بأنفسهم افْتراءات بوهيموند التى يفتريها على الإمبراطور، وأنهم سوف يفندون زوره ويعلنون إفكه ويظهرون للناس بهتانه.

ثم أسرع ألكسيوس بالخروج إلى "تسالونيكا" ساعيا إلى هدفين: أحدهما هو تدريب الجند الجدد تدريبا عسكريا، وأما ثانيهما فهو أن يصد بوهيموند الذى لابد أنْ يتوقف عن المجيء إلى لمبارديا حين يصل إلى سمعه خبر تقدمه.

رحل الكونتات عن القسطنطينية وقدّموا البيّنة التى هيهات أن يستطيع أحد ما دحْضها، كما أنهم قدّموا الخبر الصادق ضد كل ما يفتريه بوهيموند من افتراء، ولم يتوانوا عن نَعْتِ ما يقوله بوهيموند بالدّجل والكذب حتى فى أبسط الأمور وأتفه الأشياء، وكثيرا ما ندّدوا علانيةً به وعلى رءوس الأشهاد، ولم يتركوا ناديا إلاّ سفّهوه فيه مقدّمين الشاهد الحق ونعنى به أنفسهم ذاتهم.

(٢)

كانت الألسن تتحدث في كل صقع وناد عن حملة بوهيموند وكيف أنّ الإمبراطور لو هَمَّ بمحاربة قطعان الكلت لكلّفه ذلك الكثير من العسكر حتى يضاهي بهم جيش عدوه، لذلك لم يتردّد ألكسيوس عن تحقيق ذلك فاستدعى إليه قائدي الجند الموجودين في الشرق وهما "مونستراس" الموكول إليه حراسة "طرسوس"، و"أكوزينوس" القائم بالحفاظ على أرض البقاع، لكنه لم يترك هاتين الولايتين عند رحيل هذين الرجلين بلا مسئولين عنهما، بل أرسل "بوتاتزس" على رأس قوات كبيرة وجديدة إلى اللاذقية، كما وضع مكان "مونستراس" في طرسوس رجلاً اسمه "أوشين" Oshin وكان من أسرة أرمينية شريفة وهو الذي ذاع صيته ودوت شهرته بفضل بطولته التي لم يكن الناس يكفّون عن الإشادة بها حتى هذه اللحظة ولكن كذّبتها الأزمة الحالية ولو فيما يتعلق بشخصه هو ذاته فقط.

كان تنكريد الذي تركناه في الشام قد أصبح الآن حاكما على إنطاكية، وكان لا يكف عن إذاعة الأخبار بأنه ناهض في القريب العاجل إلى "كليكيا" لحصارها وانتزاعها من يد الإمبراطور باعتبارها ملكا خالصا له بعد أن اغتصبها السلاجقة بحدّ السيف، كما عمل على نشر هذا النبأ في كل النواحي الخارجية. ولم يقف الأمر به عند هذا الحدّ بل اقترف ما هو أسوأ منه إذ حملت كتبه اليومية إلى "أوشين" هذه التهديدات التي لم يكتف بها فحسب، بل تعداها إلى وضع بعضها موضع التنفيذ، ووعد بالمزيد منها، فجنّد عسكرا من الأرمن ومن الفرنجة ووضعهم في مواضع كثيرة، ودأب على تدريبهم يوميا وهيّأهُم للحرب، وكثيرا ما كان يرسلهم متظاهرين بخروجهم سعيا للكلأ، فكان هذا العمل من جانبه أشبه بالدخان يسبق النار، كما أنه هيأ آلات الحرب وجهزها للعمل وصنع منها صورا شتى، ثم انهمك هو ذاته في التأهب للحرب.

بينما كان تنكريد مشغولاً بهذه الأمور كان "أوشين" الأرمني متراخيا كل التراخي مكبا على الشراب عاكفا ليله كله عليه كأنما قد اطمأن خاطره على أنه ليس من أحد يتربص به لينزل به البوار، وكأن ليس هناك من أحد يهدّده ويقف له بالمرصاد.

لقد كان رجلاً شجاعا جدا وأعظمَ من يصلح لحراسة "أرليس" ولكنه ما كاد يستقر فى "كيليكيا" ويصبح بعيدا عن عين مولاه وتكون له السلطة فيها حتى أسلم نفسه تماما إلى حياة التبذّل والترف، فلما دقت ساعة الجدّ تبين للجميع أنْ لم تَعُد له قُدرة على مجالدة خصمٍ عسكرى عنيد، وكأنّ وقْرا كان فى أذنيه فلم يعد يسمع تهديدات تنكريد الذى جاء كالإعصار المدمر على "كيليكيا" وعميت بصيرة "أوشين" عن رؤية هذا الخطر.

انطلق تنكريد من أنطاكية وقد قسَّم جيشه قسمين سار أحدهما برًا لمهاجمة مدن منها المصيصة، وجاء القسم الآخر على ظهر السفن الكبيرة تحت قيادة تنكريد ذاته ودخل نهر سارون[4] Saron وأبحر فيه حتى بلغ الجسور التى تربط المدن بعضها ببعض. وبذلك أحاط بالمصيصة من كل جانب، كما تمكن الفريق الآخر من الهجوم عليها برا.

أما "أوشين" فقد سلك فى هذه الأثناء مسلك من لم ير فيما يجرى حوله شيئا غير عادى أو مألوف، ولم تحركه جلبة العسكر المحيطين بمدينته الذين كانوا أشبه ما يكونون بخلية نحل كبيرة، ولست أدرى ما الذى جَدَّ حتى ضل "أوشين" سبيله وتعثّرت خطاه وصار فى وَضْعٍ مُزْرٍ لا يليق به ولا يتفق وماضيه فى ساحة البطولات المأثورة عنه، فكان ما وقع منه أمرا استحق من أجله ازدراء الجيش له، وهكذا قُدِر لمدن كيليكيا أن تعانى العذابَ حين احتال عليها رجل مثل تنكريد فغلبها على أمرها.

إذا خلَّينا كل هذه الأمور جانبا فلا أحد ينكر أن تنكريد كان واحدا من أقوى رجالات وقته، كما أنه ممَّن حازوا الإعجابَ لكفاءته وحسن مهارته كقائد، وكان تنكريد إذا ما حاصر بلدا وهاجمه فقد البلدُ كلَّ أملٍ فى النجاة من غائلته وبطشه.

هنا يحق للقارئ أن يتعجب كيف فات الإمبراطور أن يدرك إفلاس "أوشين" العسكرى، وردا على ذلك ودفاعا عن أبى أقول إن ألكسيوس كان مأخوذا بالمكانة السامية التى كانت تتمتع بها أسرة "أوشين" وأعتقد أنه كان لكرم محتده وذيوع صيته دخْل كبير فى اختياره حاكما لطرطوس، فقد كان معدودا كبير الأسرة التى تسلسلت من "أردشير" من الأسرة المالكة فى فارس، وكان هذا هو السبب فى تزكيته لتولّى أحد المناصب الكبرى فى الشرق، وظل يرقى مدارج العلياء حتى تسنم الذروة.

يضاف إلى ذلك ما توفر لدى ألكسيوس من الأدلة القاطعة على شجاعته حين كان يحارب روبرت جيسكارد ويوم خرج من بين صفوف الكلت رجل يفوق الرجال فى طوله المفرط واندفع وهو يهز بيمناه رمحه، وكَرَّ على أوشين وهاجمه، ثم ضربه ضربة عنيفة أصابته بجرح شديد الخطورة فاخترق السيف صدر أوشين ومَر بجوار رئته ونفذ من ظهره ومع ذلك لم تأخذه الضربة ولم تُجَنْدِله على الأرض فتدوسه الأقدام بل ظل على سَرْج جواده، ثم شَدّ "أوشين" على المتبربر وعلى مَغْفره بِضَربةٍ شقت الرأس والمغفر شطرين ثم سقط الرجلان من فوْق جواديهما فكان فى سقوط الكلتى نهايته.أما أوشين فد ظل حيًا تتردد أنفاسه فى صدره، فأقامه أصحابه وهو لا يدرى شيئا مما حوله، وبذلوا غاية جهدهم فى العناية به، ثم حملوه إلى الإمبراطور فشاهد الرمح والجرح وقصُّوا عليه خبر هلاك الكلتى.

لهذا السبب – وربما لغيره أيضًا – تنكّر الإمبراطور ما طبع عليه "أوشين" من الشجاعة والجرأة، يضاف إلى ذلك عراقة أصله وشرف أسرته، فرأى أن يرسله إلى كيليكيا قائدا كان كفؤا لمواجهة تنكريد ثم أنعم عليه بلقب الحاكم الكبير.

(٣)

أحسب أن فيما قلته عن أوشين الكفاية.

أما الضباط الموجودون فى الغرب فقد تسلّموا رسائل أخرى تتضمن الأمر بالزحف المباشر عل سلانْيزا Sthalanitza فى الحال.

لكن لماذا كان هذا الأمر؟

هل كان ذلك راجعا إلى أن الإمبراطور كان يدعو رجاله لمواجهة حرب العدو فى الوقت الذى يكون هو فيه ساكنا يتمتع ببلهنية الحياة وينعم بلذة الاستحمام شأن الأباطرة الذين يؤثرون حياة الترف والدعة والمجون؟

لم يكن هذا شأن ألكسيوس، كما لم يكن هو من ذلك الضرب من الأباطرة بل كان رجلا لا يطيق الاستمرار فى الحياة بين جدران القصور، ومن ثم غادر بيزنطة - كما قلت من قبل- وانطلق بين الولايات الغَربية حتى أفضى به الزهف إلى "تسالونيكا" وكان ذلك فى شهر سبتمبر وفى السنة الحادية والعشرين من اعتلائه العرش، وصَحِبَتْه الإمبراطورة مضطرة فقد كانت تميل بطبعها إلى البعد عن الحياة العامة، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، كما كانت تصرف الجانب الأكبر من وقتها للقيام بما تتطلبه منها واجباتها المنزلية ومشاغلها الخاصة، وأعنى بذلك النظر فى كتب القدّيسين والقيام بأعمال الخير والإحسان للناس لا سيما أولئك الذين كانت تعرف من أسلوب حياتهم أنهم يهبون أنفسهم لخدمة الرب، وكذلك للرهبان المنقطعين للصلاة وترتيل الأناشيد الدينية.

وكانت إذا اضطرتها الظروف للظهور فى حفل من الاحتفالات العامة باعتبارها الإمبراطورة وطلعت على الناس بهذه الصفة غلّبها التواضع واحمرّ خداها خجلاً.

وحدث ذات مرة أن كشفت المرأة الفيلسوفة "ثيانو"(*) Theanoعن مرفقها فقال أحدهم مازحا: " يا لها من ذراع بضة"!! فردت عليه قائلة: " لكنها ليست للعرض ولا للمشاهدة".

كذلك كانت أمى الإمبراطورة التى هى صورة مجسمة للجلال والطهر لا تحب أبدا أن تكشف عن مرفقها ولا يرى الناس عينيها، كما كانت تكره أن يسمع غريب - أيًا كان هذا الغريب - صوتها وكان تواضعها فى الحقيقة بالغ المدى فلم تكن تغادر القصر إلاّ أنْ تضطرها الظروف لمرافقة الإمبراطور فى حَملاته ، وهى كثيرة والضرورات تبيح المحظورات ورضخ لها الجميع"حتى الآلهة" كما يقول الشاعر.

وقد فرض عليها وقارُها الذى فُطرت عليه أن تبقى على الدوام داخل القصر، غير أنّ إخلاصها للإمبراطور وانقياد قلبها بحبه أرغماها على مغادرة القصر، وكان هناك سببان وجيهان يحملانها على تلك المغادرة:

أما أحدهما فهو الألم الذى يعوده فى قدميه بين آن وآخر مما يتطلب بَذْل العناية القصوى به إذْ كان يشكو مُرَّ الشكوى من هجمات النقرس، وكان هو يرى الراحة العظمى في قيام أمّي بتدليك موضع الألم بيديها، كما أنها كانت تَفْهم أبى تمام الفهم وتخفِّف لمساتُها الرقيقةُ الألَم المبرح، وآمل ألاّ يتهمنى أحد بالمبالغة فى صدق ما أقول وفيما أحكى عنه، ذلك أنّ هذا الرجل العظيم كان يعتبر - والحق يقال- مصالحَ الشعبِ فوقَ مصالحه الخاصة وإنها أوْلى بالعناية والتقديم.

ولم يكن هناك شىء يستطيع أن يحول بينه وبين حبه للمسيحيين ولم تكن المصائب ولا مُتَعُ الحياة ولا ويلات الحروب، كما لم يكن هناك من شىء حقير أو جليل بقادر على التغلب عليه، كذلك لم تكن حمارّة القيظ أو زمهرير الشتاء أو هجمات العدو الضارية بصارفة إياه عن عطفه على المسيحيين، ومن ثم فقد صمد فى وجه كل هذه التحديات وتابع مسيرته. وإذا كان قد اضطر لأن يطأطئ رأسه أمام المرض إذ ثقلت وطأته عليه فإنه كان ينهض شامخا للدفاع عن إمبراطوريته.

أما السبب الآخر الذى حمل الإمبراطورة على مصاحبته ولم تكن بقادرة على دفعه فهو علمها بكثرة ما يُحاك ضده من المؤامرات مما يتطلب منها اليقظة التامة للمحافظة عليه، وأنْ تسهر مئات العيون لحراسته. وإذا كان الليل من أنسب الأوقات لحبْك المؤامرات فلم يكن النهارُ دون الليل خطورة، فلم يكن يمسى المساء إلاّ ويكون ثم شر جديد، ولا ينجلى الليل ويطلع الصباح إلاّ ويظهر خطرٌ يفوق كل خطر سبقه. والله على ما أقول شهيد.

أفلم يكن إذن من الصواب أنْ تكون حولَ الإمبراطور ألفُ عين ترعاه وتحميه وهو مهدد بهذه الأخطار الجمة؟ فبينما كان البعض يجعلونه مرمى لسهامهم كان غيرهم يشحذون سيوفهم للفتك به، أما الذين يعجزون عن هذا وذاك فكانوا أبواقا تذيع الافتراءات عنه وتنشر الأكاذيب.

لئنْ كان الأمرُ على هذه الصورة، إذن فمَنْ هو أحقُّ من أُمى لتكون بجانبه وهى الناصح الأمين الطبيعى له؟ ومن ذا الذى يكون أسرع منها فى معرفة ما يحتاجه من رعايةٍ وملاحظةٍ ورصدِ مؤامراتِ أعدائه التى يكيدونها له؟

لهذه الأسباب كلها كانت أمي هي جمّاع كل شيء للإمبراطور، وكانت هي عينه الساهرة التي لا تغفو إذا دجى الليل. وكانت هي الترياق الشافي من أخطار المائدة، والعلاجَ الناجع لما يدسه البعض من السم له في طعامه.

لقد كانت هذه هي الأسباب التي حملتها على أن تُلقي وراء ظهرها تَحَفُّظها الذي جُبِلت عليه، وكانت هذه هي الأسباب التي أمدَّتها بالشجاعة التي راحت تواجه بها عيون الرجال ونظراتهم، إلاَّ أنها - مع ذلك كله - لم يفارقها وقارها الذي طبعت عليه، فنظْرتُها الهادئة وسكونها واحترامها لنفسها، كانت هذه كلها كافيةً لإقناع الجميع بأنها المصونة التي لا يمكن لطامع أن يطمع في شيء منها.

وكان الناس إذا رأوا المحفّة محمولة على ظهر بغلين وفوقها الهودج الإمبراطوري أدركوا أنّ الإمبراطور خارج على رأس الجيش وفي صحبته الإمبراطورة. أما فيما عدا ذلك فإنَّ شخصيتها الملكية كانت محجوبة عن الأنظار.

وكان الجميع يعرفون أنها تحمل معها في خروجها بعض التجهيزات ضد داء النقرس الذي يشكو منه الإمبراطور، ويعرفون أنها هي حارسةُ اليقظ الذي لا ينام الليل والذي يرعاه بعين مفتوحة لا يغمض لها جفن وتراقب كل ما يجري، وكنا نحن - الأوفياءَ له - نشارك مولاتنا - كُلٌّ حسب قدرته - في هذا العمل من أجل حمايته، ونبذل في ذلك أرواحنا ولا نقصر في رعايته.

لقد سطَّرْتُ هذه الكلمات لردع كل الذين تلذّ لهم السخرية والتهكم بالآخرين، والتهوين من قيمة الأعمال الجليلة وكَثْرَة لومهم من لا ذنب لهم ولا سية.

لقد وقفت أمي إلى جانب أبي في هذه الظروف الصعبة، ورافقَتْه في هذه الحملة على وجه الخصوص عن طيب خاطر، وكان تطوعها تلقائيا نابعا من ذاتها. ولم يكن هناك ما يحمل الإمبراطورة على المشاركة في المعارك ضد المتبربرين، إذْ كيف تستطيع ذلك؟

ربما كان هذا الأمر أوْلى بأن يصدر من توميرس Tomyrus و"سبرترا". لكنه أمر يستحيل على أمي "إيرين" لأن شجاعتها كانت موجهة وجهةً أخرى، فعلى الرغم من أنها كانت صلبة الإرادة فإنها لم تكن مسلحة بسلاح "أثينا" ولا بخوذة "هادلس"، بل كان درعها الذى تحمله فى شرفٍ، وسيفُها الذى تمتشقه لتدفع به بلاوى الحياة وتقلبات الأيام التى تهدد الإمبراطور هو عملُها العظيم. وكانت أمى مجاهدةً لا تلين ولا تهن فى وجه الأحداث، وكانت تتمتع بإيمان لا يتزعزع، مسترشدةً فى ذلك بحكمة سليمان.

هكذا كان الدرع الذى تسلحت به أمى فى هذه الحروب. أمّا فيما غير ذلك فقد كانت تسعى لكل ما يطابق [٦] اسمها، فكانت وديعةً مسالمة، وكانت من أعظم النساء حبا فى السلام.

ولما اشتدت حدة المنازعات تجهّز ألكسيوس للقتال مُعدا له كلَّ ما هو ضرورى فحرص على التأكد من سلامة القلاع وتحصين الاستحكامات. ومجمل القول إنه كان حريصًا على أن تكون جميع وسائل الدفاع فى حالة تأهّب قصوى ضد أى هجوم يشنه بوهيموند.

لقد اصطحب الإمبراطور معه الإمبراطورة لصالحه للأسباب التى ذكرتها، ولأنه لم يكن هناك من خطرٍ يلوح فى الأفق وينذر بالحرب إلاّ وتكون هى إلى جانبه، ولما همّت الإمبراطورة بمغادرة القسطنطينية حملت معها كل ما عندها من الذهب والمسكوكات المعدَنية الأخرى الثمينة القيمة إلى جانب متعلقاتها الشخصية الغالية، فلما كانت فى الطريق أفاضت من إحسانها وعطفها على المستَجْدِين، ولم تقبض يدها عن أى متدثر بعباءة من جلد الماعز أو عارٍ من ثوب يستتر به بدنه، كما لم تردّ قط سائلاً يسألها جَدْواها فيعود صفر اليدين، حتى إذا بلغت الخيمة التى أفردت لها لم تدخلها فى لحظتها طلبا للراحة والاستجمام بل تَرْفَع أستارها وتأذن لكل من يرتجى نداها أنْ يدخل، وقرّبتهم منها قربا يرونها فيه ويسمعونها منه، ولم يقتصر عطاؤها على المال وحده ترفدهم به، بل زادت فراحت تبذل النصيحة الغالية لهم، ثم تعمد إلى قوم آخرين تبدو عليهم مظاهر العافية ولكن يغلب عليهم الكسل فتحثّهم على العمل وتنهاهم عن طرْق أبواب البيوت يسألون أصحابها أعطوهم أم منعوهم، وتأمرهم بالعمل بما يحفظ

عليهم ماء وجوههم، وتنهاهم عن أن يأذنوا لليأس أنْ يجد طريقه إلى نفوسهم، وهكذا لم تستطع الأحوال المحيطة بها أنْ تمنعها من عمل البر والخير. وإذا كان داود قد وصف بأنه مَزَج دمعه بكأسه فإنَّ الإمبراطورة "إيرين" كانت تقدم كل يوم الطعام والشراب ممزوجين بالعطف.

إن في الجعبة مزيدا من القول أستطيع أن أقوله في شأنها، لكن يمنعني من ذلك أني ابنتها فيقال "ما هي إلاّ ابنة تبالغ في تمجيد أمها" ، وإني لأقول لأصحاب هذا الكلام ومروّجيه إني سوف أدعم هذا الكلام بالشاهد الحي وما يتّفق وما أقوله.

(٤)

حين سمع سكان الولايات الغَرْبية بوصول الإمبراطور إلى "تسالونيكا" سارعوا إليه والتفوا حوله كما لو كان هو محور الثّقل والقطب الأوحد لحديثهم. وإذا كانت أسراب الجراد قد شوهدت تسبق الكلت في مرات سابقة إلا أنها لم تظهر هذه المرة، بل ظهر مكانها في المساء كوكب كبير الحجم لم يشاهَد قط مثله من قبل [٧] في ضخامته، وقد شبّهه البعض بالشعاع، وآخرون بالرمح، وليس من شك في أنه كان من الطبيعي أن يسبق الأحداثَ الغريبة الموشكة على الوقوع ظهورُ علامات في الأفق، ولقد ظهر هذا الكوكب للعيان متلألئا أربعين يوما بلياليها في السماء وهو يمتد من غربها إلى شرقها، ففزعت القلوب فزعا شديدا وتساءل الناس ماذا يعني ظهورُه؟ وعم ينذر؟

لكن ألكسيوس لم تحركه هذه المخاوف بل عَدَّ أمر هذا الكوكب مُجرّد ظاهرة من ظواهر الطبيعة، غير أنه مع ذلك راح يستفسر من أهل العلم عما يكون من شأن ظهوره. واستدعى فيمن استدعى "فازيل" الذي عُيِّن منذ قريب محافظا لبيزنطة وكان رجلاً لا يشك أحد في إخلاصه للإمبراطور فوَعد أنْ يأتيه في غده بالجواب عما يستفسر عنه ثم انفلت راجعا إلى مقره الذي كان في القديم ديرا للإنجيلي يوحنا.

ومضى المباركُ فاسيل يفكر في سر هذا الكوكب وهو في حيرة من أمره، وأجْهده طول التفكير حتى إذا أوْشكت الشمس على المغيب أخذتْه سِنة من النوم فرأى القديس يوحنا قد تجلى له بشخصه مرتديا مسوح الكهان فاغتبط أيما اغتباط وتوسل إليه أنْ يكشف له عن ماهية هذا النجم فأجابه الإنجيلي بأنه يشير إلى غزوةٍ يقوم بها الكلت، كما أن اختفاءه يدل على أنهم سوف يُطردون من هنا.

و الآن فلنترك الكوكب ونعود إلى الإمبراطور فنقول إنه وصل إلى تسالونيكا وتمت الإجراءات اللازمة لصد بوهيموند، وراح يدرِّب المجندين التدريب الشاق على استعمال القوس والرمي بالسهام وكيفية الدفاع عن النفس بالرّمح، وزاد فأرسل الكتب في طلب تجنيد مزيد من العسكر الأجنبي الذين جمعهم من مختلف الأمْصار حتى إذا نادى منادي الحرب وتأزم الوضع هبَّ هؤلاء الجند على جناح السرعة فكانوا نجدةً تعين البيزنطيين ضد العدوّ.

كذلك اتّخذ ألكسيوس الاحتياطات الكفيلة بالمحافظة على "الليركيوم" فحصَّن مدينة "دورازو" وعيَّن حاكما لها هو الابنُ الثاني لنائبه وأخيه إسحاق، كما صدرت الأوامر في الوقت ذاته بجمع أسطولٍ يتم تجهيزه من جزائر **Cyclades** ومن المدن الواقعة على الساحل الآسيوي بل ومن أوربة ذاتها أيضاً.

غير أن بناء الأسطول قوبل بكثير من الاعتراضات باعتبارِ أنَّه لم يظهر من جانب بوهيموند ما يدل على أنه في عجلة من أمره حتى الآن بركوب البحر. لكن ألكسيوس لم يُلق بالا إلى هذه الحجج ، بل أصَرَّ على تعيين قائدٍ يتولى قيادة السفن ولا يقتصر على أن يكون مستعدا لما هو واقع فعلاً بلْ يتعداه على المدى البعيد حتى لا تأخذه الأحداث على غرة، وتدهمه الأحداث في لحظة تكون الأزمة فيها قد بلغت أشُدّها واستحكمت حلقاتها فيضطر إلى تخفيض مصروفاته وهو يرى أنّ الخصم موشك على إنزال الضربة به.

ولقد عالج الإمبراطور المسائل بمهارة فائقة وانتهى الأمر بتحركه قاصدا "سترومبتزا" **Strompetza** ثم تابع السير إلى سلوبموس **Slopimus** ، وهنا جاءته الأخبار بهزيمة "جون" ابن نائب الإمبراطور أمام الدلماشيين، فأنجده عمه "ألكسيوس"

كومنين بقوات كبيرة ولكن "بولكان" الخبيث سعى فى لحظته ليتفاوض مُقدِما ما شاء من الرهائن التى كان ألكسيوس قد ألحّ فى طلبها من قبل.

ظل الإمبراطور مقيما فى تلك الناحية أربعة عشر شهرا توالت عليه خلالها الأنباء عن تحركات بوهيموند الذى كان لا يزال موجوداً فى "بللابستا" Balablsta إذا بأول مولود[٨] ذكر يولد له هو بسيليوس "جون يوفيروجينتوس" .

أقام ألكسيوس[٩] احتفالا فى تسالونيكا تمجيدا للشهيد ديمترى العظيم فلما فرغ منه تابع سفره إلى القسطنطينية، وهنا وقعت الحادثة التالية، ألاَ وهى أنه كان يوجد فى وسط مرج قسطنطين تمثال برونزى أرجوانى اللون يقوم على قاعدةٍ وردية شديدة الضخامة ووجهه متجه إلى الشرق وفى يمناه صولجان وفى يسراه كرة أرضية من البرونز.

ويقال إن هذا التمثال كان تمثالاً لأبولو، ولكن سكان المدينة كانوا يسمونه-كما أظن - تمثال[١٠] "أنتِليوس" ثم جاء الإمبراطور قسطنطين الكبير بانى المدينة وسيدها فسماه باسمه هو، وأصبح يعرف حتى يومنا هذا باسم تمثال قسطنطين الكبير وإن لم يتلاش اسمه القديم فما زال يجرى على ألسنة الناس ويسمونه بنصب أنيلوس Anelusأو "أنتليوس" Anthelios وحدث أنْ هبت الريح الجنوبية القادمة من المتسع الإفريقى الكبير على هذا التمثال فاقتلعته من قاعدته فسقط على الأرض وكانت الشمس إذ ذاك فى برج الثور، فعدّ أكثر الناس - لا سيما خصوم الإمبراطور- هذا الحدث طالع نحس وراحوا يتهامسون سرا فيما بينهم أن الذى حصل ليس إلاّ نذير بموته، فلم يعبأ ألكسيوس بما يزعمون وقال: "أنا لا أعرف غير إلهٍ واحد هو الذى يحيى ويميت وإنى لواثق تمام الثقة إن سقوط التمثال ليس يعنى الموت. ألاَ فخبرونى عما إذا كان "فيدياس" أو غيره من ناحتى الرخام قادرين على بَعث الحياة فيما ينحتون؟ وهل هذا التمثال قادر على تحريك رأسه؟ إنه إنْ يفعل ذلك فماذا بقى للخالق القائل أنا المحيى والمميت؟ وماذا يمكن أن يقال فى شأن تمثال يسقط، أو نصب يقام"؟

وهكذا نراه ينسب كل شىء إلى مشيئة الرب القوية.

(٥)

عادت الاضطرابات والقلاقل تشب من جديد ضد الإمبراطور، ولم يكن مثيروها هذه المرة من العامة، بل كانوا رجالاً تناهى صيتهم وذاعت شهرتهم بما طبعوا عليه من البسالة، وما لهم من كرم المحتد فتآمروا فيما بينهم وبيتوا النية على قتله والفتك به.

أما وقد وصلْتُ إلى هذه النقطة من تاريخى فإنى أتساءل والدهشة تغلبنى: من أين جاءت جميع هذه المتاعب الجمة لتحدق بالإمبراطور من كل جانب؟

لقد كان هناك فى داخل المدينة خوارج متعددون، كما كثرت الثورات فى الخارج، ولم يكن بال الإمبراطور يفرغ من الاضطرابات الداخلية حتى تنفجر غيرها فى الخارج وتشتعل نيرانها كأنما كان القدر ذاته يعمل على تكاثرها، ويطلع فى نفس اللحظة المتبربرون ودعاة الانقلاب الثوريون كأنهم جيل شيطانى يولد من العدم، ومع ذلك فإن حكومة ألكسيوس وإدارته العامة كانتا فى جميع الأحوال تسلكان مسلكا أدقّ وأكثر إنسانية، فلم يحدث قط أن أضَرَّ أحدا من رعاياه فى شىء، بل كان فى نفْعه لهم عظيما، وكانت جَدواه لهم كبيرة، ويتجلّى ذلك فى أنه كثيرا ما قلّد بعضهم الوظائف السامية فكانوا على الدّوام فى فيض كرمه وحلمه.

أما فيما يتعلق بالمتبربرين فقد سَدَّ عليهم كل بابٍ يمكن لهم أن يلجوا منه لمحاربته، ولم يحاول هو الضغط عليهم، لكنه مع ذلك لم يكن يتوانى عن كبْح جماحهم إنْ هُمْ أحدثوا قلقا وأثاروا اضطرابا.

وعلى وجه العموم فإن الزعيم الأحمق هو الذى يعمل على افتعال كلِّ ما يثير ثائرة جيرانه فيدفعهم لمحاربته فى وقت يكون السلام فيه مرفرفا بجناحيه على كل شىء ومطلوبا، لأن السلام هو نهاية كل حرب فالسمة التى لا تتبدل ، التى يتسم بها الزعماء الحمقى والسياسيون الأغبياء والديماجوجيون والساعون لهدم دولهم أنهم يؤثرون الحرب على السلم ويستخفون بالعواقب ولا تعنيهم الخواتيم الطيبة، لكن سياسة ألكسيوس كانت على النقيض منْ ذلك تماما فترتب عليها أن جَنى ثمار السلم إلى مدى غير عادى، فهو متفائل على الدوام بالسلام، طامع فى أن يرفرف بجناحيه، ولكنه يكون

مهمومًا قلقا إنْ غاب السلام. وكم من ليال عدة أمضاها لم تغمض له عين لكنه يفكر فيما عسى أن يكون عليه غده وما عسى أن تصير إليه الأمور لانشغاله بالسلام، ولكن إذا أرغمته الظروف على الحرب فإنه يكون حينذاك من أشدّ المقاتلين مراسا.

أما من ناحيتى أنا [ابنته أنّا كومنينا] فإنى أقول بكل ثقة عن هذا الرجل العظيم لقد تمثّلتْ فيه-وحده- طبيعة الإمبراطور التى انعكس ظلها فى البلاط البيزنطى مرة أخرى بعد غياب طال مداه، وبدا كأنَّ الهيبة الملكية تظهر لأول مرة وتحلّ كأنها الطيف فى إمبراطورية الرومان، ولكنى لا أستطيع- كما قلت فى مستهل هذه الفقرة - أنْ أكتم أحاسيسى ودهشتى من هذا الفيضان من الحركات المعادية، فقد عمّت الفتنة الطخياء فى الداخل والخارج على السواء، فهو يتوقع المؤامرات الخفية يدبّرها خصومه الذين أدرك نواياهم، واستطاع بفضل أساليبه فى مختلف الميادين أن يحول بين نفسه وبين الضرر ينزل به، ولقد مكر به المتآمرون فى الداخل والمتبربرون فى الخارج ومكر هو فغلب مكره مكرهم وأفْسدَ عليهم تدبيرهم.

ويبدو لى أنّ حقائق ما جرى تُقدِّم الدليل على مصير الإمبراطورية، فقد تجمعت من شتى الجهات مما أحدث اضطرابا فى الهيكل السياسى، كما أنّ العالم الخارجى قاطبة كان يغلى ويضطرم بالثورة ضدنا، وكان الوضع أشبه ما يكون برجل مريض انهالت عليه الضربات من الخارج، وأرهقه الألم الجسمانى ولكن أبرأته العناية الإلهية مما يشكو منه ليجد نفسه مُعَافىً قادرا على مجاهدة جميع أوجاعه أيا كان مصدرها.

لكن القياس كان بالتأكيد مع الفارق فى هذه الأزمة حيث كان بوهيموند يعد عدّته للحرب بجيش ضخم يهاجم به المدينة من الخارج، وبجيش آخر من الثوار يدفعهم المحرضون للتحرك من الداخل، وكان هناك أربعة من رءوس الفتنة هم: "أنيماس ميخائيل" وليو" و........ (١١) و...... وهم إخوة أشقاء وقد وحّد بينهم جميعا هدف واحد كانوا يسعون إلى تحقيقه وأعنى به اغتيال ألكسيوس والاستيلاء على العرش.

أما غيرهم من كبار القوم الذين انضموا إليهم سرا فهم الأنطاكيون من أبناء الأسر المبيرة ونعنى بهم ....ودوكاس و..........وهيلسياس وهم من أشجع المحاربين الذين شهدَتْهم ساحات المعارك الحربية ثم هناك نيكيتاس Castamonites

واثنان معه أحدهما يدعى "كورتيكوس" Curticius والآخر جورج بازيلاكيوس، وكلهم من الشخصيات البارزة في الجيش، وكان معهم متآمر آخر من وجوه أعضاء السينيت هو جون "سولومون" الذى غرر به ميخائيل إذ عاهده أن يرشحه إمبراطورا ويمسحه بالزيت - لما كان يتمتع به دون الأربعة الآخرين من الثروة العظيمة وشرف المنبت، وكان سولومون هذا يعتبر من رجال الطبقة الأولى فى عضوية السينيت وإنْ كان فى واقعه تافها بل لعله أتفه المتآمرين، وإنْ ظَن هو فى نفسه أنّه يتربع الذروة وأنه بلغ الغاية التى ما بعدها غاية فى الدراسات الأرسطاليسية والأفلاطونية رغم ما يؤكده الواقع من أن إلمامه بالفلسفة كان ضحلاً. لكن تفاهته طمست بصيرته كما أعمته حقارته عن أن يدرك حقيقة ذاته، لذلك استهدف العرش ولم يفكر فى شىء سواه، وساعده بعض الإخوة الأنيماسيين الذين كانوا بطبعهم لئاما ورجالاً أخسّاء، لأنّه لم يكن فى نية ميخائيل ومن معه أن يُسلموه مقاليد السلطة الإمبراطورية إذ يعدونه من سقط المتاع، ولكنهم استغلوا حماقته وثروته ليحققوا ما يرومونه فتكون لهم السيطرة التامة، ومن ثم أذكوا فى نفسه الأمل بالإمبراطورية، وكانت فكرتهم تتلخص فيما يلى: هى إنه إذا سارت الأمور حسبما يشتهون وابتسم لهم الحظ نَحُّوه جانبا بإرساله فى رحلة بحرية يتمتع فيها بأطايب الحياة ويأخذون هم خلالها صولجان الملك ثم ينْقَضّون عليه بعد أن يتفضلوا عليه بمهمة تافهة ينعم فيها بالبلهنية والثراء.

وعلى الرغم من أنهم تكلموا معه عن المؤامرة فإنهم لم يشيروا قط إلى فكرة اغتيال الإمبراطور، ولم يَرِدْ ذِكر لتجريد السيوف ضدّه ، وكان الداعى لهم إلى تجنب الإشارة إلى ذلك كله هو ألاّ يبثوا الخوف فى نفسه، فقد كانت معرفتهم به منذ أمد تجعلهم يدركون أنّ فكرة الحرب تُحَوّله إلى جبانٍ رِعْدِيدٍ، مفكك الأوصال، ومع ذلك فقد ضمّوا سولومون إلى جانبهم كما لو كان هو رأس المؤامرة التى انضم إليهم فيها "سكليروس" Sclerus و"زيروس" الذى كان قد أكمل حالاً فترة عمله محافظا للقسطنطينية.

لقد أسهبْتُ من قبل فى الكتابة عن طبيعة "سولومون" المتخاذلة، ولما كان لا يدرى شيئًا من الخطط التى دبرها سرا كل من "إجزاسينوس" Exazenus وهيلس Heyaleas والإخوة أنيماس فقد اعتقد "سولومون" أن السلطة العليا قد أصبحت فى قبضته ، حتى إنه خلال حديث له مع بعض الناس فى محاولة منه لكسبهم إلى جانبه

راح يَعِدهُم بالعطايا الثمينة التي يصلهم بها وبالمناصب السامية يخلعها عليهم، وحدث في مرة مِن المرات أن زاره "ميخائيل أنيماس"- وهو الرأس المدبر في هذه المأساة - فرآه يتحدث في ذلك الأمر إلى أحدهم فسأله ما موضوع الحديث الذى يتكلم فيه فأجابه سولومون بسذاجته المعهودة: "إنه يسألنا وظيفة رفيعة فلما التزمت له بما يطمع فيه وافق على الانضمام إلينا في المؤامرة العامة". فسخط ميخائيل من تفاهته وكَرِه فيه حماقته ولم يعد يزوره كما كان يفعل من قبل لأنه يعرف تمام المعرفة أنه غير قادر على مسك لسانه.

(٦)

رسم العسكريون- وأعنى بهم الإخوة "أنيماس" والإنطاكيين وشركاءهم في الجريمة - خطتهم الشريرة القاضية باغتنام الفرصة الملائمة للمضى قُدُما ومن غير تريّث لاغتيال الإمبراطور، فلما لم تمنحهم العناية ما يؤملون ورأوا أن الوقت يفلت من أيديهم خافوا انكشاف مطويّ سرهم وافتضاح أمرهم، ومع ذلك فقد خُيِّل إليهم أنّ الفرصة التى طال ارْتِقَابهم إياها قد واتتهم لما عرفوه مما جرت عليه عادة الإمبراطور في بعض الأحيان من لعب الشطرنج مع بعض أقاربه إذا استيقظ مبكرا ليدفع عن نفسه مرارة متاعبه، لذلك استعد المتآمرون لتنفيذ جريمتهم فسلّحوا أنفسهم واعتزموا أن يبدأوا بالمرور بغرفة نومه وهى غرفة صغيرة، متظاهرين بأنهم كانوا يلتمسون لقاءه، وإن كان مرورهم بها في الواقع هو للفتك به. وكانت هذه الحجرة هى الحجرة التى اعتادت أمى وأبى النوم فيها، وهى واقعة في الجانب الأيسر من كنيسة القصر المشيدة على شرف أمّ الربّ رغم ما يقوله معظم الناس من أنها كانت مكرسة للشهيد العظيم "ديمتريوس"، وكان على يمناها رصيف رخامى كما كان بابها مفتوحا كالعادة أمام جميع من يريدون الدخول إلى هناك، وقد اتفق المتآمرون على أن يكون بلوغهم الكنيسة من خلال هذا المكان ثم ينسلون عبر أبْواب جناح النوم الملكي، فإذا أصبحوا داخله أغمدوا سيوفهم في صدر الإمبراطور.

هذا هو المصير الذى دبّره المتآمرون للفتك برجلٍ لم يسئ إليهم قط، فأحبط الرب ما دبروه؛ إذْ أخبر بعضُ الأشخاص الإمبراطور بما رسموه، فأرسل في الحال في

طلبهم وكان أولَ من استقدمهم إليه فى القصر لمساءلتهم اثنان هما "جون سولومون" و "جورج بازيلاكيوس" إذ شاء حظهما العاثر أن يكونا أقرب المتآمرين من الحجرة الصغيرة التى تَصادف أنْ كان ألكسيوس موجودا بها هو ورهط من ذوى قرباه، وقد دلته تجربته الطويلة بهذين المتآمرَين أنهما كانا من السذاجة بالدرجة التى خُيِّل إليه معها إنه من اليسير عليه أن يحصل منهما عن خبر المؤامرة، ولكن طال استجوابهما وهما مصرَّان على إنكار علمهما بخبرها، وحينذاك تقدم النائب الإمبراطورى إسحاق وقال لسولومون: "إنك تعرف جيدا يا سولومون ما عليه أخى الإمبراطور من الطيبة، فإن أنت أفضيت إلينا بالتفاصيل كاملة أصدر أمره فى الحال بالعفو عنك. أما إن أبيْت الإفصاح فسوف تُعذَّب عذابا لم يعذَّبه أحد".

فحملق سولومون فيه فلما وقع نظره على من حول إسحاق ورأى رجالاً قد تدلت من أكتافهم سيوفهم الحادّة اضطرب كيانه وانطلق من غير إلحاح يفصل الأمر تفصيلاً دقيقا، ووشى برفاقه الضالعين معه فى المؤامرة ولكنه أصرّ على عدم علمه هو نفسه بشىء من خبر الاغتيال، فسلمهما "إسحاق" بعدئذ إلى حرس القصر فبقى كل منهما محبوسا على انفراد.

أما بقية رفاق سولومون فقد تمَّ استجوابهم بعد ذلك بشأن هذا الموضوع فاعترفوا بما كان منهم ولم يُخْفُوا شيئا قط حتى عزمهم على الفتك بالإمبراطور، وعرف الجميع أن الجُنَاة[١٢] قد دبَّروا خطة اغتياله، وأنّ ميخائيل أنيماس هو رأس الفتنة ومدبِّرها، فحكم عليه هو ومن معه بالنفى وصودرت أملاكهم جميعا، كما صودر قصر امرأة سولومون الرائع وأعطوه للإمبراطورة التى أخذتها الشفقة على سولومون فقد كانت الرحمة طبيعة رُكبت فيها، فردت على المرأةِ القَصْرَ هدية منها إليها دون أن تنقل منه أى شىء ولو تفه، ولم تستول لنفسها على شىء مّا ولو صغر. وأما زوجها سولومون فقد بعثوا به إلى "سوزوبوليس" ليسجن فيها. كما جزّوا شعر رءوس الآخرين وصاروا صُلعا وحلقوا لهم لحاهُم. ثم أمر الإمبراطور أن يطاف بهم فى "أجورا" Agora فطيف بهم كما طلبهم الإمبراطور وسملت عيونهم، ثم أمسك بهم الموكلون باستعراضهم وألبسوهم الخيش وجاءوا بأمعاء الثيران والماشية المذبوحة وجعلوها على رءوسهم كأنها التيجان، وأركبوهم البغال لا كما تُركب عادةً بل من جانب واحد فقط

وساقوهم فى ساحة القصر وأمامهم حملة العصى يحرسونهم مرددين بصوت عال أغنية ساخرة ذات مقاطع متعاقبة ملائمة لهذه المناسبة وهى أنشودة سوقية بلهجة الرعاع وتقول[١٣] "انظروا المجرمين يلبسون القرون. إنهم العصاة الذين سلّوا سيوفهم ضد الإمبراطور".

وتقاطر الناس من شتى الأعمار ليشاهدوا هذا المنظر، فلما رأى الناس ميخائيل يتجه بنظره إلى القصر ويرفع أكفّ الضراعة إلى السماء يلتمس ألاّ تبتر ذراعاه من كتفيه وساقاه من عجزه ولا رقبته رقت قلوب الناس عليه وبكوا شفقة عليه ورحمة به وكان تأثرنا - نحن بنات[١٤] الإمبراطور- أكثر من تأثر أى أحد غيرنا، وَوَددْت أنا "أنّا كومنينا" إنقاذ هذا الرجل من المصير الذى هو ماض إليه فاقبلّت إلى أمى أكثر من مرة راجية أن تحضر وترى هذا المشهد وألا يكون هؤلاء الرجال موضوع السخرية البذيئة.

والحق إنى تألمت من أجْل خاطر الإمبراطور فقد ساءنى أن يحرم من رجال أبطال كهؤلاء الرجال -لا سيما ميخائيل - لأن العقاب الذى عوقب به هو عقاب لم يعاقَبْه أحد غيره ممن شاركوه جُرمه، ولما رأيت أن ما ناله من المذلة فى كُرْبته جسيم تابَعْتُ إلحاحى على والدتى أن تلتمس طريقا آخر لإنقاذه مما هو فيه من هذا الخطر الفادح.

وسار بهم الموكول إليهم السير بهم فى تؤدة ومهل شديدين فى محاولة منهم لكسب بعض الوقت عسى أن ينال المذنبون العفو، إلا أنّ أُمى تأخرت فى المجىء لأنها كانت مع الإمبراطور يصليان صلاة الشكر أمام العذراء، فنزلت بنفسى ووقفت وَجِلةً فزعة خارج الأبواب، ولم تُوَاتنى الشجاعة الكافية للدخول، لكنى أشرت لها فأدرَكَتْ ما كنت أريدُه فأقبلت لتشاهد ما يجرى فلما طالَعَتْ ميخائيل رثت له رحمةً به وغلبها الحزن وأمضّها الألم فاستخرطت باكية وسحّت عيناها بدموع الألم من أجله ثم انفلتت مسرعة إلى الإمبراطور متوسلة إليه مرارا عدة أن يمنع الجلادين من سمل عينيه، فبادر أبى بإرسال رسول من لدنه فانطلق الرسول مسرعا فوجدهم داخل المكان المسمى"الأيدى" فناول حارس ميخائيل قرار العفو قبل أن يجتاز به القوس المثبت عليه "الأيدى البرونزية" وبذلك صار الرجل قادرا على أن يعود بميخائيل فعاد به إلى البرج، وكان ذلك بناء على التعليمات الصادرة إليه، وإنْ زجّوا بميخائيل فى البرج المشيد بالقصر.

(٧)

لم يكن ميخائيل قد خرج من حَبْسه حين وُضع "جريجورى" بدوره فى نفس هذا المكان الذى كان مشيدا به برج يشرف على المدينة ويقوم قرب قصر بلاشيرناى ويعرف ببرج"أنيماس" نسبة إلى أول نزيل به من السجناء، وأمضى فيه فترة طويلة من الزمن وهو رهن الإحن.

وقد حدَث أثناء الفترة التى بين سبتمبر ١١٠٣ وسبتمبر ١١٠٤ أنْ قام جريجورى وقت أن كان دوق طرابيزون بتنفيذ مؤامرة كان يخطط لها منذ أمد بعيد، إذ صادف فى طريقه وهو ماض إلى الدوق المعزول "ديباتينوس" فلم يتوان عن إلقاء القبض عليه والزج به فى سرداب "تابينا" Tabenna ولم يكن ديباتينوس Debatenus هو الوحيد الذى وقع عليه هذا المكروه بل شاركه فيه كثيرون من أهالى "ترابيسوس" وكان من بينهم ابن شقيق "باخِنوس" Bachenus فلما عجزوا عن الخلاص من قيودهم اتفقوا فيما بينهم على أن يباغتوا الحرسَ بالهجوم عليهم، وكان التمرد قد وضع هؤلاء الحراس هنا فهاجمهم المتمردون وأبْعدوهم عن أماكنهم وساروا بهم إلى ما وراء المتاريس بعيدا عن المدينة، وبذلك صارت لهم اليد العليا فى "تابينا" وسيطروا عليها.

وتعددت رسائل الإمبراطور إلى جريجورى والتى حاول فى بعضها استدعاءه ونصحه فى بعضها بالإقلاع عن خططه الشريرة إنْ أراد أنْ يناله العفو أو أراد أن يعاد إلى وظيفته التى كان عليها، وإن لم يمنعه ذلك من أن يهدده فى مرات كثيرة بالقتل إنْ ظل مُصِراً على رفضه، لكن جريجورى أصمٌ أذنيه عن سماع نصيحة الإمبراطور الكريمة وتمادى فيما هو فيه من الغى، فبعث رسالة مطولة إلى الإمبراطور لم يكتف فيها بالنيل من رجال السينيت وكبار العسكريين بل تعداهم إلى أقرب الناس وشيجةً من الإمبراطور وأصهاره ، فأيقن ألكسيوس من هذه الرسالة أن جريجورى يمر بانهيار نفسى شنيع. والواقع أنه كان على شفا الجنون التام ولم يعد ثم أمل يرتجى منه.

ثم حدث فيما بين سبتمبر ١١٠٥ وسبتمبر ١١٠٦ أن بعث الإمبراطور بجون زوج أخته الكبرى إلى الثائر. وكان جون هذا من أقارب جريجورى وهما ابنا عم فلم يكفّ جون عن إسداء النصح إليه وكان فى هذا النصح الخير له كل الخير إنْ هو اتبعه.

لقد ظن الإمبراطور أنّ جريجورى سوف يستجيب لجون؛ بسبب صلة القرابة التى تربط بينهما فجدُّهما واحد.

أما إن أصَرَّ جريجورى على رفضه ومكابرته فعلى جون أن يُهاجمه بقوةٍ بَرّية كبيرة وأخرى مثلها بحرية.

وبلغ خبر قدوم جون إلى جريجورى تارونيتس Taronites فخرج متجهًا إلى "كولنيا" Colonela وهى موقع شديد الحصانة عزيز على من يريد اقتحامه.

وعزم "جريجورى تارونيتس" على الاستنجاد بالملك "غازى كمشتكين(١٥)" ليكون عونا له(١٦).

(٨)

لما سمع جون ابن أخى الإمبراطور – وهو على وشك الخروج– بحركة "جريجورى تارونيتس" فصل الفرنجة عن بقية الجيش وبعثهم فى أثر المتمردين مع طائفة منتقاة من العسكر الرومان لمحاربته، فأدركوه فى بعض الطريق واشتبك الجانبان فى قتال عنيف انقض فيه اثنان من الكبار على جريجورى برماحهما، فسقط من حصانه فأسراه وأخذاه حيًا إلى الإمبراطور، وأقسم "جون"– حين أسر جريجورى – ألاَّ يرى أسيره تحت أى ظرف من الظروف وألاّ يبادله الكلام أثناء السير. لكنه على الرغم من ذلك دافع عنه دفاعا حارا أمام ألكسيوس الذى تظاهر بأنه يريد سمل عينيه ثم استجاب بعد تأبٍّ وتمنع لالتماس جون، مصرحا أنّ فقء عينيه ليس سوى مجرد تمويه ولكن أوصاه ألا يُذيع هذا القرار، ثم أمَر بعد ثلاثة أيام أن يُكتفى بحَلق لحيته ويجز شعر رأسه حتى الجلد، وأن يطاف به فى السوق حيث يجتمع الملأ من أهل البلد ثم

يؤتى به على هذه الصورة إلى برج "أنيماس". غير أن حماقة جريجورى لم تفارقه حتى وهو فى محنته وحَبْسه إذ لم يكن يمضى يوم عليه بالسجن إلا ويفضى إلى حراسه بنبوءاته الرعناء الجنونية، ومع ذلك فإن الإمبراطور - بما طُبع عليه من الحلم الكبير- ظل يحسن معاملته غاية الإحسان عساه يرعوى عن غيِّه ويظهر بعض الندم والتوبة، ولكن عبثا ما كان يرجوه فقد ظل على عناده ولم تلن قناته وإن كان دائم الإلحاح على رؤية زوجى فقد كان صديقا لنا فى الأيام السالفة، فلما سمع بذلك [زوجى] قيصر أخبر الإمبراطور بما يريده فأذن له بزيارة جريجورى فى محاولة منه لنصحه والتغلب على جنونه الفظيع ولكنه كان شديد البطء فى الاستجابة للنصح مما أطال بطبيعة الحال بقاءه فى الحبس حتى عفا عنه الإمبراطور بعد حين ولقى كثيرا من الرعاية وانهالت عليه النعم والهدايا أكثر من ذى قبل.

هكذا كان أبى فى مثل هذه الحالات(١٧).

على الرغم من انشغال بال الإمبراطور بالمتآمرين وبالمتمرد "جريجورى تارونيتس" فإن ذلك لم يصرفه عن التفكير فى بوهيموند، فرفع مرتبة إسحاق كونتستفانوس فجعله الدوق الأكبر للأسطول وأرسله إلى دورازو وهدده بسمل عينيه إن لم يصل إلى "الليريا" قبل أن يعبر بوهيموند بحر الأدرياتيك، وتعددت الرسائل الواردة إلى ألكسيوس ابن أخى الإمبراطور الذى هو دوق دورازو وكلها حافلة بالإشارة عليه بالاستعداد للحرب الموشكة على الوقوع، والنصح باليقظة التامة والتنبيه على حراس السواحل بالانتباه الشديد مخافة أن يغافلهم بوهيموند فينجح فى العبور، كما نبه عليه أن يوافيه كتابيا بخبر مثل هذا الأمر؛ أعنى لحظة عبوره.

كانت هذه هى الاحتياطات التى اتخذها الإمبراطور.

أما تعليماته الصادرة إلى "كونتستفانوس" فكانت لا تتجاوز مراقبة المضايق والمسالك المائية بين لمبارديا والليريكوم مراقبة دقيقة، وأن يَحُول بين السفن التى يرسلها بوهيموند أمامه وبين الوصول إلى "دورازو" وهى محملة بكل متاعه. ومجمل القول أن عليه ألا يسمح بنقل أى شىء من لمبارديا إلى الليريا.

لكن مما يؤسف له هو أن "كونتستفانوس"- لما رحل - لم يكن يعلم شيئا عن أماكن الرسو الطبيعية الصالحة للبحارة القادمين من إيطاليا.

لم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل إنه أغفل تعليمات الإمبراطور وأبحر إلى مدينة "أترانتو" الواقعة على الساحل اللمباردى التى كان أمر الدفاع عنها موكولاً إلى امرأة يقال إنها أم تنكريد[١٩] وإن كنت لا أستطيع أن أجزم أكانت أخت بوهيموند كما أشرت فى هذا الكتاب أم لم تكن؛ فأنا غير واثقة بذلك تماما وعما إذا كان تنكريد يتصل ببوهيموند بصلة القرابة من ناحية الأم أم من ناحية الأب[٢٠].

على أنه حين وصل "كونتستفانوس" إلى هذه المدينة أرسى بسفنه وشرع فى مهاجمة الأسوار وأوشك على الاستيلاء على هذا المكان لولا أن المتولية أمْر الدفاع عن المكان كانت امرأة ذكية حصيفة محنكة، فما كادت ترى إمكانية استيلائه على "أترانتو" حتى أرسلت إليه أحد أولادها برسالة تطلب فيها منه المساعدة وتحثه على القدوم على جناح السرعة، وكان الأسطول البيزنطى قد ارتفعت روحه المعنوية فقد كان كل شىء يدل على أن المكان موشك على السقوط فى أيدى رجاله وأنّ الجميع يهتفون بحياة الإمبراطور، فلم يكن من هذه المرأة التى كانت إذ ذاك فى موقف حرج إلاّ أن أمرت بنى قومها بالهتاف هم أيضًا بحياة ألكسيوس، ثم أرسلت فى الوقت ذاته سفراءها إلى "كونتستفانوس" يعلنون إليه باسمها الولاء للإمبراطور وقطعت على نفسها العهد بالتفاوض معه من أجل السلام. كما ذكر سفراؤها أيضًا استعدادها للقدوم للتشاور معه فى شروط الصلح حتى يمكن موافاة ألكسيوس بالتفاصيل الكاملة. والواقع إنها كانت تنتحل شتى المعاذير والعلل لتعطل أمير البحر البيزنطى [إسحاق كونتستفانوس] عن الحركة وتماطله حتى يتاح لابنها الوقت الكافى للقدوم وحينذاك تستطيع أن تنحى عن وجهها قناع الخديعة وتبدأ الحرب. ودوت فى جميع أرجاء المدينة الهتافات الحارة وجاوبتها مثلها من الخارج، وذلك فى الوقت الذى كادت فيه هذه المرأة شديدة المراس أن تفسد بكلامها ووعودها البراقة خطط"كونتستفانوس" وتصيبها بالفشل، فقد وصل فى هذه الأثناء ابنها الذى كانت فى انتظاره ومعه كونتاته، فقاتل كونتستفانوس وأنزل به الهزيمة الساحقة، فلم يجد جميع البحارة بدا من إلقاء أنفسهم فى البحر لعدم

خبرتهم بالقتال برا. كما أن طائفة كبيرة من البشناق العاملين فى خدمة الجيش الرومى انصرفوا - حين حمي وطيس القتال - إلى النهب، شأنهم فى ذلك شأن جميع المتبربرين، غير أن الصدفة البحتة شاءت أن يقع ستة منهم فى يد العدو فبعث بهم إلى بوهيموند فلما رآهم اعتبرهم خير مكافأة يجزى بها، فأرسلهم فى الحال إلى رومة، كما مثل هو ذاته أمام العرش الرسولى، وكان له لقاء مع البابا[٢١] فراح يوغر صدره ضد الروم الشرقيين إيغارا شديدا، ولما كانت الكراهية تُعَشّش من قديم فى صدور هؤلاء المتبربرين[٢٢] ضد شعبنا فقد راح بوهيموند يُزكيها ويزيدها ضراما ودفعته رغبته فى مضاعفة حنق رجال حاشية البابا الإيطاليين على ألكسيوس إلى إحضار أسراه ليكونوا الشاهد الحى والدليل الناصع على أن، الإمبراطور- بين الناس قاطبة - كان خصما للمسيحيين وعدُوًا لهم لأنه يستعمل فى قتال النصارى الكفار المتبربرين والفرسان الهمج، وما من مرة تكلم فيها بوهيموند مع البابا فى هذا الموضوع إلاّ واحتال خبثا، واستعرض أمامه البشناق فى زيهم الذى اعتادوه وهم يطالعون الناس بنظراتهم الوحشية المأثورة عن المتبربرين. وكان بوهيموند ينهج النهج اللاتينى فيصر على نَعْتهم بالوثنيين، ساخرا من اسمهم وهيئتهم على السواء. فلا عجب إذن أن تكون تلميحاته إلى الحرب ضدّ النصارى قد دُبرت بمهارة ومكر شديدين يقنع البابوية بشرعية نشاطه، وبأن الروم الشرقيين هم الأعداء المُعتدون، كما كان يسعى فى الوقت ذاته للحصول على مزيد من المحاربين الذين يكونون من أشرس العناصر وأشدها بلادة إذ من يكون هذا المتربص- بَعدتْ داره أمْ قربت- الذى لا ينخرط فى حرب ضدنا عن طواعية إذا وافق البابا عليها؟

وانخدع البابا بدعاوى بوهيموند فسانده وشجعه على فكرة العبور.

والآن هيا بنا نعود إلى المعركة فنقول إن العسكر المتحاربين على اليابسة حاربوا ببسالة أما المقاتلون بحرا فقد ابتلعتهم المياه، ثم لاحت بعد ذلك فرصة العمر للكلت لكن أفسدها عليهم العسكر الذين يَبُزونهم بطولةً، لاسيما من هم أسمى من غيرهم مرتبة، وكان من أبرزهم نقفور إكاسينوس Eaxsenus وابن عمه قسطنطين إكاسينوس، الملقب

بدوكاس، وكذلك أشجع الشجعان قاطبة إسكندربوفرينوس. وكان هناك آخرون غيرهم من نفس مرتبتهم وبطولتهم.

ولما كان هؤلاء يدركون ما هم عليه من قوة عالية فإنهم سرعان ما استلّوا سيوفهم وحاربوا وتحملوا أوار المعركة وقاتلوا الأعداء الفرنجة قتالاً مريرا وهزموهم وأحرزوا النصر الرائع عليهم.

وحينذاك أتيحت لكونتستفانوس فرصة التقط فيها أنفاسه من ضغط الجميع عليه فنشر أشرعته وأبحر كل أسطوله إلى "أفلونا" وهنا جاءته الأخبار بأنّ بوهيموند مسرع فى التأهب للرسوّ على الساحل وتوقع أن تنتهى رحلته فى "أفلونا" أكثر أن تنتهى فى "دورازو" التى هى أقرب ما تكون إلى إيطاليا فصمم على زيادة استحكامات أفلونا، ومن ثم سافر مع الأدواق الآخرين مشددا الحراسة على المضايق المائية الموجودة فى تلك الناحية، كما بَثَّ الكشافةَ على قمة التل المسمى بتل "جاسون" لمراقبة البحر ورصْدِ السفن المبحرة، ثم جاءه رجل من الكلت كان قد اجتاز البحر من إيطاليا يؤكد له أن بوهيموند على وشك الإبحار، فلما سمع رجال "كونتستفانوس" هذا الخبر وجلت نفوسهم من فكرة الاشتباك فى معركة بحرية مع بوهيموند الذى كان مجرد ذكر اسمه كافيا لبث الذعر فى نفوسهم، فتظاهروا بالمرض وزعموا أنهم فى حاجة ملحة للتداوى والاستجمام . أما "لاندولف" الذى كان يقود كل سفن الأسطول وله خبرة طويلة ومعرفة بالحروب الفجائية البحرية فقد رأى أن يواصل استمراره فى يقظة تامة واستعداد، وألاّ تغمض له عين عن ملاحظة قدوم بوهيموند.

ولما أبحر رجال كونتستفانوس إلى خيمارا Chimara للاستجمام خلفوا وراءهم الضابط الملقب بمساعد أميرِ البحر ومعه المراكب للقيام بالحراسة قرب رأس "جلوسا" Glossa التى لا تبعد كثيرا عن أفلونا، فى حين ظل جيش "لاندولف" مقيما فى نفس الناحية مع عدد لا بأس به من السفن.

(٩)

بينما كانت الأمور فى البحر تجرى على هذه الصورة مضى رجال كونتستفانوس للاستجمام أو بحجة الاستحمام، وقام بوهيموند من جانبه فاستخدم اثنى عشر مقاتلاً بعَدَّاءتهم المتعددة الأبراج ذات المجاديف الزوجية وراحوا يضربون وجه الماء بمجاديفهم ضربات متلاحقة فتصدر عنها أصوات تكاد تصم الآذان، كما أنه زوّدَ كل جانب من جوانبها بقوارب نقل صارت أشبه بالدائرة تضم فى وسطها أسطول الحرب . فلو قدر لك أن تراها لقُلتَ وأنت ناظر إليها من الأمام إن هذه ليست إلاّ "أرمادا" مبحرة، أو مدينةٌ عائمة.

ولقد ساعد الحظ بوهيموند إلى حد ما فقد كان البحر هادئا إلاّ من نسائم رقيقة آتية من ناحية الجنوب فيتجعد لها وجه الماء تجعيدا خفيفا وتمتلئ أشرعة المراكب التجارية بما يكفى لدفعها. وواكبتها السفن فى خط مستقيم، وكان الصدى المنبعث منها- حتى وهى وسط الأدرياتيك - يدوى عاليا فيسمع من على الشاطئ.

والحق أن منظر أسطول "بوهيموند" كان رائعا، ولست بلائمة رجال "كونتستفانوس" إنِ اضطربت أوصالهم خيفة منه ولست أنعتهم بالجبن، وما كان لأحد - حتى ولو كان "أرجوناتس"، دع عنك رجال كونستفانوس ولاندولف - إلا أن يداخله الخوف.

لم يكن عجيبا للاندولف -وقد شاهد بوهيموند يعبر البحر بمراكبه الكبيرة ذات الحمولة الضخمة وبهذه الصورة المهيبة - أنْ يُبَدِّل خط سيره فيحيد عن "أفلونا" ويترك لعدوه أن يعبر البحر إذْ أدرك استحالة محاربة هؤلاء العسكر وهم على هذه الصورة التى هم عليها من الكثرة العددية، وكان ذلك العمل فاتحة خير لبوهيموند الذى نقل جميع عسكره من "بارى" إلى "أفلونا" وأرسى بهم جميعا على الشاطئ الآخر، وكان أول ما فعله أنه راح يعيث فسادا وتخريبا فى كل أرجاء نواحى البحر بجيش من الفرنجة والكلت لا يحصيهم العدد، وبكتيبة من الرجال الذين جمعهم من جزيرة "تول"

Thul ممن يخدمون عادة في الجيش الروماني ولكن حملتهم الظروف رغم أنوفهم على الانضمام إلى بوهيموند في هذه اللحظة.

وكان هناك إلى جانب ذلك أعداد كبيرة من الشعوب الجرمانية والكلتية المتبربرة الذين انضموا إليهم، وهكذا تألف من هؤلاء وهؤلاء جيش واحد انتشر رجاله على طول الساحل الأدرياتيكي وتم كل شيء على أكمل وجه، وحينذاك قام هو بمهاجمة "إبيداموس" – التي نسميها نحن دورازو – مستهدفا من وراء هذا الهجوم الاستيلاء على هذا الموضع ونهب الأراضي الواقعة وراءها حتى القسطنطينية.

وكان بوهيموند مشهورا بأنه رجل لا يشق له غبار ولا يجاريه أحد في حصاره للمدن حتى إنه ليفوق في هذا المضمار "ديميتريوس".

ولما كان بوهيموند مركزا كل اهتمامه في الاستيلاء على "إبيداموس" أحضر مختلف معداته الحربية التي يمكن أن تساعده على تحقيق هدفه هذا، فأحدق بالمدينة ثم هاجم المواقع الأخرى والبعيدة عنها على السواء، فكانت القوات البيزنطية تصده حينا وحينا آخر لا يجد هو من يعترض سبيله، وانتهى الأمر به أخيرا إلى الشروع – كما قلت – في محاصرة "دورازو" ذاتها حصارا سالت فيه الدماء بغزارة.

كان ينبغي عليّ قبل الحديث عن وقعة "دورازو" الشهيرة وقتال بوهيموند الوحشي أن أشرح ما يتعلق بهذه المدينة التي تعد إحدى المدن الإغريقية القديمة المطلة على ساحل البحر الأدرياتيكي فأقول إنها تقع تحت "إليسوس" Elissus بعض الشيء لأن الأخيرة فوقها إلى اليمين.

وربما كان لفظ "إليسوس" نسبة لنهر بهذا الاسم ولا أستطيع أن أجزم لأيهما نسب المكان.. أ للرافد النهري أم للغابة المسماة بهذا الاسم!!

أما في هذه اللحظة التي أتكلم عنها فإن "إليسوس" كانت قلعة منيعة تقوم على إحدى التلال وكانت صعبة المرتقى على من تراوده نفسه باقتحامها.

أما التل فيطل على "دورازو" ويمكن لهذه الناحية أن تكفل الحماية لدورازو من البر والبحر على السواء، ولقد استغل ألكسيوس كومنين هذه الميزة التي اختصت بها "إليسوس" لتكون عونا لمدينة "إبيداموس" من ناحية نهر "درايمون" الذي كان صالحا

للملاحة من ناحية البر وكذلك بفضل حصن "دورازو" وجلب إليها كل ما هو ضروريٌ برا وبحرا لتموين من يكون بها من الأهالي والعسكر، كما زودها بالأسلحة وآلات الحرب .

أما نهر "درايمون" فأرى لزاما عليّ أن أقول عنه بعض كلمات قلائل فهو ينبع من بحيرة "ليخينس" وإن حَرّفَتْها الألسن فقالت " أخريس" Achris نسبة إلى ملك البلغار الذي عاش زمن الإمبراطور قسطنطين وبازيليوس البورفيروجينس، وكان يعرف أولاً باسم "مرقس" ثم سُمّي بعد ذلك "صمويل" .

وتخرج من هذه البحيرة عدة روافد منفصل بعضها عن بعض تكاد تصل في مجموعها إلى مائة رافد حتى تبدو وكأنها خارجة كلها من منابع مختلفة، وتظل تجري كلها حتى تلتقي بالنهر القريب من "دورة"Deure فيسمى عندها باسم "دريمون" وتتجمع كل هذه الروافد لتصير نهرا واحدا كبيرا جدا ويتجه شمالاً بعد "دلماتيا" ثم ينحني إلى الجنوب ويغسل أقدام "إليسوس" ثم تصب مياهه في خليج الأدرياتيك.

هذا ما أقوله عن موقع درايمون وإليسوس وحصانتهما فلعل في ذلك القول الكفاية. لأعود إلى تاريخي فأقول :

بينما كان ألكسيوس لازال في القسطنطينية جاءته كتب دوق دورازو المعروف أيضًا هو الآخر بألكسيوس تحمل إليه خبر ركوب بوهيموند البحر وتجواله على طول شواطئ "الليريا" وإنه أرسى على اليابسة وعسكر في سهل الليريا .

وبعث ألكسيوس دوق دورازو إلى الإمبراطور رجلاً بشناقيا كان يضرب به المثل في سرعة العدو حتى كانوا يسمونه الرسول المجنح، فصادف الإمبراطور عائدا من الصيد فجرى نحوه وأحنى رأسه حتى مست جبهته الأرض وصاح بصوت عالٍ: "لقد وصل بوهيموند"، فبهت جميع من حول الإمبراطور لسماعهم اسم "بوهيموند" إلاّ ألكسيوس فقد ظل ثابت الجأش قوي الجنان وانحنى ففك سير حذائه الجلدي ولم يبدر منه شيء سوى قوله: "هيا بنا الآن لنتناول طعام الغداء". ثم أخذ ينظر في أمر بوهيموند.

الحواشى

(١) هو فيليب الأول ملك فرنسا (١٠٦٠ – ١٠٨٠) ,وأما ابنتاه فهما كونستانتس و سيسيليا التى تزوجت تنكريد كما بالمتن.

(٢) مرة أخرى تعود " أنا كومنينا" لتطلق لفظ المتبربر على الخليفة الفاطمى رغم ما تشهد به المراجع التاريخية بما كانت عليه مصر من حضارة.

(٣) يقصد بالمدينة هنا القسطنطينية.

(٤) جاءت بعد هذا أعلاه بقلم المؤلفة الأسطر التالية التى تصف نهر " سارون" والتى تباعد بين مطلع هذا الخبر وما ترتب عليه وبين الخبر التالى له ، ولذلك عدها سوتير عبارة اعتراضية جعلها فى الحاشية ، فى حين أن إليزابيث أدرجتها فى المتن . أما هذه العبارة فهى : " ينبع نهر السارون من جبل توروس ويجرى بين مدينتين صارت إحداهما أطلالا ، أما الأخرى فقد ظلت كما هى ، ثم يصب النهر فى البحر الشامى ". وتعلق نسخة سوتير على ذلك بقولها إن المؤلفة أخطأت لأن المصيصة لا تقع على السارون ، ولكن على نهر جيجان. أما فيما يتعلق بالمدينتين فراجع Cam Med. Hist. Pt. I pp 706 - 770

(٥) كانت " ثيانو" زوجة ميناجورس أو تلميذته ، وهناك عدة كتب نسبت إليها فى التاريخ القديم .

(٦) ذلك أن " إيرين" فى اليونانية معناها السلام.

(٧) وكان ذلك فى فبراير أو مارس ١١٠٦ م كما جاء فى "سوتير" وإن كنا لا نعرف علام اعتمدت هذه النسخة فى تحديد هذا التاريخ التقريبى.

(٨) تزوج جون باسيليوس هذا فيما بعد من إحدى بنات ملك المجر الذى كان له ثمانية أبناء نصفهم ذكور ، والنصف الآخر إناث .

(٩) كانت إقامته هذا الاحتفال يوم ٢٥ يناير ١١٠٧ .

(١٠) يطلق على هذا الأثر التاريخى اليوم اسم " العمود المحروق" ولا يزال يرى حتى اليوم فى إسطنبول ويلغ ارتفاعه خمسة عشر قدما ثم تحطم هذا الأثر ولم يبق منه الآن سوى العمود.

(١١) النقاط الواردة هذه الصفحة هى أماكن تركتها المؤلفة فارغة ولم يملأها سوتير ولا إليزابيث.

(١٢) انظر فى أمر الجناة ما سبق أن ذكرته المؤلفة.

(١٣) جاء بعد هذا فى إليزابيث قولها " وكانت أقرب ما تكون إلى ما يلى " وبعدها فراغ ثم قالت نفس النسخة" ذلك لأن الأغنية كانت تهدف إلى منع الناس من الخروج ومشاهدة هؤلاء الذين على رءوسهم القرون ولكن أسرع الناس من شتى الأعمار لمشاهدة هذا المنظر .

(١٤) الإشارة هنا إلى بنات الإمبراطور وهن "أنا كومنينا " و"ماريا " التي تزوجت من نقفور برينيس، و"يودوكيا" و"تيودورا".

(١٥) جاء بعد هذه الكلمة مباشرة في نسخة إليزابيث في وصف هذا المنظر المسمى بالأيدي قولها : " إن الذين يؤخذون إلى الأيدي لا يمكن بأي حال من الأحوال إنقاذهم من العقاب المحكوم عليهم به، وكان الأباطرة الذين ثبتوا هذه الأيدي البرونزية على نقطة عالية جدا يقفون على قوس حجري مرتفع رغبة منهم في أن يكون مفهوما أنه إذا كان هناك محكوم عليه بالإعدام ثم ساروا به تحت هذه الأيدي فقد عفا عنه الامبراطور وهو في الطريق قبل أن يمر تحت هذه ونجا من العقوبة. وتعني هذه الأيدي أن الإمبراطور أعاد هذا الرجل إلى أصحابه مرة ثانية وأظلّه برحمته ، وكأنّ القدر هو الذي شاء له هذا الأمر ، ومن الصحيح أن يستغيث المرء فإن وصل الرد وهو على مقربة من الأيدي كان معنى ذلك أن كتبت له النجاة . أما إذا كان قد تجاوزه فلا أمل له في النجاة ، وإنّي لأنسب كل شيء إلى رحمة الرب التي أنقذت الرجل من سمل عينيه لأن الرب هو الذي حرك الشفقة في قلوبنا يومذاك". ولما كانت هذه الأسطر كلها في وصف الأيدي فهي جملة اعتراضية ، لذلك أدرجها سوتير في الحاشية حتى لا تقطع سلسلة أفكار القارئ . وقد اتبعناهُ في هذه الترجمة العربية فجعلناها في الحاشية وليست في المتن .

(١٦) تسمّيه المؤلفة كما ذكرْنا من قبل باسم Tanismanes.

(١٧) يعلق سوتير على قصة المتمرد جريجوري فيصفها بأنها غريبة ويتشكك في تسامح الإمبراطور ويصفه بأنه تسامح جاوز الحدود والتصور . كما يشكك في تظاهره بالرغبة في سمل عيني جريجوري ، ثم يضيف إلى ذلك قوله :" هل تراه بذلك كان يبغي إرضاء الرأي العام؟! ولماذا يعامل هذا المرء السادر في غلوه بكل إجلال بعد أن حكم عليه بالحبس؟" .

(١٨) هنا يبدأ الكتاب التاسع من نسخة سوتير.

(١٩) ورد بدلها في نسخة إليزابيث كلمة " هيدرانت".

(٢٠) هذا القول من أنا كومنينا غريب لأن المعروف على وجه التأكيد هو أن تنكريد كان ابن أخت بوهيموند وقد أشارت المؤلفة إلى ذلك أكثر من مرة.

(٢١) كان البابا إذ ذاك هو بسكال الثاني ولم يكن كسلفه أربان الثاني الذي نهج سياسة معتدلة في معاملته المسيحيين الشرقيين فقد كان بسكال متحمسا للإمبراطور وسرعان ما حملوه على تأييد النرمنديين ، كما بعث نائبه البابوي مع بوهيموند إلى فرنسا بعد أن تردّد في إعلانها حربا مقدسة ضد البيزنطيين ، واكتفت هذه الحرب بتأييد البابا الرسمي فكانت بذلك صليبية لكنها لم تتمكن من إنقاذ الأماكن المسيحية بعد أن استهدفت تحطيم الإمبراطورية الشرقية الرومانية .

(٢٢) المقصود بالمتبربرين هنا بابا رومة ورجاله.

(٢٣) أردفت أنا كومنينا هذا الكلام بقولها: " لم يكد يصل إلى دورازو حتى بعث السفن الحربية التي كانت تحت إمرته من هناك إلى أفلونا وخيمارا". ويلاحظ أن أفلونا تبعد عن دورازو وخيمارا مئة مرحلة.

(٢٤) علق سوتير على الحمامات بقوله أنه تكثر الإشارة في الألكسياد إلى أهمية الاستحمام والحمامات وما لها من مكانة هامة في العلاج وغالبا ما كانت البيمارستانات تلحق بها الحمامات وكذلك الحال إزاء أديرة الرهبان والراهبات ، وكانت بعض الأديرة تحتم على نازليها الاستحمام مرة ولو كل شهر.

الكتاب الثالث عشر

مؤامرة هرون ، وهزيمة بوهيموند الثانية ، واتفاقية ديفول (١١٠٧ - ١١٠٨)

فقرات الكتاب الثالث عشر

تأخر مغادرة الإمبراطور للعاصمة؛ بسبب انتظار المعجزات فى كنيسة سنت مارى فى بلاشيرن . نجاته من مؤامرة لاغتياله على يد الإخوة من بيت هرون .

١- استعدادات ألكسيوس الحربية . بوهيموند يعسكر فى دورازو . مشكلة الإمدادات لعدم تمكن الروم من السيطرة على البحر ومصادر تموينهم . المجاعة وانتشار الدوسنتريا .

٢ - سخرية سكان المدينة ببوهيموند . البرج الخشبى وتدميره حرقا .

٣ - الإمبراطور يصمم على كسب المعركة بالحيلة بدلاً من الحرب. إرساله خطابات مزورة للكونتات ولكن بوهيموند يدرك سرها .

٤ - محاولات كانتاكوزينوس للتغلب على العدو .

٥ - الانتصار . وقوع بعض الكونتات أسرى - مصاعب بوهيموند . انتصارات جديدة كانتاكوزينوس . أحد أعمام بوهيموند وكان عملاقا يقع أسيرا فى يد قزم متبربر .

٦ - إهمال إسحاق كونتستفانوس يساعد على عبور الأدرياتيك. توقف وصول رسل الكلت .

٧ - التسلح الكلتى . بوهيموند يرسل اقتراحات بشأن الصلح. الإمبراطور يدعوه للتفاوض .

٨ – الرهائن . بوهيموند يحاول فرض شروط موافقته .

٩ – بوهيموند وظهوره .

١٠– مقابلاته لألكسيوس .

١١– شروط اتفاقية ديفول كاملة .

(١)

تملكتنا الدهشة جميعا فى هذا الوقت من ثبات الإمبراطور وجلده، والواقع أنه رغم ما كان يتظاهر به من عدم الاكتراث؛ حتى لا يضطرب من حوله فقد كان فى أعماق نفسه يعانى قــلقا شــديدا حمله فى النهاية على مغادرة بيزنطة ثانية، فقد عرف أن الأمور تسير مرة أخرى فى غير صالحه ومن ثم فإنه رتب شئون القصر والعــاصمة على أكمــل وجـــه وعين أمير الأســطول الكبير " لوستاسيس كيمينيانوس " Cymineanus ونقفور ديكانوس حاكمين ، فلما فرغ من ذلك اســتصحب نفرا قليــلا من أخصٌ أقاربه وسافر فى أول يوم من نوفمبر (١١٠٧) ووصل إلى الفسطاط الأرجوانى الملكى المنصوب خـــارج بلدة جيسيرانيوم غير أنه كان مضــطربا لأنه عند رحــيله لم تكن العذراء البتول قد أكملت المعجزة المعتادة ، لذلك ظل فى تلك الناحية ، فلما كان اليوم الأخير وقد مالت الشمس للغروب رجع بالإمبراطورة فدخــلا مزار الكنيسة الطاهرة مع نفر قليل وأخذا يرتلان التراتيل المناسبة فى حرارة وخشوع ، وعقب ذلك تجلت المعجزة ومن ثم غادرا الهيكل وقلباهما يفيضان بالإيمان .

فلما كان اليوم التالى أخذ الطريق المؤدى إلى " تسالونيكا " حتى إذا وصل إلــى " خيروفاتشى " أنعم بوظيفة كبرى على حاكمها " جون تارونيتس " الذى كان من الطبقة الأرستقراطية والذى نشأ منذ نعومة أظفاره فى كنف الإمبراطور وعمل زمنا طويلا وزيرا له ، وكان رجلا حاد الذكاء حاضر البديهة ، دقيق الإلمام بالقانون الرومانى ، مستعدا لتنفيذ مراسيم الإمبراطور طالما هى مدونة فى لغة تليق بعظمة الإمبراطورية . وكان إذا تكلم انطلق على سجيته ، ولم تخل ملاحظاته ولا إشاراته من اللباقة فكان المجادل المنطيق شبه أرسطو .

بعد أن غادر ألكسيوس خيروفانتشي أرسل العديد من الخطابات والرسائل إلى كل من إسحاق كونتستفانوس أمير البحر وإلى رفيقه "دوكاس أجزاسينوس" متضمنة تعليماته بوجوب اليقظة التامة لتحركات بوهيموند والحيلولة دون وصول الإمدادات إليه من لمبارديا ، فلما وصل والدى ووالدتى إلى " مستوس Mestos " أرادت الإمبراطورة العودة إلى القصر لكن الإمبراطور حملها على متابعة السير فاجتازا معا نهر يورروس Eurus حيث أقام فسطاطه عند " بسيللوس " .

وإذا كان ألكسيوس قد نجا من الاغتيال من قبل فقد كاد أن يُغتال مرة ثانية لولا أن تداركته رحمة ربه فحالت بين المتآمرين وبين إتمام جرمهم ، ذلك أن واحدا قام بتحريض خصوم الإمبراطور على محاولة الفتك به وشاركه فى خطته السرية أخوه " تيودور" ، وإنى أفضل الإمساك عن الكلام عما إذا كان لهم مشاركون فى هذا التخطيط الإجرامى ، وعلى أية حال فقد جاءا بعبد بشناقى يدعى " ديمتريوس" لتنفيذ هذا الاغتيال وكان هذا الرجل خادما لهرون نفسه [الذى كان أميرا بلغاريا] واتفقوا على أن يثب على الإمبراطور عقب سفر الإمبراطورة ويكون وثوبه عليه فى أحد الدروب الضيقة فيأتيه وهو نائم فى فراشه ويغمد الخنجر فى صدره .

وانطلق ديمتريوس وقد سيطرت عليه فكرة الاغتيال فشحذ خنجره واستعد ليسفك دم ألكسيوس ، لكن عدالة السماء تدخلت فى هذه اللحظة فجدٌ ما لم يكن فى الحسبان ولم يكن يخطر بالبال، ذلك أن الامبراطورة لم تغادر ألكسيوس، بل ظلت مرافقة له فقد كان يمسكها يوما بعد يوم وبقيت إلى جواره مما بث الجبن فى قلوب المتآمرين، فرأوا حارسَ الإمبراطور وهى أمى التى لا تفارقه فكتبوا تهديدا فى ورقة قذفوا بها إلى مخدعه، ولم يعرف أحد وقتذاك من يكون كاتب هذه الكلمات المجرمة التى طلبوا فيها من الإمبراطورة أن تعود إلى بيزنطة .

والمعروف أن القانون ينزل أشد العقوبة بِمَن يكتب أمثال هذه الأوراق فيأمر بإلقاء ما كتبوا فى النار ، أما كاتبها فيوقع به أقصى القصاص ، ولقد فشل المتآمرون فى محاولتهم الفتك بالإمبراطور وكانوا على درجة كبيرة من الغباء إذ كتبوا ما كتبوا فى عبارات مستهجنة.

ثم حدث فى أحد الايام بعد فراغ ألكسيوس من تناول طعام غدائه وانصراف معظم رجال حاشيته ولم يبق معه سوى رومانوس المانوى وبازيل باسيللوس الخصى وتيودور أخى هرون أن عثر على ورقة للمرة الثانية تحت وسادة الإمبراطور تتضمن هجوما لاذعا على الإمبراطورة لا لشىء إلاّ لأنها لازمت الإمبراطور ولم ترجع إلى العاصمة، وكان هدفهم الذى يسعون إليه هو أن تعود إلى العاصمة فتتوفر لهم الحرية التامة لارتكاب ما يريدون ارتكابه. فقال الإمبراطور لأمّى وقد استبد به الغضب: " ما كان لهذه الورقة أن يضعها هنا أحد إلا أنا أو أنت أو شخص يلازمنا " .

ثم طالع فى نهاية الورقة هذه العبارة: " أنا الذى كتبت إليك هذه الورقة وأنا راهب وأنت لا تعرفنى الآن أيها الإمبراطور، ولكنى سألاحقك حتى فى أحلامك " .

وكان هناك عبد خصى اسمه قنسطنطين من خدم والد الإمبراطور وله الإشراف على مائدة طعامه. أما الآن فقد أصبح خادما وكان واقفا خارج الحجرة فى النوبة الثالثة من الحراسة الليلية وكان قد فرغ حالا من الحراسة المعتادة حين سمع صائحا يصيح بصوت عال: "لك أن تعدّنى رجلاً ميتاً إن أنا لم أدخل إليه الآن وأخبره بكل شىء عن خطتك وأكشف الستر عن الأوراق التى تدأب على قذفها إليه" .

وإذ ذاك أمر ألكسيوس قنسطنطين خادمه الخاص أن يتقصى خبر الرجل وسر الصياح الذى يسمعه فمضى فعرف أنه الخادم " ستراتيجيوس Stratigius فجاء به إلى المشرف على المائدة فلم يتوان ستراتيجيوس عن الإدلاء بكل ما يعرف، فمضى به الخصى إلى الإمبراطور الذى كان نائما هو وصاحبة الجلالة ، غير أنه قابل الخصى بازيل وكلفه أن يذكر للإمبراطور بما أفضى به ستراتيجوس فأطاعه بازيل واستصحبه فى الحال إلى حيث ألكسيوس الذى استقصى منه عما كان، فقص بالتفصيل خبر هذا الأمر المجوج وأفصح عمن يكون رأس الفتنة التى تهدف إلى اغتياله، وسمى الشخص الذى كلفوه بقتله وقال: " إن مولاى هرون ورهطا آخرين ليسوا بالمجهولين لجلالتكم قد تآمروا على حياتكم وقد بعثوا بديمتريوس للفتك بك وإغماد السيف فى صدرك" .

كان ديمتريوس هذا تابعا له وهو بشناقى سفاك للدماء مفتول الذراعين، وهو مستعد للقيام بأى عمل جرىء يراد منه القيام به، إلى جانب أنه مطبوع على القسوة

ولا تعرف الرحمة طريقها إليه وقد أسلموه خنجرا وقالوا له : " امض إلى الإمبراطور حتى لا يكون بينه وبينك فاصل ولا تبالِ بأى شيء ولا يَرْدَعنْك رادع بل أغمد سيفك في قلبه ".

لم يقتنع ألكسيوس بهذه الأخبار فقال لستراتيجيوس: أواثق أنت بأنك لم تختلق هذا الكلام كراهية منك لمولاك ولعبده ؟.... عليك أن تقول الحق كل الحق وأن تذكر بصراحة كل ما تعرف، واعلم أنه إن ثبت عليك الكذب عاد الأمر عليك بالمضرة " .

فأصَرَّ الرجل على أنه صادق فيما قال ، فأسلموه إلى الخصيّ " بازيل " ليسلمه الأوراق الكريهة فذهب به لخيمة هرون حيث كان الجميع يغطون فى سباتهم، فالتقط " ستراتيجيوس" حافظة جلدية مليئة بمثل هذه الكتابات السخيفة، فلما طلع النهار سلمها إليه فنظر فيها ألكسيوس وعرف منها من يكون الذى دبر أمر الفتك به ، ثم أمر ضابط الشرطة بالقسطنطينية بنفى أم هرون إلى " خيروفتشى " أما هرون نفسه فقد .... كما أخرج أخاه تيودور إلى " أنخيالوس " وقد أدت هذه الحوادث إلى تأخير زحف الإمبراطور مدة بلغت خمسة أيام.

(٢)

بينما كان الإمبراطور فى طريقه إلى سالونيكا ، وبينما كانت الكتائب التى استقدموها من كل النواحى تتجمع فى بقعة واحدة ، رأى ألكسيوس من الخير أن يصفّها كراديس للقتال فيكون القواد فى الطليعة، ووراءهم ضباط المؤخرة، وجعل العسكر فى الوسط حاملين أسلحتهم التى يخطف بريقها الأبصار وقد اصطفوا جنبا إلى جنب كالسور حول المدينة ، وكان منظرا يبعث الرهبة فى النفوس إن رأيتهم حسبتهم تماثيل برونزية أو عسكرا من المعدن ؛ لأنهم كانوا يقفون جميعا فى السهل لا يتحركون قيد أنملة. أما سيوفهم فتهتز تحرقا للدماء . فلما تم كل شيء على أكمل وجه أمرهم بالسير مزودين ومهيئين للقتال والحركة يمينا ويسارا. ثم فصل المجندين الجدد عن بقية الجيش .

أما العسكر الذين درّبهم ألكسيوس والذين كانوا على جانب من الثقافة الحربية العالية فقد اختار من بينهم رجالا جعلهم ضباطا وكانوا ثلاثمائة من الشباب فارعى الطول، الذين يتفجرون صحة وعافية قد نبتت لحاهم منذ قريب ، وجميعهم يحسنون الرمى بالنشاب الذى دربوا عليه، كما دربوا على الرمى بالرمح . وعلى الرغم من اختلاف أصولهم ومواطنهم الأولى فإنهم صاروا أمة مترابطة فكانوا الصفوة المختارة فى الجيش الرومانى، وكلهم يحاربون تحت إمرة مولاهم الإمبراطور الذى يعدونه قائدهم ومرشدهم فى الوقت ذاته .

واختار جماعة من أكفأ القادة وبعث بهم إلى الوديان التى لابد وأن يسلكها المتبربرون. أمّا الإمبراطور فقد أمضى الشتاء فى سالونيكا .

أما بوهيموند فكان كما قلنا قد عبر الأدرياتيك بأسطول قوى ، وانطلق عسكر الفرنجة كلهم إلى سهولنا وانتشروا فى ربوعها ثم جمعهم بعضا إلى بعض وزحف بهم حيث موضع (إبيداموس) مؤملا أنْ تقع فى يده عند أول هجوم يشنه عليها، وعزم على أنه إن لم يستطع الاستيلاء عليها بالآلات والمنجنيق رماها بالحجارة حتى تستسلم له ، ثم عسكر تجاه البوابة الشرقية التى يوجد أعلاها تمثال برونزى لفارس على جواده، وحاصرها بعد أنْ بعث من يتقصى له خبرها ، وقضى فصل الشتاء كله يدبر الخطط ويتلمس كل عورة فيها يستطيع منها اقتحام مدينة (دورازو) لكن ما كادت طلائع الربيع تطل على الدنيا حتى أحرق ما عنده من سفن النقل وسفن حمل الخيول والقوارب التى كان قد جلبها معه. وكان ذلك حيلة ماهرة منه؛ لأنها تحمل الجيش على ألاّ يفكر فى ركوب البحر للعودة .

وانصرف بوهيموند إلى الحصار يوليه كل همته، وأخذت قوات المتبربرين أولا فى الانتشار فى كل ما حول المدينة ، وجرت مناوشات بسبب إرساله الفرنجة للقتال ولكن رُماة السهام من الروم راحوا ينضحونهم بنبالهم : تارة من أبراج (دورازو) وتارة أخرى من أماكن بعيدة عنها ، وكان القتال بينهم وبين بوهيموند سجالا حتى تمكن من السيطرة على " بترولا" Petroula والموضع الذى يقال له " ميلوس " mylus ويقع على الجانب البعيد من النهر المسمى بنهر" ديابوليس" .

لقد كان نجاحه فى هذا راجعًا إلى تكتيكاته البارعة ، ففى الوقت الذى كان يبنى فيه آلات الحرب كان ينشئ ما يعرف بالسلاحف وكذلك الأبراج المجهزة بالكباش التى تدك الحصون ويشيد ما يحمي الجنود العاملين فى حفر الخنادق ومن يطمّمون خنادق العدو، وكان يعمل بهمةٍ عالية طول فصلى الشتاء والربيع ، واستطاع بتهديداته وأعماله أن يبث الخوف فى نفوس سكان المدينة وإن عجز تماما عن تحطيم روحهم المعنوية ، كما أدّت مشكلات تزويد عسكره بالمئونة إلى مواجهته لكثير من المصاعب الكبرى بسبب نفاد كل ما كان قد نهبه من المناطق المجاورة لدورازو ، أضف إلى هذا أن الجيش الرومانى قطع عليه كل السبل الأخرى. ويرجع السبب فى ذلك إلى استيلائه على الوديان والشعاب التى يمكن الانتفاع بها، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين أصبحوا يسيطرون على البحر مما أدى إلى ظهور المجاعة التى أضرت بالرجال والخيل على السواء، إذ نفقت الخيول؛ لعدم وجود العلف، وهلك العسكر؛ لندرة الطعام ، كذلك أصابت الدوسنتاريا جيش بوهيموند مما جر عليه أبلغ الأذى. ويبدو أن هذه الدوسنتاريا نجمت عن بعض الأطعمة الفاسدة لاسيما الذرة ، ولكن الحق هو أن نقمة الرب حلت بهذه الجموع التى لا يحصيها العدّ ، فتساقطوا موتى كالذباب .

(٣)

لكن يبدو أن هذه المصائب لم تكن شيئا مذكورا عند رجل كهذا الرجل العاتى الذى راح يهدد البلد كله بالويل والثبور والخراب، والذى لم تمنعه البلوى من الاستمرار فى تدبير جرائمه. وكان أشبه ما يكون بوحش كاسرٍ يستعد للوثوب والانقضاض فقد ركز كل اهتمامه على الحصار، فأعَدّ أول ما أعد حظيرةً متحركة، كما عمل كبشا لرمى الحصون ودك الأسوار، وكان هذا من جانبه مشروعا كبيرا جدا يقصر عنه الوصف . ثم نقل كل ذلك إلى الجانب الشرقى من المدينة فكان مرأى ذلك بأجمعه كافيا لبث الرعب فى النفوس، وكان بناء هذه الآلة المسماة بالسلحفاة على الصورة التالية: هى أنهم صنعوا سقفا على شكل سلحفاة كأنها مربع متوازى الأضلاع جعلوا تحته بكرات، وكسوا أعلاه كله وجميع جوانبه بجلود الثيران التى خاطوها بعضا إلى بعض

حتى أصبح سطح الآلة وجدرانها مؤلفا من سبع طبقات من جلود الثيران، فلما فرغ بوهيموند من صنعها ألصقها إلى سور المدينة وأدخل فيها عددا كبيرا من الرجال كانت مهمتهم الاستمرار فى دفعها بالأعمدة من الداخل، فلما صارت آلة الحرب هذه أقرب ما تكون إلى السور وعلى مسافة قريبة منه دفعوا العجلات دفعا قويا بعد أن ثبتوها من كل جوانبها بدعائم خشبية غرزوها فى الأرض حتى لا يتمايل السطح من جراء الدفع المتواصل، ثم جاءوا بعد ذلك بكثير من الرجال الأشداء الذين وضعهم على جانبَي الكبش وبدأوا هجوما عنيفا صاحَبَه رميهم الأسوار رميا مستمرا، وكانوا كلما دفعوا الكبش بقوة وثب إلى الأمام لينطح السور ثم يرتد إلى الوراء ليدفعوه مرة أخرى إلى السور فى محاولة لفتح ثغرة فيه .

وتكرر هذا العمل مرات عدة والكبش مستمر لا ينقطع عما هو بصدده . ومن المحتمل أن المهندسين القدماء الذين اهتدوا إلى صنع هذه الآلة قرب قادس سموها بالكبش نسبة إلى الحيوان الذى نعرفه والذى يمارس الواحد منها مناطحة الآخر .

ولقد سخر أهل دورازو من المتبربرين لاستعمالهم هذه الآلة ، كما سخروا من الرجال الذين يقومون بتشغيلها، واعتبروا هذه الآلة التى تشبه الكبش مادة للتندر، ولم يخالطهم شك فى أن محاولات العدو فى حصار المدينة منتهية إلى البوار، ففتحوا أبواب مدينتهم سخرية منهم بالعدو وهم يهزأون من نطحات الكبش المتكررة، وقالوا إن ضرب السور بهذه الآلة لن يؤدى إلى فتح ثغرة كبيرة. وقد برهنت بطولة المدافعين عن المدينة وثقة القائد ألكسيوس ابن أخى الإمبراطور على عدم جدوى تكتيكات الفرنجة الذين تراخوا فى محاولاتهم يأسا منهم فى أخذ المدينة على الأقل بهذه الطريقة، كما أن شجاعة المدافعين عن المدينة وفتح أبوابها فى وجه العدو يدل على ثقتهم بأنفسهم. وظلوا على هذه الصورة حتى دب اليأس فى قلب الخصم ، فخلّى جانبا استعمال الكباش وتعطلت المظلات المتحركة ، فلما رآها وقد تعطلت وصارت غير ذات جدوى للأسباب التى ذكرتها رماها بالنار من فوقها فاشتعلت وصارت رمادا . ثم حاول الجيش الفرنجي محاولة أخرى وهى استعمال آلة أشد إضرارا من هذه الآلة أخذ يحركها نحو المواضع المواجهة لفرقة مركز عمليات الدوق ألكسيوس ابن أخى الإمبراطور. وإنّى لأصف هذه الآلة فأقول إنها تقوم على أرض مرتفعة تنتهى بساتر

ترابى غير صخرى يشرف عليه سور المدينة ، ويقال إن رجال بوهيموند شرعوا فى الحفر فى موضع مواجه لهذا التل بطريقة تدل على منتهى الحذق والخبرة، وكان ذلك منهم حيلة ابتدعوها للتغلب على دورازو، ثم راحوا يحفرون خندقا عظيم العمق تحت الأرض ، أما من كان منهم على سطحها فقد استظلوا بسقوف شاهقة الارتفاع تدفع عنهم شر تساقط الصخور والحجارة والسهام .

وأما من كانوا داخل القبو فقد أحرزوا تقدما إذ دعموا سقف نفقهم بأعمدة خشبية وبذلك تم صنع ممر كبير بالغ الطول والعرض ، وظلت العربات تعمل طول الوقت لنقل التراب بعيدا فلما كمل الحفر راحوا يهنئون أنفسهم كما لو كانوا قد أنجزوا عملاً عظيما، ولكن المدافعين لم يتراخوا من جانبهم فقد حفروا هم أيضا لأنفسهم نفقا قريبا من خندق عدوهم، فلما رأوه بلغ من السعة قدرا كبيرا جلسوا يتدبرون أين الناحية التي يحتمل أن تكون هى الناحية التى قد يقوم العدو بالحفر فيها، ولم يطل تفكيرهم ؛ إذ ما لبثوا أن اكتشفوا موضعا كان الخصم يُعمل فيه آلات حفره وهو فى أساس الجدار ، وحينذاك عرفوا اتجاهه وازدادوا علما به حين نقبوا فى واجهته تماما ورأوا منه جموع الفرنجة فى خندقهم فهاجمهم المدافعون وهم يرمونهم بالنار الإغريقية، واحترقت منها وجوههم وأتت على لحاهم فانطلقوا سراعا كأنهم النحل يفر من خليته التى داهمها اللهيب وهربوا على وجوههم من مخبئهم الذى كانوا قد دخلوه، وبهذا انتهى عملهم فى هذا المشروع الذى بذلوا فيه كل جهودهم ولكن بلا جدوى ، كما أن خطتهم الثانية لم تحقق هدفها . لذلك راحوا يرسمون خطة ثالثة تسمى بخطة البرج الخشبى التى تقول الأخبار عنها إنها لم تكن وليدة ساعتهم هذه إذ كانوا قد شرعوا فى بنائه قبل ذلك بعام مضى وكان هذا هو سلاحهم الرئيسى ، أما السلاحان الآخران فلم يعودا عليهم بفائدة كما قلنا.

على أنه ينبغى علىَّ أن أصف أولا باختصار خريطة دورازو فهى مدينة حافلة بالعديد من الأبراج المحيطة بها من كل جانب والتى ترتفع فوق الأسوار أحد عشر قدما .

وهناك سلم له دربزين حلزونى يؤدى إلى قمة الأبراج منيعة التحصين، وكانت الأسوار عريضة بدرجة تجعل من اليسير على أربعة فرسان أن يسيروا على الواحد منها وهم جنبا إلى جنب على جيادهم لا يضايق أحد منهم الآخر . ولقد ذكرت ملاحظاتى هذه بشأن هذه الأبراج حتى يسهل فهم ما سوف أقوله فيما بعد ، وإنه لمن الصعب أن أصور بالكلمات ماهية سلاح بوهيموند الجديد هذا ، فقد ابتدعه رجال معه من المتبربرين كساتر للبرج ، ويشير أحد شهود العيان إلى أن منظره كان يبعث الخوف وكان أشد إرهابا لأهل دورازو الذين رأوا فيه تهديدا كبيرا لهم، فقد كان مشيدا على الصورة التالية: ذلك أنه كان عبارةً عن برج خشبى روعى فيه أن يكون شاهق الارتفاع قائما على قاعدة رباعية، كما كان أعلى من كل أبراج المدينة بما يقرب من خمسة أو ستة أذرع ، وكان من الضرورى جعله على هذه الصورة حتى إذا ما دليت الجسور المتحركة كان من اليسير على العسكر النزول عليها ، ولما كان أهل البلد مدفوعين باستمرار إلى التقهقر للوراء فإنهم كانوا عاجزين عن مقاومة أى هجوم يأتيهم من هذه الناحية، وربما كان المحاصرون لدورازو على دراية تامة بما يعرف بالنظرية البصرية فلو لم تكن لديهم المهارة وإلمام بها لما استطاعوا أن يقدروا ارتفاع الأسوار .

إذا كان مرأى البرج يوحى بالفزع فإنه أشد رهبة حين يتحرك لأن قاعدته كانت مثبتة على عجلات كثيرة ويجلس العسكر بداخله ، فإذا تحرك استولت الدهشة على الناظر إلى البرج لعدم وجود سبب واضح لهذا التحرك، ويبدو البرج للناظر إليه وكأنه مارد فوق السحب حين يندفع إلى الأمام ، وقد كسى من جميع جوانبه ومن أسفله إلى أعلاه ، وكان يتألف من عدة طوابق قد أحاطت بها من كل النواحى فتحات متنوعة الاتساع لإطلاق القذائف التى تنهمر منها أيضًا السهام والنبال، ويقف على سقف هذا البرج رجال أشداء فى كامل سلاحهم وبأيديهم سيوفهم وهم مدربون على الدفاع تدريبا حسنا .

لم يؤد اقتراب هذا المنظر المروع من السور إلى بث الجزع فى نفس ألكسيوس حاكم دورازو ولا فى قلوب رجاله ، ولم يكن مفاجأة لهم بل ظهروا وكأنهم مستعدون له . إذ إنه فى نفس الوقت الذى أقام فيه بوهيموند عمارته أقام هو ما فيه تأمين من بداخل

البلد فلما رأى المدافعون شدة ارتفاع برج العدو المتحرك وكيف أنه سكن سكونا تاما بعد أن حركوا بكراته وركزوا فى مواجهته أربعة أعمدة طويلة ذات قاعدة رباعية، ثم وضعوا فيها شدات سفلية بين الأعمدة فصار هذا البرج أعلى من البرج الخشبى الخارجي بذراع، وكان مفتوحا من كل ناحية إلاَّ مِّن أعلاه حيث يغطيه سقف، ومن ثم لم تكن هناك حاجة لحمايته رجال ألكسيوس (حاكم دورازو) وهم يقذفون بالنار السائلة من الطابق الذى عندهم لكنهم فشلوا فيما يفعلون ولم ينجحوا فى تحطيم البرج تحطيما تاما لأن نفثات النار لم تمس الهدف الذى يقصدونه إلا مَسًا خفيفا.

ترى إذن ما الذى يفعلونه حينذاك؟

لقد هداهم تفكيرهم إلى ملء ما بين الصرحين بكل أنواع المواد القابلة للاشتعال ، ثم ألقوا عليها كميات ضخمة من الزيت فبدأت النيران شعلات صغيرة وراحت تسرى فى بطنه حتى إذا هبت عليها الريح استحالت إلى لهيب أخذت حدته فى الزيادة لاسيما بعد ذلك السيل الدفاق من النار السائلة ، كما اتقدت هذه الآلة المخيفة بكل ما بها من كميات ضخمة من الأخشاب وأصبحت لها جلبة تصم الآذان ومرأى تفزع له القلوب، حتى لقد كانت النار ترى من كل النواحى على بعد ثلاث عشرة مرحلة ، ودب اليأس فى نفوس من بداخلها من المتبربرين بسبب زئيرها وما صحب هذا الحادث من اضطراب، وحالت تلك النيران بين بعضهم وبين الهرب فهلك البعض منهم وانطلق البعض الآخر يطرح نفسه من القمة إلى الأرض فساد الهرج الشديد ، وزاد من هذا الهرج الأعمى صرخات المتبربرين الذين بالخارج .

(٤)

على هذه الصورة الكريهة المفزعة كان مصير ذلك البرج الخشبى الضخم ، وبهذه الصورة أيضا انتهت محاولة المتبربرين فى الاستيلاء على السور .

أما الآن فعلينا أن نعود لمتابعة أخبار الإمبراطور فنقول إن الأوجستا عادت مع الربيع من سالونيكا إلى العاصمة . أما الإمبراطور فقد واصل زحفه عبر بلاد جوبيا

حتى بلغ ديابولس الواقعة أسفل الممرات المستحيل السير فيها، ولما استعد الإمبراطور للقيام بحملة جديدة رأى أن تسبقها فترة استجمام ثم يبدأ القتال الذى لابد وأن يمتد طويلا ، ومن أجل هذا السبب لم يكن يؤيد الاشتباك مع بوهيموند فى حرب سافرة وجها لوجه ، إلا أنه بعد أنْ غادر الوديان والمسالك المؤدية إلى أرض محايدة بين الجيشين تخير ضباطا كانوا موضع ثقته وأقامهم على طول المنعطفات الجبلية وزودهم بجند كثيرين، وكان هدفه من هذه الاستراتيجية الجديدة الحيلولة دون وصول أى شىء إلى الفرنجة من الخارج ، وكذلك منع أى رسائل يبعث بها العدو إلى جيشنا أو إرسال رسائل ودية لأن المودة العميقة تتوقف فى العادة على مثل هذه التحايا كما يقول أرسطو، وأن الاتصالات تفضى إلى كثير من الصداقات.

كان الإمبراطور يعرف شدة مكر بوهيموند وعظيم بأسه ، وعلى الرغم من أنه عزم على قتاله فإنه لم يكف أبدًا – كما قلت – عن التماس وسائل التعامل معه وهى وسائل تختلف عن كل الوسائل والطرق التى سبق له اصطناعها من قبل .

من أجل هذه الأسباب التى ذكرناها حالا وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأنه كان يتلهف على قتاله فإنه كان يعترف بدور العقل فى كل شىء ، وكانت رغبته فى أن يلتمس سبيلا آخر غير الحرب يستطيع بواسطته إنزال الهزيمة ببوهيموند ، والظن عندى أنه لا ينبغى للقائد أن يجعل السيف وسيلته الوحيدة للنصر إذ إن هناك مواقف ينبغى عليه فيها أن يلجأ إلى المهادنة والمداهنة إن لاحت الفرصة لمثـــل هذا الســـلوك أو سمحت به الظروف، مما يمكنه من إحراز النصر التام .

كما كان عليه أيضًا الاعتماد على التفاوض وبذلك يمكن إلحاق الهزيمة بالعدو، وهى الوسيلة التى يبدو أن الإمبراطور استعملها فى هذه اللحظة، فقد عمل على إثارة الشحناء بين الكونتات وبين بوهيموند حتى يزعزع ترابطهم بعضهم ببعض ويفكك تماسكهم ، وكان المسرح مهيأ لهذا العمل فاستدعى إليه السيباستوس "مارينوس" Marinus sebastus من نابلى وكان من أسرة حربية كبيرة ولم يكن صادق الإخلاص للإمبراطور فى ولائه الذى أقسمه فقد أضلته حجج خادعة وعهود كاذبة،

ولكن ألكسيوس كان واثقا بأنه يستطيع الاعتماد عليه في خطته السرية فيما يتعلق على الأقل ببوهيموند .

كذلك استقدم إليه اثنين آخرين هما روجر أحد كبار الفرنجة وبطرس أليفاس alifas الذى ذاعت شهرته الحربية ولم يكن شك فى ولائه للإمبراطور ويمكن الاعتماد عليه اعتمادا تاما . فلما اجتمع هؤلاء عنده سألهم أن يشيروا عليه بما ينبغى اتخاذه ليلحق الهزيمة ببوهيمند كما سألهم أن يدلوه على آخرين يمكن الاعتماد عليهم فى إخلاصهم له، فلما أجابوه إلى ما سألهم إياه نبه عليهم بوجوب عمل ما من شأنه كسب هؤلاء الرجال إلى صفه، وقال لهم لئن تم هذا الأمر على هذه الصورة فسوف يدب التنافر فى صفوف جيش الكلت وتتمزق وحدته وينهار هدف بوهيموند على أيدى هؤلاء الرجال.

وبعد التشاور وبعد أن أفضى إليهم بخطته سألهم أن يقدم كل واحد منهم رجلا من أخلص أتباعه يكون قادرا على إمساك لسانه فاستجابوا لما طلبه حيث زيف رسائل على لسان أتباعه إن قرأها أحد حسبها ردا يرد به ألكسيوس على ما كان من أنصار بوهيموند لكسب وده ويميطون اللثام فيها عن نوايا صاحبهم لا سيما ذلك الرد الذى يتضمن شكره إليهم وأنه قد وقف على نواياهم الطيبة نحوه . وكان ممن كتب ألكسيوس إليهم جى guy أخو بوهيموند وآخر من أبرز رجاله الحربيين واسمه "كوبرسيانوس"، أمّا الثالث فريتشارد (السالرنى) وأما الرابع فبريكهانوس أحد الأبطال الشجعان وكان يتولى منصبا كبيرا من أكبر المناصب فى الجيش، كما كتب إلى غير هؤلاء .

كانت الكتب التى أرسلت إلى هؤلاء الرجال ملفقة، ثم إن الإمبراطور لم يسبق له أن تلقى منهم شيئا من هذا القبيل، ولم يحدث قط أن بعث ريتشارد أو غيره ممن فى مكانته برسائل تتضمن شيئا مما قيل إنهم وعدوا الإمبراطور به أو تدل على ولائهم له . ولم تكن ردود الإمبراطور فى الواقع إلاّ من بنات أفكاره ، وما كان الهدف من كل ذلك إلا بلبلة خاطر بوهيموند حين يسمع بخبر مفاوضات من هذا القبيل، وحينذاك تظهر

فى جلاء طبيعة بوهيموند المتبريرة فيعاقبهم العقاب الشديد وينفيهم، وبذلك تنجح حيلة ألكسيوس حين يذهبون إلى بوهيموند فيشقّون عصا الطاعة عليه.

وفى اعتقادى أن القوم أصمد ما يكونون حين يكونون متماسكين وحين يعتنقون فكرا موحدا ، ولكن إذا حدث شرخ فى تماسكهم وأصبحوا فرقا متنافرة دب الضعف فى جميع صفوف الجيش فيقع فريسة هينة لأعدائه ، وهذا هو الهدف المميت المقصود من هذه الرسائل .

ولقد تم تنفيذ هذه الخطة على الصورة التالية: هى أنه نبه على من بعثهم بهذه الرسائل أن يسلموها إلى الأشخاص المقصود أن يتسلم كل منهم رسالته الخاصة به ، ولم تقتصر كل واحدة منها على الاعتراف بالجميل بل اشتملت أيضًا على الوعود الجمة بالهدايا والإنعامات التى سوف يجازيهم بها الإمبراطور الذى زاد فطالبهم بأن يصرحوا بولائهم له وألا يخفوا عنه سرا .

ثم بعث فى أعقاب هؤلاء الرسل واحدا من أخلص رجاله كلفه بالخروج فى آثارهم على ألا يروه، حتى إذا صار على مقربة من بوهيموند سبقهم إليه مدعيا أنه هارب من ألكسيوس وأنه من الرهط الكاره له الناقم عليه، وأن يتظاهر هذا المبعوث بأنه يسعى إلى كسْب عطف بوهيموند ويقدم الدليل على مودته بأن يشى بين يديه علانية بالأشخاص الموجهة إليهم الرسائل ، ويقول له إنهم ممن كانوا قد أقسموا يمين الطاعة لبوهيموند ثم تغيرت قلوبهم عليه فساروا فى ركب ألكسيوس وأصبحوا من حزبه يأتمرون بأمره، وأنه ينبغى على بوهيموند أن يأخذ حذره منهم حتى لا يأخذوه على غرة بالوثوب عليه، وهو الوثوب الذى قيل إنهم اتفقوا عليه من قبل مع ألكسيوس، وإن الإمبراطور يرى الواجب عليه حينذاك أن ينهض لحماية هؤلاء الرجال إن أراد بوهيموند مَسَّهم بسوء .

لم تكن هذه المسألة مجرد كلمات فقط إذ ما كاد هذا المبعوث يقف بين يدى بوهيموند ويأخذ العهد على سلامة نفسه حتى أخبره بكل شىء وذلك تنفيذا لتعليمات ألكسيوس إليه، فلما سأله بوهيموند وأين يظن أن يكون هؤلاء الرسل الآن ؟ قال إنه سبقهم وإنهم فى "بترولا". فبعث بوهيمند فى طلبهم وأمسكهم ، ولما فَضَّ الرسائل دار

رأسه حتى كاد يغمى عليه اعتقادا منه بصحة ما تضمنته هذه الكتب، ثم أمر بتشديد الحراسة على هؤلاء الرجال. أما هو فقد لزم فسطاطه ستة أيام بلياليها ، ثم راح يدير الأمر فيما بينه وبين نفسه فيما ينبغي عليه عمله ، وتوالت على ذهنه أفكار شتى ، أيستدعى إلى حضرته هؤلاء الكونتات ؟ وهل يصارح أخاه بمجافاته إياه ونفرته منه ؟ وهل يقضى على هؤلاء الرجال بغير محاكمة؟

ثم فكر فيمن يختارهم ليحلوا محلهم .

إنه يعرف أن هؤلاء الرجال أبطال مغاوير، وأنَّ خلو الساحة منهم سوف يلحق به الضرر الجسيم والأذى البالغ ، لكن يبدو لي أن إمعانه النظر والفكر فى هذا الموضوع هداه إلى الشك فى ما قد يكون هناك من قصد خفى وراء هذه الرسائل ، فأمر باستقدامهم إليه وهش فى وجوههم وتلطف فى الحديث معهم حتى أدخل الطمأنينة فى قلوبهم، ثم أذن لهم بالاستمرار فى وظائفهم كما كانوا .

(٥)

توقع الإمبراطور أن يشرع العدو فى وضع عسكره فى شتى المسالك والدروب بقيادة الصفوة المختارين من قواده فبادر بإقامة الحواجز الخشبية المسماة بالمعوقات ليسد كل المسالك أمام الكلت، ثم انطلق فعين ميخائيل كيكامنوس على أفلونا ، وإسكندر كاباسيلاس واليا على بترولا ومعه مجموعة من المشاة من مختلف الجهات ، وكان إسكندر محاربا بطلا ظهر على كثير من الترك فى آسيا حتى اضطرهم إلى الفرار من وجهه .

كذلك عيَّن إسكندر حاكما على بترولا وعين ليونيكريتس Nicerites على "دوره" وعهد إلى كاميتزيس Camytzes بحراسة ممرات أربانوس Arbanus .

فإذا انتقلنا إلى بوهيموند نجد أنه قام منذ البداية – كما يقولون – بإرسال أخيه " جى " وواحد من الكونتات اسمه " ساراكينوس " Sanacenus ومعه كونتوباجانوس Contopaganus لقتال " كاباسيلاس ". وحدث أن بعض الأماكن الصغيرة المجاورة

لأربانوس كانت قد وقعت من قبل في يد بوهيموند، وجاء سكانها الذين كانوا على دراية تامة بهذه الشعاب وشرحوا له بالتفصيل موقع دوره ودلوه على الدروب الخفية ، وحينذاك قام "جي" فقسم جيشه قسمين قاد هو ذاته أحدهما وهاجم به " كاميتزيس " من الأمام ، في حين صدرت الأوامر إلى كل من كونتو باجانوس وكونت ساراكينوس المرشدين من " دوره " بمباغتته من الخلف، ونفذ كل فريق ما عهد به إليه ، فلما شن جي هجومه من الأمام أخذ الآخرون " كاميتزيس" من الوراء فلحقت به الخسائر الفادحة لأنه لم يستطع أن يقاتلهم جميعا في وقت واحد حتى إنه لما رأى رجاله يهربون اقتفى هو أثرهم .

ولقد سقط في هــذه المعـركة كـثـير من الرومـــان مـن بينـهم " كاراس " الذي كان الإمبراطور قد اختاره وهو لا يزال صبيا فأدرجه في عداد النبلاء، وكذلك "سكاليـاروس " التـركي الــذي كـان قـائــدا بــارزا في الشـرق ولكنــه فـر إلى الإمبراطور وتنصر .

بينما كان كاماتزيس يسلك مسلكهُ هذا قام الياتس الموكول إليه حراسة جلابنتزا مع طائفة ممن بقى من الرجال المختارين ونزلوا إلى السهل، ويعلم الله وحده أفَعَل ذلك بقصد القتال أمْ فعله لاستكشاف الأرض ، لكن شاءت الصدفة أن يقابله بعد قليل رهط من الكلت الأقوياء في كامل سلاحهم فلما شاهدوه انقسموا قسمين قوام كل واحد منهما خمسون رجلا وهاجموا مقدمته هجوما عنيفا وشدوا عليها بخيولهم .

أما الطائفة الأخرى فقد داهمته من الخلف دون أن يحس بها أحد لرطوبة الأرض تحت أقدامهم، ولما لم يكن الياتس يعلم شيئا عن الخطر الذي يهدده من الخلف فقد ركز كل همه ضد الطائفة الأولى غير عالم بالخطر الذي وضع نفسه فيه ، وإذ ذاك باغته العدو من ورائه مباغتة وحشية ثم ضربه في المعركة كونت اسمه " كونتوبا جانوس" برمحه ضربة أصابت منه مقتلا فهوى إلى الأرض لافظا أنفاسه، كما قُتل معه نفر غير قليل من رجاله ، فلما بلغت هذه الأخبار الإمبراطور استدعى إليه كانتا كوزينوس بسبب ما هو معروف عنه من النُّبل والبطولة كجندي ، وكان استدعاؤه إياه – كما قلت من قبل – من اللاذقية فانضم إلى ألكسيوس .

ولما لم يكن فى الاستطاعة تأجيل الهجوم أكثر من ذلك فقد خرج على رأس قوة كبيرة كما سار الإمبراطور من بعده فشجعه ذلك فانطلق سالكا ممرًا جبليا يسميه المواطنون " بترا" Petra فتوقف على مقربة منه .

ولما تم شرح استراتيجية الخطة بالتفصيل لكنتاكوزينوس سار قدما إلى "جلابينيتزا " مزودا بالنصائح والكلمات التى تبعث الأمل فى النفس .

أما الإمبراطور فقد عاد أدراجه إلى " ديابوليس"، ووصل كنتاكوزينوس فى زحفه إلى مكان صغير يسمونه " ميلوس " Mylus فأعد فى الحال جميع ما ينبغى إعداده وحاصر المكان وتحرك الرومان فى شجاعة إلى الأسوار ، وسرعان ما اعتُليت الشرفات العليا، وكان الكلت يعسكرون على جانب النهر المعروف باسم بوسى Boesse ، فلما رأوا ما حدث هبوا للمساعدة ، فلما شاهد الكشافة ما كان- وكانوا من المتبربرين كما سيعرف القارئ حالا - أقول لما طالع الكشافة حركات العدو ارتدوا على أعقابهم إلى صاحبهم تسودهم الفوضى وبدلا من أن يفضوا إليه سرا وعلى انفراد بما شاهدوا قالوا علانية بأن العدو موشك على مهاجمته ، فلما سمع الجند ما قاله الكشافة وجلت قلوبهم على الرغم من أنهم كانوا قد تسلقوا الأسوار وأحرقوا الأبواب وأصبح المكان فى قبضة أيديهم ، وانطلق كل واحد منهم يجذب أول حصان يصادفه لا يعنيه من يكون صاحبه .

أما كنتاكوزينوس فقد قاتل قتالا ضاريا وشن هجمات عنيفة فى جموع الخائفين وصاح فيهم مقتبسا قول الشاعر " كونوا رجالا وتذكروا روح الحرب وشدتها ". لكنهم لم يلقوا أذنا مصغية إلى ما قاله. غير أنه استطاع أن يتغلب على جزعهم بحيلة ماهرة احتالها عليهم إذ قال لهم إنه من الخطأ أن نترك آلات الحصار للخصم ليستعملها ضدنا ، ولكن اجعلوها طعمة للنيران ثم سيروا فى نظام .

وأتت هذه الكلمات أكُلها فنفذوا كل ما أشار به ولم يكتفوا بحرق آلات الحصار وحدها بل زادوا فأضرموا النار فى القوارب الموجودة بالنهر حتى لا يتسنى للكلت العبور، وانسحب كانتاكوزينوس لمسافة قصيرة جاء بعدها إلى أحد السهول ، وكان على اليمين نهر خزرانس Ghazrenes وعلى اليسار مستنقع كثير الطين ، فاستغل

كانتاكوزينوس النهر والمستنقع اللذين ضمنا له الحماية الضرورية وعسكر فى السهل، ثم جاء الكلت إلى ساحل النهر فأبصروا القوارب وقد أتت عليها النار فرجعوا منكسرى الخاطر منكسين رءوسهم، وعرف جى أخو بوهيموند بما جرى فبدل خط سيره واختار صفوة رجاله وأرسلهم إلى "هيريكو" وإلى "كانينا" Canuna فوجدوا ميخائيل كيكامينوس Cecamenus يقوم بحراسة الوديان استجابة لأمر الإمبراطور، غير أنهم استغلوا طبيعة الأرض وشنوا هجوما عنيفا على الرومان وتغلبوا عليهم إذ لن يكون ثم سبيل أمامهم لدفع الجند والكلت إذا تمكن هذا الخصم ووضعهم فى مأزق خرج ، أما إذا كانت الأرض منبسطة فمن اليسير التغلب عليه .

(٦)

تشجع الكلت بهذا النّصر الذى أحرزوه فعادوا لمواجهة كنتاكوزينيوس مرة ثانية ، بيد أنهم لما رأوا أن البقعة التى ضربوا فيها معسكرهم لم تساعدهم المساعدة المرجوة خافوا وداخلهم الجزع وكفوا عن القتال ، أما هو فلما عرف بتقدمهم أسرى ليلته بجنده نحو الشاطئ الآخر وهم مُشْهِرون سلاحهم قبل طلوع الشمس وأعدوا أنفسهم للحرب ، واتّخذ هو مكان القلب وصار الترك على يساره ، كما تولى الميمنة ألان روزميكس مع أبناء جلدته وبعث البشناق أمامه طليعة ضد الكلت ملقيا إليهم بتعليماته القاضية بالانسحاب إلى الأمام على أن يظلوا يوالونهم الرمى بالسهام حتى يحملوهم على الفرار .

انطلق البشناق فى حماسة وإن لم ينجزوا شيئا ما؛ لأن الكلت ظلوا محافظين على ترابط صفوفهم وراحوا يتقدمون ببطء ولكن على أحسن صورة من النظام، فلما أصبح الجيشان أقرب ما يكونان إلى بعضهما لم يستطع البشناق تصويب سهامهم فى وجه فرسان عدوهم بل لاذوا فرارا . وقد أراد الترك مدّ يد المساعدة إليهم كما أنهم أرادوا أن يشنوا من جانبهم هجوما لكن الكلت الذين لم يرهبهم تدخل الترك حاربوهم، فلما رأى كنتاكوزينوس الهزيمة التامة أحضر "روزميكس" Rosmekes ليشترك فى القتال، ولعلك تذكر أنه كان على الميمنة مع رجاله الألآنيّين الذين كانوا من

المحاربين الأشداء ، ولكن تم إجهاض محاولاته رغم أنه كان كالأسد فى غضبته ، ثم عاودت كنتاكوزينوس شجاعته وهو يرتد وكانت المعركة فى لحظتها الأولى ورمى بنفسه على طليعة الكلت وفرق صفهم شرائم وأنزل الهزيمة الساحقة بهم وظل يطاردهم حتى بلغ "ميلوس".

ولقد هلك فى هذا القتال عسكر كثيرون وقواد لا بأس بهم ، كما وقع فى الأسر عدد كبير من أبرز الكونتات أمثال " هيج "[1] وأخيه " ريتشارد كونت باجانوس " .

أما كنتاكوزينوس فقد عاد منصورا وأراد أن يكون وقع نصره كبيرا فى نفس الإمبراطور فعلق رءوس كثير من الكلت على أسنة الرماح، وأرسل إليه أبرز من أسرهم ، وكان فى مقدمتهم هيج وأخوه ريتشارد ، و باجانوس .

إننى أُدَّن هذه الكلمات وقد اقترب موعد إشعال المصابيح وها هو ذا قلمى يتحرك فوق الورق ببطء وأشعر بالنعاس يكاد يقهرنى بصورة لا أستطيع معها الكتابة حتى إن الكلمات لتهرب منى ، كما أرانى ملزمة بأن أستعمل أسماء أجنبية وإنى لمضطرة لتفصيل مجموعة من الأحداث التى توالى وقوع بعضها إثر بعض فى عجل وأخشى أن تكون النتيجة هى انعدام الرابطة بين الجزء الرئيسى من هذا التاريخ والذى يليه .

حسنا ... ليس هناك داع للغضب على الأقل عند من يقرءون كتابى هذا بقصد طيب .

والآن هيا بى أتابع الكتابة .

لقد أدرك بوهيموند المحارب ما وصلت إليه أحواله من السوء الشديد، فقد توالى عليه الهجوم من البر والبحر معا ، وأخذت المئونة التى عنده فى النفاد مما جعله فى موقف ليس هناك موقف أصعب منه ، لكنه مع ذلك لم يكُفّ عن موالاة إرسال العسكر القوى لنهب المدن القريبة من " أفلونا " وهيريكو وكانينا .

على أن هذه الحركة من جانبه لم تصرف كنتاكوزينوس عن اليقظة، بل كان يرى رأى الشاعر القائل " إن غفوة من النوم اللذيذ تؤخر الرجل عن متابعة عمله": ولذلك أرسل على جناح السرعة بيروتس على رأس جند كثيرين لقتال الكلت فقاتلهم، فلما كان فى عودته صادف فى منتصف الطريق أسطولا لبوهيموند فرماه بالنيران فلم

يتخاذل بوهيموند بل ازداد مكابرة وصلابة حيث بعث بطائفة من الجند قوامها ستة آلاف رجل لقتال " كنتاكوزينوس " وكلهم مشتاقون للفتك به ، وكان الظن عند بوهيموند – حين أرسل هذه الكتائب – أنها سوف تأخذ الجيش الرومانى وقائده من غير أن تشهر سيفا ، ولكن كان لقائده كشافته الذين لم تغفل عيونهم لحظة عن مراقبة حشود الكلت، فلما وافاه كشافته بأنّ الفرنجة زاحفون عليه حمل هو وعسكره السلاح أثناء الليل وتأهّبُوا للإغارة على العدو مع أول شروق الصباح.

كان السير قد أنهك الكلت وأجهدهم فنزلوا يلتمسون قليلا من الراحة على شاطئ نهر "بوسى" لكن رآهم كنتاكوزينوس وقد تنفس الصبح فهاجمهم فى لحظته وأسر الكثيرين منهم وقتل أكثر ممن أسر. أما الذين لم يجر عليهم الأسر فقد لاقوا حتفهم غرقا إذ ابتلعتهم أمواج النهر فكانوا أشبه بمن فر من(٢) الذئب فوقع فى أنياب السبع ، ثم بعث جميع الكونتات إلى الإمبراطور. فلما فرغ من ذلك كله عاد أدراجه إلى "تيموروس " Timoros وهى أرض سبخة قل أن يستطيع أحد السير فيها، لكنه ظل مقيما بها مدة أسبوع وأقام عددا لا يستهان به من الكشافة فى أماكن مختلفة ، وقد اقتصرت مهمتهم على رصد تحركات بوهيموند فجاءوه بالأخبار بصورة مكنته من اتخاذ قراره ، فقد حدث أن صادف هؤلاء منهمكين فى وضع أرماث يعبرون عليها النهر للإغارة على قرية بالجانب الآخر منه فباغتهم الروم وأخذوا معظمهم أحياء وفيهم ابن عم بوهيموند ، وكان رجلا عملاقا مفرط الطول الذى يقدر بعشرة أقدام، وكان ذا منكبين عريضين حتى ليخيل إلى من يراه أنه هرقل آخر ، وكان منظره وهو أسير يبعث على الدهشة ، وأية غرابة أكثر من أن يأسر بشناقى قزم ماردا ضخما ووحشا آدميا كهذا الرجل ، لذلك أصدر كنتاكوزينوس أمره – وهم يهمون بالرحيل – أن يقود هذا القزمُ البشناقى ذلك الوحشَ بسلسلة فى حضرة الإمبراطور سخرية منهم به .

حين سمع ألكسيوس بوصولهم جلس على كرسى عرشه وأمر بإحضار الأسرى ليستعرضهم فجاء الكلتى مفرط الطول فى قيده الحديدى يقوده البشناقى الذى لا يكاد يصل إلى ركبتيه وطبيعى أن ينفجر الجميع ضحكا من هذا المنظر .

أما بقية الكونتات فقد زج بهم فى السجن(٣) .

(٧)

لم يكد الإمبراطور يغتبط بنجاح كنتاكوزينوس حتى جاءه الخبر بالخسارة الجسيمة التى لحقت بعسكر كل من " كاميتزيس" و " كاباسلاس" . وعلى الرغم من أنه ظل رابط الجأش فإن قلبه كان يرمض بالحزن ألما على من هلكوا ، ولم يستطع أن يمسك الدمع من أن يترقرق فى عينه من أجلهم. غير أن ذلك لم يمنعه من أن يعهد إلى قسطنطين جبراس بالمرابطة فى "بترولا". وكان جبْراس هذا جنديا رائعا ، إلى جانب أنه كان عدواً لدودا للكلت فعهد إليه الإمبراطور أن يستكشف أى فج من فجاج الوادى قد دخله العدو بعد اقترافه هذه المذبحة، وكلفه أن يسد الطريق عليهم.

لم يتقبل جبراس هذه المهمة بنفس طيبة لأنه كان رجلا شديد الزهو بنفسه لا يحب أن يوكل إليه إلا المهام الجسيمة ، لذلك لم يتوان الإمبراطور عن أن يعهد بهذه المهمة إلى مَريانوس مفرو كاتاكالون Marianus Catacalon زوج أخت قيصرى الذى برهن الكثير من أعماله النابهة على ما طبع عليه من الشجاعة العظيمة ، فكان موضع حب ألكسيوس الكبير ، وسرعان ما وضع تحت إمرته قوة كبيرة من أحسن العسكر ثم أردفهم بالكثيرين من أتباع آل برفيروجينس ومنهم زوجى فَسَرْتهم جميعا فرصة القتال هذه .

على أنه كانت لمريانوس هو الآخر بعض التحفظات على هذه الحملة ، لذلك اعتكف فى خيمته يقلب الأمر على شتى وجوهه، ولما آذن الليل بالانتصار جاءت رسالة من "لاندولف"[٤] الذى كان وقتئذ مع إسحاق كونتستفانوس Contestefanos متضمنة تهما موجهة إلى إسحاق وأخيه ستيفانوس يوفربينوس Euphorbenus ترميهم بالتراخى فى مراقبتهم مياه لمبارديا ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان ينصرفون للراحة. وجاء فى الرسالة: "إنك يا مولاى الإمبراطور توقف الهجمات المتلصصة الساعية للنهب التى يقوم بها الكلت وتفعل ذلك بكل ما أوتيت من قوة مسترشدا بما يهديك إليه تفكيرك ، ولكن هؤلاء الرجال تخلوا عن ذلك الأمر ولازالوا غافلين عن واجبهم وما تمليه عليهم وظيفتهم ، ولقد ترتب على إهمالهم ما يقتضيه واجبهم من مراقبتهم البحر والبحارة المكلفين بجلب الأقوات إلى بوهيموند يحملها إليه الذين استطاعوا منذ قريب أنْ يبحروا

من لمبارديا وكانوا في انتظار الريح تواتيهم فيُركبون البحر ويتابعون سفرهم دون خوف ، غير أن ريحا جنوبية عاصفة عاقتهم عن الرسو في دورازو فوجدوا أنفسهم مضطرين لأن يظلوا مبحرين على طول الساحل مما انتهى بهم إلى الرسو في أفلونا ، فلما بلغوها وأنزلوا أثقالهم جاءت سفن كبيرة الحمولة محملة بكل ما يحتاجه بوهيموند من الإمدادات الهائلة من المشاة والخيالة وما يلزمهم من الذخيرة، فلما رسوا اشترى منهم الكلت كل ما يحتاجونه من الطعام* .

اشتد الغضب بالإمبراطور وأسرف في تأنيب إسحاق وتقريعه وهدده بالعقاب إذا لم يسلك الطريق القويم، فكان لكلامه أثره في نفس إسحاق الذي أصبح أشد الحراس يقظة، لكن الأمور لم تجر كما يشتهي فلقد فشل أكثر من مرة؛ إذ لم يستطع أن يمنع العدو من العبور ، وكانت الصعوبة هي أنه ما كاد يتوسط المياه التي تصل بين الساحلين حتى لمح الكلت وقد نشروا كل قلاعهم وواتتهم الريح فأسرعوا في الاتجاه المعاكس له ورأى نفسه عاجزا عن أن يقاومهم هم والريح المضادة له في وقت واحد؛ إذ لم يكن في استطاعة أحد ما – ولو كان هرقل – أن يحارب كما يقولون في جبهتين في وقت واحد، كما دفعته الرياح إلى الوراء فلم يرض ذلك الأمرُ الإمبراطور . ولما عرف أن كونتستفانوس * أخذ في وضع الأسطول الرومي في الناحية الخاطئة لأن الريح الجنوبية التي كانت تعاكسه كانت تجعل الرحلة أيسر على البعض رسم له خريطة عن سواحل لمبارديا والليريكوم والموانئ التي تكون موجودة في كل منهما وأرسلها مكتوبة ، كما أوصاه أن يرسو بسفنه في أمكنة معينة وأمره بأن يشرع في الإبحار إن كانت الريح مواتية لمهاجمة الكلت بحرا ، وبذلك بث الأمل من جديد في قلب كنتستفانوس وشجعه على العمل .

عادت الثقة إلى نفس إسحاق ورأى الخير في أن يذهب وفق ما أشار به الإمبراطور ودفع سفنه نحو الشط في انتظار سنوح الفرصة له، حتى إذا أصبح الأعداء في البحر في قافلة كبيرة وصارت الريح رخاء اعترضهم في المضايق فأحرق بعض سفنهم المغيرة وأغرق بعضا آخر منها بكل من عليها. لكن ألكسيوس اهتم بصفة خاصة قبل أن يصله خبر ما فعله إسحاق برسالة جاءته من لاندولف ومن دوق دورازو دفعته إلى تغيير خططه، فاستدعى إليه مريانوس مفروكاتاكالون الذي أشرت إليه من

قبل وعينه دوقا للأسطول ، كما عهد ببعثة بترول إلى شخص آخر سواه فرحل مريانوس ، ثم شاء حظه أن يصادف بعض القراصنة المحاربين الذى كانوا فى طريقهم من لمبارديا إلى بوهيموند ، كما صادف سفن النقل فاستولى عليها وأخذها . وكانت السفن كلها محملة بشتى أنواع الطعام ، ولم تعد هناك أية صعوبة فى حراسة البحر؛ لأن مريانوس حرم الكلت من كل فرصة تمكنهم من عبور البحر والوصول إلى دورازو(٥) .

(٨)

عسكر الإمبراطور عند سفح الممرات القريبة من " ديابوليس " وقد شدد قبضته على من تحدثهم أنفسهم بالفرار من المعسكر(٦) وتوالت الرسائل من مراكز عملياته الحربية من غير انقطاع مبينة كم من الرجال يحتاج إليهم فى سهل دورازو لمحاربة بوهيموند، وعن نوعية التكوين القتالى الذى يكونون عليه حين ينزلون من التلال ثم يقومون بهجمات متعددة ينسحبون بعدها ، ويذكر أن هذه المناورة الحربية سوف تتكرر كثيرا، على أن يكفوا عن الرمى بالسهام وأمر أن يتحرك حملة الرماح وراءهم ببطء حتى إذا اضطر رماة النشاب إلى الانسحاب للوراء ساعدهم هؤلاء مع استمرارهم فى الوقت ذاته برمى أى كلتى تشاء الصدفة أن تصل أيديهم إليه، كما زودهم بكميات كبيرة من السهام ، وإنْ طلب إليهم الاقتصاد فى استخدامها ، كما طلب إليهم الاقتصار على رمى الخيل دون أصحابها لأنه كان يعرف أن خوذهم ودروعهم تجعلهم فى أمان أو شبه أمان فلا يصابون ، ذلك لأنّ إصابة راكبيها يُعتبر فى رأيه تبديدا للسهام فى غير موضعها وعبثا لا طائل من ورائه ، وكان لباس الكلتى يتألف من قميص مصنوع من الشبك المشدود بعضه إلى بعض بحلقات من الحديد القوى القادر على مقاومة السهام، كما كان فوق هذا اللباس الحربى درع ليس بالمستدير ولكنه يمتاز بطوله وبأنه عريض من أعلاه ثم يضيق هذا العرض ويتناقص شيئا فشيئا حتى ليصير كالنقطة وهو مجعد قليلا من الداخل.أما من الخارج فإنه ذو بريق ومزين بقطعة برونزية ذات بريق هى الأخرى، ويستطيع هذا الدرع أن يصد أى سهم سواء كان هذا السهم بشناقيا أو فارسيا أو من صنع الجان إذ يرتد إلى صدر راميه .

ويخيل إليّ أن هذه الأسباب هي التي دعت الإمبراطور الخبير بدروع الكلت وسهامهم إلى أنْ ينهى رجالنا عن الاهتمام بالرجال بل عليهم أن يركزوا اهتمامهم لرِمى الجياد ويقول" ارموهم بالأجنحة " إشارة إلى السهام المريشة.

كذلك كان هناك سبب آخر لرمي الجياد دون أصحابها؛ ذلك أن الكلتى إذا ترجل عن جواده أصبح التغلب عليه أمرا يسيرا ، أما إن كان على ظهره فعزيز أن يمكن قهره ويكون إذ ذاك قادرا على أن يشق طريقة حتى ولو كان عبر أسوار بابل .

ولما كان ألكسيوس يعرف ما عليه أتباعه من طبيعة مشاكسة فإنه لم يكن يرغب في المضى إلى الممرات رغم رغبته الشديدة فى محاربة بوهيموند ، ولقد أكدتُ ذلك فى فقرات كثيرة سابقة من كتابى هذا .

وكان ألكسيوس محاربا يصعب مقاومته فهو أمضى من السيف ، لا يخشى خوض المعارك، لكن الأحداث الفظيعة التي تجرى حوله الآن حالت بينه وبين ما يريد .

وبينما كان سوء الحظ يرافق بوهيمند برا وبحرا كان الإمبراطور يجلس كالمشاهد فى استعراض يرقب ما يحدث فى سهول إلليريكوم على الرغم من أنه كان مع رجاله المحاربين قلبا وروحا، فهو يشاركهم عرقهم وجهدهم، ويستدعى الضباط الواقفين بالممرات الجبلية ويحرضهم على القتال ويرشدهم إلى أجْدَى الطرق التى يهاجمون بها العدو.

وقد استطاع "مريانوس" ـ وهو القائم بحراسة الطريق الواصل من لمبارديا إلى الليريكوم ـ أن يوقف بالفعل جميع التحركات المتجهة نحو الشرق ، فلم تتمكن المراكب ثلاثية المجاديف ولا السفن التجارية الضخمة ولا القوارب ذات الصفين من المجاديف من الوصول إلى بوهيموند ، كما لم تسعفه الإمدادات المجلوبة عبر البحر والنجدات الإضافية التى حصل عليها بحرا ، ومن ثم عرف أن المعركة إنما كان يديرها الإمبراطور بمهارة ونجاح فائقين ، وكان الدليل على ذلك أنه ما من مرة خرج فيها رجاله من المعسكر من أجل مستلزمات الجيش أو انتجاع الكلأ وساقوا الجياد للشرب إلاّ هاجمهم الروم وأهلكوا الكثيرين منهم وأصبح جيش بوهيموند يقل شيئا فشيئا .

ولقد حملته كل هذه الأمور على أن يسعى فى طلب الصلح من ألكسيوس دوق دورازو ، وحدث أن واحدا من كونتات بوهيموند اسمه وليم كلاريليس Clareles وكان رجلا شريف النبعة قد دلّه حسن بصيرته على أن عسكر الكلت أوشكوا على الفناء عن بكرة أبيهم . وكان ذلك كله بسبب المجاعة التى استفحلت والطاعون الذى استشرى خطره ورمتهم به السماء فرأى حفاظا على سلامته هو نفسه أن يفر إلى الإمبراطور ففر ومعه حصانه فرحب به الإمبراطور ولما سأله ماذا يعمل بوهيموند ، وما حاله؟ أكد له ما يعانيه من ضيق بسبب الطاعون ، وذكر له البلوى الشديدة التى هو فيها ، فأنعم عليه الإمبراطور بلقب النبيل الأعظم وأغدق عليه الكثير من نعمه وحباه بعطفه .

كذلك علم الإمبراطور من خلال رسائل قريبه وسميه ألكسيوس بخبر سعى بوهيموند إلى الصلح عن طريق رسله ، ولكن لما كان الإمبراطور يشعر أنّ رهطا من خاصة رجاله لا يكفون عن تدبير ما فيه الإضرار به لتمردهم عليه بين آنٍ وآخر، بل إن البعض ممّن تربطهم به وشيجة الدم كانوا أيضًا يضايقونه أكثر مما يضايقه خصومه الأغراب ، أقول لما رأى الإمبراطور ذلك منهم عزم على ألا يحارب خصمين فى آنٍ واحد رضوخا لما تفرضه عليه الضرورة، وأدرك أن الصواب هو قبول المصالحة مع الكل وألاّ يرفض ما يعرضه بوهيموند ويبقى مواجها العدو ولكنه بعث بالكتب إلى الدوق ألكسيوس حاكم دورازو يفيد بأن يوجه إلى بوهيموند خطابا يقول له فيه: " إنك تعلم علم اليقين إننى خدعت فيك مرارا حين صدقت ايمانك وعهودك ، ولولا أن الإنجيل المقدس فرض على المسيحين أن يغفر كل منهم للآخر ذنبه لما ألقيت أذنا مصغية لاقتراحك ، ولئن أخدع خير من أنْ أسيء إلى الرب أو أخرق ناموسه المقدس ومن ثم فإنى أرفض التماسك. فإن كنت تسعى حقا للسلام وتنشده ، وإذا كنت حقا تكره الباطل وتستهجن المستحيل الذى كنت تحاوله. وإذا لم تعد تسعى إلى سفك دم النصارى حفاظا على صالح المسيحيين لا لنزوة فى نفسك، فتعال أنت بكل من شئت من أصحابك ، وليست المسافة بيننا كبيرة، وسواء أسفرت مفاوضاتنا عن اتفاق الرأى أو اختلافه فكن واثقا إنك فى كلتا الحالتين راجع إلى معسكرك سليما لا يمسك أذى ولا يصيبك أدنى ضر حسب وعدى هذا لك".

(٩)

وتسلم الإمبراطور رد بوهيموند الذى أصرّ فيه على وجوب أن يتسلم رهائن من علية القوم مع تعهده أن يقيموا فى معسكره هو ذاته لكن فى حراسة الكونتات حتى يعود هو إليهم، وإلا فإنه لن يجرؤ على الذهاب إلى الإمبراطور الذى اختار أربعة هم : مارينوس النيوبلوتانى ، وروجر الفرنجى الذى شاعت شهرة بطولته، وكان الاثنان من أذكى الناس وأعلمهم بعادات الكلت وتقاليدهم، أما ثالث رجال هذه المجموعة فقسطنطين يوفوربينوس المتسم فى عمله بالجد والمطبوع على الشجاعة، إلى جانب أنه رجل لم يخذل الإمبراطور فى أى أمر كلَّفه به. أما الرابع فشخص اسمه "أدرالستوس" Adralestos وكان يعرف اللاتينية لسان الكلت.

وانطلق هؤلاء الرجال الأربعة إلى بوهيموند يحدثونه برقيق الكلام ويحاورونه بكل حجة ويرغبونه فى الذهاب إلى ألكسيوس بمحض إرادته وإذ ذاك يستطيع أن يقول له كل ما يحتاجه منه، فإن أبدى الإمبراطور موافقته على ما قال فنعم الأمر وإلاّ عاد بوهيموند إلى معسكره سالما فى بدنه وروحه .

كانت هذه هى التعليمات التى تلقاها المبعوثون قبل الإذن لهم بالسفر ، فلما وعوها خرجوا ميممين وجوههم شطر بوهيموند الذى ما إن سمع بخبر وصولهم حتى انزعج وخاف إنْ همُ رأوا تفشى المرض فى جيشه أن يُخْبروا الإمبراطور بذلك، ومن ثم ركب فى ساعته ليقابل رسل الإمبراطور فسلموه الرسالة التى حملوها إليه ، ومفادها أن الإمبراطور لم ينس بحال من الأحوال العهود والأيمان التى قطعها بوهيموند وبقية الكونتات الذين مروا بالقسطنطينية ، وقال: " لا جدال فى أنكم قد رأيتم ما أدى إليه خرقكم هذه العهود من الضرر بكم ".

فقاطعهم بوهيموند حين سماعه ما ذكروه وقال لهم: " كفى ما قلتم عن هذا الموضوع ولكن إنْ يكن عند الإمبراطور شىء غير الذى سمعته فمرحبا به ".

فاسترسل المبعوثون قائلين: " لما كان الإمبراطور حريصا على سلامتك وسلامة الجيش الذى تقوده فإنه يعلن لك على لساننا ما يأتى وهو أنك تعرف كل المعرفة مقدار الفشل الذى ألمَّ بك فى محاولتك الاستيلاء على "دورازو " بعد أن تكبدت الخسائر الجمة فى هذا السبيل وزيادة على ذلك فإن كان يعنيك ألاَّ تُنزل بنفسك أو بمن معك الدمار الشامل فتعال إلىَّ - أنا الإمبراطور - دون أن تخشى شيئا، وعليك أن تصرح لى بجميع أهدافك ، وسوف تسمع بالتالى ردى عليها ، فإذا تطابقت وجهات نظرنا فشكرا لله وحمدا له ، أما إن تضاربت آراؤنا واختلفت فإنّى رادُّك إلى عسكرك سالما. ثم إن هناك نقطة أخرى أحب أن أوضحها لك هى أننى سوف أزود من تحت قيادتك من الراغبين فى زيارة القبر المقدس بكتاب أمان منى . أما الذين يؤثرون العودة إلى ديارهم فهم أحرار فيما يريدون، وسأردُّهم إليها محملين بالهدايا الوفيرة " .

حين سمع بوهيموند هذا الكلام أجاب بقوله: " الآن وقد أيقنت صدق هذه المشاعر الكريمة من الإمبراطور ذاته فإنى أسألكم الحصول على تأكيد تام من أنّ استقباله إياى لن يكون فيه ما يحط من قدرى بأى حال من الأحوال، وعليه أن يبعث بأدنى أقاربه للقائى على بعد ست مراحل من محل إقامته وأنْ ينهض (الإمبراطور) من على كرسيه حين أقترب من فسطاطه الإمبراطورى ، فإذا اجتزت بابه استقبلنى بالإجلال والتعظيم ، وعليه ألاَّ يشير أبدا إلى اتفاقاتنا السالفة، وألاّ أكون موضع سؤال بأية صورة من الصور، وأن يكون لى مطلق الحرية فى البقاء حيث أشاء. وزيادة على ذلك فإنى أطلب أن يأخذ الإمبراطور بيدى ويقعدنى مقعد الشرف، وأن يكون معى ضابطان من ضباطى، وأن أعفى تماما من الركوع على ركبتى، ولا أطاطئ رأسى كدليل على الاحترام والخضوع" .

أنصت المبعوثون إلى هذه المطالب فوافقوا عليها غير الطلب الذى طالب فيه أن يقوم الإمبراطور له من فوق كرسيه . وكانت حجة المبعوثين فى هذا الرفض هى أن هذا المطلب ينطوى على ما يجرح كرامة الإمبراطور ويهينه ، كما قَبِلوا أن لا يركع بوهيموند على ركبتيه أمام الإمبراطور أو يطأطئ رأسه له. لكنهم من ناحية أخرى وافقوا على أن يخرج نفر من أقارب الإمبراطور ويسيروا مسافة معقولة للقاء بوهيموند وأن يكونوا

فى معيته وهو على وشك المثول بحضرة الإمبراطور كمظهر من مظاهر الاحترام التقليدية ، كما أن باستطاعة بوهيموند الدخول بصحبة ضابطين من خاصة بطانته يلازمانه.

كذلك وافقوا على أمر كانت له أهميته الخاصة ونعنى به أنْ يأخذ الإمبراطور يده ويجلسه مجلس الشرف .

وبعد الاتفاق على هذه المسائل انسحب مبعوثو الإمبراطور إلى الموضع الذى عُيِّن لإقامتهم والذى يقوم على حراسته ضابط من كبار الضباط لمنع المبعوثين من التسلل تحت جنح الظلام لاستكشاف حالة الجيش النرمندى، إذْ لوْ عرفوا حقيقته لعومل بوهيموند معاملة فيها شىء من الازدراء .

ولما كان اليوم التالى وصل بوهيموند إلى البُقعة التى كان يفاوض فيها بالأمس صحبة المبعوثين ومعه ثلاثمائة فارس وجميع الكونتات ، وهنا تخير منهم ستة ليكونوا حاشيته التى ترافقه وخلَّف بقيتهم حيث هم فى انتظار رجوعه ، وحينذاك عاد الرسل وبوهيموند لمناقشة ما كانوا يتكلمون فيه بالأمس ، فاحتد بوهيموند فى النقاش حِدَّةً تنذر بالشر، وإذ ذاك قام أحد كونتاته واسمه هيج – وكان من أشرف القوم أصلا وأجلّهم قدرا – وخاطبه بقوله[7] : "لم يحدث لأحد منا – نحن الذين جئنا معك – أن ضرب برمحه أحدا ما ، فأرجوا أن تخلوا جانبا ما تتحدثون فيه وأقصروا كلامكم على الاهتمام بالسلام دون الحرب " . وطال الجدل بين الجانبين واشتد الغضب ببوهيموند إذ شعر بأنه عومل بما يثير استياءه الشديد لأن السفراء لم يستجيبوا لكل مطالبه وإن وافقوا على بعضها ، ثم خضع للضرورة كما يقولون فسألهم أن يتسم استقباله إياه بمظاهر الاحترام والتوقير، وأنْ يقسموا له – إذا لم يستجب الإمبراطور له – أنْ يُرَدَّ إلى معسكره محروسا آمنا، ثم جىء بالأناجيل المقدسة[8] وطلب منهم المطلب التقليدى ألاَ وهو أن يأخذ رهائن يتسلمها أخوه "جى " ليظلوا فى حمايته حتى يعود بوهيموند نفسه، فوافق المبعوثون على هذا الطلب. ثم قدموا هم أيضًا من جانبهم مطالبهم الخاصة وهى أن يقسم بالحفاظ على أرواح من عنده من الرهائن فاستجاب فتبودلت العهود بين الطرفين وجىء بالرهائن : مارينوس الباستوسى و المدعو أردابستوس

ورروجر الفرنجي وأسلموهم إلى جي سالمين معافين بناء على ما قطعوه على أنفسهم من العهد الأكيد بأنْ يكون ردهم إلى الإمبراطور بهذه الصورة سواء تم التوصل إلى أى اتفاق معه أو فشلت جهود الصلح .

(١٠)

حين كان بوهيموند على وشك الذهاب إلى الإمبراطور ومعه " يوفربينس قسطنطين كاتاكالون "أراد بوهيموند أن ينقل رجاله من هذه الناحية لشدة النتن الذى يملأ أرجاء المعسكر نظرا لطول المدة التى أقامها الجيش هنا وقال لهم[٩] إنه لا يريد أن يفعل ذلك من غير استئذانهم.

كان دأب الكلت التقلب والانتقال فى غمضة عين من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، فبينما ترى الواحد منهم يتباهى بأنه سوف يدك الأرض بمن عليها تراه هو ذاته فى اللحظة التالية مباشرة قد تضاءل وتذلل واعتراه الخوف وعفّر وجهه فى التراب، ويكون ذلك على أوضح صورة حين يواجه من هو أصلب منه عودا وأشدّ منه بأسا .

وافق الرسل على نقل المعسكر إلى بقعة لا تبعد أكثر من اثنتى عشرة مرحلة، وأضافوا إلى ذلك قولهم " إذا شئتم أن تنقلوه فسوف نأتى معكم ونطالع المكان بأنفسنا "، فلم يعارضهم أحد وسرعان ما صدرت الأوامر[١٠] إلى القائمين بحراسة الممرات بعدم مهاجمة النرمنديين أو التعرض لهم بالإساءة، كما قام يوفربينوس قسطنطين كاتاكالون مستأذنا بوهيموند أن يسمح له بزيارة دورازو فأذن له.

لم يكن فى الاستطاعة صعود الحرس فوق الأسوار بسبب حيلة ابتدعها الإمبراطور من قبل فى " دورازو " إذ كان قد أمر بصف ألواح خشبية صفا محكما على امتداد أسوار القلعة دون أن يثبت بعضها إلى بعض بالمسامير حتى إذا حاول اللاتين استعمال السلالم للوصول إلى التحصينات لم يثبت ما تحت أقدامهم فتهوى بهم الألواح ويسقطون داخل الأسوار ويسقط معهم كل شيء .

وتحدث " يوفربينوس " إلى من فى الحامية ونقل إليهم تعليمات الإمبراطور وشد عزيمتهم وملأهم ثقة بأنفسهم ، كما استفسر منهم عن الأحوال فى القلعة ثم غادرهم بعد أن اطمأن إلى كل شىء عندهم وأن أمورهم سائرة على خير حال بسبب كفاية ما تحت أيديهم من المؤن، وأنهم أصبحوا لا يكترثون قيد شعرة بخطط بوهيموند .

وعاد يوفربينوس ليجد بوهيموند قد نصب معسكره فى الناحية الجديدة التى اتفقوا عليها وإذ ذاك مضى الاثنان إلى الإمبراطور بعد أن تركا بقية الرسل مع رجال " جى " اعتمادا على الأيمان التى تم تبادلها من قبل .

ثم أرسل كاتاكالون رجلا من لدنه اسمه " مانويل " من أهل " مودينا " ليسبقه إلى الإمبراطور معلنا إليه مجىء بوهيموند، وكان مانويل من أخلص الناس للإمبراطور ومن أوفى مواليه .

وجرى الترتيب لاستقبال بوهيموند حين يصبح قريبا من الفسطاط الإمبراطورى على الصورة التى أقرُها السفراء ، لذلك فإنه ما كاد يصبح فى الداخل حتى مد الإمبراطور له يده وبعد أن قال عبارات الترحيب المألوفة من جانب الأباطرة للملوك فى مثل هذه الأحوال أجلسه على مقربة من العرش .

لقد كان منظر بوهيموند باختصار لا يشبه قط منظر أى رجل وقعت عليه العين من قبل فى العالم الرومانى : يونانيا كان أم متبربرا ، فقد أثار مرآه الإعجاب، كما كان اسمه يبعث الخوف وسأفصل هيئة هذا المتبربر .

كان بوهيموند إذا قيس بأطول رجل زاد عليه بما يقرب من ذراع وكان نحيف الوسط والكشحين ولكنه عريض المنكبين مفتول الذراعين ، ولم يكن على العموم شديد النحافة ولا كان مكتظ البنية أو لحيمها ، ولكن تناسبت كل أعضائه حتى ليمكن للفرد أنْ يقول إنه كان شبيها ببولختان Polychitan فكفَّاه شديدتا الامتلاء وهو مهيب الوقفة، وكانت رقبته متداخلة وقد يبدو للمدقق أن فيه انحناءة قليلة ولم يكن ذلك نتيجة عيب فى عظام الجزء الأسفل من عموده الفقرى بل ربما كان ذلك راجعا إلى نتوء وتشوه خلقى منذ ولادته .

وكان أبيض شاهق البياض يخالط وجهه حمرة خفيفة . كما كان بنى الشعر طويله كطول شعر غيره من المتبربرين ، أعنى أنه لم يكن يتدلى على كتفيه وليس هو بالكثيف المسترسل بل يصل إلى أذنيه فقط، ولا أستطيع أن أجزم عما إذا كانت لحيته حمراء أم غير حمراء لأنه كان يحلقها حتى تصير ذقنه ناعمة ملساء، أما عيناه فخفيفتا الزرقة.

وكان إذا تنفس من منخاريه الواسعين يسمع لتنفّسه صوت كزفرات خارجة من رئتيه، وكان فيه لمحة من الفتنة وإن طمسها ما يوحيه شكله عامة من الفزع منه .

وإذا طالعه الإنسان بوجه عام طالعته منه وحشية ترجع فى ظنى إلى هيكله الضخم وإلى نظراته، وكان إذا ضحك بَدَا كأنه يزمجر.

على هذه الصورة كان تركيبه العقلى والجسمانى فقد جمع بين الشجاعة والاستعداد للمعارك وكان تيهه ظاهرا للعيان فى كل شىء ، إلى جانب مكر يعوذ به ويلازمه على الدوام . وهو دقيق فى صياغة كلماته ، وإذا جادل اتسم كلامه بالغموض والإبهام، ولم يكن هناك من أحد يستطيع التغلب على رجل له مثل هذا التكوين سوى الإمبراطور فهو أكفأ ندٍّ له ، وقد أمكنه الظهور عليه تارة بالحظ وتارة بالبيان وثالثة بالموهبة التى حبته بها الطبيعة .

(١١)

بعد أن استعرض الإمبراطور معه أحداث الماضى فى إيجاز دقيق بَدَّل دفة الحديث إلى وجهة أخرى، وكان بوهيموند بارعا فى أن يتحاشى أية محاولة لحمله على الرد. وكان إذا أراد تغيير الأمر غيَّره ببراعة فيقول : "ما جئت لأسأل عما سلف ولا للدفاع عن نفسى وإلا قلت الكثير مما عندى خبره . أما وقد شاء الرب أنْ أصير إلى ما صرت فيه الآن، وأن يتدنى أمرى إلى هذا الحد من التدنى فانى أضع نفسى كلية بين يدى جلالتكم فيما يتعلق بالمستقبل". فيكون رد الإمبراطور عليه:

" دعنا نطرح الأمس وراء ظهورنا ونجعلــه دبْر آذاننا، واعلــم انه ينبـغي علــيك – إذا صح عزمـك على الصــلح – أن تبادر قبـل أى شيء وتعلن أنك تابع لى ، ثم عليـك بعدئذ ان تخبر ابن أختك تنكريد بـهذا الأمـر وتأمـره أن يُسلِّم إنطاكية إلى رسـلى وفق اتفاقنا الأول، وأن تحترم فى الحاضر وفى الغد كل ما يترتب على ذلك من الاتفاقيات" .

وبعد حديث طويل قال فيه كل من الطرفين ما يريد أن يقـوله تبين أن بوهـيـموند لا يزال هو بوهيــموند الذى كان من قبل لم يتـغير منـــه شيء إذ صرح بقـوله [١١] : "من المستـحيل علىَّ أن ألتـزم بمثل هذا الالتزام" . وبعـد أن فرغ الإمـبراطور من ذكر بعض مطالب أخرى معينة استأذنه بوهيموند فى المضى إلى خيمته الخاصـة وكان ذلك شرطا اشترطه على السفراء من قبل ووافقوا عليه . وعلى ذلك فقد قال له الإمبراطور: " ليس[١٢] عندى من يضمن سلامتك أحسن منى أنا نفسى "، ثم أمر قوادهُ ، بصوت عال بإعداد الخيل ليصـاحبـوه فى ذهابه إلى "ديوراز" فلمـا سـمع بوهيـمـوند مـا قـاله الإمبراطور انسحب إلى خيمـته التى نصبت له خصيصا على حدة وكانت بعيدة عن خيمة ألكسيوس بعض الشىء، ثم سألهم أن يقابل قيصرى " نقفور برينيس " الذى كان قد رقى إلى مرتبة panhypersebastos ، فجاء نقفور ولم يدخر وسعا فى بذل كل ما لديه من حيلة فى إقناعه. وكان نقفور لا يجارى فى الحديث ولا فى الحوار حتى تمكن من إقناع بوهيمند بوجـوب الاسـتـجابة لمعظم شروط الإمبـراطور ، فلمـا نجح فى هذا المسـعى أخذه ، من يده ومضى به إلى فسطاط الإمـبراطور . فلمـا كـان اليوم التـالى أقسم بوهيموند اليمين بمحض إرادته بقبول الشروط كاملة ، إيمانا منه بأن هذا هو خير السبل ، أما هذه الشروط فكانت كما أذكرها الآن:

(١٢)

" لقد قـدمت على رأس جـيشى الفـرنجى الضـخم إلى المدينة الإمـبراطورية فى طريقى من أوروبة إلى آسـيا لتـحرير القـدس وإبرام اتفـاق بينى وبين جـلالتكم الذى

اختارته العناية الإلهية إمبراطورا . غير أنّ ظروفا معينة لم تكن فى الحسبان شجبت هذا الاتفاق فأصبح غير ذى موضوع وبطلت شرعيته وذلك لتغير الظروف، ولم يعد لجلالتكم علىَّ - شَرْعا - أى التزامات ترتكز على أساس ذلك الاتفاق ، كما لم يعد هناك موضع لما تضمنه من الشروط المدونة .

" لقد شاءت العناية الإلهية أن تختاركم إمبراطورا حينما أعلنت الحرب عليك يا صاحب الجلالة ، ولقد ترتب على شجبى الشروط المتفق عليها أن سقطت التهم التى رميتمونى بها وصارت باطلة ، ولكن هأنذا أعود نادما على ما كان وأصبحت كصائد السمك الذى باغتته العاصفة فضيعته ، وتلقيت من ذلك درسا . أما الآن فقد رجعت إلى صوابى وعدت إلى رشدى وإنى وحق ذكريات الهزيمة والحروب السالفة لأرجو عقد اتفاقية أخرى مع جلالتكم وسأصبح بمقتضى شروط هذه الاتفاقية الثانية التابع الأمين الإقطاعى لجلالتكم ، وإذا جاز لى أن أقول بتعبير أدق - وأكثر وضوحا والزاما ليس فيه لبس - إنى سأكون خادمك ومولى لك ، وعليك أن تبسط علىَّ ظلِّ حمايتك ، وأن تقبلنى فصلا لك وبمقتضى هذه الشروط فى الاتفاقية الثانية التى آمل أن تظل مرعية إلى الأبد فإنى أقسم لك بكل قدِّيسى الرب سأكون الرجل الوفى دائما لجلالتكم ولولدكم المحبوب البازيليوس " جون " المعظم البورفيروجينياس " وسأكرِّس كلّ جهدى لمحاربة جميع الخارجين على سلطانكم سواء أكانوا من أهل الملة المسيحية أم أغرابا عنها وعن ديننا الذين ينعت الواحد منهم بالوثنى.

وهناك عبارة يتضمنها الاتفاق المشار إليه وقد قبلها الطرفان : جلالتكم وأنا .

أما هذه العبارة الوحيدة التى أنقلها وأتمسك بها بشدة وأعتبر كل ما عداها عبثا فهى أننى خادم وتابع لجلالتيكما. وأجدد القول إنى لن أخرقها بأىِّ حال من الأحوال أو تحت أى ظرف من الظروف ، ولن يستطيع أى تهديد أو وعيد ولا أى سبب من الأسباب أن يَجُبَّ مواد هذه الاتفاقية. ولكن لما كنت سأتسلم إقليما من الأقاليم التى فى الشرق سوف ينص عليه صراحةِ فيما بعد فى هذا الاتفاق فسوف يزكيه مرسوم عال من جلالتكم يكون ممهورا من جلالتكم بالمداد الأحمر متضمنا نسخة من هذا المرسوم فإنى سوف آخذ هذه النواحى الممنوحة لى كإقطاع من جلالتيكما .

وإن حقى فى هذه الهدية يكون مؤكدا بهذا المرسوم .

على أنى فى مقابل هذه الأراضى والمدن الواسعة أقْسِمُ أنْ يكون ولائى لجلالتيكما – أعنى لك أنت أيها الأوتوكراتور العظيم السيد السند ألكسيوس كومنين وإلى ولدك المحبوب البازيليوس يوحنا البورفيروجينيس (يوحنا الثانى) . كما أتعهد بالمحافظة على هذا الولاء سليما غير مغموز ، وراسخا لا يتزعزع كأنه المرسى الأمين . ودعنى أكرر ما قلته فى عبارات أصْرح وبيان أوضح ، وأُفْصِحُ عن شخصية الموقعين على هذا الاتفاق فأقول :

إننى أنا بوهيموند بن روبرت جيسكارد قد أبرمت هذا الاتفاق معكما ، وأقر أنى سوف أرعى هذا الاتفاق سليما غير مثلوم معَ جلالتيكما ، أعنى معك أنت يا كبير الرومان المعظم ألكسيوس ومع الباسيليوس ابنك البرفيروجينس وسأظل الفصَل المخلص لكما ما بقى فى صدْرى نفس وما دمت حيا ، وسوف أظل منتضيا سيفى ومرهفا سلاحى ضد أى خصم قد يثور على الروم وعليك وعلى أى حاكم ووال من حكام الإمبراطورية الرومان العظام ، وإذا ما أمرتنى سرت تحت لوائك بكل عسكرى ، وكنت أنا خادمك الوفى الذى لا ينكص على عقبيه ، ولا يتأخر عنك فى ساعة الشدة والحاجة إليه .

وإذا قام أى شخص – أيا كانَ هذا الشخص ـ فنازعك سلطانك وأراد بـه شرا – مالم يكن ملاكا ربانيا – فسوف أحاربه ومن معه جميعا من أجلكما يا صاحبى الجلالة .

فإن كنتُ صحيح البدن وليس هناك ما يشغلنى عن قتال المتبربرين والترك قاتلت إلى جانبك بيدىَّ هاتين ، وقاتل معى جيشى . فإنْ أقعدنى مرض ليس لى حيلة فى دفعه مما يحدث كثيرا لبنى الإنسان ، أو قامت حرب ضروس تطلبت وجودى بها فإنى أعدك بأن أرسلِ إليك الإمدادات التى أستطيعها ممثلة فيمن حولى من الرجال لسد النقص الناجم عن غيابى فإن الولاء الذى أبذله اليوم لمقامكما العظيم يقتضى أن أرعى بنود الاتفاق مراعاة دقيقة : إمَّا عن طريق جهودى الذاتية أو كما قلت عن طريق غيرى من رجالى .

وأقسم أن أكون مخلصا كل الإخلاص فى الخاص والعام لإمبراطوريتكم ، ولك عهدى وذمتى أن أحافظ على حياتك فى هذه الدنيا وهى محافظة تتطلب منى أن أكون على الدوام شاكى السلاح كأنّى تمثال صيغ من حديد ، وأزيد من يمينى ليشمل شرفكما وذاتكما الإمبراطوريّيْن فيما إذا ما تآمر خصومكم المجرمون وأرادوا أن يمسوكم بسوء حاربْتُهم وأفسدت ما دبّروا من شر .

وأقسم أيضًا أن أدافع عن كل أرض تابعة لك وعن كل مدنك صغرت هذه المدن أم كبرت ، وكذلك عن الجزر ، وبالاختصار عن كل أرض تكون لك الشرعية فيها امتدادا من بحر الأدرياتيك حتى أقصى الشرق وكذلك آسيا الكبرى الداخلة فى نطاق الأملاك الرومانية .

كما أقسم لك - والرب شاهد على ما أقوله وسامع له - ألاّ أبسط نفوذا وألا أستحوذ على أى أرض أو مدينة أو جزيرة تكون الآن - أو كانت فى الماضى - خاضعة لسلطانك ، وفى كلمة واحدة كل النواحى التى ملكتها إمبراطورية القسطنطينية أو تتملكها الآن فى الشرق والغرب على السواء ، لا أستثنى من ذلك إلا النواحى التى تفضلتم جلالتكم فمنحتمونيها : أنت أيها المتوج من قبل الرب ، وأعنى بها الجهات التى ترد أسماؤها فى هذه الوثيقة الحالية .

وإذا شاء القدر أن يمكننى من إخضاع أية أرض كانت ذات مرة تدفع الجزية لهذه الإمبراطورية وطُرد منها حكامها الحاليون فإنه يتحتم علىَّ أن أحيل موضوع حكومتها لكم لتروا رأيكم فيها وتقرروا بشأنها ما تشاءون ، فإنْ شئتم جلالتكم أن أولى أنا حكومة البلد المفتوح باعتبارى نائبا عنكم كان الأمر ملزما لى - أنا تابعكم وخادمكم الوفى - أما إن رأيتم غير هذا الرأى فسوف أسلم الناحية دون معارضة وجدال لأى شخص تختارونه جلالتكم . أيا كان هذا الشخص .

ولن أقبل أى أرض أو مدينة أو قرية يسلمها لى شخص غير شخصكم لتكون ملكا لى وكانت هذه الأرض أو المدينة أو القرية تابعة لكم فى أى وقت سابق ، كما أن كل ما يمكن الحصول عليه بحصار أو بغير حصار وكان ملكا لكم فى الماضى فإنه سيرد لكم ثانية ولن أدعى مِلْكِيّة هذه الأماكن .

كذلك لن أقبل يمين أى مسيحى أو أقطع على نفسى عهدا لأى شخص غيرك أنت ، ولن أعقد أى اتفاق إنْ كان فى هذا الاتفاق شبهة الإضرار بكم أو إنزال خسارة ما بكم أو بإمبراطوريتكم. ولن أكون أبدا تابعا لأحد سواكم ، أو لأية سلطة كبرت هذه السلطة أو صغرت من غير إذن منكم، ولا أدين بالتبعية لأيَّة سلطة إلا أن تكون سلطتكم وسلطة ولدكم المحبوب .

وإذا تودد إلىّ قوم كانوا قد خرجوا عن طاعة جلالتكم وشاءوا أن يكونوا أتباعا لى فسوف أرفض تبعيتهم ولا أتعامل معهم . وزيادة على ذلك فسوف أنتضى السلاح لقتالهم .

أما غيرهم من المتبربرين الراغبين الآن فى الخضوع لسلطانى الحربى فسوف أقبلهم لا كأتْباعٍ لى أنا بل سوف أحملهم على قطع اليمين لكم ولولدكم المحبوب الغالى وليس لى أنا ، وسوف أتسلم أراضيهم باسم جلالتكم ونيابة عنكم ، ومن ثم فإن أى تعليمات تقضى أنت بها تجاههم سوف أنفذها دون أى معارضة منى. وتسرى هذه العهود على جميع المدن والأقطار التى يحدث أن تكون تحت شرعية الحكم الرومانى . أما الأماكن التى لم تكن حتى ذلك الوقت داخلة فى دائرة الخضوع للنفوذ الرومانى فإنى أُؤدِّى إزاءها هذه العهود التالية مؤكِّدةً بالقسم : ألاَ وهو أن جميع تلك الأراضى التى تئول إلى إشرافى بالحرب أو من غير حرب سوف أعتبرها قد آلت إلىَّ من جلالتكم سواء أكانت هذه الأراضى تركية أو أرمنية أو كما نقول فى لغتنا سواء أكانت هذه أرض كفر أم أرضا تدين بالمسيحية فإن شعوب هذه الأمم التى تسعى إلىَّ وتسعى لأن تكون تابعة لى فإنى أقبلها على شرط واحد هو أن يصبح أصحابها أتباعا لجلالتكم أيضاً .

ويسرى اتفاقى هذا على سلطتهم الحاكمة . ونؤكد هذا الأمر بالقَسَم .

أما فيما يتعلق بأولئك الرجال الذين ترون جلالتكم (المعظم على الدوام) أن يكونوا تابعين لكم فإنهم يصبحون تابعين لى . أما أولئك الذين يريدون أن تضيفوهم إلى حكمكم فإنى سوف أحيلهم إليكم إن هم قبلوا ذلك برضاء تام من جانبهم . أما إذا لم يقبلوا الدخول فى طاعتكم ورفضوا أن تكون لكم السيادة عليهم فإنى لن أقبلهم .

أما فيما يتعلق بتنكريد ابن أختى فإنى سوف أثيرها عليه حربا لا هوادة فيها إن لم يذعن لجلالتكم ويبرأ من عدائه لكم ، وكذلك إن لم يرفع قبضته عن المدن التى هى ملك لكم. وحينما تتحرر هذه المدن - إن طوعا أو كرها - من سلطانه فإنى أنا بوهيموند أصبح سيد هذه الأماكن الممنوحة لى بمقتضى المرسوم العالى وهى الأماكن التى يرد تفصيلها بعد قليل وهذه المدن - بما فيها اللاذقية - فى بلاد الشام التى ليست داخلة فى عداد هذه النواحى فإنها تكون ملحقة بمملكتكم، ولن أسمح تحت أى ظرف من الظروف أنْ أتلقى الفارين من إمبراطوريتكم ولكنى سوف أحملهم على الرجوع إلى جلالتكم .

وبالإضافة إلى العهود المذكورة آنفا فإنى سوف أقدم تعهدات أخرى لدعم الاتفاق وآخذ على عاتقى تأكيد هذه الشروط حتى تظل إلى الأبد مرعية غير منْقوصة وحتى يتمسك بها الرجال الذين سوف يتولون الأمر نيابة عنى فى النواحى التى تفضلتم جلالتكم بمنحى إياها وفى المدن والمراكز الحصينة التى سوف ترد أسماؤها فيما بعد .

وسأعمل على أن يقسموا الأيمان الغليظة بالمحافظة تمام المحافظة على عهودهم مع حكومتكم فى كل ما يتعلق بالقانون الرومانى، وأن يراعوا مراعاة دقيقة كل الشروط الواردة كتابة هنا ، وسأجعلهم يقسمون أغلظ الأيمان بأن يحافظوا هم أيضا على عهدهم بالولاء لإمبراطوريتكم والحفاظ على جميع الأراضى التى يسرى فيها القانون الرومانى، فإن لم يفعلوا حق عليهم غضب الرب إن هم تآمروا ضد جلالتكم ، فإن قبلوا ذلك فلن يذهب ما فعلوا أدراج الرياح بفضل عدالة السماء وبفضل المخلص .

وسوف يحاولون - بكل وسيلة يستطيعونها مدة أربعين يوما - أن يردونى عَمَّا آمنت به وفعلته من الوفاء لجلالتكم .

ولو حدث منى هذا الأمر - وهو ما لن يحدث أبداً إلا أن يكون بى مس من الجنون أو البله يخرجنى عن صوابى - فعليهم أن ينقلوا ولاءهم لخدمتكم ، كما تسترد من أيديهم جميع الأراضى التى يتولون حكمها باسمى وتنتقل إلى حكمكم . وسوف يكونون ملزمين بفعل هذه الأشياء، كما أنهم بناء على اليمين التى سوف يقسمونها يكون عليهم الالتزام بنفس الولاء وأداء اليمين والخدمة الصادقة إليك حسبما وعدت أنا .

وعليهم أن يمتشقوا السلاح حفاظا على حياتكم حتى لا يقاسوا الهول على يد أحد من الأعداء . وإني لأقسم على كل هذا وأشْهِدُ الله والناس والملائكة أني سوف ألزمهم بالأيمان الغليظة على عَمَلِ ذلك ، وسوف أحملهم على قبول نفس الشروط ، مؤكدين ذلك باليمين كما فعلت أنا فيما يتعلق بحصونك وقلاعك ومدنك وأراضيك ، وبالاختصار تجاه جميع الولايات التى هى ملك يمين جلالتكم فى الشرق والغرب على السواء ، وسوف يلتزمون بكل هذه الأشياء طوال حياتي وبعد موتي ، وسوف يكونون رعايا إمبراطوريتكم المخلصين فى خدمتها تمام الإخلاص، وسوف يلتزم جميع الذين معي بقطع يمين التبعية والولاء لجلالتكم أيها الأوجستوس العظيم ألكسيوس المبجل يا كبير الرومان . وكذلك لابنك الباسيليوس جون ولنائبك رفيع القدر إسحاق.

كما يتحتم على جميع فرساني وقوادي : الحاضر منهم والغائب أن يعطوا اليمين بين يَدَيْ من ترسلونه جلالتكم إلى مدينة إنطاكية ويكون قطعهم هذه اليمين بالصورة التى يقترحها رسولكم، كما أحثهم أنا على أن يقسموا على التمسك بها والموافقة على نفس الشروط دون تغيير أو تبديل فيها . وزيادة على ذلك فإني أوافق وأقسم أنه إذا كانت رغبة جلالتكم أن أحمل السلاح وأشن حربا على أولئك الذين يحتلون المدن والأراضى التى كانت من قبل خاضعة لإمبراطورية القسطنطينية فإني سوف أفعل ذلك وأحمل سلاحي ضدهم .

وإذا لم تكن جلالتكم تريدونني أن أحاربهم فلن أزْحف عليهم لأن غرضنا فى جميع الأحوال هو أن نؤيد سلطانكم ، وألاّ نقوم بأى عمل من الأعمال من غير رضاكم ، وألا ننهج سياسة إلا التى ترضونها، ولن أعترض طريق الشرقيين (المسلمين) أبناء اسماعيل الذين يكثرون فى أرجاء إمبراطوريتكم إذا ما وفدوا عليكم للانضمام إليكم ولتسليمكم المدن، كما لن أحاول قتالهم والتغلب عليهم ما لم يظهر أن أرضهم أصبحت خطرا يهدد الإمبراطورية مما يتطلب تأمين هذه النواحي بإخضاعهم لكم ، وإذ ذاك يقوم جندى بالضغط عليهم وتعقبهم فى كل مكان حتى يلجئوا إليكم طلبا للسلامة .

أما الذين[١٣] يتجهون إليكم لنجْدَتهم من المقاتلين الفرنجة ودفعا للموت القريب منهم فلا يحق أسْرُهم، وزيادة على ذلك فإني أوافق على أن يقوم جميع جند لمبارديا

الراغبين فى خدمة جلالتكم بأخْذ يمين الولاء لك على أنفسهم ، وهى يمين سوف يُمْليها عليهم واحد من رجال إمبراطوريتكم ترسله أنت بنفسك لهذا الغرض ، فإنْ رفضوا القسم فلن يسمح لهم بأى حال من الأحوال بالعبور وذلك بسبب عدائهم لسياستنا المشتركة .

أما عن الأراضى التى تفضلت فمنحتها لى - أنت أيها المعظم المختار من قبل الرب - والتى تضمنها مرسومكم العالى فمن الضرورى أن تتضمنها الوثيقة الحالية ويكون تحديدها على النحو التالى :

مدينة إنطاكية الواقعة فى سوريا الوسطى بتحصيناتها وملحقاتها بالإضافة إلى السويدية المطلة على البحر ثم " دوكس " بكل ملحقاتها مع قلعتى كاوكا Kaoka ولولو Loulou وقلعة الجبل الرائع، و " فرسيا " phersia بكل أراضيها، وأقليم سنت إيليا الحربى والقرى الصغيرة التابعة له، وجميع الأراضى المجاورة للإقليم الحربى الذى يسميه الإغريق لاريسكا، وكذلك أرتاح وتولش Telouch، بقلاعهما بالإضافة إلى germanincia والقرى الصغيرة التابعة لها وكذلك جبل " ماوروس " Mauros وجميع ما يتبعه من القلاع ، وكذلك كل السهل الواقع عند سفحه لا يستثنى من ذلك بطبيعة الحال سوى إقليم " ليوالروبينى" و " تيودورس" الروبينى الأرمينيين اللذين صارا فصلين لك.

وإضافة إلى الأقاليم المذكورة من قبل فهناك إقليم بفراس الحربى ، وإقليم بالاتزا الحربى وولاية " زوم" Zoume وما يتبعها من قرى ودساكر وذلك لأن مرسوم جلالتكم العالى تضمن كل هذه النواحى ، فأقرُّ منحها لى إلى آخر يوم من عمرى بفضل من الله ، فإذا أنا رحلت عن هذه الدنيا آلت هذه كلها حتما إلى إمبراطورية رومة الجليلة وملكة المدن قاطبة ، وهى القسطنطينية على شرط أن أحافظ على بقاء يمينى سليمة، وأن أظل على ولائى لحاكم القسطنطينية ممثلا فى جلالتكم المعظم على الدوام ، وأن أكون خادم العرش والصولجان الإمبراطورى وفصلا تابعا لكم .

وإننى أوافق وأقسم بالرب المعبود فى كنيسة إنطاكية ألاّ يكون بطرك هذه المدينة من بنى جنسنا ولكنه يكون رجلا تختاره جلالتكم بنفسكم ، كما يكون واحدا من رجال

مذهب الكنيسة العظمى في القسطنطينية لأنه لابد أنْ يشغل هذا المنصب في المستقبل رجل كهذا الرجل الهام ويكون رئيسَ الأساقفة وله السيطرة على جميع شئون الكنيسة الأخرى وذلك تبعا لامتيازات هذه الكاتدرائية .

كذلك فإن هناك أجزاء معينة تستردونها جلالتكم متى شئتم من يد دوق إنطاكية وتصبح كلها ملك يمينكم وهى كالآتى:

ولاية "بندانتون "ومدن طرسوس العسكرية وأدنّة المصيصة وبالاختصار كل ولاية كيليكيا التى يحدها "كيدنوس" Cydnus وهرمون Hermon وكذلك إقليم "بلنكوس" Balancus ومراكس Marakeus وأنطرسوس .

وهذه هى الأماكن التى نزعتها جلالتكم من دوق إنطاكية وجعلتها تحت مظلة نفوذكم وإنى لسعيد بالاثنين معا أعنى بالتنازل والضم على السواء.

وسوف أتمسك أشد التمسك بالحقوق والامتيازات التى منحتنيها ، ولكنى لن أطالب بما لم أتسلمه ولن أجتاز الحدود ولكنى سوف أبقى فى الأراضى التى لى، وسأظل أحكمها وأتصرف فيها كيف شئت طالما أنا حى.

أما بعد وفاتى (وقد نص على هذا الشرط أيضًا كتابة) فتعود هذه النواحى إلى حكوماتها التى انتقلت منها إلى يدى، وسوف يراعى هذا الأمر بإصدار التعليمات إلى وُلاتى ورجالى أن يسلموا كل الأراضى التى هى موضوع البحث إلى السلطات الرومانية دون أية معارضة، وسأجعل هذه التعليمات هى وصيتى الأخيرة.

وإنى أقسم على هذا وأُصادق على هذا البند من الاتفاقية فى تنفيذه دون تريث أو تأخير أو مجادلة، ولما كانت حكومتكم قد انتزعت بلادا من سيطرة دوق إنطاكية فإنى - شخصيا - قدمت التماسا عاجلاً إلى جلالتكم للتعويض عما انتزعتموه وقد زكّى الحجاج(١٤) هذا الالتماس ووافقتم أن يتضمن التعويض بعض ولايات وأراض ومدن معينة فى الشرق ولذلك فإنه يجب النص بالاسم على هذه الأماكن حتى لا يكون هناك لبس ولا إبهام فيها ، وحتى يكون ما أملكه مؤكدا.

أما هذه الأماكن فهى ولاية "كاسيوتس" الإدارية وعاصمتها "بيرويا" التى يسميها المتبربرون "شالب" Chalep وولاية "لابرا" الإدارية وما يتبعها من المدن الصغيرة الملحقة بها وهى "بلاستا" Plasta وقلعة "خونيوس" و"رومينا" Roumaina وقلعة "أراميسوس" Aramisos وبلدة "أميرا" الصغيرة وقلعة "سبرانوس" Sabranos وحصن "تلخامبون" ومجموعة "تيليا" Tilia الثلاثية التى تشمل "ستابوليتن" وقلعة "سجينين" Sgenin وقلعة "كاتزيرين" Katzierin ، بالإضافة إلى النواحى الصغيرة التالية : "كوميرموكث" والإقليم المسمى كاثاسماتن ، وسرسابين Sarsapin ، وقرية مكران الصغيرة. وجميع هذه الولايات واقعة فى سورية الغربية.

أما الأقاليم الإدارية الأخرى فهى ميسوبوتيما المجاورة للرها والتى تشمل إقليمى "ليمنى" و"ايتوس" بالإضافة إلى ما فيها من الأماكن الحصينة.

وهناك أماكن أخرى لا يمكن التجاوز عن ذكرها حين ذِكْر الرها والمبلغ النقدى المدفوع لى سنويا بواسطة جلالتكم، وأقصد بذلك مبلغ المائتى جنيه وهى العملة المرسوم عليها صورة الملك ميخائيل. وزيادة على ذلك المبلغ- وبناء على مرسوم جلالتكم الذهبى السامى - فقد انتهت إلىَّ دوقية (الرها) بكل توابعها وبجميع القلاع والأراضى الملحقة بها. ولم تقتصر هذه الوثيقة على أن تجعلنى صاحب السلطة بل خوَّلتنى أيضًا الحق فى أن أوصى بها لمن أريده ، على أن يكون مفهومها بطبيعة الحال أن يكون هذا الشخص طائعا لأوامر جلالتكم ، ملبيا لرغباتكم ، تابعا للإمبراطورية، وأن يقبل هو الآخر أيضًا وبمحض إرادته نفس الاتفاق مثلما قبلته أنا تماما.

ولما كنت أنا قد أصبحت من الآن وعلى الدوام رجلك وواحدا من رعيتك فقد صار من حقى أن أتناول من الخزينة الإمبراطورية مائتى قطعة من العملة الصحيحة المشخصة التى عليها صورة ميخائيل المعظم الإمبراطور الجليل السابق، ويتسلم هذا المبلغ واحد من طرفنا يأتى من الشام وأزَوِّدُهُ برسائل منى إليك فى المدينة الملكية ، ويكون هو المخول بحمل هذه النقود. كما أنك يا صاحب الجلالة الموقر والملقب دائما بـ "سيباستوس الإمبراطورية الرومانية وأوجستها "سوف تراعى من غير شك الشروط الواردة فى مرسوم جلالتكم الذهبى السامى هذا وتلتزم بحرفيتها.

أما من ناحيتى أنا فإنى أقسم لك اليمين التالية تأكيدا للاتفاق الذى أبرمته معك وهو:

أقسم بما تحمله السيد المسيح مخلصنا منذ العشاء الأخير الذى لم يعد يتألم بعده ، وأقسم بصليبه الذى له الغلبة على الدوام، الذى حمله لخلاص الناس أجمعين. وأقسم بالأناجيل المقدسة الموضوعة أمامنا التى كانت هداية للعالم. وأقسم ويدى على هذه الأناجيل وأنا بكامل قواى العقلية رابطا بينها وبين الصليب المعظم.

وأقسم بإكليل الشوك والمسامير(!!) وبالحربة التى اخترقت صدر سيدنا واهب الحياة للناس.

وأقسم لك بكل هذه الأشياء أنت يا مولاى الإمبراطور ألكسيوس كومنين... أنت يا من هو أقوى الخلق قاطبة وأعظمهم مكانة واحتراما.

وأقسم أنّى سوف أحافظ المحافظة التامة على جميع الاتفاقات المبرمة بيننا والتى أكدتها أنا شفهيا.

وأقسم أن أساعد سدّتكم الإمبراطورية فى الحاضر والمستقبل وألاَّ أغدر ولا أخون بل لن يخطر الغدر أو الخيانة على بالى، ولن أشجب بأية حال من الأحوال ولا تحت أى ظرف من الظروف يمينى التى أقسمتها لك أنى سأظل محافظا على عهودى لك ولن أسمح لأية محاولة أن تدفعنى إلى الإخلال بمسئولياتى تجاه هذا الاتفاق.

ولن يقتصر تأييد هذا العهد علىَّ أنا وحدى بل سيشمل جميع من معى ومن هم تحت سلطانى ومن يتألف منهم جيشى.

وزيادة على ذلك فإننا سوف نحمل السلاح ضد أعدائك.

وسنمد يمنانا إلى أصدقائك.

وسوف أعمل - فكرا وواقعا - كل شىء ينطوى على مساعدة إمبراطورية الروم وتمجيدهم حتى يكون الرب والصليب والأناجيل المقدسة فى عونى".

كتبت هذه الكلمات وصودق عليها بحضور الشهود الواردة أسماؤهم فيما يلى وذلك فى شهر سبتمبر من سنة ٦٦١٧ / [١١٠٩م] . وها هى أسماء الشهود الحاضرين ساعة توقيع هذه الوثيقة وختموها:

ماوروس الأمالفى وريتشارد التارينتى أسقفا الرب المعظم ومن معهما من رجال الدين، والرئيس الموقر كل التوقير "سنت أندروز" اللمباردى من جزيرة برنديزى.

اثنان من رهبان ديرهما.

قواد الحجاج الذين وضعوا أسماءهم بأيديهم والذين دونت أسماؤهم إلى جوار هذه الملاحظات بخط يد أسقف أمالفى حبيب الرب وهو الذى وفد كنائب[١٥] من البابا [إلى الإمبراطور] الذى عُرف فيما بعد باسم بسكال الثانى.

ووقَّع هذه الوثيقة من البلاط الإمبراطورى كل من:

سباستوس ماريانوس.

وروبرت بن داجوبيرت.

وبطرس أوليفاس.

ووليم الذى هو من "جاند".

وريتشارد البرسبانى.

وجوفرى الذى هو من "ميلليى".

وهوبيرت راءول.

وبولس الرومانى.

كما وقَّعها السفراء الذين جاءوا من داكيا[١٦] وكذلك ولى العهد جون، والزوبان بيريس والزوبان سيمون وسفيرا ريتشارد سنسكارد، وإلى جانبهما أشرف الشرفاء بازيل الخصى وقسطنطين كاتب العدل.

وقد أثبت هذا القسم كتابة قَبِلَه ألكسيوس وقد تسلمه من بوهيموند وأعطاه إزاءه المرسوم الذهبى المشار إليه سابقا والذى ووقَّعه الإمبراطور نفسه بيمينه بالمداد الأحمر جريا على العادة.

الحواشى

(١) يرجح سوتير أن يكون هيج هذا هو " هيج سنت بول " الذى كان من أكبر قواد بوهيموند.

(٢) يطابق هذا المثل العربى القائل: كالمستجير من الرمضاء بالنار.

(٣) يلى هذا الكلام فراغ فى الأصل.

(٤) أوضحت نسخة إليزابيث - كما سيأتى فى بضعة اسطر - أن هذه الرسالة كانت موجهة إلى الإمبراطور.

(٥) عبارة "الوصول إلى دورازو" واردة فى إليزابيث فقط.

(٦) حددت نسخة إليزابيث وجهة فرارهم فذكرت أنهم يودون الفرار إلى بوهيموند.

(٧) أثرتُ ترجمة إليزابيث لأن نسخة سوتير تتسم بالإبهام والغموض.

(٨) بعدها فى إليزابيث: " ووضعت على المائدة ".

(٩) لم تحدد المؤلفة بالدقة مَن هم الذين أخبرهم بوهيموند أنه لا يجب الإقدام على نقل المعسكر من غير مشورته . هل تراهم بعض رجاله أم السفراء ؟ على أنها تنص بعد قليل على أن السفراء وافقوا مما يستفاد منه أنه كان يشاورهم فى نقل المعسكر ، فهل لهذا الأمر ارتباط بما تقوله المؤلفة من تقلب الزمن من أقصىَ اليمين إلى أقصى الشمال ؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به !! ثم إن نسخة إليزابيث تقول بعد ذلك إن السفراء لم يسمحوا له بنقل المعسكر أكثر من اثنتى عشرة مرحلة وقالوا له : " إن شئت نقله فسوف نحضر معك ونختبر المكان " فوافق بوهيموند على ما طلبوه .

(١٠) فى نسخة إليزابيث: "الأوامر المكتوبة ".

(١١) فى إليزابيث: " من المستحيل علىَّ أن أتعهد بأى من هذه العهود ".

(١٢) أى الإمبراطور ألكسيوس الأول وولده يوحنا الثانى.

(١٣) فراغ فى الترجمتين الإنجليزيتين.

(١٤) المقصود بهم المحاربون الصليبيون القادمون مع الحملة التى تم لها فتح أنطاكية.

(١٥) النائب عن البابا بسكال.

(١٦) تقصد المؤلفة بداكيا : المجر.

الكتاب الرابع عشر

الترك والفرنجة والكومان والمانويون

(١١٠٨ - ١١١٥)

فقرات الكتاب الرابع عشر

١- بوهيمند يستأذن ليعود إلى وطنه - موته بعد ستة أشهر. الإمبراطور يعين يومسيوس فيلوكالس للتعامل مع أزمير ويعيدها إلى رفاهيتها القديمة. قوة الروم بعد انتصارهم على الترك. تحطيم قوة الترك .

٢- سيطرة تنكريد على أنطاكية ، سخرية تنكريد بمبعوث الإمبراطور. إرسال بوتيميتوس إلى الكونتات فى مؤامرة سرية. فشل محاولة بلدوين فى الاستيلاء على صور .

٣ - ألكسيوس يتأهب للحرب فى جبهتين . ملكشاه يعرض شروط صلح . إمضاء اتفاقية السلام.

٤ - هجوم تركى جديد . موقف الإمبراطور. طبيعة الكلت.

٥ - الإمبراطور يخرج للحرب ضد الترك رغم مرضه. شجاعة كاماتزيس وانتصار الروم.

٦ - نجاة كاماتزيس من أيدى العدو وإخباره عن متاعبه فى القسطنطينية.

٧ - أنا كومنينا تستعرض انتصارات العهد وهزائمه وتعلن حيادها . مصادرها فى الألكسياد كتاريخ صادق . أعمال الإمبراطور فى زمن السلم .

٨ - الكومان يعبرون " إيستر " . وجود الإمبراطور فى فيلبوبولس . كلمة عن تاريخ هذا المكان . المانويون و البلوكان والحوارى الثالث عشر يهدى العدو .

٩ - ألكسيوس يزحف إلى فيدين ولكن العدو يعبر الدانوب . نجاته من متعقبيه ومحاولاته هداية المانويين إلى الأرثوذكسية . عودة ألكسيوس إلى بيزنطة .

(١)

حقق الإمبراطور هدفه الذى كان يسعى إليه ، فقد أكّد بوهيموند بالقسم الاتفاق المكتوب بينهما الذى أوردتُه من قبل ، وأقسم من جانبه بالكتب المقدسة الموضوعة أمامه وبالطعنة الآثمة التى طُعن بها مخلّصنا فى جنبه .

ولما سلم (بوهيموند) جميع قواته إلى الإمبراطور لتكون تحت قيادته يوجّهها كيفما شاء استأذنه فى العودة إلى دياره ، كما التمس منه فى الوقت ذاته أن يسمح لرجاله بقضاء فصل الشتاء داخل الإمبراطورية الرومانية ، وسأله أن يسخو فى تزويدهم بكل ما هم فى حاجة ماسة إليه من ضرورات العيش ، فلما انقضى الشتاء واستردوا عافيتهم بعد المشاق الجمة التى عانوها أذنَ لهم الإمبراطور بالمضى إلى حَيث يشاءون ، كما أذن لصاحبهم بالانصراف من لدنه بعد أنْ خلع عليه لقب "سيباستوس" وأغدق عليه بالمال الجم، وإذ ذاك انفلت عائدا إلى معسكره ، وصحبه فى هذه العودة اليوفربنوس " قسطنطين " الملقب بكاتاكالون الذى كان مكلفا بمنع أية مضرة قد يحاول أحد من عسكرنا إلحاقها بجيش بوهيموند فى أثناء رجوعه ، كما عهد ألكسيوس إلى كاتاكالون بمهمة أخرى خطيرة هى أن يجعل معسكر بوهيموند فى موضع نزهٍ أمين ، وأنْ يستجيب لمطالب رجاله المعقولة ، وحين وصل بوهيموند إلى مقر قيادته أسلم قواته إلى ضباط أرسلهم ألكسيوس من أجل هذا الغرض . أما هو فقد ركب سفينة أبحرت به إلى لمبارديا ، لكنه ما لبث أن مات بعد ستة أشهر .

على أنّ الإمبراطور كان لا يزال مشغول البال من ناحية الكلت انشغالا كبيرا منعه من الرجوع إلى بيزنطة إلاّ بعد أن اطمأن إلى أنّ الأمور قد استقرت على خير وجه ، ومع ذلك فإنّ عودته لم تتح له فرصة الراحة بسبب أنه حين تأمل ما أنزله المتبربرون من الدمار الكامل بمنطقة أزمير الساحلية وتحويلهم إياها - حتى أتاليا -

إلى خرائب رأى أن ما يشينه : هو عجزه عن إعادة هذه النواحي والمدن إلى وضعها السابق وإلى ما كانت تنعم به من رفاهية ورخاء ، وأدرك أن الواجب يفرض عليه أنْ يعيد إلى هذه النواحي سكانها الذين هجروها وفرّوا على وجوهم هنا وهناك .

كذلك لم يكن مصير " أتاليا " بعيدا عن تفكيره فكرس معظم جهوده لحل مشكلاتها، فجاءه يوماتيوس (فيلوكالس) ملحًا عليه أنْ ينصبه واليا عليها .

كان يوماتيوس هذا على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، وكان له من كرم أصْله ما بوّأه المكانة الرفيعة بين النابهين من قومه ، بالإضافة إلى تفوقه عليهم جميعا بذكائه الحاد الوقاد ، كما أنّ سخاء يده وشهامته جعلتاه من أشد الناس إخلاصًا للرب ولأصدقائه ومن أعظم القوم رعاية لأمورهم . وكان بارعًا فى نصب الكمائن والمكر بالعدو ، ورائعا فى تدبير الحِيَل التى يحتال بها على خصومه ، ولما كان الإمبراطور يدْرك فيه مواهبهُ الجمة وذكاءه الطبيعي وكيف يأتى الأمور من أبوابها فقد استجاب إلى طلبه فولاه ما أراد، وزوّده بالعسكر اللازم ولم يبخل عليه بالنصيحة المجدية ، كما أوصاه بأن يأخذ الحذر الشديد فى كل ما يقوم به.

كذلك كان هناك سبب آخر يزكى ثقة ألكسيوس فيه هو ما يقال عنه من أنه لا يقدم على عمل من الأعمال إلاّ لازمه حسن الطالع وحالفه السعد ، كما شاع بين الناس جميعا أن الحظ لم يَخُنْه أبدا وأنه يسير معه حيث سار ، وأن الفشل لم يعرف طريقه إليه فى أى أمر قام به ، وما كاد يصل إلى " أبيدوس " بعد أنْ عيّنه ألكسيوس على أتاليا – حتى بادر فركب البحر إلى مدينة " أدراميتيوم" Adramyttium التى كانت فى أمْسِها الدابر مكتظة بالسكان، عامرة بقاطنيها لكنها أقفرت اليوم منهم وأصبحت خاوية وأطلالا منذ أن اجتاح " تزاخاس " منطقة أزمير.

ولقد تسنى ليوماتيوس أنْ يشاهد بعينى رأسه ما حاق بالناحية منْ دمار بالغ حتى ليخيل لرائيها كأنْ لم تَغْن بالأمس ولم يعمرها أحد ، فشرع هو فى لحظته يعمل على إعادتها إلى سابق عهدها حتى استردّت مظهرها السالف، وتوافد عليها جميع من

بقي حيا من سكانها الأصليين الذين شُرِّدوا فى شتى النواحى فعادوا إليها ، وجاء معهم أغراب كثيرون استقدمهم "يوماتيوس" كمهاجرين فاستوطنوها فعاد إلى "أدراميتيوم" بهاؤها السالف المندثر .

ثم راح يوماتيوس فيلوكالِسْ يستقصى الخبر عن الترك (السلاجقة) فلما تبين له أنهم كانوا إبان هذه الحقبة فى " لامب" Lampe جرد بعض قواته لمناوشتهم القتال، فأحرز الرومُ النصرَ فى المعركة الضارية التى دارت رحاها بين الجانبين ، وفتك رجاله بالترك (السلاجقة) فتكا ذريعا إذْ كانوا يلقون بأطفال السلاجقة المولودين حديثا فى مراجل الماء المغلى ، كما أعملوا القتل فى كثير ممن بقى من خصومهم على قيد الحياة ، فأما الذين نجوا من الهلاك فقد اتشحوا بالسواد مؤملين أن يحرك هذا السواد قلوب بنى جنسهم فيعطفون عليهم ويحزنون على ما أصابهم ، وراحوا يجوبون كل الأقاليم التى يسكنها بنو جلدتهم يندبونهم ويقصّون نبأ الأهوال التى عصفت بهم ، فحركت ثيابهم السوداء قلوب الترك (السلاجقة) قاطبة وأخذتهم الشفقة عليهم والرحمة بهم مما دفعهم للانتقام لهم.

كان " يوماتيوس " قد وصل فى ذلك الوقت إلى " فيلادلفيا" وقد اهتز عطفاه تيها بما أحرزته خطته من نجاح ، وكان الوالى فى ذلك الوقت علَى " كبادوكيا " يُعرف بحسن الذى كان يسلك مع أهلها مسلك السيد مع عبيدٍ اشتراهم من ماله ، فلما سمع بالخَطْب الفادح الذى نزل بالترك السلاجقة الذين أشرتُ إليهم تحرك فحشد قواته وأرسل فى طلب المزيد من نواح أخرى حتى بلغ مَنْ تجمع من العسكر تحت يده أربعة وعشرين ألف محارب فزحف بهم لقتال "يوماتْيوس" الذى كان كما قلت رجلا نكيا فلم يبق ساكنا فى فيلادلفيا ولم يتوان عن العمل فلم يكتف بالبقاء وراء أسوار المدينة، بل راح يرسل الكشافة إلى مختلف الأصقاع ، وعيَّن مراقبين لهم حتى لا يركنوا للتراخى ، وهكذا أبقاهم " يوماتيوس" أيقاظا متأهبين للخطر الذى قد يباغتهم من أية ناحية قد لا يدرونها ، فلم يقصروا فى الحفاظ على الطرق والسهول والشعاب والمسالك وبالغوا فى حراستها . وتسنى لواحد من كشافتهم أنْ يلمح جيش الترك (السلاجقة) من مسافة بعيدة فخفّ مسرعا لينقل خبر ما رأى إلى " يوماتيوس" الذى سرعان ما سلك الطريق

الصّحيح الذى أملّته عليه حصافته كجنـدى ، واستـعد للقيـام بالإجـراءات العاجلـة فى لحظته. ولما كان يعرف قلة من تحت يده من العسكر فى هذه الآونة فإنه سرعان ما أمـر بتـأمين منافـذ المدينة وأبوابها ، كمـا أمـر بمنع أى شـخص تحت أى ظرف من الظروف من ارتقاء أسوار القلعة ، وفرض الصمت المطبق على المدينة فسادها سكون كسكون القبور ، ومنع النفخ بالناى واللعب بالقيثار ، ومختصر القول أنه أراد ألاّ يمُرّ أحـد من هنا إلاّ ويخـيل إليـه أنْ قـد هـجـر المكانَ أهلوه. ووصل "حـسن" إذْ ذاك إلى "فيلادلفيا" وأحدق بأسوارها عسكرُه ثلاثة أيام فلما لم ير أحدا على الأسوار ، وشاهد أبواب المدينة مغلقة ، ولم يبصـر أثرا لأحـد من الناس ولا آلات الرمى بالمنجنيق ذهب الظن به إلى أن جيش "يوماتيوس" ليْس بالجيش الذى يُعْتَدُّ به أو يحسب له حساب بل تعوزه الجرأة ليقوم بطلعة تفقُّدِيَّة . لذلك فكر فى خطة أخرى حمله عليها ازدراؤه لجيش خصمه واستهانته الشديدة به ، فقسم عسكره عدة أقسام أرسل واحدا منها - قوامه عشـرة آلاف رجل - ضـد " كلبيـانوس" Kelbianus وبعث قـسمـا آخر لمهاجمة أزمـير و"نيـمـفـايون" Nymphaeon وتقـدم بعض العـسكر شطر " خليـارا" ، وبعـضـهم نحـو "بيرجامون " وأطلقهم جميعا ينهبون ما شاءوا ويسلبون كل ما يصادفهم ، ثم انضم هو إلى التجـريدة الزاحفة فى الطريق المؤدّى إلى أزميـر ، فما كاد " يومـاتيوس فيلوكاليس " يتبين خطة " حسن " حتى قذف بعسكره أجمعين فى هجمة موحدة ضد الترك ، وقام الروم من جانبهم بمهاجمة الطائفة من جيش "حسن" التى كانت تسير بلا مبالاة والتى كانت تقصـد " كلبيـانوس" والتـحموا بها وهاجمـوها هـجوما عنيفا عند طلوع النهار ، وأعملوا الذبح فى رجالها ولم تأخذهم بـهم رحمة ولا شـفقة ، وأطلقوا سراح جـميع الأسـرى الذين كان التـرك يحتـجزونهم، ولم يكتـفوا بذلك بل راحـوا يطاردون الطائفة الأخرى المتجهة إلَى أزمير و " نيمفايون" فجرى بعضهم أمام المقدمة واشتبكوا فى قتال معهم على كلا الجانبين وأحرزوا النصر التام، ولقى الكثيرون من الترك مصارعهم ووقع العـديد منهم فى الأسـر . أمـا الشـرذمـة القليلون الذين نجـوا من هذا ومن ذاك فـقـد سقطوا فى أثناء فرارهم فى مياه نهر " ماكندر" macender فابتلعتهم أمواجه الهادرة ، وأمدّ هذا النصر الجديد الروم بالثقة بأنفسهم فاشتدت عزائمهم فقصّوا البقية الباقية من عـدوهم ، وألحّوا فى مطاردتها وإنْ لم تُجدهـم نفـعـا هذه المطاردة رغـم عنفـها،

ويرجع السبب فى ذلك إلى سرعة ابتعاد الترك عنهم . وإذ ذاك انكفأ الروم عائدين إلى " فيلادلفيا " وعلم " يوماتيوس" كيف حاربوا بشجاعة ، وكيف كانوا عازمين على ألاّ يدعوا أحدا يفلت من قبضتهم فسخا فى أعطياته لهم ووعدهم بالمزيد منها فى المستقبل .

(٢)

تفرد تنكريد بعد موت بوهيموند بمدينة أنطاكية واغتصبها من يد الإمبراطور واعتبرها ملكا خالصا له لا ينازعه فيها منازع ، وأصبح من الواضح الآن أن أولئك الفرنجة المتبربرين ينكثون بعهودهم ويشجبون أيمانهم التى قطعوها على أنفسهم فيما يتعلق بأنطاكية .

وعلى الرغم من الأموال الطائلة التى أنفقها ألكسيوس ، وعلى الرغم من الأخطار الجمة التى واجهته فى نقل جموع الصليبيين الضخمة من الغرب إلى آسيا فإنه وجدهم قوما متعجرفين متكبرين يضمرون الضغينة ، فلطالما أسعفهم هو مِن قبل بكثير من عسكر الرومان لمساعدتهم ضد الأتراك ، وكان مدفوعا إلى ذلك بعاملين: أحدهما هو رغبته فى أن يدفع عنهم خطر القتل الذى لابد لهم من ملاقاته على أيدى الترك (السلاجقة) فى الوقت الذى كان يعنيه أمرهم كمسيحيين ، وأما الثانى فهو أنهم – وقد أمدَّهم ألكسيوس بعسكر رومانى كبير – لابد أنهم سوف يدمرون مدن أبناء إسماعيل ويعيدون بعضها إلى أباطرة الرومان وبذلك تزداد رقعة الأراضى الرومانية اتساعا . لكن الواقع أكّد له عدم جدوى كل ما أسداه إليهم الإمبراطور من فضل وما أسبغه عليهم من كرم ، وما بذله من جهد من أجلهم ، وما تكبده من المشقة فى سبيلهم ، وجرى الأمر على عكس ما يريد فقد ازداد الفرنج فى تشبثهم بأنطاكية وحرمونا (نحن البيزنطيين) من مقاطعات أخرى ، ولم يعد الموقف محتملا ، وكان القصاص منهم أمرا لا يمكن تحاشيه ولابد من مقابلة الشر بالشر ومعاقبتهم على سلوكهم البعيد كل البعد عن الأخلاقيات والإنسانية .

لقد أغْدَق الإمبراطور عليهم العطاء وأسرف في ذلك إسرافا كبيرا، وأنفق عليهم الأموال الطائلة ، وكرَّس وقتا فوق ما ينبغي تكريسه للعمل على ما فيه نفعهم ، وأرسل حشودا من الرجال لمساعدتهم فجنى تنكريد ثمار هذا كله واحتجنه لنفسه ، وخرج الروم صفر الأيدي، واعتبر الفرنجة النصر النهائى نصرا لهم فشجبوا اتفاقياتهم مع الإمبراطور وحنثوا بأيمانهم التى قطعوها على أنفسهم فلم تعد تلك العهود تساوى لديهم حبة خردل .

لقد أحزنه سلوكهم وأترع قلبهَ شجنا ، وكانت وقاحتهم أمرا لا يُحتمل فضاق صدره ومن ثم أوفد إلى حاكم أنطاكية (وهو تنكريد) سفيرا [1] من لدنه يتهمه بالحَيْف و الظلم والحنث بالعهد ، ويخبره أنه لن يسكت بعد ذلك عن عبثه بل سوف يقتص منه لجَحْدِه نعمة الروم عليه ونكرانه لجميلهم، فقد كان أكبر العار أنه بعد ما بذل ألكسيوس من المال الكثير وما أسداه للكلت من المساعدة ممثلة فى الجيوش الرومانية الجريئة القوية العاملة لإخضاع كل بلاد الشام بل وأنطاكية ذاتها ، وبعد جهوده الصادقة ، أقول كان من العار أن يأتى تنكريد فيتمتع بثمرة ذلك الذى ما كان أن يتحقق له لولا جهد ألكسيوس وكده .

هكذا كانت رسالة الإمبراطور التى حملها رُسُلُهُ إلى تنكريد .

لقد أخذ هذا البربرى السفيه[2] فى ثورة غضبه وسعار هياجه يرفض رفضا باتا الإصْغاء لكل ما قيل له ، ولم يُلْق سمعا إلى صدق وصراحة ما قاله السفراء [3] إذ اتسم رد الفعل من جانبه بالسمة التى طُبع عليها الفرنجة ، فاندفع – جريًا علىَ دَأبه – يتباهى بنفسه ، وتزاحَم الكلامُ فى شدقه بأنه سوف يتخذ مقعده فوق النجوم ، وأنه سوف يخرق بسنان رمحه أسوار نينوى ، ومضى يؤكد عِظَم قوته ويتباهى كأنه ممثل مسرحى ويزعم أنه لا يهاب أحدا ، وأنّه ليس هناك من أحد يستطيع مقاومته ، وأنه لن يتخلى عن أنطاكية ويدعها تخرج من قبضة يده مهما جدَّ من الأمور حتى ولو جاء أعداؤه " يريدون القبض عليه بأيد من نار " فهو " نينس " Ninus الكبير " الأشورى" ، وهو المارد الجبار الذى لا يُقهر ولا يغلبه أحد ، وهو الذى تركَّزت قدماه

فى الأرض . وما الرومان فى نظره إلاّ نمل يدب على الأرض ولا يزيدون عن أن يكونوا أتفه الكائنات .

حين عاد رسل ألكسيوس إليه بتقرير مفصل عن جنون هذا الكلتى غلّى مرجل غضب الإمبراطور ولم يستطع كبح جماح ثورته ، فأراد الخروج فى الحال إلى أنطاكية ، وعَقَد من أجل ذلك اجتماعا حضَرهُ أبرز قواده وجميع أعضاء السينيت ، فلما تكامل الجمع سألهم أن يشيروا عليه بالرأى السديد فأصفقوا الرأى على وجوب إرجاء الحملة التى يزمع الإمبراطور القيام بها الآن لمقاتلة تنكريد إلى وقت آخر؛ لأن الواجب يقتضيه أنْ يبذل قصارى جهده ليكتسب إلى صفه الكونتات أصحاب الأمر والنهى فى الأماكن الدانية من أنطاكية ، لاسيما بلدوين ملك بيت المقدس ، ويتعرف على موقفهم ، ويُنْزِل رأيَهم هذا منزلة الاختبار ، وهل تراهم يقبلون بنفوس راضية مَدَّ يدِ العون إلى الإمبراطور إنْ هو غادر العاصمة وحارب أنطاكية ؟ فإنْ تبين له معارضتهم لتنكريد نهض بالحملة وهو مطمئن النفس . أما إنْ كان الجواب على العكس فعليه فى هذه الحال أن يسعى لالتماس حل آخر للمشكلة الأنطاكية، ووقعت هذه الفكرة موقع الرضا فبادر إلى استدعاء مانويل بوتوميتس ورجل آخر يعرف اللسّان اللاتينى وأرسلهما إلى الكونتات وإلى ملك بيت المقدس وشرح للرجلين شرحا مفصلا ماذا تكون عليه المفاوضات بينهما وبين القادة الصليبيين ، واتّضح أنه لابد من المال الوفير يبذله رَجُلا هذه السفارة إلى اللاتين الشرهين للمال الذى يحبونه حبا جما .

كذلك عهد إلى بوتوميتس بالأوامر التى يلقيها إلى الضابط الذى كان إذ ذاك دوق قبرص واسمه " يوماتيوس فيلوكالس" وتتلخص بإمداده بأكبر عدد من السفن التى تكون الحاجة ماسة إليها ، وأن يُزَوِّدهما بالمال الكثير وبالدنانير المشخصة لرشوة الكونتات . فلما انتهى من تزويدهما بالمال نصحهما ولاسيما بوتوميتس بالرسو بالسفن على ساحل طرابلس لزيارة كونت برتراند الصنجيلى الذى أشرتُ إليه مرارا فى ثنايا تاريخى هذا ، ويعيد على سمعه ما أدَّاهُ أبوه من الخدمات الصادقة للإمبراطورية ، ويسلمه رسالة جاء فيها: " إنه ليس من الصواب أن تكون أنت دون أبيك ، بل ينبغى أن

يكونَ ولاؤكَ كولاء والدك قويا وأبديا ، وإن الإمبراطور ليخبرك أنه يوشك أن يزحف على أنطاكية انتقاما من ذلك الكونت الطائش الحانث فى يمينه لكل من الرب ولنفسه.

أما فيما يتعلق بك أنت (يا ابن صنجيل) فلا تعينَنَّ تنكريد بشىء قط أبدا ولَتبذُلَنَّ قصارى جهدك لكسب الكونتات إلى جانبنا حتى يكونوا مصدر إزعاج لتنكريد فتداخله الرهبة ويستولى عليه الخوف ".

بعد أن وصل السفيران إلى قبرص وتسلما من " فيلوكالس" المال والسفن أبحرا مباشرة إلى طرابلس وأرْست بهما سفينتهما فى مياهها ووجدا برتراند بن صنجيل فأفضيا إليه برسالة الإمبراطور ووجداه متعاطفا مع ألكسيوس ومستعدا لإجابة كل مطالبه ، كما أظهر الصنجيلى استعداده للوفاء وتنفيذ كل ما يُطلَب منه حتى ولو كانت فى ذلك نهايته ، وأعلن أنَّه إنْ يمت حينذاك يَمُت قريرَ العين راضى النفس ، ووعدهم وعداً أكيداً لا شبهة فيه أنه ما يكاد الإمبراطور يصبح على مقربة من أنطاكية حتى يحضر برتراند إليه بنفسه ليؤكد له طاعته وتبعيته له .

حينذاك عرضوا عليه أن يودعوا الأموالَ التى جاءوا بها فى قصر الأسقفية بطرابلس فوافقهم برتراند على عرضهم هذا ، وما كان عملهم هذا إلاّ امتثالا لأمر ألكسيوس ، لكن خيف أنْ يقوم الكونتات بنهب الأموال ممن هى عنده إنْ هم عرفوا خبر المال ومكان إيداعه ثم يتصرفون فيه لصالحهم الخاص وبما يعود بالنفع على تنكريد .

رأى برتراند بن صنجيل الصواب فيما اقترحوه وأنّ الخير كل الخير إنما يكون فى تركهم المال وراءهم حتى إذا تبيّنوا حقيقة موقف الكونتات الآخرين نفذوا رسالة الإمبراطور إليهم وأبرأوا ذمتهم فيعطونهم حينذاك المال الذى بعث به ألكسيوس شريطة أن يكونوا مستعدين لإجابة مطالبه ، ومن ثم أودع " بوتوميتس" ورفاقهُ المالَ فى مسكن الأسقف بطرابلس .

لم يتوان بلدوين – حين بلغ سمعه خبر وصول هؤلاء السفراء إلى طرابلس – عن توجيه الدعوة إليهم على يد سيمون ابن أخيه . ولا جدال فى أنه كان مدفوعا فى ذلك

بطمعه فى المال ، ورافقهم سيمون القادم من بيت المقدس ، وقابلوا بلدوين خارج صور التى كان ملكُ القدس يحاصرها فى هذا الوقت والذى أظهر السرور والترحاب بهم ، وأحاطهم بكل آيات الود ، وكان الوقت إذْ ذاك وقت الصوم الكبير فاستبقاهم معه خلال فترة الأربعين يوما رغم استمرار الحصار، وكانت المدينة فى منَعَة بفضل أسوارها الثلاثة المحيطة بها التى تجعل اقتحامها أمرا عزيزا . ثم زيدت عليها ثلاثة أسوار أخرى فأصبحت كلها محاطة بالأسوار إحاطة السوار بالمعصم ، وكان يفصل كل سور عن الذى يليه أرض فضاء . فصمم بلدوين أن يبدأ بهدم هذه التحصينات الخارجية وأن يكون هذا الهدم مقدمةً لاستيلائه على البلد ذاته. وكانت هذه التحصينات تعتبر درعا يحمى سورها ويقيها الأخطار الناجمة عن الحصار ، ولكن بلدوين استطاع بالاستعانة بآلات الحصار أنْ يقوض السورَيْن الأولين ، ولما شرع فى هدم الثالث ضَعُف عن هذا الشروع.

وتراخت همته وفترت عزيمته مع أنه كان فى قدرته الاستيلاء على هذه الأسوار لو أنه لم يؤثر الهدم، ولكنه رأى أن يكون دخوله المدينة عن طريق تسلق السلالم التى نصبها ، وقد أدى تراخيه إلى تمكن خصمه من رده على عقبَيه رداً عنيفا، كما استطاع المسلمون الخلاص من الشرَك الذى وقعوا فيه فانصرفوا لتجهيز الاستعدادات القوية أثناء فترة تراخى بلدوين ، ودبّروا حيلة بارعة حين تظاهروا برغبتهم فى عقد هدنة بينهم وبينه ، وبعثوا سفراءهم إليه واستطاعوا أثناء هذه المفاوضات إتمام استحكاماتهم الدفاعية .

بينما كان بلدوين مسترخيا تهدهده الآمال كانوا هم يدبرون خطة الهجوم عليه لاسيما وقد رأوا تراخى محاصريهم، وكأنّما دب اليأس فى قلوب الصليبيين فعمدوا ذات ليلة إلى ملء كثير من الجرار الفخارية بالقار السائل وراحوا يقذفون بها آلات بلدوين الحربية التى كانت تهدّد الأسوار فتحطمت الجرار بطبيعة الحال، وتدفق القار السائل على الهياكل الخشبية ، فطوّحوا بالشعل الملتهبة وبجرار أخرى تحتوى على كميات كبيرة من النفط الذى أمسكت به النيران فاتقد ، واندلع اللهيب ، وتعالت ألسنته ، واستحالت الآلات الحربية رمادا ، فلما طلع النهار كان ضوء النيران المنبعث من هذه السلاحف الخشبية يَعُمّ أرجاء المدينة ، وكان أشبه ما يكون ببرج يعلو البلد،

وكان هذا هو الجزاء الحق لتراخي رجال بلدوين الذين أمَضَّهم الألم، وتَمَّ أسْرُ من كانوا على ظهر السلحفاة وكانوا ستة نفر ، فلما تسلمهم والى صور قطع رءوسهم وقذفها بآلات المنجنيق فى معسكر بلدوين فشمل الحزنُ عسكَر الفرنجة ، فامتطوا صهوات جيادهم وفروا فزعين كأنَّ بهم مسا من الجنون ، ولم تنفع محاولات بلدوين فى إرجاعهم وردّ شجاعتهم ، فركب وراءهم فى كلّ ناحية رجاء إعادتهم لكنه كان أشبه بمن يغنى لصُم لا يسمعون ، لأنهم ما كانوا يستسلمون للفرار حتى عجز كل شيء عن الحيلولة بينهم وبين الهرب الذى كانوا فيه أسبق من الطيور فى طيرانها ، حتى انتهى الأمر أخيرا بهم إلى التوقف عند موضع حصين يسميه الناس بعكا التى صارت ملجأ وملاذا لهؤلاء الفارين الجبناء ، فلا مشاحة أنِ استولى اليأس على قلب بلدوين ولم يجد بدا هو الآخر من الفرار مثلهم رغم أنه فعل الذى فعل على كره منه

أما فيما يتعلق ببوتوميتس فقد انتقل بسفنه القبرصية (وكانت اثنتى عشرة عرَّاضة راسية على الشاطئ) وأبحر بها على طول الشاطئ متجها إلى عكا حيث التقى ببلدوين وأفضى إليه برسالة الإمبراطور كاملة غير منقوصة لكنه أضاف إلى ذلك قوله:

"إن الإمبراطور وصل إلى سلوقية " . والحق أنه لم يكن لذلك القول نصيب من الصحة، بل كان القصد منه أن يبثّ الخوف فى فؤاد هذا المتبربر فيضطر لمغادرة عكا على جناح السرعة ، لكن لم تَجزْ هذه الخديعة على بلدوين الذى سلقه بألسنة حداد واتهمه بالكذب، إذ كان هناك من سبقه إلى بلدوين وأخبرهُ بتحركات الإمبراطور فعرف مما قيل له إنه قطع مرحلة طويلة من الطريق الساحلى ، وأنه استولى على سفن العدو القتالية التى كانت تعيث فسادا فى النواحى المطلّة على البحر . فلما فرغ من ذلك كله عاد أدراجه إلى كرسى مملكته فقد عاوده مرضه الذى سوف أفصّل الخبر عنه فيما بعد فى تاريخى هذا .

لم يكتم بلدوين خبرا من هذه الأخبار عن " بوتوميتس "، ثم زاد فاتهمه بستر الحقيقة قائلا له : " يجب عليك أن تأتى معى إلى القبر المقدس . ومن هناك سوف أبعث رسلى إلى الإمبراطور يخبرونه بقراراتنا " .

لكنهما ما كادا يبلغان المدينة المقدسة حتى شرع بلدوين فى المطالبة بالمال الذى كان ألكسيوس قد بعث به ، وهنا بدا لبوتوميتس أن يقول شيئا فقال: " لئن وعدتنى بالوقوف ضد تنكريد وحافظتَ على يمينك التى أقْسمتَها للإمبراطور حين مررت بالقسطنطينية كان لك ذلك المال الذى حمّلنيه الإمبراطور فتأخذه فى الحال " .

كان بلدوين يطمع فى الحصول على هذا المال وعزَّ عليه أن يحرم منه ، لكنه كان فى الوقت ذاته يود أن يعاون تنكريد ويكون نجدة له لا لألكسيوس .

هكذا كان أسلوب المتبربرين قاطبة فهم يتلمظون للمال والهدايا ولكنهم لا يؤدّون أىَّ عمل من الأعمال التى يأخذون المال من أجلها ، لذلك سلّم بلدوين لبوتوميتس بعض الرسائل وإنْ لم يلتزم فيها بشىء ، ثم صرفه من حضرته .

على أن هؤلاء الرسل الذين كانوا بصحبة بوتوميتس صادفوا فى طريقهم هذه المرة كونت جوسلين الذى كان هو الآخر قد جاء للمشاركة فى الصلاة المقامة بقبر المخلص فى كنيسة القيامة وتحدث إليه فى نفس الموضوع ، فلما أدركوا أنّ رده عليهم كرد بلدوين ، وأنهم لن يحققوا ما جاءوا من أجله لم يَعُد أمامهم مَنْدُوحَة من مغادرة القدس والعودة إلى طرابلس فلما دخلوها وجدوا " برتراند" قد مات .

كان موت "برتراند" فى يناير أو فبراير ١١١٢ فسألوا عن الأموال التى كانت قد أودعت بالقصر الأسقفى فراح ابن برتراند وأسقف طرابلس يراوغانهم المرة تلو المرة، ويسوفان فى تحديد الساعة التى يسلمانهم فيها المال، وحينذاك لم يعد أمامهم من حيلة سوى التهديد فقالوا لهما : " إنْ لم تردا علينا المال فلستما أتباعا صادقين للإمبراطور ولستما أولياء له " .

ثم وجهوا الكلام إلى الابن برتراند فقالوا له : " إنك لم تأخذ عن أبيك وفاءه ولا عن جدك إخلاصه، ومن ثم فلن تنال أنت ولا الأسقف بعد اليوم ما اعتدتما أن تنالاه من الإمدادات الوفيرة من قبرص التى سيقبض دوقها يَدَهُ عنكما وتموتان ويموت الناس معكما جوعا " .

لم يترك الرسل وسيلة من وسائل الإقناع إلاّ استعملوها ، فكانوا يترفقون فى الحديث تارة ، ويعمدون إلى الوعيد تارة أخرى ، فما أجدى الكلام اللين ولا أخاف الوعيد " بونس" حتى يردّ المال ، فلما ضاقوا ذرعا وجدوا الضرورة تحتم عليهم إرغام " بونس" بن برتراند على أن يقطع يمين الولاء على نفسه وأن يعلن تبعيته له فيغدقون عليه الهدايا التى كانت معدة فى الأصل لأبيه وجده وهى الدنانير الفضية والذهبية المشخصة ، وكذلك الخلع مختلفة الأنواع ، فلما تسلم (بونس) كل هذا أقسم يمين الولاء لألكسيوس ، ثم ردّوا بقية المال إلى " بوتوميتس" فاشترى به من دمشق ومن الرها ومن بلاد العرب ذاتها جيادا كريمة .

وتابع الرسل سفرهم بعد هذا ومروا قرب البحر الشامى وخليج " بامفيليا " ثم كفّوا عن السفر بحرا حين أدركوا أن السفر برا أكثر سلامة وأمنا واتجهوا إلى "خرسونيز" Chersonese حيث كان الإمبراطور موجودا ، فانضموا إليه ثانية بعد اجتيازهم البسفور.

(٣)

راحت المتاعب ينزل بعضها إثر بعض على رأس الإمبراطور ، وكانت أشبه ما تكون بكرات الثلج تقذف بها العاصفة ، فلقد كان رؤساء بيزا وجنوة ولمبارديا يجهزون حملة بحرية للعيث فسادا وتدميرا فى جميع بلادنا الساحلية .

أما فى البر فكان الأمير ملك [٤] شاه [الذى تسميه المؤلفة بالأمير سيسان الذى هو أكبر أولاد أرسلان] قد جاء من جديد من الشرق يهدد فيلادلفيا والأقاليم المطلة على البحر ، وحينذاك وجد ألكسيوس نفسه مضطرا لمغادرة العاصمة والإقامة فى موضع يستطيع منه تصريف أمور الحرب فى الجبهتين ، ومن ثم مضى وأقام فى خرسونيز التى أخذت العساكر تتدفق عليها من كل حدب وصوب برا وبحرا على السواء ، كما أنه وضع جماعة قوية على الجانب البعيد من " سكاماندر " Scamander فى المكان المعروف باسم " أدراميتيوم " فى ولاية تراقيا.

كان القائد العسكرى فى فيلادلفيا حينذاك هو " قسطنطين" جبراس الذى كان تحت يده العدد الكبير من الجند لحراسة المدينة .

أما برجامون وخليارا وما جاورهما من البلدان فكانت تحت نفوذ مونستراس الذى كثيرا ما يرد خبره فى ثنايا هذا التاريخ ، وأمَّا المدن الأخرى الساحلية فكانت تحت إدارة قواد ذاع صيتهم بفضل ما هم عليه من الجرأة ، وكانوا جميعا يتلقون دائما توجيهاتهم من ألكسيوس الذى كان يدأب على حثهم على اليقظة التامة التى تتمثل فى الدأب على إرسالهم الطلعات الاستكشافية إلى جميع النواحى لمراقبة تحركات العدو ونقل أخبارها إليه فى الحال .

ولما فرغ ألكسيوس من دعم الجبهة الآسيوية صرف همَّته إلى الحرب فى البحر ، فصدرت الأوامر إلى بعض التجار بإلقاء مراسيهم فى ميناء ماديتوس Madytos و "كويلوى" Koiloi وألاَّ يكفُّوا (وهم فى سفنهم الخفيفة) عن مداومة مراقبة الطرق البحرية توقعا لهجوم من جانب سفن الفرنجة ، كما صدرت الأوامر لسواهم بالتجوال بحرا فيما بين الجزر وحراستها مع عدم التراخى عن ملاحظة البلوبونيز وحمايتها .

ولما كان ألكسيوس راغبا فى الإقامة فى تلك الناحية وأعنى بها " خرسونيز" أمدا غير قصير فقد تَخيَّر موضعا مناسبا شَيَّد فيه بعض المساكن المؤقتة ، وبذلك أمضى فترة الشتاء هنا .

ولما شرعت العمارة (النرمندية) القادمة من " لمبارديا" ومن غيرها من النواحى فى الإبحار فصل أمير البحر خمس بطسات وأرسلها للإمساك ببعض السفن للوقوف على أخبار الإمبراطور ، لكنها ما كادت تصل إلى " أبيدوس" حتى وقعت أربع منها بجميع ملاحيها وكل ما عليها فى الأسر .

أما الخامسة فقد استطاعت أن تشق طريقها عائدة إلى أمراء الأساطيل الذين عرفوا منها أخبار الإمبراطور الذى اتخذ الإجراءات الأمنية الدقيقة فى البر والبحر على السواء ، والذى أمضى الشتاء فى خرسونيز لتقوية معنويات رجاله وعزائمهم ،

فأدرك العدو أن هذه الترتيبات جعلت انتصاره أمرا صعبا لذلك فإنه سرعان ما بدل خطط سيره ووجّه سفنه وجهة أخرى .

وحدث أنّ واحدا من القادة البحريين الفرنجة فرّ من الأسطول الرئيسى بسفينته التى كانت من السفن الأحادية المجاديف وأقلع بها إلى بلدوين فوجده يحاصر مدينة صور فقدم إليه تقريرا مفصلا عن أحوال ألكسيوس كما ذكرتها أنا هنا ، وأخبره باستيلاء الروم على السفن التى كانت مرسلة للاستطلاع . ومن المحتمل عندى أن يكون تسلل هذا الكلتى قد تم بموافقة أمراء الأسطول الآخرين. ومهما يكن الأمر فإن هذا المتسلل لم يخجل أن يصرح أن القادة الكلتيين قد انسحبوا حين علموا بحسن استعداد ألكسيوس ورأوا أن إبحارهم وابتعادهم عن هذه الناحية من غير أن ينجزوا عملا ما إنما هو أجدى عليهم وأفضل لهم من أن يحاربوا فتلحق بهم الهزيمة ، وقد قال هذا الرجل ذلك الكلام لبلدوين وقد عرته رعشة خفيفة إذ مرّت بخاطره صورة أسطول الروم المخيف .

هذه هى صورة من المخاطرات الكلتية فى البحر .

أما فى البر فلم يكن الإمبراطور سالما مما يسببونه له من المتاعب، ذلك أن رجلا من أهالى " أماستريس " وهو والى " أكرونوس " قام بإشعال نيران ثورة استولى فيها على المدينة وعاث فيها فسادا وتخريبا ، وكذلك امتد شرّه إلى الأراضى المجاورة فنشر فى أرجائها الرعب والفزع ، فما كان من الإمبراطور إلاّ أنْ أرسل لمُحاربته " جورج ديكانوس" على رأس جيش قوى استولى على المدينة بعد أن حاصرها حصارا استمر ثلاثة أشهر، وسرعان ما بعث بالخائن ميخائيل إلى ألكسيوس الذى عيّن غيره وظل ألكسيوس يرمى الغادر بنظرات غاضبة حانقة ويتوعده بالعقوبات المختلفة ، ثم أعلن بحضرة الجميع حكمه عليه بالقتل . وحينذاك استولى على الرجل الذعر القاتل ، لكن ذلك لم يدم طويلا فما آذنت الشمس بالمغيب وراء الأفق حتى تبدّدت مخاوفه فقد أطلق الإمبراطور سراحه ووصله بالصلات الجمّة.

هكذا كان أبى على الدوام حتى ولو أنكر الكثيرون بعد ذلك فضله عليهم وجحدوا رحمته .

لقد استن أبى هذه السنة منذ زمن بعيد احتفالا بعيد السيد الكريم الوهاب حين أنزل المن(٥) على بنى إسرائيل فى الصحراء وأطعم الكثيرين منهم فى القفر، وفرق لهم البحر فمشوا فيه وخاضوه دون أن تَبْتَل لهم قدم ، لكنهم ما لبثوا أن أنكروه ولعنوه ورموه بالبلوى وبصقوا عليه ثم أدانوه فرفعوه على الصليب بأيدى شررةٍ فجّار .

إننى حين أكتب هذه الكلمات تنهمر الدموع من مقلتى وتتعثّر الكلمات فى فمى وأودّ لو أنى أفَضْت فى الحديث عن هؤلاء القوم وأذكر أسماء هؤلاء الأشخاص غلاظ القلوب الكافرين بالنعمة ، ولكنى أمسك لسانى وأتجلّد وقد كاد معين الصبر أن ينفد ، بَيد أننى أردد مرة بعد أخرى فيما بينى وبين نفسى قول هومير " تجلد يا قلبى فقد قاسيت ما هو أمرّ من ذلك من قبل " ، ولكن حسبى ما قلت ولن أعود للحديث مرة أخرى عن هذا الجحود اللئيم (٦).

وجمع السلطان ملكشاه العسكر من خراسان فأرسل بعضهم عَبْر إقليم "سيناؤس" Sinaos ، والبعض الآخر عبر ما يعرف بآسيا، فلما ترامى خبرهم إلى سمع قسطنطين جبراس حاكم فيلادلفيا حينذاك خرج بقواته لصدّ الترك وحاربهم عند "كلبيانوس" Kelbianos وكان هو أول رجل فى جيشه التحم بهم ونادى فى بقية رجاله أن يتبعوه فانهزم المتبربرون وكانت نكبة ما إن بلغت سمع السلطان (٧) ووقف على كثرة من هلكوا حتى تكلم فى الصلح وصرح على لسان سفرائه أنه كان يتطلع منذ زمن بعيد إلى أن يستتب السلام بين الروم والمسلمين (٨) ، وأنه سمع وهو فى موضعه البعيد حديث الناس عن سلوك الإمبراطور الكريم تجاه أعدائه وانتصاراته عليهم فى ساحات القتال ، والآن قد صدق الخبرُ الخبر فكان الأمر كما يقولون " وإنّ الثوب يعرف من حاشيته والأسد من مخالبه ". وها هو ذا السلطان يسعى - وإنْ كان ذلك رغم أنفه - إلى الصلح فيوفد الرسل من فارس فجاءوا إلى الإمبراطور وهو جالس على عرشه تكلله المهابة، وقد وقف حوله رجالُه بعسكرهم - الذين هم من كل جنس - إلى جانب الحرس الفرنجيانى .

ثم دخل السفراء ، فلما صاروا أمام العرش الإمبراطورى سألهم ألكسيوس الأسئلة المألوفة عن السلطان ، واستمع إلى الرسالة التى يحملونها منه إليه ، ولم يكتم

ألكسيوس أنه حريص على تأكيد أواصر السلم ويرحب به وأنه يسعى إليه بكل جوارحه ، ولكنه يرى أنّ أهداف السلطان لا تتــلاءم كلهــا مع صــالح الإمــبــراطورية . وتمكّنَ الإمبراطور بما اتسم به من المهارة فى الإقناع وبألمعيته الفائقة أن يدعم موقفه أمام الرسل ، كما نجح أيضا - بعد الحوار الطويل - فى إقناعهم بوجهة نظره ، حتى إذا فرغ من ذلك أذِنَ لهم بالعودة إلى الفسطاط المعد لنزولهم ، بعد أنْ طلب إليهم أن يتدبروا ما قاله لهم ، فإن وافقوا على مقترحاته أمكن إمضاء الاتفاقية فى الغد . وحينذاك بدت على الرسل اللهفة لقبول هذه الشروط .

ولما كان اليوم التالى أمضيت الاتفاقية بين الطرفين ، ولم يكن الإمبراطور مهتما بالحصول على مطالب خاصة به بل كان يضع فى اعتباره مصالح الإمبراطورية ذاتها ، والحقُّ أنه كان يقدم الصالح العام على الصالح الخاص ، وهكذا كانت جميع المفاوضات تسير مسترشدة بهَدْىِ السيادة الرومية التى هى المعيار الأساسى لجميع ما يتقرر من الأمور ، وكان غرضه التأكيد على أن تظل الاتفاقية سارية المفعول حتى بعد وفاته زمنا طويلا . لكن لم يُقَدَّر لها ما يتمناه ويرجوه فقد سارت الأحوال بعد موته سيرا مخالفا كل المخالفة عما كانت عليه فى حياته ، وانتهت إلى حال من الاضطراب . ومع ذلك ففى هذا الوقت ذاته سكنت الاضطرابات(٩) وساد الهدوء وعمَّ الجميعَ فنعمنا بالسلام معهم حتى نهاية حياته ، لكنه ما كاد يرحل عن هذه الدنيا حتى تلاشت جميع هذه النعم وانتهت إلى العدم بسبب حماقة الذين تولوا العرش من بعده .

(٤)

أما الذين ظلّوا أحياء من رجال السفن الخمسة فقد أنهوا فى صدق إلى أمراء البحر الفرنجة ما فعلته البحرية الرومية ، وعرفوا منهم أنّ الإمبراطور جهز أسطوله ووقف فى "خرسونيز" مترقبا وصولهم ، فما كان منهم إلاَّ أنْ أقلعوا عن خطتهم السابقة وتحاشوا كلّ الأراضى الرومانية ، وكان الإمبراطور قد أمضى الشتاء فى

"جاليبولى " مع الإمبراطورة لأنّها كانت تلازمه كما قلت وتصحبه أنّى ذهب بسبب آلام النقرس الذى يعانيه فى قدميه .

وكان ألكسيوس يترقب فى دقة اللحظة التى يقلع فيها الأسطول اللاتينى عائدا إلى بلاده ، فلما عرف بقفوله رجع هو إلى العاصمة ، لكن ما إنْ مرت فترة وجيزة حتى جاءه الخبر بشروع الترك فى التحرك منْ شتى رحاب الشرق بل ومن خراسان ذاتها وأنهم ساروا فى خمسين ألف مقاتل .

و الحَقُّ أن ألكسيوس لم ينعم أيام حكمه بشىء من الراحة بسبب الهجمات الكثيرة الموصولة التى يسببها الأعداء : الواحد منهم بعد الآخر ، ومن ثم كان الجيش على الدوام فى حالة تعبئة عامة .

ولما تراءى لألكسيوس أنْ قد آنَ الأوان للخروج - وذلك فى الوقت الذى جرت فيه عادة المتبربرين على شن غاراتهم على المسيحيين - خرج هو وعبر البرَّ فيما بين بيزنطة و " دماليس"، ولم يصده عن هذا الخروج ما كان يعانيه حينئذ فى قدميه من وجع النقرس الذى لم يصب أحدا من أسلافه، ومن ثم لم يكن مرضا موروثا ، كما أنه لم يكن من ناحية أخرى نتيجة بلهنية وترفًا ذلك لأن النقرس يهاجم فى العادة السادة المنكبين على إشباع شهواتهم وطلابَ اللذة . أما فى حالته هذه فكان مرده إلى أنه كان ذات يوم يمارس لعب الكرة (البولو) مع تاتيكيوس الذى كثيرا ما أشرت إليه فإذا بجواد الأخير ينفر من تحت راكبه ويلقيه عن ظهره فيسقط على الإمبراطور .

وكان تاتيكيوس ثقيل الوزن فأصابت السقطة صابونة ركبة ألكسيوس بجرح انتقل منه الوجع إلى كل ساقه حتى بلغ القدم ، فلم يبد منه ما يدل على ما يعانيه من الألم لعادة جَرتْ منه فى عدم الشكوى مما يوجعه ، واكتفى بعلاج بسيط ، ثم أخذ الوجع فى التلاشى شيئا فشيئا حتى بدا وكأنه قد زال تماما ، فعاد إلى ممارسة حياته الطبيعية . وكان هذا هو السبب الأصلى لإصابته بالآلام فى قدميه ، لأن الجرحَ كان علةَ إصابة الجزء المصاب بالمرض .

كذلك كان هناك سبب آخر أكثر وضوحا لهذا المرض ألاّ وهو أن الجميع كانوا يعرفون أن حشودا لا يحصيها العد من الكلت قد هجرت ديارها ووفدت على المدينة الإمبراطورية ، وتسارعت جموعُها منْ كل النواحى فى القدوم إلينا مما أدى بالإمبراطور إلى الانغماس فى لجّة عاتية من المتاعب، فقد كان يعرف منذ زمن بعيد أنهم يحلمون باحتلال الإمبراطورية ، هذا إلى جانب ما شاهده من كثرة جموعهم كثرة تزيد على حبات الرمال على ساحل البحر وعلى كل نجوم السماء ، فى حين أنّ الجيوش الرومانية لو تجمعت كلها فى صعيد واحد لم تكن سوى قسم ضئيل إنْ هى قيست بحشود الفرنجة الضخمة ، فما بالك وقوات جيشه مبعثرة فى شتى النواحى وفى بقاع شاسعة من الأرض، إذْ كان بعضهم يقوم بحراسة وديان الصِّرب ودلماشيا ، والبعض الآخر كانوا موكلين بالمحافظة على الأراضى التى حول الدانوب من هجمات الكومان والمجريين كما أن غالبية الجيوش البيزنطية كانت قائمة بالحفاظ على سلامة الأراضى التى حول "دورازو" حتى لا تقع مرة ثانية فى يد الكلت . وقد حملت كل هذه الظروف الإمبراطور على أن يكرس كل همته للالتفات إلى هؤلاء الكلت ، أما من سواهم فكانوا يلونهم فى الأهمية . ولم تكن العداوة السافرة قد مزقت العالم المتبربر المتاخم لحدودنا ، وهو عالَم لم يكن يعرف الاستقرار . كما أنّ الإمبراطور استطاع كبح جماح هذا العالم بفضل ما كان يغدقه من آيات التشريف ومن النعم ، فكان من الممكن الحد من مطامع الكلت بكثير من الوسائل المتاحة .

كذلك كانت الروح الثورية التى طبعت عليها شعوب الإمبراطورية تعمل دائما على مضايقته ، والواقع أنّ خوفه من هؤلاء الرعايا كان يفوق خوفه من سواهم ، لذلك لم يتوان عن حماية نفسه ما وسعه الجهد ، فتمكن من درء مكائدهم بمهارة فائقة ، وإنْ لم يكن فى قدرة أحد ما أن يصف مدى ما لحقه من الانزعاج فى هذا الحين ، فقد اضطر إلى أن يواجه كل الناس وأن يتسلح بكل ما يستطيعه لمواجهة الأحداث المستجدة ، فكان شأنُه شأن النطاسى البارع يراعى أصولَ حرفته فهو يكيف نفسه لمواجهة أشدّ الأمور ضغطا عليه ، فلا يكاد الصبح يطلع وتبرز الشمس من خدرها فى الأفق الشرقى حتى يتخذ مكانه على عرشه الإمبراطورى ، فيستقبل جميع الكلت الوافدين على حضرته ، إذْ كان قد أمر بأنْ يُسمح لهم بحرّية القدوم عليه كل يوم ، وألاّ يصدهم

أحد عن بابه ، مستهدفا من وراء ذلك أمرين: أحدهما هو أنْ يرفعوا إليه التماساتهم وشكاياتهم ، وأما ثانيهما فمحاولته التوسل بكل الوسائل للتوفيق بينها وبين رغباته .

وكان الكونتات الكلتيّون مطبوعين على صفاقة الوجه والعنف ، مع شراهة بالغة للمال الذى يسعون وراءه سعيا حثيثا دون كلل ولا يعرفون الاعتدال فيما يطلبون.

هذه هى الخصائص التى طبعوا عليها .

كما أن الكلت كانوا يبزون جميع الشعوب فيما طبعوا عليه من جعجعة وثرثرة ، فكانوا إذا جاءوا إلى القصر لم يراعوا له حرمة ولم يحترموا النظام ، فما من كونت منهم إلاّ ويصطحب معه من شاء من أصحابه وأتباعه ممن على نمطه فتراهم يسيرون معه فى أرتال لا تنقطع ، فإذا صاروا بحضرة الإمبراطور لم يحسبوا للوقت حسابا فى حديثهم ، وكانوا فى هذا أشبه بخطباء العصور القديمة فيطيل كل واحد منهم الحديث إلى الإمبراطور .

هكذا كانوا لا يكفون عن ثرثرتهم وليس عندهم احترام لمشاعر من يحدثونه أو مراعاة للوقت ، ولا يلقون بالا إلى تأفّف الموجودين وضجرهم ، فنراهم بدلا من أن يفسحوا المكان لغيرهم إذا بهم يظلون يثرثرون ويتقدمون بالالتماس تلو الالتماس ، وإذا كان دارس الطباع الإنسانية يعرف ثرثرة الفرنجة وحُبُّهم للإسهاب والإطالة التافهة فى الكلام فإن المستمع إليهم يستولى عليه الضجر الشديد منهم .

وكان الإمبراطور إذا حل المساء زايل عرشه بعد أن يكون قد أمضى يوما كاملا لم يدخل شىء من الطعام فى جوفه وربّما يكون قد تأهّب لدخول مضجعه لكنه لا يجد من ينقذه من إلحْاح الكلت إذ يأتون إليه جماعات بعضها فى إثر بعض ، وقد يدخل عليه من ليس فقط ممَّن لم تتح لهم فرصة لقائه نهارا بل أيضًا أولئك الذين سمعوا بعودته فيلاحقونه بأحاديث من هنا وهناك ، كل ذلك وهو واقف بينهم جميعا هادئا متحملا ثرثرتهم التى لا انتهاء لها .

وكان فى استطاعة المرء أن يراهم وهم يلاحقونه بأسئلتهم وهو واقف بينهم كالطود الشامخ يرد عليهم بالأجوبة القاطعة . ولم يكن هناك حد لهذرهم الأحمق ، فإذا

حـاول أحـد من ضـبـاط البـلاط التـدخل لإسكات هذا المِهْذار وكَـفُّـه عن هـذره منعـه الإمبراطور من التدخل ، وذلك لأن ألكسيوس كان يعرف ما طبع عليه الفرنجة من الميل للعراك مما يخشى معه أن يؤدى عمل تافه ضئيل إلى اندلاع نيران تؤذى هيبة رومة إيذاء بليغا ، ويكون منظر الإمبراطور فى هذه اللحظة منظرا مهيبا إذ يلوح وكأنه تمثال برونزى أو حـديدى وهو جـالس الليل بطوله – أعنى من المسـاء حـتى منتصف الليل – وحتى يصيح الديك صيحته الثالثة إيذانا بطلوع الفجر بل وأحيانا حتى تشرق الشمس فتغمر الكون بضيائها وحينذاك يكون الإعيـاء قد بلغ أشده بحراسه فيتناوبون فيمـا بينهم هنيهات يستجمون فيها ثم يعودون إلى مواضعهم وهم فى أسوأ حال من الإنهاك والنصب فيتبادلون مـواضـعهم فيمـا بينهم ، فترى أحدهم جالسا ، وغيره ملقيا رأسه إلى شىء ما طلبا للراحة ، وثالثا قد أسند رأسه إلى الحائط .

على أن هناك بينهم جميعا رجلا واحدا لا يبدو عليه شىء من الكلل أو الملل وأعنى به الإمبراطور الذى لم يكن أحد يجهل قوة تحمله فيقف فى جَمْعٍ من الناس قد اختلطت أصـواتهم وتداخل بعـضـهـا مع بعض فـيكون الموقف إذْ ذاك أشـبـه بقـول هـومـيـر "يتصايحون بلا ضابط وما من شىء يمسك ألسنتهم "، وما يكاد الواحد منهم يفرغ من كلامه حتى يتلوه غيره فغيره وهكذا دواليك. ويسـتريح الواحد منهم فى اللحظة التى يكف فيـهـا عن الكلام ، أمـا الإمـبـراطور فلم يكن يسـتريح قط إلاّ حين يصيح الديك صيحته الثانية فيستجم حينذاك فترة قصيرة يريح فيها جسده المنهك، حتى إذا تبلج نور النهار عاود الجلوس على كرسيه فيتناول ما يجدُّ من مشكلات ربما كانت أثقل مما عالجه بالأمس ، وكان هذا هو السبب الذى من أجله هاجم الوجع الإمبراطور فى قدميه كما ألحَّ عليه الروماتزم منذ ذلك الحين وظل ملازما له حتى آخر يوم من حياته ، وكان الألم يأتيه في فتـرات منتظمـة ويسبب له آلامـا مبرحـة لكنه يتـحملهـا صـابرا الصـبـر الجميل، فلم يُعرف عنه قط أنه أظهر الملل أو التذمر ، بل كان كل الذى يقوله هو:

"إنى مستـحق مـا بى من الألم، وإن كل مـا يجرى علىَّ ليس سـوى الجزاء لى على آثامى وخطاياى الجمة".

وكان إذا ما ندّت من لسانه كلمة نابية رسم الصليب مستعيذا من نزغات الشيطان قائلا: " اغرب عني أيها الفاجر الزنيم . اذهب عليك اللعنة .. ولعنك الرب على غوايتك المسيحيين " .

إنني أمسك لساني عن الكلام عن هذا الألم الذي أصابه ، وما أحسب إلاّ أنَّ هناك شخصا وراءه قد زاد من متاعبه وأترع كأس آلامه فتجرعها حتى الثمالة . وأوجز فأقول إنه على الرغم من أن الإمبراطورة كانت أشبه ما تكون بمن تدهن حافة الكأس بالعسل وتبذل غاية جهدها لوقف معظم أوجاعه بفضل رعايتها الدائمة له فإنه يجب أن أضيف إلى أسباب علته وجود هذا الرجل، بل يمكن القول إنّه كان السبب الثالث منْ أسباب سقم الإمبراطور إنْ لم يكن السبب المباشر الوحيد الفعال في مرضه .

وإذا جاز لي أنْ أستعمل التعبير الطبي فإنّ هذا الرجل لم يكتف بمهاجمته مرة واحدة ثم اختفى بعدها، بل إنه كان حاضرا معه على الدوام وكان يلازمه ملازمة مستمرة حتى لكأنه كان أشد السموم خبثا يسري في العروق.

فإذا نظرنا إلى طبيعة هذا الرجل ذاته رأينا ما هو أسوأ من ذلك ألاّ وهو عدم اقتصاره على أن يكون سببا للمرض بل إنّه كان هو ذاته المرض ، وإنه كان أقسى ضررا ، ولكن دعوني أمسك لساني وأصمت ولا أحيد عن خطتي رغم رغبتي الشديدة في أن أنْهال تقريعا على هؤلاء الأنذال . وسأحتفظ بقصتي عن هذا الشخص إلى لحظة تكون مناسبة للكلام عنه .

(٥)

لنعد الآن إلى حديثي عن الكلت فأقول : كان آخر عهدنا بالإمبراطور حين مضى إلى "داماليس" وتركناه في معسكره على الجانب الآخر من الدانوب يترقب وصول جميع من معه ، وكان يأمل أيضًا أن يتخلص من ألمه المُبرّح حين عبر الكلت بجموعهم وجاءوا إلى الإمبراطور في حشود غفيرة ، وكانت " الأوجستا" معه قائمة على رعايته وتعالج قدميه بكل أنواع العلاج لتخفف عنه بعض ما يعانيه .

وحانت منه نظرة إلى السماء فرأى القمر بدرا كاملا فقال لها : " لو أن الترك أرادوا الهجوم علينا فلن يجدوا وقتا أنسب من هذه الساعة لتحقيق إرْبَتهم ، وإنه ليحزنني أن تفوتني هذه الفرصة " . وكان الوقت ليلا حين قال لها هذا الكلام .

فلما تنفس الفجر وأهلّت تباشير الصباح جاءه الخصي الموكل إليه حراسة غرفة نوم جلالتيهما يعلن إليه أن الترك قد أغاروا على مدينة نيقية ، ثم ناوله رسالةً بعث بها "يوستاسيوس كاميتزيس" حاكم ذلك البلد حينذاك متضمنة تقريرا كاملا عن كل الحركات ، فما كان من الإمبراطور إلاّ أن نهض متناسيا تماما كل ما به من ألم ممض لا انقضاء له ، فلم يتريث لحظةً واحدة بل بادر فركب إحدى العربات الحربية وخرج قاصدا "نيقية" وممسكا السوط بيمناه ، وعمل عسكره مثله فراحوا يهزون رماحهم ثم سارت جموعهم فى انتظام حسب رتبهم ، فكان بعضهم إلى جانبه ، وآخرون أمامه ، ومشى خلفه غير هؤلاء وهؤلاء ، وكلهم يتسابقون للخروج لقتال المتبربرين وإنْ كانت نفوسهم يرمضها الأسى لما بالإمبراطور من وجع يمنعه من ركوب جواده ، غير أنّ ما ارتسم على جبينه من سمات القوة والبأس وحديثه إليهم بث القوة فيهم ، فبينما تراه يبتسم للبعض ابتسامةً تكشف عن السعادة إذا بك تراه يتحدث مع سواهم .

وظل يتابع الزحف ثلاثة أيام وصل بعدها إلى موضع يسمونه " إيجيالوى" Aiglaloi فرأى أن يُبْحر منه إلى " كيبوتوس" فلما عرفت الإمبراطورة أنه ينبغى الإسراع فى العبور ودّعته وعادت إلى العاصمة .

ولما بلغ كيبوتوس جاءه بعضهم يخبره بأن بعض قادة الأربعين الألف مقاتل مضوا شطر نيقية يخربون ما يتاخمها بقصد النّهب، على حين سار "مانالوغ" Manalough بمن معه يخربون كل البلاد الواقعة على ساحل البحر .

فأما الذين كانوا قد أفسدوا فى النواحى المتاخمة لبحيرة نيقية وبروسة Prusa وأبولونياس فقد عسكروا عند البلدة الأخيرة وجمعوا بها كل ما وقع فى أيديهم من الأسلاب ، فلما فرغوا من ذلك كله عاودوا الزحف بجموعهم فنهبوا " لوباديون" وما حولها ويقال إنّ يدهم لم تعف عن أى شيء صادفوه هنا حتى بلغوا " سيزيكس" cyzicus فسقطت فى أيديهم من أول هجوم شنوه عليها بحرا وكفّ حاكمها عن بذل أى

نوع من المقاومة ، بل إنّه فر مجللا بالهوان ، أما " كونتوجمن" Contogmen والأمير محمد وكذلك رؤساء العسكر الكبار فقد زحفوا عبر " لنتيانوى" Lintianoi قاصدين "بومانينون" Poemanenon حاملين معهم غنيمة كبيرة ، وسائقين أمامهم جيشا من الرجال والنساء والأطفال كانوا قد كتبت لهم النجاة لكنهم لم يسلموا من الأسر.

أما فيما يتعلق بمانالوخ فقد انفلت إلى " باريون" Parion وأبيدوس الواقعة على البسفور بعد أن عبر نهرا يسميه الأهالى نهر " بارينوس" Barenus وهو ينبع من جبل "أبيس" ثم انتهى به الزحف للسير فى " أندراميتوم " وخليارا مستصحبا معه كل الأسرى الذين وقعوا فى يده من غير أن يسفك قطرة دم واحدة أو يشتبك فى معركة.

كان رد الفعل من جانب الإمبراطور على هذا الخبر هو أن سلم إلى " كامتزيس" دوق نيقية حينذاك تعليماته المكتوبة القاضية بأن يخرج فى خمسمائة جندى يلاحق بهم المتبربرين ويوافيه بتحركاتهم ، على أن يتحاشى الالتحام بهم جهد طاقته ، فغادر كامتزيس نيقية وسار فأبصر كونتوجمن والأمير محمدا وغيرهما فى موضع يسمونه "أوراتا" Oarata . ولا شك أنه كان فى هذا الهجوم متجاهلا أوامر الإمبراطور وقد ظنه الأعداء – لشدة وطأة هجومه – أنه هو ألكسيوس نفسه ففروا على وجوههم فزعا أن يكون هو الذى ظنوه وقد استبد بهم الرعب ، ولكنهم أمسكوا فى الوقت ذاته بشناقيا عرفوا منه الحقيقة وهى أنّ القائد الذى كان يقاتلهم ليس بالإمبراطور ولكنه كان "كاميتزيس" ولذلك عادوا فاجتازوا الجبال واستردّوا شجاعتهم الهاربة ودقوا الطبول وتعالت صيحاتهم القتالية ، فترادف فى الوصول إليهم رجال من قبائلهم كانوا مشتتين فى كل النواحى إذ عرفوا أن ما سمعوه ليس سوى الدعوة للرجوع ، فخفوا سراعا للتجمع فى السهل الواقع مباشرة أسفل المكان المعروف باسم " أوراتا ".

لم يكن كاميتزيس – الذى استولى على جميع ما نهبوه – راغبا فى متابعة الزحف إلى "بومانينون" وكان هذا الموقع مدينة شديدة المناعة ، لكنه أضاع الوقت سدى حول " أوراتا " غير مدرك أنه بعمله هذا كان يلحق بنفسه أفدح الضرر فهيهات

لأعدائه المتبربرين أن ينسوه ، بل كانوا يتطلعون على الدوام لهزيمته فى ساحة الحرب ، فلما عرفوا أنه لا يزال مقيما فى " أوراتا " يرتب الإجراءات المتعلقة بالغنائم والأسرى قسموا أنفسهم فرقا وأغاروا عليه ، فلما لاحت طلائع المتبربرين الكثيفة فزع معظم رجاله ورأوا صلاحهم فى النجاة من هذا الخطر ففروا على وجوههم وخلفوه هو والبشناق والكلت وطائفة من الرومان الأبطال فاستبسلوا فى الحرب وإنْ لقى أغلبهم حتفه ، لكن لم يَحُلْ ما جرى بين "كاميتزيس" وبين متابعة القتال مع الرهط القليل المتبقى معه على قيد الحياة ، ثم حدث أن أصاب سهمٌ جواده فطرحه عن ظهره ، فلما رأى " كاتارودن" Catarodon ابنُ أخيه ما حل بعمه قفز عن جواده الذى يركبه وتخلى عنه لعمه الذى وجد المشقة الكبيرة فى امتطائه لثقل بدنه ، فلم يجد بُدًّا من الارتداد إلى الوراء قليلا واسند ظهره إلى شجرة بلوط ثم استل حسامه وهو يائس تماما من الحياة وراح يضرب كل متبربر يجرؤ على مهاجمته ، فيصيب هذا فى خوذته ، وذاك فى ذراعه وآخر فى يده كل ذلك وهو لا يستسلم ، فلما رأى التركُ إصرارَه على المقاومة وقَتْلَه الكثيرين وجرحهُ العديد منهم لم يملكوا أنفسهم من الدهشة الممزوجة بالإعجاب بكفاءته ، وكرهوا أن يموت مثل هذا الرجل وصمموا على الإبقاءِ على حياته وسَرَّح الأمير محمد الكبير بصره فيه ، وكانت له به معرفة من قبل فأمر رجاله الذين كانوا يهاجمونه عن قرب بالكفّ عن مهاجمته ، ثم ترجّل الأمير محمد ذاته عن حصانه فاقتدى به رجاله ثم مضى إليه قائلا له: " أيها القائد : لا تؤثر الموت على الحياة وهات يدك لتسلم وتعيش" . فلما رأى " كامتزيس" نفسه عاجزا عن بذل المزيد من المقاومة وأبصر جموعا غفيرة من المتبربرين محيطة به مدّ يده إلى يد التركى الأمير محمد المبسوطة إليه فأخذه محمد وأركبه أحد الجياد وإنْ أصفْد قدميه حتى يستحيل عليه الهرب.

على هذه الصورة كانت مخاطرات يوستاسيوس.

استعرض الإمبراطور فى ذهنه حينذاك الطرق التى قد يسلكها العدو ليباغته لكنه سلك دربا مخالفا وإنْ كان يؤدى به إلى "نيقية " و " مالاجينا" وما يعرف بباسيليكا وكلها وديان ومسالك غير مطروقة وتقع على حافة جبل أوليمبوس . وأفضى به السير

إلى "ألثينا" Alethina ثم تابع زحفه إلى " أكروكوس" وراح يحث الخطى حتى بلغ ناحية يستطيع منها مهاجمة الترك الذين لم يكن لديهم خبر بما دبره الروم. وكان ألكسيوس قد استعد لمعركة حامية الوطيس معهم ، وكانوا هم قد اكتشفوا موضعا من الوادى غاصًا بقصب البوص فاطمأنوا إليه ونزلوا به وتفرقوا فيه ، ثم أسلموا جنوبهم إلى أرضه التماسا لشيء من الراحة .

بينما كان ألكسيوس يتأهب للزحف لقتال الترك إذا بالخبر يأتيه بوجودهم فى الأجزاء الدنيا من الوادى، فصفّ عسكره على بعد قليل عنهم ووضع على المقدمة قسطنطين جبراس و " مونستراس" ، كما جعل سرايا الفرسان فى الجناحين . أما الساقة فعهد بها إلى اثنين لهما خبرة طويلة وقديمة بفنون الحرب هما " تزيبوريلس" tzipoureles و " أمبيلاس"(١٠) Ampelas وأما القلب فقد وقف هو ذاته فيه، ومن ثم كان له الإشراف التام على الجيش .

حين استتب الأمر له على هذه الصورة هبط على الترك ونزل عليهم نزول الصاعقة فشبت معركة طاحنة هلك فيها العديد من المتبربرين ووقع فى الأسر الكثيرون منهم ، أما الذين لاذوا إلى غابات قصب البوص مستعيذين بها من خطر الروم فقد وجدوا الأمان لأنفسهم بعض الوقت ، إذ ما كاد ألكسيوس يحرز هذا النصر العظيم حتى استعد لكرّة أخرى عليهم أراد بها أن يخرجهم من النواحى التى اختبئوا بها ، لكن تعقدت الأمور ، فلم يكن منه إلاّ أن أضرم النيران وتعالت ألسنة اللهب وإذ ذاك هرب العدو من الحريق فوقع فى أيدى عسكر ألكسيوس الذين قتلوا بعضهم بالسيف وأخذوا البعض الآخر منهم أحياء إلى الإمبراطور .

(٦)

وهكذا كان مصير المتبربرين (١١)الترك القادمين من " كارمى" Karme فلما سمع الأمير محمد بهذه الكارثة الإسلامية التى حلت برجاله بادر(١٢) فانضم إلى التركمان الآسيويين وغيرهم من الساعين فى طلب الإمبراطور .

على هذه الصورة كان ألكسيوس مطاردًا ومطارَدًا ، إذ كان الأمير محمد ومتبربروه من خلفه يقتفون أثره ، بينما كان هو في الوقت ذاته يتتبع آثار أهل "كارمي" وهكذا وقع بين الاثنين اللذين كان أوقع الهزيمة بأحدهما ، أما الفريق الآخر وهو الذي كان وراءه فكان سليما لم يمسسه أذى ، ثم قام محمد فباغت مؤخرة الروم على غرة حيث التحم ولأول مرة بأمبيلاس الذي كان مطمئنا الآن أكثر من ذي قبل؛ لأنه كان على مرأى من الإمبراطور. وعلى أية حال فقد كان " أمبيلاس " رجلا جريئا وفيه اندفاع فلما رأى ما هو فيه لم يصبِرْ حتى يحضر الذين خلفه لينضموا إليه بل تعجل فهاجم الترك ولو كان قد تريث قليلا لأمكنه هو ومن يكونون قد جاءوا إليه تَحَمُّلَ صولة الهجوم التركي عليهم فقد تبعه " تزيبورليس" إلى المعركة ووصل القائدان - قبل أن يستطيع رجالهما الانضمام بعضهم إلى بعض - إلى قلعة قديمة قابلهما فيها الأمير محمد الذي كان ثابت العزم فرمى بسهم من قوسه أصاب به جواد " أمبيلاس" دون راكبه الذي سقط على الأرض ، وحينذاك أحاط به المشاة وقتلوه ، ثم أبصروا "تزيبورليس" يحمل عليهم حملة صدق فراشوا سهامهم إلى فرسه فأصابت قوائم الدابة إصابة أدّت إلى سقوط صاحبها عنها فتكالبوا عليه في لحظتهم وتناوشته سيوفهم وأجهزوا عليه .

على أن العسكر الموجودين في الساقة و الموكول إليهم حفظ القوامين على الأمتعة وإقصاء كل من يحاول الاقتراب منهم قاموا بمهاجمة الترك حين رأوهم يشنّون هذا الهجوم وقاتلوهم فأهلكوهم .

كان كاميتزيس هناك أسيرا في يد الترك ، فلما شاهد الفوضى ضاربة أجرانها على ساحة القتال وأبصر المحاربين يفرون على وجوههم وأن رجالنا يقصونهم فر هو الآخر طلبا للنجاة .

وصادفه رجل من الكلت في كامل ثيابه الحربي فتنحّى له عن جواده فأخذه وانطلق به فوجد الإمبراطور في أسفل الوادي معسكرا في مكان بين " فيلادلفيا" و"أكروكوس" وكان المكان من الاتساع بالدرجة التي تسمح بنزول عدة جيوش به في وقت واحد، فاستقبله ألكسيوس استقبالا حارا ، شاكرا الرب على أن قيّض له الخلاص

ثم بعث به إلى العاصمة قائلا له: " امض فأخبر أهلها بجميع ما لقيتَ من البلوى واشرح لهم كلَّ الذى رأيتَهَ وأعلم نوينا أننا أحياء بفضل الرب " .

غير أنه لما سمع منه بخبر مصرع " أمبيلاس" وتزيبورليس" حزن أشد الحزن وقال: " لقد فقدنا اثنين وربحنا واحدا ". ذلك أنه كان من عادته ألاَّ يكاد يخرج من الحرب ظافرا منصورا حتى يسأل : من وقع فى الأسر من رجاله؟ ومَن هلك منهم؟ وكان إذا فقد واحدا منهم ولو صغرت رتبته فى معركة من المعارك ويكون هو قد أباد الكثيرين وانتصر عليهم اعتبر ما حاز من النصر كأنْ لم يكن، بل كان يعد نفسه خاسرا ولا يرى شيئا من وراء انتصاره .

أخذ ألكسيوس بعد ذلك فى تعيين طائفة معينة من الرجال العسكريين أمثال جورج "ليبونس " Libounes وآخرين ولاة على تلك النواحى وخلّفهم مع عسكره، أما هو فقد عاد أدراجه إلى القسطنطينية متوجا بأكاليل النصر . ووصل "كاميتزيس" فى هذه الأثناء إلى "داماليس" ، فلما انتصف الليل استقل قاربا صغيرا . ولما كان يعرف أن الإمبراطورة موجودة فى الطابق العلوى من القصر فقد مضى إلى هناك وطرق الباب المواجه للبحر فتساءل الحراس عمن يكون الطارق فى مثل هذه الساعة ، فكتم اسمه عنهم ولم يرغب فى الإفصاح عنه واكتفى بأنْ سألهم أنْ يفتحوا الباب له ، وطال الجدل بينه وبينهم حتى إذا كشف لهم عمن يكون أذنوا له بالدخول ، وكان سرور "الأوجستا" به عظيما واستقبلته خارج باب مخدعها فى الشرفة التى كانوا يسمونها قديما Aristorion " أريستوريون" فلما رأته فى زى الترك وفى قدمه جراح وفى مشيته عرج أمرته بالجلوس واستفسرت منه عن الإمبراطور ، فلمّا روى لها القصة كاملة وأعلنها بانتصار الإمبراطور الرائع الذى لم يكن متوقعا انشرح صدرها غاية الانشراح ثم أمرت " كاميتزيس"بأن يستريح حتى يطلع النهار فيغادر القصر وينشر على الملأ خبر ما جرى. فلما أصبح الصباح استيقظ كاميتزيس مبكرا وامتطى أحد الجياد وهو ما زال بعد فى الثياب التى جاء بها بعد خلاصه العجيب من الأسر، وركب إلى ساحة قسطنطين فأحدث مرآهُ فى الحال دهشة عمّت أرجاء المدينة ، وإذا كان الجميع فى

لهفة وشوق لسماع خبر مخاطرته فقد كانوا أكثر شوقا لسماع أخبار الإمبراطور ، فوقف وسط حشد من الرجال ما بين راجل وراكب وأفاض فى ذكر خبر المعركة بصوت جهورى جلىّ ، وجميع ما صادفه الجيش الرومانى من الأهوال والشدائد ، كما تحدث بما هو أهم من ذلك ألا وهو خطط الإمبراطور لكَسْر العدو ، وكيف كان انتقامه من رجاله كبيرا تمثَّل فى انتصاره الباهر عليهم ، ثم أخبرهم فى النهاية عن قصة هربه من أيدى الترك وهى قصة تدخل فى إطار المعجزات . فلما سمع الناس ما قاله صفقوا له ، وكان رَجْعُ صدى هتافهم شديدا يكاد يصم الآذان .

(٧)

انتهى ذلك الحدث البارز على هذه الصورة .

وامتلأت القسطنطينية بالقصص التى تدور حول أعمال الإمبراطور البطولية ، ولقد شاء حظه أنْ تكتنفه صعوبات بالغة الشدة كانت مجحفة له هو ذاته وللإمبراطورية ومع ذلك فقد تحملّها كلها بفضل ألْمعيّته ويقظته وشجاعته ، ولو استعرضنا جميع الأباطرة الذين سبقوه حتى يومنا هذا لما وجدنا فيهم أحدا استطاع أن يعالج مثل هذه الأمور المعقّدة ويواجه مكائد الكائدين المختلفة فى الداخل والخارج مثلما واجهها ألكسيوس .

إذا كان من الأمور الثابتة المقررة أن يكون ما يعانيه الشعب الرومانى من البلايا إنما جرى بأمر من الرب وحده إلاّ أنى لا أستطيع أنْ أنسب حظا ما إلى حركات النجوم فإن قوة الرومان انهارت إلى الدرك الأسفل بسبب حماقة الحكام السابقين ، وما من أحد ينكر أنه قد جرت فى أيام والدى اضطرابات كثيرة ، وتكالبت عليه أهوال راحت الواحدة منها تهاجمه تلو الأخرى مما أسفر عن ضرر مصالحنا ، ففى الوقت الذى تحرك فيه البشناق ضده من ناحية الشمال جاء الكلت من الغرب والإسماعيليون من الشرق ، ناهيك عن الأخطار القادمة من البحر الذى يسيطر عليه المتبربرون ، وقيام العديد من سفن القراصنة الحربية التى بناها المسلمون وغير هذه السفن من مراكب

القتال التي يرسلها " الفيتون " vetones الذين كانوا يكرهون الإمبراطورية الرومانية كرها عميقا وتنطوى قلوبهم على حسدها وتأكلهم الغيرةُ منها .

ولا مشاحة فى أن يكون الروم - وقد تمكنوا من سيطرة إمبراطوريتهم على الشعوب الأخرى - موضع كراهية هذه الأمم التى لم تكن تلوح لها فرصة لمهاجمتنا إلا اغتنمتها فهاجمتها برا وبحرا ، وانثالت من كل حدب وصوب على الإمبراطورية التى لم تكن فى سالف الأيام (قبل زماننا هذا) تقاسى مثل ما تقاسيه اليوم من المكاره ، ولم تبلغ أعباؤها يومذاك ما بلغته اليوم من إرهاق ، إذْ ما كاد أبى يعتلى العرش حتى داهمه سيل جارف من الأحداث الصعبة التى راحت تنصبّ عليه من كل ناحية ، فقد أخذ الكلت فى التحرك ومضوا يوجهون حرابهم إليه ويشرعون سيوفهم ضده ، كما انطلق الإسماعيليون يوترون أقواسهم ليرموهُ بها ، كذلك ضاعفت القبائل البدوية والبشناقية من هجماتها عليه بالآلاف المؤلفة من عرباتهم .

ربما يقول قارئى حين يصل إلى هذه النقطة من تاريخى إنى أحَـرِّفُ الحق عن مواضعه، وردِّى على هذا القائل أنى أقسم بحق الأهوال التى تحملها الإمبراطور من أجل رفاهية الشعب الرومانى وباسم أحزانه والمشاق التى كابدها نيابة عن المسيحيين - إنى لست ممالئة له فيما أقوله وأكتبه عنه ، بل على العكس لا أرى نفسى قد حدْتُ قيد شعرة عن جادة الحق، فإنى إذا رأيته أخطأ التزمت بقانون الطبيعة فبادَرْتُ إلى قول الحق ، وإذا كان أبى غاليًا عندى فالحق أغلى منه ، وكان الأمر كما قال أحد الفلاسفة " إنْ يكن هناك غاليان فالحق أغلاهما "، لقد تتبعت واقع الأحداث من غير أية إضافة من عندى ولم أخْفِ شيئا قط من الحقائق .

وهكذا أنا فيما أقول وما أكتب والدليل على صدق ما أحكيه أنى أتكلم عن أشياء جرت منذ أمد قريب كل القرب ، ولست أدرج أحْدَاثا لها من العمر عشرة آلاف سنة ، وما زال بيننا هنا رجال على قيد الحياة عرفوا والدى ، وحدثونى عن أعماله ، كما ساهموا هم أيضًا مساهمة غير ضئيلة فى الأحداث ، وراح بعضهم يروى ويتذكر أدّق الأمور التى وَعَتْها الذاكرة عن هذه الحقبة ، ولقد أخذْتُ منهم جزءا غير ضئيل فى كتابى ولم يكن فى رواياتهم تضارب ولا اختلاف .

هذا إلى جانب أنى كنت معظم الوقت ملازمة لأبى ووالدتى ولم يفرض القدر عليَّ أنْ أظلَّ ملازمة للبيت فأتوارى فى الظل وأتقلب فى مطارف الراحة والرفاهية إذ أبَت المصاعب والكروب إلاَّ أنْ ترافقنى منذ أنْ كنتُ فى المهد ، ويشهد المسيح وأمه على صدق ما أقول ، وكانت بعضُ هذه الشدائد تأتى من الخارج وبعضها من الداخل .

أما فيما يتعلق بخصائصى وطباعى فلن أتكلم عنها إذْ يستطيع العالمون بالأمور أن يصفوها ويسهبوا فى الكلام عنها ، لكن إذا ما كتبتُ عن الأضرار التى جاءتنى من الخارج، وعن الأهوال والمصائب التى صادفتْهُا حتى قبل أنْ أبلغ الثامنة من عُمرى وعن الخصوم الذين حركهم ضدى لؤم الرجال فإنى أحتاج إلى عبقرية " سقراط" ، وبلاغة " بندار"، وإبداع " هومير"، وقيثارة " سافو"، وغيرهم من أصحاب الملكات العالية. وحسبى أنْ أقول إنه ما من خطر دَقَّ أو عَظُم ، وجاء من قريب أو بعيد إلا ومَسَّنى .

والحق الذى لا مريَةَ فيه أنِّى منذ تلك السن حتى الآن ما أرانى إلاَّ غارقة فى بحر لجى من المصَائب طغت علىّ أمواجه واحدةً بعد الأخرى وأغرقتنى فى لجتها ، ولا زلتُ حتى لحظة تسطيرى هذه الكلمات وأنا غارقة فيها .

لكن يجب علىَّ الآن أنْ أتوقف عن متابعة الكلام فى هذا الموضوع فقد اندفعتُ عن غير قصد إلى ذكر متاعبى .

أمَا وقد تملكت الآن نفسى فإننى سوف أتابع السباحة مع التيار وأرجع إلى موضوعى الأصلى ، وإذا كنت قد قلتُ إنَّ بعض مادة كتابى هذا هى نتيجة ملاحظاتى الشخصية فإنى قد استعنت فى جَمْع شتات البعض منها بطرقى الخاصة من رفاق الإمبراطور فى السلاح وهم الذين كانوا يجيئون إلينا بأخبار سير المعارك من أُناس عبروا البحر . وفوق هذا كله فكثيرا ما سمعت الإمبراطور وجورج بالايولوجس يتحدثان فى هذه المواضيع وأنا حاضرة مجلسهما ، وقد استطعت أن أجمع بهذه الطريقة جانبا كبيرا من مادتى ومعظم الأدلة، لاسيما فى عهد ثالث الأباطرة بعد أبى [تقصد مانويل ١١٤٣ - ١١٨٠] فى وقت لم يكن فيه مجال للنفاق ، فقد جرت العادة

أن يتملق الناسُ صاحبَ الصولجان الجالس على العرش فى وقتهم ، لكن لم يحدث قط أن داهنوا رجلا رحل عن الدنيا فكالوا له الثناء ، بل نرى الجميع يسوقون الحقائق مجردة ويوردون الأحداث كما وقعت تماما دون زيادة أو نقصان .

أما فيما يتعلق بى أنا على وجه الخصوص فإنِّى أنَحِّى جانبا الألم الذى حاق بى بسبب الحظ الأسود وأجدنى أذْرف الدَّمع السخينَ على ثلاثة حكام هم : أبى الإمبراطور ، وسيدتى الأم الإمبراطورة ، وزوجى قيصر نقفور (برينيَس) الذى كان حزنى عليه خاصا بى أنا وحدى ، ومن أجل هذا فإنى أمضى وقتى منطويةً على نفسى منصرفة إلى كتبى متعبدةً للرب ، ولستُ آذن لأحد مهما علا مركزه بزيارتى إلاَّ أنْ يكون فى الاستطاعة الوقوف منه على أنباء يكون هو قد سمعها من غيره ، كما أنى لا أسمح باللقاء إلاّ لمن كانوا من خاصة أصدقاء أبى ومن أشدهم التصاقا به .

وأقسم بأرواح أعظم الأباطرة المباركين أنى على مدى الأعوام الثلاثين الأخيرة لم أر أحدا من أصدقاء أبى ولا تكلمت مع أحد منهم ، والسببُ فى ذلك أنَّ غالبيتهم العظمى قد ماتوا، أمّا من ظلوا أحياء فقد كان يمنعهم من لقائى خوفهم من السلطات الحاكمة التى فرضت علينا أن نحتجب فلا يرانا أو يزورنا أحد من الناس. وكان ذلك قرارا فرضه مَنْ أمْرُه يشبه اللعنةَ الأبدية .

ويشهد الرب وأمه مريم الطوبانية على صدق ما أقول من أنى جمعْتُ مادّتى التى أدرجتها فى مؤلفى هذا من مصادر بسيطة فخرجت فارغة تماما من المحسنات اللّفظية ، كما استقيتها من عسكريين مسنّين كانوا يعملون فى الجيش وقت أن كانت السلطة لأبى ويوم أن كان له الأمر والنهى ، ويوم كان هو صاحب النفوذ ، ثم فرض عليهم الزمنُ السيئ ومصائب العالم الذى يعيشون فيه أن يؤثروا الانزواء فانخرطوا فى سلك الرهبان ، كما أن الوثائق التى وصلت إلى يدى مكتوبة بلغة بسيطة مع التزامها بجادة الصدق إلى جانب أنها امتازت ببعدها عن تزاويق الأسلوب ، يضاف إلى ذلك أن الأخبار التى أوردها أصحابها القدماء كانت فى لغتها ومضمونها تشبه تماما تلك الشروح التى اعتمدت عليها فى استخلاص ما تضمَّنه تاريخى ، و من بينها بيانات صادقة حتى إذا قارنْتُ رواياتها أولا بما كُتِب ثم بما سمعته بنفسى لاسيما من أبى

وأعمامى وأخوالى ، ثم ضممتها بعضها إلى بعض كان منها تاريخى هذا الذى التزمتُ فيه جادة الصدق .

لقد كنت أتكلم عن نجاة " كاميتزيس" وفراره من أيدى المتبربرين وعن خطابه فى الناس ، وأعود الآن إلى ما كنت فيه فأقول: إن "كاميتزيس" قدم للناس تقريرا مفصلا عن كل ما جرى ، وأخبرهم بجميع خطط الإمبراطور ضد الإسماعيليين [تقصد المسلمين] .

فلما سمع أهل القسطنطينية ما قاله لهم لم يسعهم جميعا إلا الثناء على ألكسيوس وتمجيده والدعاء له وتمجيد اسمه والهتاف به هتافا عاليا شق أجواز الفضاء، وأثنى الناس الثناء العاطر على حسن قيادته ولم يستطيعوا كتم فرحتهم من أجله ، ثم صحبوا كاميتزيس حتى أدخلوه داره والغبطة تَمْلأ نفوسهم، ولم ينقض على ذلك الخبر سوى أيام قلائل حتى خرجوا لاستقبال الإمبراطور المنتصر المتوج بأكاليل الغار مرحبين به : قائدا لا يقهر ولا يُغلَب ، ونادوا به " السباستيوس والأوتوكراتور" الغالى عليهم ، ثم دخل الإمبراطور قصره وقدم الشكر للرب وللسيدة العذراء البتول أم المسيح لعودته سالما، ثم راح يتابع برنامجه . ولما رأى نفسه قد فرغ من الحروب فى الخارج وأخمد ثورات المتمردين المتطلعين إلى العرش عاوَدَ اهتمامه بمحاكم العدل وبالقوانين .

لقد كان ألكسيوس زمن الحرب هو نفس ألكسيوس الذى عرفه الناس زمن السلم ، فهو المشرِّع الأول الذى يقضى بما فيه صالح اليتيم ويعمل ما يعود على الأرملة بالإنصاف ، وكانت لا تأخذه لومة لائم فى رفع المضرة والظلم عن الناس ، وقليلا ما كان يعطى بدنه حقه من الراحة أو يخرج للصَّيد أو غيره من فنون اللهو وإزجاء وقت الفراغ.

هكذا كان شأنه فيلسوفا حقيقيا، يكبح جماح جسده ويخضعه كل الخضوع لإرادته، وكان يمضى معظم يومه ووقته فى العمل المضنى ، فإنْ هو استجم كان استجمامه صورة أخرى من العمل والجهد، أعنى أنه يصرفه فى المطالعة والنظر فى الكتب والدراسة والتمعن الدقيق عملا بالمثل القائل (١٣) : " فتشوا الكتب واعملوا بما فيها".

وكـان الصـيـد ولعب الكرة من وسـائل التـسليـة الثـانوية عند أبى، بل لم يكونا يشغلان اهتمامه حتى فى أيام شبابه، بل وقبل أن يهاجمه ذلك الوحش المفترس وأعنى به المرض الذى أصابه والتف حوله كأنه[١٤] الحية الملعونة التى راحت تزحف على بطنها وتنهش قدمـيـه ، غيـر أنه مـا كـاد هذا الوجع يلم به ويسـتـشرى حـتى شـرع يمـارس التمارين الرياضية وركوب الخيل وغير ذلك من الألعَاب نزولا على نصيحة أطبائه المهرة ، وكان المأمول أن تؤدى مداومته على ركوب الخيل إلى زوال مـا به فى قدميه فيخف ثقل بدنه على رجليه .

لقد كان الكرب الذى يعانيه أبى راجعا - كما قلت من قبل - بالدرجة الأولى إلى سبب خارجى وحيد وأعنى به ما يتحمله من العناء والإنهاك فى سبيل مجد رومة[١٥].

(٨)

قبل انقضاء عام على هذه الأحداث ترامت إلى سمع الإمبراطور شائعة تقول إن الكومـان عبروا نهر "إيستر" مرة ثانيـة فبادر فى الثامن من شـهـر نوفمبر (١١١٤) بمغادرة العاصـمـة وكانت طلائع الخريف قد أهلَّت فـاستدعى جميع قواته فرابطت فى "فـيليـبـوليس" و " بتـرزوس" Petrsos وترياديزونا Ttriadizona وفى إقليم " نيـسـوس" حتى بلغ إقليم " بيرانتزوفا" الذى يجرى فيه نهر "إيستر" وكانت التعليمات الصـادرة إلى الجيش هى الحرص الشديد على خيولهم التى كانوا يتطلبون فيها ضخامة الجثة والقوة لتكون أقدر على تحمل راكبيها فى الحرب . أما الإمبراطور فقد بقى فى مدينة "فيليبوبوليس" الواقعـة وسط إقليم " تراقيا" و يجـرى فى القسم الشمـالى منهـا نـهر "يوروس" Euros الذى ينبع من قمة " رودوب" ويسير حتى ينتهى إلى أدرنة بعد اجتيازه كثيرا من المنحنيات ثم تصب فيه كثير من الروافد التى تنتهى أخيرا إلى البحر قرب مدينة "أينوس" Ainos .

إننى حين أشيـر هنا إلى فيليب فلست أعنى فـيليب المقدونى ابن " أمناس" لأن المكان الحـالى أحدث كثيرا من مدينة فيليبـوبوليس ، كمـا أنى لا أقصد الإمـبراطور الرومانى الذى كان يحكى المارد الجبار فى طوله الفارع وقوّة البنية الطاغى البأس .

أما هذه المدينة فلم تكن تعدو - قبل هذا التاريخ - أن تكون موضعا صغيرا يعرف باسم " كريندس" Krenides وإنْ سمّاها بعضهم " تريموس" Trimous . على أن فيليب الرومانى هذا المنعوت بالمارد جعل منْ هذا الموضع مدينةً كبيرة وأحاطها بالأسوار وأصبحت أشهر المواضع على الإطلاق فى تراقيا ، كما أنشأ فيها مسرحا عظيما إلى غير ذلك من المبانى الهامة .

ولقد شاهدتُ بنفسى أطلال هذه المبانى حين أقمتُ فيها مع الإمبراطور تحت ظروف معينة . وتقع المدينة الآن على ثلاثة تلال يحيط بكل منها سور شاهق الارتفاع، أما حين تنحدر إلى السهل وتصل إلى المستوى العادىّ للأرض فيوجد خندق طويل قُرب نهر " يورُوس" .

وتشير الظواهر إلى أن فيليبوبوليس هذه كانت ذات مرة فى تاريخها مدينة عظيمة رائعة ، ثم تدهورت حتى آلت إلى الصورة التى رأيناها عليها أيام والدى ، ولقد ألَمَّ بها هذا التدهور بعد ما عانته على أيدى " التوروى" Touroi والأسكاثيين الذين استرقّوا سكانها من قبل . لكن على الرغم مما صارت إليه فأنا أرجح أنها كانت - كما قلت فى الواقع وفى فترة معينة من تاريخها - مدينة رائعة عظيمة وإنْ عانتْ عبث كثير من الهراطقة الذين أفسدوا رونقها ، فقد استبد بها الأرمن وأفسدها من يسمون بالبوجوميليين الذين سوف أتكلم عنهم فى الموضع المناسب حين أشير إلى ما كانوا عليه من الإلحاد .

إذا خلينا هذا جانبا فقد كان يعيش بالمدينة جماعات البوليكان وهم كفرة لا يعرفون لهم ربا ويسمون أيضًا بالمانويين (١٦).

وأحب فى هذا المجال أنْ ألخّص العقيدة المانوية فى إيجاز ثم أعود بسرعة إلى التنديد بتعاليمها الإلحادية ، ولما كنت أعرف أن كل شىء يتعلق بالمانويين مستهجن وكنت فى الوقت ذاته ملتزمة بالجانب التاريخى فإنّ الواجب يقتضينى أن أعْرض لعقائدهم وإنْ كنت أعرف أن هناك الكثيرين الذين ندّدوا بهم ، ولم يكن هؤلاء المندّدون من أهل ملتنا فحسب بل كان فيهم أيضًا مَن هم مِن أتباع "يرفيروس" الذى هو من

خصومنا ، فقد اعتبر معتقداتهم المبتذلة أحط درجات الحمق، وذلك حين أخذ يدرس هذه العقيدة بطريقته العلمية الدقيقة. على أنه يجب أن أزيد فأقول: إن عقيدة "يرفيروس" تحمل الناظر فيها فيما يتعلق بالألوهية على قبول الوحدانية الأفلاطونية .

ونحن أنفسنا نبجل الإله الواحد ، ولكن لا نؤمن "بأحدية " تقتصر على شخص "أحد" كما لا نعترف بالأحدية التى نادى بها أفلاطون (وهو الواحد المعروف فى اليونانية بلفظ Ineffable) ، كما يعرف عند الخلقدونيين باسم: السر .

على أن مريدى " مانى" وكذلك بولس ويوحنا ولدَىْ " كالينيكى" Calllnici كانوا على خلق همجى ، كما كانوا قساة القلوب غلاظها بصورة غير مألوفة حتى إنهم لا يتورعون عن إراقة الدماء . غير أن هؤلاء جميعا لاقوا الهزيمة فى ساحة الحرب على يد الحاكم يوحنا زيمسْكس، فقد أسرهم من أيدى الأرمن وغيرهم ثم نقلهم إلى تراقيا وحملهم على الإقامة قرب فيليبوبوليس لسببين: أولهما أنه أراد أن يخرجهم من البلاد شديدة المناعة ومن الجهات الحصينة التى لهم السيادة فيها وكانوا يحكمونها حكما استبداديا ، وأما ثانيهما فهو أنه أراد أنْ يتخذ منهم سداً منيعا فى وجه الهجمات البشناقية التى قاست منها منطقة تراقيا الأمرّين لما جرت عليه عادة هؤلاء المتبربرين من اجتياز ممرات " هيموس" Haemus الجبلية واكتساح السهول الواقعة أسفله، ولكن جون زيمسكس هَدَى خصومنا الهراطقة وحوّلهم إلى حلفاء لنا حتى أفضى بهم الأمر فى النهاية إلى أن أصبحوا جبهةً قتالية قوية كبيرة ضد البشناق البدو ، فاتقت بهم المدن شر الغارات التى كانت تتعرض لها . فتنفس أهلها الصعداء .

لكن لما كان المانويون بطبيعتهم قوما يعشقون الحرية وليس من اليسير حملهم على الخضوع للنظام فإنهم ما لبثوا أن تابعوا عاداتهم البدوية التى شبوا عليها وألِفوها، ومن ثم ارتدوا إلى ما كانوا عليه .

والواقع أن جميع سكان فيليبوبوليس كانوا من طائفة المانويين إلا فئة قليلة كانت مسيحية سرعان ما راحوا يغيرون عليهم وينْهبون ما يصل إلى أيْديهم من المتاع ، ولم يكترثوا قط برُسُل الإمبراطور الذين كان يبعث بهم إليهم بين آن وآخر ، وزادت أعداد المانويين وتضخمت جموعهم حتى صار كل من حول مدينة فيليبوبوليس من أتباع عقيدتهم الفاسدة الإلحادية .

ثم انضم إليهم سيل جارف من المهاجرين الجدد من الأرمن الذين كانوا هم أيضًا أقواما ضالين مضلين ، ثم تلاهم غيرهم ممن نهلوا أنجس تعاليم " خيمس " الدنسة[١٧] .

هكذا كانت فيليبوبوليس مركز تجمع كل هذه الروافد العفنة الآسنة ، وإذا كان الوافدون يختلفون عن المانويين فى العقيدة إلاّ أنهم قبلوا الانضمام إليهم فى حركاتهم التمردية. غير أن والدى واجههم بخبرته الحربية الطويلة فأصماهم وأخذ بعضهم من غير كيد أو حرب ، واسترق غيرهم بقوة السلاح ، فكان العمل الذى قام به إذ ذاك والمشاق التى تحملها فى شجاعة هى فى حقيقتها الشجاعةُ الجديرة برسول عظيم ، وليس هناك من يحول دون الثناء عليه وإجْلاله ، وإذا اعترض البعض فزعموا أنه أهمل واجباته الحربية فإنّى أشير إلى أن الشرق والغرب كانا ساحة لحملاته التى لا حدود لها، وإذا كان هناك لائم يلومه فإنّ رَدِّى على لائميه هؤلاء أنى أعتقد أنه ما من أحد كان أكثر منه نظرا فى الكتب المقدسة أو أكثر منه اطلاعا عليها فكان الجواب عنده حاضرا فى جَدَلِه مع الهراطقة ، وهو وحده – دون غَيرِهِ – الذى اصطنع السيف والكلمة على حد سواء معهم ، وفلّ شوكة هؤلاء الزنادقة ودحض حججهم ، وسلّح نفسه ضد المانويين بما يتسلح به الهداة المرشدون لا المقاتلون ، وإنى لأنْعَتُه " بالحوارى الثالث عشر" كما ينعت البعض قسطنطين الكبير بهذا الشرف .

والرأى عندى أن أضعه فى مرتبة الإمبراطور قسطنطين ، فإن حاجّنى فى ذلك أحد وغضب فلا أقلَّ من أنه يليه مباشرة كرسول وكإمبراطور .

كنت أقول إن ألكسيوس وصل إلى فيليبوبوليس للأسباب التى ذكرتها ، لكن لما لم يكن قد ظهر أىُّ أثر للكومان فقد أصبح الهدف الرئيسى لهذه الحملة هو مواجهة المانويين ، ونجح إذ انتزَعهم من عقيدتهم الفاسدة بكل سخائمها ، وملأ قلوبهم بحلاوة عقائد كنيستنا ، فكان يدعوهم لزيارته منذ الصباح الباكر حتى يحين العصر أو يدخل العشاء ، ويظل يحاورهم حوارا قد يطول حتى تحل الحراسة الليلية الثانية أو الثالثة ، وكانوا إذا قدموا عليه بصَّرهم بالعقيدة الأرثوذكسية منددًا بهرطقتهم الفاسدة ، ويكون

معه إذ ذاك " يستراتيوس" أسقف نيقية وكذلك رئيس أساقفة فيليبوبوليس نفسه ، وكان أولهما عالما فقيها ، عارفا بالكتب المقدسة مع الاطلاع الوافر العميق على الأدب العلماني، هذا إلى جانب أنه كان ضليعا في علوم البلاغة أكثر من إلمام فلاسفة "ستويا" Stoa أو رجال الأكاديمية بها ، كما أن زوجي قيصر نقفور الذى دربّه أبى فى دراسة الكتب المقدسة كان الساعدَ الأيمن للإمبراطور فى هذه اللقاءات . وترتب على ذلك أن الكثيرين من هراطقة هذا الوقت لم يتأخروا عن المبادرة فى الذهاب إلى القسس ليعترفوا بين أيديهم بخطاياهم وليُعَمَّدوا التعميد الطاهر .

ومن ناحية أخرى كان هناك الكثيرون فى ذلك الحين من العاضّين على دينهم بالنواجذ والمخلصين له الإخلاص التام والمتمسكين به تمسكا يفوق تمسك المكابيّين المأثور فتراهم يقتبسون عبارات من الكتب المقدسة يتمثلون بها دعما منهم (كما يتصورون) لعقيدتهم المزرية ، ومع ذلك فإن الجمهور الأكبر - حتى من أولئك المتعصبين -كانوا يجدون الإمبراطور لا يكف عن ملاحقتهم دون أن يتطرق إليه الكلل ، ويواليهم بعظاته المستمرة حتى انتهى الأمر أخيرا بهم إلى التعميد ، وكان حواره معهم يستمر منذ طلوع النهار حتى ساعة متأخرة من الليل دون أن ينال بعض الراحة. وكان فى بعض الأحيان يبقى فى خيمة مفتوحة بلا طعام رغم أن الوقت قد يكون إذ ذاك صيفا .

(٩)

بينما كانت كل هذه الأمور تجرى على ذلك النسق ، وبينما كانت رحى الحرب الكلامية دائرة مع المانويين إذا برسول يصل إلى الإمبراطور من "إيستر" ينبئه بأن الكومان عبروا النهر ، فلم يطق ألكسيوس صبرا على ما سمع بل بادر فى لحظته فساق نحو الدانوب بكل من كان تحت يده من العسكر ، حتى إذا بلغ "فيدين" Vidyne وَجَدَ أولئك المتبربرين [١٨] قد رحلوا إلى أبعد نقطة على الشاطئ ، وقد فعلوا ذلك حين علموا أنّ الإمبراطور فى طريقه إليهم ، وحينذاك بادر هو ففصل كتيبة من أحسن

المقاتلين وأمرها بالخروج فى الحال لمطاردة العدو، فلما عبرت هذه الكتيبة النهر صادفت الكومان فألحّت فى مطاردتهم مطاردةً استمرت ثلاثة أيام بلياليها . حتى إذا تبين لها أنهم يمّموا وجوههم سراعا شطر أقصى بقعة من الدانوب وقد وصلوها بالأرماث التى حملوها معهم عاد مقاتلو الكتيبة أدراجهم إلى الإمبراطور دون أن ينجزوا شيئا ما ، فتبلبل خاطره لنجاة المتبربرين ، وإنْ عَدَّ ما جرى نوعا من الانتصار إذ نفروا هاربين لسماعهم اسمه .

وزيادة على ذلك فإنّه هَدى الكثيرين من تلاميذ مانى فأدخلهم ملتنا ، وبذلك أصاب هدفين بسهم واحد ، كان أحدهما هو انتصاره على الكومان بقوة السلاح ، أما ثانيهما فهو إخضاعه الهراطقة المانويين - من طريق الحوار الدينى .

ثم إنّه انسحب بعد ذلك إلى فيليبوبوليس ليستجم فيها فترة قصيرة ثم عاود بعدها النضال من جديد ، إذ كان يستدعى لمقابلته فى كل يوم المانويين الثلاثة الكبار وهم: " كوسينوس" Kousinous وكوليون Kouleon و " فولوس" Pholos ، وينهمك فى مجادلتهم جدالا كأنّه يحاربهم ، وكان هؤلاء الثلاثة مثل بقية قومهم فى كل ناحية يصرّون على التمسك بعقيدتهم الفاسدة تمسكا أعمى مع دحْضِ كل محاولة ليثنيهم عما يعتقدون، كما كانوا بارعين كل البراعة فى الوقت ذاته فى تمزيق " الكلمة المقدسة" وإساءة استعمالها بإفراغها من مضمونها ، لذلك كان الصراع عنيفا بين طرفين أحدهما هو الإمبراطور الذى يبذل قصارى جهده من أجل إنقاذ أرواحهم ، والآخر يمثله أولئك المانويون الذين يجادلون فى غباء .

وتأهب هؤلاء الثلاثة للمعركة كأنهم دببة قد أبدت مخالبها وكشّرت عن نواجذها واستعدوا لتفنيد حجج الإمبراطور وتمزيقها إربا إربا ، فكان إذا فات " كوسينوس" شيء تناوله " كوليون" ، وكان إذا ما غُمَّ أمر على كوليون وضاقت به السبل فى الرد عليه بادر "فولوس " فحمل راية المعارضة و الجدل ، وهكذا أخذ الثلاثة - واحدا بعد واحد - فى مهاجمة آراء الإمبراطور ودحْض حججه وتفنيدها ، فكانوا أشبه بالأمواج الهادرة الصاخبة تَتْلُو الواحدة الأخرى وتكون أشدَّ منها عنفا ، ولكن الإمبراطور استطاع أن يدحض كل نقد يوجهونه إليه وحينذاك تبدو معارضتهم أوْهَى من بيت

العنكبوت وسرعان ما يُلجم ألسنتهم القذرة ، لكن حماقتهم حالت بينهم وبين هدايتهم إلى الحق فلما يئسَ من أن يسلكوا سبيل الرشاد بعث بهم إلى العاصمة وخصص لهم مكانا يقيمون فيه ، وكان موضعه هو الأروقة المحيطة بالقصر الكبير .

غير أن محاولاته هذه لم تفشل كل الفشل رغم عجزه فى لحظته الراهنة هذه عن تصيّد هؤلاء القادة ، وكان النجاح يحالفه إذ يُدْخِل حظيرة الرب فى كل يوم منهم مائتى رجل أو يزيدون ، حتى لقد اهتدى بكلماته - التى آتت أُكلها - ألفُ شخص أو ربّما عشرة أمثالهم .

لكن يا ترى ما الذى يحملنى على أن أبدّد الوقت فى شىء يعرفه الناس قاطبة وتدرى به الدنيا كلها ؟ فالغرب والشرق على السواء يشهدان كيف أن أقطارا بأكملها كانت تعتنق صنوفا شتى من الهرطقة لكنها اهتدت على يده بأساليب مختلفة وآمنت بعقيدتنا الأرثوذكسية .

أما وجوه المانويين الذين اهتدوا وآمنوا فقد حازوا الجوائز السنية وسجّلهم الإمبراطور فى ديوان الجيش ضباطا ، وأما الذين كانوا دونهم مرتبة من أصحاب المهن الدنيا من الأكارين ورعاة البقر وأمثالهم فقد حشرهم هم ونساءهم فى صعيد واحد ، وضم إليهم أبناءهم وشيد لهم هم وحدهم مدينة خاصة بهم تقع بالقرب من فيليبوبوليس على الجانب الآخر من نهر "إيروس" Euros وأنزلهم موضعا عرف باسم "ألكسيوبوليس" ، وإنْ يَكنْ اسم " نيوكاستروم" [١٩] أكثر شيوعا، وأجْرَى عليهم الأرزاق وزودهم جميعا بالأراضى الصالحة للزراعة وببساتين الكرم ، وأقطعهم الدور والعقارات الثابتة، ولم تكن عطاياه هذه ومنحه كحدائق أدونيس تزدهر اليوم لتذوى غداً ، بل صدرت بها مراسيم عليا تؤكد ملكية هؤلاء الناس لها . وزيادة على ذلك فلم يَقتصر نفعها على هؤلاء الأشخاص وحدهم، بل تجاوزهم إلى أن يكون لهم الحق فى توريثها لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم .

وقد تضمنت المراسيم الإمبراطورية كل هذه الحقائق فى جلاء لا غموض فيه وتقرر أنه إذا مات الورثة الذكور ورثتهم النساء.

ولن أزيد شيئا من القول في هذا الموضوع حتى لا يعثر أحد على نقص ما فيزعم أني متحيزة لأبي، فإني أقول إن الكثيرين ممن لازالوا حتى اليوم أحياء هم شهود عيان على هذه المعاملات المالية وإذ ذاك لا يستطيع الذام أن يجد وجها لاتهامي بالكذب .

ولما أنجز الإمبراطور جميع الترتيبات التي لابد منها غادر فيليبوبوليس وعاد أدراجه إلى العاصمة ليجد الصراعات العقائدية قد انبعثت من جديد ضد " كوليون" و"سينوس" ومن لف لفهما ممن اعتنقوا مبادئهما .

على أن " كوليون" اقتنع هذه المرّة ، وظني به أنه كان أكثر من رفيقيه ذكاء وأقدر على استيعاب الحجة الشريفة والاقتناع بها . فأصبح أطوع حَمَلٍ في حظيرة إيماننا.

أما " كوسينوس" و " فولوس" فكانا على النقيض منه تماما إذْ لجأ في المعتقدات الفاسدة، ولم تؤثر فيهما ألبتَّة حجج الإمبراطور التي كانت تنهال عليهما باستمرار كأنها المطارق ، فقد ظلا على ما كانا عليه من قَبْل وكأنهما قد قُدَّا من حديد لا يلين ، فلم يحفلا بشيء ولم تلن لهما قناة ، وحينذاك لم يجد (أبي) بدا من الزج بهما في السجن المسمى بحبس " الفنْتين"؛ لأنهما كانا أكثر المانويين تجديفا ، واتضح للجميع أنهما أكثر الخلق إقبالا على الأفكار السوداء ، وجُهِّزا في محبسهما بكل ما يلزمهما من ضرورات الحياة ، وظلا في سجنهما حتى ماتا وحيدين حاملين آثامهما .

الحواشي

(١) فى إليزابيث: "السفراء"، ولعلها هى الأصحّ فما كان للإمبراطور أن يرسل فى مثل هذا الأمر الكبير رجلا واحدا فقط ويؤكد صدق هذا الاستنتاج ما سيرد بعد قليل من قولها "السفراء" ، انظر حاشية رقم ٣ .

(٢) تقصد المؤلفة بهذا النعت تكريد وإن نَعَتَتْه نسخة إليزابيث بالمجنون .

(٣) راجع حاشية رقم ١ أعلاه .

(٤) ورد فى الترجمتين الإنجليزيتين اسمه "امير ايزان" ,Emir Eisan والمقصود به ملك شاه أكبر أبناء قلج شاه وكان قد تخلص من أيدى الترك سنة ١١١٠ واستطاع بعد هزيمة الأمير حسن أن يضم مملكته متخذا قونية عاصمة له وأصبح من القوة بالدرجة التى تمكنه من البيزنطيين .

(٥) إشارة إلى الخبر الوارد فى الإنجيل عن المن والسلوى.

(٦) فى إليزابيث: "هذا الجندى الجاهد للفضل" .

(٧) وردت العبارة التالية بعد كلمة "السلطان" فى إليزابيث:" الذى قد أرسل هذه القوات ".

(٨) يلاحظ أن هذه أول مرة تأتى بصراحة كلمة " المسلمين ".

(٩) تشير بذلك أنا كومنينا هنا – من غير أنْ تصرح – إلى أخيها يوحنا الثانى الذى خلف أباها على كره منها.

(١٠) ورد اسمه فى نسخة إليزابيث على صورة"abelas" فى موضعين.

(١١) المقصود بالمتبربرين هنا : السلاجقة الأتراك المسلمون كما يستفاد ذلك مما ذكرته المؤلفة فى السطر التالى. على أنه يلاحظ أن نسخة إليزابيث خلت من هذه الكلمة ولكن جاء بدلا منها كلمة " الترك " فقط .

(١٢) جاءت هذه العبارة فى إليزابيث على الوجه التالى: " بادر فزحف يطارد الإمبراطور بعد أن انضم إلى جميع التركمان الذين يسكنون أسيا ".

(١٣) هذه إشارة إلى ما جاء فى إنجيل يوحنا ٣٩/٥ من قوله: " ... لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية ".

(١٤) تشير هذه العبارة القصيرة إلى ما جاء فى سفر التكوين من قصة الحية التى دفعت حواء إلى إغراء أدم بأكل التفاحة من الشجرة الملعونة .

(١٥) ورد فى إليزابيث كلمة " الرومان" بدلا من رومة.

(١٦) أشارت نسخة سوتير فى كلمات قلائل إلى المانويين فقالت إن أول ظهورهم كان في فارس وكانت تعاليمهم تقول إن هناك قوتين متعارضتين هما الخير والشر أو بمعنى أدق فى مقصودهم : " الله " و"الشيطان".

(١٧) المقصود به يعقوب البرادعي رأس المونوفستيين فى القرن السادس.

(١٨) المقصود بالمتبربرين هنا الكومان .

(١٩) أوردتها نسخة سوتير بالنون أما إليزابيث فقد جعلتها بالميم .

الكتاب الخامس عشر

الانتصار على الترك ، ودار الأيتام ، وهرطقة البوجوميليين، مرض ألكسيوس وموته (١١١٦ - ١١١٨)

فقرات الكتاب الخامس عشر

١ – قلج أرسلان يعاود تخريب آسيا. متاعب الإمبراطور الصحية. سخرية البربر به. انتصار بيزنطى عند " كليا".

٢ – شجاعة إيرين وانتصار بيزنطى جديد . ألكسيوس فى نيقوميديا .

٣ – تراخى الإمبراطور وفشله فى تحطيم أعدائه ولكن لا يزال ثابت الجنان وثقته بنفسه كبيرة . المؤلفة تدافع عن نفسها حين تمتدح أباها .

٤ – ألكسيوس يعود إلى الأنصبة المقدسة .

٥ – مانالوخ يفكر فى تكوين حلف جديد . انضمام ملكشاه إليه . موت أندرونيكوس أخى المؤلفة فى ساحة القتال .

٦ – ملكشاه وعجزه عن هزيمة القوة الرومانية وسعيه للصلح . إعداد الاتفاقية . سمل عينى ملكشاه ثم شنقه على يد خصمه التركى .

٧ – زحْفُ الرجال والنساء والأطفال الناجين . الوصول إلى دماليس . دار الأيتام .

٨– البوجوميلون وبازيل ومحاولة الإمبراطور التفاهم مع بازيل للكشف عن عقيدته الفاسدة . وحبسه وحدوث معجزة .

٩– أوامر الإمبراطور الجديدة . اضطهاد البوجوميليين و التفرقة بينهم وبين المسيحيين الصادقين بحيلة خاصة .

١٠- حرق بازيل حيا فى ساحة الهيبدروم .

١١- اشتداد المرض بالإمبراطور ومحاولات الأطباء إنقاذه . جهود المؤلفة فى هذا السبيل . الفصول الأخيرة من حياته وحزن الإمبراطورة عليه . محاولاتها المتكررة لدفع الخطر عن طريق الصلاة والإحسان. موت ألكسيوس .

(١)

هكذا جرت إجراءات الإمبراطور بشأن " فيليبوبوليس" والمانويين ، لكنه لم يكد يفرغ من ذلك حتى عاد المتبربرون ليثيروا القلاقل فى وجهه من جديد ، فقد تجهز السلطان سليمان(*) للعَيْث فسادا فى أرجاء آسيا مرة أخرى وأعدّ العدة لمقاومة عنيفة ضد الإمبراطور ، فحشد الجند من خراسان وحلب ، لكن وصل خبر ذلك كله إلى ألكسيوس الذى ما إن وقف على ما يبتغيه العدو حتى أجمع عزمه على النهوض إليه بنفسه فخرج وزحف عليه حتى بلغ " قونية" الواقعة على حدود سلطانية قلج أرسلان قاصداً شن حرب ضارية جنّد فيها الأغراب إلى جانب فيلق من المرتزقة الأشداء ، وأما جيشه الخاص فقد استدعاه من مختلف النواحى .

وبينما كان كل من هذين القائدين يتأهب لقتال الآخر إذا بالمرض القديم يعاود الإمبراطور فى قدميه ويهاجمه بعنف ، هذا مع استمرار تدفق العسكر عليه من شتى النواحى وإنْ كانوا فى زمر صغيرة ، ولم يجيئوا كلهم مرة واحدة؛ لأنهم كانوا قادمين من ديارهم القاصية .

واشتد النقرس بالإمبراطور شدة أقعدته عن الحركة فلازم فراشه لا يبرحه ، ولم يكن يضيره كثيرا وقتئذ الألم الجسمانى المبرح الذى يكابده بقدر ما كان يكربه تأجيل حملته ضد المتبربرين ، ولما كان ملكشاه واقفا على كل ما يجرى فقد انطلق

(*) علق الأستاذ سوتير على ذلك فقال إن المؤلفة أنا كومنينا أخطأت فإن سليمان بن قطلمش سلطان نيقية مات فى وقعة عام ١٠٨٦ ، كما أن ولده قلج أرسلان الأول غرق أمام السلاجقة سنة ١١٠٧ ، وكان للأخير ولدان هما ملكشاه ومسعود الذى تولى الحكم من ١١٠٧ إلى ١١١٦ ومن ١١١٦ إلى ١١٥٥ على التوالى ثم قال المترجم : أما قلج أرسلان فلعلّه ملكشاه .

يعيث فساداً في كل أرجاء آسيا حسبما شاء هواه ، إذ لم يكن هناك شيء يصده في هذه اللحظة حتى لقد بلغت غاراته على المسيحيين سبع غارات .

لم يكن الوجع الذي يقاسيه الإمبراطور هذه المرة ككل وجع ذاقه من قبل ؛ إذ كان الألم يأتيه من قبل على فترات متباعدة وقد يطول ما بين المرة والمرة ، أمّا الآن فلا تنقطع نوباته بل تتوالى هجماته عليه في سرعة بالغة ، وخُيِّل لرفاق ملكشاه أن هذا الأمر لم يكن أكثر من تظاهر وادعاء باطل من جانب الإمبراطور ، وأنه لم يكن سوى ذريعة حتى لا يخرج للقتال وحجة يبرر بها خوفه ، فلما اطمأن الساخرون إلى ما زعمته لهم أنفسهم انكبوا على اللهو والشراب ، وراحوا يتهكمون على أوضاعه وجعلوا من النقرس موضوعا يتندرون به فيما بينهم ، كما انطلقوا يمثلون دور المطبب والمريض فكانوا يجيئون بواحد منهم وينادونه " بالإمبراطور" ويضعونه على الفراش ثم يلتفّون حوله ساخرين به ، وتتعالى قهقهاتهم من هذه العروض الصبيانية . فلما عرف ألكسيوس بما يفعلون حنق أشد الحنق وغلى مرجل غضبه وأجمع عزمه أكثر من ذي قبل على الخروج لقتالهم ، لذلك ما كاد الألم يخف قليلا عن ذي قبل حتى نهض وزحف بالحملة ، وأوصله الزحف إلى "داماليس" وهنا ركب المضيق الفاصل بين " كيبوتوس" وبين "ايجيالوى" وأرسى في الأولى ، ثم تابع زحفه إلى " لوباديون" فلما وصلها رأى أن يتريَّث في انتظار بقية عسكره وجماعات المرتزقة الذين كان قد أمر باستدعائهم ، فلما تكاملت حشوده زحف بهم جميعا إلى قلعة " سنت جورج " المجاورة لبحيرة نيقية فاحتلها ، ثم تابع زحفه إلى نيقية ذاتها حيث بقي بها ثلاثة أيام عاد أدراجه بعدها وعسكر إلى جوار " لوبارديوم" ، غير بعيد عن نبع يسمونه نبع " كاريكس " Caryx وكانت خطته تتلخص في أن يعبر الجيش الجسر أولا ثم يتخير بقعة ملائمة يعسكر فيها ، فإذا أصبح كل شيء على خير وجه عَبَرَ هو هذا الجسر وضرب فسطاطه الإمبراطوري في السهل الواقع عند سفح تلال لنتيانيان عند الموضع المسمَّى باسم "كوتويراكيا" ، فجزع أعداؤه الترك حين بلغهم خبر قدومه ، فأوقدوا نارا كبيرة ليوهموا مَن يراها بوجود جيش ضخم هنا ، وتعالت ألسنة النيران نحو السماء وأفزعت الكثيرين من الجند الذين لم تكن لهم خبرة ولكنها لم تفزع قط ألكسيوس . ثم ما لبث الترك أنْ فرّوا حاملين معهم ما نهبوه من الغنائم واصطحبوا أسْراهم . غير أن

الإمبراطور أسرع مع بزوغ الفجر إلى السهل عساهُ يلقاهم فى بعض الطريق فيمسكهم هنا أو هناك ، لكن الفريسة فرت منه وفاتته ، بيد أنه صادف كثيرا من المصابين لاسيما من الرومان ممن لازال بهم رمق من الحياة ، كما شاهد الكثير من الجثث مطروحة على الأرض، فلا عجب أن تكدّر خاطرهُ ووِدّ لو يتابع المطاردة لكن ذلك كان أمرا مستحيلا ، ولما كان ألكسيوس حريصا على ألا تضيع منه الغنيمة كلها فقد انتقى طائفة من المدججين بالسلاح الخفيف ودلَّهم على الطريق الذى يسلكونه ثم بعث بهم لتصيد المتبربرين . أما هو فقد نصب معسكره في جوار "بومانون" (Poemanon) لكن رجاله الذين كان قد بعث بهم فاجئوا الترك على غرة منهم فى مكان يطلق عليه فى اللسان المحلى اسم " كيليا" kellia فوقعوا بكل ما معهم من الأسلاب والأسرى فى أيدى عدوهم، وكان نزول الرومان عليهم كالصاعقة ففتكوا بمعظمهم وأمسكوا بفريق منهم أحياء ، وهكذا تمكن الغالبون المنتصرون أن يعودوا بهؤلاء وبكل ما نهبه الترك دون أن يتركوا وراءهم شيئا قط.

بعد أن أثنى ألكسيوس على ما فعله عسكره ، وتبين له أنّ الهزيمة قد زلزلت كيان العدو انكفأ راجعا إلى " لوباديون" Lopadion وبقى بها ثلاثة أشهر ، يدفعه إلى ذلك عاملان: أولهما أن طريقه كان يخترق أصقاعا جرداء خالية من الماء وهو فى الصيف حيث الحرارة لا تطاق ، وثانيهما أنه كان لا يزال فى انتظار وصول الإمدادات من الجند المرتزقة ، لكنهم التقوا جميعا فى " لوباديون" وعسكروا بها وتركوا أغلب الجند على أطراف " أوليمبوس " وسلسلة جبال " ملاجنى" Malagni واحتل هو ذاته " آير " Aer فى الوقت الذى كانت فيه الإمبراطورة مقيمة فى " برنكيبو" حيث كانت أخبار تقدم الإمبراطور بعد عودته من " لوباديوم" تأتيها بيسر .

ما كاد الإمبراطور يصل إلى " آير" حتى بعث السفينة الإمبراطورية فى طلب "الأوجستا" مدفوعا إلى ذلك بعاملين: أحدهما - وكانت له الصدارة - هو تخوفه الدائم من معاودة آلام النقرس ، وثانيهما أنه كان يخشى مكر الماكرين ممن حوله ، ومن هنا كانت عناية الإمبراطورة المحبة وعينها الساهرة هما أحوج ما يحتاجه .

(٢)

قبل أن تنقضى ثلاثة أيام جاء القائم بحراسة المخدع الإمبراطورى عند مطلع الفجر ووقف إلى جوار سرير مولاه فاستيقظت الإمبراطورة لحضوره ، فلما رأته قالت له: "لعل لديك خبرا عن هجوم قد يشنه الترك ؟" فأجابها إنهم وصلوا فعلا إلى قلعة "سنت جورج" ، وحينذاك أشارت إليه بيدها أن يمسك عن الكلام ويلتزم الصمت حتى لا يستيقظ الإمبراطور الذى كان قد سمع فى الواقع رسالة الحارس ، ولكنه التزم الهدوء التام وظل ساكنا لا يتحرك حتى إذا آذنت الشمس بالبزوغ عاد لمزاولة مهامه جريا على مألوف عادته، رغم أنه كان يفكر مليا فيما ينبغى عليه اتخاذه لمواجهة ما سمعه من الحارس .

ثم جاء رسول آخر قبل انقضاء الساعة الثالثة يعلن اقتراب المتبربرين ، وكانت الإمبراطورة لا تزال مع الإمبراطور فتملكها الفزع لكنها ظلت متماسكة هادئة فى انتظار ما يقرره ، وبينما هما فى طريقهما إلى تناول الطعام إذا برسول ثالث يَفد ويُلقى بنفسه عند قدمى الإمبراطور وقد لطخت الدماء ثيابه . وأكّد الرسول أن الخطر بات وشيكا وأن المتبربرين أشدّ ما يكونون قربا . وحينذاك طلب الإمبراطور من الإمبراطورة العودة حالا إلى بيزنطة . وعلى الرغم من تخوفها الشديد فإنها أخفت جزعها فلم تصدر منها كلمة أو حركة تشير إلى فزعها ، إذ كانت امرأة باسلة قوية العزيمة ، وكانت أشبه بالمرأة التى امتدحها سليمان فى "الأمثال" فلم يبد عليها جبن النساء ولا جزعهن مما نشاهده فيهنّ فى العادة فيشى امتقاع وجوههن عما فى قلوبهن ، كما تستطيع أنت إنْ نظرت إلى الواحدة منهن أنْ تدرك مدى الخطر المحدق بها من الصراخ العالى والنحيب ، لكن إيرين كانت إذا خافت فما يكون خوفها إلاّ على الإمبراطور حذرا من أنْ يلم به حادث يؤذيه ، ثم يأتى بعد ذلك خوفها على نفسها . وقد سلكت هى فى هذه الأزمة مسلكا يتكافأ وشجاعتها .

وعلى الرغم من أنها فارقته وهى كارهة لفراقها إياه فإنها ظلت تعود إليه لتراه، ثم انتزعت نفسها منه انتزاعا وغادرته بمشقة ضد إرادتها ، ويممت ناحية البحر وركبت السفينة المخصصة لجلالتها فأبحرت عليها من ساحل "بيثينيا" ، لكن سرعان

ما هبت العاصفة عنيفة هوجاء فاضطرتْ إلى أن ترسو فى "هيلينيبوليس" حيث أقامت (الأوجستا) بعضا من الوقت .

فلنترك الأوجستا حيث هى ولنعد إلى ألكسيوس فنقول إنه استعد هو وعسكره وذوو قرباه بالسلاح ، ثم امتطوا جميعهم الخيل وانطلقوا شطر نيقية ، وكان المتبربرون فى هذه الأثناء قد أمسكوا برجل " ألانى" عرفوا منه خبر تقدم الإمبراطور ضدهم ، ففروا على وجوههم عائدين عبر الدروب التى كانوا قد جاءوا منها حالا .

كان " سترابنس باسيليوس " ورفيقه " ستبيوتاس" Stypiotes جنديين صاحبى سجل حافل بالأمجاد العسكرية ، وكانا يقفان على جبال " جيرميو" يتفحصان المسالك الموجودة هناك عسى أن تؤدى الصدفة البحتة إلى سقوط العدو كالوحش المفترس فى الشباك التى نصبت له ، فلما أبصرا تقدم الترك عادا إلى السهول وراءهما ، وكان قتال وحشى ضار دارت فيه الدائرة على الترك .

واحتل الإمبراطور فى بادئ الأمر قلعة " سنت جورج " ثم من بعدها قرية "ساجودس" Sagoudus فلم يظهر أثر للترك ، لكنه سمع بما لحق بهم على يدى الرجلين الشجاعين اللذين أشرتُ إليهما حالا وهما " سترابتوس" ورفيقه سترابو باسيلوس ، فكان الثناء عليهما عاطرا وعلى ما كان منهما منذ بداية الحملة. ثم نصب معسكره ملاصقا لسور القلعة .

فلما كان اليوم التالى وصل إلى هيلينوبوليس لمقابلة الإمبراطورة التى كانت لا تزال موجودة هنا بسبب العاصفة البحرية ، ففصل لها الخبر وما لحق بالترك من نكبة فادحة وكيف أنهم فى سعيهم الملحّ للنصر لم يجنوا سوى الهزيمة ، وكيف دارت الدائرة عليهم بالبوار فذلوا بعد أن كانوا يرجون أن يكونوا الأعزاء وانهارت كل آمالهم فكان وقع الخبر على إيرين بلسما أزال قلقها الشديد . ثم عاد هو إلى نيقية حيث وافاه الخبر بهجوم جديد شنه الترك فمضى إلى " لوبارديون" وأمضى بها فترة قصيرة من الوقت حيث وردت عليه الأنباء بتحركات العدو فى جموعه الكثيفة متجها إلى نيقية ، فما كان منه إلاّ أنْ جمع قواته وانفلت راجعا إلى " كيوس" ، لكنه ما كاد يسمع أنهم أمضوا ليلتهم بطولها يزحفون نحو نيقية حتى أسرع لمغادرتها إلى مسكورا Miskoura ،

وهنا جاءه الخبر اليقين بأن القسم الرئيسى من الترك السلاجقة لم يصل بعد ، وأن "مانالوغ" أرسل طائفة قليلة من الرجال صارت فى ضاحية" دُوليلاس" وعلى مقربة من نيقية لرصْد تحركات الإمبراطور ، كما كلفهم بموافاته بتقارير متتالية عما يجرى .

حينذاك أوفد ألكسيوس فريقا مع " ليونكريتس" Nicerites إلى " لوبارديون" وأوصاه بألا تغفل عينه أثناء قيامه بالحراسة حتى تظل الطرق تحت رقابته المستمرة ، وأمره بأن يوافيه كتابةً بكل ما يكتشفه من أمر الترك ، كما أمر بوضع بقية الجيش فى أماكن استراتيچية .

حين بلغت الأمور هذا الحد رأى ألكسيوس أن خير ما يفعله فى هذه الظروف الراهنة هو أن يترك الهجوم على الترك جانبا؛ إذْ توقع أنْ يذيع من قيضت لهم الحياة والنجاة من سيوف الرومان بين الترك فى آسيا خبر حملته هذه ويعلموهم كيف أنهم هاجموا الروم فى (أماكن) مختلفة . وكيف صمد الرومان صمودا دل على بطولتهم ، وإنْ كان الأمر انتهى بهم أخيرا إلى وقوع بعضهم أسرى فى أيدى الترك ولقى البعض الآخر منهم حتفه قتلا . أما القلة القليلة التى أتيحت لها الحياة والنجاة فقد أثخنت بالجراح .

لقد كان الظن عنده أنه ما يكاد المتبربرون يسمعون بهذه الأخبار ويوقنون باقتراب الإمبراطور منهم حتى يبادروا إلى الارتداد إلى ما وراء قونية فيذهب إذ ذاك ما تكبدوه هباء ، وترتَّب على هذا التقدير من جانب ألكسيوس انسحابه عبر " بيثينيا" إلى نيقوميديا اعتمادا منه على أنه لابد أن يظن الأعداء أن الخطر قد زال، فيعودون إلى ديارهم مغتبطين وينطلقون لنهب كل ناحية يمرون بها حسب مألوف عادتهم التركية ، وحينذاك يتابع السلطان خطته. كما يبادر ألكسيوس فيحمل عليهم حملة صدق ويشد عليهم شدة نكراء ويقوم بهجوم شرس عليهم، بعد أن يكون رجاله قد أصابوا شيئا من الراحة وتكون الجياد ودواب الحمل قد استعادت نشاطها .

لكل هذه الأسباب مجتمعة يمَّم ألكسيوس وجهه شطر " نيقوميديا" ، وأنزل جميع من معه من العسكر فى القرى المتناثرة هنا وهناك حتى تجد الخيول ودوابُ الحمل

العلفَ الكافى لها نظرا لوفرة المراعى فى بيثينيا ، كما يستطيع الرجال فى الوقت ذاته أنْ يحصلوا بلا مشقة على كل ما هم فى حاجة إليه . كذلك طلب إليهم أنْ يبذلوا أقصى العناية بدوابّهم وأنْ يُولُوها رعاية خاصة ، وأكّد عليهم ذلك تأكيدا تاما وحذّرهم من استعمال هذه البهائم للصيد أو الركوب رغبةً منه فى أنه إذا جد الجد كانت هذه الدواب أقدر على حمل راكبيها وأصلح ما تكون للكر على الترك.

(٣)

بعد أن اتخذ ألكسيوس كل هذه الاحتياطات وقف يرقب ما يجرى ووضع الحراس فى كل شِعْب على مسافة من نيقوميديا ، ولمّا كان فى عزمه البقاء هنا فترة طويلة فقد أرسل فى طلب الأوجستا لتكون إلى جانبه؛ للسبب الذى أكثرتُ من ذكره وحتى يتبين هو الخبر عن هجمات المتبربرين فينادى بالرحيل ، فجاءته الأوجستا على جناح السرعة وهو فى "نيقوميديا" لكنها تألمت وتكدّر خاطرها؛ إذْ تأكدت أن بعض أعدائه قد بلغ الشرّ بهم أقصاه حين سمعوا بفشله لعدم نجاحه فى تحقيق هدفه ، كما أنه لم يفتها ما كانت تهمس به ألسِنةُ البعض فى لومه من أجل كل ما بذله من جهد واستعدادات كبيرة ضد الترك ، وما تكبده من جهد فى حشد هذه الحشود الكثيفة من العسكر دون أن يظفر من وراء هذا كله بما يكافئه ، بل انتهى الأمر به إلى الارتداد إلى نيقوميديا .

لم يقتصر الناس على هذا التهامس فيما بينهم وفى مجالسهم الخاصة بل تمادوا فبلغت الجرأة بهم أن راحوا يتجاهرون بها فى الميادين العامة ولم يعفُّوا عن أن تلوكها ألسنتهم فى الدروب وعند مفارق الطرق مما أصاب الأوجستا بالاكتئاب، إذ شق عليها خبر هذه الأقاويل .

أما ألكسيوس فقد توسم الخيْر من وراء حَمْلته هذه على الأعداء وأيقن أنها سوف تثمر الثمرة المرجوة ، وكان صادقا فى تلك التوقعات لكنه لم يشغل باله قط بتنديدات خصومه ولا بأراجيفهم ، بل ازدرى ما يقولونه وعدّه من سفساف الكلام ، وسخر من

عقلياتهم التافهة ، وانطلق يهدئ من روع الإمبراطورة بما يسوقه إليها من حجج تزكّيه عندها ، وأكّد لها تأكيدا باتا أن نفس الشيء الذي يعدّونه موضع لوم إنما هو أكبر نصر يمكن أن يحوزه .

والآن فإن عندي (أنا أنَّا كومنينا) أنّ النصر لا يأتي عن طريق الخطة المحكمة والشجاعة فقط ، كما أن قوة الشخصيّة لا تكفي وحدها لإحراز النصر إنْ لم يصاحب ذلك كله إعمال الفكر وحسنُ التدبير وإلاّ كان الأمر تهورا ، فنحن أبطال في قتال من نستطيع التغلب عليهم ، لكننا حمقى ومتهورون أمام من يبزّوننا في البأس والشدة ، وهكذا فإنه لو كان سيف الخطر والقهر مصلتا فوق رءوسنا لتردّدنا في مواجهة الخطر .

إنّ أعظم ميزة يتميز بها القائد – أيًا كان هذا القائد – هي إحراز النصر دون أن يتعرض للخسارة أو كما يقول هومير " إن قائد العجلة الحربية يستطيع بالمهارة وحدها أن يحرز النصر" . بل إن المثل الكادميني الجاري على الألسن يندد بالنصر إنْ حُفَّ بالخطر.

أما من ناحيتي أنا فقد كنت أعتبر أنه لابد للقائد من اللجوء إلى المناورات و الحِيَل الماكرة في ساحة القتال إنْ هو أحسّ أنْ ليست لدى جيشه القوى الكافية لضرب خصمه. ويمكن للمرء أن يعثر على كثير من الأمثلة الدالة على صدق هذا الرأي وتأكيده من كتب التاريخ ، وليست هناك صورة واحدة للنصر ولا طريقة واحدة لنَيْله فقد تعددت أساليب إحرازه منذ العصور القديمة حتى اليوم ، ولكن النصر يعني دائما النصر ولا شيء سواه مع اختلاف الأساليب التي يتبعها القادة . ومن الواضح أن بعض مشاهير القادة القدماء تغلبوا على خصومهم في أحيان كثيرة باللجوء إلى القوة المطلقة ، بينما برز سواهم في كثير من الحالات بحسن استغلالهم بعض الفرص استغلالاً معينا .

أما الحال مع أبي فإنه كان يهزم عدوه بالقوة حينا وبذكائه اللماح حينا آخر ومرة ثالثة برباطة جأشه في أثناء المعركة ذاتها ، وكان أبي يركن إلى الخديعة في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى يقاتل قتالا ضاريا وبذلك تسنّى له إحراز كثير من الانتصارات التي ربما لم تكن متوقعة . وكان عنده حب لا يجاري لمجابهة الأخطار ، وليس من شك في أن تظهر على الدوام أخطار تعترض سبيله لكنه كان يواجهها بطرق

تختلف الواحدة منها عن الأخرى ، فتراه أحيانا يقتحمها فى اندفاع فيقترب من الخصم اقترابا ليس بعده مزيد من الاقتراب ، كما كان يتظاهر فى أحيان أخرى بأنه يتجنب المعركة ويتظاهر بالخوف منها، وما هو بخائف منها ولا متجنبها ، ولكنه فى كلتا الحالتين يهتدى بما تمليه عليه ظروف اللحظة التى هو فيها .

ومختصر القول فإننى أقول إنه إنْ فر ففى فراره الغلبة ، وإن طارد العدو ففى مطاردته هذه يكون النصر المبين له ، وكان إذا وقع عاد فانتصب ، وإنْ سقط عاد للوقوف حتى لكأنه الخذروف أو (الكرة المطاطة) مهما قذفت بها سقطت واقفة .

أما وقد وصلت إلى هذه النقطة فإنى أرجو من القارئ مرة ثانية ألاّ يلومنى على التَّباهى والفخر بأبى فليست هذه هى أول مرة أدْفع عن نفسى اتهاما كهذا الاتهام ، وما كان حبى لأبى هو الذى حملنى على أنْ أقول ما أقول ، ولكن مجْرى الأحداث هو الذى يملى علىَّ ما أقول . وعلى أية حال فليس هناك من حائل يحول أبدا – فيما يتعلق بالحق – بين الشخص وحبه لأبيه أو بين الفتاة وحبها لأبيها مع مراعاة كل منهما فى الوقت ذاته للحقيقة . ولقد آثرتُ أنْ أتحرَّى الصدق فألتزمه فى كل ما أكتب عن هذا الرجل العظيم . وإذا كانت المقادير قد شاءت أن يكون هذا الرجل هو والد المؤرخة فليس من العدل ولا الإنصاف إغفال اسمه أو حذفه ، كما أنه ليس من الحق أيضا أن تُتَّهم المؤرخة بأنها لم تتناوله بالنقد ولم تسلقه بألسنة حداد لأنه ما من شك فى أنه يجب أن يقوم التاريخ على تَحرِّى " الحق " .

لقد كانت هناك محاولات أخرى أفصحْتُ فيها عن حبى لأبى مما دفع خصومى إلى شحذ سيوفهم وتسديد رماحهم إلى صدرى ، وهذا أمْر معروف تماما للواقفين على مجريات حياتى ، ويمكن للقارئ أن يطمئن بالاً إلى أننى لن أزيِّف الحقيقة تحت قناع التاريخ ، فهناك وقت ينبغى فيه على المرء أن يعلن عن حبه لأبيه ، ولما حان هذا الوقت وجاءت لحظته لم أجبن عن إعلان حبى له . وهناك وقت لقول الصدق وها هى لحظته قد سنحت الآن وما كان لى أنْ أدعَها تفلت من يدى أو أهملها ، وإذا كانت هذه اللحظة – كما قلت – تبرهن على أنى أحب والدى فإنها تبرهن أيضا على محبتى للحق فى الوقت ذاته ، حتى لا يكون القارئ قادرا على اتهامى بإخفاء الحقائق .

على أية حال فإنه يجب عليّ الآن أن أعود إلى ما كنت فيه فأقول: إنه فى الوقت الذى كان فيه أبى معسكرا قرب " نيقوميديا" كان مشغولا بتسجيل مجنَّدين جدد فى ديوان الجيش وتدريبهم تدريبا شاقا على الرمى بالنشاب والضرب بالرمح وركوب الخيل وممارسة شتى صنوف المناورات ، وتعليمهم الفنون العسكرية الجديدة التى ابتدعها هو ذاته ، فكان يركب معهم فى بعض الأحيان ويتفقّد كراديسهم ولا يتوقف عن الإشارة إلى ما هو أحسن .

ولما كانت شهور الصيف قد انصرمت ودخل الاعتدال الخريفى فقد بدا له أنّ الوقت قد حان للقيام بحملاته ومن ثم زحف مباشرة على رأس جميع قواته إلى " نيقية" وذلك وفقا للخطة التى كان قد رسمها أصلا لنفسه ، فلما بلغ المدينة نحّى جانبا ذوى الأسلحة الخفيفة مع رهط من الضباط المدربين وفَصلَهم عن بقية الجيش وأرسلهم أمامه يغيرون على الترك ، وعهد إليهم بمناوشتهم العدوّ القتال فى مجموعات صغيرة والقيام بجمع الكلأ ، ونصحهم - إنْ أظهرهم الله على عدوهم ومنحهم النصر - أن يكتفوا بما أتاهم الله من فضله فلا يلحون فى مطاردته مطاردة قد تذهب بهم بعيدا ، بل عليهم أن يعودوا فى انتظام من غير فوضى .

وانتهى المسير بهؤلاء الرجال مع الإمبراطور إلى ناحية يطلق عليها الأهالى اسم "جايتا" ، وهنا انفصلوا عنه وساروا فى طريق خاص بهم ، أما هو فقد تابع زحفه بالبقية إلى الجسر القريب من " بثكاس" Pithekas فوصلوا بعد ثلاثة أيام إلى سهل "دوريليون" عن طريق قلعة الأرمن و عن طريق ناحية يسمونها " لوكيا" Lukai ، وكان السهل هنا فسيحا يكفى لإجراء المناورات ، ومن ثم أراد أن يستعرض هنا الجيش كله وأن يقف على مدى قوته الحقيقية فعسكر فى هذا المكان ، وكانت هذه فرصة طيبة لاختبار صلاحية تنظيمه واستعداده للقتال ومعاودة النصر مرة أخرى ، وهذا التنظيم هو التنظيم الذى كثيرا ما دونه فى كتبه أثناء وضعه لخططه ، فقد علَّمته خبرته الطويلة أنّ خطط القتال التركية (السلجوقية) تختلف عن مثيلاتها لدى الأمم الأخرى ، ذلك أنها لم تكن - كما قال هومير- "ترسا لترس ولا خوذة لخوذة ، ولا رجلا إزاء رجل" ولكن كان الجناحان الأيمن والأيسر والقلب تؤلف مجموعات عسكرية منفصل بعضها عن بعض ، وما يكاد القلب يرى الميمنة أو الميسرة تتعرض للهجوم حتى يندفع رجاله ومن

ورائهم بقية العسكر فى هجوم عاصف يؤدّى إلى إشاعة الاضطراب فى صفوف الأعداء . ولم تكن الأسلحة التى يستعملونها فى الحرب تشبه أسلحة الكلت فهم لا يقاتلون بالرماح ولكنهم يحدقون بالجيش إحداقا تاما ثم يرمونه عن قسيّهم ، كما أنهم يدافعون عن أنفسهم بالسهام من مسافة قريبة ، فإذا اشتد وطيس القتال وحميت المعركة جعل التركى منْ معه من الأسرى مرمى للنبال ، وكان التركى إذا طارد خصمه طارده بقوسه حتى يمسك به ، أما إنْ كان هو المطارَد فإنه يرمى عدوه بالنبال فيصيب النبل الراكب أو حصانه ، ثم إنه حين يقذف رمحه يقذفه بعنف فيصيب منه مقتلا إذْ يدخل الرمح من هذا الجنب ثم يخرج من الجنب الآخر نظيفا .

هكذا كانت براعة التركى فى حربه بالقوس .

ولما كان ألكسيوس على علم بهذه الأمور ويريد التغلب عليها فإنه استعمل أسلوبه الذى ابتدعه فى القتال القائم على ترتيب فيالقه بصورة إذا رماهم بها من ميمنتهم تساقطت السهام على رجال الميسرة الذين تحميهم حينذاك دروعهم ، وأما إنْ رماهم رجالنا من شمالهم أصبنا الجانب الذى لا يوجد شىء يحميه ولا يستطاع فيه اتقاء رمياتنا ، فلما تمعن العدو هذا التنظيم الذى ابتدعه أبى استولت عليه الدهشة من إحكامه وأيقن أنه لابد أن يكون موحى به رأسا من الرب وملائكته . والحق أنه ما من أحد عرفه إلاّ وأُعْجِب به وامتلأت جوانحه قوة وشجاعة بما ابتدعه الإمبراطور .

كذلك فإنه لما أمعن النظر فى قواته وفى النواحى التى يوشك على السير فيها وصوَّر لنفسه صلابة صَفِّه وصعوبة تغلب أحد عليه امتلأ قلبه بالآمال التى دعا ربه أن يحققها له .

(٤)

وتقدّم الجيش على هذه الصورة من الترتيب حتى وصل إلى " سنتابارس" ثم توزع القادةُ كلهم فى شتى أرجاء الأقاليم فمشى كاميتزيس إلى " بوليبوتس" وكيدروس وكانت هذه الأخيرة شديدة الحصانة وعليها والٍ اسمه " بوخياس" ، كما كلف "ستبيوتس" بمهاجمة المتبربرين فى أموريون . غير أنه حدث أن فرَّ بشناقيان إلى

"كيدروس" وأخبراه بتقدم "كاميتزايس" وبوصول الإمبراطور ، فلم يكن من " بوخياس" إلاّ أن فر وغادر القصر مع كل بنى جنسه وكان الليل قد انتصف ، فلما طلع الصباح وصل " كاميتزيس" فلم ير أثرا لبوخياس ولا لأحد من الترك عامة ، ولكنه شاهد الغنائم الكثيرة فلم يعبأ بها وكان حاله أشبه بصياد أفلتت منه الفريسة بعد أن كانت على وشك الوقــوع في يده، فــانزعج خــاطره لكنه لم يضـع لحظةً بل وجـه جـواده وهـاجم المتبربرين على غرة من الجميع وقتل منهم من لا يحصيهم العدد ، واسترد كل الغنائم والأسرى، ثم نصب معسكره قرب ذلك المكان فى انتظار قدوم الإمبراطور .

لم يكن " ستيبيوتس" أقل توفيقا في " بويمانيون" فقد نجح هو الآخر قبل أن يعود إلى ألكسيوس الذى وصل إلى " كدروس" والشمس جانحة إلى المغيب فجاءه في الحال نفر من العسكر ينبئونه أن هناك جمعا كبيرا من المتبربرين في القرى الصغيرة المجاورة فلم يسع الإمبراطور إلاّ أن بادر بإرسال واحد من نسل " بيرتزس" واسمه "برداس" ومعه جورج ليبويتس ورجل بشناقى يدعى " بيتيكان" على رأس قوة كبيرة من الترك ، وأوصاهم بألا يصلوا إلى هناك حتى يبعثوا جماعة لنهب بعض القرى بتلك الناحية وإخراج سكانها منها وإحضارهم إليه، وسرعان ما خرج هؤلاء من غير تمهّل . ولما كان ألكسيوس شديد التمسك بخطته السالفة فقد كان مهتما بالرحيل إلى "بوليبتوس" والمضى إلى أقصى نقطة يمكنه الوصول إليها حتى بلغ " قونية" .

وبينما كانت هذه الأمور تجرى على قدم وساق وقد أصبح الإمبراطور على وشك الرحيل إذا بالخبر يأتيه بأن الترك والسلطان ملكشاه نفسه قد علموا بتحركه فأضرم النيران في جميع الأراضى الواقعة في سهول آسيا وحقولها حتى خلت تلك النواحى من كل ما يمكن للإنسان والحيوان أن يعيش عليه ، وقيل إن هناك حملة أخرى من بلاد العدو (الدانشمند) زاحفة ضده وسرعان ما انتشر هذا الخبر في نواحى آسيا فتخوف ألكسيوس من شيء واحد هو أن يهلك جيشه إنْ هو واصل الزحف إلى " قونية" لقلة المئونة التى عنده وتبلبل خاطره وساوره الشك في المتبربرين الذين توقع وجودهم هناك ، ومن ثم أجمع العزم على أن يفعل شيئا يجمع بين العقل والجرأة بأن يسأل الرب أن يرشده : هل يذهب إلى قونية أم يهاجم العدو في ناحية " فيلوميليون" ؟ ومن ثم كتب سؤاله في ورقتين وضعهما على المذبح وأمضى الليل بطوله في الابتهالات الحارة

والصلاة . ولما طلع النهار دخل القسيس الهيكل وأخذ من فوق المذبح إحدى الورقتين وفضّها في حضور الجميع وقرأها بصوت عال فعرفوا أن الخير في أن يتوجه (ألكسيوس) إلى "فيلوميليون" . فلنكتف هنا ببلوغنا هذا الموضع .

أما " برداس" الذي هو من نسل " برتزس" فقد رأى في أثناء زحفه جيشا تركيا ضخما يسرع للانضمام إلى " مانالوغ" فوق الجسر الموجود في " زومبي" Zompe وسرعان ما كرَّ على الترك وهزمهم هزيمة نكراء ، غير أن تركا آخرين مِن ناحية المشرق كانوا مغذين السير إلى مانالوغ صادفوا معسكرا فأغاروا عليه قبل أن يعود هو إليه ونهبوا جميع ما به من المتاع وأخذوا كل دواب الحمل التي وجدوها . فلما عاد " برتزس" منتصرا محملا بالأسلاب والغنائم صادف واحدا من الترك وهو يغادر المعسكر فعرف منه أن العدو قد رحل بعد أن نهب كل شيء فيه وتركه قاعا صفصفا ، فتدبر برداس الموقف في تأنٍّ ليعرف أجْدَى الطرق التي يسلكها في أثرهم ، وود لو خرج وتعقبهم وطاردهم، ولكنهم كانوا قد أوغلوا بعيدا ، كما أن التعب كان قد بلغ من جياده مبلغه مما يجعل المطاردة أمرا مستحيلا ، ومن ثم طرح هذه الفكرة حتى لا يتردّى فيما هو أخطر فاكتفى حينذاك بمتابعة الزحف بدلا من المطاردة فسار في خطى بطيئة وفي نظام تام، فوصل مع بشائر الصباح إلى مساكن سلفه " برتزس" فأخلاها من قاطنيها واسترد الأسرى واستولى على كل ما وصلت إليه يده من أمتعة الترك ، ثم تخيَّر بقعة فَكَّ فيها رحاله ونال بها قسطا من الراحة هو وجياده، ثم شرع في رحلة العودة إلى الإمبراطور وكانت الشمس آخذة في الشروق .

وبينما هو في الطريق إذا به يصادف طائفة أخرى من الترك فاشتبك معهم في قتال شديد ، وكثرت مرات النزال ، وبعد أن ثبت الترك فترة لا بأس بها طالبوا باسترداد أسراهم وغنائمهم وقطعوا العهد على أنفسهم إنْ هم نالوا ما طلبوه أن يكفوا عن مهاجمة الرومان وأن يرجعوا إلى ديارهم فلم يقبل " برتزس" إجابتهم إلى ما طلبوه ، فعادت الحرب بشراسة. وكان عسكر الترك لم يشربوا قطرة ماء طول قتالهم بالأمس أما اليوم وقد بلغوا ماء فقد راحوا يعبون منه ما يطفئ ظمأهم ، وكانوا يفعلون ذلك

بالتناوب . فبينما كنت ترى فرقة منهم تقاتل إذا بغيرها تغادر ساحة المعركة لتروى ظمأها ، واشتد القلق " ببيرتزس" وتأزمت الأمور عنده تأزما يبعث على اليأس فأرسل رسولا إلى ألكسيوس يفضي إليه بما هو فيه من الشدة ، ولم يكن الرجل الذى بعثه من عامة الجند بل هو " جورج ليبونس" Lebounes الذى ألقى بنفسه فى طريق يعج بكثير من التركمان الذين لم يتركوا دربا من الدروب إلا واحتلوه . ولكنه استطاع أن يبلغ وجهته سالما فأفضى إلى الإمبراطور بما فيه "بيرتزس" من الضيق ، فأدرك ألكسيوس أن الضرورة تقضى عليه بنجدة رجله بالعسكر وبالمئونة لاسيما وقد علم بتزايد قوة التركمان ، فأعدّ رجالَه وكتائبه للزحف، فلما تكاملت الحشود تحت يده وتجمعت الفرق الحربية نهض لمهاجمة المتبربرين جاعلا على الطليعة " ميخائيل بسيلوس" وعلى الميمنة " برينيس" وعلى الميسرة " جبراس" ، أما "كيكامينس " Cecamenes فعهد إليه بالمؤخرة .

وبينما كان التركمان فى انتظارهم على بُعْد قام نقفور ابن أخت الإمبراطورة (وكان شابا يتحرق للقتال) وتقدم الصفوف مستصحبا معه ثُلّة من المحاربين الذين تضيق أجسادهم عن أرواحهم ، فكان أول من هاجمه تركمانى كرّ عليه كرة أصابته بجرح أدْمى ركبته لكنه استطاع رغم ذلك أن يشك صدر مهاجمه شكة أسقطته من على ظهر جواده فتقنطر وتدحرج على الأرض لا ينبس ببنت شفة ، فلما رأى رفاقه المتبربرون الذين هم وراءه ما حاق به ولّوا الأدبار على أعقابهم ، فاغتبط الإمبراطور من شجاعة الشاب نقفور فى ساحة القتال وأثنى عليه الثناء الحار .

ثم تابع الجيش زحفه قاصدا " فيلوميليوم" مارا ببحيرة الشهداء الأربعين ، فلما كان الغد بلغوا موضعا اسمه "ميساناكتا" ثم تركوه إلى "فيلوميليوم" فهاجموها واستولوا عليها وتلا ذلك خروج فرق مختلفة بقيادة ضباط شجعان بعث بهم الإمبراطور؛ لتدمير جميع المدن الصغيرة الواقعة فى نواحى " قونية"؛ ولتخليص الرومان الذين وقعوا فى أسْر التركمان، فانتشروا فى كافة أرجاء الإقليم كأنهم قطعان من الحيوانات المتوحشة خرجت فى التماس فريستها ، ونجحوا فى إطلاق جميع الأسرى وعادوا بهم وبالأمتعة .

أما سكانها الرومان الذين كانوا يفرون من قبل خوفا من بطش التركمان ويخافون انتقامهم فقد تبعوا الروم بمحض إرادتهم، فكنت ترى آلافا من الأمهات وأطفالهن مع الرجال يلتمسون عند الإمبراطور ملاذا يبعد عنهم الأذى ويرون فى ظله الحمى الذى لا يستباح .

ورتب الإمبراطور جنده حسب التنظيم الجديد الذى ابتدعه ، جاعلا الأسرى والنساء والأطفال فى الوسط ، فلما فرغ من ذلك عاد أدراجه من نفس الطريق الذى جاء منه ولازمه الأمان التام فى كل مكان اجتازه ، ولو تسنَّى لك مشاهدة هذا الجيش فى تنظيمه الجديد الذى وصفناه لقلت ما هو إلاّ مدينة متحركة بأسوارها .

(٥)

أخذ الجيش فى التقدم دون أن يظهر أثر للمتبربرين ، غير أن " مانالوغ" سار فى أثرهم وأقام فى انتظارهم ناصبا لهم الكمائن على جانبى الطريق ، وبينما كان الإمبراطور يخترق السهل الواقع بين " بوليبوس" والبحيرة التى ذكرتها حالا إذا بطائفة من الجيش متبربر الأصل وكلهم من حملة السلاح الخفيف والمحاربين الأشداء ممن كانوا متربصين للروم عن يمين وشمال يظهرون على غير انتظار على نجد من الأرض ويشرفون على الروم من فوقه ، وكانت هذه هى أول مرة يرى فيها الوالى "مانالوغ" التنظيم الجديد. وكان مانالوغ هذا رجلا عالى السن قد اتسعت خبرته بالحروب والجيوش ، إلاّ أن دهشَتَه كانت كبيرة حين أبصر هذا التنظيم فتساءل عمن يكون وراءه ومن ذا الذى وضع هذه الخطة التى لم تسبقها سابقة على نمطها! وحزّر أنه ألكسيوس ذاته ففكر فى مهاجمته لكنه لم يعرف السبيل إليه وإنْ لم يمنعه ذلك من أن يأمر التركمان أن يصيحوا بأعلى أصواتهم " الحرب الحرب " قاصدا من وراء ذلك أن يوقع فى وَهْمِ الرومان أن معه جيشا كبيرا ، ثم أمر أيضًا رجاله ألاّ يجرى بعضهم قريبا من بعض بل أوصاهم أن يكروا فى جماعات متفرقة لا تثبت الواحدة منها فى مكان واحد حسب الأسلوب التركى الذى وصفناه من قبل رغبة منه فى أن يُلقى الفزع والرعب فى قلوب الرومان حين يرونهم قد طلعوا عليهم بغتة محدثين جلبة تصم الآذان .

لكن الأمبراطور ركب أمام عسكره فلاح كأنه البرج الشاهق أو عمود من النار أو شبح علوى ، وراح يشجع رجاله ويحثهم على المثابرة فيما هم فيه ويشد من عزائمهم ، ثم قال إنه لم يفعل ما فعل ولم يحتمل ما احتمل بغية نفع لنفسه ولكن من أجل مجد رومة وعظمتها، وأنه على أتم الاستعداد للموت من أجلهم جميعا . وحينذاك عاودتهم الشجاعة وحافظ كل منهم على موضعه حيث هو من الصف الذى هو فيه .

ومضى الزحف فى طريقه فى هدوء حتى لقد ظن المتبربرون أن العسكر ثابت لا يتحرك على الإطلاق.

ومع استمرار الأعداء فى مهاجمتهم إياه طول يومهم إلاّ أنهم لم يحرزوا أى تقدم ولم يتمكنوا من صدع ترابط القوات الرومانية كأفراد أو كَكُلّ ، واضطروا فى النهاية للفرار ثانية إلى قمم الجبال صفر الأيدى ، ومكثوا هنا يشعلون نيران الحراسة فى العراء، كما ظلوا طول ليلهم يعوون كالذئاب وينادون على الرومان بألفاظ السخرية إذ كان فيهم بعض المولدين الذين يتكلمون اليونانية . ولما طلع الصباح ظل مانالوغ مصرا على خطته وأصدر أوامره إلى رجاله باستمرارهم فيما هم فيه .

ووصل فى هذه الآونة (ملكشاه) ذاته فأذهله ما عليه الجيش البيزنطى من روعة التنظيم ولكنه راح يسخر بروح الشاب من " مانالوغ" الشيخ لأنه يسوف فى مقاتلة الإمبراطور ، فقال له " مانالوغ": "ربما منعنى تقدم سنى أو جبنى ، ولكن ها هى ذى فرصتك فاغتنمها وحاول قتاله بنفسك إنْ كنت شجاعا ، وستعرف إذ ذاك الحقيقة "، فما كان من ملكشاه إلا أنْ شنّ هجوما فى الحال على مؤخرتنا بينما قام القواد الآخرون بالهجوم على الجانبين .

ولاحظ قيصر نقفور برينيس (وكان على الميمنة) أنّ عبْء القتال الشديد واقع على المؤخرة فودّ لو أنه ساهم فى المعركة ، ولكنه كظم غيظه فى صدره حتى لا ينكشف عدم خبرته وصغر سنه ومضى قُدُما بجنده على نفس النظام .

وأخذ المتبربرون يحاربون حربا عنيفة لا هوادة فيها ، وحينذاك قام أخى أندرونيكس الذى هو عندى أعز إخوتى وأحبهم إلى نفسى وكان يقود الميسرة فالتف

حولهم وكر عليهم كرة غاضبة وهو ممتط جواده ، وكان " أندرونيكس " قد بلغ مرحلة الشباب منذ قريب وصار فى أحلى سنوات عمره ، وكان جنديا مقداما وفارسا شجاعا ، هذا إلى جانب ما طبع عليه من الفطنة والذكاء وسرعة الضرب ، وقد وافته منيته هنا وهو فى شرخ الشباب ورحل على غير توقع منا ومضى إلى حيث لا رجعة له .

فواحزنى عليك أيها الشاب يا جميل القوام ...

وأين أنت منىّ الآن وفى أيّة ناحية أنت فى هذه اللحظة ..؟

إنّ حزنى عليك يدفعنى إلى البكاء عليك ..!!

لكن قوة التاريخ تشدّنى مرة أخرى للعوْدة إلى ما كنت أنا فيه فأقول: إنه من العجيب ألا يقدر أى إنسان أن يتحول - مثلما زعموا فى الماضى وكما يقول الناس - إلى حجر أو طائر أو جماد ، وأن تتبدل طبيعة ذلك المرء إلى مثل هذه الأشياء تحت ضغط الأهوال الجسيمة.

ولست أعرف عمّا إذا كان ذلك من باب الأسطورة أم كان حقيقة، إذ ربما يكون من الأجدى على الإنسان أن تخمد كل مشاعره بدلا من أن يكون شديد الميل إلى الشر ، فإن قُدِّر وتم ذلك فلربما كان فى الإمكان أن تحيلنى جميع هذه المصائب إلى حجر .

(٦)

حين رأى نقفور أن القتال صار وجها لوجه وقد ازداد حدة وأن شبح الهزيمة أصبح ماثلا للعيان استدار على عقبيه وأسرع برجاله لينجد رفاقه ، فلما شاهد المتبريرون ذلك منه فروا وفر معهم السلطان ملكشاه وانطلقوا سراعا إلى الجبال . وإذا كان الكثيرون قد وقعوا قتلى فى هذه اللحظة فقد وقع أكثر منهم فى الأسر ، أما الذين نجوا من الهلاك ولم يؤسروا فقد هاموا على وجوههم مشردين ، وداخل اليأس السلطان نفسه حتى على حياته بصورة حملته على الفرار غير مستصحب معه سوى شخص واحد فقط ذلك هو ساقيه ، فصعدا معا إلى كنيسة مشيدة على أحد التلال وقد

اكتنفتها أشجار السَّرْو الباسقة ، ثم ما لبث أنْ جاء في أعقابهما ثلاثة من البشناق ومعهم ابن "أوزاس" وهم يلحون في مطاردتهما ، فلم يجد السلطان بدا من أن يغير اتجاهه بعض الشيء فلم يتعرف عليه أحد فكتبت له النجاة ، أما ساقيه فقد وقع في يد البشناق أسيرا فجاءوا به إلى الإمبراطور هدية حرب؛ فاغتبطت نفسه أيما اغتباط لهذا النصر ولظهوره على العدو ، وإنْ داخله في الوقت ذاته شيء من الانزعاج لعدم وقوع السلطان ذاته ولنجاته من يديه بجلده كما يقولون ، فلما أرخى الليل سدوله قام ألكسيوس فنصب معسكره في الموضع الذى كان قد وصل إليه من قبل ، ومضى المتبربرون الذين لازالوا على قيد الحياة فتسلقوا الجبال المطلة على الروم ، وأوقدوا نارا كبيرة وظلوا طول ليلهم يؤرقونهم بما يحاكي نباح الكلاب .

وحدث في هذه الاثناء أن تسلل بشناقي كان في معسكر الإمبراطور ودخل على السلطان وقال له : " لا تفكر قط في محاربة الإمبراطور نهارا وإلاّ بارت الصفقة لأنه نصب خيامه وقد قرب بعضها من بعض بسبب ضيق رقعة السهل وما عليك إلاّ أن تأمر رماة النبال بالنزول إلى هناك وبالوقوف عند سفح التل ثم مُرْهم أن يتابعوا رمي عسكر الإمبراطور بالسهام بنبال لا ينقطع وابلها طول الليل فإنهم إنْ فعلوا ذلك ألحقوا الضرر الجسيم بجيش الرومان" .

وحدث أن خرج في هذه اللحظة بالذات (من جيش التركمان) جندي مولَّد وإنْ لم يكن صريح العرق في بربريته ، وتسلل في الخفاء فلم تلحظه عين أحد ما ودخل على الإمبراطور وأفضى إليه بكل ما اقترحه البشناقي الخائن على السلطان وما أشار به عليه ، ثم ذكر له بالتفصيل خطة الترك بحذافيرها وما يزمعون عمله بالجيش الروماني وحينذاك عمد ألكسيوس إلى تقسيم جيشه قسمين ، أما أحدهما فقد تركه في المعسكر لا تغمض له عين ولا يكل عن السهر والمراقبة ، وأما القسم الآخر فخرج في كامل سلاحه يتربص للترك في سيرهم فيقاتلهم حين يظهرون.

وتمكن العدو خلال ساعات العتمة من الإحداق بنا مع قيامهم بشن بعض الهجمات عند سفوح التلال واستمر رجاله في الضرب بالسهام ، لكن الروم استطاعوا حماية أنفسهم دون أن تختل صفوفهم وذلك بفضل التزامهم بتعليمات الإمبراطور،

فلما أشرقت الشمس خرج جميع العسكر وساروا بنفس الترتيب ومعهم كل الغنائم والمتاع والأسرى ، ووضعوا النساء والأطفال في الوسط ، ثم زحفوا شطر " امبوس" حيث كانت في انتظارهم معركة ضارية؛ لأن السلطان حشد قواته مرة أخرى وضمها بعضها إلى بعض فأحْدَقت بجيشنا واشتدت في مهاجمته من كل ناحية. غير أن السلطان لم يكن من القوة بالدرجة التي تتيح له أن يمزق شدة تماسك الروم . وبعد أن انهال بالرمي على الأسوار التي صمدت كأنما قُدَّت من الصلب ارتد دون أن يجني شيئا ما ، ومرت عليه ليلة ليلاء تناهبته فيها الأفكار السوداء وأخيرا راح يتشاور في يأس مع "مانالوغ" وغيره من القواد وانتهى اجتماعهم مع بزوغ الفجر على أن يعرض السلطان شروط الصلح على الإمبراطور الذي لم يرده خائبا لرغبته هو الآخر أيضًا في السلام ، وسرعان ما نودي في صفوف المحاربين بالكف عن القتال وإنْ كانت الأوامر قد صدرت إليهم في الوقت ذاته بالبقاء حيث هم ملتزمين نفس التنظيم الذي وضع لهم فلا ينزلون عن ظهور جيادهم، ولا ينقلون الأمتعة من فوق الدواب، وأن يظل الرجال في كامل سلاحهم ، وعليهم الدروع ، وفوق رءوسهم المغافر ، وفي أيديهم الرماح والقسي والسيوف .

واستمر الروم على هذه الهيئة ، وكان عند الإمبراطور ما يحمله على أن يلزمهم بهذا الأمر تجنبا لما قد ينجم من الفوضى التي قد تنتهي بوقوعهم جميعا في الأسر ، كما كان يخشى في الوقت ذاته جانب الترك الذين يفوقون رجاله عددا ، والذين كانت الإمدادات تترادف عليهم من كل الجهات ، لذلك تخير موضعا ملائما وقف فيه على رأس جيشه جاعلا أقاربه على جانبيه وكذلك طائفة مختارة من عسكره ، وحينذاك دنا منه السلطان وهو في أتباعه ونوابه وفي مقدمتهم "مانالوغ" الذي كان رأس التركمان في آسيا وكان أعظمهم خبرة وشجاعة وقابل الإمبراطور في السهل الواقع بين "أوجستوبوليس" وأكرونيون Okronion فلما طالع النواب ألكسيوس من بعيد ترجلوا عن جيادهم وأظهروا من الاحترام ما يليق عادة بالملوك .

بل لقد حاول السلطان أكثر من مرة أن يترجل إلاّ إن الإمبراطور كان يمنعه في كل مرة وينهاه عن النزول عن ظهر جواده ، غير أنه غافله ووثب على الأرض وقَبَّل قدم ألكسيوس الذي مد إليه يده وأنهضه سائلا إياه أن يركب واحدا من أحسن جياده فلما

صار على صهوته مشى إلى جانبه وإذا بالإمبراطور يخلع فجأة العباءة التى عليه ويضعها على كتفى السلطان ، وتلا ذلك فترة صمت ثم تكلم الإمبراطور بعدها فشرح للسلطان بالتفصيل ما اعتزمه قائلا له إنْ أردتَ الخضوع لسلطان رومة ووضْع نهاية لغاراتك على المسيحيين فسوف تحظى بالنعم والشرف ، وسوف تحيا حياة حرة بقية عمرك فى بلادك التى سكنْتها قبل أن يصبح رومانوس ديوجين إمبراطورا ، وقبل اصطدامه بالسلطان ألب أرسلان فى المعركة الخاسرة التعسة التى انتهت بهزيمة رومانوس والقبض عليه ، وإنه لمن الخير لك أن تؤثر السلم على الحرب فلا تقدم على اقتحام حدود الإمبراطورية وحسبك بلادك وحدها ولن تندم على أنك استجبت لما أنصحك به، فإنى لا أستهدف إلا ما فيه خيرك، وسوف تنهال عليك العطايا السنية . أما إنْ رفضت الاستجابة لنصحى فثق بأنى سوف أستأصل بنى جنسك .

فقبل السلطان (ملكشاه) وأتباعه عروض ألكسيوس وقالوا له: " ما كان لنا أن نأتى إلى هنا طواعية ومن تلقاء أنفسنا لو لم نكن نؤثر الصلح مع جلالتكم" .

ولما انتهى اللقاء انصرفوا إلى خيامهم ، وعاهدهم الإمبراطور على أن يبرم معهم الاتفاق فى الغد ، فلما جاء الموعد المتفق عليه أمضيت الاتفاقية مع السلطان [الذى تسميه المؤلفة Saisan وهو ملكشاه] ووصله الإمبراطور بمقادير كبيرة من المال وأغدق عليه العطايا السنية هو ونوابه ومن ثم رحلوا وعيونهم قريرة بما تم .

ثم جاءت الأخبار بأن شقيق " ملكشاه" واسمه مسعود - وكان ابن أم ولد - قد نهشته عقارب الغيرة من سلطان أخيه فحاك مؤامرة لاغتياله وذلك بإيحاء من نفر معين من نوابه ، وكان ذلك أمرا مألوفا عند بنى جنسهم ، وإذ ذاك أشار ألكسيوس على السلطان أن يتريث فلا يتعجل بالسفر حتى تنجلى الحقيقة سافرة أمام عينيه بشأن هذه المؤامرة وتتجمع بين يديه جميع الحقائق المتعلقة بها فحينذاك يغادره ولكن بعد أن يكون قد أخذ حذره ، لكنه ضرب بهذا النصح عرض الحائط وتمسك باعتداده بنفسه وبما يراه هو ذاته، فلمْ يشأ الإمبراطور بطبيعة الحال أن يفعل شيئا قد يحمل السلطان على الظن بأن ألكسيوس يعمل على تأخيره وإمساكه لديه رغم أنْفه وهو الذى جاءه طائعا ، لأنه إنْ فعل ذلك جرَّ على نفسه الملامة ، فرضخ لرغبات السلطان السلجوقى

وإنْ قال له : " سوف يكون من الخير لك لو تريثت قليلا . أما وقد صممت على الخروج فيجب عليك أن تكون حذرا كل الحذر فخُذ معك نفرا كبيرا من جنودنا المسلحين تسليحا قويا يرافقونك فى الطريق حتى تبلغ قونية سالما فى بدنك وروحك" .

ولكن المتبربر (ملكشاه) لم يستمع إلى هذا النصح ولم يستجب لهذا الرجاء ومرجع ذلك إلى الطبيعة التى جبل عليها بنو جنسه إذ الترك أهل صلف وعنجهية ، يضعون رءوسهم على الدوام فى السحاب . ومهما يكن الأمر فقد طلب السلطان من الإمبراطور أن يأذن له بالسفر إلى بلاده فأذن له بعد أن زوّده بالمال الكثير ، فلما نام رأى فى تلك الليلة من جاءه متنكرا فى هيئة ابن (نيليوس) كما تقول القصيدة وأنه سوف يقع له ما يراه فى نومه هذا . فلقد رأى أنه بينما كان يتناول إفطارهُ إذا بأعداد كبيرة من الجرذان تتجمع حوله وتتواثب لخطف الخبز من يده فراح يطردها ، ثم إذا بهذه الجرذان تتحول فجأة إلى سباع ناوشته فغلبته ، فلما استيقظ قص على حارسه الذى يلازمه فى سفره ما رآه فى نومه وطلب إليه أن يفسره له ففسره بأن هذه الفئران والسباع ليست سوى أعداء له ، فلم يؤمن بصحة ما قاله الحارس بل مضى قدما فى طريقه من غير أن يأخذ حذره وكان قد أرسل أمامه رهطا من رجاله يستكشفون له الطريق ويرصدون ما قد يكون هناك من خطر يدبره له أعداؤه الذين خرجوا فى غارة للسلب، ولكن هذا الرهط صادف مسعودا الذى كان قد اقترب فعلا بجيش كثيف فتحدثوا إليه وشاركوه مؤامرته ضد السلطان الذى راحوا يؤكدون له - حين عادوا إليه - أنهم لم يشاهدوا أحدا ما على طول الطريق فصدّقهم ولم يخامرهُ أدنى شك فيهم، بل تابع سيره مطمئن البال ، فإذا بعسكر مسعود يعترضونه فى بعض الطريق ، ثم إذا بشخص اسمه " غازى" كان السلطان قد قتل أباه واسمه حسن كاتوخ Katuch يبرز من بين صفوف العسكر ويرميه بالحربة فى صدره فتحاشاها فى لمح البصر وانتزعها ثم قال له : " ما كنت أعلم - قبل الآن - أن النساء يحملن السلاح ضدى "، ثم عاد قاصدا الرجوع إلى الإمبراطور ، لكنه صادف "بوخياس" Poucheas قد قطع عليه الطريق ومنعه من متابعة السفر ، وكان هذا الأخير منذ زمن بعيد من حزب مسعود رغم أنه كان من رفاق السلطان ملكشاه ، لكنه راح يتظاهر بصداقته حتى أتيحت له الفرصة لأن يركب الموجة ضدّه فأخذ ينصب له الأحابيل ويحفر الأرض تحت قدميه

حـيث نصـحـه ألا يعـود إلى ألكسـيـوس بل عليـه أن يرتد إلى الوراء قليـلا فـيـدخل "تيراجيون" Tyragion وهى قرية صغيرة واقعة بالقرب من " فيلوميليون" فاستجاب له الأحمق ملكشاه وأطاعه ، فتلقاه سكان البلدة (الرومان) بالترحاب إذ كانوا يعرفون حسن نية الإمبراطور ولكن المتبربرين تمكنوا من الوصول وعلى رأسهم مسعود نفسه فلما أحاطوا بالأسوار استعدوا لحصار البلد فأطل عليهم ملكشاه من فوق المتاريس وحذرهم تحذيرا شديدا وهددهم بأن الإمبراطور قريب بقواته ، وأنهم ملاقون أفظع أنواع العذاب إنْ لم يكفّوا عمًّا هُمْ فيه ، وحينئذ نزل " بوخياس" من فوق الأسوار بعد أن وعد السلطان بأنه ذاهب لتشجيع الأهالى ليزدادوا صمودا ومقاومة ، ولكنه فى الواقع عمد إلى مضاعفة خوفهم ونصحهم بالاستسلام وفتح أبواب بلدهم للترك الذين هم مع مسعود إنْ كانوا حريصين على أرواحهم والحفاظ عليها؛ لأن هناك قوات ضخمة قادمة من أماكن قاصية حتى من خراسان ذاتها ، فأذِن الأهالى للترك بالدخول يدفعهم إلى ذلك عاملان: أحدهما هو خوفهم من جموع العدو الكثيفة، وثانيهما هو اقتناعهم بما حذرهم منه " بوخياس".

ثم أمسكوا السلطان وسملوا عينيه ، ولما لم تكن بين أيديهم الأداة التى يستعملونها فى العادة لسَمْل العيون فقد استعملوا بدلا منها الشمعدان الذى كان الإمبراطور قد أهداه له وهكذا أصبح باعثُ النور وسيلةً للإظلام والعمى ، لكن السلطان مع ذلك كان قادرا على أن يرى بصيصا قليلا ، ودخل قونية يسحبه بعضهم من يده فأخفى قدرته على الإبصار إلاّ عن مربيته التى أخبرت به إحدى النسوة وهى امرأته فأوصلت الخبر إلى سمع مسعود فاضطرب لهذا الخبر غاية الاضطراب ، وبلغ الغضب به أقصاه فأرسل رجلا من أكبر رجالاته اسمه " إليجمون " Elegmon ليخنق السلطان فخنقه، فانتهت حياته على هذه الصورة بسبب حماقته حين لم يأخذ تحذير ألكسيوس مأخذ الجد ، ولم يُلقِ بالا إلى نصحه.

أما الإمبراطور فقد تابع سيره إلى القسطنطينية محافظا على نفس النظام حتى النهاية .

(٧)

حين يسمع القارئ كلمات التنظيم الحربى والفيلق أو " الأسرى" أو غنائم الحرب أو " القائد" أو صاحب اللواء فلابد له من أن يتصور أن هذا هو ما يذكره كل مؤرخ بل وأحيانا كل شاعر فى كتاباته ، ولكن التنظيم المنسوب إلى ألكسيوس كان فريدا فى ذاته لم يسبقه إليه أو إلى مثله أحد من قبله ، وهو " تنظيم استحق " من أجله إعجاب العالم إذ لم يشر إليه أى مؤرخ لتنتفع به الأجيال التالية ، ففى الوقت الذى كان يسير أثناءه فى الطريق المؤدى إلى قونية كان الجيش يزحف على أنغام موسيقية ، ولو تسنى لك أن ترى الفيالق وهى زاحفة لحسبتها واقفة لا تتحرك ، ولكن الواقع أن صفوف الدروع المتراصة والعسكر السائرين يعطى انطباعا بأنها الجبال الهامدة تسير فإذا تغير الاتجاه قلدوه كأنهم وحش مريد ، ذلك لأن جميع الفيالق كانت تسير وتدور وكأنها تفعل ذلك بنَسَقٍ بفكرة واحد.

لقد اتسمت رحلة الإمبراطور فى العودة بعد بلوغه " فيلوميليون" وبعد استرجاعه الأسرى من شتى النواحى من أيدى التركمان ، أقول اتسمت رحلته فى الإياب هذه بالتمهل وبالخطوات القصيرة المنتظمة ، وكان معه الأسرى والنساء والأطفال قد وضعوا مع الأسلاب فى القلب ، وكانت هناك نساء حبالى كثيرات يعانين آلام الحمل ، وكانت إذا أوشكت ذات حمل أن تضع حملها أمر الإمبراطور بدق طبلة ، لا يكاد يُسمع صداها حتى يكف الجميع عن السير ويتوقف الجيش برمّته فى النقطة التى يكونون قد بلغوها ، فإذا وضعت المرأة حملها أصدر أمره بدق طبلة طويلة ذات وقع مختلف عن الأول إيذانا بمتابعة السير ، كما اتبع نفس الخطة إذا مات أحد، قام الإمبراطور بزيارة الميت واستدعى القسس لتلاوة الأناشيد المناسبة لأداء مراسيم الوداع الأخيرة للراحل . فإذا فرغوا من إقامة الشعائر الجنائزية المعتادة وسّدوا الميت الثرى ثم أُذن للجيش بالتحرك .

أما إذا حلّت ساعة تناول الإمبراطور طعامه جاءوا بجميع النسوة الضعيفات والشيوخ المرضى والعجزة إلى مائدته فيضع هو بنفسه أمامهم جميعا معظم نصيبه

ونصيب رجاله فتكون إذ ذاك مأدبة إلهية حقيقية ليس فيها ناى ولا مزمار ولا آلات عزف ولا طبول ، ولا تدق فيها كوسات تزعج الجوعى .

بمثل هذه الأساليب كان ألكسيوس يسد بنفسه حاجات الناس .

وعند وصولهم إلى " دماليس" وكان الليل قد أرخى سدوله أصَرَّ الإمبراطور على ألاَّ يكون هناك استقبال فخم فى المدينة ، كما منع المسيرات التى تقام عادة للملوك ونهى عن نصب الزينات .

وتأجّل دخول الجيش المدينة إلى الغد وإنْ كان هو قد أسرع فاعتلى ظهر سفينة صغيرة أوصلته إلى القصر مع دخول الغسق وأمضى وقته كله منصرفا إلى رعاية الأسْرى والضيوف ، أما الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم وآباءهم ومسهم اليتم بضره فقد عهد برعاية بعضهم إلى أقاربه وبالبعض الآخر إلى سراة القوم وأثريائهم ، كما عهد بغيرهم إلى رؤساء الأديرة الطاهرة بعد أن أوصاهم بهم خيرا ، وطلب إليهم أن يعاملوهم معاملة الأحرار لا معاملة الرقيق ، وكلفهم بالسهر على تربيتهم تربية فاضلة ليشبّوا عاملين بما جاء فى الكتب المقدسة وألحق بعضهم بملاجئ الأيتام التى أنشأها من ماله وجعلها أقرب ما تكون إلى معاهد يتلقى فيها من شاء ما شاء من العلم ، وكلف القوامين بأمر هذه الملاجئ بتعليمهم وتقويم أخلاقهم .

وكان قد اكتشف موضعا قرب" الأكروبول" يمتد من هناك حتى يصل البحر وكان هذا الموضع قريبا من الكنيسة الكبرى المكرزة لبولس الرسول العظيم ، وشيد هنا فى هذه المدينة مدينة أخرى ، كما شيد المزار وأقامه على أعلى نقطة حتى لكأنه القلعة . وكانت هذه المدينة الجديدة واسعة ولا أستيطع أن أقول كم كانت طولا وعرضا فقد كانت المقاييس تختلف من ناحية إلى أخرى . وأقام حولها العديد من المبانى التى أوقفها على الفقراء أو بتعبير إنسانى أدق كانت بيوتا يتوافد الفقراء عليها فمنهم الأعمى والأعرج ، ومنهم الكسيح المقعد الذى لا يستطيع الحركة، وغير هؤلاء من كل ذى عاهةٍ تجعله من المعوقين . وأقول لو تسنى لك رؤيتها لقلت ما هذا إلاّ رواق سليمان .

وكانت المبانى فيها على شكل دائرة داخل أخرى . ويتألف كل مبنى من طابقين يقيم فى العلوى منهما الضعاف من الرجال والنساء أما غيرهم ممن لا يستطيعون الحركة فيقيمون فى الطابق الأسفل الذى هو فى مستوى الطريق .

وكانت هذه الدار واسعة فسيحة جدا ، فلو أنك أردت أن تزور الناس الذين بها وتتفقدهم، ثم بدأت جولتك فى الصباح الباكر لغشيك الليل قبل إتمام هذه الزيارة .

على هذه الصورة كانت هذه المدينة ، وعلى هذا النمط كان سكانها الذين لم يكن عندهم أرض يزرعونها ، ولا بساتين يتعهدونها أو أى شىء آخر من الأشياء التى يتكسب منها الناس وتكون مصدر رزقهم ومعاشهم ، لكنهم كانوا جميعا - رجالا ونساء - أشبه ما يكونون بآل يعقوب يسكن كل فريق منهم فى الدور التى بنيت له ، كما تَعطَّف الإمبراطور عليهم فزودهم بكل ما يحتاجونه من الطعام والكساء . ولعل أعجب الأشياء فيما يتعلق بهؤلاء الفقراء أن القائم والمدبِّر لكل ما يحفظ عليهم حياتهم كان هو الإمبراطور نفسه وخدمه الذين يعملون جاهدين من أجلهم حتى لكأن هؤلاء الفقراء هم سادة أو كبار ملاك تدر عليهم ممتلكاتهم دخولا كبيرة . وكان الإمبراطور لا يكاد يعلم بمزرعة تقع فى بقعة جيدة يسهل الحصول عليها حتى يبادر فيشتريها ويحبسها على هؤلاء الإخوان ويخصهم بها مما يوفر لهم الحياة مع ما يقيم أودهم ، وكان عدد الأشخاص الذين ينعمون بهذه الحياة كبيرا لا يحصيه العد مما يجعلنى أقول إن عمل الإمبراطور مع هؤلاء الناس قلَّ أن يقارن به إلا ما فعله مخلصنا ممثلا فى معجزته إذا أطعم خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة . أما فى حالتنا هذه فنحن إزاء كرم إمبراطورى فى توزيع القوت على "إخوانه" . ولقد رأيت بنفسى امرأة عجوزا تعينها صبية صغيرة ، كما رأيت كفيفا قد أخذه مبصر بيده، ورأيت مُقعدا يحمله رجل صحيح ، ورأيت مبتور اليدين يستعين بأيدى سواه . كما شاهدت أطفالا ترضعهم حاضنات غير أمهاتهم ، وأبصرت مفلوجين يعتمدون على سواهم من الأصحاء الأشداء ، والواقع أن عدد الأشخاص فى هذه المؤسسة كان ضعف من أُعِدَّتْ لهم أصلا ، ذلك أنه كان لابد لكل شخص بها من أحد غيره يعنى بأمره .

لم يكن الإمبراطور قادرا على أن يقـول للمـقعد " قم وامش " فيقوم ويمـشى ، أو يقول له " احمل فراشك" فيحمله ، وما هو بالقادر على أن يقول للأعمى "انظر" فيُبْصِر ولا لمقطوع الساقين " هيا امش" لأنّ ذلك كان حقا مقصورا على الابن الذى من أجلنا صار بشرا، سكن - من أجلنا أيضًا نحن البشر - هذه الأرض، أما ألكسيوس فلم يكن فى قدرته إلا أن يعمل ما هو ممكن .

وكان هناك خدم موكَّلون بخدمة المعوقين دون سواهم ، كما أن نفس الرعاية كانت مبذولة للضعفاء والأصحاء على السواء ، ولو شئت أن أصف طبيعة هذه المدينة الجديدة التى أنشأها أبى منذ أنْ وضع أوّل حجر فى أساسها لقلت إنه كان فيها أربعة أضعاف من يسعهم المكان أو أكثر ، فهناك أناس يقيمون فى الطابق الأسفل وغيرُهم فى الذى يعلوه ، وغير هؤلاء وهؤلاء من يرعون هؤلاء وغيرهم .

لكن من ذا الذى يستطيع أن يحصىَ مَن كانت تُمَدّ لهم موائد الطعام كل يوم فيلتفون حولها ؟ ومَن ذا الذى يقدّر النفقات اليومية أو ما يُصرف على ضرورات المعيشة اللازمة لكل واحد منهم ؟

وفى رأيى أن جميع النعم التى ظلّوا ينعمون بها بعد موتِ ألكسيوس إنّما ترجع فى الواقع إليه؛ فقد خصَّص من أجلهم جانبا من وسائل لتخفيف آلامهم ، فجاء برجل من أبْرز الرجال وجعله قيِّما على هذه المدينة الزاخرة بنازليها وهم ألوف والتى سماها "دار الأيتام"، وسبب ذلك حَدْبه على اليتامى والعاملين المتقاعدين .

ويُستدل من اسم هذه الدار على مدى عنايته الكبرى بمن حُرِموا من آبائهم .

وكانت هناك إدارات تختص بالفصل قضائيا فى المنازعات ، فى الأمور المتعلقة بها ، وفى رواتب من لهم التصرف فى أموال هؤلاء الناس الفقراء ، وزيادة على ذلك فقد صدرت المراسيم العُليا التى تنصّ على حقوق من تكْفلُهم هذه الدار .

كذلك اختيرت هيئة كبيرة مهمة من رجال الدين الموقرين لكنيسة القديس بولس الذى هو جوهر إيماننا الكبير.

كما زُوِّدت الدار بما وقف عليها من أموالٍ طائلة للصَّرف عليها. و لو دخَلْت هذه الكنيسة لسمعْتَ المرتِّلين يتناوبون الإنشاد ، وكان أبى مُقتديا فى ذلك بما فعله سليمان فى أنْ جعل المرتلين فريقين من الذكور والإناث معا، كما أحْسن تنظيم المنشدات على أتَمّ صورة .

كذلك اهتم بالراهبات اللاتى يقمن هنا، اللاتى كان من عادتهنّ فى الأيّام السالفة حين يَحْضرن إلى القسطنطية أن يطرُقْن أبواب بيوت أهلها مُستْجْديات ساكنيها . أمّا الآن فقد شيد أبى ديرا كبيرا لهنّ يجدْن فيه الطعام واللباس ميسورين .

وربما افتخر الإسكندر المقدونى بمدينة الإسكندرية فى مصر، وافتخر "بوسيفال" فى أثيوبيا ولكن الإمبراطور ألكسيوس يبز الجميع بما شيد ، فقامت على يمين كنيسة "سنت بول " مدرسة للأطفال اليتامى الذين وفدوا إليها من شتى النواحى فنجد فيها طفلا لاتينيا ، وإلى جانبه بشناقيًا يتعلم اليونانية .

ويرجع ذلك كله إلى اهتمام ألكسيوس الكبير بالتعليم والدراسة . ولقد خرج من هؤلاء جميعا شعراء ومؤرخون .

وحدث أن شاهَدتْ إحدى سنوات حُكم أبى كارثة أثارتها طائفة تملأ صدرها الكراهية السوداء ، وهى طائفة لا تعرف الكنيسة عنها شيئا وتعرف بالبوجوميليين التى من المحتمل وجودها قبل عهد أبى ولكنها كانت تمارس نشاطها فى السر والخفاء، هذا إلى جانب أنها كانت أشد الطوائف براعة فى اصطناع النفاق وعدم إظهار ما تضمره قلوب أصحابها فلم يظهر أى داعية منهم فى ملابس علمانية، بل إنهم كانوا يخفون مكرهم تحت عباءة رجال الدين وقلنسواتهم فلا يطالعك البوجوميلى إلا بوجه عابس، وإذا مشى مشى مكبا ووجهه إلى الأرض ، وكلامه تمتمة لكن لو انكشف القناع عن حقيقته لطالَعْتَ ذئبا ضاريا. وما أشبه هذه الجماعة الملعونة بحية رقطاء مختفية فى جُحْرها لكن استطاع أبى أن يخرجها فأخرجها إلى السطح واستدرجها برقاه السحرية .

ولما كان أبى قد تخفف منذ قريب من معظم المتاعب التى كانت تؤرق باله من ناحية الشرق والغرب معا فقد أخذ يولى همته إلى مواضيع تتسم بمزيد من الروحانية لأنه كان يفوق غيره من الرجال فى كل شىء ، فإنْ جئته فى ناحية التعليم وجدته يبز كل حاذق فيه ، وإذا تكلمت عنه جنديا أو قائدا وجدته فاق جميع المحنكين الذين استحقوا إعجاب الناس .

وكانت البوجوميلية قد أخذت فى الانتشار حينذاك فى كافة أرجاء البلاد ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان يسوس هذه الطائفة راهب معين اسمه " فاسيل" اتسم بالخبث الكبير ولؤم النفس ، وقد اصطفى من أتباعه اثنى عشر رجلا سماهم: "الرسل" ، كما جذب إليه بعض النسوة اللائى سماهن المريدات ، وكن من ذوات الطبع القبيح والخلق الفاسد. وبذلك أخذ هذا الرجل ينشر نفوذه الزنيم فى كل النواحى ، وازداد شره وسرى مسرى النار فى الهشيم وأضلَّ نفوسا كثيرة حتى نفد معين صبر الإمبراطور الذى شرع يتقصى خبر هذه الهرطقة تقصيا دقيقا فاستقدم إلى القصر بعض البوجوميليين فأجمعوا على أن الرجل المدعو " فاسيل" هو صاحب الأمر والنهى فيهم ، وأنه الرأس المدبر .

ثم جيء بآخر منهم اسمه " ديبلاتيوس" Diblatius وزج به فى السجن عساه يعترف فأبى وأصَرَّ على الإنكار، حتى إذا بلغ العذاب به أشدَه اعترف بأن " فاسيل" هو كبيرهم ، كما صرح بأسماء " الرسل" أو " التلاميذ" ، الذين كان " فاسيل" قد اصطفاهم وحينذاك كلف الإمبراطور رهطا من الناس بمهمة البحث عنه فجدُّوا فى تعقبه حتى إذا عثروا عليه جيء به وهو " الشيطان المريد " فى مسوح الرهبان وطالعهم بوجه عابس .

كان فاسيل هذا رجلا فارع الطول ، خفيف اللحية ، وأراد الإمبراطور فى هذه اللحظة أن يستخرج منه خفى أسراره وأفكاره ، كما حاول استمالته إليه فدعاه إلى القصر بحجة لا غبار عليها ، فلما دخل " فاسيل " وقف له الإمبراطور ونزل من فوق كرسيه مرحبا به وأجلسه إلى جواره ثم دعاه لأن يشاركه مائدته ، واستعمل معه كل أنواع الحيلة يجعلها طُعما فى شص ألقاه إليه عساه يلتقطه فهو الحوت النهم ،

واستعمل مع هذا الراهب خبيث الطينة كل الأساليب حتى يبتلع الطعم وفيه السم ، وتظاهر الإمبراطور برغبته فى التتلمذ على يده ، وادعى له أن الأمر غير قاصر عليه هو وحده بل أن أخاه السبستكراتور إسحاق يريد أن يتبع هذا المارق الضال ويكون واحدا من مريديه .

كذلك تظاهر ألكسيوس بأنه يعتبر أقوال فاسيل وكأنها وحى سماوى ، ثم زاد فادعى له أنه استجاب لكل ما قاله ، ولم يكن الإمبراطور يسعى من وراء ذلك كله إلاّ إلى خلاص روح هذا الشقى فاسيل ، وأترع الإمبراطور له الكأس حتى الثمالة بكلام كأنه العسل المختوم عساه "يتقيأ" معتقداته السوداء ، فكان ألكسيوس يقول له: "إننى أنا أيضًا أيها الأب الوقور غاية التوقير شديد الإعجاب بك لما طبعت عليه من الفضيلة ، وأتوسل إليك أن تزيدنى علما وفهما بالعقائد التى تعرفها نيافتكم لأن جميع ما تقوله كنيستنا لا يعدو أن يكون لغوا لا يهدى إلى الحق والصراط المستقيم" .

فتظاهر فاسيل فى بادئ الأمر بالخجل واصطنع التواضع، لكنه كان يخفى فى باطنه شراسة الأسد وما هو فى واقعه إلاّ حمار فى تجاليد ليث . ونجحت كلمات الإمبراطور فى أن تنزع عنه خجله الكاذب، وامتلأ زهوا واعتدادا بنفسه من كلمات المديح التى كالها له ألكسيوس لاسيما وقد دعاه إلى مائدته يشاركه طعامه .

كان "إسحاق" فى كل هذا إلى جاب أخيه يشاركه هذه التمثيلية حتى "قاء" فاسيل العقيدة البوجوميلية ، وقد جرى الأمر على الصورة التالية: ذلك أنه كانت هناك ستارة تفصل أجنحة الحريم عن الحجرة التى يجلس فيها الشقيقان، وقد جلس خلفها كاتب يُدوِّن كل ما يقوله " ويتقيؤه" هذا الوحش " النجس " الذى صرح بكل ما عنده من أسرار . وكان يخيل للرائى أن هذا السفيه أشبه ما يكون بمدرس أما الإمبراطور فتلميذ بين يديه . ودوَّن الكاتب كل ما قاله هذا اللعين الذى وصل كل الأشياء (شرعية أو غير شرعية) بعضها ببعض ولم يستبق ذرة واحدة من تعاليمه وعقيدته الكافرة إلا باح بها وكشف القناع عنها

وكان هناك ما هو أسوأ من ذلك إذ أنه راح يقدح فيما تقوله عقيدتنا عن طبيعة المسيح اللاهوتية ، وظهَر خطؤه الفادح فى فهم الطبيعة الناسوتية، بل إنه ذهب إلى ما

هو أبعد من ذلك حين أوغل - وا جزعاه - فنعت الكنائس الطاهرة بأنها هياكل الشياطين ، ولم يكتم ازدراءه وتحقيره لكل ما نعتقده بشأن الجسد المقدس و "بدم" أول مخلص وأعظم كاهن لنا ونعته بالتافه .

ولابد أن القارئ يريد أن يقف على ما ترتب على ذلك من النتائج.. حسنا فليكن ما يريد .

لقد طرح الإمبراطور جانبا كل ما اصطنعه من التمويه ونحى الستارة جانبا ثم عقد مجلسا حضره جميع أعضاء السينيت وكبار قواد الجيش و الأكليروس . وكان يجلس حينذاك على كرسي بطركية ملكة المدائن أطهر البطاركة : المبجل نيكولا، وتلا على المجلس نصوص تعاليم " البوجوميلية " بصوت مرتفع ، وإذاك اتضح كل شيء لكن ذلك الملعون لم يحاول قط دحض التهمة عن نفسه بل لقد لج في غوايته دون شعور بالخجل ومضى فضاعف تهجمه معلنا أنه مستعد لأن يعذَّب بالنار وأن يُضرب بالسياط وأن يموت ألف مرة على أن يتراجع .

وهكذا ترى أيها القارئ أن هؤلاء البوجوميليين الضالين يتبجحون بأنهم يحتملون أي عقاب دون أن يحسوا ألما زعما منهم أن الملائكة سوف ترفعهم من بين أكوام الحطب التي توقد لحرقهم . وعلى الرغم من أن الجميع هددوه ولاموه على استهانته بالدين - حتى أولئك الذين شاركوه آراءه الهدامة - فإنه استمر على ما هو فيه من الضلالة ولم يخرج عليها قيد أنملة فكان عاصِيا وبوجوميليا شديد التمسك بآرائه .

وعلى الرغم مما هددوه به من إحراقه بالنار وغيرها من أساليب التعذيب التي عرضوها عليه فإنه ظل عَصِيا لا تلين قناته وظل تابعا مخلصا لشيطانه ، لذلك لم يجدوا بدا من إرساله إلى السجن .

وكثيرا ما كان ألكسيوس يبعث في استدعائه إلى حضرته أثناء وجوده في سجنه ويسأله أن يعلن توبته عن إثمه ويتطهر من فجوره ، فما أجْدى شيء من ذلك معه نفعا ، كما فشلت جميع توسلات الإمبراطور ولم تلق منه إلا أذنا صماء .

والآن عليَّ أن أروى أعجوبة حدثت لفاسيل هذا قبل أن يشرع الإمبراطور فى اتخاذ الإجراءات الحازمة ضده، ذلك أنهم مضوا به بعد أن صرح بكفره إلى دار صغيرة كانت قد أعدت له من قبل وتقع على مقربة من قصر الإمبراطور ، فلما كانت الليلة الثانية لانعقاد المجمع الكبير وقد صفت السماء وخَلَتْ من السُّحب وتلألأت نجومها وغمر نور القمر كل ناحية دخل هذا الراهب خلْوَتَه وقد انتصف الليل، فإذا بوابل هتان من الحجارة يتساقط على الخلوة تساقط كرات الثلج دون أن تكون هناك يد آدمية ترى حتى يقال إن هناك من يرمى بها الكاهن الشيطان ، فكأنما كانت هذه الأحجار انتقاما منه أو لَكَأنَّ الشياطين غضبت عليه إذ أفشى أسرارها إلى الإمبراطور مما أدى إلى ملاحقة الزنادقة بالاضطهاد الشديد ، ولقد اقسم " باراسيفوتس" المكلف بحراسة ذلك الشيطان ومَنْعِه من التحدث إلى الآخرين وإفسادهم بقانوراته أنه سمع صوت الحجارة ترتطم بعضها ببعض ورآها بعينيه تتساقط على الأرض وعلى قراميد الأسطح ، ثم تلا ذلك هزة عنيفة ساخت الأرض والأسطح منها ، ولم يتسرب الفزعُ إلى " باراسيفوتس" كما قال إلا بعد أن أدرك أن ما جرى إنما هو من عمل الشياطين .

لكنه لما رأى الحجارة تنزل من السماء وشاهد رأس الكفر المنكوب قد انسل إلى الداخل أغْلق رِتاج الباب على نفسه مؤمنا بأن ما يرى ليس فى واقعه إلا من عمل الشياطين ، لكنه لم يدر ما يفعل حيال ما يجرى .

(٩)

لن أستفيض فى الكلام عن هذه الأعجوبة الخارقة فقد قلت عنها ما فيه الكفاية . وإنَّ قصدى تفصيل القول فى الهرطقة البوجوميلية لكنى أكتفى بما قالته من قبل سافو المحبوبة من أن التواضع يمنعنى من الاستفاضة فى الحديث ، وأنى وإنْ كنت مؤرخة إلا أنى بعد كل شىء وقبل كل شىء أنثى أطَلَّت على الحياة فى المخدع الإمبراطورى وكنت أعظم من ولد به وتحوطنى أعظم مظاهر التعظيم ، كما كنت أول مولود لألكسيوس. وإنه لمن الخير أن أتجاوز عَمَّا لاكتْه ألسنة الرعاع . وعلى الرغم من رغبتى

الشديدة فى تفصيل الحدث البوجوميلى فإننى لا أستطيع إلى ذلك سبيلا؛ لأنى إنْ أفعل ذلك فقد لوثت لسانى ، لكن من شاء معرفة كل شىء بالتفصيل عن هرطقة البوجوميليين فإنى أحيله إلى التأليف المسمى " درع العقيدة " الذى وضعه الراهب "يوتيمس زيجابينوس" بتكليف من أبى، وكان هذا الراهب معروفا لجدّتى لأمى وجميع رجال الأكليروس وقد ذاعت شهرته وطبقت الآفاق ولم يكن ضحل المعرفة ، كما كان ملما إلى جانب ذلك بالعقيدة إلماما فريدا قلَّ أن ينافسه فى هذا المضمار أحد ، وقد كلفه أبى بوضع كتاب يشرح فيه جميع أنواع الهرطقة وأن يتناول كل نوع منها على حدة ثم يعقب على كل واحد منها بما يُفنّدها بناء على ما ورد فى كتابات الآباء الطاهرين .

كان من بين ما تضمنه هذا الكتاب من صور الهرطقة : الزندقة البوجوميلية حسبما شرحها " فاسيل" الكافر ، وقد سمى هذا الكتاب باسم " درع العقيدة" ولا تزال أجزاؤه كلها تعرف حتى اليوم بهذا الاسم .

والآن علىّ أن أعود إلى خاتمة فاسيل فأقول إنّ الإمبراطور استدعى من شتى الجهات تلاميذ فاسيل هذا وأتباعه الروحانيين لاسيما أولئك المعروفين برسله الاثنى عشر ونوقشت آراؤهم، وتكشف الحوار عن أنهم غير متهمين فى ولائهم لكبيرهم أو فى إخلاصهم له، إذ لا جدال فى أن جذور الإثم تمكنت من قلوبهم ، كما استفحل شرهم فدخل أكبر البيوتات ، واستجاب الكثيرون من الناس لهذا الإثم المستنكر الباطل. لذلك أدان ألكسيوس الهراطقة عن بكرة أبيهم لم يستثن منهم صغيرا ولا كبيرا ، وحكم عليهم وعلى كبيرهم بالموت حرقا ، فأرسل مَنْ تصيدهم حيثما كانوا وجمعهم فى مكان واحد لكن أبَى بعضهم إلا التمسك بالضلالة التى هم عليها ولم يريموا عنها حولا ، على حين نبذها غيرهم ، ولم يكتفوا بهذا النبذ بل زادوا فنالوا أشد النيل من محرضيهم ونددوا تنديدا صريحا بالزندقة البوجوميلية وسفهوها .. غير أن الإمبراطور لم يصدق ما قالوه ولم يأمن الوقوع فى الخطأ فى تحديد شخصيتهم، لذلك أعد مشروعا جديدا استهدف من ورائه ألا يصيب بالضرر أصحاب العقيدة المسيحية الصادقة ، وخاف الخلط بين المسيحيين الصادقين وبين البوجوميليين ، فيُظَنّ البوجوميلى خطأ أنه نصرانى مؤمن فينجو والعكس من ذلك صحيح ، لذلك ما كاد اليوم التالى يطلع حتى

أخذ مجلسه على العرش الإمبراطورى ثم دعا لفيفا كبيرا من رجال السينيت مع أعضاء من المجمع المقدس وبعض كبار الرهبان المعروفين بغزارة علمهم، وجيء بالمتهمين فمثلوا أمام هذا الجمع للمحاكمة، وأمر ألكسيوس باستجواب البوجوميليين المتهمين واحدا إثر واحد ، فلم ينكر بعضهم " بوجوميليتهم "، ولم يخفوا شيئا من شدة تمسكهم بهرطقتهم ، في حين أنكرها البعض الآخر منهم إنكارا باتا ونعتوا أنفسهم بالمسيحيين حقا ، وأصروا في ما يقولون ، وحينذاك نظر إليهم الإمبراطور شذرا وهو يتقد غضبا ثم قال لهم: " ستشعل اليوم كومتان من الحطب وسوف يوضع في واحدة منهما الصليب ويثبت تثبيتا قويا في الأرض ثم يعرض على الجميع أن يختار كل واحد منهم إحدى الكومتين . فأما الذين هم مستعدون للموت من أجل الإيمان الحق فسوف ينفصلون عن البقية ويتخذون مكانهم في جانب الكومة التي فيها الصليب ، وأما البوجوميليون فيختارون الكومة الأخرى . ومن المؤكد أنه من الخير للنصارى أن يلاقوا الموت بدلا من أن يعيشوا مطاردين من الناس باعتبارهم بوجوميليين" ، ثم قال : "عليكم أن تمضوا جميعا فيختار كل منكم الكومة التي يريدها " .

كان هذا البيان الصادر إلى البوجوميليين أقرب ما يكون إلى غلق ملف هذه القضية وجيء بالجميع إلى حيث تجمّع الناس زرافات وأشعلت النيران وسط ساحة ملعب الكرة بالقصر، كما صدر الأمر بأن يحمى الأتون سبعة أضعاف ما يحمى به عادة، وتعالت ألسنة اللهب حتى بلغت عنان السماء ، ووضع الصليب بجوار أتون منها ، وترك الخيار أن يختار كُل ما يشاء لأنهم كانوا جميعا سوف يقذف بهم في النار فيصبحون طعاما لها ، فلما أيقنوا استحالة النجاة تحرك أهل الإيمان الأرثوذكسي الصادق نحو الأتون الذي عنده الصليب ، واستعد كل منهم بطيب خاطر أن يتحمل آلام الشهادة .

أما الزنادقة أتباع الهرطقة الملعونة فقد اتجهوا إلى الناحية الأخرى .

وبينما كانوا على وشك أن يلقى بهم وسط اللهيب المتصاعد انفجر المشاهدون بالبكاء حزنا على المسيحيين الصادقين الذين كانت نفوسهم تتأجج غضبا من

الإمبراطور ، ولكن أمرا جاء منه فى هذه اللحظة بوقف الحرق ، واستطاع ألكسيوس بهذه الطريقة أن يعرف معرفة غير مغموزة من هم البوجوميليون فى الواقع .

حينذاك أطلق المسيحيين الذين كانوا ضحية الإفك والبهتان بعد أن أسدى إليهم النصح . أما غيرهم فقد زج بهم مرة أخرى فى الحبس ولم يستثن منهم سوى المسمين "الرسل" أو " التلاميذ" فنحاهم جانبا ، وراح يرسل كل يوم فى طلب البعض منهم ويتولى هو بنفسه إسداء النصح إليهم وتعريفهم بالدين الحقّ رجاء أن يقلعوا عن عبادتهم الشيطانية ، كما أوعز إلى رهط من كبار رجال الكنيسة أن يزوروا بقيتهم كل يوم ليفقهوهم فى العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة وينصحوهم بالتخلى عن أفكارهم الضّالة الكافرة، وأتت هذه الطريقة أكلها في بعضهم فقد سلكوا سبيل الهدى فأطلق سراحهم ، أما سواهم فقد راحوا بين هالك بكفره وضلاله وبين طريح فى سجنه وإنْ توفر لهم الطعام والملبس.

(١٠)

ولقد أجمع رأى أعضاء المجمع المقدس وزعماء الرهبان وبطرك ذلك الوقت نيكولا على وجوب حرق "فاسيل" حتى الموت ، لأنه كبير الكفار ولم يُبْدِ أى دليل على توبته وندمه، كما انتهى الأمر بالإمبراطور الذى كان قد أكثر من ملاقاته للحكم عليه بمثل ما قضى به هؤلاء عليه آخذين فى الاعتبار تمادى "فاسيل" فى عناده، وأن لا أمل فى رجوعه عن غيِّه، ومن ثم أضرمت نار كبيرة فى " الهبدروم" وحفر أخدود شديد الاتساع ألقوا فيه بكتل ضخمة وكميات كبيرة من الأخشاب كانت كل واحدة منها عبارة عن شجرة طويلة، وألقى بعضها فوق بعض حتى صارت كأنها الأكمة العالية ، ثم أضرمت فيها النار، وتجمعت حشود كثيفة من الناس فى ساحة الملعب وعلى مدرجاته ووقفوا فى انتظار ما يتمخض عنه الوضع .

ومن ناحية أخرى فقد رُفع أحد الصلبان عاليا وسمحوا لكل كافر بفرصة يعلن فيها على الملأ خطأه لعل خوفه من النار يغيِّر تفكيره فيتوب ويسير قُدما نحو الصليب

فينجو من الحرق . ويجب أن أقرر هنا أن أنصار " فاسيل" تجمعوا وكانوا كثيرين ووقفوا يرقبون كبيرهم الذى اتضح أنه رغم كل ما حوله أظهر عدم اكتراثه بأى نوع من العقاب ولم تردعه شتى التهديدات ، وبينما كان لا يزال على مبعدة من النار إذا به يرسل قهقهة عالية ملؤها السخرية ، ويعلن متباهيا أن الملائكة سوف تتعهد برعايته وهو وسط النار التى ستكون بردا وسلاما عليه ، وقال ما قاله داود فى مزاميره "يسقط عن جانبك ألف من خوف، ولا سهم ولا من وباء ولا من هلاك يسقط عن جانبك . وربوات عن يمينك لا يقرب إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار " .

غير أنه لما أفسحت الجموع له طريقا وشاهد بعينى رأسه منظر النار المروع تسرب الخوف إلى نفسه وزايلته جرأته ، إذ أحسَّ بحرارتها رغم أنه كان على بعد منها ، ورأى ألسنة اللهب تزمجر كأنها الرعد القاصف وقد تطاير الشرر عاليا فى الجو حتى بلغ قمة المسلة الحجرية القائمة وسط " الهيبدروم" ، وحينذاك اتضح للعيان خوفه وذعره وجُنَّ جنونه ، وزاغ بصره هنا وهناك ووقف يعصر كفيه الواحد منهما بالآخر ويضرب فخذيه . ثم حاول أن يبدو ثابتا رغم أنه كان مأخوذا فزعا من منظر النيران وإنْ لم تستطع النيران إنْ تلين حدة شموسه ، كما لم تتمكن رسائل الإمبراطور إليه من قبل أن تصرفه عن غيه ، وربما اعتراه فى هذه اللحظة بالذات ما أدرك معه سوء منقلبه ، فاستبد به الجنون وطار عقله ولم يعد قادرا على أن يتبين ما فيه خيره، أو لعل الشيطان – وهذا أكثر احتمالا – قد تملك روحه وأعمى بصيرته فوقف حيث هو حقيرا مهانا مهيض الجناح أمام كل وعيد ورُعْب ، ولم يملك نفسه ففغر فاه أمام النار تارة وأمام مشاهديه تارة أخرى ، واعتقد الجميع أن عقله زاغ لأنه لم يتقدم نحو النار ولم يفر منها، لكنه وقف كأنْ قد تسمرت قدماه عند البقعة التى دخل منها إلى الساحة ، وكثر لغط الناس وتعالى وهم يستعرضون النبوءات العجيبة التى فاه بها ، وخاف جلادوه أن تتنزل الشياطين فتحميه فتكون معجزة ، وما كان لمعجزة أن تجرى إلاّ بإذن الله .

كذلك لم يستبعد الناس أن تراه جموعهم في مكان من الأماكن العامة خارجا عليهم معافى سليما لم تمسسه النار الفظيعة بضُرٍّ ، وبذلك تكون الغلطة الأخيرة أشد

هولا من الغلطة الأولى ، لذلك رأوا أن يضعوه موضع الاختبار والتجربة ، فبينما كان يتكلم كلاما عجيبا ويتباهى بأنه سوف يخرج من هذا اللهيب سليما معافى إذا بهم يأخذون عباءته الصوفية ويصيحون : هيا لنرى إذا كانت النار تمسك بملابسك! وقذفوها إليه وسط الأتون.

لقد بلغ من شدة إيمان فاسيل بإبليس أن صاح في الجموع: " انظروا .. ها هي ذي عباءتي ترتفع إلى السماء "، ورأى الناس أن قد دنت اللحظة الحاسمة وألقوا به هو وبنعليه وما عليه من الثياب إلى الأتون الذي بدت نيرانه وكأنها تتفجر هي الأخرى غضبا على هذا اللعين المرذول ، فلم تتصاعد له رائحة أو يروا أي شيء غير عادي سوى عمود رفيع من الدخان ، لأن جميع عناصر الشر تثور ضد من حقت عليه اللعنة ولكنها تتحاشى أحباب الرب ، كما حدث ذات مرة في بابليون من أن النار أبت أن تمس أولئك الشباب الذين أحبهم الله بل صارت أشبه بهيكل ذهبي من حولهم ، لكن الذي جرى في هذا الموقف هو أنه بينما كان الجلادون يتأهبون لقذف "فاسيل" في النار وقد أخذوه بين أيديهم إذا بالنار بدت وكأنها تزحف نحوه وتختطفه ، فذعر الواقفون هناك وحاولوا أن يلقوا في النار بكل من بقي من أتباع هرطقة فاسيل الملعونين ، ولكن الإمبراطور حال بينهم وبين ما يعتزمونه . ثم أمر بالتحفظ على البوجوميليين في سجون القصر الكبير وحجراته ، وإذ ذاك تفرق النظارة .

وقد تم نقل هؤلاء الزنادقة فيما بعد إلى مكان آمن يسجنون فيه فأقاموا حيث فرضت عليهم الإقامة حتى هلكوا على ما هم عليه من الإثم بعد أن ظلوا هنا أذلة أمدا طويلا .

على هذه الصورة كانت نهاية سلسلة طويلة من متاعب الإمبراطور وجهاده ولكنها كللت بالنصر ، وكانت هذه فترة حافلة بالمخاطرات العجيبة وبأمور مستجدة ، وإني لأتصور أولئك الرجال الذين كانوا أحياء حينذاك وعملوا معه والذين رأوا أنّ ما تم إنجازه في تلك الأيام لابد وأن يكون فوق ما يتصوره الذهن ويبدو وكأنه حلم أو طيف خيال ، وذلك أن المتبربرين الذين ظلوا بلا رادع يردعهم منذ اجتياحهم الإمبراطورية في أعقاب تولي ديوجين الحكم ومنذ حملته الشرقية التي كان في طياتها نذر الشر

حتى مستهل زمن أبى، أقول إن هؤلاء المتبربرين قد أشهروا السيوف وسددوا الرماح إلى صدور المسيحيين فجرت معارك وحروب ومذابح ، ومحيت مدن من الوجود ، وامتد الخراب إلى أراض كثيرة وأهرقت على ثَرَى رومة دماء مسيحية ، ومات البعض أسوأ ميتة بالسهام وبالسيوف . وخرج البعض من ديارهم على وجوههم وسيقوا إلى المدن الفارسية أسرى حرب، واستولى الفزع على الجميع وهم يحثون الخطى التماسا لملجأ فى الكهوف يقيهم من الخطر الماثل أمام أعينهم ، كما لجئوا إلى الأدغال الموجودة بين الجبال والتلال وهُمْ يندبون مصير رفاقهم الذين سيقوا أسرى إلى فارس .

أما القلة التى قيضت لها الحياة فى الأراضى الرومانية فقد بكوا ما أصيبوا به من النكبة فى أبنائهم إذ فقدوهم ، واشتملهم الحزن على نسائهم ، فكنت ترى هنا نائحا ينوح على أخيه وآخر يندب ابن عم له قتل قبل أن يحين حينه ، وغير هذين من راحوا يذرفون الدموع السخينة كالنسوة ، ولم يبق درب فى تلك الأيام إلاّ وقد سفك أهلوه الدموع وضجوا بالبكاء ، ولم يجرؤ أحد على الإطلاق على الزحف فى آسيا منذ ذلك الحين أو تطؤها قدماه إلا إذا استثنيا رهطا قليلا من الأباطرة نذكر منهم على سبيل المثال: "زيمسكس" و "باسيل".

(١١)

لكن ترى لماذا أُدَوِّن هذه الأمور ؟

إنه يخيل إلىّ أن ابتعدت كثيرا عن الموضوع الأساسى ، وربما كان السبب فى ذلك هو أن لب تاريخى يفرض علىّ مهمة ذات شقين: أحدهما هو رواية الحقائق المتعلقة بحياة الإمبراطور ، وثانيهما هو أن أبين طبيعة هذه الأحداث المأساوية ، وبعبارة أخرى فإنه ينبغى علىّ أن أقدم بيانا عن نضاله وأن أفضى – فى نفس الوقت – بكل الأمور التى أحزنت قلبى وأدمته ومن بينها قصة موته وهدم كل ما كنت أجده رائعا على هذه الأرض، ومع ذلك فإنى أقدم بعض الملاحظات الخاصة التى أبداها أبى وهى ملاحظات تنهانى عن كتابة التاريخ وتحثنى كثيرا على كتابة المراثى وقصائد الحزن ،

إذ طالما سمعته يتكلم فى هذا الموضوع حتى لقد سمعته ذات يوم وهو يعنف الإمبراطورة وينهاها حين رآها تطلب من أحد أصحاب القلم تدوين ما قام هو به من الأعمال الكثيرة ، وما ألَمَّ به من البلايا العدة وكان ذلك العمل من جانبها محاولة منها لكى تقف الأجيال القادمة على أخبار هذه الأحداث ، وقال إنه من الخير أن يرثى الناس له وأن يندبوا سوء حظه .

وقد حدث بعد أقل من ثمانية عشر شهرا من عودته من حملته التركية أن أصابه مرض اشتد عليه وهدد حياته وأدناه من الموت ، ولقد كنت منذ نعومة أظفارى أحب أبى وأمى حبا لا مزيد عليه ، وكان مرضه موضوعا خطير الأهمية يزعجنى حتى ليرغمنى على تجاوز أصول الكتابة التاريخية ، ومن ثم فسوف أمضى فأفعل ما أوثر ألاّ أفعله ألاَ وهو أنْ أروى قصة موت الإمبراطور .

كان هناك سباق هبت الريح فيه عاصفة صاخبة مما ترتب عليه انحسار آلامه الروماتزمية عن أطرافه واستقرارها فى أحد كتفيه ، وأمسك معظم الأطباء عن بيان مدى الخطر الجسيم الذى ينطوى عليه هذا الحدث ، غير أن واحدا منهم اسمه "نيكولاس كاليكلس " kallicles توقع حدوث مضاعفات مزعجة فأخبرنا أنه يخشى أن تتحرك هذه الآلام الروماتزمية فتفارق الأطراف إلى ناحية أخرى من جَسَدِه فتهدد حياته ، فلم نصدقه فيما قال؛ لأننا كنا لا نحب أن نصدق ما يقوله فى هذا الصدد ، وانفرد " نيكولا كاليكلس" وحده باستعمال الملينات لتطهر جهازه الداخلى ، ولم تجر عادة ألكسيوس على تناول هذه الملينات، كما أنه لم يألف قط تناول العقاقير مما حدا بمعظم أطبائه لاسيما " ميخائيل بانتخنس" Pantechness إلى منعه منعا باتا من اللجوء إلى الملينات ، وتوقع "كاليكلس" ما سوف يصيبه من مضاعفات وأكد ذلك فى حديثه إليهم قائلا لهم: " إن المرض قد ترك فى الوقت الحاضر الأطراف وهاجم الكتف والرقبة، فإن لم نتخلص منه بالملينات فسوف يزحف إلى عضو آخر من أعضائه الهامة وربما وصل إلى القلب ذاته ، فإنْ حدث ذلك فلن يجدى شىء ما حينئذ فى معالجة المرض ودفع الخطر" .

ولقد كنتُ حاضرةً بنفسى إذ ذاك هذا الاجتماع - بناء على الأوامر الصادرة لى من سيدتى الإمبراطورة - لأستمع إلى آراء الأطباء . أما من ناحيتى فقد أيدْت شخصيًا ما أشار به "كاليكلس" ولكن هزمنا عند أخْذِ الأصوات أمام الآخرين الذين كانت لهم الأغلبية ، والواقع أن الآلام الروماتزمية التى كانت قد أنهكت جسد الإمبراطور لبضعة أيام أخذت فى التلاشى بالتدريج واسترد قليلاً من عافيته ، لكن مرض الموت ما لبث أن داهمه قبل انقضاء ستة أشهر ، وربما كان القلق النفسى العميق هو الذى جلبه عليه ، فقد أجهده ضغط الأعمال اليومية وكثرة المشاغل الحكومية إجهادًا كبيرًا ، وطالما سمعته يتحدث مع الإمبرطورة عن تلك العلة ويلعنها ويقول: " أى مرض ملعون هذا الذى ألم بتنفسى؟ لكم تمنيت لو تنفست ملء صدرى نفسًا قويًا عميقًا وتخلصت من هذا الألم الذى يؤذى قلبى ، ولكم حاولت ذلك فلم أفلح ولم أستطع التخلص ولو من ذرة من هذا العبء الذى يزعجنى، وإنه لأشبه ما يكون بحجر ثقيل كل الثقل يجثم على صدرى ويقطع أنفاسى وأنا أتنهد ، ولست أدرى سببًا له ولماذا تهاجمنى هذه الآلام أنا بالذات .. وإن عندى شيئًا آخر يجب أن أفضى به إليك أيتها الحبيبة الغالية ، يا شريكتى فى السراء والضراء ، وأعنى بهذا الشىء هو أنه كثيرًا ما تنتابنى نوبات تقطع تنفسى - شهيقًا وزفيرًا وتسبب لى ألمًا شديدًا ، فإنْ تكن لديك أية فكرة عن هذا الألم الجديد فأرجو أن تخبرينى بها " . فلما سمعت الإمبراطورة هذه الكلمات وعرفت شكواه اضطربت اضطرابًا بالغًا حتى ليحسب الناظر إليها أنها تعانى نفس الذى يعانيه الإمبراطور من ألم ، وأنّ عندها من ضيق التنفس ما عنده هو ذاته . ثم خنقتها العبرات .

وكثيرا ما كانت تستدعى إليها أحسن المطببين وتطلب إليهم الفحص الدقيق والكشف عن طبيعة هذا المرض فيجسون نبضه ويقررون أن كل نبضة فيه تشير إلى أنواع من الاضطرابات ولكنهم عاجزون عن نسبة ما به إلى سبب معين، وكانوا يعرفون أن وجبة طعام الإمبراطور لم تكن ثقيلة، بل كانت ضئيلة كل الضآلة وهى أشبه ما تكون بالطعام الذى يقدم للرياضيين والعسكر، ومعنى ذلك أنه لا مجال فيها أبدًا لتراكم الدهنيات الناتجة عن دسامة الوجبة ، ونسبوا ضيق التنفس الذى يعانيه إلى سبب آخر وقالوا إن العلة الرئيسية لشكواه إنما هى من جراء انهماكه فى العمل وتراكم المتاعب

الكبيرة باستمرار عليه ، مما نجم عنه ضعف قلبه ضعفا جعله يستهلك كل قوة فى جسده . وتطور المرض الخبيث بعد ذلك فلم يدع له لحظة من الراحة، بل كان يأخذ بخناقه أخذ الدابة من مِها ، وراح الداء يستفحل ويزداد شراسة كل يوم عن سابقه ويهاجمه بلا هوادة على فترات متقاربة تكاد تكون موصولة بلا انقطاع حتى استحال عليه النوم على أى جنب من جانبيه ، واشتد به الضعف حتى كان يشق عليه كل نَفَس يتنفسه ، وإذ ذاك استدعوا له جميع الأطباء ليتبادلوا الرأى فى حالته ، ولم يكن محور نقاشهم سوى مرضه. ثم اختلفوا فيما بينهم فى شأن علته وطال جدلهم ، وذكر كل منهم تشخيصه الخاص والعلاج الذى يتفق وعلته .

ومهما تكن الحلول التى قدموها إلاّ أن حالته تدهورت غاية التدهور وبلغت غاية الحرج إذ لم تكن تمر به لحظة ينعم فيها بالتنفس فى سهولة ، بل لقد أصبح لزامًا عليه أن يجلس منتصبًا إنْ أراد التنفس ، فإن اضطجع على جنبه أو على ظهره أصابه – وا أسفاه – الاختناق المروع فلا يستطيع شهيقًا أو زفيراً ، وأصبحت النسمة البسيطة من الهواء متعذرة عليه ومستحيلة . فإن ترفق به النوم وزارهُ لحظة خيف عليه أن يموت اختناقًا ومن ثم كان مهدداً على الدوام فى يقظته ونومه بالاختناق .

وحجبوا عنه جميع الملينات ، وحاول الأطباء استعمال الفصد لمعالجته . وعملوا شقا فى العضد لكن يُجْدِ ذلك لم نفعا بل ظل عاجزا عن التنفس كما كان من قبل ، وكان هناك خطر يتربص به على الدوام خيف منه عليه وهو أن يسلم الروح بين أيدينا ، لكن كان يطرأ عليه بعض التحسن بعد أن يعطوه ترياقا من الفلفل ، وإذ ذاك لا نعرف كيف نمسك أنفسنا من الفرح ، ولا نملك إلاّ أن نصلى شكرا لله ، ولكن ذلك كله لم يكن إلاّ وهما وخداعا ، فقد عاوده ضيق النفس فى اليوم الثالث أو الرابع ، وانتابته نوبات الاختناق فى رئتيه ، ولست أدرى عما إذا كان لهذا الترياق دخل فى زيادة سوء حالته فقد زاد سُقْمه ولم نستطع السيطرة على المرض الذى زحف إلى التجاويف الباطنية ، فتدهور وضعه تدهورا كبيرا، ولم نعد نملك إزاء ما جرى أية وسيلة لجعله يرقد فى هدوء ، فقد بلغ الآن المرض أقصى شدته حتى أنه لم تكن تغمض له عين منذ الغسق إلى الفجر ، وأصبح عاجزا عجزا تاما عن تناول الأدوية تناولا صحيحا ، وصار من المستحيل إعطاؤه أى منشط أو مهدئ ، وكثيرا ما رأيت والدتى تمضى الليلة أو الليالى

المتعاقبة وراءه وهو مستند إلى وســادته وتأخذه بين ذراعيها لتساعده على التنــفس ولو قليلا ، وهى فى أثناء ذلك لا تكف عن البكاء وسفك الدموع التى تحاكى فى تدفقها غزارة مياه النيل ، كما أنه لا يمكن وقف ما كانت تحوطه به من العناية البالغة ليلا ونهارا على السواء ، ولا يستطيع أى إنسان أن يوفيها حقها إزاء الجهد الشاق الذى بذلته وهى تقوم بتمريضه والعناية به ، ثم وهى تعدل وضعه مرة بعد أخرى ، أو حين ترتب له فراشه وتسوى له غطاءه ثانية وثالثة عسى أن ينام وينعم بالراحة لكن لم ينفع أى شيء مما بذلته فى جلب الراحة أو بعض الراحة له فقد أطبق عليه الوجع وأمسك بخناقه كأنه الأنشوطة تخنقه، أو على الأصح أن ضيق النفس كان رفيقه الدائم الذى لازمه ولم يفارقه ، كما لم ينجع معه أى علاج ، لذلك قاموا بنقل الإمبراطور إلى ناحية من القـصـر تطل على الجنوب فـوجـد فى هذا الانتـقـال بعض الراحـة ، ولما كـانت الإمبراطورة حريصة كل الحرص على أن تظل متأكدة من استمرار تمتعه بالراحة فقد صنعت لسريره قوائم خشبية عند رأس مضجعه وقدميه وكلفت بعض الرجال أن يتناوبوا الدوران به ، ثم أمرت بعد ذلك بنقله من القصر الكبير ، إلى مانيانا فلم تُجْدِ كل هذه الأمور شيئا ولم تؤد إلى تحسن حالته ، فلما رأت أمى أن المرض قد استفحل وتمكن منه وداخلها اليأس من كل معونة آدمية ضاعفت عن ذى قبل صلواتها الحارة إلى الله نيابة عن الإمبراطور ، ولم تترك مزارا من المزارات إلا أوقدت فيه ما لا يحصى من الشموع وأمرت بترتيل الأناشيد الدينية من غير انقطاع أو توقف ، وجادت بالمال على الناس سواء من كان منهم فى البر أو البحر ، وطلبت إلى جميع الرهبان من سكان الكهوف أو ممن يعيشون فى الجبال أو يعتزلون الناس أينما كانوا أن يكثروا من الدعاء له والتضرع إلى الله من أجله ودعتهم جميعا أن يطلبوا الشفاء للإمبراطور ، لكن حين زاد انتفاخ بطنه وتورمت قدماه بشكل جلى وأرقدته الحمى جاء بعض الأطباء غير مراعين الحمى التى يعانيها وعالجوه بالكى فلم تنجح شتى أنواع العلاج ولم تأت بأية فائدة ولم يفده الكى لأن معدته وأعضاء تنفسه ظلت على ما هى عليه من السوء الـذى بدا وكأنه آت من مصـدر آخر غير المرض الـذى سرى إلى بلعـومه وتمـكن مما يسميه أهل الطب بسقف الفم، وتورمت لثته ، وانسدت لهاته ، والتهب لسانه ، وضاق مريؤه ، وسُدَّتْ نهايته وأصبحنا حينذاك أمام ما يصيبه من الجوع التام .

ويشهد الله كم شقيت فى إعداد طعامه الذى كنت أحضره إليه كل يوم بنفسى وأتأكد أنه غير ضار على هيئة يسهل عليه ازدراده فيهضمه، ولكن فشلت جميع المحاولات التى بذلت لعلاج المرض الخبيث الملتهب ولم تنفع كل محاولاتنا ومحاولات المطببين وانقضى أحد عشر يوما إلى أن بلغ الداء به مرحلته الأخيرة وأصبح يهدد حياته وتدهورت حالته وأفرط به الإسهال الشديد وأخذت المصائب تنهال علينا فى هذه اللحظة واحدةً بعد الأخرى ، ولم نعد – نحن الذين نتعهده بالرعاية ولا الأطباء – ندرى ما نفعل من أجله فقد كان كل شىء ينذر بالخطر ويومئ إلى أن نهايته قد دنت، فاضطربت أحوالنا اضطرابا فظيعا وعمتها الفوضى ، كما اختلَّتْ عاداتنا المألوفة وأصبح سيف الخوف والخطر مصلتا فوق رءوسنا . لكن على الرغم من هذه الأخطار الماثلة أمام أعيننا والمحيطة بنا فإن الإمبراطورة لم يفارقها ثباتها ولا شجاعتها بل لقد أظهرت فى هذه الأزمة ما طبعت عليه من روح عالية فسيطرت على ألمها الحاد ووقفت صلبة العود كأنها أحد أبطال الألعاب الأوليمبية تصارع أشد الآلام قسوة ووحشية ، وإذا كانت رؤية الإمبراطورة لأبى تدمى ر ها وتحطم قلبها فإنها ظلت مسيطرة على ذاتها ، صابرة على تحمل متاعبها رغم أن الجرح الذى أصابها كان جرحا قاتلا فقد نفذ سهمه إلى صميم سويدائها فعذبها عذابا لم يعذِّبه أحد ، ومع ذلك فقد أبت الاستسلام وإنْ لم تستطع أن تمنع دموعها من السَّحِّ وغاض جمال طلعتها وأصبحت روحها وكأنها معلقة بخيط واه .

فلما كان الصباح الباكر من يوم الخميس الخامس عشر من أغسطس الذى يحتفل فيه بعيد وقود سيدتنا أم المسيح العذراء الطاهرة جاء بعض الآباء ودهنوا رأس الإمبراطور بالزيت ظنا منهم أن ذ ك نفعا له ، ثم انقلبوا بعدئذ إلى دورهم. ولم يكن ذلك العمل من جانبهم صادرا عن قرار عاجل أو ضغط عليهم ولكنهم كانوا مدركين أن سيف الخطر مصلت فوق رقبة الإمبراطور فإن نهايته أصبحت وشيكة. وكان هناك ثلاثة من فطاحل الأطباء هم: " نيكولاس كاليكلس " العظيم، وميخائيل دانتاخنتس البطل الذى استمد لقبه من أسم اسرته، وميخائيل الخصى.

و التف حينذاك حول الإمبراطورة نفر من ذوى قرباها وأرغموها على تناول الطعام ، وكان قد مضت عليها ثلاثة أيام لم تذق فيها طعم النوم وقد ظلت طوالها

ترعى الإمبراطور وهو مسجى على فراشه ، فأطاعتهم فيما طلبوه، حتى إذا جاءته نوبة الإغماء الأخيرة عادت هى مرة ثانية وقد وقفوا جميعا يرقبون ما يجرى ، فلما رأته فى نزعه الأخير ألقت بنفسها عليه واستخرطت باكية تضرب صدرها بكفَّيْها وتشكو الكارثة الفادحة التى حلت بها وودت لو قضت نحبها إلى جانبه ، لكنها لم تكن قادرة على ذلك .

أما الإمبراطور فعلى الرغم من أنه كان يعانى سكرة الموت وقد برح به الألم الحاد فقد بدا وكأنه أقوى من الموت ، فقد انزعج من أجل خاطر الإمبراطورة وحاول عن طريق إحدى بناتها (وهى الأميرة يودوكيا) ثالثة بناته أن يخفف من وجع أمى .

أما الابنة الأخرى " مارى" فلم تكن تشبه مارية الأخرى التى جلست عند قدمى سيدنا إذ كانت أختى مريم هذه تأخذ فى يدها برأس الإمبراطور حيث تسقيه الماء وتصبه من جرة كبيرة وليس من كأس حتى لا يكون ابتلاع المـــاء صعبا عليه ، وربما كان ذلك لأنه لم يكن يقدر أن يقبض على الكأس لالتهاب سقف فمه من الداخل ولسانه وكل حنجرته ، وكانت هى حريصة على إنعاشه . ثم تكلم الإمبراطور فنصح الإمبراطورة قائلا : "لماذا تسلمين نفسك للحزن الشديد عند موتى وترغمينني على أن أتوقع النهاية التى تدنو منى بسرعة ..؟ لماذا لا تتدبرين أمر نفسك والأخطار التى تهددك الآن بدلا من أن تسلمى نفسك لفيضان الحزن الذى اجتاحك "؟

هكذا كانت كلماته الأخيرة للإمبراطورة وإنْ كانت لم تؤد إلا إلى نكء جراحها .

أما أنا فقد فعلت كل ما فى استطاعتى وإنى لأقسم بالرب الذى لا تخفى عليه خافية ولجميع أصدقائى الذين لازالوا أحياء ولمن سوف يقرأ فى المستقبل مؤلفى التاريخى هذا أننى لم أزد عن أنى امرأة جن جنونها، فقد لَفَّنى الحزن فى طياته، ونسيت الفلسفة والعقل؛ لأننى كانت حينذاك مشغولة برعاية والدى أراقب نبضه وتنفسه مراقبة دقيقة ، ثم أعود فألتفت إلى أمى فنواسيها بقدر الإمكان ، لكن فشلتْ جميع وسائل العلاج فشلا ذريعا فقد أغمى على الإمبراطور وعجزنا عنْ ردّه إلى وعيه ، وكادت "الأوجستا" أن يغمى عليها هى الأخرى فكان موقفا صدقت فيه كلمات المزامير "اكتنفتنى جبال الموت ، وسيول الهلاك أفزعتنى، وجبال الهاوية حاقت بى، وشراك الموت

انتشبت بى" ، فعرفت إذ ذاك أنى فقدت صوابى وجننت ، ولم أعرف ما سوف يحيق بى ولا أين أتجه ورأيت الإمبراطورة غارقة فى بحر من أحزانها ، وشاهدت الإمبراطور يدخل فى الغيبوبة مرة بعد أخرى ويسير إلى نهاية حياته . لكن حين سكبت أختى الحبيبة الماء وخلاصة الورد عليه استرد وعيه من غيبوبته الثانية وأمرها أنْ تفعل ذلك أيضًا لأمها، ثم أغمى عليه للمرة الثالثة وتبادر إلى الظن أن الخير قد يكون فى نقل فراشه فتعاون من حوله معنا ونقلناه إلى ناحية أخرى من المبنى ذى الأدوار الخمسة حتى يستطيع أن يتنفس هواء أنقى من هذا الهواء ويسترد نفسه مرة أخرى حيث كان هذا القسم يواجه الناحية الشمالية ولا توجد دور تصد الهواء .

فلما رأى (جون) ولى عهد الإمبراطور ما حدث ذهب إلى الدار التى خصصت له والموجودة على مسافة قاصية بعض الشىء من هنا وأسرع إلى القصر الكبير، وكانت المدينة فى هذا الوقت فى حال من الاضطراب وإنْ لم تبلغ درجة الفوضى الشاملة.

أما الإمبراطورة فقالت وقد لفها حزنها القاتل فى مسوحه : " خلوا كل شىء جانبا وليذهب كل شىء للخراب "، ثم قالت : " نَحُّوا الجواهر .. نحّوا التاج الإمبراطورى . ألا تبا للسلطة ومظاهر العظمة " .

" لا تفكروا فى العروش ولا الممالك ومِثْل ذلك من متاع الدنيا ودعونا نشرع فى ترتيب مراسيم الجنازة ".

ولست مبالغة فى أنى (أنا أنًا كومنينا) قد شاركتها الولولة والعويل ناسية كل شىء سوى البكاء ..

لقد كانت النساء تقطعن شعورهن وتصرخن صرخات الألم الحاد .

لكنا استطعنا أن نعيد أمى إلى شعورها لأن الإمبراطور كان لا يزال به رمق من الحياة ولكنه كان فى صراع مع الموت ، وحينذاك ألقت الإمبراطورة نفسها على الأرض إلى جوار رأسه وهى لا تزال متدثرة بثيابها (الملكية) ومنتعلة خفيها المصبوغين باللون القرمزى ، ولكنها كانت فى شدة الأسى وعاجزة عن تحمل الحزن الذى يحرق روحها .

وعاد بعض المطببين وانتظروا قليلا وعرفوا أن نبض الإمبراطور قد توقف وأن ضربات قلبه قد سكتت ، لكنهم أخذوا يهمهمون بكلمات عن الأزمة وإن ارتسم على وجوههم ما يشير إلى أن الأمل فى حياته لا زال يراودهم وقد فعلوا ذلك عن قصد لأنهم كانوا يدركون أن موت الإمبراطور معناه موت الإمبراطورة هى الأخرى.

إن هذه المرأة الذكية لم تعرف أكان حقا ما يقولون فتصدقهم أم كان زعما باطلا فتكذبهم ، ومن ثم أخذت تتفرس فيهم طويلا تفرس النطاسى الحاذق فأدركت صدقهم، ولكنها رفضت أن تصدق أن حياته باتت فى كفة الميزان وفى يد القدر فسكتت عن الكلام وظلت تتطلع نحوى منتظرة أن تتم المعجزة على يدى ، وكان ذلك دأبها معى فى الأزمات الأخرى ، وكانت تأمل أن أزجى لها نبوءة كنبوءة أبولو . وكانت حبيبتى مريم وأحب أخواتى إلى قلبى تقف حينذاك بينها وبين الإمبراطور ، وكانت أكمام ثوبها تحول من آونة لأخرى بين " إيرين" وبين النظر مباشرة إلى ألكسيوس . أمّا أنا فقد وضعت يمناى على صدره أتحسس نبضات قلبه .

أما هى فكانت تضع يديها كثيرا على صدرها وهى تتوقع أن ترغمها الظروف على تبديل ملابسها فمنعتها من ذلك حيث أحسست بنبض قليل فقويت بذلك عزيمتها ، غير أنى كنت واهمة لأن نبضه كان واهيا خافتا شديد الخفوت يحدث عند بذل الجهد الكبير فى التنفس لأن عمل الشريان والرئة يتوقف عن أداء هذه الحركة ، فتركت يد الإمبراطور ثم عدت فأمسكت ثانية بمعصمه ، وظلت هى تلح على أن أفضى إليها بحقيقة نبضه فلما قسته مرة أخرى أدركت أن قد همدت قوته تماما وأن دورة الدم فى عروقه قد توقفت نهائيا وحينذاك استدرت خارجة وقد بلغ الإعياء منى مبلغه وسرت البرودة فى عروقى ونكست رأسى وأخفيت عينى الاثنتين بكفى ، وخطوت إلى الوراء دون أن أنبس ببنت شفة ، ثم استخرطت فى البكاء . وإذ ذاك أدركت الإمبراطورة إيرين حقيقة الواقع فأطلقت فجأة صرخة حادة وصلت إلى مدى بعيد .

لكن كيف يتسنى لى أن أصف الكارثة التى حلت بالدنيا كلها ، وكيف أستطيع أن أندب نصيبى الخاص من هذه الكارثة ؟

لقد نحّت أمي الإمبراطورة حجابها جانبا وراحت تحلق بموسى شعرها الجميل حتى ظهر جلد رأسها، وطوحت بعيدا عنها الحذاء الأرجواني الذى كانت تضعه فى قدميها وبعثت فى طلب خف عادى أسود اللون ، لكنها لما أرادت أن تستبدل ثوبها الأرجواني بثوب أسود لم تجد ما تنشده. غير أنه كان لأختى الثالثة ثياب تصلح لمثل هذه اللحظة منذ أن ترملت قبل ذلك بزمن طويل فعرضت الثياب على أمها فقبلتها وأسدلت على رأسها حجابا بسيطا أسود.

لقد حدث فى هذه اللحظة أن أسلم الإمبراطور روحه الطاهرة للرب فغربت شمسى أنا بموته ، أما غيرنا فقد راحوا يندبونه ويضربون صدورهم بأكفهم، وتعالى صريخهم وكانوا يبكون فيه ولى نعمتهم والمحسن إليهم الذى كان أبا لهم جميعا وكانوا لا يمسكون عن العويل عليه .

وإننى لا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أعرف إنْ كنت لا أزال أحبه فأدوّن خبر موته ، كما أنى أتحسس عينى لأدرك إذا كان ما أقصه هنا حقيقة وليس حلما، فإن لم يكن حلما فما أحسبه إلا شبحا تراءى لى ، وما أرانى إلاّ مجنونة وضحية هلوسة مخيفة بالغة الغرابة إذ كيف لا أزال حية بينما هو فى الموتى ؟!

ترى لماذا لم أسلم أنا الأخرى الروح وأموت معه ؟

لماذا لم أقع فى غيبوبة لا أصحو منها فأكون من الهلكى ؟

لئن لم يكن ذلك من الأمور المستطاعة فما هذا الذى كان يمنعنى من أن أقذف بنفسى من مكان شاهق فأهوى إلى قاعٍ سحيق ؟ أو لماذا لم أطوح بنفسى فى البحر فتطوينى أمواجه ؟

لقد سجلت حياتى بكل ما اكتنفها من المصائب الكبيرة ولكنى كنت كما يقول الكاتب المسرحى: " لا يوجد ثم ألم أو كارثة رمت بها السماء إلاّ واستطعت تحمل ثقلها"، ذلك لأن الرب قد ابتلانى بالبلايا الجسام حين فقدت سراج الدنيا الوهاج وهو ألكسيوس العظيم الذى لا مراء فى أن روحه كانت أقوى من جسده الضعيف المعذب ، ثم بُلِيتُ بانطفاء شعلة أخرى وهاجة كانت تُضِيء لى الدنيا وتبدد دياجير الظلمة كما

كانت بدرا يضيء للجميع طريقهم وأعني به الإمبراطورة إيرين التي طابق اسمها معناه فكانت فخر الشرق والغرب على السواء !!

ومع ذلك فإننا لازلنا أحياء نتنسم نسيم الحياة بعد كل تلك المصائب المتراكمة وبعد ذلك الكمّ الضخم من النكبات العاصفة التي داهمتنا، ثم كانت ذروة البلاوى والكوارث وفاة زوجي القيصر .

على هذه الصورة كانت فداحة الأحداث التي عشناها وبلوناها ، ثم ما كادت تنقضي أيام قلائل حتى كانت المصيبة الجلى حيث فشلت جميع جهود الأطباء في علاج أبي فغرقت أنا في اليأس المقيم، ولم يبق غير شيء واحد فقط لا تزال تضيق به أنفاسي ويكاد يقتلها ألا وهو أن روحي لا تزال تتردد في جسدي ، ويخيل إليّ أني خلقت من الصلب ذاته أو من شيء يشبهه ، وأحس بأني غريبة عن نفسي وإلا كنت قد فارقت الحياة منذ زمن بعيد .

لقد مِتُّ ألف مرة وأنا حية.

وهناك أسطورة عجيبة عن " نيوبي" الشهيرة من أنها استحالت إلى حجر صوان بسبب حزنها الذي لم يبارحها حتى استحالت إلى جماد لا يحس ولا يشعر، أمّا أنا فقد كانت فجيعتي أفدح من فديحة " نيوبي" هذه لأني مازلت حية أقاسي الآلام ، ولكمْ وددت لو أني استحلت إلى صخر لا يحس ولا يدرك بدلا من أن أظل كائنا حيا أنزف الدمع .

إن احتمالي هذه الأخطار واحتمالي معاملة الناس لي معاملة لا تطاق في القصر إنما هي حياة أشد هولا من متاعب " نيوبي" فقد استشرى الشر وبلغ غايته بعد موت الإمبراطور .

إنْ ما ترتب على هذه الأحداث من الحزن كان كافيا لتمزيقي جسدا وروحا، لكن ما أشبهني بالأنهار التي تتدفق من أعالي الجبال الشاهقة ولكنها كلها روافد كراهية ، ثم تتلاقى وتتجمع ليغرق فيضانها بيتي.

ألاَ فليكن ذلك ختام تاريخي هذا؛ لأني لو استطردت في تدوين الأحداث لازداد حزني مرارة .

الحواشى

(١) آثرت ترجمة كلمة galley بالغليون وهو مركب كبير ضخم المقدمة والمؤخرة كما جاء فى كتاب الحضارة البيزنطية لرانسمان ترجمة جاويد ، ص ١٨١ ، على النخيلى فى معجم السفن يرجح أن تترجم بالشينى وهى طريدة مفتوحة المؤخرة، ويصفها آخر بما يدل على ضخامتها حتى لكأنها مدينة عائمة وتوصف بأنها مجهزة بما تقاتل به .

(٢) خلت نسخة دوس من سؤال الإمبراطورة للقائم بحراسة المخدع الإمبراطورى كما هو وارد بالمتن .

(٣) كانت على مقربة من أحد المعابد .

(٤) فراغ فى الأصلين الإنجليزيين .

(٥) جاء فى نسخة إليزابيث قولها: (لا يظن أحد حينما يسمع هذا الاسم إنه هو النصب متبربر stipieta .

(٦) فراغ فى نسخة إليزابيث .

(٧) جاء بعد فراغ لم تتداركه المؤلفة .

(٨) ذكرت سوتير أن نسخة ألكسياد التى ترجمت منها أوردت هذا المكان باسم kedrea وأما الصواب فيها فهو kedres ومن هذه الإشارة نستدل على أن نسخة ألكسياد التى استعملتها دوس كانت صحيحة .

(٩) هو ميخائيل بريتزس Brutses الذى اشتهر فى النصف الثانى من القرن العاشر .

(١٠) المقصود بها بلاد دانشمند .

(١١) أى معسكر بوداس .

(١٢) يرى سوتير أن ورود كلمة " ميخائيل " فى هذا الموضع بالذات موضع شك .

(١٣) يقصد بذلك الأتراك السلاجقة .

(١٤) " حسن" هو ، الشخص الذى سمته أنا من قبل باسم قلج أرسلان . هكذا قال سوتير فى حاشية له .

(١٥) تريد المؤلفة بهذه العبارة أن تقول أنهم قوم مكابرون يصمّون آذانهم عن سماع النصيحة .

(١٦) الترجمة الواردة أعلاه قائمة على ما جاء فى نسخة سوتير .

(١٧) جاءت هذه العبارة فى إليزابيث على الصورة التالية: " كان الخبز هو كل ما يعيش عليه الإنسان" .

(١٨) هذه إشارة إلى ما جاء فى الإنجيل من إطعام المسيح لخمسة آلاف شخص مما عُدّ معجزة له .

(١٩) هذه إشارة إلى ما ورد فى إنجيل مرقس ٢/٩ .

(٢٠) فراغ فى الترجمتين الإنجليزيتين .

(٢١) علقت نسخة سوتير على هذا الكلام بأن فيه خطأ وقالت إن الصحيح أن يقال إيثوليا .

(٢٢) لعل المؤلفة تقصد لعب الميسر .

(٢٣) فراغ فى الترجمتين الإنجليزيتين .

(٢٤) نسبة إلى الحواريين وقد ورد وصفهم فى هذه الترجمة العربية بكلمة " الرسل " .

(٢٥) فى إليزابيث " حليق اللحية " .

(٢٦) هو نيكولاس الثالث بطرك القسطنطينية من ١٠٨٤ إلى ١١١١م. وقد أخذ عليه أنه تابع الإمبراطور فى محاولة التوحيد بين الكنيستين. انظر عنه معجم تراجم بيزانطة ، ترجمة حسن حبشى .

(٢٧) فراغ فى الأصل اليونانى ولذلك ترك مكانه فى كل من الترجمتين الإنجليزتين .

(٢٨) وردت هكذا فى ترجمة سوتير .

(٢٩) هذه إشارة إلى ما جاء فى سفر دانيال ٢٠/٣ .

(٣٠) المزامير ٧/٩١ - ٨ .

(٣١) راجع عن يوحنا " الشمليشبق " (٧٦٩ - ٧٧٦م) معجم تراجم بيزنطية .

(٣٢) تشير ترجمة سوتير إلى أن مخطوطة ألكسياد التى ترجمت عنها تبدأ فيها من هنا كثرة الفراغات والاضطرابات .

(٣٣) هى الأميرة يودوكيا ثالث بنات الإمبراطور ألكسيوس الأول .

(٣٤) هى مارى أو مارية أخت المؤلفة وقد خطبت أولاً لجريجورى جبراس لكنها تزوجت من نقفور بن قسطنطين كاتاكالون ، انظر معجم التراجم البيزنيطية ، ترجمة حسن حبشى .

(٣٥) المزامير ٤/١٨ .

(٣٦) تحاول أنا كومنينا فى هذه العبارة التى تتعرض لأخيها فى أنه أسرع إلى القصر ليضمن وجوده به قبل أن تنتقل الأمور إلى أيد غير يده وقبل أن يعلم الناس بخبر موت أبيه ...

(٣٧) يشير سوتير فى هذا الموضع إلى أن الترجمة التى اتخذها أساساً لترجمته للأكسياد يعتريها نقص كبير .

المؤلفة فى سطور

أنَّا كومنينا (١٠٨٣ - ١١٤٨م)

أميرة ومؤرخة بيزنطية ، وابنة الإمبراطور ألكسيوس الأول ، تآمرت خلال حكم أبيها وبعده على أخيها حنا الثانى بقصد إيصال زوجها نقفور برينيوس إلى العرش ، وقد اكتشفت مؤامرتها ، ولكن عفى عنها ودخلت أحد الأديرة ؛ حيث ألَّفت « ألكسياد » ، وقد فرغت منه عام ١١٤٨م .

المترجم في سطور

أ . د. حسن حبشي

ولد في ٢١ مارس ١٩١٥ ، وحصل على ليسانس الآداب في التاريخ من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٤ ، ودكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن سنة ١٩٥٥ ، وتدرج في السلك الجامعي إلى أن أصبح أستاذًا لكرسي التاريخ الإسلامي وتاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٩ ، كما شغل منصب المستشار الثقافي لمصر في باكستان ، وعمل أستاذًا بعدد من الجامعات العربية ، وأشرف على عشرات الرسائل الجامعية في تخصص التاريخ الإسلامي وتاريخ العصور الوسطى ، وهو عضو بلجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وعضو بلجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة ، وله عشرات الأبحاث والمؤلفات في التاريخ والحضارة ، كما ترجم العديد من الكتب عن الإنجليزية والفرنسية القديمة ولاتينية العصور الوسطى ، وقام بتحقيق العديد من كتب التراث العربي خاصة المؤلفات التاريخية التي ترجع إلى القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	ت: بإشراف أحمد عتمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم

٣٨	نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دي ثرباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعي
٩٨	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١	النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣	قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقي	سيدريك ثورب ديفي	ت : سمحة الخولي
١٢٦	فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيفال	ريشارد فاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣	قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : علي عبدالرءوف البمبي
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوي
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم منوفي
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي

١٥٣	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦	المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مي التلمساني
١٥٧	خسرو وشيرين	النظامي الكنوجي	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩	الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠	آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠	الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١	وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢	حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩	حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	ألفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغي	ت:محمود سلامة علاوي
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت: جلال السعيد الحفناوي
١٩٨	الاتصال الجماهيري	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوي	ت: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت: فخري لبيب
٢٠١	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصاري
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	ت: جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدي
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت: علي يوسف علي
٢٠٧	ليل أفريقي	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوي	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فرديناند دوسوسير	جوناثان كللر	ت: محمود حمدي عبد الغني
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد علي الناصري
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	ت: محمد محمود محي الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	ت: محمود سلامة علاوي
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوي
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: علي إبراهيم منوفي
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية في الكون	باري باركر	ت: علي يوسف علي
٢٢١	شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	ت: رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراي	ت: نسيم مجلي
٢٢٣	العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادي
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد علي البربري
٢٢٧	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركي	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمري
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمي

٢٣١ الدرافيل — خايمى سالوم بيدال — ت: جمال عبدالرحمن
٢٣٢ ما بعد المعلومات — توم ستينر — ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ فكرة الاضمحلال — أرثر هومان — ت: طلعت الشايب
٢٣٤ الإسلام فى السودان — ج. سبنسر تريمنجهام — ت: فؤاد محمد عكود
٢٣٥ ديوان شمس تبريزى (جـ١) — مولانا جلال الدين الرومى — ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ الولاية — ميشيل تود — ت: أحمد الطيب
٢٣٧ مصر أرض الوادى — روبين فيدين — ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨ العولمة والتحرير — الانكتاد — ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ العربى فى الأدب الإسرائيلى — جيلادافر – رابوخ — ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ الإسلام والغرب وإمكانية الحوار — كامى حافظ — ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١ فى انتظار البرابرة — ج . م كويتز — ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢ سبعة أنماط من الغموض — وليام إمبسون — ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) — ليفى بروفنسال — ت: على عبدالرءوف البمبى
٢٤٤ الغليان — لاورا إسكيبيل — ت: نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ نساء مقاتلات — إليزابيتا آديس — ت: توفيق على منصور
٢٤٦ مختارات قصصية — جابرييل جارثيا ماركث — ت: على إبراهيم منوفى
٢٤٧ الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر — والتر إرمبريست — ت: محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨ حقول عدن الخضراء — أنطونيو جالا — ت: عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩ لغة التمزق — دراجو شتامبوك — ت: رفعت سلام
٢٥٠ علم اجتماع العلوم — دومنيك فينيك — ت: ماجدة محسن أباظة
٢٥١ موسوعة علم الاجتماع (جـ٢) — جوردن مارشال — ت: بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢ رائدات الحركة النسوية المصرية — مارجو بدران — ت: على بدران
٢٥٣ تاريخ مصر الفاطمية — ل. أ. سيمينوفا — ت: حسن بيومى
٢٥٤ الفلسفة — ديف روبنسون وجودى جروفز — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ أفلاطون — ديف روبنسون وجودى جروفز — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦ ديكارت — ديف روبنسون وكريس جرات — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ تاريخ الفلسفة الحديثة — وليم كلى رايت — ت: محمود سيد أحمد
٢٥٨ الفجر — سير أنجوس فريزر — ت: عُبادة كُحيلة
٢٥٩ مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور — اقلام مختلفة — ت: فاروجان كازانجيان
٢٦٠ موسوعة علم الاجتماع (جـ٣) — جوردن مارشال — ت بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١ رحلة فى فكر زكى نجيب محمود — زكى نجيب محمود — ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ مدينة المعجزات — إدوارد مندوثا — ت: محمد أبو العطا
٢٦٣ الكشف عن حافة الزمن — چون جريبين — ت: على يوسف على
٢٦٤ إبداعات شعرية مترجمة — هوراس وشلى — ت: لويس عوض
٢٦٥ روايات مترجمة — أوسكار وايلد وصموئيل جونسون — ت: لويس عوض
٢٦٦ مدير المدرسة — جلال آل أحمد — ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧ فن الرواية — ميلان كونديرا — ت: بدر الدين عرودكى
٢٦٨ ديوان شمس تبريزى (جـ٢) — مولانا جلال الدين الرومى — ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١) — وليم جيفور بالجريف — ت: صبرى محمد حسن

٢٧٠	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفورد بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤	السيدة باربارا	روميلو جلاجوس	ت: محمود على مكى
٢٧٥	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦	فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧	الچينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨	البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣	السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وآخرون
٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤	فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦	مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور
٢٩٨	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤	ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥	الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧	الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨	علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩	الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠	يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣	أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤	الفن كعدم	جينس مينيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧	بلا غد	شير لايموفا– زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليبناور	ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤	اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥	عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	ت: توفيق على منصور
٣٢٨	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم منوفى
٣٣٣	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس
٣٣٤	لقطات من المستقبل	أرثر.س كلارك	ت: مصطفى فهمى
٣٣٥	عصر الشك	ناتالى ساروت	ت: فتحى العشرى
٣٣٦	متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت: فخرى لبيب
٣٤١	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمى
٣٤٢	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦	سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى
٣٤٧	الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت: بكر الحلو

٣٤٨	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلي	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	ت: أحمد عمر شاهين
٣٥٠	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت: عطية شحاتة
٣٥١	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصاري
٣٥٢	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت: نعيم عطية
٣٥٣	الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت: علي إبراهيم منوفي
٣٥٤	الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت: علي إبراهيم منوفي
٣٥٥	التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت: محمود سلامة علاوي
٣٥٦	الميراث المر	بول سالم	ت: بدر الرفاعي
٣٥٧	متون هيرميس	نصوص قديمة	ت: عمر الفاروق عمر
٣٥٨	أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت: مصطفى حجازي السيد
٣٥٩	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت: حبيب الشاروني
٣٦٠	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت: ليلى الشربيني
٣٦١	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢	تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	ت: سيد أحمد فتح الله
٣٦٣	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	ت: صبري محمد حسن
٣٦٤	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت: نجلاء أبو عجاج
٣٦٥	سأم باريس	شارل بودلير	ت: محمد أحمد حمد
٣٦٦	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت: مصطفى محمود محمد
٣٦٧	القلم الجريء	نخبة	ت: البرّاق عبدالهادي رضا
٣٦٨	المصطلح السردي	جيرالد برنس	ت: عابد خزندار
٣٦٩	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	ت: فوزية العشماوي
٣٧٠	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت: فاطمة عبدالله محمود
٣٧١	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلي	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢	عاش الشباب	وانغ مينغ	ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت: علي إبراهيم منوفي
٣٧٤	اليوم السادس	أندريه شديد	ت: حمادة إبراهيم
٣٧٥	الخلود	ميلان كونديرا	ت: خالد أبو اليزيد
٣٧٦	الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت: إدوار الخراط
٣٧٧	تاريخ الأدب في إيران (جـ٤)	علي أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨	المسافر	محمد إقبال	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩	ملك في الحديقة	سنيل باث	ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت: أحمد محمد نادي
٣٨٣	هدية الحجاز	محمد إقبال	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤	القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت: إيزابيل كمال
٣٨٥	مشتري العشق	محمد علي بهزادراد	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦	دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي	جانيت تود	ت: ريهام حسين إبراهيم

٣٨٧	أغنيات وسوناتات	چون دن	ت: بهاء چاهين
٣٨٨	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٨٩	من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٣٩١	الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٣٩٢	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: زينب محمود الخضيرى
٣٩٤	القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٣٩٥	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٣٩٦	السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٣٩٧	نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨	سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩	كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠	مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١	الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣	ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥	إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال عبد الرحمن
٤٠٧	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩	انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة
٤١٠	خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠	مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١	الولاء والقيادة	رؤى متحدة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمويد سلامة علاوى

٤٢٦	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧	بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨	الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢	ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤	الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩	موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤١	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣	اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩	الحركة النسائية	نخبة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناتزى وأوسكار زاريت	ت: محيى الدين مزيد
٤٥٣	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦	لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨	الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣	الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤	ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة إبراهيم المنيف

	العنوان	المؤلف	المترجم
٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعي
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧	التفكير السياسي	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصاري
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدي عبدالرازق
٤٧٠	الأراضي والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد النتة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتي (القسم الأول)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتي (القسم الثاني)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عناني
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلاني
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لي شي دونج	ت: عبد العزيز حمدي
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدي
٤٨٠	تساي ون جي (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدي
٤٨١	عباءة النبي	روي متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامي
٤٨٤	جمالية التلقي	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوي	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغني رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادي	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذي كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	ت: محمود رجب
٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادري	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقي	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد علي مؤسس مصر الحديثة	جي فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج في النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفي
٤٩٥	اللوبي	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصري
٤٩٦	الحكم والسياسة في أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولي	ت: نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة في الشرق الأوسط	نادية العليّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد علي بدوي
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠	في طفولتي (دراسة في السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكي	ت: طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء في الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم

٥٠٤ كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥ كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦ ربما كان قديساً	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧ سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقى فهيم
٥٠٨ المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩ الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠ الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت: عبدالرازق عيد
٥١١ كوكب مرقّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢ كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣ العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت: فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون وودونا باوندى	ت: صبرى محمد حسن
٥١٧ نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩ محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠ الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان
٥٢١ قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢ إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٣ الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٤ الملك لير	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦ علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت: محيى الدين مزيد
٥٢٧ كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت: جمال الجزيرى
٥٢٨ تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	ت: جمال الجزيرى
٥٢٩ بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١ ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	ت: صفاء فتحى
٥٣٢ المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	ت: بشير السباعى
٥٣٣ تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت: محمد الشرقاوى
٥٣٤ الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	ت: حمادة إبراهيم
٥٣٥ مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت: عبدالعزيز بقوش
٥٣٦ الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت: شوقى جلال
٥٣٧ للحب والحرية	نخبة	ت: عبدالغفار مكاوى
٥٣٨ النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	ت: محمد الحديدى
٥٣٩ خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت: محسن مصيلحى
٥٤٠ توجهات بريطانية - شرقية	السير روناند ستورس	ت: رءوف عباس
٥٤١ هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت: مروة رزق
٥٤٢ قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	ت: نعيم عطية

٥٤٣	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت: وفاء عبدالقادر
٥٤٤	ميلاني كلاين	نخبة	ت: حمدى الجابرى
٥٤٥	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت: عزت عامر
٥٤٦	ريموس	ت. ب. وايزمان	ت: توفيق على منصور
٥٤٧	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت: جمال الجزيرى
٥٤٨	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت: حمدى الجابرى
٥٤٩	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت: جمال الجزيرى
٥٥٠	شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت: حمدى الجابرى
٥٥١	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت: سمحة الخولى
٥٥٢	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت: على عبد الروف البمبى
٥٥٣	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت: رجاء ياقوت
٥٥٤	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت: عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت: أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦	جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت: حمدى الجابرى
٥٥٧	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارووبورين فان لون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩	الماس الزائف	تشا تشاجى	ت: عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠	صلصلة الجرس	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦١	جناح جبريل	محمد إقبال	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢	بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت: عزت عامر
٥٦٣	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٤	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	ت: صبرى محمدى التهامى
٥٦٥	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	ت: أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦	تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت: على السيد على
٥٦٧	الوطن المغتصب	مايكل رايس	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	ت: عبد السلام حيدر
٥٦٩	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ت: ثائر ديب
٥٧٠	دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	ت: يوسف الشارونى
٥٧١	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	ت: السيد عبد الظاهر
٥٧٢	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	ت: كمال السيد
٥٧٣	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	ت: جمال الجزيرى
٥٧٤	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	ت: علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	ت: أحمد محمود
٥٧٦	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ت: ناهد العشرى محمد
٥٧٧	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	ت: محمد قدرى عمارة
٥٧٨	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	ت: محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩	تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	ت: محى الدين مزيد
٥٨٠	دائرة المعارف الدولية	جون فيزر وبول سيترجز	ت: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	ت: سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٢	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣	الجيران	أحمد محمود	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤	سفر	محمود دولت أبادى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥	الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	ت: سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	ت: سهام عبد السلام
٥٨٧	تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	ت: عبدالعزيز حمدى
٥٨٨	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ت: ماهر جويجاتى
٥٨٩	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	ت: محمود مهدى عبدالله
٥٩١	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	ت: على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢	الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	ت: مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣	قصائد ساحرة	بول فاليرى	ت: بكر الحلو
٥٩٤	القلب السمين	سوزانا تامارو	ت: أمانى فوزى
٥٩٥	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	ت: نخبة
٥٩٦	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وأخرون	ت: إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	ت: جمال عبدالرحمن
٥٩٨	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	ت: بيومى على قنديل
٥٩٩	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	ت: محمود سلامة علاوى
٦٠٠	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	ت: مدحت طه
٦٠١	النسوية والمواطنة	ريان فوت	ت: أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	ت: إيمان عبدالعزيز
٦٠٣	النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	ت: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤	الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. أبوت	ت: توفيق على منصور
٦٠٥	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	ت: محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	ت: صبرى محمد حسن
٦٠٨	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاردى سينت فيلبى	ت:صبرى محمد حسن
٦٠٩	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	ت: شوقى جلال
٦١٠	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	ت: على إبراهيم منوفى
٦١١	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	ت: فخرى صالح
٦١٢	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	ت: محمد محمد يونس
٦١٣	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	ت: محمد فريد حجاب
٦١٤	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	ت: منى قطان
٦١٥	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	ت: محمد رفعت عواد
٦١٦	أساطير بيضاء	روبرت يانج	ت: أحمد محمود
٦١٧	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	ت: أحمد محمود
٦١٨	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	ت: جلال البنا
٦١٩	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	ت: عايدة الباجورى
٦٢٠	السلام الصليبى	توماش ماستناك	ت: بشير السباعى

٦٢١	النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. أدمز	ت: فؤاد عكود
٦٢٢	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	ت: أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	ت: يوسف عبدالفتاح
٦٢٤	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق
٦٢٥	الجرح السرى	جان جينيه	ت: محمد برادة
٦٢٦	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	ت: توفيق على منصور
٦٢٧	حكايات إيرانية	نخبة	ت: عبدالوهاب علوب
٦٢٨	أصل الأنواع	تشارلس داروين	ت: مجدى محمود المليجى
٦٢٩	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	ت: عزة الخميسى
٦٣٠	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	ت: صبرى محمد حسن
٦٣١	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	ت بإشراف: حسن طلب
٦٣٢	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دوارورس برامون	ت: رانيا محمد
٦٣٣	الحب وفنونه	نخبة	ت: حمادة إبراهيم
٦٣٤	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	ت: مصطفى البهنساوى
٦٣٥	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	ت: سمير كريم
٦٣٦	حج يولندة	جناب شهاب الدين	ت: سامية محمد جلال
٦٣٧	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	ت: بدر الرفاعى
٦٣٨	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	ت: فؤاد عبد المطلب
٦٣٩	فندق الأرق	تشارلز سيميك	ت: أحمد شافعى
٦٤٠	الكمياد	الأميرة أناكومنينا	ت: حسن حبشى



طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣١٥٦ / ٢٠٠٤



The Alexiad

Anna Comnena



يزودنا هذا الكتاب بصور شتى وأخبار جمة عن كثير من القوى ومراكز الثقل الدينية والعقائدية والمذاهب والطوائف والملل والشعوب التى احتكّت بها الإمبراطورية البيزنطية إنْ سلمًا وإن حربًا. ولا شك أن فريقًا كبيرًا ممن تطالعنا أسماؤهم هم من جماعات الأكليروس ورجال الدين المسيحى والرهبان ورجال السياسة، ولعل أشد ما يجذب الأنظار من رجال الفريق الأول هم البابوات فى روما، لكن يلاحظ أن «أنّا كومنينا» لم تُسَمِّ أحدًا من البابوات باسمه، وإن كنا نستطيع أن نعرف من تقصده منهم، ونفسر هذا بكراهيتها للكنيسة الغربية ورجالها، وهى كراهية نشأت منذ القرن الرابع للميلاد حين لم يعد سرًا ما هو واقع بين الكنيستين الشرقية والغربية من إحَن ومنازعات ثم زادت حدتها بانشقاق ١٠٥٤م الذى سبق مولد مؤلفتنا بما يقرب من خمسين سنةً، وتتجلى هذه الروح من البغضاء حين تصف الجالس على كرسى بطرس (وهو جريجورى السابع) بما يقدح فى مصداقيته حتى لتعده «أنّا كومنينا» متبربرًا، وترميه بالطبع الذى لا ينبغى أن يكون فيمن هو فى مثل مكانته ووضعه الدينى، والذى يجعله فى مرتبة «الحاكم الدنيوى»؛ فهى لا تتورع عن اتهامه بسطحية التفكير والسذاجة؛ إذ يصدق زعم النرمنديين بأن ألكسيوس يصطنع «الوثنيين» فى محاربة المسيحيين.

تصميم: وائل أحمد




Exclusive
For
www.ibtesama.com